خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة
تغمده الله برحمته

عني بهذه الطبعة خادم العلم الشريف

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

طبع على نفقة
إدارة احياء التراث الإسلامي
في دولة قطر

مكتبة الأنصاري
الرقم العام : ١٧٧١
الرقم الفني ٢١٩/م ز ع
تاريخ الورود : ٧/٥/١٤٠٨هـ

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري العامة
الرقم العام : ٣٣٣ ع
رقم التصنيف : ٢١٩ زم خ

خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم

القسم الثاني (العهد المدني)

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام :
رقم التصنيف :

تأليف
صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة
تغمده الله برحمته

٢١٩
زم ع

عني بهذه الطبعة خادم العلم الشريف
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

٥٧٩

طبع على نفقة
ادارة احياء التراث الاسلامي
في دولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا هداه .

أما بعد فهذا هو القسم الثاني « العهد المدني » من السيرة الطاهرة سيرة خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويبدأ هذا القسم من وصول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المدينة المنورة التي اختارها الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم نقطة انطلاق للدعوة إلى الاسلام ولعباده المؤمنين الذين استضعفوا في الأرض ثم مكن الله تعالى لهم فيها وصاروا الأئمة والهداة ، وبدلهم بها من بعد ضعفهم قوة ومن بعد خوفهم أمناً ، وقد أذن فيها بالجهاد وتعددت ضروبه من جهاد للنفس إلى جهاد للشرك ، وجهاد لليهود ، وجهاد للنفاق وجعل الله تعالى كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وتنتهي بانتهاء هذا القسم سيرة خاتم النبيين ، والله تعالى هو الموفق والهادي إلى الطيب من القول وإلى الصراط المستقيم ، تغمد الله المؤلف « فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة » برحمته وجعل هذا الكتاب في ميزان حسناته وكتب به النفع ، وأثاب من قام بنشره وطبعه . وكتب الأجر لكل من قرأه وتأمل معانيه .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

٣٣٦ – استمـــر الركب المبارك محمد وصاحبه سائرا في طريق وعر في وعثاء الصحراء • وقد استطال فرارا من الطلب، وآيات الله تتبعها آية آية وكثرت في الطريق ، وتوالت ، ليعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالواقع أنه تعالى معه ، حيث حل ، وحيث ارتحل ، كما علم من قبل بعين الايمان ، اذ قال لصاحبه وهو بالغار لا تحزن ان الله معنا • فأراه الله تعالى الآيات في رحلته، كما أراه الآيات في نبوته •

وقد انتهت شدة الرحلة بالوصول الى قباء ، حيث المنعــة والنصرة ، وحيث لقاء أهل الايمان الذين كانوا يترقبون شخصه ، ويستشرفون لحلوله بينهم ،

يقرر ابن اسحاق بسنده في هذا عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعــدة ، قال : حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة وتوقعنــا قدومه ، كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ننظر رسول الله صــلى الله تعالى عليــه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تعلينا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك في أيام حارة، حتى اذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جلسنــا كما كنا نجلس حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا •• وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فــكان أول من رآه رجل يهودي ، وقـــد رأى ما كنا نصنع ، وأن ننتظر قدوم رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم – علينا ، فصرخ بأعـــلى صــــوته يا بني قيلة (الانصار) هذا جدكم قد جاء فخرجنا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو في ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وركبه الناس (أي) ازدحموا عليه وما يعرفونه من أبي بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام أبو بكر ، فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك •

نزل رسول الله صلى الله تعالى عليــه وســـلم ، فيمـــا يذكر علماء السيرة الطاهرة على كلثوم بن هندم ، وبعض العلماء يقول انه نزل عند سعـــد ابن

خيثمة ، وقد وفق ابن اسحاق وغيره بين الخبرين ، فقال انه صلى الله تعالى عليه وسلم نزل عند كلثوم ، ولكنه كان اذا خرج الناس وجلسوا اليه ، كان ذلك في بيت سعد .

ولقد جاءت عبارات تفيد أنه كان يختار الجلوس في بيت سعد ، لانه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزله منزل الاعزاب من المهاجرين .

ونزل صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر على خبيب ابن أساف .

وفي قباء التقى علي بن أبي طالب برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذ أنه مكث ثلاث ليال وأيامها بمكة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرد الودائع ، ثم أخذ سمته الى يثرب ،وكأنه أقام في مكة بعد الرسول عليه السلام المدة التي مكثها النبي وصاحبه في الغار ، اذ أنهما مكثا في الغار ثلاث ليال .

ونزل علي كرم الله وجهه في المنزل الذي نزل فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو منزل كلثوم بن هند ،ويظهر أن حضوره الى قباء كان بعد حضور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بليلة على الاقل ، لانه أقام بقباء ليلة أو ليلتين ، وقد ذكر ابن اسحاق أنه أقام في قباء أربعة أيام بلياليها ، فذكر أنه أقام يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس ، وفي هذه المدة التي أقامها بقباء أنشأ مسجدها ، وهو الذي أشار الله تعالى اليه في قوله :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١)

فهو مسجد أسس على التقوى من أول يوم أقام فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جدير بأن يسمى مسجد الهجرة ، وأنه مسجد الذين يحبون أن يتطهروا في عبادتهم غير مرائين ولا منافقين .

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصل في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول ، وكان يوم الاثنين، وقيل في اليوم التالي ، والاول هو الذي يرجحه الرواة .

---

(١) التوبة

٣٣٧ ـ كان دخول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة يوما مباركا على أهل المدينة ، وعلى الاخلاف ، وعلى الخليقة كلها ، لانه اليوم الذي انتقل فيه الاسلام من الدعوة في مكة وماحولها ، غير معلمة بنظام ثابت مقرر عام بل كانت الدعوة في دائرة العقيدة ، وبيانها ، وبيان ما يتعلق بها ، من غير أن تكون نظاما مفروضا يتبع وينفذ ، انتقل الاسلام من ذلك الحيز الى عموم الدعوة فعلا ، للبلاد العربية ، في كل صقع من أصقاعها ، ثم تجاوز حيز العرب ، الى الدول المجاورة ، ومنها انساب الى ما وراءها من اقليم الى اقليم •

ولقد أحس أهل المدينة بما حباهم الله به من فضل ، وبما اختص المدينة من شرف ، اذ صارت موطن الايواء والنصرة أولا ، وموطن النظام الاسلامي ثانيا ، والمكان الذي يأرز اليه الاسلام ثالثا ، وأحست بأن الوثنية آذنت بأفول ، وأن اليهود فيها صاروا لا يتطاولون بعلم علموه ، أو كتاب سبقوهم به •

ولذا خرج الناس مهللين مكبرين بمقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يستقبلون من يرون فيه الهداية فرحين واجدين في مقدمه العزة والكرامة ، والاحلاس والطهر من الوثنية •

روى الشيخان البخاري ومسلم بالسند المتصل عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال : « خرج الناس حين قدمنا المدينة في الطريق ، وعلى البيوت ، والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ، فلما أصبح انطلق ، وذهب حيث أمر » •

وروى البيهقي في دلائل النبوة ، وأبو بكر المقري في الشمائل ، والطبري في الرياض ، عن ابن عائشة ، واسمه عبيد الله بن محمد بن حفص ، وأمه عائشة بنت طلحة ، أنه صعدت ذوات الخدور تعلن تهنئة له حال دخوله :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع(١)

روى هذا الخبر أيضا في سنن الترمذي والنسائي عن السائب بن يزيد ·

هذا استقبال رائع ـ صحبه تكبير أهل المدينة لمقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان هناك استقبال عملي أروع في معناه ، وهو تزاحم أهل كل بطن من بطون الاوس والخزرج ،في أن يأخذ بناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتكون اقامته بينهم ·

جاء رجال من بني سالم ، فقالوا يا رسول الله أقم عندنا فينا العدد والعدة والمنعة ، وأخذوا بزمام الناقة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « خلوا سبيلها فانها مأمورة » ·

وجاء رجال من بني بياضة ، فقالوا يا رسول الله : هلم الينا الى العدد والعدة والمنعة ، قال عليه السلام خلوا سبيلها فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا مرت بدار بني ساعدة ، اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة ، فقالوا : يارسول الله هلم الينا في العدد والمنعة ، فقال عليه السلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه معاذ بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رواحة ، في رجال من بني الحارث بن الخزرج ، فقالوا يا رسول الله هلم الينا الى العدد والعدة ، والمنعة ، فقال عليه السلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى اذا مرت بدار عدي بن النجار اعترض

---

(١) يقول ابن القيم ان هذا الدعاء قيل عند عودة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة تبوك ، ويحذف البيت الأخير من الأبيات الثلاثة ،والسبب فى قوله أنه أرجف المرجفون فى المدينة عن النبى فى غزوة تبوك مما جعل المؤمنين يستبشرون ويفرحون بمجيئه ، فخرج الغلمان والنساء يقولون ، وان ثنية الوداع فى مدخل المدينة من قبل الشام ، لا من قبل مكة ، ويقول فى ذلك ابن القيم : لما دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، وخرج النساء والصبيان والولائد تعلن طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ، وجب الشكر علينا · ما دعا لله داع ، وبعض الرواة يقول : انما كان ذلك عند مقدمة من مكة الى المدينة وهو وهم ظاهر لأن ثنيات الوداع ، انما هى من ناحية الشام ، ولايراها القادم من مكة الى المدينة ولا يمر بها الا اذا توجه الى الشام ·

رجال منهم ، فقالوا يا رسول الله هلم الى اخوالك ، ومعهم أم عبد المطلب جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا هلم الى العدد والعدة ، والمنعة ، فقال عليه السلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ،فخلوا سبيلها •

فانطلقت حتى اذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت ، وكان ذلك عند دار أبي أيوب الانصارى ، ويقول ابن اسحاق لما بركت لم ينزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، حتى وثبت ،فسارت غير بعيد ، ورسول الله ، واضع لها زمامها لايثنيها به ، ثم التفت خلفها،فرجعت الى مبركها أول مرة فبركت فيه ثم نزل عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بنى المسجد ، وبنى له دارا •

٣٣٨ ــ تدل هــذه الاخبار التيسقناها ، على أن الانصار الذين دخـلوا في الاسلام كانوا يرحبون بالنبي صلىالله عليـــه وسـلم في بيوتهم فرادى ، وجماعات ، وأنهم بيوتا وبطونا كانوايستعدون بعددهم ، ويعطون العهـد ، على المنعة والحرب معه ، من غير تحفظولا شرط •

ويظهر أن ذلك كان يثير غضب المشركين فيهم ، وخصوصا الذين صـاروا من بعد منافقين ، يبطنون مالا يظهرون أو يخفون ما لا يبدون ، ولقد روي أنه مامن بأهل بيت الا أعلنوا التأييد وأبدوا الترحيب الا عبد الله ابن أبي الذي صـار من بعد زعيم النفاق في المدينة الطاهرة •

ولقد ذكر موسى بن عقبة أن رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم ، مر فى طـــريقه بعبد الله بن أبي بن سلول ،ينتظر أن يدعوه الى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسهم ، فقال عبد اللهانظر الى الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم لنفر من الانصار ، فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه : لقد منّ الله تعـــالىعلينا بك يا رسول الله ، وانا نريد أن نعقد على رأسه التاج ، ونملكه علينا •

اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم من بعد نزوله في دار أبي أيوب الانصاري الى ثلاثة أمور :

أولها : صلاة الجمعة ، فقد صلاها فيبني سالم بن عمرو بن عوف ، ويظهـر أنه صلاها في أرض فضاء ، لانه لم يكنقد بنى مسجده فيها ، وما دام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد اختارها لاقـامةالجمعة ، فهي مسجد تقام فيه الصلوات، وخصوصا أنه ولي أمر المسلمين •

الأمر الثاني الخطبة ، وقد قالوا انرسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم خطب الجمعة ، وقد روي في نصهـــا روايتان : احداهما ــ رواية بن جرير الطبري ، والخطبة في هذه الرواية طويلة نسبيا ، ورواها البيهقي ، وروايته

اقصر ، ولم ينص على أنها خطبة واحدة، بل روى أخرى بعدها على أنها خطبة أخرى ، ولنذكر الخطب الثلاث، وان كان في بعض رواتها كلام ، ولكنها أشبه بكلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومواعظه الخطبة التي رواها ابن جرير ·

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة وقرب من الاجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله ، فانه خير ما أوصي به المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله تعالى فاحذروا ما حذركم لله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى وان تقوى الله تعالى لمن عمل على وجل ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوي بذلك الا وجه الله تعالى يكن له ذكرا في عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم ، وما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك ، فانه يقول تعالى :

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ (١)

واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فانه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيما ·

وان تقوى الله تعالى توقي مقته وتوقي سخطه، وان تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب ، وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ، وليعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله تعالى اليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من

---

(١) ق

حيي عن بينة،ولا قوة الا بالله ، فأكثروامن ذكر الله ، واعملوا لما بعـد الموت فانه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيهما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملكمن الناس ، ولا يملكون منه ، الله أكبر، ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

هذه الخطبة كما رواها ابن جرير ،ولولا أن الحـافظ ابن كثير رواهـا ما أقدمنا على نقلها ، ولكن قال الحافظ: هكذا أورد ابن جرير ، وفي السند ارسال .

ونحن نقرر ما قررنا أن ما اشتملت عليه أشبه بمواعظ النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن نلاحظ أنهـاأطول من أكثر خطب النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ، ونلاحظ أن فيهـاتكرارا لم يعهد في خطب النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن فيهـا آياتقرآنية من الآيات المدنية ، مما يدل على أنهـا أنزلت بعـد هـذه الخطبة ، والله أعلم .

هذا ما نراه بالنسبة للخطبة التي رواها ابن جرير ، وقـد روى البيهقي خطبتين .

أولاهما ما رواه عن عبد الرحمن بن عوف قال : « كانت أول خطبة خطبها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة أن قام فيهم فحمد الله تعالى ،وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال » :

« أيها الناس قـدموا لانفسكـم ،تعلمن ، والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لهما راع ثم ليقولن له ربهوليس له ترجمان ولا حـاجب يحجبه دونه : ألم يأتـك رسـولي فبلغك ،وآتيتك مالا فأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ، فينظر يمينا وشمالا ، فـلايرى شيئا ، ثم ينظر قدامه ، فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجههمن النار ، ولو بشق تمرة ، فليفعل ، ومن لم يجد فكلمة طيبة ، فان بهـاتجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسـلام عليكم ورحمة اللهوبركاته » .

والثانية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قـال : « ان الحمد لله أحمـده ، وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسناوسيئات أعمالنا من يهد الله ، فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهدأن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ان

أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، واختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، انه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، فانه من يختاره الله ويصطفيه فقد سماه خـــيرته من الاعمال ، وخيرته من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصـــدقوا الله صـــالح ما تقـــولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن ينكث في عهـــده ،والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

وقد قال ابن كثير في رواية هذه الخطبة ان طـريقها مرسلة الا أنهـــا مقوية لما قبلهـــا ، وان اختلفت الالفاظ •

كانت هذه الخطب على ما هي متن أولاها من نقد ، وعلى أنها مرسلة بيـــد أنها في جملتها على منهاج النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم في دعـــوة المؤمنين لتقوية ايمانهم ، وتغذيته بتقـــوى الله تعالى ، كما دلت أقوال النبي قبل الهجرة على منهـــاجه في دعـــوة المشركـــين الى التوحيد •

بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

٣٣٩ ـ هذا هو الامر الثالث الذي ابتدأ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اقامته في المدينة .

لقد ابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد في قباء ، وهو المسجد ، الذي ذكره الله سبحانه وقال فيه :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (١٠٨) (١)

ولما نزل في بيت أبي أيوب اتجه تفكيره الى انشاء مسجد بالمدينة الذي هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال وهي المسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس (المسجد الاقصى) ، وهذا المسجد ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام (مسجدي هذا) .

روي عن ابن شهاب الزهري أنه قال : بركت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في موضع مسجده ، وهو يصلي فيه رجال من المسلمين ، فكان مصلى لهم قبل أن يبني صلى الله تعالى عليه وسلم فيه مسجده .

ولقد كان ذلك الموضع الذي بركت فيه الناقة مربدا لغلامين يتيمين في المدينة من أولاد الانصار ، وكان اليتيمان في كفالة أسعد بن زرارة الذي كان أول داع للاسلام في المدينة قبل هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليها .

ساوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الغلامين ، أو وصيهما ، أو هما بحضرة وصيهما ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، ولكن الرسول أبى الا أن يكون بالثمن ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير .

---

(١) التوبة

وكان قبل شراء رسول الله جدارا لاسقف له ، وكان يصلي فيه ، ويقيم الجماعة والجمعة أسعد بن زرارة ، قبل مقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت قبلته الى بيت المقدس ،التي كانت قبلة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة ٠

وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعل ذلك المصلى مسجده كما أشرنا ٠

وقد جعله صلى الله تعالى عليه وسلم بناء مربعا ، طول كل بعد من أبعاده مائة ذراع ، وقد قال ابن القيم رضي الله عنه ، جعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع ، وتم بناؤه باللبن ،وبعضهم قال ان بعضه كان بالحجر المرصوص ٠

وقد اشترك في بنائه كل من حضر البناء من المهاجرين والانصار ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل في بنائه ، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه ، ويقول راجزا :

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة

ولقد جعلوا يرتجزون ، وينقلون اللبن ويقول بعضهم في رجزه مستحثا الهمم :

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

وجعل عليه السلام قبلته الى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، بابا في مؤخره ، وبابا يقال له باب الرحمة والباب الذي يدخل منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعل عمده بالجذوع ، وذكر السهيلي أنها جذوع نخل ، وسقف بالجريد ، وجعلت قبلته من اللبن ، وقيل من الحجارة منضودة بعضها على بعض ؟

وقد نخرت عمده في خلافة الامام عمر فجردها ، واستبدل بها ، ولما كانت خلافة عثمان ذي النورين رضي الله عنه بناها بالحجارة المنقوشة ، وسقفه بالساج ، وجعل قبلته من الحجارة ،وهذه رواية واحدة ، وفي عهد عبد الملك بن مروان أضيفت حجرات نسائه ، وكانت تسعا ٠

ولما كانت أيام بني العباس ، بناه المهدي ثالث ملوكهم ، ووسعه وزاد فيه، وذلك في سنة ستين ومائة ، ثم زاد فيه عبد الله المأمون ، وأتقن بنيانه .

ونخلص من هذا الى أن سنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بناء مسجده ، ومسجد قباء كانت بأقل كلفة لتشجيع بناء المساجد .

وكما كان مسجده الطاهر الذي هو أحد المساجد التي تشد اليها الرحال كان أيضا مسكنه ، وكانت بيوته عليه السلام تسعا ، بعضها من جريد مطين بالطين ، وسقفها جريد ، وبعضها من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض ، وسقف أيضا بالجريد ، ولم يكن سقفه عاليا .

وكان سريره عليه السلام خشبات مشدودة بالليف ، فهل من معتبر ،فذلك نبي الخليقة ، فهل من الناس من يتسامى الى حياة كحياته !!

إنشاؤه صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام

٣٤٠ ـ هاجر النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ، وخرج من مـــكة ، وهي أحب أرض الله تعالى اليه ، لان بهـا البيت الحرام ، ولانها منزل الوحي ولان بها الاهل والاقربين ، ولان بها مـآثرابراهيم ، ولكنه انتقل مع كل هذا الى المدينة ، وما كان ذلك الا لانه بأمر ربهأنشأ دولة ، ولانه ما جاء لرهبانية أو روحانية مجردة ، أو لتهذيب النفـوسفقط ، بل بعث رحمة للعالمين ، ولابد من أن تقوم دولة تقيم الحق ، وتخفضالباطـــل ، وتمنـع الظلم ، وتجمـع الانسانية ، وتنشر التعاون بين الناس،وتمحو كل الفوارق التي تجعـل بعض بني الانسان يتحكم في الآخر ، وتمنعالفساد في الارض ٠

ولذلك هاجر حيث يستطيع اقامة الدولة المؤمنة التي تتناهى عن الشر ، وتتعاون على الخير ، وكذلك كل رسوليأتي بشريعة تقوم عليها دولة ، كمـا فعل موسى ، اذ خرج من أرض فرعون،لينشىء من قـومه قـوة ترفع الحـق ، وحاول ذلك مع بني اسرائيل ، وحاولأن يربي فيهم روح العزة والـكرامة ، وهما لا يسكنان في قلب الا اذا سـكنمعهما حب الانصاف ، وحب الرحمـــة والمؤاخاة ، والرفق ، فالعزيز الـكريمهو الذي ينصـــف ويرحم ، ويرفق ، واللئيم هو الذى يظلم ، ويشـــق علىالناس ، ولا ينزل بهـــم رحمة ، بـل عداوة وبغضاء ، حاول موسى عليـــهالسلام أن يبث فيهم البأس بعد البؤس والخنوع ، فقالوا له ، وهو يريد بهـمالعزة والدفاع عن أنفسهم ، فقـــالوا اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنـاقاعدون ٠

وعيسى عليه السلام الذي أثر عنهقوله « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، لم يشن حربا ، ولم يقم دولة ،وانءدعا الى الفضيلة والمحبة ، والروحانية فى وسط الغلظة المادية التي آل اليهااليهود ، فكانوا متنابذين مع الانسانية، ولكن خاضعون خانعون للدولة الرومانية ، لا يتمردون ، ولا يلاحون ،ولكن

يرضون بالمنزل الهون»، كما قال تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١)

فعيسى لم يحاول أن يكوّن دولة ، ولكن كان داعي رحمة ومحبة، ورفق ومؤاخاة في قوم غلاظ الرقاب يثيرون العداوة والبغضاء، مع من لا قوة لهم ،ويخضعون في ذلك للقوي ، ويعيشون بالسعاية والافساد .

جاء محمد على فترة من الرسل لاقامة الدولة الفاضلة ، لانه خاتم النبيين، ولانه آخر صرح في بناء النبوة الالهية،فكان لابد من أن تودع رحمته تعالى في جماعة مؤمنة ، وأن تكون هي حاملة تبليغ الرسالة من بعده تقاوم في سبيلها، وتسالم في الدعوة اليها ومد مبادئها ،وتنتقل الرسالة في الاجيال مع هذه الامة التي حملت الامانة ، ومع دولة تحميها .

وان قيام الدولة الفاضلة ، بعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حياته والحواريين من بعده فيه تطبيق عملي للفضيلة والعدالة والمساواة ، واذهاب روح التفاوت والعنصرية وبث الايمان، والفداء ورجاء ما عند الله ويكون ذلك حجة في الارض على الذين يدعون أن قيام دولة فاضلة على مبادىء الاخلاق ليس حلما لا يتأتى تطبيقه ، ولكنه عمل ثبت تحقيقه ، وقامت في الوجود أعلامه ، وأن الذين يفرطون في حقوق الانسانية ، ويسرفون على الناس في ظلمهم زاعمين أن الفضيلة والاخلاق علاقات شخصية ، ولا تصلح أن تكون أساسا للعلاقات الاجتماعية والانسانية عامة .

وان قيام الدولة الاسلامية حجة قائمة على الذين يزعمون أن الدين علاقة بين العبد وربه ، وأنه مقصور على المساجد والكنائس والصوامع لانه لو كان الدين كذلك ما هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا ارتضى البقاء في مكة ، واكتفى أن يطلب من المشركين أن يتركوه وما يعبد ، وأن يتركهم

(١) آل عمران

وما يعبدون ، ولعلهم كانوا يرتضون بذلك ، وخصوصا أنهم كانوا يعلمون فيه الاخلاق الفاضلة والصدق وشرف المحتد ، والنسب الرفيع .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت رسالته أبعد من ذلك أثرا ، وأعم من ذلك عملا ، وانا نقول مقالة الذين يقولون: الدين العلاقة بين العبد وربه، ولكنا نعمم العلاقة بين العبد وربه ،فنجعلها عامة شاملة ، وليست خاصة بالصلاة والصوم ، انما علاقة العبد بربه تقتضي الرحمة بعباده ، والعدل بينهم أيا كان جنسهم ، وأيا كان لونهم،كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء لا يحبه الا لله » وان كل عمل خير فيه صلاح الجماعة من عدل يقام ، وظلم يخفض ، واعلان مساواة ورفق بالناس ، كل هذا عبادة اذا قصد به وجه الله ، ولا يمكن أن يكون مصلح قادرا على الاصلاح ، الا اذا أخلص النية لله تعالى ، وأراد نفع الناس مرضاة لله تعالى العلي القدير،فالذين يفصلون بين عبادة الله تعالى وحده ، وحسن المعاملة وتنظيم المعاملات بين الناس يفصلون بين الدين ولازمه ، والحقيقة وما يترتب عليها ، والمقدمة والنتيجة .

التشريعات الإسلامية :

٣٤١ ـ ان العرب كانوا أصلح الناس لتجربة الدولة الفاضلة التي وضع الله تعالى في الكتاب الكريم وعلى لسان رسوله الامين ، دعائمها ، وأسس اقامتهم ، وقد سن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم السنن العملية لتطبيق أحكام الله تعالى،فبين العبادات المفروضة من صلاة وصوم ، وحج وزكاة ، وان كانت الصلاة قد ابتدأت في آخر أيامه صلى الله تعالى عليه وسلم في مكة ، عند الاسراء والمعراج .

ووضع سبحانه وتعالى لهذه الدولة أسس تكوين المجتمع من الاسرة الى الجماعة الى العلاقات الانسانية في السلم والحرب ، ويصح لنا في هذا المقام أن نشير الى الاهداف الاجتماعية والدولية للدولة الاسلامية بكلمات موجزات لا تغني الاشارة فيها عن العبارة ، ولا الاجمال عن التفصيل .

أول الاهداف الاجتماعية تهذيب الآحاد ليكون منهم وحدات متلائمة يتكون منها مجتمع ، ولهذا شرعت العبادات ونفذت أحكامها ، تطهيرا للمجتمع من

آثامه ، وتوقيا للاخيار من شرور الاشرار ، فكانت الصلاة التي قال تعالى في بيان غايتها وثمرتها :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

وشرع الصوم لتطهر النفس وتسيطر عليها الروح ، وتقوى الارادة ،ولا يكون الواحد من المؤمنين خاضعا للهوى بل يسيطر عقله على شهوته ، فتكون له أمة ذلولا ، ولا تكون سيدا مطاعا .

وشرع الحج للتعارف الانساني ، وتهذيب الوجدان بالاقامة في ضيافة الرحمن ، وشرعت الزكاة ليعين الغني الفقير وليعيش الناس في وئام ، فكان تطهير المجتمع ايجابيا بتزكية الروح وتطهيرها ، وتنمية العلاقات الاجتماعية ، وبث روح الرحمة في القلوب ، والتعاون بين الناس .

وقد شرعت الكفارات تطهيرا للنفوس اذا أثمت ، وفتحا لباب التوبة عمليا ونفسيا ، وجعل الصدقة تطهيرا من كل اثم كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار » اذ كل معصية مهما تضؤل فيها اعتداء على الناس ، فكان تكفيرها بمعاونة الناس .

(ب) واتجه الاسلام الى تكوين الاسرة الفاضلة ، لان الاسرة نواة البناء لاجتماعي ، وهي الوحدة الاولى في اقامة دعائمه ، ولذلك عني القرآن الكريم ببيان أحكامها ، وشرح الواجبات والحقوق فيها بين الزوجين ، وبين الآباء والابناء ، وان كل الاحكام الشرعية الخاصة بالعبادات والتعامل جاءت مجملة ، وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تفصيلها بالعمل ، لا بالقول فقط ، الا أحكام الاسرة ، فقد تولى الله سبحانه وتعالى بيانها تفصيلا في كتابه الكريم ، بين التزامات الزوجية ، والعلاقات الاسرية ، وعلاجها اذا أصابتها آفة ، وبين أحكام الميراث تفصيلا لا اجمال فيه ، وأحوال الطلاق وما يتصل به .

وان ذلك كله حجة قائمة على الذين يريدون أن يحرفوا الشرع عن مواضعه ، ويجعلوا للاسرة نظاما ، لم يأت به كتاب الله تعالى ، وهو عند الله منكر ، لانه تقليد للذين لا يعرفون مكانة الاسرة ، ولا حريتها .

---

(١) العنكبوت

تكوين لرأى عام بين المسلمين

٣٤٢ ــ قامت الدولة الاسلامية التي أقامها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنفيذا لحكم الله على تكوين رأى عام فاضل ، ولذلك حث الاسلام على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعتبرهما عنوانا للامة الفاضلة ، واذا كان الرأي العام الذي قام في مكة كان وثنيا ،ولذلك حارب الوحدانية ، وأباح الخبائث ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهداية القرآن والوصايا الالهية اتجه الى تكوين رأى عام فاضل يقوم المعوج ، ويمنع الخبائث ، ولقد قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾(1)

وبين أن اللعنة تكون على الذين يفسدون الرأي العام فيها فقال تعالى :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾(2)

وفي سبيل تكوين رأي عام فاضل ،أوجب على كل مؤمن أن يستنكر الشر ، ويستهجنه ، ولا يقره ، ويستحسنه ،والا اضطربت أمور الجماعة ، وهوت سفينة الحياة .

ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم :« مثل المدهن في حدود مثل قوم استهموا في سفينة ، فصار بعضهم في أسفلها ،وبعضهم في أعلاها فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذي في أعلاها ،فتأذوا به ، فأخذ فأسا ينقر به أسفل السفينة ، فأتوه ، فقالوا مالك ؟ قال تأذيتم ولا بد لي من الماء ، فان أخذوا على يديه أنجوه ، ونجوا بأنفسهم ، وان تركوه أهلكوه ، وأهلكوا أنفسهم » .

---

(1) آل عمران

(2) المائدة

وان الرأي العام الفاضل الذي أرادالاسلام أن يتكون،هو الذي يمنع الظلم، ويقيم العدل ، ولذلك يقول النبي صلىالله تعالى عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يديالظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن بقلوب بعضكم على بعض ، ثم تدعون ، فلا يستجاب لكم » .

وان الرأي العام الفاضل تسوده الفضيلة ، وتقتل فيه الرذيلة ، فلا تظهر ولذلك يحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الحياء الذي يجعل صاحبه لا يظهر أمام الناس الا بالخير ، فيقول عليه السلام « الحياء خير كله » ويقول عليه السلام « لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء » .

وان الجماعات الانسانية التي انحرفت ، وسادتها الرذيلة ، أول مظاهرها فقدان الحياء ، وكذلك يدعو المسرفون على أنفسهم ، وعلى أقوامهم الى هجر الحياء واظهار الرذيلة ، ويسمون ذلك بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

كرامة الإنسان

٣٤٣ ــ ان دولة الاسلام التي ألفها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة تدعو الى تكريم الانسان ، لانه انســانلا لكونه شريفا نسيبا ، ولا لكونه أبيض أو أسود ، ولا لكونه مسلما ، بل للانسانية فيه ، ولقد قال الله تعالى في ذلك :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ (١)

وكرم الله تعالى الرقيق ، ودعا القرآنالكريم الى عتقهم ، ومنع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يذل المالك من يملكه، أو يرهقه بأن يكلفــــه مالا يطيق ، وروى الامام أحمد ان النبي صــلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من لطم عبده ، فكفارته عتقه » ، وقد سوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين نفس الحـر ، ونفس العبد ، بل سوى بين نفس العبد،ونفس مالكه ، فقال عليه السلام : «من جوع عبده جوعناه ، ومن قتله قتلناه».

(١) الاسراء

العدالة في الإسلام

٣٤٤ ـ أوجب القرآن الكريم العدالة بكل ضروبها ، وعدها عنوان الاسلام ، ويروى في ذلك أن أكثم بن صيفي لما بلغته دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل بنيه ليعرفوا دعوته عليه السلام ، فتلا عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

وان العدالة مطلوبة على الولي والعدو على سواء ، ولذلك قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

فالعدل حتى مع العدو المشنوء أقرب للتقوى .

والعدالة في مضمونها تشمل مايسمى العدالة القانونية ، وهي أن يكون القانون الذي تحكم به الناس واحدا ، وأن يكون تطبيقه على الجميع واحدا ، فلا يضار الفقير في تطبيقه ، ولا يحابى الغني في معاملته ، وأساسه المساواة في التطبيق ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » ولقد تأسى بهدي النبي صلى تعالى عليه وسلم ، أبو بكر اذ قال : « القوي منكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ، والضعيف منكم قوي حتى آخذ الحق له » .

وتشمل العدالة في مضمونها العدالة الاجتماعية بأن يمكن كل انسان من أن يعيش عيشة كريمة غير مقطوع ولاممنوع ، وأن يمكن من استغلال مواهبه

---

(١) النحل (٢) المائدة

فيما يفيد شخصه ، وجماعته ، وأن تهيأالفرص لكل انسان أن يعمل بطـــاقته جسمية كانت أو عقلية ·

وليس معنى العدالة الاجتماعية محوالفقر واذابته ، فان الفقـــر والغنى حقيقتان ثابتتان في الوجود ، لا يمكن محو أحدهما ، أو اذابته ، كمـــا جاء التعبير على لسان بعض الناس ، انمـــاالعدالة الاجتماعية،تقتضي محو التفرقة بين الطبقات ، وأن يسيطر ناس بحكـم الطبقية ، وأن يستطيل غني على فقـير بحكم غناه ، ولا نسيب على ضعيف بحكم نسبه ، انما الجميع سواء أمام القانون الاسلامي السامي في معناه ، وتطبيقه·

ولابد أن تتوافر العيشة الـكريمةلكل مؤمن ، والدولة الاسلامية المباركة تتكفل بالعاجزين ، عملا بقوله صـلىالله تعالى عليـــه وسلم « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضيـاعا ، فاليّ وعليّ » ·

ويشمل مضمون العدالة،العدالة الدولية ، وهي تقـــوم على ثلاثة مبادىء متقررة في حكم القرآن ، وبعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي الوفاء بالعهد،والمعاملة بالمثل من غير أن يجاري الاعداء في انتهاكهم لحرمة الفضيلة ، فاذا قتلوا النساء والذرية لا نجاريهم،واذا انتهكوا حرمات الفضيلة لاننتهكها، لان دين العدل والفضيلة لا يجـــاري الناس في مآثمهم ، وثالث الامور في العدالة الدولية أن الاساس في عـلاقةالمسلمين بغيرهم هو السلم ، حتى يكون اعتداء أو استعداد للاعتداء، أو محاربةلحرية الاعتقاد ووقوف ضد الدعـــوة الاسلامية التي تدعو الى أن يكون الدين كله لله تعالى ، بحيث لايفتن مؤمن ، ولا يعتدى على اعتقاد ·

التعاون على البر والتقوى

٣٤٥ ـ قامت الدولة الاسلامية على أساس التعاون ، فقال تعالى :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ (١)

وأن كل جماعة نظمها الاسلام تقوم على أساس من التعاون ، فالتعاون في الاسرة هو قوامها ، فالمرأة هي السكن ،وهو الحمى ، والآباء والابناء يتعاونون في شدائد الحياة ، ويشتركون في سرائها •

واذا تجاوزنا الاسرة الى المجتمع الصغير المكون من الجيران وأهل الحي وأهل القرية ، وجدنا التعاون قوام الترابط بينهم ، وقد أوصى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجيران ، وأمر القرآن الكريم بالاحسان الى الجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والجار في العمل ، أو الجار في السفر •

واذا تجاوزنا المجتمع الصغير من الجيران وأهل الحي أو القرية واتجهنا الى مجتمع الامة أو الشعب ، وجدنا التعاون دعامة بنيانه تتعاون كل طوائفها في جهودها المختلفة في رفع شأنها ، وكأن تلك الجهود أنهار مختلفة تلتقي عند مصب واحد ، لا يذهب فيه الماء هدرا ،بل ينتج الخصب وأطيب الثمار •

فكل طائفة قوة في ذاتها ، فمهرة الصناع قوة ، ومهرة الزراع قوة ، متعاونة ، والعلماء يمدون الجميع بالمعارف ، فتعمل كل القوى متعاونة متضافرة •

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقام الدولة الاسلامية بالتعاون والتآزر ، وجاء القرآن مقررا ذلك المبدأ الكريم بأدق معانيه ، وكانت الدولة الاسلامية التي أوصى بها القرآن ، ونفذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أتت

---

(١) المائدة

بمبدأ لم يسبق اليه سابق ، ولم يلحقهافيه لاحق ، وهو سداد دين المـــدينين الذين استدانوا في غير فساد أو سرف، وعجزوا عن سداد الدين ، فان ذلك مصرف من مصارف الزكاة ، وبينمـــاكان القانون الروماني في بعض أدواره أجاز للدائن أن يسترق المدين ، كانتالدولة الاسلامية التي أنشـــأها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم باذن الله تعالىتعمل على سد الدين عن المدينين ·

ولئن انتقلنا من الامة الى الجماعة الانسانية نجد أن القـــرآن والســـنة المحمدية يوجبان أن يكون التعاون أساسالعلاقات الانسانية عامة ، ويعمل النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم في الدولةالتي اقامها على التعاون الانساني العام استجابة لقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وان القــرآن الـــكريم في سبيل دعمالتعاون يقرر أن الانسانية أمة واحدة، وتنتهي في نسبها الى نفس واحدة ، فقدقال تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الحجرات (٢) النساء

المعاهدة مع اليهود

٣٤٦ ـ لقد نفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أول اقامته بالمدينة مبدأ الاتحاد الدولي والتعايش السلمي ،فعقد المعاهدة مع اليهود ومع كثير من القبائل العربية ٠

وقد يقول قائل ألا يتعارض مبدأ التعاون مع الحرب ؟ ونحن نقول لو كان الناس جميعا أخيارا ، ولم يكن قانون الغابة مسيطرا على بعض الدول لكانت الحرب مناقضة لمبدأ التعاون ، ولكن في الدول أشرار ، كما في الآحاد أشرار ، واذا كان الاشرار يمنعون من الشر بالعقوبات الرادعة،فأشرار الدول يمنعون من شرهم بالحرب المانعة ،ولذلك قال سبحانه :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (١)

فكانت حرب الاشرار من قبيل التعاون على الخير ، ودفع الاثم والعدوان ، وكذلك كانت حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لدفع الاشرار ، ومنع الملوك الغاشمين من أن يرهقوا شعوبهم بمنع حرياتهم ٠

---

(١) البقرة

الرحمة والمودة

٣٤٧ـ قيام دولة الاسلام على أساس الرحمة الشاملة والمودة المقربة ، ومنع البغضاء المنفرة ، ولقد قامت الدولة الاسلامية على أساس الرحمة والمودة ، أما الرحمة فأساسها الرحمة بالاخيار ، لا بالاشرار ، فليست الرحمة في الاسلام مجرد انفعال نفسي ، بل هي الرحمة بالكافة ، ولقد قال بعض الصحابة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «يارسول الله أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذرياتنا ،فقال عليه الصلاة والسلام ماهذا أريد ، انما أريد الرحمة بالكافة » ، ولذلك شرعت العقوبات الزاجرة رحمة بالكافة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « من لا يرحم لا يرحم» وان بعض أنواع الرأفة يشمل في أطوائه أشد أنواع القسوة، وهي الرأفة بالمجرم ولذلك نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن الرأفة بالزناة فقال تعالى:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

فكان من قانون الرحمة العادل أن يعاقب المذنبون .

وان الرحمة العادلة التي تكون للآحاد،إنما تكون على الضعفاء من العبيد، والفقراء واليتامى ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ابغوني في ضعفائكم ، انما تنصرون ، وترزقون بضعفائكم » ولذلك أوصى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برحمة المرأة الضعيفة ، واوصى بالرحمة للعبيد ، وأوصى برحمة اليتامى باصلاح أحوالهم ، ورعاية أموالهم .

وهذه اشارات الى مبادىء الرحمة في الدولة الاسلامية التي كونها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر القرآن.

---

(١) النور

أما المودة فهي قوام الروابط الانسانية دعا اليها الآحاد والجماعات ،ولذلك عد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم افشاء السلام الذي هو مظهر المودة ، واطعام الطعام الذي هو ادامها عدهما أحسن الاسلام ، فقال عليه السلام : « أحسن الاسلام أن تطعم الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف » .

نعم كان الامر بالمودة ، وجعلها قوام الاسرة ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

وأوجب صلة الرحم مودة في القربى، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « من أراد منكم أن يبارك له في رزقه ،وينسأ له في أثره فليصل رحمه » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » .

وان المودة ليست واجبة بالنسبة لابناء الامة الاسلامية وحدهم ، بل هي واجبة حتى للمخالفين في الدين ماداموا لم يعادوا المسلمين أو لم يعتدوا عليهم، ولقد بين الله سبحانه وتعالى تلك الحقيقة، وهي القانون الشامل في معاملة المسلمين لغيرهم ، فقال تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الروم (٢) الممتحنة

وقال تعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (١)

ويروى أنه في مدة الحديبية بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن قريشا نزلت بهم جائحة فأرسل مع حاطب بن أبي بلتعة خمسمائة دينار ليشتري بها برا ، ويوزعها على فقراء قريش .

بل انه في أثناء الحرب ، لا تنقطع المودة مع شعوب الدولة المحاربة من غير المقاتلين ، ولا تنقطع المودة الا مع المقاتلين أو من يشتركون في القتال بالعقل والتدبير ، والترتيب والتنظيم ، فأولئك هم الذين يحادون الله ورسوله .

والخلاصة أن الاسلام لا يقطع المودة ، بل يصلها دائما ، ويعد القاطعين لها في غير الدائرة المذكورة يقطعون ما أمر الله به أن يوصل .

المصلحة ودفع الفساد : وقد قامت الدولة الاسلامية التي بينت اسسها في القرآن الكريم ، وطبقها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأرسى قواعدها عملياً محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قامت على رعاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة على القاعدة التي ذكرت في القرآن الكريم:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢)

وهكذا كانت المصلحة الجماعية هي من غايات الاسلام ، على أنه يجب ملاحظة أمرين :

أولهما : أن الاعتبار في المنفعة منفعة المجموع أولا ، وبأوفر حظ ، وأن مصلحة الآحاد غير مسلوبة ، بل هي تكون في مصلحة المجموع ، وتنفرد عن مصلحة المجموع ، ان لم يترتب عليها ضرر عام ، فان الضرر يزال ، ومنفعة العامة مقدمة على منفعة الخاصة ان لم يمكن الجمع بينهما . ولذلك شرع الجهاد، وحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو كان فيه ضرر ، لآلام تنزل بالمجاهدين ، ولكن تركه يؤدي الى تهلكة الجماعة ، وغلبة الشر على الخير .

(١) المجادلة / ٢٢ (٢) القصص

الأمر الثاني : أن المصلحة المعنوية بأداء الواجب والتزام الحقوق ، وتهذيب النفس ـ مطلوبة كالمصلحة المادية بل هي أشد طلبا ، وأكثر رعاية في الاسلام ، والمصلحة الاصلية تلاحظ قبل المصلحة العاجلة ، ولذلك كانت ملاحظة العبادة قبل ملاحظة المعاش ، ان الدنيا سبيل الخير في الآخرة ، وان النظر الى الآخرة خير مآلا وغاية :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

وان الاسلام لا يدعو الى الزهد في الحياة ، ولكن يدعو الى أن يطلب المؤمن الحياة من حلالها ، ويجتنب محرماتها ، وما كانت المحرمات الا لأن تناولها يفوت المصالح الحقيقية التي عدها الاسلام مصالح ، وما من مصلحة مضيعة ، الا ومعها تناول محرم حرمه الله تعالى لان المحرم اعتداء على غيره .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتناول المباحات ، وينهى عن تحريم ما أحل الله تعالى من طيبات في هذه الدنيا، ولقد استنكر الله تعالى على الذين يحرمون الطيبات مايصنعون ، فقال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢)

ويقول الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣)

وهكذا نجد أن دولة الفضيلة لا تقوم على الحرمان ، بل الحرمان المجرد

(١) العنكبوت (٢) الاعراف (٣) المائدة

نقيضها ، وقد منع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر الله أن يحرم مؤمن على نفسه ما أحل الله ، ولقد روى الامام أحمد رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة » .

ولقد روي أن الامام أحمد رضي الله عنه سئل عن الورع ، فقال رضي الله تعالى عنه : « الورع طلب الحلال » فليس في الدولة الاسلامية الفاضلة زهادة لمجرد الحرمان ، واذا كان زهد ، فهو لتعويد النفس القدرة على فطمها عن الشهوات عند ما يلج داعيها .

وان المصلحة في دولة الاسلام تقوم على المحافظة على النفس والدين ، والعقل ، والنسل ، والمال ، ولذلك أوجب الله العقوبات على من يعتدي على مصلحة من هذه المصالح بمقدار اعتدائه ، فان كان الاعتداء على أمر لا تتحقق الحياة الا به ، فان العقوبة تكون بقدر الاعتداء ، وان كان الاعتداء على أمر تتحقق الحياة مع الاعتداء ولكن بمشقة ، فان العقوبة تكون دون السابقة ، وان كان الاعتداء على أمر ترفيهي أو كمالي ، فالعقوبة دون العقوبة فيما سبق .

وهكذا كانت العقوبات من حدود وقصاص ، لاجل مصلحة العباد ، وهي كما ذكرنا رحمة بهم .

وهكذا كانت الدولة الاسلامية رحمة للعباد ، ومصلحة لهم ، ويتحقق فيها قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (١)

أول أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة :

٣٤٨ ـ استطردنا الى الكلام في الدولة المحمدية التي أقامها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه ، مشيرين الى دعائم هذه الدولة ، غير مفصلين النظم ، ولا الاحكام ، ولكن نبين مقاصدها وغاياتها بالاشارة الموجزة المبينة ، لا بالعبارة المفصلة الموضحة ، ليعلم الناس أمرين :

---

(١) الأنبياء

أولهما : أن المبادىء التي تقوم هذه الدولة عليها مبادىء تقبلها العقول السليمة التي لم تسيطر عليها الاهواء،ولم تتحكم فيها منازع التقليد من غير تفكير ، ولا اتباع للهوى في ذاته ، وانجعلها مستمدة من أحكام القرآن والسنة المحمدية بوحي من الله تعالى لا يجعلهامضطربة ، ولا مزلزلة بأهواء الناس ، وهي متفقة مع مصالح الناس ، ولقدسئل أعرابي لماذا آمنت بمحمد فقال الاعرابي المستقيم الفكر والنفس : «ما رأيت محمدا يقول في أمر افعل ، والعقل يقول لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول في أمر لا تفعل ، والعقل يقول افعل » •

الامر الثاني : الذي جعلنا نشير الىهذه الدولة لرد أقوال الذين يقولون على الله تعالى بغير الحق ، أن الدين للعبادة ، أما الدنيا ، فان الناس ينظمون أمرها ، فبينا أن العبادة لله تعم كل طاعاته ، ومن طاعاته اتباع كل ما أحل وما حرم ، وما نظم •

ولقد كانت التجارب الانسانية تؤيداقامة دولة اسلامية تمنع الظلم وتقيم الحق والعدل بين الناس ، ولقد رأينا منأقدم العصور دولا تقوم ، وأخرى تهبط ، والرعايا ضائعون بين الحكامالمتغالبين ، وبمقدار استعلاء الحكام يكون الظلم المستمر الذي يعم ولا يخص، فمن عهد الرومان والرعايا هم فرائس لمغالبة المتحكمين •

وان القرآن الكريم الذي نظم الحكمفي الاسلام يدعو الى أن تحكم الشعوب نفسها بنفسها ،وأن الحاكم مسؤول أمامالله تعالى ينفذ أحكامه أولا ـ وأمام الشعوب لا يرهقهم ولا يظلمهم ، ولايشق عليهم ثانيا الا أن يكون في المشقة تنفيذ حكم الله تعالى •

الإخاء والتآلف

٣٤٩ ـ وقد ابتدأ عمله في المدينة بايجاد الروابط التي تربط آحاد الجماعة الاسلامية ، وتكون وحدة تضم بها العناصر المختلفة الانساب ، والاماكن ، وأن يجعل من ذلك المجتمع المختلف أنسابا وقبائل مجتمعا مؤتلفا في شعوره ، تمحى فيه الفوارق ، والامور التي تفرق ولا تجمع •

وجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مهاجرين من بطون مختلفة ، ووجد أنصارا آووا ونصروا ، ولكن الدماء لم تكن قد جفت بينهم فجاء الى ذلك الجمع الذي كان متنافرا ، ليؤلف بين قلوبهم ،والامم انما تتكون بتاليف القلوب المتنافرة ، وجمعها على الحق ، وأشد ما يجمع توثيقا ـ الايمان بالله والخضوع لاحكامه ، في ظل أطهر من في الوجود وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

قال السهيلي في كتابه الروض الانف : « آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض » •

وعندي أن ذلك أحد أغراض المؤاخاة ، ولكن المؤاخاة أولا وبالذات تتجه الى تكوين وحدة الجماعة المؤمنة ،ولذلك كانت المؤاخاة بين المهاجرين والانصار أولا ، وكانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض ثانيا ، وبين الانصار بعضهم مع بعض ثالثا ، أوسهم مع خزرجهم ليقضي الرسول على الثغرة السابقة بالالفة التي تجمع القلوب ، وتزيل نفارها •

فالمؤاخاة كانت لتكون الأخوة هي العلاقة بين النسيب الشريف ، والمولى الضعيف ، ولذلك كانت المؤاخاة جاعلة حمزة بن عبد المطلب أخا لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

فالمؤاخاة كانت لتكوين الجماعة كما ذكرنا ولوضع مبدأ المساواة عمليا ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق يشرح ما كان فيه •

يقول ابن اسحاق في سيرته بسنده« آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والانصار ، فقال فيما بلغنا ، ونعوذ بالله تعالى أن نقول عليه ما لم يقل » · تآخوا في الله أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ، فقال هذا أخي ، فكان رسول الله سيد المرسلين ، وامام المتقين ، ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله تعالى ، وأسد رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخوين ، واليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضروا القتال اذا حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ، الطيار في الجنة ، ومعاذ بن جبل آخو بني سلمة أخوين(وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائبا بأرض الحبشة) ·

وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وخارجة بن زهير أخوين ·

وهكذا أخذ يحصي الاخوة بهذا التآخي بين المهاجرين والانصار ، فذكر المؤاخاة بين بلال مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبي رويحة ·· وقد استمرت الاخوة بينهما لا تنقطع ،كالشأن في كل من آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بينهم ·

ولما دون أمير المؤمنين عمر الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج الى الشام ، وأقام بها مجاهدا ، قال له عمر الى من تجعل ديوانك ، فقال مع أبي رويحة ، لا أفارقه أبدا ، للاخوة التي كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عقدها بينه وبيني ، فضم اليه ·

وقد أنكر ابن القيم مؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعلي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ، وقال في ذلك « وقد آخى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والانصار »وذكر ما نقلناه عن محمد ابن اسحاق ، ثم قال :

وقد قيل ان نبيه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ فيها عليا أخا لنفسه · والثابت الاول« أن المؤاخاة بين المهاجرين والانصار فقط» والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الاسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن

عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين ، كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق اليه ، ورفيقه في الهجرة ، وأنيسه في الغار ، وأفضل الصحابة ، وأكرمهم عليه ، أبو بكر الصديق ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لو كنت متخذا من أهل الارض خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا » .

وهكذا نرى الامام ابن القيم ينكر الرواية لمجرد الاستبعاد ، ولم يتعرض للطعن في الرواية ، ويقصر المؤاخاة والباعث عليها على ما كان بين المهاجرين والانصار ، لاجل توثيق الايواء ، وحاجة المهاجرين اليه ، ولا يحتاج اليه المهاجرون بعضهم لبعض ، ولا الأنصار بعضهم لبعض .

ولقد وافق ابن القيم في هذا ابن كثير فقال فيما نقله ابن اسحاق : « وفي بعض ما ذكره نظر ، أما مؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمن العلماء من ينكر ذلك ، ويمنع صحته ، ومستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة ، انما شرعت لاجل ارتفاق بعضهم من بعض ، لتتألف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لاحد منهم ، ولا لمهاجري آخر ، كما ذكره من مؤاخاه حمزة وزيد بن حارثة اللهم الا أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجعل مصلحة علي الى غيره ، فانه كان ممن ينفق عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من صغره في حياة أبيه أبي طالب ، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاه زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار ، والله تعالى أعلم » (١) .

وما ينكره ابن القيم نحن نثبته ، ونرجح أن المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض والانصار بعضهم مع بعض نقررها ، وذلك لان ابن كثير الحافظ لم يتكلم في صحة هذه الرواية المثبتة ، ولان قصر الباعث في المؤاخاة على مجرد تمكين المهاجرين من الارتفاق من اخوانهم الانصار قصر لا دليل عليه ، بل هو أخذ من ظاهر الهجرة ، والايواء والنصرة ، كما صرح بذلك القرآن الكريم .

ان المؤاخاة ليس المقصود منها فيما نحسب هذا الارتفاق فقط ، ولكن آثارا غير ذلك منها :

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ٢ ص ٢٣٧

أولا : عقد الالفة بين الضعيف والقوي ، وتمكين الصحبة بين المؤمنين والا يتعالى مؤمن على مؤمن وناهيك بمؤاخاة حمزة الشريف النسيب مع زيد بن حارثة المولى الذي كان عبدا ، ومنَّ عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بالعتق ، وكان قد أعلاه ، وجعله ابنا له ، حتى حرم الله تعالى الادعياء وقال سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

فكان من حكمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن جعله أخا لابن عبد المطلب .

وثانيا : أن المهاجرين كانوا من قبائل مختلفة ، والقرشيون منهم كانوا من بيوت متنافسة ، فكان لابد من محو العصبية والدمج بينهم بحكم أخوة الاسلام .

وثالثا : أن الانصار لم يكونوا متآلفين فيما بينهم ، فكانت على مقربة من هدايتهم العداوة المستعرة الاوار بينهم، بين الاوس والخزرج ، فكان لابد من العمل على نسيانها ، وذلك بالمؤاخاة المحمدية .

رابعا : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عقد عقد المؤاخاة ، كان يشرع للامة من بعده هذا النظام الذي يجمع المسلمين ، ولم يكن حكما لحادثة واقعة ، ولا علاجا مقصورا ، على ما بين المهاجرين والانصار بل هو تأليف للمؤمنين ونظام متبع ، وربما تكون الحاجة اليه من بعد أشد وأكبر ، ولذلك كان ولاء الموالاة الذي تقرر أنه لم ينسخ ، وأنه بين العرب وغيرهم من الاعاجم الذين يدخلون في الاسلام من بعد .

وقد أثمرت المؤاخاة ثمرتها، وربطت بالمودة على قلوب المؤمنين ، روى البخاري ومسلم والامام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فآخى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الانصاري فقال له سعد أنت أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالي ، فخذه وتحتي امرأتان ، فانظر أيهما أعجب لك حتى أطلقها ، فقال عبد الرحمن : « بارك الله في أهلك ومالك ، دلوني على السوق ، فدلوه ،

(١) الأحزاب

فذهب ، فاشترى وباع ، فربح ، فجاء بشيء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله تعالى أن يلبث فجاء وعليه ودك من زعفران ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مهيم (١) ، فقال يا رسول تزوجت امرأة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أصدقتها ، قال وزن نواة من ذهب قال عليه الصلاة والسلام : « أولم ولو بشاة » ٠

وقد كان المهاجرون غير طامعين في غير الايواء والكفاف ، يروي البخاري عن أبي هريرة « قالت الانصار للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم اقسم بيننا وبين اخواننا النخيل قال عليه السلام : لا ،ويشركوكم في التمرة ، قالوا سمعنا وأطعنا ٠٠ ولقد كان المهاجرون رضي الله تعالى عنهم يستكثرون ما من به اخوانهم الانصار عليهم من أموال ،فروى الامام أحمد عن أنس أن المهاجرين قالوا يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلا من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالاجر كله قال عليه الصلاة والسلام : لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله تعالى لهم » ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل المهاجرين يعملون ليستفيد الانصار منهم كما آووهم ونصروهم ،فانه يروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : مخاطبا الانصار « ان اخوانكم قد تركوا لكم الاموال والاولاد، وخرجوا اليكم، فقال الانصار أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو غير ذلك ،قالوا وما زال رسول الله يثني عليهم حتى قال هم قوم لا يعرفون العمل ،فتكفونهم ٠ وتقاسمونهم الثمر » ٠

فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم :«أبى الا أن يعمل المهاجرون مع الانصار، ويكون الثمر بينهم قسمة عادلة للارض حصتها ، وللعمل حصته » ٠

---

(١) الودك : الدهن ولعل دهن الزعفران عطر ، ومهيم : استفهام عن الحال أى ما هذه الحال التي انت عليها ٠

الألفة بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار

٣٥٠ ـ كانت المؤاخاة بين المهاجرين والانصار ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، والانصار بعضهم مع بعض تاليفا من الاحاد ، وتعاونا بينهم ، وهو عقد أواصر المودة الشخصية ، وهي أساس للالفة الاجتماعية ، والروابط الجماعية ولكن كان لابد أن يكون بجوار تنظيم العلاقات القبلية أو الأسرية ، والتعاون بين البطون والقبائل ، بعد التعاون بين الآحاد بالاخاء ، أن يكون الاتصال بينها على أساس التعاون على الخير ، ودفع الاثم بينهم ، وأن يكونوا جميعا فيما بينهم متماسكين في دفعة الخير ، ودفع الشر ·

ولذلك اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى تاليف الجماعات التي كانت تسكن المدينة من مهاجرين وأنصار ويهود بل مشركين ممن بقوا على وثنيتهم ·

وقد قال الحافظ بن كثير فى تاريخه (البداية والنهاية) : « كان بها أي يثرب » من أحياء اليهود بنو قينقاع ،وبنو النضير ،وبنو قريظة، وكان نزولهم بالحجاز قبل الأوس والخزرج ، وقد نزلوا به أيام بختنصر حين دوخ بلاد المقدس فيما ذكره الطبري ·

ثم لما كان سيل العرم ، وتفرقت اليمن شذر مذر نزل الأوس والخزرج بالمدينة عند اليهود ، فحالفوهم ، وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من فضل العلم بالمأثور عن الانبياء ·

وبعد الهجرة قد صار اليهود حانقين على المؤمنين الذين آمنوا ، وعلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لانه مبعوث من بين أولاد اسماعيل، لا أولاد اسحاق، مع أنهم كانوا يستفتحون على الذين أشركوا به ، ويرجون النصرة في بعثه، فلما جاء ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الظالمين ·

ويقول ابن القيم انه بعد الهجرة صارت المدينة بها أنواع من النفوس ، فكان فيها المؤمنون من المهاجرين والانصار وكان فيها اليهود من بني قينقاع، وبني النضير ، وبني قريظة ، وفيها المشركون ، وكان من خارجها من يناصبونه العداء ، وقد قال رضي الله تعالى عنه في ذلك :

« لما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ـ صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم وواعدهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم ،. وقسم حاربوه ، ونصبوا له العداوة ، وقسم تركوه ،فلم يصالحوه ، ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول اليه أمره ، وأمر أعوانه ، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن ، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه ، وانتصارهم ومنهم من دخل معه في الظاهر ، وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين ، وهؤلاء المنافقون ، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه تبارك وتعالى » .

كان قدوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة في هذه الطوائف ، ولكن لم تظهر هذه الاقسام في وقت واحد ،فالنفاق فيما أحسب ، وكما تدل الوقائع التاريخية لم يظهر الا بعد النصر في غزوة بدر الكبرى ، وكما سنبين ، ولما شرق بنو قينقاع بهذا النصر ، وأبدوا العداوة ، واعتزموا الشر ، فقوتلوا حتى أخلوا، عندئذ ظهر النفاق ،واعلان الاسلام من بعض أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومهما يكن من أمر تاريخ ظهور بعض الطوائف ، فانه من المؤكد أنه كان أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مشركو قريش الذين ناصبوه العداء ، وأخرجوه من داره ، وان كان الاخراج أمرا مقدورا ، وأن الهجرة كانت أمرا لابد منه كما أشرنا ، وكان أمامه اليهود ، وهم يساكنون أهل يثرب ولهم المقام معهم ، يدنيهم المكان والجوار ، ويبعدهم الاعتقاد ، وأمامه الذين اعتزلوا المؤمنين ، فلم يقاتلوه ،ولم يمالئوا عليه أعداءه .

وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتكشف القلوب ممن يريدون ظهوره على أعدائه ، ومن يريدون ظهور أعدائه عليه ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ شريعة تحكم بما ظهر ،وتترك لله ما بطن ، وان كانت تأمر

بالاحتياط والحذر فالله تعالى منزل هذه الشريعة ، يقول في كتابه العزيز :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ (١)

التأليف الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ والحربيّ :

٣٥١ ـ كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هو بالنسبة للمؤمنين أمر من الله تعالى بتنظيم مجتمعهم ، وتعاونهم الاجتماعى والاقتصادى وتنظيم لشئون السياسة بينهم ، وتأليف بين بطونهم ، وقبائلهم ، وتعاون على اقامة الخير ، ودفع الشر ، وبيان حكم الاسلام في العمل على منع الظلم ، والتظالم بينهم آحادا وجماعات .

وجعل ما يسري على المؤمنين في شعوبهم وقبائلهم يسري على اليهود ، وغيرهم على أن يكون لهم ما للمؤمنين ، وعليهم ما عليهم ، لا يضارون في دينهم ، ولا يعتدى عليهم في اعتقادهم ، وعلى أن تكون الرياسة الكبرى للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولذلك كان هذا الكتاب بالنسبة لليهود عهدا عاهدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد آن لنا أن ننشر الكتاب كما رواه ابن اسحاق ، وكما روته صحاح السنة ، واليك الكتاب الشريف .

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي « صلى الله تعالى عليه وسلم » بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم :

بأنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التي هم عليها يتعاقلون بينهم (٢)) وهم يفدون عانيهم (٣) بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين .

---

(١) النساء

(٢) أى يدفعون دياتهم بعضهم مع بعض

(٣) العانى الأسير

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين·

وان المؤمنين لا يتركون مفرجا(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ·

والا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه (٢) ·

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (٣) ظلم أو اثم أو عدوان أو افساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ·

ولا يقتل مؤمن في كافر ، ولا ينصر كافر على مسلم ·

---

(١) المفرج المثقل بالدين والكثير العيال

(٢) معناه أن لا يكون بين مؤمن وآخر ولاءفيجيء مؤمن ويأخذ الولاء لأنه لحمة كلحمة النسب

(٣) الدسيعة : العطية .

وان ذمة الله تعالى واحدة يجير عليهم أدناهم •

وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس •

وان من تبعنا من يهود ، فان له النصر والاسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرين عليهم •

وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، الا على سواء وعدل بينهم وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا •

وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله تعالى •

وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه •

وانه لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن •

وانه من اعتبط (١) مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود الا أن يرضي ولي المقتول، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه •

وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه ، وأن من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل •

وانكم مهما اختلفتم فيه في شيء ،فان رده الى الله عز وجل ، والى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

هذا كله بالنسبة للمؤمنين ، وقد عاهدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على كل مافيها ، أما ماجاء بالصحيفة خاصا باليهود فقد كان عهدا عاهدهم عليه، على طرفيه الوفاء به ، وقد جاء في الصحيفة بهذا النص •

---

(١) اعتبط معناها : قتله من غير أى مبرر

عهد النبي صلى الله عليه وسلم على اليهود

٣٥٢ ـ ان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ٠

وان ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني الحارث ، مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف ،وان ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ٠

وان جفنة بطن من ثعلبة كانفسهم ٠

وان ليهود الشطيبة مثل ماليهود بني عوف ، وان البر دون الاثم ٠

وان موالي ثعلبة كانفسهم ، وان بطانة يهود كانفسهم ٠

وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانه لا ينحجز على ثار جرح ، وان من فتك ،فبنفسه فتك وبأهل بيته الا من ظلم ، وان الله على أيد هذا (أي على الرضا به) ٠

وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ٠

وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وانه لايأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ٠

وان يثرب حرام صد لأهل هذه الصحيفة ٠

وان الجار كالنفس غير مضار وآثم ،وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ٠

وانه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان الله تعالى على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ٠

وانه لا تجار قريش ، ولا من نصرها ٠

وان بينهم النصر على من دهم يثرب، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا مثل ذلك فانه منهم على المؤمنين الا من حارب في الدين ٠

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ٠

وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البردون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه، وان الله تعالى على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن الا من ظلم أو أثم ، وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

نظرة في هذه الوثيقة :

٣٥٢ ـ هذه وثيقة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي نظم بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المجتمع الجديد لسكان المدينة لا فرق بين مهاجرين وأنصار ، ولا فرق بين مؤمنين ويهود ،ويلاحظ فيها :

(أ) أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم النظام الجديد الذي أنشأه في المدينة صار هو الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة ،ولذلك لم يبح لطائفة من اليهود أن تخرج في حرب الا باذنه ، حتى لا تتورط في أمر يضطرب به أمر هذا المجتمع الذي أريد له أن يقوم على أساس التعاون في جلب الخير ، ودفع الشر ، يتصادقون ويتوادون ولا يتعاونون على اثم أو عدوان ٠

(ب) انه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة ، فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسري على غيرهم ، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم ، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم ، تراعى فيه حرمة العقيدة ،

وألا يكون لأحد عليهم سبيل فيها ، وأن عليهم حكم الله تعالى ، وللنبي ألا يحكم بينهم اذا وجد مصلحة ، ويبين هذا قوله تعالى في شأنهم :

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (١)

وان هذا يدل على أنهم كانوا خاضعين فيما يتعلق بالنظام العام كحرمة الدماء ، والظلم ، ولكن شئونهم الخاصة لا يحكم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيها بينهم الا اذا جاؤوا اليه ، فله أن يحكم ، وله أن يعرض .

ولذا لا نستطيع أن نقول انهم كالذميين تماما في الأحكام ، ولكنهم من جهة كالذميين ، ومن جهة ثانية جيران ، يستمتعون بحقهم في المعاملات الخاصة من غير اثم .

(جـ) ان العهد كان أساسه التعاون بين العشائر بحيث تحمي كل عشيرة ضعيفها ، وتعلي الفضيلة بينها وتفك أسر أسيرها ، وتدفع ديات قتلاها ، وذلك يشير الى حرمة كل شخص على أهله في دائرة البر لا في دائرة الاعتداء أو الانتقام .

(د) أنه مع التعاون بين العشيرة ، هناك تعاون عام بحيث يتضافر المؤمنون جميعا بل الجماعة في عون المظلوم ، ولذلك عندما كان النص على القود أوجب على المؤمنين جميعاً معاونة أولياء المقتول في القصاص ، وتتعاون الجماعة كلها في دفع أذى كل من يحدث حدثا أو اشتجارا ، أو ما يثير العداوة والبغضاء ، وانه بهذا التعاون الفاضل تستقر الأمور على خير الجماعة ، وما يجلب لها النفع ، ويدفع عنها الضر ، وانه لو نفذ هذا العهد بكل ما فيه لتكونت من المؤمنين وجيرانهم مدينة فاضلة .

وان الحلف يوجب أن يكون عدو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عدواً لليهود ، فلا يجار قرشي ، ولا من يناصر قريشاً ، فعلى اليهود ألا يوالوا المشركين،

---

(١) المائدة

لأنهم أعداء الله تعالى ، وأعـداؤهم ،وذلك لأن الميثاق يجعل أهـل المـدينة مسلمين ويهوداً أهل ولاء واحد ، عدوهم واحد ، ومناصرتهم واحدة ، وذلك ليكون أمن الجميع واحـداً ، فمن هاجمفريقا من أهل المدينة فقد هاجم المدينة كلها ، وذلك بلا ريب يلزم اليهود ، لأنالوثيقة أعطتهم حقوقا ، وأوجبت عليهم واجبات ، فاذا أخلوا بما يجب عليهـم ،فقد أسقطوا ما لهم من حقـوق ، لأن الحقوق والواجبات متقابلة ٠

وما دام الولاء واحداً ، فانه لا يصحأن يتماون اليهود وأعداء محمد صـلى الله تعالى عليه وسلم عـلى شيء دون مانص عليه وقد وفى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العهد ٠

فهل وفى به اليهود !! ، ان الأمـورالتي تجري كفيلة بالجواب ، مع ملاحظة أن الأمر يوجب الوفاء من الجـانبين ،وان أخل أحدهما ذهبت الحقـوق التي تضمنتها الوثيقة له ، واذا كان الاخلالفيما يتعلق بالأمـور الخارجية ، وهي موالاة اليهود للمشركين على المـؤمنين ،فانه في هذه الحالة تزول صفة الجوار ، ويكون من الواجب عـلى من ينكث أنيترك الجوار ، ويتخلى عن الاقامـة في المدينة ، وحل للطرف الآخر أن يخرجهطوعا أو كرها ، فان لم يفعل كان يحل له أن يحمي ظهـره ، ولو بقتله ، لأنهصار عدوا له ، وأصبح كالثعبان يكون في بطانة الرجل ، فيجب أن يبعـده ،ولو بقتله ، لأن الأمر اما سلم فيهـا الأمن ، واما حرب فيها الخوف ٠

كيف شرع الأذان

٣٥٤ ــ تكونت جماعة الاسلام ،ووضع صلى الله تعالى عليه وسلم نظم هذا الاجتماع ، وألف القلوب فيه ، بالاخاء بين المؤمنين • ووضع النظم للتأليف بين من يدخلون في الاسلام من بعد •

ثم كان عقد الوثيقة التي ألفت بين الجماعات في المدينة كما ألفت الاخاء بين الآحاد ، وبين الواجب على كل جماعة ثم عقد العهد مع اليهود على أن يكون لهم ما للمؤمنين في الشئون العامة ،ولهم شئونهم الخاصة ، يتحاكمون فيها فيما بينهم ، وان احتكموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فله أن يحكم بينهم بما أنزل الله تعالى في القرآن •

وبعد هذا التأليف وذاك التكوين بين ما يربط جماعة المؤمنين قلبياً ، بعد أن سن ما ألف بين قلوبهم اجتماعيا ،وذلك بتنظيم الجماعات في الصلاة والتنبيه العام بمواقيتها ، والدعوة اليها ، لتؤدى جماعة في أوقاتها ، وذلك بالأذان ، فكان شرعه في هذا الإبّان •

يقول في ذلك ابن اسحاق : « فلما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع اليه اخوانه من المهاجرين ، واجتمع اليه أمر الأنصار ، استحكم أمر الاسلام فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصوم وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الاسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوؤوا الدار والايمان •• وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين قدمها ، انما يجتمع الناس اليه للصلاة لحين مواقيتها ، بغير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعل بوقا كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس،فنحت ليضرب به للمسلمين»•

ويلاحظ على هذا الكلام أمران :

أولهما ــ أن ما ذكره من قيام الصلاة وفرضية الزكاة والصوم ، واقامة الحدود وفرض الحلال والحرام انما كان في أوقات مختلفة من بعد ذلك ،وبعضها كان قبل الهجرة ، وهو فرض الصلاة ،فقد فرضت في الاسراء والمعراج ، كما

هو مذكور في موضعه ، ولعل الذي جدفي المدينة هو قيامهـــا جماعة في أمن واطمئنان ، وعبارة ابن اسحاق قـــدتوميء لذلك •

الأمر الثاني ــ أن كلام ابن اسحاقفيه أن خاطر البوق اليهودي خطر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذلك ناقوس النصارى •

ولكن روى ابن ماجه عن ســالم بنعبد الله عن أبيه أن رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم استشار النـاس لمايهمهم من الصـــلاة ، فذكروا البوق ، فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى •

وهذا الخبر يخالف ما قاله ابن اسحاق في روايته من جهتين :

أولاهما : في أن رسول الله صلى الله عليـــه وسـلم هو الذي هـم بالبوق ، والرسول في الرواية الثانية قد استشار ، وكره عليه الصـــلاة والســـلام ما أشاروا به •

الثانية : أن رواية ابن اسحاق فيهاما يفيد أنه أخـــذ في تنفيذ فكـــرة الناقوس ، مع أن الرواية الأولى تقــولانه كرهه ، ونحن نرى أن هذه الرواية الأخيرة هي الأليق بمقام الرسول صلى الله تعالى عليــه وسلم ، وهي الأنسب ، فهي عندي أصح ، والله أعلم •

ويسترسل ابن اسحاق في أمر الأذان ، فيقول : « فبينما هم على ذلك اذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه «النداء ، فاتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : انهطاف بي هذه الليلة طائف : مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمــل ناقوسا فييده ، فقلت له يا عبد الله أتبيع هـــذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ! قلتندعو به الى الصلاة • قال أفلا أدلك على خـــير من ذلك ! قلت ومـــا هـــو ؟قال : تقـــول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا اله الاالله أشهد أن لا اله الا الله ، أشهـــد أن محمدا رسول الله،أشهد أن محمدا رسولالله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفـــلاح،اللهأكبر الله أكبر ، لا اله الا الله ، فلمـــا أخبر بها رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم قال انها لرؤيا حق ان شاء الله ، فقم على بلال فالقها عليـــه ، فانه أندىصوتا منك فلما أذن بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو في بيته ، فخـــرج الىرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يجر رداءه ، ويقول يا نبي الله ،والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت مثـــل

الذي رأى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فلله الحمد على ذلك ·

هذا سياق ابن اسحاق في هذا الاهتداء الى صيغة الأذان · وأن ذلك كان برؤيا رآها بنصه اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان هذا نتيجة لرواية الشورى التي استشار بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه ·

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقر الرؤيا فكان الأذان على ذلك شرعا باقرار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وذلك على أن اقرار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي شرع الأذان لا الرؤى والأحلام ·

ولكن علق ابن هشام في سيرته على رواية ابن اسحاق بأن الوحي قد نزل بالأذان ، وصيغته ، فقال : ذكر ابن جريج قال : قال لي عطاء : سمعت عبيد الله بن عمير الليثي يقول : ائتمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس اذ رأى في المنام : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليخبره بالذي رأى ، وقد جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الوحي بذلك ، فماراع عمر الا بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين أخبره بذلك ، قد سبقك بذلك الوحي ·

وان هذه الرواية تصرح بأن الوحي نزل على النبي عليه الصلاة والسلام وفيه تفصيل الآذان بأركانه وهي ليست رؤيا عبد الله بن ثعلبة بن ربيعة ·

وانا نميل الى هذه الرواية ، وذلك،لأن الأذان شعار من شعائر الاسلام ، وانه تعرف به الجماعات الاسلامية ، وما يكون كذلك من العبادات لا يكون من الأمور التي تكون بشورى الناس ،وقد تكون الشورى ابتداء لمعرفة طريق الاعلام ، فجاء الوحي بهذا الطريق الذي يعتبر سنة ، وما كانت السنة تعرف بطريق رؤى الآحاد ، انما تكون بوحي من الله تعالى ، وان الأذان لكل صلاة سنة مؤكدة ، وكثيرون من العلماء يقولون انه بالنسبة للجماعات فرض كفاية تأثم الجماعة كلها اذا تركته ·

وان تفصيل الأذان وبيان أجزائه التي لا يمكن أن يجزي الأذان الا بها لا تكون الا بأمر من الله تعالى ، لأن الأذان عبادة ، ولا تعرف أجزاء العبادة الا بوحي من الله تعالى لنبيه ، لا برؤيا لغيره مهما تكن مكانته في الاسلام ·

الإذن بالقتال

٣٥٥ ــ بعد أن استقر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اتجه الى تعميم الدعوة وحماية الضعفاء من المؤمنين الذين كانوا يفتنون في دينهم ، ويؤذون في اعتقادهم ، وكان لابد أن يكون ذلك بقتال المشركين للذين يؤذون المؤمنين ، ولابد من استنقاذ البيت الحرام من عبادة الأوثان ، وأن تحطم الأوثان التي تحيط به ٠

ولذلك شرع الله تعالى القتال ، فقال تعالت كلماته :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

كان الاذن بالقتال ، وفتح باب الجهاد ، وفي هذا النص الكريم بيان الباعث عليه ، والنتيجة التي ينتهي اليها ، وانها الخير ، ووسائل الخير تكون خيرا ولو كانت أمرا كريها ، مادام قد تعين هو الطريق ، وانه اذا تعين كان خيرا ولذلك قال تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ (٢)

(١) الحج (٢) البقرة

والآية التي كان فيها الاذن بالقتال فيها اشارات بيانية تليق بالقرآن أبلغ كلام في هذا الوجود الانساني ·

أولها ــ أن فيها الاذن بالقتال ، ولكنه لم يصرح بها ، اذ أنه صرح باشد ما يبعث عليه ، وهو أن القتال من جانب الأعداء قد وقع فعلا ، لأنه سبحانه وتعالى عبر بقوله « يقاتلون » بالبناء للمجهول ، أي أن المشركين قاتلوا المؤمنين فعلا ، فقد آذوهم وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل كما قال الله تعالى ، وحاولوا قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وحاولوا أن يقتلوا المبايعين في بيعة العقبة الثانية ، فكان التعبير بالبناء للمفعول دليلا على أن قتال المؤمنين في مقابل أنهم ابتدؤوا ، وهو دفع للأذى ، وللفساد في الأرض ، كما قال تعالى :

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ (١)

الاشارة البيانية الثانية أن الله تعالى صرح بأن القتال دفع للظلم أو منع لاستمراره ·

الثالثة ــ أن أهل الايمان هم أهل الحق ، فان قاتلوا فهو دفاع عنه ، وعن التوحيد ، والايمان به فهو قتال يحمل في باعثه ، وفي ذاته الدعوة الى الله تعالى ·

الرابعة ــ أن القتال الذي يكون جهادا في سبيله هو دفع الباطل ، والا كان الفساد في الأرض ، وألا يعبد الله تعالى فتهدم بيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، فالقتال نصرة لله تعالى ، وحماية للحق ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز ·

الخامسة ــ أن القتال فيه تمكين للحقائق الاسلامية ، فنتيجة القتال تمكين للذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، فالقتال من نتيجته أنه يمكن أهل الحق ، من الدعوة اليه بالقول وبالعمل ، وبذلك تقوم شريعة الله ·

---

(١) البقرة

وفي هذا اشارة الى أن غاية القتال بعد دفع الاعتداء ومنع الظلم ، هو التمكين للدعوة الاسلامية ، وأن يدخل الناس في دين الله تعالى مختارين من غير فتنة ، ومن غير ارهاق لهم في عقائدهم.

وبذلك نأخذ من الآية الكريمة أن الباعث على الجهاد في الاسلام أمران :

أولهما : دفع الظلم ومنع الفتنة ـ كما قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (١)

وأن الاعتداء يرد بمثله ، فمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي جاء بالحق لا يدفع ارادة الأذى بالسكوت عليه واستمراره ، بل يدفع الاعتداء بمثله ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢)

الأمر الثاني : هو التمكين للدعوة الاسلامية ، بأن تزال المحاجزات التي يقيمها الملوك والحكام الظالمون بين دعوة الاسلام ، والاستجابة لدين الحق أو أن يعوقوه ، وليس معنى ذلك حمل الشعوب على الدخول في الاسلام كرها بقوة السيف ، بل ان مؤداه أن يعرفوا الاسلام ، ويتمكنوا من تلقي الدعوة الاسلامية ، فاذا عرفوها فقد تبين الرشد من الغي ، والحق من الباطل فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ولذلك قال تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (٣)

(١) ، (٢) ، (٣) البقرة

أول القتــال

٣٥٦ ـ أخرج المشركون من قريش المؤمنين من مكة ، وجردوهم من أموالهم ، وفتنوهم في دينهم ، فكان لابد من أن يضايقوهم كما ضايقوا المؤمنين ويردوهم عن غيهم ، ويعلموهم أن الباطل لا بقاء له ، بل ان للحق قوة ، وانه أبلج ، ابتدأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بارسال السرايا ، وهي طوائف صغيرة من الجيش على رأسها قائد من القواد ، فهي تشبه كتيبة يرسلها القائد الأكبر ، لتحارب ، أو لتمنع الطريق عن قوم من الأعداء ، أو كسرية الجيوش في هذه الأيام وقد فهم بعض الكتاب من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ بالسرايا تصادر عير قريش ، أو طائفة من تجار المشركين أي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ بالحصار الاقتصادي ، ونحن نفهم من الحصار الاقتصادي الحصار الذي يفرض على موارد الجماعة كلها من رزق ، أي أن الحصار يفرض على قريش كلها .

ونحسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يريد أن تصاب قريش كلها بمجاعة ، فما كانت قريش كلها على طريقة أبي جهل وأبي سفيان ومن على شاكلتهما من الذين ناوؤوا الدعوة ابتداء ، واستمروا على غيهم الى أن كان الفتح المبين ، وكان منهم الساكتون الذين لم يعادوا ، ولم يناوئوا ، وان لم يؤمنوا ، وليس من شأن المبادىء الاسلامية أن يؤخذ المطيع بظلم العاص أو المعتزل بظلم الذي يرتكب الشر ، وفي قريش من كان مكرها غير مختار ومظلوماً مأسوراً ، ومنهم من كان يربطه بالمؤمنين مودة وصلة ، بل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

والحصار الاقتصادي يعم ولا يخص، اذ يعم من بلغوا أقصى غايات الشر ، ومن سكتوا ، ومن توادوا :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (١)

ولكن هذه السرايا كانت لمناهضة زعماء قريش ، اذ كانوا أصحاب المتاجر التي تحملها العير وقتاً لآخر ، ولأن أولئك الزعماء ، أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ، فكان حقاً على هؤلاء أن يضايقوا من الذين أخرجوهم من أموالهم معاملة بالمثل ، وليأخذوا مقابلا لبعض ما أخذ منهم ، وليذيقوا أولئك الزعماء وبال ما صنعوا .

(١) فاطر

أول السَّرايا

سَرِيَّة حَمزة :

٣٥٧ ـ في السنة الأولى من الهجرة ، ابتدأت السرايا ، وهي عدد ليس بكثيف من المجاهدين يعترضون رجالامن قريش يتجهون الى الشام بأموال لهم ، ليمنعوهم من الذهاب الى الشام ،ويستولوا على ما معهم من المال أو يقاتلوهم .

ويلاحظ أن السرايا في تلك الأيامكان يختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجالها من قريش ،وليس معهممن الأنصار أحد ، وأول سرية كان قد عقدها لحمزة بن عبد المطلب ، وخرجفي رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة على سيف البحر وكانت عدةهذه السرية. ثلاثين رجلا من المهاجرين وكذلك كانت سرايا هذه السنة ، وكانلواؤها أبيض وقد اعترضوا طريقا لعير قريش ، وكانت لكبرائهم ، وكانتعدة من تعرض لهم حمزة ثلاثمائة على رأسهم عمرو بن هشام (أبوجهل) .

تقابل الفريقان المؤمنون بقيادة أسد الاسلام حمزة والثانية بقيادة لئيم قريش وخبيثها أبي جهل ، ولكن تحاجزالفريقان عن القتال ، وذلك لتوسط رجل من العرب كان موادعا الفريقيناسمه ابن عمرو الجهني ولذلك لم يحدث قتال .

سَرِيَّة عُبَيدة بن الحارث بن عبد المطلب :

٣٥٨ ـ وفي شوال من هذه السنةعقد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعبيدة بن الحارث لواء أبيض ،وأمره بالسير الى بطن رابغ ، في ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري .

التقت هذه السرية بمشركي قريشوكانت عدتهم مائتين ، عليهم أبو سفيان صخر بن حرب .

وقد كان اللقاء عند ماء يقال له الاحياء حيث كان المشركون ، والمؤمنون قد بلغوا ثنية المرة ولم يكن بينهم قتال، ولكن كان بينهم رمى بالسهام ٠

ولقد رمى سعد بن أبي وقاص الذيكان في هذه السرية وان لم يكن قائدها قد رمى بسهم ، فكان أول سهم رمي بهفي الاسلام ٠

هذا هو الترتيب الذي ذكره الواقدي في ترتيب السرايا ، فذكر أن سرية حمزة كانت أولا ، وأنها كانت أول سرية وتليها سرية عبيدة بن الحارث ٠

ولـــكن ابن اسحـاق يذكر أن أولسرية كانت سرية عبيدة بن الحارث ، لا سرية حمزة ويقول في ذلك :(وبعض الناس يقول راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلملأحد من المسلمين وذلك أن بعثه حمزة وبعث عبيدة كانا معاً فشبه ذلك عــلىالناس) ٠

هذا ما ذكره ابن اسحاق ، ولــكن الواقدي لا يذكر أنهما كانا معاً ، بــل يذكر أن واحدة كانت في الشهر السابعبعد الهجـــرة ، وهي سرية حمـــزة ، والثانية كانت في الشهــر الثامن بعدهاوهي بعثة عبيدة ٠

وهناك اختلاف آخر بين رواية الواقدي ورواية ابن اسحق ، فالواقـــدي يقول ان حمزة التقى بأبي جهل ، وابناسحق يقول انه التقى بعكـــرمة بن أبي جهل ٠

وابن كثير يظهر من لحن قــوله أنهيرى رواية الواقدي أثبت على ما سنبين ان شاء الله تعالى ٠

سرية سعد بن أبي وقاص :

٣٥٩ ـ وفي ذي القعدة من سـنةالهجرة أتى على رأس عشرة شهـور من الهجرة أرسل النبي صلى الله تعالى عليـهوسلم سعد بن أبي وقاص في سرية ، لأنه علم عليه الصلاة والسلام أن عــيرالقريش ستمر بها ، فأرســل سعداً في عشرين من المهاجرين ساروا الى مــكاناسمه الخزار ، وقد عينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ألا يتجـــاوزوه ،ويقــول سعـد رضي الله تعـالى عنه : « خرجت في عشرين رجلا على أقدامنا »فكنا نكمن النهار ونســـير الليل حتى صبحنا الخزار صبح خامســة ، وكــانرسول الله وقد عهد الي ألا أجاوز الخزار

وكانت العير قد سبقتنا قبل ذلك اليوم وعلى ذلك لم يلق سعد أحداً من قريش ، ولم يأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمتابعتهم ، لأنه يظهر أنه عليه الصلاة والسلام كان يريد مباغتتهم في الطريق والمفاجاة تفزع العدو فينال منه ، والملاحقة لا تكون فيها هذه المفاجأة ،ولأنهم كانوا راجلين ، فلا يوغلون في الصحراء حيث لا مركب لهم •

والواقدي يذكر في روايته أن سرية سعد كانت عدتها عشرين أو احدى وعشرين ، كما نقل عن سعد رضي الله عنه ، ولكن ابن اسحاق يقول انه خرج ومعه ستمائة من المهاجرين •

ولعل رواية الواقدي أوضح وأقرب الى المعقول ، لأنه ثبت أن العير كان بها نحو ستين رجلا ويناسبهم عشرون وانهم راجلون •

بيان عن السرايا:

٣٦٠ — والسرايا الثلاث على كلام الواقدي كانت في السنة الأولى ، وقد حدد مواقيتها ، فالأولى كانت في رمضان والثانية كانت في شوال ، والثالثة كانت في ذي القعدة •

ولكن قال أبو جعفر بن جرير رضي الله عنه في تاريخه وعند ابن اسحق أن هذه السرايا الثلاث كانت في السنة الثانية من الهجرة •

ونلاحظ أن ابن اسحق لم يعين أكان في السنة الثانية أم كان في الأولى ، ولكن قد يفهم ذلك لأنه ذكرها بعد غزوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أولى غزواته ، وكانت في ودان ، وهي كانت في صفر من السنة الثانية ، وقد صرح بذلك ابن اسحاق ، وذكر بعدها الغزوات الثلاث ، واذا كانت الأحداث ترتب في الذكر بترتيب زمنها ، فانه تكون هذه السرايا في السنة الثانية ، ولكن نلاحظ أن ابن اسحاق في سيرته يتكلم في بعض الوقائع في غير وقت وقوعها ، لمناسبة اقتضت ذكرها في غير أوانها •

وعلى فرض أن ابن اسحاق يعد هذه السرايا في السنة الثانية ، فان الحافظ ابن كثير رجح ما قاله الواقدي ، ويقول والواقدي رحمه الله عنده زيادات حسنة ، وتاريخ محرر غالبا • فانه من أئمة هذا الشأن الكبار ، وهو صدوق في نفسه ، كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا الموسوم بالتكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهل ، ولله الحمد والمنة •

مقدار استمساك قريش باعتقادها :

٣٦١ ــ وهناك ملاحظة أخرى غير ملاحظة الزمن ، والروايات فيه ، وهي تتعلق بقريش ، ومقدار استمساكهـا في اعتقادها ٠

ذلك أن الذين كانوا يخرجون لحماية غيرهم كان منهم من هو مؤمن ، ولكن يكتم ايمانه ، وكانوا يخرجون في متاجر قريش عساهم يجدون ســبيلا لأن يلحقوا بالمؤمنين اذا كانت الهجرة قـدفاتتهم عند خروج النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فانها لن تفوتهم من بعد ،فانه قد حدث عند التقـاء سرية عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب بعير قريش،التي انصرف الفريقان فيها ، ولم يتقاتلا فر من القرشيين الى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة ،وعتبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف ، وكانا مسلمــين ولكنهما توصــلا بالكفار الى المسلمين ،فوصلا الى المسلمين بطـــريق المشركين ليأمنا الايذاء والشر ٠

خروج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد

٣٦٢ ـ أذن للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال كما تلونا في الآية الصريحة بالإذن وهي قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

الى اخر هذه الآيات التي تلوناها من قبل ٠

وعندئذ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة ، وأخذ يرسل السرايا سرية بعد سرية ، ثم كانت الغزوات ، ونرى في اصطلاح مؤرخي السيرة أنهم يطلقون السرية على كل بعث يبعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعدد من المؤمنين قل أو كثر ، (وفي الغالب لايكون كثيرا) الى لقاء المشركين ، ولم يخرج عليه الصلاة والسلام مع ذلك الجيش ، أما الغزوة فانه صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج فيها مجاهدا بنفسه ، سواء أقاتل بالفعل أم لم يقاتل ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ الجهاد بالسرايا الثلاث التي بعثها في رمضان وشوال وذي القعدة ، وهي سرية حمزة بن عبد المطلب ، وسرية عبيدة بن الحارث ، وسرية سعد بن أبي وقاص ٠

ثم ابتدأت الغزوات في السنة الثانية ٠

وقد اختلف المؤرخون في عدد غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما كان اختلافهم في أصل الوقائع أو عددها ، انما كان سبب الاختلاف هو اختلافهم في خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع الجيش أو عدم خروجه أيعد غزوة أو سرية ٠

وعند التحقيق نجدهم متفقين على العدد ، واختلفوا قليلا في وصف الخروج ، وكلمة مغازي رسول الله تعالى عليه وسلم عامة تشتمل على الغزوات والسرايا ٠

---

(١) الحج

وعدتهم كما روى الامام أحمد في مسنده ثلاث وأربعون ، فقد روي عن قتادة أن مغازي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث وأربعون أربع وعشرون بعثا ، وتسع عشرة غزوة ، خرج في ثمان منها بنفسه : الأبواء ، بدر وأحد والأحزاب ، والمريسيع ، وخيبر وفتح مكة ، وحنين .

وروي عن الزهري في هذه الغزوات الثماني أنه قال : هذه مغازي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل فيها يوم بدر في رمضان سنة ثنتين ، ثم قاتل يوم أحد في شوال سنة ثلاث ، ثم قاتل بني المصطلق وبني لحيان في شعبان سنة خمس ، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست ، ثم قاتل يوم الفتح في رمضان سنة ثمان ، ثم قاتل يوم حنين ، وحاصر أهل الطائف في شوال سنة ثمان ، ثم حج أبو بكر سنة تسع ، ثم حج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع سنة عشر .

ومن هذا السياق التاريخي يتبين أن الغزوات تسع عشرة ، والبعوث أربع وعشرون ، وأن الغزوات منها ما كان فيه قتال بين المؤمنين والمشركين ، ومنها مالم يكن فيه قتال ، أو جاء شبه الانهزام لخطأ كان من المقاتلين ، وقد يكون انتصار المؤمنين بغير قتال ، بل كان برعب وريح ، كما كان في الخندق فانه لا يعد فيها قتال ، ولو كانت الهزيمة للمشركين ، وانما كان القتل والقتال في بني قريظة ، وقد كانت هناك غزوات لا قتال فيها ، وأول غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن فيها قتال ، ومنها الابواء والعشيرة ، وغطفان وبدر الأولى ، ومن أعظم الغزوات التي لم يقاتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحديبية فقد كانت فتحا لابتداء سلام بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش ، ولذلك قال الله تعالى فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ (١)

(١) الفتح

الحرب الفاضلة أو حرب النبوة

٣٦٣ ـ لم يكن في السرايا التي بعث بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتال ، بل كانت نتيجتها سلما وما كان الفريقان يلتقيان الا ليفترقا في سلام ، وان لم يكن ذلك دائماً ، الا ما كان من رمية رماها سعد بن أبي وقاص في سرية عبيدة بن الحارث ، ومع أنه لم يكن في هذه السرايا قتل ولا قتال كانت ذات فائدة ، لأنها أعلمت قريشاً أن الاسلام صارت له قوة فاما أن يسارعوا اليه ، ولا يكونوا آخر الناس، واما أن يسارع القصاص ، والرد على ما سبقوا به من الاعتداء • او من جهة أخرى يشعرون بأن قوة الاسلام ستنقذ المؤمنين الذين لا يزالون يفتنونهم عن دينهم الذي ارتضوه والفتنة أشد من القتل ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، ومن جهة ثالثة يحسون بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم سيضايقهم بالحق ، كما ضايقوه بباطلهم •

وكما يضايقون أصحابه من المستضعفين في ديارهم، وذلك بمصادرة أموالهم كفاء لما أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم •

فكانت هذه السرايا الأولى في السنة الأولى من الهجرة اشعاراً لهم بأن الاسلام قد أمده الله تعالى بالقوة ، ليرهبوه ماداموا لم يسالموه ، بل انهم لم يرغبوه•

وكانت كذلك غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأولى في الابواء والعشيرة ، وغطفان وبدر الأولى ، فقد كانت خالية من القتل والقتال ، بل كانت لهذا الإشعار •

حتى اذا شعرت قريش بهذه القوة المؤمنة ، وكونوا جيشاً كثيفاً ، وساروا به ولم يسبق عيراً ، وبدا أنهم يرومون الحرب ، اذ استعدوا لها ، وأرادوا الاعتداء بها ، كان القتال ، لأنهم كانوا المهاجمين ، وما كان محمد لينظر حتى يغزوا المدينة بجيشهم ، بل لا بد أن يلقاهم ، لأنه ما غزي قوم في عقر

دارهم الا ذلوا ، كما قال بطل الجهادعلي كرم الله وجهه الذي رباه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمه الحكمة وفصل الخطاب ٠

ولكن قد يسأل سائل لماذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم محاربا ؟ ونقول في الجواب عن ذلك انه لم يكن بدعاً من الرسل في ذلك ، لأن موسى وهو من أولي العزم من الرسل حارب ،ودعا بني اسرائيل الى الحرب ولكنهم ارتدوا على أدبارهم فانقلبوا خاسرين .وقالوا وحال الذلة والجبن تدفعهم :

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (١)

والمذكور في التوراة التي بأيديهم أن موسى عليه السلام حارب ملوكا ، واخترق بجيشه ديارهم ٠ وداود عليه السلام حارب وقاتل ٠ وكذلك ابنه سليمان ٠

واذا كان عيسى لم يقاتل ، فلأنه ما شرع له القتال ، وكأنه كان تمهيدا للبعث المحمدي اذ أن بينهما مدة ليست كبيرة ، تبلغ نحو ستمائة سنة أو تزيد٠

وان رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كانت للناس كافة ، للأحمر والأسود والأبيض ، فكانت لا بد أن تجتاز الأقطار ، وتصل الدعوة قوية الى الأمصار، وان ذلك لا يكون الا بالاستعداد للقتال ، اذ أن العالم كان محكوماً بالملوك الغاشمين ، والرؤساء الظالمين ٠

وان شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاءت بمبادىء هي ضد الحكام ، وقد قاتلوه عليها ، فكان لابد أن تكون قوة مانعة من الظلم دافعة بالحق ، فكان لابد من الحرب أو الاستعداد لها ٠

وان الناس لا يستقيم أمرهم اذا لم تكن للمبادىء العادلة قوة تحميها بالحق من غير اعتداء ، وفضيلة الاسلام ليست فضيلة خانعة ضعيفة مستسلمة ،ولكنها

---

(١) المائدة

فضيلة قوية دافعة للشر ، حاملة على الخير ، فليس فيه من ضربك على خدك الأيمن فادر له الأيسر ، وانما فيه :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١)

وفيه العفو والصبر ، اذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٢)

والعفو لا يكون الا بعد أن يكون الأمر للاسلام فلا عفو الا عن مقدرة ، ويكون عزاً ولا يكون استسلاماً ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (ما زاد عبد بعفو الا عزا) وأمر سبحانه وتعالى بالصبر ،فقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٣)

وان الصبر يوجب ألا يندفع الجيش الى القتال ، بل يصابر ، عسى أن يكون الصلح،وألا تخرج السيوف من أغمادها كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يوصي جيوشه بذلك ٠

وان الصفح الجميل عمن آذوا أهل الايمان يحتاج الى صبر وقوة نفس ، فليس الصبر فقط في لقاء الأعداء ،انما يكون في ذلك ، وفي عظم النفس عن شهوة الانتقام ٠

وان حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما سنرى حرب فاضلة فيها الرفق وفيها الفضيلة ، وان اشتجرت السيوف ، وتلاقى الناس بالحتوف ٠ فهي تعلم الناس كيف تكون الفضيلة ،والسيوف تقطر دما ، وكيف تكون

---

(١) ، (٢) البقرة

(٣) النحل

المرحمة في الحرب ، وهي في أصلهاأمر مكروه في ذاته ، فاذا دخلتها الرحمة ، فانها تكون كالنسيم العليل في الحر اللافح ، وكالظل في الحرور ، وقبل أن نتكلم في غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نتكلم في بيان الفضيلة فيها ، وانا نأخذ ذلك من أوامر القرآن الكريم للمجاهدين وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في سيرها وفي انتهائها ، وفي وصاياه عليه الصلاة والسلام لجيوشه • وقد كان أصحابه من بعده يتبعونها ويحكمونها غير منحرفين عنها •

الفضيلة في الحرب

٣٦٤ ـ ان الرحمة من الفضائل الانسانية العالية، ورحمة الاسلام ليست انفعالا نفسيا وقتيا ، ولا شفقة أو رأفة شخصية تكون على الفاضل والآثم، والبر والفاجر ، بل ان رحمة الاسلام هي الرحمة بالعامة ، وقد تكون الحرب رحمة بالعامة ، بل انها يجب أن تكون كذلك ما دامت حربا فاضلة ، كما تلونا من قبل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

فالشفقة على الظالم والامتناع عن الاقتصاص منه ليست من الرحمة في شيء ، لأنها تخفي في ثناياها قسوة على المظلوم ، ولذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من لا يرحم لا يرحم » .

فالحرب الاسلامية شرعتها الرحمة ، وأظلتها الرحمة ، وأنهتها الرحمة واذا كان من الرحمة بجسم الانسان أن تقطع بعض الأجزاء المؤفة ، حتى لا تفسد الجسم، فان من الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد ، لأنها تؤف الجماعة ، وأن يرد الاعتداء بقطع عناصره لسلامة الناس ، وأن يعيشوا آمنين ، وكلمة الحق تسري بينهم ولا محاجزات تحول دون النطق بها .

ولنتكلم في حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، معتمدين على كتاب الله تعالى ، وعلى السنة النبوية .

فالباعث عليها ، كما نص القرآن الكريم رد الاعتداء على المسلمين ، فقد قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢)

---

(١) ، (٢) البقرة

وقال تعالى :

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ (١)

وبين سبحانه أنه يُعامل المعتدون بمثل اعتدائهم وقال تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢)

وذلك بعد قوله تعالى :

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ﴾ (٣)

ونجد من هذه النصوص أن ابتداء الاعتداء كان من المشركين ، وأنه كان لاعتداء المشركين على الحرية الدينية وفتنة المؤمنين في عقائدهم ليحملوهم على تركها ، واننا اذا أمرنا برد الاعتداء بمثله ، طلب منا مع ذلك طلبان جليان آخران وهما النهي عن الاعتداء، فنهينا عن الاعتداء ، والاعتداء بأن نقاتل من لم يبدأنا بالقتال ، ولم يمنع الدعوة الاسلامية من السير في طريقها، والطلب الثاني أمرنا بالتقوى ، وهو التزام الفضيلة ، فان كانوا يعتدون على الأعراض لا نجاريهم ، وان كانوا يمثلون بالقتلى لا نمثل بقتلاهم كما سنبين ان شاء الله تعالى ٠

لقد علمنا مما قصصنا من السيرة الطاهرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكث يدعو الى الاسلام ثلاث عشرة سنة توالى فيها الأذى على المؤمنين ، وخصوصاً ضعفاءهم ، ولم يسلم من أذاهم الا من يكون ذا بطش يخشى بطشه كعمر بن الخطاب وحمزة بن عبدالمطلب، ومع ذلك لم يسلموا من الأذى تماماً، بل كانت سلامتهم نسبية ٠

---

(١) ، (٢) ،(٣) البقرة

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسلم من أذاهم ، حتى رموا عليه وهو ساجد فرث جزور ، وحتى لقد هموا بقتله عليه الصلاة والسلام ، ليلة الهجرة ، وقد هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهاجر من كان عنده قدرة على الهجرة .

ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم الذي ارتضوا ، والمشركون سادرون في غيهم ، وترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ضعفاء ، لا قدرة عندهم على الهجرة ، وهم يعذبون أشد العذاب ، فهل من مقتضى الرحمة أن يترك هؤلاء يعذبون ، ويلقى بهم في المحابس ، انه لابد من أن يذوق الذين يؤذونهم وبال أمرهم .

وننتهي من هذا ومن النصوص السابقة الى أن الباعث على الحرب دفع الاعتداء ، ومنع الأذى المستمر وعقوبة الظالمين وتأمين الدعوة الاسلامية حتى لا تكون فتنة في الدين ، ويتبع الناس الدليل ، ولا يتبعوا الحكام الذين يرهقونهم ويسومونهم الخسف والهوان .

هذا هو أمر القتال في شبه الجزيرة العربية ، الذي ابتدأ في قريش ، ثم عم أجزاءها عندما اجتمعت القبائل على حربه في غزوة الأحزاب ، أو غزوة الخندق ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من قصبته في المدينة الظاهرة ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

أما بالنسبة لغير من كانوا في الجزيرة العربية ، فقد أرسل الى الملوك والرؤساء الكتب على أيدي رسل من حكماء أصحابه أرسل الى هرقل ، والى عظيم مصر ، والى كسرى وغيرهم من الملوك . وبعض أمراء البلاد النائية من البلاد العربية .

ولكن لم يجب الى الاسلام من غير العرب أحد ، ومنهم من أساء الرد، ومنهم من أحسن في الاجابة ، ولكن لم يجب داعي الله تعالى الى الاسلام ، ومنهم من لم يرد بالقول ، ورد بالعمل ، وأعلن برده العداء كالمشركين فكسرى همّ بأن

---

(١) التوبة

يرسل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يقتله ، وهرقل قتل واليه على الشام من أسلم من أهل الشام ، ولذلك اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام ، فكانت غزوة مؤتة ، ثم غزوة تبوك ، ثم وصيته بانفاذ جيش أسامة بن زيد الى الشام •

وبهذا نرى أن الباعث لحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو دفع الأذى ، وتمكين الدعوة ، ولم يكن ثمة اكراه على الدين ، لأن الله تعالى يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١)

ولم يثبت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أكره أحداً على الدين ، بل ثبت أنه أراد بعض الأنصار أن يكره ولده على الاسلام ، فنهاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك •

الأهبة قبل المعركة:

٣٦٥ ـ وكانت تتجلى الفضيلة في حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أخذ يرسل الجيوش الى الجهات النائية ، فقد كان عليه السلام يأمر جيشه بالتأني قبل أن يتقدم للقتال ، وكان يدعو المؤمنين الى ألا يتمنوا القتال ، لأنه امتحان القلوب وهدم الأجسام ، فكان عليه الصلاة والسلام يقول (لا تتمنوا لقاء العدو ، واذا لقيتموهم فاصبروا) •

واذا تعين القتال ، خيرهم بين الاسلام ، أو أن يعاهدوه ، ليأمن الاعتداء من جانبهم ، وذلك ما يشبه في العصر الحاضر ميثاق عدم الاعتداء ، أو أن يكون القتال ، وأنهم اذا قبلوا العهد أمن جانبهم ، وأمن أن تسير الدعوة في طريقها ، وأن يخلو له وجه الناس ، ويقنعهم بالحق فمن اهتدى فلنفسه ، ومن أساء فعليها •

---

(١) البقرة

وانا اذ نتجه الى ذلك الوادي المقدس يسترعي انتباهنا دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند القتال الذي يدل على شعوره صلى الله تعالى عليه وسلم بوحدة الانسانية ووحدة الخالق،فهو يقول في دعائه عليه السلام (اللهم إنّا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللهم اهزمهم ، وانصرنا عليهم) ، وما كان ذلك الجزء الأخير الا لأنهم معتدون على الحق ، وعلى الحرية الدينية بفتنتهم الناس عن دينهم وجحود بالحق ، ولقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على منع القتال حتى عند أخذ الأهبة ، فهو يقول لمعاذ ابن جبل وقد أرسله الى اليمن قائدا ٠

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فان أبوا فلا تقاتلوهم ، حتى يبدؤوكم ،فان بدؤوكم ، فلا تقاتلوهم ، حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك ، وقولوا لهم هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدي الله على يديك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت » ٠

ونجد من هذه الوصية أن نية السلم قائمة والجيشان قد تلاقيا ، فالقائد المسلم لا يقاتلهم الا بعد أن يدعوهم الى العهد الذي يكون فيه تأمين حرية الدعوة ، ثم هو لا يبدأ القتال ، بل يتركهم يبدؤون القتال ، وحتى بعد هذا البدء لا يقاتلهم حتى يقتلوا فعلا ثم يبين لهم العبرة في ذلك الدم الذي أراقوه ظلما وعدوانا ، فان لم يعتبروا لم يبق الا السيف ليحكم بأمر الله بينه وبينهم والله خير الفاصلين ٠

الرحمة في المعركة:

٣٦٦ ــ والرفق ملازم المعركة ذاتها ، كما كان في ابتدائها ، ذلك أنها حرب نبوة ، وليست مغالبة ولا تناحرا،ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم في وصف دعوته وحربه:(أنا نبي المرحمة،وأنا نبي الملحمة) ، وفي الحق ان المرحمة والملحمة متلاقيتان فما كانت الملحمة الا لأجل المرحمة ، اذ الرحمة الحقيقية في هذا العالم هي في قطع الفساد ومنع الشر ، واذا كانت الملحمة فقد تعينت سبيلا للمرحمة ٠

وانه كان يصاحب حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند ابتداء المعركة العمل على تاليف القلوب حتى وقد اشتجرت السيوف ، ولذلك يوصي عليه

السلام جنده وقد أرسلهم للقتال بقوله: « تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر أو وبر أن تأتوني بهم مسلمين أحب اليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » ٠

هي حرب رفيقة تتسم بالتأليف ،لا بالتقتيل ، وبالمحافظة على الأنفس والرجال الا أن تكون ضرورة ملجئة ،فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوصي بألا يقوم الجيش باتلاف زرع أوقطع شجر أو قتل الضعاف من الذرية والنساء ، والرجال الذين ليس لهم رأيفي الحرب، ولم يشتركوا فيه بأى نوع، ومن ذلك قوله في احدي وصاياه :

« انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ان الله تعالى يحبالمحسنين » ٠

وفي معنى هذه الوصية وصية أخرى، وهو قوله عليه الصلاة والسلام :سيروا باسم الله في سبيل الله تعالى،وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (تخونوا) ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ٠

ويقول عليه السلام لخالد بن الوليد : « لا تقتل ذرية ولا عسيفاً (أي عاملا) » ٠

وبهذه الوصايا يتبين أن الحرب النبوية الفاضلة لا يصح أن تكون اتلافاً وافساداً ، وتحللا من القيود الانسانية، ولذلك لا يباح في القتال كل شيء ، ولا يفعل ما يفعله القواد في هذه الأياممن اهلاك الحرث ، والنسل ، وافساد الزرع والقاء السم فيه ، ليتسمم الاحياء ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلمشدد في منع قتل الأطفال والشيوخ الذين لا يحاربون وليس لهم رأي في الحرب ، والنساء ، لأن القتال الذي كان من المسلمين انما كان لدفع الاعتداء والقصاص من المعتدين مادامو مستمرين أو على نية الاعتداء ، وأولئك ما كانوايقاتلون ولا يعتدون، وليس في طاقتهم أن يقفوا محاربين الدعوة الاسلامية أن تسير في طريقها ٠

وقد مر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على القتلى فرأى امرأة مقتولة ، فقال عليه السلام ما كانت هذه لتقاتل ،وأرسل الى خالد بن الوليد يأمره بألا يقتل عسيفاً ولا ذرية .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يغضب اذا بلغه أن جنده قتلوا صبيانا ، ولقد بلغه أن بعض الأطفال قتلهم جند المسلمين ، فوقف عليه السلام يقول لجنده : « ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ».

وكان عليه السلام يمنع قتل العمال، وكرر منع قتل العسفاء وهم العمال الذين يستأجرون للعمل ، لأن حربه عليه السلام لم تكن لقتل الأقوياء القادرين ، انما كانت لمنع اعتداء الذين يحملون السلاح ، أو يدبرون الاعتداء، والعمال ليسوا كذلك ، اذا لم يكن عملهم لتهيئة أسباب القتال .

وكان عليه السلام ينهى عن التخريب ، فكان يمنع قطع الشجر ، لأنه لا ضرورة توجب قطعه الا أن يتخذه العدو مستتراً له ، ليجعل منه كميناً ، يكمن فيه لجيش المسلمين ، فما كانت حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تسمح بالتخريب .

الفضيلة في حربه صلى الله عليه وسلم :

٣٦٧ ــ ليست حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كحرب الأنذال اللؤماء الذين يضعون السيف في موضع البرء وموضع السقم ، انما هي حرب الخلق القوي الذي لا يضع السيف الا حيث يكمن الداء ، ويستقر ، ليقتلع الشر من مكمنه ، فلا يقتل إلا من اعتدى وحمل السيف ، أو دبر الأمر لمن يحمله .

ولذلك كانت الفضيلة هي المسيطرة في كل أدوارها في ابتدائها وسيرها ، وانتهائها ، وانها اذ كانت لرد الاعتداء بمثله ، فهي مقيدة بالفضيلة لما ذكرنا من أن الله تعالى أمرنا بالتقوى عند رد الاعتداء ، فالمعاملة بالمثل مع التقييد بالتقوى توجب على جيش الايمان ألا ينتهك حرمات الفضيلة لأجل المعاملة

بالمثل ، فاذا تعارضت الفضيلة مع المعاملة بالمثل كان الواجب مراعاة الفضيلة ، لأنها المبدأ الذي لا يقبل التخلف كيفما كانت الحال .

وقد يعجب بعض الناس من الفضيلة تحكم في وسط السيوف ، وحيث تستباح النفوس ، فانها حيث استبيحت لا يبقى شيء يحترم ، ولكنا نقول انها حرب النبوة المقيدة بقانون السماء ،قام بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليعلمها للناس ، فانه ما دامت الحرب في نظام الوجود الانساني ، فانه لابد من أن تقيد بالفضيلة ، وأن يتولى تعليمها خاتم النبيين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو آخر صرح في نبوة السماء ، وان حرب النبوة هي حرب الفضيلة التي تدفع الرذيلة دفعا،وليس من المعقول أن يكون الباعث عليها الدفاع عن الحق والفضيلة ،وتنتهك الحرمات من أهلها في الميدان مجاراة الأراذل المعتدين ، فاذا كان العدو منطلقا من كل القيود الخلقية فجيش الفضيلة مقيد بالفضيلة ، فاذاكان العدو يهتك الأعراض ان استمكن، أو يقتل النساء والولدان والشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ، فان جيش الاسلام المؤمن لا يجاريهم لأنه مقيد بالفضيلة والخلق القوي .

واذا كان العدو يمثل بالقتلى، ويشوه أجسامهم بعد القتل ، فان جيش الفضيلة لا يفعل لقول القائد الأعظم المعلم الأول للحروب الفاضلة : « اياكم والمثلة » .

ولقد قتل المشركون في غزوة أحد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحبيبه ، أدنى قرابته اليه ، وسيد الشهداء كما سماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ومثلوا بجسمه الطاهر ، ومع منزلته منه عليه السلام لم يفكر في أن يمثل بأحد من قتلاهم فيما جد من بعد ذلك .

واذا كان الأعداء يجيعون الأسرى ،أو يقتلونهم بالعطش ، فان جيش المسلمين يعد من أقرب القربات اطعام الأسير ، تحقيقا لقوله تعالى في وصف المؤمنين الصادقين في ايمانهم :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (١)

(١) الانسان

احترام الكرامة الإنسانية :

٣٦٨ ـ واذا كانت الفضيلة لا بد من احترامها في أثناء الحرب ، للأمر بتقوى الله تعالى عند رد الاعتداء بمثله فمن الفضيلة المحافظة على الكرامة ، بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

فكرامة العدو محترمة ككرامة الولي على سواء وقد يعد بعض الناس ذلك أمراً غريباً ، حيث كانت السيوف متشابكة ،

اذ أن هذا ليس وقت التكريم ، بل هو وقت التقتيل ، ولكن لا غرابة ، فهي ليست حرب انتقام ، ولكنها قمع للشر ، ومنع لاستمراره ، ولا استمرار يتصور من مقتول ٠

ولذلك أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بدفن قتلى قريش ، لم يترك جثثهم نهباً لوحوش الأرض وسباع الطير ، أمر عليه السلام بوضع جثث القتلى من قريش في القليب وهو بئر جافة ٠

ولقد نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاجهاز على جريح ، كما نهى عن تعذيب القتلى ، اذ ضعفت قوة الجريح عن أن يقاوم ، وذلك كله لاحترام الانسانية ، ولأن القتال ليس القصد منه الا اضعاف قوة الطغاة ، ودفع الاعتداء وليس منها الانتقام ٠

وان المعاملة بالمثل التي تفرضها قوانين الحرب ، والتي تفرض بحكم رد الاعتداء به لا يسير به المسلم الى أقصى مداه ولو انتهكت الفضيلة والكرامة الانسانية ، بل ان المسلم بأمر الله تعالى مأمور بالتقوى عند رد الاعتداء ، وكانت حرب النبي هي المثل السامي في تنفيذ ، ذلك لأنه الذي يتعلم منه الانسان ان حارب أخاه الانسان ، فعندئذ يكون قانون الأخلاق هو الذي يحكم لا قانون الغابة ٠

---

(١) الاسراء

نهاية حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٣٦٩ ـ كانت نهاية حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنتهي بأحد امور ثلاثة :

أولها ـ الموادعة ـ وقد كانت عهود الموادعة التي كان يبرمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرغوبا فيها منه صلى الله تعالى عليه وسلم استجابة لقوله تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١)

ولقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢)

ولأن الأصل في العلاقة هو السلم ،والحرب لا تكون الا اذا دفعت اليها ضرورة رد الاعتداء بمثله مع التزام الفضيلة كما ذكرنا ، واذا كانت الموادعة فقد زالت ضرورة الحرب ،والضرورة تقدر بقدرها .

وقد عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موادعات ، كما عقد صلحا ،وعقد من بعده صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما معاهدات صلح آخذين بهديه ، مقتبسين من نوره ، وكلها كانت تبدو فيها الرغبة في الصلح من جانب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدخل في الحرب الا بعد عرض الصلح،حتى تتحقق ضرورة الحرب .

وان الموادعة لا يفرضها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القوة ، ان كان هو الغالب ، بل يفرضها بالسماحة وادناء القلوب النافرة .

---

(١) الانفال (٢) البقرة

ولعل أوضح الأمثال في الدلالة على ذلك صلح الحديبية ، فقد ذهب الى مكة ومعه جيش كثيف في عدده ، قوي في رجاله ، مستعد في عدته ، ليحج بيت الله الحرام ، ولكن ما ان عرضت فكرة المهادنة ، حتى سارع اليها وقبل من الشروط ما لا يقبله الا السمح الكريم ، وفيها كما يدل ظاهرها من الاجحاف بالمسلمين ما كان لغير نبي ان يقبله ، ولكنه قبله راضيا ، ولنذكر الخبر فيها ، كما روته الصحاح في السنة .

روى البخاري أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج في ذي القعدة من العام السادس ليحج الى بيت الله الحرام ، على ألا يقاتل الا اذا منع ، فلما بلغ قريشا عزمه عليه السلام ، ومجيئه مع أصحابه ، جمعوا له الجموع ليصدوه ، ومن معه ، فلما علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، وقد لبس لباس الحج ونواه ومعه الجيش الكبير ـ جمع أصحابه ، وقال : «أشيروا عليّ ، فقال أبو بكر : « يا رسول الله خرجت قاصداً البيت ، لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فمن صدنا عنه قاتلناه فقال الرسول الأمين امضوا على بركة الله » حتى اذا أشرف على مكة قال : والله لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها » .

ولما جاءت رسلهم اليه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم : « إنّا لم نجيء لقتال ، ولكنا جئنا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب ، وأخذت بهم فان شاؤوا ما ردلهم ، وأخلوا بيني وبينه » .

عرض عليه السلام الموادعة ، وهو القوي بجيشه ، وبنصر الله الذي فوق كل شيء فقبلوا المهادنة بشروط كان جلها كما يرغبون : أولها ـ أن يعود ولا يحج في عامه هذا ، وأن توضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وأن يعتمر الرسول وأصحابه في العام القابل.

وثانيها ـ أن من قدم المدينة من قريش مجتازاً الى الشام فهو آمن على دمه وماله .

وثالثها ـ أن من أتى محمداً من مكة مسلماً بغير اذن وليه رده عليهم .

ورابعها ـ أن من جاء ممن مع محمد مرتدا عن دينه لم يردد اليه .

هذه كلها شروط كلها كتبت برغبة قريش .

وهناك شرط واحد لمصلحة الدعوة الاسلامية ، وهي غاية الغايات ، وذلك الشرط أن من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو يبتغي الرزق فهو آمن على دمه وماله .

وهناك شرط سياسي لمصلحة الطرفين ، وهو أن من أراد أن يدخل في عقد مع محمد دخل ، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش دخل .

وربما تكلمنا عن تفصيل لهذا الكلام عليها في موضعها .

الأمر الثاني الذي تنتهي به الحرب ـ هو الصلح بانهاء القتال ،لا بالموادعة المجردة فيه ، والصلح حينئذ يكون على أساس العدالة والوفاء بكل ما يلتزم كلا الطرفين فيه من حقوق ، ويكون ذلك عهداً يجب الوفاء فيه بكل الشروط الجائزة شرعا ، وأن العهد الذي لا يكون فيه الدخول في الاسلام تكون قبل الحرب عند التخيير بين الاسلام أو العهد أو الحرب ، فيكون للحرب من أن تقع ، لا أن يكون منهياً لها بعد وقوعها .

أما الصلح المنهي للحرب بعد وقوعها ، فيكون باعلان الاسلام في ربوع الديار التي كان النصر فيها للمؤمنين .

والأمر الثالث الذي ينهي الحرب هو الانتصار للمؤمنين ، والاستسلام من الكافرين ، وهو النوع الثالث من الصلح الذي ذكرناه آنفاً .

مُعَامَلة المهزومين

٣٧٠ ـ تبدو السماحة المحمدية ،والرفق على أهله في الحرب النبوية عند هزيمة العدو واستسلامه ، ويلاحظ أنه في حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم يهزم المؤمنون هزيمة فيهاالاستسلام قط ، اذ أنه لم ينتصر خصوم الاسلام انتصاراً ساحقاً قط في عصرالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والراشدين من بعده .

وانه لما هزم المسلمون في غزوة أحدلم يستسلموا ، لأن الاستسلام فيه ذلة ، والاسلام دين العزة والكرامة ، فلايمكن أن يستسلم المؤمنون بقيادة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه عليه السلام جمع متفرق الجيش ، وأراد أن يتبع به المشركين ، فلما علموا هم بذلك مضوا في طريقهم قافلين ، ورضوا من الغنيمة بالاياب ، اذ علموا أنه مؤيد من عند الله ، وأنه يجاهد في سبيله .

واذا كانت الحرب تنتهي باستسلام العدو فمحمد في حرب النبوة لا يقول مقالة الغاشمين ، ويل للمغلوب بل تكون العدالة ، وتكون السماحة ، والرفق المحمدي .

كانت آخر حرب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع قريش هي التي انتهت بفتح مكة للاسلام والمسلمين ، وهنا يلتقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع من آذوه ، وأعنتوا أصحابه ، وساموهم سوء العذاب ، ومنهم من مات من شدة التعذيب ، وقد هموا بقتله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكنهم كانوا يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

التقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم ، وبكبير حرب الشرك أبي سفيان ، فنشر عليه السلام ، وهو الغالب والمسيطر راية الأمان عليهم ، فنادى مناديه عليه السلام : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن » .

وهكذا كان انتصار النبي الرفيق الرؤوف الرحيم نشراً للأمان في ربوع مكة حول بيت الله تعالى الحرام ، ولما التقى بالملأ من قريش ، قال لهم : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟! قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال لهم أقول ما قاله أخي يوسف : لا تثريب عليكم :اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء» أي حرب تنتهي بهذه السماحة وذلك الرفق غير حرب النبوة التي قام بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللناس في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

معاملة الأسرى في الإسلام

٣٧١ ـ امل أبلغ ما يدل على أن الحرب النبوية التي دافع بها صلى الله تعالى عليه وسلم عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله هي حرب لتعليم الناس أن الخلق الكريم يلازمها ، وأن الفضيلة تظلها في كل أدوارها ـ هو معاملة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للأسرى، لقد كان رفيقاً بالأسرى لا يهدر آدميتهم، ولا يعرف تاريخ الانسانية محاربا كان رفيقا بأسراه كمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يوصي بالأسرى ، ولما أسر من أسر في غزوة بدر ، فقد نزلوا في بيوت الأنصار ، وكانهم في ضيافة لا في أسر ، وذلك لقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « استوصوا بالأسرى خيرا » ولماذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوصي بالأسرى ، ويبالغ في الايصاء بهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم يؤسرون ونيران الحرب مستعرة ، وربما كان بعضهم من قتل الكثير من جيش المسلمين فيكون الاعتداء عليه متوقعا وغليظا لشدة الغيظ ، وانبعاث الرغبة في الانتقام، كما فعل الأوربيون والأمريكان فيمن سموهم مجرمي الحرب ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يضرب الأمثال السامية في تلك الحرب النبوية منع ايذاء الأسرى وأمر باكرامهم منعا لتلك الروح الانتقامية الغليظة •

وقد أخذ المسلمون في أسرى بدر بتلك الوصية الكريمة ، حتى ان الذين قد نزلوا في ديارهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم وأولادهم بالطعام •

وان أولئك الكرام كانوا في جهادين : أولهما جهاد السيف ونيران الحرب ملتهبة ، حتى اذا انطفأت كان الجهاد الثاني ، وهو ضبط النفس لتكظم الغيظ، فيكون منها ما لا يرضاه الله تعالى بالنسبة للمغلوبين ، وخصوصا الأسرى•

لقد تلونا فيما مضى من قولنا قوله تعالى :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾ (١)

---

(١) الانسان

وان الاسلام يوجب بالنسبة للأسير أمرين :

أولهما : أنه ليس لجيش الاسلام أن يأسر حتى يثخن في الأرض بأن يثقل جيش العدو بالجراح ، ولا تكون له قدرة على مواصلة القتال ، وقد قال الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

الأمر الثاني : أن القرآن الكريم الذي كان ينفذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويبينه كما قال تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

ان هذا القرآن يذكر بالنسبة للأسرى أمرين لا ثالث لهما ، وهما اما المن عليهم باطلاق سراحهم ، واما الفداء بالمال أو الرجال ، فقد قال تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (٣)

وكما أشرنا : ان الفداء قد يكون بالرؤوس، فيطلق من أسارى المسلمين في نظير أن يطلق المسلمون من أسرى الأعداء ، وقد يكون بالمال ·

واذا كان الأسير فقيراً ولا مال له ،فانه يتعين تسريحه ، ويكون ذلك من الصفح الجميل الذي أمر الله تعالى نبيه به بقوله : « فاصفح الصفح الجميل » ، ومن أخذ الأمور بالعفو ، كما قال تعالى:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الانفال — (٢) النحل

(٣) محمد — (٤) الاعراف ·

الجهاد رهبانية الإسلام

٣٧٢ ـ أعظم العبادات الجهاد في سبيل الله تعالى ، واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم المؤمنين الصلاة ، وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » فقد علمهم الحرب الفاضلة أيضاً ، بل علم الانسانية كلها الحرب الفاضلة ، ولسان حاله عليه السلام يقول : « حاربوا في سبيل الفضيلة وبالفضيلة كما رأيتموني أحارب » فحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أدت مقصدها ، وهو جعل كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ولا تزال المثل السامية التي صورتها الحرب المحمدية قائمة تهدي وترشد العالمين ، ولقد عد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى درجات الزهادة والعبادة ، الجهاد ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « الجهاد سنام الدين » ٠

وقد منع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرهبانية ، وقال لا رهبانية في الاسلام ، وبين أن رهبانية الاسلام هي الجهاد ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم :« في كل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد » ، وقد علل ذلك الامام السرخسي بأن فيه المشرة مع الناس ، والتفرغ عن عمل الدنيا والاشتغال بما فيه سنام الدين » وفيه أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، وهو صفة هذه الأمة ٠

وانه يتشابه المجاهد مع الراهب في ثلاثة أمور ، ويختلفان في أمر ٠
أما الأمور المتشابهة فهي :

أولا ـ اعتزال الناس جملة ، والخروج عن الحياة التي يحياها الناس لأنفسهم آكلين شاربين متمتعين بحلاوة الحياة وما فيها ٠

وثانياً ـ أن الراهب يعتزل النساء، والمجاهد التقي الذي نال شرف الجهاد ومعناه يعتزل النساء وينقطع عن الأولاد في مدة الجهاد ، وهم فلذات كبده ٠

وثالثاً ــ أن كليهما قد قدم نفسه لله تعالى ــ الراهب بالعبادة ليسمو في نظره الى الروحانية التي تقربه من الله تعالى في زعمه ، والمجاهد قد قدم نفسه فعلا لله تعالى ليحمي الحق الذي أمر الله بنصرته ، ونرى أن المشابهة قائمة ، وان اختلف القصد في كليهما ·

ومن هنا كان موضع الافتراق ، فالراهب يعتزل الناس لأجل نفسه وعبادته الانفرادية ، أما المجاهد ،فيعتزل الناس ، ليحمي الناس ، وينفذ أمر ربه ، فالأول عبادته في دائرة وجوده الشخصي لا تعدوه ، والثاني عبادته في دائرة النفع العام ، والأول لا تخلوعبادته من أثره ، والثاني عبادته كلها ايثار ·

وان الاسلام منع الرهبنة ، لأنهافرار من الحياة ومتاعبها ، ولذلك تعتبر القوانين الأوروبية الرهبان فيحكم الأموات، والرهبنة موتاً اختياريا، والاسلام لا يريد للمتعبد هذا الموت ولاذلك الفرار ، ولكنه يريد المؤمن نافعاً للناس ، حياً في وسط الأحياء ، حامياًلهم من المضار ، جالباً لهم المنافع ، اذ ليست العبادات الاسلامية سلبية ، بلهي ايجابية ــ هي المشاركة في رفعة النوع الانساني ، ولذلك يعد كل نفع للأحياء صدقة ، فقد قال عليه السلام : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرعزرعاً ،فيأكل منه انسان أو دابة الاكتب له به صدقة » وانه ليس معنى ذلك أنالروحانية في الاسلام لا وجود لها ، بل ان لها المقام الأول،ففي الصوم والصلاةوالحج ، روحانية بل كلها روحاني ، وفي الاعتكاف روحانية، ولكن روحانيةالاسلام ليست انقطاعاً عن الحياة والأحياء ، بل هي مع ما فيها من سمونفسي ، وتجرد من الجسم وأهوائه وشهواته ، هي لتحسين العلاقاتالانسانية ، وأن يكون المؤمن مالفاً يألف الناس ، ويألفونه ·

الخلاصة في حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٣٧٣ ـ هذه كلمة تقدمنا بها عندالكلام في حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنرد بها قول الذين يتقولون الأقاويل في حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويزعمون أن الحروب والدمار ليست من أعمال النبيين ، وهي فرية افتروها ، فانه ما دام الانسان ابن الانسان ، فانه لابد من مغالبة .

ومن وقت أن امتنع ابليس عن السجود لآدم استكباراً أو استعلاء ، والمعركة بين الخير والشر قائمة ، والعداوة مستحكمة بين الرذيلة تعتدي والفضيلة تدفع ، ومن وقت أن نزل آدم وذريته الى الأرض ، وابليس الذي قال لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، من هذا الوقت وقد تحقق قوله تعالى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (١)

والنزاع بين الخير والشر قائم . وليس من الفضيلة أن يترك الشر يرتع ، ولا يدفع ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (٢)

وان أولئك الذين يعترضون على قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يتصورون الحرب الا مغالبة بشرية كما تتغالب الوحوش على فريسة تأكلها، أو على غابة تحتلها ، ولا يتصورون لفرط ماديتهم أن الحرب تكون لاعلاء الحق وخفض الباطل ، وكذلك كانت حروب النبيين موسى وداود ، وسليمان،

---

(١) الاعراف (٢) البقرة

وغيرهم من الأنبياء ، وما كان قتالهم شرها الى الدماء ، فمعاذ الله وتنزهت ذاته الكريمة فلا يرسل الا ملكا كريماً .

وننتهي من هذا الى تقرير هذه الحقائق التي بدت من البحث واضحة نيرة.

الحقيقة الأولى : أن حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كانت أمراً لابد منه ، ليقيم الحق ويخفض الباطل، وما كانت رسالته تدعو الى استخذاء الخير أمام الشر ، وما كانت دعوتهم لتسير في مسارها الا اذا أزالت الحواجز التي كانت تحاجز دونها ، ليتم التبليغ، والناس بعد ذلك يختارون الهداية أو يستمرون على الغواية :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

الحقيقة الثانية : أن حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت حرباً فاضلة مثالية تعلم الانسان أنه قد يكون محارباً وهو فاضل، وأن الانسانية تحترم ، والسيوف مشتجرة .

الحقيقة الثالثة : أن حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يتبعونه في هديه ، ويتخذونه أسوة في حربه وفي سلمه هي عبادة ، لأن رفع الحق والحرب لرفعه هو في ذاته عبادة ،فليست عبادة الاسلام عكوفاً في الصوامع من غير عمل نافع ، بل كل عمل نافع فيه عبادة اذا نواها المؤمن « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى » .

(١) الزمر

أدوار الحرب المحمدية

٣٧٤ ـ كان لابد قبل أن نخوض في حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأدوارها ، والمعارك التى خاضها ـ من أن نسبق بالقول في أوصاف حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،فان ذكر الحرب قد يفزع ، ويرهب ، فكان من الضروري أن نعرف القارئين بانها ليست كحرب الناس تستمد أحكامها من الغلب بالظفر ، والناب ،وأنها حرب نبوة تدفع اليها الفضائل الانسانية ، ويظللها الحق والخلق الكريم في الباعث عليها ، وفي ابتدائها ، وفي سيرها ، وفي الانتهاء منها ، وفي معاملة المغلوبين ، ليتميز الخبيث من الطيب ، ولكيلا يتطاول ملحد في دين الله على مقام الرسالة ، ومكان الهداية ، ويقع في القول بغير حق ويفتري بالباطل ، فنضع الحقائق بين يديه ، فان شاء استنار بها ، وان طمس الله تعالى على بصيرته فما له من هاد ، ويكون كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وبعد هذه التقدمة نقول ان حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذت أدوارا ثلاثة :

الدور الأول: توجه عليه الصلاة والسلام للتصدي لمتاجر قريش ليشعرهم بقوة الحق ، وليحملهم على منع الفتنة في الدين ، وليدركوا نور الحق ، بعد أن تبين نوره قوياً وهاجاً ، وليعلموا أنه لاملجأ لهم من الله الا اليه .

والدور الثاني : تلقيه لمن يهاجمون المدينة لينالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه . ظانين أنهم بذلك يقتلعون الاسلام من جذوره ولينالوا منه نيلا ، قد ابتدؤوه في مكة ، وحاولوا أن يقطعوا شجرته في المدينة ، حاسبين أنه قد استغلظ سوقها .

وفي هذا الدور كانت بدر الكبرى، وأحد ، والخندق أو الأحزاب ،ومعها كان اجلاء بني قينقاع وبني النضير ،وبني قريظة .

الدور الثالث : كان في الخروج الى العرب الذين قاتلوه كافة ، فكان حقاً عليه أن يقاتلهم كافة ، كما أمره الله تعالى بقوله :

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (١)

وفي تلك الغزوات كان النبي يعمم الدعوة الى الاسلام ، لأنه عليه السلام كان يخيرهم بين الاسلام ، ويبين حقيقته وأركانه ، وبين القتال ، واذا اختاروا السلم كان ، وان اختاروا الحرب ،وهزموا ، وجدوا في رفق المعاملة ولين القوي وعطفه مالم يحتسبوا، فيألفونه،ويدخل الايمان في قلوبهم .

وانه في هذا الدور قد أخذت الحرب تنتقل من جزيرة العرب الى خارجها، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ يدعو الملوك ورؤساء الدول الى الاسلام ، أو أن يفتحوا الطريق أمام الدعوة الاسلامية ، فما آمن منهم الا النجاشي ملك الحبشة ، ومنهم من لم يجب ، ومنهم من أساء في الرد ،ومنهم من أجاب جواباً رقيقاً ولكنه لم يؤمن .

وحدث أن ملك الروم قد قتلت جيوشه من أسلم من أهل الشام ، فتعرض المسلمون لفتنة دينية كالتي كانت في مكة ، وأمر الله تعالى بالقتال لأجلها ، فقال تعالى :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ (٢)

ولذلك كانت غزوة مؤتة ، وغزوة تبوك من بعدها .

وقد تجمع اليهود الذين أجلاهم من المدينة في خيبر ، لينقضوا على المدينة، فكان لابد أن يساورهم ، قبل أن يساوروا المدينة ، وهكذا .

---

(١) التوبة (٢) البقرة

الدَّوْرُ الأول

٣٧٥ ـ وان هذا الدور يصح أن نقسمه الى قسمين : أحدهما لم يلق فيه حرباً ، ولا قتالا ، بل كان اللقاء ينتهي بالمسالمة ، وكان فيه تأليف للقلوب النافرة ، وتقريب الاسلام من العقول والنفوس ، وفيه بيان لقريش أن الاسلام قد أعزه الله تعالى ، وأن المسلمين صاروا فوق منالهم ، والناس يستقبلونه ، وقد أرادوا أن يحولوا بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم .

والقسم الثاني كان فيه قتل وقتال .

وفي القسم الأول كانت غزوات أربع خرج فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل غزوة بدر الكبرى التي هي ابتداء القسم الثاني من هذا الدور .

وتلك الغزوات التي لم يكن فيها قتال هي غزوة الأبواء ، وتسمى الودان وغزوة بواط ، وغزوة العشيرة ، وغزوة بدر الأولى ، وكانت بينهما سرية عبد الله بن جحش والغزوات الثلاث الأولى كانت في الطريق بين المدينة ومكة ، وأما بدر فكانت قرب المدينة ، وان كانت على هذا الطريق وغزوة أبواء ، أو ودان كانت في صفر في السنة الثانية ، وودان قرية كبيرة من أمهات القرى ، وقريب منها الأبواء ، وكانت الغزوة بينهما ، ولذا صح أن تسمى بكل واحدة منهما ، وهما على مقربة من الجحفة ، وبين المدينة ، وتبعد عن المدينة بنحو ثلاثة وعشرين فرسخاً .

وقد كان خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في جمع من المهاجرين ليس فيهم أنصاري وسبب الخروج أنه علم أن عيراً لقريش قد خرجت ، فترصد لها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لكن وصل بعد فصل العير عنها ، ولقي بني ضمرة ، فتوادع معهم على أن ينصروا المسلمين اذا دعوهم الى النصرة وأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن على المسلمين نصرهم على من يعتدي عليهم .

وكان الذي تولى العقد عن بني ضمرة مخشي بن عمر الضمري ، وكان سيدا في قومه في زمانه ، وقد خلف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سعد بن عبادة على المدينة ٠

وقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية صفر ، وكانت غيبته عن المدينة خمس عشرة ليلة (١) ٠

غزوة بواط :

٣٧٦ ــ في ربيع الأول بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش مقبلة من الشام ، أميرها أمية بن خلف فيها مائة رجل ، ومعها ألفا بعير وخمسمائة ، فخرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في جمع مائة من المهاجرين وخلف عنه في المدينة سعد بن معاذ ، وحمل لواءه سعد بن أبي وقاص ، وبواط ــ بفتح الواو ــ جبل من جبال جهينة من ناحية رضوى ٠
ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عند ما وصل الى هذا المكان لم يلق كيداً ٠

غزوة العشيرة : (٢)

٣٧٧ ــ في جمادى الأولى من هذه (السنة) علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش ذاهبة الى الشام ،فخرج عليه السلام لملاقاتها ، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها ذات الساق ، فصلى عندها ، فكانت مسجده ، وصنع للرسول طعام فأكل وأكل أصحابه ، ثم استقى له من ماء يقال له المشيرب ، وأخذ يتابع البحث عن تلك الشعاب المتعرجة ، ثم اعتدل في الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها ، جمادى الأولى ، وليالي من جمادى الآخرة ٠

ولكن العير قد سبقت ولم يدركها ،فلم يلق حرباً،ولكنه عاد بتألف القلوب، فوادع بني مدلج ومن معهم من حلفائهم ، فاذا كان لم يدرك العير ، ولم

(١) نهاية الارب للنويرى ج ١٧ ص ٤

(٢) يقال عنها العسيرة والعشيرة بالمهملة ، وتحذف التاء فيها .

يكسب منها مالا ، فقد كسب قلوباً ،وألفها ، وذلك هو أول أعمال الرسالة المحمدية ·

وقد خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة أبا سلمة الأسدي، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ،ويذكر ابن اسحاق أنه في هذه الخرجة، كنى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بكنية (أبو تراب) فيقول « ويومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : فحدثني يزيد بن خيثم ·· عن عمار بن ياسر ، قال كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع ، فلما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام بها شهرا ، فصالح بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ، فوادعهم فقال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هل لك يا أبا اليقظان أن هؤلاء النفر من بني مدلج يعملون في عين لهم ، ننظر كيف يعملون ، فأتيناهم ، فنظر اليهم ساعة ، فغشينا النوم ، فعمدنا الى صور من النخل في دقعاء من الأرض ، فنمنا فيه ، فوالله ما أهبنا الا ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحركنا بقدمه ، فجلسنا ،وقد تتربنا من تلك الدقعاء ، فيومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعلي يا أبا تراب لما عليه من التراب ، فأخبرنا بما كان من أمرنا ، فقال :ألا أخبركم بأشقى رجلين قلنا بلى يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي ، على هذه ، ووضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ حتى بل منها هذه ووضع يده على لحيته » ·

وقد علق على ذلك الخبر ابن كثير ،فقال : « وهذا حديث غريب من هذا الوجه، له شاهد من وجه آخر في تسمية علي أبا تراب ، كما في صحيح البخاري أن عليا خرج مغاضبا فاطمة ، فجاء المسجد ، فنام فيه فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأل عنه،فقالت خرج مغاضبا ، فجاء عليه الصلاة والسلام الى المسجد فأيقظه،وجعل يمسح التراب عنه ، ويقول : « قم يا أبا تراب » ·

ونستطرد في ذكر هذه الكنية النبوية الشريفة ، فنقول انها كانت أحب كنية الى علي كرم الله تعالى وجهه في الجنة ،لأنها تسمية من حبيبه وكافله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنها اقترنت بمسحه بيده الكريمة التي أزال

بها التراب عن بدنه ، كما أزال الغبار عن الحقائق الانسانية بالشرع الذي حمله وبلغه للخلق •

والخبران متلاقيان كما ذكر الحافظ ابن كثير • فانهما يدلان على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ناداه بذلك النداء الحبيب اليه في عدة مواطن •

ولقد فسق ناس عن أمر ربهم ، فأذاعوا بين من تبعوهم على غيهم أن هذه الكنية تدل على الحط من مكانة علي عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فساء قولهم كما ساء فعلهم •

وفي هذه الغزوة كما أشرنا وادع بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة ، وقد ذكر السهيلي في الروض كتاب الموادعة بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبني ضمرة ، وهذا نصه كما جاء فيه « كانت نسخة الموادعة فيما ذكر غير ابن اسحاق بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لبني ضمرة ، فانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم الا أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفه ـ وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا دعاهم لنصرة أجابوه ، عليهم بذلك طاعة الله تعالى وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى

بدر الأولى :

٣٧٨ ـ أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في العشيرة ليالي من جمادى الأولى وبعض ليال من جمادى الآخرة ، كما ذكرنا ثم عاد الى المدينة ، ولكنه لم يقم فيها الا ليالي قلائل حتى أحس بشبه غارة أزمعتها قريش على المدينة لتوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا تزال عندهم همة للقتال ولم تكفكف عزيمتهم تلك الانذارات التي قام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ومن أرسله ، فقد أغار كرز بن فهر القرشي على سرح المدينة أي على فنائها فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بلغ واد يقال له صفوان من ناحية بدر ،ولكن كرزا ومن معه نجوا بأنفسهم ، فلم يدركهم جيش الايمان والفضيلة ثم رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة فأقام بها بقية جمادى ورجب وشعبان ، وتسمى هذه الغزوة التي لم يلق رسول الله صلى الله تعالى

عليـــه وسلم قتالا فيها • بغزوة بدرالأولى ، وهي في مقـــابل غـزوة بدر الكبرى التي سماها الله سبحانه وتعـالىفي كتابه الكريم يوم الفرقان ، اذ جعل الله تعالى فيه الكلمة العليا لله ، والحقوالايمان والكلمـة السفلى للشيطـــان والكفر ، ولقد كان حامل لوائه في بدرالأولى سيف الله علي بن أبي طالب •

سَرِيّةُ عَبْدِاللهِ بْنِ جَحْش :

٣٧٩ ـ قد علمت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما جاء الى المدينة سالم الذين يقيمون فيها ، وعقد معهـم الأحلاف البرة من جانبه عليه السـلام ، وقد رأيت أن غزواته صـــلى الله تعالىعليه وسلم الأولى لم يكن فيهـــا قتال ولكن كان فيها سلم ومواثيق تؤخـذ ،وتأليف بين القلـــوب النـــافرة • ولو استمرت على كفرها ، اذ أن وراء التأليفأن تخلص النفوس بطلب الحق ،فتشرق من غير أن يدخلها ظلام النفرة •

ومن القبائـل من كانت تجيء الى النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم تلقي بالمودة من غير نفاق ولا ريبة ومنهـــمقبيلة جهينة فقد روى الامام أحمـــد بمسنده عن سعد بن أبي وقاص ، أنهقال : « لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة جاءت جهينة ،فقالواانك قد نزلت بين أظهرنا ، فأوثق حتى نأتيك وقومنا ، فأوثق لهم فأسلمـــوافبعثنا رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم في رجب ، وكنا مائة ، وأمرنا أننغير على حي من بني كنـــانة الى جنب جهينـــة فأغرنا عليهم وكانوا كثيرا ،فلجأنا الى جهينـــة ، فمنعونا وقالوا لم تقاتلون في الشهر الحرام ، فقال بعضنالبعض ما ترون ، فقال بعضنا : نأتي نبي الله فنخبره ، وقال قوم : بل نقيم ها هنا،وقلت أنا آتي عبد الله بن جحش في أناس معي، لا بل نأتي عير قريش ، فنقتطعها،وكان الفيء اذ ذاك من أخذ شيئا فهو له،فانطلقنا الى العير ، وانطلق أصحابناالى النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه ، فقام غضبان محمر الوجه ،فقال أذهبتم من عندي جميعا ، ورجعتم متفرقين ، انما أهلك من كان قبلكـــمالفرقة ،لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش » •

هذه رواية عند الامام أحمد ، وليسفي سنده من عرف الطعن فيه ، وقـد روى مثله مع بعض زيادة في الســـندالبيهقي في دلائل النبوة ، وزاد في متن الحديث أن النبي صلى الله تعالى عليـهوسلم استنكر القتال في الشهر الحرام•

والحديث برواية الامامين أحمد والبيهقي يدل على ثلاثة أمور :

أولها ــ ما جاء من أن جهينة آمنت اذ بدت البينات ، واستعدت لنصرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وثانياً ــ أن المسلمين لم يقاتلوا فعلا، وان هموا بالقتال ، وترددوا عندما نبهوا الى الشهر الحرام ·

والأمر الثالث ــ أنه كانت ثمة عيرلقريش على أهبة القدوم ، ولعل هــذا هو الباعث على السرية ومهما يكن من أمر هذه الرواية التي اتفق عليها امامان من أئمة الحديث ، فان الأمر الذي أشارت اليه تلك الرواية هــو أن السرية سارت بامرة عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي ، ولكن الذين كانوا في هــذا على رواية ابن اسحاق كانوا ثمانية ولم يكونوا مائة ، وقد عدهم عداً بأسمائهم، وكانوا من المهاجرين ، ولم يكن أحد من الأنصار ، كشأن كل البعوث والغزوات التي سبق ذكرها ولعل هذا العدد المحدود ، قد قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن رأى الاختلاف ولعل عدد المائة كان من أسبابه ، وكلما قل العدد بعد الاختلاف ، وفي الفرقة الهلاك كما قرر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أن النص لا يدل على قصر العــدد على ثمانية ، انما يدل على أن فيهم هــؤلاء المذكورين مع عدد ليس بالقليل وقــد ذكر ابن اسحاق أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتب كتابا لعبد الله بن جحش أمير السرية وأمره ألا ينظــر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، فلما ســار بهــم يومين فتح الــكتاب ، فاذا فيه اذا نظرت في كتابي · فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصــد بهــا قريشاً ، وتعلم من الناس أخبارهم فلما نظر في الكتاب ، قال : سمعا وطاعة ،

وأخبر أصحابه بما في الكتاب ، وقال قد نهاني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن استكره أحداً منكم ، فمن كان منكــم يريد الشهــادة ويرغب فيها فلينطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع ،فاما أنا فماض ·

وان هذا التخيير يدل على أن العدد لم يكن ثمانية، والا ما كان ذلك التخيير، فانه لا يكون الا في عدد كبير ولو نسبياً، ولا يمكن في العــادة أن يكــون في ثمانية ·

ولعل ذلك التخيير ، ما كان من قبل الافتراق ، اذ قد يكون سببه وهنا في بعض القلوب ، فأراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يسير الا من اعتزم وأراد ، واستولى على قلبه ، وذهب عنه الوهن أو احتماله ، سارت السرية بامرة أميرها ، سالكة طريق الحجاز ٠

ولكن ضل عنهم سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وكانا من الثمانية المقدمين ، وكان معهما بعير يعتقبان في ركوبه ٠

ولكن القافلة سارت ، وكان رجاء في أن يهتديا اليها ٠

مضى عبد الله مع من بقي من أصحابه ، حتى وجدا عيرا فيها من قريش وحواليهم الحضرمي بن عبد الله بن عباد ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان مولى المغيرة بن شعبة ٠

لما رأى السرية أصحاب العير ، هابوا لقاءهم ، ولكنهم رأوا عكاشة بن محصن من سرية النبوة قد علق فقالوا آمنوا وقالوا عمار « أي ناوون العمرة ، لا بأس عليكم منهم » ٠

تشاور الصحابة من أهل السرية ، وقد كانوا في آخر رجب ، وهو رابع الأشهر الحرم الذي بينها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنها ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ترددوا أيقاتلون في الشهر الحرام ، أم يتركونهم ، هذه الليلة ، وحينئذ يدخلون الحرم ، فيمتنعون عليهم ، ولا يمكن انتظارهم هذه الليلة الباقية ، من رجب الحرام ٠

وانتهت الشورى بالاجماع على القتال ، فرمى أحد السرية عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان ، وأفلت من القوم ، نوفل بن عبد الله ٠

وعادت السرية بالعير ، والأسيرين حتى قدموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

القتال في الشهر الحرام :

٣٨٠ ــ قدمت السرية الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعير والأسيرين ، ولكن مع ذلك كان قتال في الشهر الجرام ورسول الله الحريص

على احترام الحرمات قد تأثم من ذلك ،فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام»،ووقف توزيع العير ، وحبس الأسيرين ، فسقط في أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وكان الكلام اللائم من اخوانهم الذين لم يشتركوا في القتال ،ولم يبلوا بلاءهم.

أما الأسيران فوقف عليه الصلاة والسلام اطلاقهما حتى يعود سعد بن أبي وقاص وصاحبه ، فلما عادا أطلقهما .

وقد قامت قائمة من التشنيع على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، جاهر بها المشركون من قريش ، وما حركهم احترام الحرمات ، والمناسك ،وانما حركهم العير التي أخذت في مقابل ما أخذوا من أموال المهاجرين ، وحركهم الغيظ من أن يكون لمحمد قوة تتولى تأديبهم والقصاص منهم ، وأنه قد ابتدأ أمر جديد قد انبلج فجره ، فظهروا بمظهر المدافعين عن الحرمات ، وأن محمدا ينتهكها ، وهم يصونونها ، ونسوا أنهم هم الذين فتنوا المسلمين عن دينهم ، وانتهكوا حرمات البيت الحرام ، ونسوا أنه حرم الله تعالى الآمن غير مفرقين في هذا الايذاء بين شهر حرام وشهر حلال .

واليهود قد وجدوها فرصة لائحة تشفي غيظهم ، فأخذوا ينثرون من إفواههم ما تنفر به قلوبهم من احن ، وعداوة للاسلام أخفوها ابتداء ، ولكن بدت من أفواههم رغم أنوفهم . وماتخفي صدورهم أكبر .

حدث هذا ، والمجاهدون الأطهار تكاد نفوسهم تذهب حسرات ، حتى نزل قوله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ ﴾ (١)

---

(١) البقرة

كانت هذه الآيات الكريمات برداً وسلاماً للمؤمنين ، ورداً قاطعاً حاسمـــا للكافرين ، وانه ليس لأولئك الذين انتهكوا الحرمات، من كفر بالله وبالمسجد الحرام وصد عن سبيل الله تعالى ، وقتل في البيت الحرام أن يتكلموا في انتهاك الأشهر الحرام ·

على أنه يجب أن يعلم أن الذين ابتدؤوا بالقتال هم المشركون ،فقد أغاروا ابتداء على فناء المدينة ، نعم انهـم لم ينالوا مأرباً ، وفروا فراراً ، فهل كان لأهل الايمان أن يتركوهم ليميدوا الكرة عليهم ، لا يمكن أن يتركوهم ليغزوهم في عقر دارهم ·

ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت هذه الغزوة ارهاصاً لبدر الكبرى ، فقـد كانت العير هي التي استـولى عليهـــاالمؤمنون ·

لماذا كانت هذه الغزوات :

٣٨١ ــ قد خرجت غزوات للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث مرات ، وخرجت أربع سريات لم يحصل قتال في السرايا ، ولا في الغزوات الا سهما أرسله سعـد بن أبي وقاص في سرية عبيدة بن الحـــارث بن عبد المطلب ، وسهما قتل ابن الحضرمي في سرية عبدالله بن جحش ، وكانت سهمـا عائرة ، لأخـذ العير ، ولا يمكن أن يسمى ذلك قتالا ، انما يسمى محـــاولة لأخذ مال هو من بين ما اغتصبه المشركـون من المؤمنين ، اذ أخرجـــوا من ديارهـــم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ·

اذا لم يكن قتال بمعنى كلمة قتـال التي تكون مفاعلة من الجانبين ، فلمـــاذا كلف النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم نفســه ورجاله مؤونة هـذا الخروج ، ونقول في الاجابة عن ذلك :

١ ــ ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خرج من مكة ، وهو هضيم ، أو شبه مطرود في ظاهر الأمر ، وما هو الا ليجمع قوة الحق ، فكان لا بد أن يعمل على اظهار ما أيده الله تعالى به من قوة ، تستطيع أن تشعر الظالمين بأن للحـــق شوكة ، وأنهم اذا لم يتركوا الدعوة في طريقها رغبا ، فانهم لابد أن يتركوهـا رهبا ، ولابد للحق في هذه من صـولة تكف أذى الباطل ، أو على الأقل تجعـل الباطل يتردد عند انزال أذاه ، وأنه ان لم يخش صـــوت الضمير ، فانه يخشى

صلصلة السيوف . فكانت هذه السرايا وتلك الغزوات مظاهر من صولة الحق ليتركوا الدعوة الى الحق تسير في سبيلها، ولتستيقظ ضمائر كانت نائمة، فمن الضمائر ما لا يستمع لصوت الحق الوادع الرفيق ، ولكنه يستيقظ . اذ رأى جلجلة القوة ، فيخفف من حدة الأذى ، ويتبع ذلك أن يسير في طريق الهداية ان لم يكن الضلال قد كتب عليه .

٢ ـ وانه اذا لم يكن قتال ، فقد كان هنا دراسة للمؤمنين في البلاد العربية يتعرفون وهادها ، وجبالها . ويدرسون مجاهلها ، فيعرفها من لم يكن يعرفها ، ويلتقون فيها بالأعراب في أخبيتهم ، ومساكنهم ، وفي ذلك اعلان الدعوة لمن لم يكن يعلمها ، وتوجيه العقول اليها وتوضيحها وبيانها .

٣ ـ وان في هذه الجولات التي كان يجولها أولئك المؤمنون في السرايا التي بعث بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعرفا لمساير عير قريش ، وما كانت الا للتجار الأغنياء فيهم ، فما كان للشعب فيها الا النزر اليسير ، وما كانت تلك البعوث التي تتبع عير قريش لأخذها ، الا ليكون هذا بدل ما اغتصبوا ، وقد قلت من قبل ، ان ذلك لم يكن حصارا اقتصاديا ، كما يجري في عبارات الكاتبين والمحاربين والسياسيين في هذا الحصار كالذي تجري كلماتها في عصرنا يقصد به التضييق على الأمة التي يعادونها في موارد رزقها ، فلا يرسل اليها طعام ، ولا المواد الضرورية للحياة والعمران ، بحيث يعم الضيق الشعب كله ، وما كان ذلك في سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا في غزواته انما كان الاتجاه الى محاربة التجار الذين كانوا يقومون بالتجارة ، وجلهم أو كلهم ممن حاربوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واشتركوا في ايذاء أصحابه، واخراجهم من أموالهم وديارهم ، فما كان فعله عليه السلام حربا اقتصاديا أو حصارا اقتصاديا يعم البريء والسقيم ، بل هو مصادرة لمال ظالم اغتصب أموال المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، كما تلونا من الآيات من قبل ذلك .

٤ ـ وان غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع ما فيها من نشر الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة كان فيها تأليف للقلوب ، ففيها عقدت اتفاقات على النصرة والايواء ، ففي غزوة ودان اتفق عليه السلام مع بني ضمرة على أن ينصروه اذا دعاهم الى النصرة ، وينصرهم اذا دعوه .

وفي غزوة العشيرة عقد مع بني مدلج ، وحلفائهم من بني ضمرة اتفاقا على المناصرة بينه عليه الصلاة والسلام و بينهم ووثقه بكتاب كتب ، كما نقلناه من قبل من الروض الأنف للسهيلي •

واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يغز لحرب ، فقد غزا قلوبا ، وألفها لتكون قوة لأهل الحق ، وليدخل الايمان الى قلوبهم ، لأن تآلف القلوب السبيل الى دخول الحق اليها لكيلا تنفر، فتعمى •

ويلاحظ أن هذه البعوث كلها كان جنودها من المهاجرين ، فأمراؤها من المهاجرين ، وغزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان الجنود فيها من المهاجرين ، ولم يكن فيهم من الانصار أحد ، فلم يندب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحداً من الأنصار الا في بدر ، ولماذا كان ذلك ! ولابد أنه كان مقصودا منه صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولم يجىء اذاً اتفاقيا من غير قصد له بالذات •

والجواب عن ذلك :

أولا : أن المهاجرين هم الذين أوذوا في أبدانهم وكراماتهم من أولئك المشركين ، فهم أشد الناس رغبة في القصاص ممن آذوهم والقصاص شريعة لحكمهم ، فكانوا أولى بلقاء قريش من غيرهم ، ولأنهم هم الذين استضعفوا وأراد المشركون اذلالهم ، فكانوا في لقائهم بالمشركين وفرارهم منهم أشد تبيينا لبيان أن الحق قد علا ، وأنهم مكن لهم في الأرض وان ذلك يكون أروع وأوقع ، وماذا تكون حال الصناديد من قريش اذا رأوا عمار بن ياسر وقد أوذي هو وأبوه وماتت أمه تحت حر العذاب ، حتى قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اصبروا آل ياسر فان موعدكم الجنة ، فماذا يكون وقع ذلك في نفوس الغلاظ اذا رأوا عماراً العملاق واقفاً لهم بتمكين الله تعالى » •

ثانياً : أن الذين أخرجوا من أموالهم وديارهم هم المهاجرون ، فكانوا أحق الناس بأن يطالبوا بمالهم الذي اغتصب، وديارهم التي خربت ، وأن يكفوا عن أهليهم وضعفائهم الذين لم يهاجروا شر أولئك العتاة أو يعطوهم وبال أمرهم جزاء بما اكتسبوا •

ثالثاً : وهو عمدة الأسباب وقوتها ــ أن عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان على الايواء والنصرة وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وذرياتهم ، ولم يكن في ذلك النص على أن يخرجوا معه في حرب ، وان فهم ضمنا أنهم يكونون معه في الحرب والسلم ، فلم يرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا معه في غير مانص عليه العقد نصاً صريحاً لا تأويل فيه ، ولذا لم يدعهم الى الخروج معه في هذه الغزوات وتلك السرايا ، وكان في المهاجرين غناء بالنسبة لهذا الغزو المحدود ٠

ولذلك لما جد الجد ، وجاء جيش كثيف من المشركين عدته تجاوزت الألف ، استشارهم ، لتكون الاجابة رضا بأن يشتركوا في الحرب ، وتلك الاستشارة كانت عند الاقدام من قريش برجلها وعتادها وفرسها ، فكانوا عند رجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، وعلى ما دفعهم اليه ايمانهم ، وهو أوثق العهود ٠

تحويل القبلة وفرض الصيام

٣٨٢ ـ لم يكن عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب وارسال البعوث ، وعقد المعاهدات ، وتنظيم شئون المدينة وما حولها ، لم يكن ذلك عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقط ، بل كان عمل النبي عليه السلام مع ذلك تنظيم الدولة بوحي من الله تعالى ، فما كان ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، فأصل الجهاد بوحي من الله ، ولكن الترتيبات الجزئية والترتيبات التنفيذية ، وكل ذلك الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ليقوم بمثله من بعده عند انقطاع الوحي ،وله في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة ، ولم يكن تنظيم الدولة فقط ، بل كانت التكليفات التي يتلقاها عن الله سبحانه وتعالى من العبادات ، والتكليفات الاجتماعية التي من شأنها أن تربي روحا قوية لتجعل من اتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة متحدة ، في نظام اجتماعي متماسك قوي تربطه أشد عناصر الترابط الاجتماعي الذي يكون مجتمعا متكافلا ٠

ولذلك كانت الفترة ما بين جمادى الآخرة ، أو بالأحرى ما بين رجب ورمضان ، أو الشطر الأكبر منه كانت تلك الفترة زمان شرعية أمور من العبادة ، تتصل بتقوية النفس وتقوية المجتمع ٠

وفي هذه الفترة شرع تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، وفي هذه الفترة فرض صوم رمضان ، وفرض مع صوم رمضان صدقة الفطر ، وهما فرضان اجتماعيان كما سنبين ٠

وتحويل القبلة إيذان من الله تعالى بإزالة الأصنام ، أو الأخذ في إسباب هذه الإزالة ٠

تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة

٣٨٣ ـ عندما فرضت الصلاة بعد الاسراء والمعراج على أنها خمس صلوات ، وان كان لها ثواب خمسين صلاة ، ان أقيمت على وجهها ، كانت قبلة المسلمين الى الشام ، الى بيت المقدس ، ولكن تتوسط الكعبة ، فيكون الاتجاه الى الكعبة على ناحية بيت المقدس ، فكان المصلي يجمع في صلاته بين القبلتين بأمر ربه .

ولما هاجر الى المدينة لم يكن الجمع ممكناً ، بل لابد من استدبار احدى القبلتين ، وقد ترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ، والكعبة تحيط بها الأوثان ، ولم يكن ثمة ما يؤذن من الأمور بزوالها ، فكان استقبالها لا يخلو من استقبال الأوثان المحيطة بها ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصاً على أن تكون الكعبة هي القبلة ، وحريصا على أن تزول الأصنام عنها .

وقد أمره الله تعالى بأن تكون القبلة الى بيت المقدس مؤقتا ، لأن الله تعالى لم يؤذن بأن تخرج الكعبة عما هي ، ولعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم بأمر ربه أن استقبال بيت المقدس ، واستدبار الكعبة أمر مؤقت وأن النهاية الى الكعبة ، وأن الاتجاه اليها ايذان بذهاب دولة الأوثان ، وطهارة البيت الحرام .

ولذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله تعالى أن يقرب الوقت الموعود بالعودة الى الكعبة ، لأن العودة الى الكعبة عودة الى كعبة ابراهيم أبي الأنبياء ، ولأن الاتجاه اليها ، ايذان بنصر الله تعالى ، وايذان بازالة الأوثان بعد زمن طال أو قصر ، وان كان في عمر السنين والحساب ليس كثيراً .

وفي هذا الوقت كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله تعالى أن يقرب البعيد ، وكان اليهود يتوهمون أن جعل القبلة الى بيت المقدس معناه أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم لا يكون خارجا عن أنبياء بني اسرائيل ، وهو وهم باطل سكن في نفوسهم التي تتخيل ثم تخال ثم تعتقد ، كشأن أصحاب

الديانات الذين لا يؤمنون بالديانة الاعلى أن تكون أماني لهم أو تتفق مع أمانيهم ٠

قبيل بدر كان الايذان بزوال دولةالأوثان التي كان يومها يوم الفرقان ، قد أذن الله تعالى بتحويل القبلة الىالكعبة ، أو بالأحرى اعادة القبلة الى الكعبة ، اذ نزل قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (١)

كان تحويل القبلة الى الكعبة ، بهذا النص وهو يدل على أمرين :

أحدهما : أن أهل الكتاب هم الذين كانوا يقولون ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، وأنهم كانوا فرحين، اذ أن المؤمنين كانوا يتبعون قبلة بيت المقدس ٠

ثانيهما : أن نص الآية يشير الى أن جعل القبلة الى بيت المقدس كان حكما مؤقتا يزول بزوال سببه ، ولذلك لانعتقد أنه نسخ ، ولكنه انتهاء حكم مؤقت بانتهاء وقته المعلوم ، وقد بين الله تعالى ذلك ٠

---

(١) البقرة

بقي أن نعرف الميقات الذي كان فيه التحويل !! لقد رويت في هذا روايات ظاهرها الاختلاف ، ولكن الاتفاق على أنها كانت بعد جمادى الآخرة ، والاختلاف أكان ذلك التحويل في رجب أم كان في شعبان فروي عن قتادة وزيد بن أسلم وعبد الله بن عباس أن ذلك كان في رجب ، وروي أنه كان في شعبان ، وكلام ابن اسحاق يومىء الى ذلك ، اذ يقول أنها كانت بعد سرية عبد الله بن جحش ، وما كانت في آخر رجب ويقول في هذا المقام :

« قال ابن اسحاق كانت بعد غزوة عبد الله بن جحش ،ويقال صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله » وحكى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس ، وناس من الصحابة .. قال الجمهور الأعظم انما حولت في النصف من شعبان ، على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة .. وعن محمد بن سعد الواقدي أنها حولت يوم الثلاثاء في النصف من شعبان .

ومهما يكن فقد ذكر الحافظ بن كثير ، أنه يميل الى هذه الرواية التي تقول انها في النصف من شعبان وذلك لأنه رأي الجمهور الأعظم ، كما يقرر ابن كثير ، وما كان الجمهور ، ليتجه الى رواية الا اذا ثبتت لديه صحتها ورأينا دائما أن ما يتلقاه الناس وفيهم العلماء بالقبول لا يرد الا اذا ثبت بدليل قاطع أو راجح بطلانه .

واننا قد رأينا أن نصف شعبان يحتفل به المسلمون على أساس أنه يوم مبارك ، والاحتفال به يتفق مع كونه اليوم الذي تحولت فيه القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، وكلاهما مقدس ،اذ هو فرحة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

على أننا نلاحظ أن ابن كثير قدر المدة بين الهجرة ، أو مقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بثمانية عشر شهراً ، وانه باستقراء عدد الأشهر من وقت مقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى منتصف شعبان لا يكون قد مضى ثمانية عشر شهراً ، ذلك أن الهجرة كانت في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول ، فاذا احتسبنا ربيع الثاني وجمادى الأولى والآخرة ، ورجباً يكون سبعة عشر شهرا وأياما .

٣٨٤ ـ هذا ما يتعلق بالقبلة ، أما فرضية صوم رمضان ، فقد روى ابن جرير أن ذلك كان في شعبان كما كان فيه تحويل القبلة الى الكعبة ، فهو شهر مبارك .

وقد روي أن فرضية الصوم أخذت ثلاثة أدوار :

الدور الأول : كانت عندما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة فقد ، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسألهم عنه ، فقالوا هذا يوم نجى الله تعالى فيه موسى ، فقال عليه السلام نحن أحق بموسى منكم ، فصامه، وأمر الناس بصيامه هذا هو الدور الأول ، وقد يفهم منه أن ذلك كان باجتهاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونحن لابد أن نقدر مع ذلك وحي الله ، والا ما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليأمر الناس بعبادة ان لم يكن قد نزل وحي الله تعالى بذلك .

الدور الثاني: عندما نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ (١)

(١) البقرة

وقد قال ابن كثير في هذا الدور انه كان المؤمن بخيار بين أن يصوم ، وبين أن يفطر ، وهذا نص قوله في هذا الدور ، فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكينا ، فأجزأ عنه ، وفي ذلك نظر سنبديه ، ان شاء الله تعالى بعد ذكر الدور الثالث .

الدور الثالث : هو فرضية الصوم في شهر رمضان ، فقد قال تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ (١)

ويذكر ابن كثير في هذا الدور حالين :

احداهما : أنهم كانوا يأكلون ويشربون حتى يناموا ، فاذا ناموا امتنعوا .

والحال الثانية : وهي الأخيرة أن الله تعالى أباح لهم الرفث الى نسائهم وأن يأكلوا ويشربوا حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وقد بين الله هذه الحال الأخيرة بقوله تعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ (٢)

ولنا أن ننظر في كلام الحافظ بن كثير من ناحيتين :

---

(١) ، (٢) البقرة

الأولى ـ أنه ذكر أنه عند فرضية الصوم كان المؤمن مخيرا بين أن يصوم ، وأن يفطر ، ويقدم فدية طعام مسكين، ولعله فهم هذا من قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (١)

ونحن نرى متبعين للسلف أو على الأقل لبعضهم أنه لم يكن تخيير بين الصوم والافطار ـ أولا ، لأن ذلك ينافي الفرضية ، وقد ثبتت الفرضية مؤكدة في قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ ﴾ (٢)

فقد تأكدت الفرضية بالتعبير عنها بكتب ،وبيان أن فرضية الصيام شريعة أزلية ، دائمة كتبت على المؤمنين ، كما كتبت على غيرهم ، ثم أفاد كلام الله تعالى أنها ذريعة الى تقوى الله ، وتقوى الله مطلوبة في كل الأحوال .

الثانية ـ أن الله تعالى فرض على المترخص بالسفر أو المرض أن يصوم في أيام أخر ، فدل على أن الأيام محدودة معلوم وقتها ، وعلى أنها لا تفوت وتترك اذا كانت أعذار ، بل يجب أن تقضى ، ولو كان ثمة تخيير لذكر التخيير هنا وما وجب القضاء في أيام أخر ، ويكون ذلك للمسافر أو المريض المقيم .

والثالثة ـ أن آية كتب عليكم الصيام ، في سياقها

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (٣)

فلا يعقل أن تكون آيتان في نص واحد احداهما ناسخة والأخرى منسوخة ، بل المعنى المنسق هو أن يكون قوله تعالى شهر رمضان بيان للأيام المعدودة .

---

(١) ، (٢) ، (٣) البقرة

والرابعة ـ أن قوله تعالى : « يطيقونه » معناها الذين يبلغون أقصى الطاقة في الصوم ، ولا قبل لهم بالاعادة من بعد ، فان عليهم الفدية ، وقد روي أن هذا النص ينطبق على الشيخ والشيخةاللذين يبلغان أقصى الطاقة في الصيام، وقد روي ذلك عن ابن عباس ، ومثلهماالزمن والمريض بمرض ، لا رجاء في البرء منه .

والخامسة ـ أن قوله تعالى :

﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (١)

لا تدل على التخيير ، لأن الواضح منهاهو صوم التطوع ، لا صوم الفريضة .

بقي أن ننظر نظرة فاحصة فيما ذكره من أنه بعد الفرضية ، كان الفرض أن يمنع الأكل والشرب ، والرفث الىأزواجهم بعد النوم ، وأنه من بعد ذلك أبيح الى الفجر ، ونقول في ذلك أنه لم يثبت من نص قرآني ، ولا من حديث نبوي أنه بمجرد النوم تنتهي اباحةالأكل والشرب ، وغيرهما ، بل الثابت انهم فعلوا ذلك ، أو أن بعضهم علىالتحقيق فعل ذلك ، أكان هذا من فهم فهموه ، أم من نص أدركوه ، واذا كنانبحث عن النص المروي في ذلك عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلا نجدهفان الراجح أن يكون ذلك من فهمهم لفرط تورعهم ، ويرشح لهذا المعنىقوله تعالى :

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ ﴾ (٢)

والمعنى أنكم تريدون صيانة أنفسكم ،وقد فسر الراغب الأصفهاني الاختيان بأنه مرارة الخيانة ، واني أرى أنخيانة النفس بتكليفها مالا تطيق .

ولهذا أرى أن ذلك فهم فهموه ،فصحح القرآن الأمر ووضحه وبينه ، فلم تكن هذه حالا جديدة .

واني أعتقد مؤمنا أن الآيات الكريمة من أول فرضية الصيام الى آخر الآيات الكريمة المتعلقة به نسق واحد ،ليس فيها ناسخ ومنسوخ ، والله أعلم .

(١) ، (٢) البقرة

٣٨٥ ـ وفي هذه السنة فرض الله تعالى زكاة الفطر ، ويبدو من سياق الحوادث أنها كانت تابعة لفرضية الصوم ، ولذلك روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بفرض صدقة الفطر ، قبل الافطار في رمضان هذه السنة بيوم أو يومين ، وقال الحافظ بن كثير ، وفيها أي في السنة الثانية صلى النبي عليه الصلاة والسلام صلاة العيد، وخرج بالناس فصلى بالناس الى المصلى ، فكانت أول صلاة عيد ، وخرج بالناس الى المصلى وصلاها ، وخرجوا بين يديه بالحربة ، وكانت للزبير وهبها له النجاشي ، فكانت تحمل بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الأعياد ٠

وكان حملها بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مجتمع الأعياد الجامع ، اشعارا بالوحدة الجماعية التي تقوم بالعبادة ، وأنها قوية عزيزة بعون الله تعالى لا ذلة فيها ، بل فيها العزة والكرامة ٠

وان زكاة الفطر يبدو من السياق التاريخي أنها شرعت بعد واقعة بدر الكبرى ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بها قبل عيد الفطر بيوم أو يومين ٠

أما الصوم ، فمن المؤكد أنه فرض قبل يوم الفرقان في شعبان على الأرجح، وان من الرواة المتأخرين من يقول ان الزكاة التي تفرض في المال ، وتسمى زكاة المال قد فرضت في هذه السنة ، فيقول ٠ وفي هذه السنة ٠ أي السنة الثانية فرضت الزكاة ذات النصب كما ذكر غير واحد من المتأخرين ٠

وقبل أن ننهي الكلام في رمضان وصدقة الفطر نذكر أمرين جديرين بالنظر ٠

أولهما : أن صريح الأحاديث الواردة في صدقة الفطر يفيد بأنها فرض ، ليست سنة مؤكدة ، ولا واجبة وجوبا دون الفرض ، كما يقرر الحنفية ،

ولقد روى الترمذي بسنده أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث مناديا في حجاج مكة، الا إنّ صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر وأنثى ، حر ، وعبد صغير أو كبير ، أى أنه يجب على الغني أن يدفع زكاة كل واحد من هؤلاء لأنه يمونهم ٠

ولقد قال ابن القيم ٠ « وكان من هديه صلى الله تعالى عليه وسلم تخصيص المساكين بصدقة الفطر ، ولم يكن يقسمها على الأصناف الثمانية (أى المذكورة في قوله تعالى) :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

ولا أمر بذلك ، ولا فعله أحد من أصحابه ، ولا من بعدهم ، بل أحد القولين عندنا (أي الحنابلة) أنه لا يجوز اخراجها الا على المساكين عامة ، وهذا القول أرجح » ٠

وان هذه الصدقة فيها معنى اشراك المساكين في أفراح العيد بأن يغنوهم عن السؤال في هذا اليوم ، كما ورد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ثاني الأمرين اللذين يجب التنبيه اليهما أن الصيام فرض قبل غزوة بدر يوم الفرقان ، لأن الصوم ، يربي ضبط النفس وينمي روح الصبر ، ويملي الارادة ، وهذه هي أدوات الجهاد النفسية ، فان عدة الجهاد هو الصبر ٠

فكان فرضه تمهيداً لما يجيء من بعد، وهو يوم الفرقان ٠

---

(١) التوبة

يوم الفرقان

بدر العظمى

٣٨٦ ـ كانت الغزوات التي قام بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أول العام الثاني من الهجرة ، والسرايا التي قام بها أصحابه بأمر منه ، لاشعار قريش بأن الاسلام صارت له قوة تناوىء من آذوا أهله . وحاولوا فتنة الضعفاء عن دينهم ، فأرهقوهم ليحولوهم عن اعتقادهم ، فلم ينالوا خيراً .

وكانت ليتعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داخل البلاد العربية ، ويشعرهم بوجود الاسلام ، ويتألف قلوبهم ليجمعهم من بعد على كلمة الحق ، وقد عقد مع بعضهم مواثيق عدم اعتداء ، والنصرة لهم وبهم .

وكان من بعد ذلك أن يلاقي صلى الله تعالى عليه وسلم قريشا لا بسرية يرسلها ، ولكن بغزوة يغزوها بنفسه ، وقد مهدت الأسباب ، وعلم المشركون أنه صار للمسلمين قوة يقدرون معها عواقب أمرهم .

وانه عليه السلام قاطع عليهم طريق تجارتهم ، فقد صارت الحرب قائمة بعد أن أخرج المؤمنون من ديارهم ، وبعد أن هموا بقتله ، وأخذوا العدة ، فما ان علم بتجارة لهم ذاهبة الى الشام أو عائدة ، حتى يبادر اليها .

ولما قتل عبد الله بن جحش في سريته ابن الحضرمي كما أسلفنا ، وأسر المسلمون من أسروا أحس المشركون من قريش فكانوا يحصنون تجارتهم بحراس .

خرجت قريش بتجارة عليها نحو أربعين مقاتلا ، وسارع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل سرية ابن جحش ليدركها ، ولكنها أفلتت ، وكانت فيها أموال ذوي المال من قريش ، فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يترصدها عند عودتها من الشام ، وتتبع أخبار قريش وأخبارها .

٣٨٧ ـ علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عير قريش قافلة راجعة من الشام ، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلا ، فندب المسلمين اليهم وقال عليه السلام :

هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا اليها ، لعل الله تعالى ينفلكموها •

فخف بعضهم استجابة لنداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وثقل بعضهم ، وان كان على استعداد ، لأنهم لم يتوقعوا قتالا ، كما كان في السرايا والغزوات السابقة ، فانهم لم يلتقوا بالمشركين ، ولم يكن قتال •

وان أبا سفيان الذي كان على رأس العير التي حمولتها ألف بعير ، كان يتخوف من أن يلقاه المسلمون فيأخذوه، كما أخذوا عير ابن الحضرمي وقتلوه، ولذلك كان يتحسس أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ،ويتعرف حركاتهم •

فكان يسأل من يلقى من الركبان ،حتى أصاب خبرا ، بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استنفر أصحابه للقاء أبي سفيان ، وعيره ، وتأكد أن المصير الذي سيلقاه هو والعير هو ما لقيه ابن الحضرمي وعيره •

وقد دفع به الحرص على عير قريش الى أمرين :

احدهما ـ أنه مال عن طريق بدر ،ونجا بعيره ، وجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المهاجرين فوجدوا العير قد أفلتت منهم ، ولم ينالوا منها ، وعلموا أن وراءها القتال •

الأمر الثاني : انه أرسل الى قريش يستغيث بها لتحمي عيرها التي معه ، وليعمل على أمن الطريق من محمد وأصحابه وليجهز جيشا يقضي على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أصحابه•

أرسل ضمضم بن عمرو الغفاري يبين ما تتعرض له العير ، وأن محمدا وصحبه يتعرضون لها ، فذهب ضمضم يصرخ ببطن الوادي ، واقفا على بعيره وقد جدعه وحول رحله ، وشق قميصه ليستدعي الناس ، وينبههم الى ما يقول،

ثم قال : « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة (١) أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث ، الغوث » .

كانت تلك الكلمات الحارة مع المظهر الذي ظهر به دافعة القوم الى أن يندفعوا معتزمين الدفاع عن أموالهم ، وانقاذها ، فكانت قريش ما بين رجلين ، رجل اعتزم أن يخرج بنفسه ، وآخر ينيب عنه من يدافع عن ماله ، ومال قريش كلهم ، وبينما هم قد تجهزوا وأعدوا العدة بلغهم أن العير قد نجا بها أبو سفيان اذ غير الطريق كما أشرنا ، فأرسل الى قريش يبشرهم بنجاة العير ، اذ قال لهم : « انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ، ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله ، فارجعوا » .

وبذلك ذهب السبب الذي كان من أجله الخروج ، ولكن لأجل الحقد والعنف في قلوب بعض المشركين ، وعلى رأسه أبو جهل أبى الا المضي الى بدر ، فقال: « والله لا نرجع حتى نرد بدراً » .

فرد كلامه بعض حلفاء بني زهرة ، وقال وهم بالجحفة .

« يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل (وكان في حماة العير) وانما نفرتم لتمنعوه وماله فارجعوا فانه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير منفعة ، لا مايقول هذا الرجل (أي أبو جهل) فلم يشهدها زهري واحد .

ولم يكن بقي من قريش بطن الا وقد نفر منهم ناس ، وبنو عدي بن كعب لم يخرج منهم .

وكانت محاورات في صفوف الذين خرجوا للقتال من شانها أن توجد ترددا في الخروج ، وقد قال بعضهم في محاورة لطالب بن أبي طالب ، وقد استعد للخروج « لقد عرفنا يا بني هاشم ، وان خرجتم معنا . ان هواكم لمع محمد . فغضب لذلك طالب . ورجع مع من رجع » .

كان هذا التردد والرجوع من بعضهم بعد أن خرجت رجالات قريش للدفاع عن العير ، ولا شك أن من بقي مصرا على القتال قد نهنه من عزمته ذلك الخلاف ، مع رجوع بعضهم ، وخصوصا أن سبب الخروج قد زال .

---

(١) اللطيمة ، الابل التى تحمل الحرير والطيب وغيرها .

ومهما يكن من أمر ذلك التردد فقدخرجت قريش على الصعب والذلول في خمسين وتسعمائة مقاتل معهم مائتا فرس يقودونها، وأعداد من الابل تجاوزت الحسبة،ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويتغنين بهجاء المسلمين •

خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لبدر وجيشه :

٣٨٨ ـ لنترك هؤلاء وغيرهم وجيشهم وقيادتهم ، ولنذكر العطر من أخبار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو تسعة وثلثمائة أو حول هذا العدد ، وكان في هذه المرة من المهاجرين والأنصار قاصدين بدراً ،ليلقوا العير هنالك ، فلم يدركوها ،وفر بها أبو سفيان مخالفاً طريق بدر جاعلا بدراً على يساره ، وبذلك نجا العير ومن معه •

وعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مما تحسس من أخبار أن قريشاً قد خرجت في هذا العدد بجيش لجب فيه الأفراس والابل ، وأنه اذ فر منه العير فقد لقي النفير ، وانها الحرب لا محالة •

ولذلك أخذ يجمع قلوب جنده ، بعدجمعه عددا وان قليلا في عدده هو قوي في ايمانه ، انه واثق من المهاجرين والأنصار ، ولكن خشي أن يفهم الأنصار أن العهد لا يلزمهم أن يخرجوا معه ،بل يلزمهم العهد ان دهم في المدينة وأن ليس عليهم أن يسيروا معه لقتال عدو لم يجيء الى بلدهم ذلك أن صيغة العهد أنهم قالوا : يا رسول الله انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع به أبناءنا ونساءنا •

وربما توهم بعضهم أن هذا العهد لا يلزمهم بالخروج ولا بد من اليقين عند الحروب ، لذلك أراد أن يتعرف مافي قلوب أولئك الذين آووا اينصرونه في هذا الموطن ، وقد خرجوا للعير ، لاللنفير •

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه ليظفر بمشورة رجل حسن المشورة ، وليتعرف حال جنده مهاجرين وأنصاراً بصفة خاصة •

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فقال أبو بكر وأحسن القول ، وقال عمر بن الخطاب فأحسن القول ، وما كان يريد قول عمر وأبي بكر ، فهو مستيقن بايمانهما واقدامهما، ولكنه يريد من وراءهم •

فقام المقداد بن عمرو واقفاً وقال :

يا رسول الله امض لما أراك الله ،فنحن ، والله لا نقول لك . كما قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك ، من دونه ،حتى نبلغه » ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيراً ، ودعا له ٠

وهنا استيقن من المهاجرين ،وبقي أن يطمئن الى الأنصار الذين قد يتوهمون أن العهد الأول لا يلزمهم بالخروج ، فقال أشيروا علي أيها الناس (يريد الأنصار) ٠

قال سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال عليه السلام : أجل » ٠

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ٠

عندئذ آمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله قد صدق وعده ، وأن معه جيشاً يؤمن بالله وبالحق ، وأنه لايتردد ، ولذلك سر عليه السلام بقول سعد ، ونشطه قوله ، فقال عليه السلام : « سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدني احدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم » ٠

هذا هو جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقد العزم وتؤيده قوة الله تعالى ٠

(١) المائدة

٣٨٩ ـ رأيت الجيش النبوي قد ربط نفسه وقلبه بالحق ، ولكن عدده قليل ، وعدته ناقصة ، فلم يكن فيه الا فرسان وأربعون بعيرا لأكثر من ثلاثمائة مجاهد ، فكانوا يعتقبون البعير ، يتبادله أكثر من أربعة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعتقب معهم ، حتى اذاكان سيره أرادوا اعفاء النبي ، فقال عليه السلام : لست أقل منكم قوة . ولا أقل منكم طلبا للأجر .

وجيش الشر كان خمسين وتسعمائةكما ذكرنا ، وكان معهم سبعون فرسا ، وكان معهم العدد الكثير الذي يركبونه والذي يذبحونه في مأكلتهم ، ولكنه تنقصه العزيمة والايمان ، بل الرغبةالقاطعة في القتال فالتردد فيه قد كان من كثيرين منهم ، ومنهم من تورط فيالقتال ، ولم يكن له فيه ارادة .

(أ) انهم خرجوا من أجل حمايةعيرهم ، ودفعتهم الرغبة في حماية حماها ، الى أن يتقدموا على الصعب والذلول لحمايتها ، وانهم ان لم يفعلوا فقدوا المال ومعه النعمة ، ونالتهم المهانة في العرب ، وقد أرسل اليهم أبو سفيان يذكر لهم أنه نجا بالعير ، وقال : « انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها اللهفارجعوا » .

واذا زال السبب ، فليس لهم مايبعث حميتهم لقتال ، ولكن الحقد الدفين ، والحسد لبني هاشم حرك أباجهل ، فدفعهم الى المضي في القتال حقداً وحسداً ، واندفع معه من هو علىشاكلته .

(ب)وجاء بنو زهرة فتخلفوا جميعالهذا السبب ، وقال قائلهم ، لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ، ورمواأبا جهل بالحمق والجهل .

(جـ) ان بعض القرشيين الأقوياء الذين لهم مكانة في قومهم ترددوا في الخروج كأمية بن خلف ، فانه امتنع عنالخروج ، جاء في سيرة ابن اسحاق أن أمية بن خلف ، كان قد أجمع القعود ،وكان شيخا جليلا جسيما فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بينظهراني قومه بمجمرة يحملها ناراً ومجمر (أي بخور) حتى وضعها بينيديه . ثم قال يا أبا علي استجمر فانما أنت من النساء .

قال أمية قبحك الله ، وقبح ما جئت به ، وتجهز ذلك الرجل ذو المكانة من غير حماسة ، ولكن خشية الملامة وأبولهب الذي كان يخذل الوفود العربية في الحج عن متابعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يذهب الى القتال بنفسه وأناب عنه العاصيَ بن هشام بن المغيرة في نظير تركه دينا له كان قد أفلس به ، فجعله في نظير خروجه .

ولم يذهب طالب بن أبي طالب ، لأنه كما قال بعض القرشيين كان هوى بني هاشم مع محمد الهاشمي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكان خروج العباس ، وهو الهاشمي الأول غريبا ، لأنه كان يذهب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند لقائه مع الأوس والخزرج في العقبة الثانية ، ويطمئن على حمايتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ويبين لهم أنه في منعة من قومه ، وأنهم ان لم يمنعوه ، فليتركوه في حماية قومه ، فما كان ليخرج ويقاتل جيش ابن أخيه ، وهو يريد هزيمته ، بل خرج ليدرأ عن نفسه ملامة قريش الذي يعد من كبرائها ،وليكون له دائماً السلطان فيهم ، ولا يكون فردا ما بينهم .

وانا نحسب أن أبا سفيان نفسه لم يكن مؤمنا بضرورة هذه الحرب بدليل رسالته التي أرسلها الى قريش .

(د) وان قريشاً في جملتها خافت من الحرب ذلك أنهم بعد أن فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة من الحرب ، فخشوا أن يأتوهم من ورائهم ، وقال قائلهم انا نخشى أن يأتونا من خلفنا ، ونراهم قد فزعوا من الحرب ، وظنوا أن ما وراءهم من عورات أكثر مما يستقبلهم من حروب ، فما كانوا مؤمنين بالحرب ، ولا معتزمين لها الا ما كان ممن أعماهم الحقد والجهل والحسد ـ وهم أيضا كانوا يرهبون المؤمنين ، ويخافونهم ،وكان من بعضهم عندما التقى الجمعان أو أوشكا على اللقاء في وقت يثبط عن القتال ، وقد صار قاب قوسين أو أدنى ولعله كان يثبط لحقن الدماء ، وقد بدا من كلامه ما يدل على أنه يريد الرحم لا الحرب مع الاختلاف في العقيدة .

روى ابن اسحاق بسنده ، أنه لما اطمأن القوم (أي المشركون) بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا احرزوالنا أصحاب محمد • فاستجال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع اليهم ، فقال :ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا ، أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمين أو مدد فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئا ، فقال ما وجدت شيئا ولكنه بين رهبة الموقف وأن العبرة ليست بالعدد ، ولكن بقوةالنفس وارادة الموت ، فقال مخاطبا الجيش ، وهو على أهبة القتال :

« يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح (١) يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم متعة ولا ملجأالا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم ، حتى يقتل رجلا منكم ، فانأصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم » •

سمع حكيم بن حزام ذلك القول ،ومشى في الناس ، فذهب الى عتبة ابن ربيعة فقال له يا أبا الوليد انك كبيرقريش وسيدها والمطاع فيها ، هل الى أمر لا تزال تذكر فيها بخير الى آخرالدهر ، قال : وما ذاك يا حكيم ، ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بنالحضرمي (أي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش قال : قد فعلت أنتعلي بذلك • انما هو حليفي ، فعلي عقله •

بعد ذلك مباشرة قام عتبة بن ربيعةخطيبا ، وقال :

يا معشر قريش ، انكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجلينظر في وجه رجل يكره النظر اليه،قتل ابن عمه ، أو ابن خاله أو رجلا منعشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فان أصابوه فذلكالذي أردتم ، وان كان غير ذلك ألفاكم ، ولم تتعرضوا منه ما يريدون •

تسامع الجيش بذلك ، ولكن كان أبو جهل حامل الحطب يريدها ويدفعه الحسد ، فحرض عامر بن الحضرمي أخا عمرو الذي قتله أصحاب النبي صلى

---

(١) النواضح : الابل التي تستقى بها الماء أوتحمله •

الله تعالى عليه وسلم على المناداة بثاره فصرخ واعمراه • فخميت النفوس واشتد الناس واجتمعوا على ما هم عليه من الشر •

وننتهي من هذا الى أن ارادة الحرب كانت ضعيفة مترددة عند قريش وفي جيشها ، اذ زال باعثها وداعيها وتردد ذوو الرأي فيهم ، ومنهم من تنادى بالرحم ، ومنهم من أفزعه حال أصحاب محمد وارادتهم الموت في سبيل الله تعالى •

وفوق ذلك كان الجيش القرشي يخشى ما وراءه •

فكانت ارادة القتال غير ثابتة ، وقوة الجيش تبتدىء بالعزمة والارادة ، وما كان من بعضهم الا انفمالة الحقد ، وهي ان أجدت في الابتداء والتحريض لا تستمر عند اللقاء ، وعندما تعض الحرب بنابها ، هذه حال جيش الباطل يبدو التخاذل في صفوفه ، ووراء التخاذل والتردد الهزيمة لا محالة •

وانا نقول ان رحمة الله بأهل الايمان أن جعل جيش الباطل يحمل في نفسه ذرائع انهزامه ، وعوامل خذلانه •

جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٣٩٠ ـ ولننتقل الى الجانب الفاضل ، وهو جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أجمع القتال ، ولم يكن الباعث عليه ما لا يبتغونه ، ولا عرضا من أعراض الدنيا يريدونه ، ولكنه عدو الله قد جاء اليهم ، فلا بد لهم من أن يخوضوا استجابة لله ولرسوله ، وان لهم احدى الحسنيين ، اما الغنم واما الشهادة وكلاهما غنيمة في ذات نفسه •

عندما رأى المشركون المؤمنين بعين المتحسس منهم هالهم حالهم ، فاسترهبوهم ، وهم القلة الذين بلغوا نحو ثلاثمائة وازدادوا تسعة ، وقال ابن كثير : انهم كانوا ثلاثة عشر وثلثمائة عدا •

وعلى ذلك أرى الله المؤمنين المشركين قلة يستهان بها ، ولا تهولهم حالها ، وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بالرؤيا الصادقة ، ورأوهم كذلك رأى العين ، وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا
وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا أن المشركين كانوا يهلعون من اللقاء ، ويترددون ساعته الا من ركبت الحماقة رؤوسهم ، بينما المؤمنون في بشرى من الله ، يستصغرون شأنهم ، ويتقدمون غير راهبين ، ولا يستغيثون الا بالله ، والله تعالى يلقي في نفوسهم الطمأنينة ، والروحانية تظلهم والله يعينهم ، ويمدهم في ذات أنفسهم بالملائكة في قلوبهم بالأمن والدعة ، وهم ينامون مطمئنين واثقين بالنصر راجين ما عند الله ، ولا يستعينون الا بذاته الكريمة ، ولقد قال الله تعالى في حالهم ، وهم مقبلون على المعركة :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾
وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ
وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى
رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ
فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن
يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) ، (٢) الأنفال

ثم يقول سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

جيشان قد تلاقيا أحدهما كثير العدد ، والعدة ، ولكنه فاقد الايمان ، حتى بالحرب التي أقدم عليها ، فقد أوهن الله تعالى كيده وتدبيره ، أوهنه بازالة الباعث على القتال ، وأوهنه بالتردد في بعض كبرائهم ، وأوهنه بانفصال بعض بطونهم ، وأوهنهم باثارة الأرحام التي قطعوها ، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب عندما التقى الجمعان ·

هذه حالهم أما حال المؤمنين فارادة مؤمنة مجمعة ، وبشرى من الله بالملائكة وايحاء الى الملائكة بتثبيت المسلمين والقاء الطمأنينة في قلوبهم ، حتى غشاهم النعاس أمنة ، وأرسل لهم المطر خفيفا لتثبت الأرض تحت أقدامهم ، واستبدلوا بطلب العير طلب العزة ، فقد أرادوا المال ابتداء · ثم أرادوا اعلاء كلمة الله انتهاء ، كانوا يودون المال « وبعزة الله أرادوا القوة والعلياء ، كما قال تعالى » :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

جيشان ادرع أحدهما بالعدد والعدة مع الوهن النفسي ، والثاني ادرع بالعزيمة والايمان والصبر ، والرغبة في الشهادة وهما غير متكافئين ، ذلك أن قواد الحروب في القرنين الحاضر والسابق قدروا أثر القوة الحربية المادية بالنسبة للقوة المعنوية بواحد الى ثلاثة ·

وان تقدير النسبة بين قوة المادية الى قوة الروح بواحد الى ثلاثة هو تقدير أهل الخبرة ، وهم يخطئون ويصيبون ، أما تقدير الله تعالى فهو أعلى من ذلك اذ قدر الواحد من أهل الايمان في حال القوة التي لا ضعف معها ، بعشرة من أهل الكفر ، فقال تعالى :

---

(١) ، (٢) الأنفال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا النص أن القوة المعنوية عشرة أمثال القوة المادية اذا لم يكن في أوساط المؤمنين ضعاف الايمان ، الذين يخالطون المؤمنين الصادقين ، خصوصا عندما كان في المسلمين منافقون ، لا يريدون بأهل الايمان الا خبالا كما قال تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢)

هذا هو الضعف في الصفوف وقد ظهر في غزوة أحد والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسوى الصفوف للقتال، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأنفال (٢) التوبة (٣) آل عمران

هذه هي النسبة في حال قوة الايمان ، وألا يخالط المؤمنين نفاق قط ، وهي قوة الواحد بعشرة ٠

فاذا خالط المؤمنين منافقون مع مرضى القلوب كان هناك ضعف ، فيكون الواحد من المؤمنين يقابل اثنين من المنافقين ، فالنسبة الكبرى في حال قوة الايمان الخالص ، والنسبة الثانية اذاكان مرضى القلوب في صفوف المؤمنين ، فلا ناسخ ولا منسوخ ، كما يقال ان الثانية نسخت الأولى ٠

التقاء الجمعين يوم الفرقان :

٣٩١ ــ ذهب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ليدرك العير ، فلم يدركها ، وادركه النفير فلم يكن من القتال بد ، وقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها ، فتعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم العدو ، فقدره بين تسعمائة وألف ، مما كانوا يعقرون من ابل ، فقد قيل له وقد سأل عن عددهم فقال المسئول انهم كثير لا يحصون فسألهم عما ينحرون من ابل ، فقال يوم تسع ، ويوم عشر ، فقال هم بين تسعمائة وألف ، فكانوا خمسين وتسعمائة وسأل عن أشراف رجالاتهم ، فذكروا عتبة ابن ربيعة وأخاه شيبة ، وغيرهم من أشرافها ، فقال عليه الصلاة والسلام : لمن معه من جند المسلمين ليحثهم على القتال ويحرضهم ، « هذه قريش قد ألقت اليكم أفلاذ أكبادها »٠

وقد نزلوا من بدر بالعدوة القصوى ، وهي كثيب من الرمل مرتفع ، بعيد عن بدر ، ونزل أهل الايمان بالعدوة الدنيا من بدر ، وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) الأنفال

كان اختيار المكان بتوفيق الله تعالى، لا بارادة أحد ، ولو كان بارادتهم وأمرهم لاختلفوا في المكان والزمان ،ولكن الله تعالى دبر الميقات ، فجعله في هذا الزمان ، ودبر المكان فكان هذاالمكان ، وكان منزل المؤمنين دهسا رمالا يعوق السير ، فأنزل الله مطراً خفيفاً ٠لبد الأرض ، وجعلها معبدة يسهل السير فيها ، وانزل أمامهم على قريش مطراًكثيراً عوق سيرهم ٠

روى النسائي عن مجاهد أنزل اللهتعالى عليهم المطر ، فاطفأ الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم، جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بجيش الايمان ، فنزل على أقرب ماء من بدر ، وعرض الأمر على الصحابة فجاء اليه الحباب بن منذر بن الجموح وقال :

يا رسول الله ارأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره أم هو الرأي والحرب والمكيدة ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم : بل هو الرأي والحرب والمكيدة٠

قال يا رسول الله هذا ليس بمنزل ،فامض بالناس ، حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فتنزله ثم تغور (١) ما وراءهمن القلب ، ثم تبني عليه حوضا ، فتملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم ، فنشربولا يشربون ٠

اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك المنزل ، وأخذ برأي الحباب ابن منذر كاملا ، وبنى الحوض على البئر التي اختارها ، وامتلأت ماء لأنه آل اليها كل ماء الآبار التي غورت رأىالمشركون ذلك فأحسوا بأنها المكيدة التي تحرمهم من الماء ٠

وقد تواجهت الفئتان وتقابل الفريقان ، وحضر الخصمان ، واستغاث برب العالمين سيد الأنبياء ٠ وقد ابتدأت المناوشات بأن رجلا شرسا من بني مخزوم أحس بمكيدة الماء ، وظن أنهيستطيع أن يهدم على المؤمنين الحوض الذي بنوه ، فقال : لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فخرج اليه وانقض حمزة بن عبد المطلب أسدالله فانقض عليه ، فلما التقيا قطع حمزة بسيفه رجله الى نصف ساقه ،ولكنه لحرصه على أن ينفذ ما أقسم عليه حبا الى الحوض ، فضربه حمزةحتى قتله ٠

---

(١) رويت في هذه الكلمة بحرف الغين المعجمةومعناها تغوير ما حولها ليذهب ماؤها ورويت بالعين ومعنى تعويرها افسادها بما يشبه ردمهافينحصر الماء في القليب المختار ٠

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الجيش كسائر جنده ، ولكنه رأى أن يكون في مكان مرتفع ليشرف على حركة جنده ، فاتخذ له عريشاً على مرتفع من الأرض ، ويروى أن معاذ بن جبل هو الذي أشار به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . يروي ابن اسحاق بسنده أن سعد بن معاذ قال يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم تلقى عدونا ، فان أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك ،فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ، ما نحن بأشد حبالك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ، ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودعا له بخير .

بني له عليه الصلاة والسلام العريش ، وكان فيه فائدة ، وهو الرقابة على حركة الجند وعمله ، وليكون مع الجند كله ببصره ، لا مع فريق منه ، فهو يراقبهم ، ويعرف أعمالهم .

ولا شك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بوجدانه وشعور العطف والرحمة بجيشه يغلب عليه الاشفاق ، فعندما رأى جيش قريش ضرع الى ربه داعياً قائلا :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم (١) الغداة » .

وكان أبو بكر مع رسول الله في العريش، ومعاذ بن جبل في نفر من الأنصار يطوفون حوله ، والرسول دائم الدعاء والضراعة الى ربه يقول فوق ما روينا ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ، ويقول فيما يدعو « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض ، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول » : « اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك ، ويرفع يديه الى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ، ويسوي عليه رداءه ، ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال ، يا رسول الله : بعض

---

(١) أحنهم من الحين والهلاك .

مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ماوعدك ، وهكذا كان القائد الرشيد الحكيم لمحبته لجيشه ، ولكل رجل من رجاله ، ولحرصه على الأمر الباعث على الجهاد ، وهو حماية الوحدانية ، والقضاء على الوثنية ، كان يشتد في الابتهال الى الله تعالى • وبجوار ذلك كان يجتهد في بث المزيمة على القتال في جيشه الحبيب اليه ، فهو يلجأ الى جنده ليأخذ الأهبة ، ويعمل على النصر ، ثم يضرع الى ربه متوكلا عليه مستغيثا ، لتجتمع له ولجيشه قوة العمل ، وقوة الاعتماد على الله تعالى الذي لا يغير أمرا الا بأمره •

ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يحرض على القتال استجابة لقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ﴾ (١)

فقال عليه الصلاة والسلام :

والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا غير مدبر الا دخل الجنة ، هذا بعض تحريض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحريض الله تعالى كان أقوى من ناحية التحذير فقد قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

واذا كان تحريض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبشيرا ، فتحريض الله تعالى كان تحذيرا ، فالأول يبين عاقبة الخير ان أقدموا ، وكلام الله تعالى يبين العاقبة السوء اذا فروا أو أحجموا •

---

(١) ، (٢) الأنفال

القيادة والتنظيم :

٣٩٢ ـ كانت القيادة حكيمة ، وكانت رحيمة ، وكانت حازمة ، وكانت قوية ، فكان عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة · لقائد الحرب العادلة ، كما هو أسوة حسنة للمؤمنين في عمله وخلقه وسننه قد قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

١ ـ وأول مظاهر قيادته الحكيمة المرشدة ، أنه كان وسط الجند في القتال ، فلم يكن بعيداً عنهم ، بل كان يشرف عليهم ويوجههم ، ويشترك في شدائد الحرب ، كما يشترك في ثمراتها ، سواء أكانت حلوة أم كانت مرة ·

روي عن علي رضي الله تبارك وتعالى عنه أنه قال : « كنا اذا اشتد الخطب، وحمي الوطيس واحمرت الحدق أتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ،ولقد رأيتني يوم بدر ، ونحن نلوذ برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو أقرب الى العدو » ، فالنبي القائد كان في المعركة ولم يكن بمناى عنها ،بنى له أصحابه عريشا ، ويظهر أنه لم يستقر فيه الا بالقدر الذي أشرف به على الجيش ، وحرك الجند ، ليتبعوا نظامه ·

ولقد رأينا من بعد قوادا مسلمين اتبعوا هديه ، كصلاح الدين الأيوبي ، الذي كان يعيش في جيشه وقطز الذي كان جنديا مع الجنود · فكان النصر ·

وخالف طريقه ناس سموا أنفسهم قوادا كانوا يديرون دفة الحرب ، وهم في قصور مشيدة ، فكانت الهزيمة ،وذهب جند الله باهمالهم ·

وثاني مظاهر قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، المساواة بينه ، وبين جنده ، فقد كان يشعر كل جندي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجواره،

---

(١) الأحزاب

ويتساوى معه في الحقوق والواجبات الجندية وليس أدل على ذلك من أنه كان يتعاقب مع علي بن أبي طالب ومرثد في جمل واحد ، فلما جاءت نوبته في السير أرادا أن يعفياه ، فرفض ، وقال لستم أقوى مني ، ولا أنا أغنى عن الأجر منكم ، وازن بين هذا ، وبين جيوش المسلمين ، وخصوصا المصريين في العصر الأخير ، والأمور المفرقة التي تجعل فريقاً يكتوي بنيران الحرب ، والآخر ينعم بالخيرات ، وينال الفخر ان كان انتصار ، ولا شرف يناله الذين اكتووا بنارها ، ولذلك كانت الهزيمة تتلوها أختها ٠

وثالث مظاهر القيادة النبوية ، اشعار الجند بأنهم يعملون مختارين ، ولا يعملون مسخرين ، وأنهم يطلبون الثواب بحربهم ، وأنهم ان انتصروا بهدي الله تعالى نالوا نصراً لأنفسهم ، وللحق الذي يدافعون عنه ، وان قتلوا نالوا شرف الشهادة وجنة الرضوان ، وما بينهم وبين دخول الجنة الا أن يقاتلوا ويقتلوا ، فهم ينالون احدى الحسنيين ، فهم يقاتلون مختارين لله وللحق ، ولأنفسهم ، فهم في صفقة رابحة ، اختاروها ولم يسخروا لها ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أودع قلب كل مؤمن من الجند بأنه يقاتل مختاراً لنفسه ، لا لدنيا يصيبها ، ولكن لله وللحق في ذات الحق ، فلم يكن أي واحد من جند الله بهداية الايمان ، وقيادة النبي مسخراً أو مجنداً ، ولكن كان جندياً مختاراً ٠

ورابع الأمور التي لوحظت في قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنها كانت لينة مع حزمه وقوة تنظيمه ، فقد كان رفيقاً سهلا لينا في قيادته ،

---

(١) التوبة

لا سيطرة ، ولكن قيادة رفيقة هادئة هادية مرشدة من غير اعنات ولا غلظة ، فكانت القلوب مستجيبة ، والأجسام لها تبع ، فالتفوا حول القائد الحكيم ، يفدونه ، ويفدون معه الحق طوعا واختيارا ، لا كرها واضطرارا ، ولقد كان ذلك من رحمة النبوة ، ولذلك قال الله تعالى في قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

والأمر الخامس : الذي لوحظ في قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حرصه على جنده ، واشفاقه عليهم ، واعظامه لأمر آحادهم وجماعتهم ، كما ثبت في ضراعته لربه ، وخوفه عليهم ، فلم يكن الجند معه الا الأحباب والأولياء، ودعاة الحق وهداته ، وأنهم عصابة الله ان هلكوا لا يعبد الله في الأرض فتتربى فيهم عزة ، ويحسون بأنهم موضع المحبة .

واذا أحسوا بذلك باعوا أنفسهم لله ، فلم ينظر اليهم القائد الحكيم ، كما ينظر بعض قواد المسلمين اليوم ، على أنهم أدوات الحرب ، كآلاتها .

وسادس الأمور التي لوحظت في قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اشراكهم معه في تحمل التبعة بالشورى يقيمها فيهم ، كأمر الله تعالى بقوله فيما تلونا « وشاورهم في الأمر » وان الشورى مع الجند ، تجعل الجندي يحس بتحمل التبعة ، وأنه ذو رأي في توجيهاته ، وذلك يوجد فيه عزة الجندي المتحمل للتبعة وليس كالآلة المتحركة ، وفوق ذلك يشارك في تدبير القتال ، فيزداد قوة نفس ، ومن قوة النفس تكون الارادة الحازمة الراغبة غير المترددة .

بهذه القيادة الحكيمة اللينة الحازمة الرقيقة الرحيمة ، تربى جند الله . فكان النصر والغلب .

---

(١) آل عمران

التنظيم :

٣٩٣ ـ أول ما اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في تنظيم جيشه جعله صفوفا متتالية أمام العدو،وذلك كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (١)

فهذا توجيه من الله تعالى في القيادةالى أن يصف الجنود صفوفا ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي يبين القرآن الكريم بعمله ، وقوله ، ان احتاج القرآن الى بيان ٠

واول معركة في الحرب النبوية كانت بدراً الكبرى ، فطبق نظام الصف الذي يحبه الله تعالى :

روى ابن اسحق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عدل صفوف أصحابه ، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية ، وهو مستنتل (٢) من الصف ، فطعن عليه الصلاة والسلام في بطنه بالقدح ،استو يا سواد فقال : يا رسول الله أوجعتني ،وقد بعثك الله تعالى بالحق والعدل ٠ فأقدني (٣) فكشف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن بطنه ٠ وقال استقد قال فاعتنقه فقبل بطنه !! فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما حملك على هذا يا سواد ! قال يا رسول الله ٠ حضر ما ترى ٠ فاردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له بخير ٠

٢ ـ واصدر أمره الى جيشه جيش الايمان ألا يحمل على العدو الا عند ما يصدر اليهم الأمر بذلك ٠

---

(١) الصف

(٢) مستنتل ومعناها متقدم فى الصف ، وفى رواية مستنصل ومعناها خارج من الصف ٠

(٣) اى مكني من القصاص ٠

٣ ـ وأمرهم أن ينضحوهم ، فلايقاتلون مهاجمين حتى يصـدر أمـره عليه الصلاة والسلام ، لكي يهجمـوا هجمة رجل واحد غير متفرقين، ولا مانع من أن يكون النبل ، فرادى ، ومع ذلك كانت أوامره ألا يسرفوا في النبل ،بل يتخيرون من يرمونه ، ليكون ذلك أنكى للعدو ، وأبقى للعدة ٠

روى ابن اسحاق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقـال ان اكتنفكم القوم،فانضحوهم عنكم بالنبل٠

وفي صحيح البخاري عن أبي أسيدقال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم يوم بدر اذا أكثبوكم فارموهـم واستبقوا نبلكم ، وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تقطع الأجراس من أعناق الأبل لئلا يشغل الناس بها ٠

٤ ـ وقد جعل شعار الصحابة في هذه الحرب العادلة « أحد أحد ٠ وشعار المهاجرين يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج يا بني عبد الله ، وشعار الأوس يا بني عبد الله » ٠

وكانت عدة المؤمنين كما ذكرنا ٣١٣ ثلاثة عشر وثلاثمائة ، وكانت عـدة المهاجرين نيفاً وستين على رواية البخاري ، وعند الامام أحمد ستة وسبعين ٠

٥ ـ وقد أعطى صلى الله تعالى عليه وسلم اللواء لمصعب بن عمير ، وكـان أبيض ، وأعطى راية المهاجرين وكانت سـوداء لعلي بن أبي طالب ، وراية الأنصار وكانت سوداء أيضـاً لسعد بن معاذ ، وروي أن راية الأنصار كانت مع الحباب بن المنذر ٠

وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قيس بن أبي صعصعة معه ٠

هذا تنظيم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جعل على المهاجرين رجـلا منهم ، وهو من صناديد الاسلام ،وجعل على الأنصار رجلا منهم ، لا للتفريق بين المهاجر والأنصارى ، ولكن ليأنس كل فريق بصاحبه ، وليكون الجهـاد الذي يراه الله ورسوله والناس ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ٠

المعـركـة :

٣٩٤ ـ بعد ذلك التنظيم الذي لم يكن للعرب عهد به كان لابد من اللقاء، بين جيشين أحدهما قوى الايمان وقـد عقد العزم ، والثاني غير مؤمن بالله ، ولا عزيمة عنده كمـا بينا في حـال الفريقين ، وينطبق عليهما قوله تعالى :

﴿ * هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

الى آخر الآيات الكريمات ·

وانها اذا كانت الآية فيمـا يلقاه الكـافرون يوم القيامـة ففي لفظها ما يومىء الى حالهم في المعركة · ابتدأ القتال بالمبارزة ، طلبهـا بعض كبـار المشركين ، فأجيبوا اليهـا ، وجندلوا بسيفي أسـد الله ورسـوله حمزة بن عبد المطلب ، وفارس الاسـلام علي بن أبي طالب ·

خرج عتبة بن ربيعة ، ومعه أخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد يطلبون المبارزة فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا مالنا بكم من حاجة ، ولكن نريد أكفاءنا من قومنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا، فاختار لهم الأكفاء من ذوي قـرابته الأقربين عمه وابني عمه ، وقد آثرهم بالجهاد والعمل ، ولم يرض لهم القعود·

أخرج عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة ، وعليا ، فلما رأوهم سألوهم عن أنفسهم ، ويظهر أنهم قـد تقنعـوا بالسـلاح ، فلم يعرفوهـم فعرفوهم بأنفسهم ، فقالوا أكفاء كرام ، فبارز عبيدة عتبة ، وبارز حمـزة شيبة ، وبارز علي الوليد ، فقتـل كل من حمزة وعلي صاحبه ، أما عبيـدة وعتبة ، فاختلفا ضربتين كلاهما أصاب صاحبه · فكر حمزة وعلي بأسيافهمـا على عتبة فأجهزا عليه ·

بعد ذلك أخـذ النبل يرمى من الجانبين ، وأصـيب به بعض المسلمين ، وأرمى الجيش المحمدي نبلهم بمهـارة متخيرا كبارهم ، متصيدا زعماءهـم ،

---

(١) الحج

والرمي يمكن التصيد فيه ، أما الملاقاة بالسيف ، فلا تحيز فيها ، ولكن اللقاء هو الذي يحدها ·

عند ما رأى المشركون ذلك هجموا ،فكان لابد من ملاقاتهم ·

وعندئذ تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر جيشه بأن يحمل على المشركين حملة رجل واحد ،وأخذحفنة من تراب ، فاستقبل بها قريشا ، وقال شاهت الوجوه ، وتفحم بها فلم يكن منهم الا أصيب منها ، ثم قال لأصحابه : شدوا ·

فالتحم الجيشان والنبي ينظر من فوق العريش ، وهو يحس بأن الله تعالى أنجز وعده ، وهزم قريشا وحده :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ (١)

وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، متوشح السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يخافون كرة العدو ·

وقد أخذ الجيش المحمدي في تقتيل صناديد قريش وزعماء الشرك الذين كانوا يفتنون الناس · عن دينهم ، ويأسرون فريقا · وقد اشتدت النازلة بالمشركين ، وعلموا أن كلمة الله تعالى العليا ·

أمران هامان في القتال :

٣٩٥ ــ هذا ويجب أن نلاحظ أمرين جديرين بالنظر ·

أولهما ــ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينس رحمه وواجب الوفاء وأن يكون جزاء الاحسان لبني هاشم الذين ذاقوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما ذاقوا ، وقريش تقاطعهم في شعبهم ، وهم على مثل قومهم من الشرك ، فما كان من الوفاء بالعهد ، وجزاء المعروف بمعروف مثله أن يقتلهم في الميدان وقد خرجوا للحرب كارهين وكان من بعض رجالات قريش من لم يؤذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم · بل من سعى سعيه في منع

---

(١) الانفال

حصار بني هاشم وبني المطلب ، فكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الوفي الأمين ، لن ينسى احسان محسن والله تعالى يقول :

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ (١)

وهذا العباس بن عبد المطلب الذي كان يذهب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بيعة الأوس والخزرج ليستوثق من منعة يثرب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهل يتركه تعتوره السيوف !!

ولذلك قال لجيشه في رواية ابن عباس :

« اني عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لنا بقتالهم ، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم ، فلا يقتله ، ومن لقي البختري فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يقتله ٠

فقال بعض من قتل ذووه ، وهو أبو حذيفة ، (ويظهر أن قوله لم يكن في حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم)، أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا ، ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألجمنه السيف فبلغت هذه القالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأثرت في نفسه ، فقال لعمر بن الخطاب آسيا : يا أبا حفص : أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ، وفي ذلك اشارة الى موقف العباس في العطف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والفرق بينه وبين أبي لهب ٠

ولقد ندم أبو حذيفة (ولعله قالها لقتل أبيه) أشد الندم ، فكان يقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا الا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدا ٠

هذا وان الذين حضروا الموقعة من بني هاشم لم تمسهم السيوف استجابة لطلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،لرحمه ، ولحدبهم عليه ، ولمشاركتهم له في الضراء ٠ وما كان القتال لأجل الكفر ، بل كان للاعتداء ٠

---

(١) الرحمن

أما أبو البختري وله مقام مشهودفي نقض الصحيفة ، وقد عرفها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له في شديدته كما كانت منه المعونة في الشديدة ، فقد لقيه المجذر بن زياد البلوي حليف الأنصار ، فقال لأبي البختري : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدنهانا عن قتلك ·

وكان أبو البختري له زميل قد خرج معه من مكة ، فجمعتهما رفقة السفر ولعله كانت بينهما مودة موصولة ،فطلب ألا يقتل صاحبه ، فقال المجذر : « والله ما نحن بتاركي زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا بك وحدك » ·

فقال أبو البختري ، لا والله : اذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ولا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة ·

فتنازلا ، ولم يسلم أبو البختري سيفه الا أن يكون مقتولا ، وقال في ذلك :

لن يسلم ابن حرة زميله ... حتى يموت أو يرى سبيله

هذا وفاء محمد في ميدان القتال ،والبلاء بلاء ·

الملاحظة الثانية : أن الشرك وان فرق النفوس ، قد كانت المودة بين بعض الرجال ما زالت موصولة ، لقد كان أمية بن خلف صديقاً ودودا لعبدالرحمن بن عوف ، فلقيه في بدر فلم يرد أن يقتله بل أراد أن ينقذه ، لقد رآه وابنه علياً ، وانه ليقودهما بدل أن يقتلهما ـ اذ رآه بلال الذي كان عبداً لأمية ، وكان يعذبه ليترك الاسلام ، فيخرجه الى رمضاء مكة اذا حميت فيضجعه على ظهره ، ثم يأتي بالصخرة العظيمة ،فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارق دين محمد فيقول بلال، أحد أحد ·

وجدها بلال الفرصة التي يقتص فيها منه جزاء ما فتنه في دينه ، فقال رضي الله تعالى عنه : رأس الكفر أمية بن خلف لانجوت ان نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ، لانجوت ان نجا ، فأحاطوا به ، وعبد الرحمن بن عوف يذب عنه ، ولكنه قتل هو وابنه ·

القتل والأسر:

٣٩٦ ـ كان الجيش الاسلامي يقتل ويأسر ، لأنه في حال حرب ، ولكن معاذ بن جبل الذي كان يحوط عريش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يكره الأسر ، ولا يريد الاالقتل ، وأن يثخن فيهم ٠

يقول ابن اسحاق « رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ،فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :» « والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم !! قال أجل والله يا رسول الله كانت أول واقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك ، فكان الاثخان في القتل بأهل الشرك أحب الي من استبقاء أحد » ٠

ونرى من هذا أن القرآن نزل بموافقة سعد اذ قال الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

نتائج المعركة وأعقابها :

٣٩٧ ـ هذه المعركة اكتفينا في ذكرها بالاجمال لضيق ، فلم تمكث الا يوما واحدا من صبيحة الليلة السابعة عشرة من رمضان في السنة الثانية ، وكان شهراً مباركا ، وهو يوم بدر ،وفيه آخر فتح بازالة الأوثان وتطهير بيت الله الحرام ٠

واذا كنا ذكرنا المعركة بايجاز ، لأنها كانت في وقت قصير ، فقد كانت نتائجها بعيدة الأثر في حياة المسلمين ،ذلك أن زعماء الشرك الذين ما كان يرجى فيهم خير ، قد قتلوا ، ومنهم كان يؤذي النبي والمؤمنين ، ولا يألو في ذلك ولا يقصر ، ومنهم أشد مشعليها ،ومؤججيها ٠

---

(١) الأنفال

وكان عدة من قتل من المشركين سبعين ، وأسر منهم سبعون ، وكان ممن أسر النضر بن الحارث الذي كان شريك أبي جهل في ايذاء المسلمين والمبالغة في الأذى ، وعقبة بن أبي معيط الذي كان يقف ضد كل داعية للسلام ، حتى أشعلت الحرب ، فوقف ضد ابنه ، وعيره بأنه رضي أن يعيش كالنساء، والحرب قد قامت أسبابها ، فقتل النضر علي بن أبي طالب ، وروي أنه هو أيضا الذي قتل الثاني •

وفي غب المعركة كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً على أن يعرف مآل أبي جهل الذي سمي فرعون هذه الأمة ، فاذا أدال الله تعالى منه ، فقد أدال من فرعون •

يروي ابن اسحاق أنه لما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عدوه أمر بأبي جهل أن يلتمس في القتل، وقد كان هو مقصوداً في القتال، لأنه رأس الفتنة ، ولقد أحيط بمن يدفعون عنه ان أريد قتله ، فكان معه عكرمة وبعض سفهاء القوم ، وكان أول من لقيه بضربة معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني مسلمة ، فقال رأيته كالحرجة (أى كالشجرة الكبيرة) وهم يقولون لا يخلص اليه أحد ، فضربته ضربه أطنت قدمه الى نصف ساقه (أي قطعتها) وضربني عكرمة على عاتقي فطرح يدي • لم يستطع معاذ الاجهاز عليه ، حتى جاء معوذ بن عفراء ،فأثبته ، ولكن لم يقض عليه أيضاً ،وان منعه الحركة حتى جاء عبد الله بن مسعود ، وبه رمق فوضع رجله على عنقه ، وكان قد آذاه ، ثم قلت له أخزاك الله يا عدو الله ، ثم حز رأسه ، وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

انتهى أمر زعماء الشرك ، والذين بقوا منهم كانوا أقل عداء وايذاء ،وان كان قتل ذويهم قد أرث قلوبهم بالأحقاد •

وانه في هذه المعركة لم يستشهد من المؤمنين الا أربعة عشر ، أي نحو خمس من قتل من المشركين ، واذا أضيف المأسورون ، يكون ما أصيب من

المسلمين عشر من أصيب من المشركين، ولقد كانت هذه المعـــركة شفاء لغيظ المؤمنين الذين أوذوا في الحق وأخرجوا من ديارهم كما قال تعالى :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

وان الأمور الأربعة التي ذكرها الله تعالى قد كانت ، فقد عذبهم الله تعالى بأيدي الذين عذبوهم ، وأخزاهم الله بالهزيمة ، وشفى الله قلوب المؤمنين وذهب غيظهم وكانت المعركة سبيلا لأن يذهب غرور بعض الناس ، ويفكروا من جديد في دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وهي دعوة الحق .

ويقول ابن كثير في تاريخه في قتل أبي جهل : « كان قتل أبي جهل على يد شاب من الأنصار ، ثم بعد ذلك وقف عليه عبد الله بن مسعود وأمسك بلحيته، وصعد على صدره ، حتى قال له لقد رقيت مرتقى صـــعبا يارويعي الغنم ثم بعد هذا حز رأسه وحمله حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشفى الله به قلوب المؤمنين ،وكان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة ، أو أن يسقط عليه سقف منزله أو يموت حتف أنفه ــ والله أعلم .

وقد ذكر مؤرخو السيرة أنه فيمن خـــرج يوم بدر بعض المسلمين الذين شهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكنهم بقوا في مكة ، وهـــم مؤمنون فخرجوا مع المشركين تقيـــة ،كما خرج بعض بني هاشم ، وهواهم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان لم يكونوا قد آمنوا من بعد .

ومن هذه الجماعة المسلمة الحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلي بن أميـــة بن خلف ، والعـــاص بن منبه بن الحجاج .

وقد قتل هؤلاء يوم بدر .

---

(١) التوبة

قال ابن اسحق ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾ (١)

وسواء أصح أن تكون حال هؤلاء هي سبب النزول أم لم يصح ، فان الآية توجب على كل مؤمن يقيم في أرض الكفر أن يخرج مهاجراً الى حيث يكون قوة للاسلام ، ولا يتخذ قوة الكفر ،وان ثبت أن النزول كان لذلك السبب، فان الآية عامة ، وكما يقول علماء الأصول اذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ·

الكرامة الانسانية في أعقاب المعركة :

٣٩٨ ـ قلنا ان حرب الاسلام هي حرب الفضيلة ـ لا يستباح فيها الا الدماء ، ولا تباح فيها المثلة تكريما للانسان ولا يترك فيها أشلاء الانسان تنهشها الذئاب والغربان ، بل انها تدفن تكريما للانسان ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ * وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾ (٢)

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كرم الانسان حياً وميتاً ، والقتل في الميدان عند الاعتداء ، لا يتنافى مع تكريم الانسان ، لأنه العدل ، والعدل فيه تكريم الانسانية دائماً ،.ففيه تكريم الانسان الفاضل بأخذ الحق له ،وتقويم الفاسد بأخذ العدل منه ·

---

(١) النساء (٢) الاسراء

ومن هذا المبدأ السامي لم يترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتلى بدر من المشركين تنوش جثثهم سباع الحيوان ، ولا تنقرها الغربان جيفاً ملقاة في الأرض ، كما فعلت جيوش في قتلاها انفسهم ، لا في قتلى أعدائهم فقط .

بل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء الى حيث القتلى من قريش في هذه المعركة المباركة فدفنهم في القليب ، وهو بئر جافة ، وتقول عائشة فيما رواه عنها ابن اسحاق : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالقليب فطرحوا فيه ، الا ما كان من أمية بن خلف ، فانه انتفخ في درعه ، فملأها ، فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه . فاقره ، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة » .

وهكذا ، فعل ليواري سوءاتهم، وليحمي أجسامهم من سباع البهائم ، وسباع الطير .

قال ابن اسحق : حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال مخاطبا جثث القتلى : ياأهل القليب ، بئس عشيرة كنتم لنبيكم كذبتموني ، وصدقني الناس ، وأخرجتموني ، وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس ، هل وجدتم ما وعدربكم حقاً ، فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ويروى أنه نادى طائفة من زعماء الشر فيهم ، أو كبرائهم ، فقد روى أنه كان يقول : « يا عتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ، فعدد من كان منهم بالقليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، ويظهر أن الواقعة قد تعددت .

فقال الحاضرون : يا رسول الله ، أتنادي قوما قد جيفوا فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا » .

ومعنى أسمع أعلم بحقيقة ما أقول لهم ، لأن السمع الحقيقي يحتاج الى جارحة السمع ، وقد فقدوها بالقتل ولأن الله تعالى يقول :« وما أنت بمسمع من في القبور » وفي رواية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لقد علموا ما أقول » .

والعبرة في هذه المسألة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد عمل على كرامة الانسان بمواراة سوءات هؤلاء، وليبين للأحياء المسلمين الاعتبار في هذه المعركة ، وهو أن الله صدق وعده، ونصر عبده ، وهزم عدو الله تعالى وعدوهم ٠

الأسرى :

٣٩٩ ـ أسر من المشركين سبعون ،وقد علمت أن سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه كان يكره الأسر ، ويريد القتل ، حتى يثخن المشركين ، وذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأيه ،وأنه كره الأسر ، ولكن سياسة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تتجه الى الاستبقاء بدل القتل ، عسى أن يسلموا ، ويكونوا قوة للاسلام ولأن يكونوا مؤمنين ، ولو مآلا خير من أن يقتلوا كفاراً في عجلة الحرب ٠

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لايعمل عملا الا بمشورة أصحابه ، مادام الوحي لم ينزل بأمر ، فهو يجتهد فيما يفعل ، لا فيما يشرع ، واذا اجتهد في عمل ، فالشورى روح العمل ، وقوة الجماعة ٠

قال الامام أحمد في سنده بروايته: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ،فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم ، واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ٠

وقال عمر : يا رسول الله ، أخرجوك وكذبوك ، قربهم فاضرب أعناقهم ؟

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فأدخلهم ثم أضرمه عليهم نارا ، استمع اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ابتدأ الراي رفيقا ثم اشتد حتى صار حريقا ، فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركهم مليا ، ليتدبروا مغبة كل قول ، ثم خرج عليهم ٠

فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله ليلين قلوب رجال ، حتى تكون الين من اللبن ، وان الله تعالى ليشد قلوب رجال ، حتى تكون أشد من الحجارة ،

وان مثلك أبا بكر كمثل ابراهيم ، قال«فمن تبعني ، فانه مني ، ومن عصاني ، فانك غفور رحيم ، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى ، قال :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١)

وان مثلك يا عمر كمثل نوح ، قال« رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » وان مثلك ياعمر ، كمثل موسى،قال « ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

انتهت الاستشارة بأن أبدى رأيان أحدهما رفيق مؤلف ، لا جفوة فيه وهو رأي الصديق رضي الله تعالى عنه ، والثاني رأي مخيف ، وهو رأي الفاروق عمر بن الخطاب ، رضي الله تبارك وتعالى عنه ، ويتبع ذلك في عنفه أشد في طريقته ، وهو رأي عبد الله بن رواحة ، اذ كان رأيه القتل بالحرق .

وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذ بمبدأ الفداء ، اذ فيه رفق أبي بكر ، ونفع لجماعة المسلمين ،وقد كانوا في غير غنى ، ورخص في غير ذلك ، فرخص لنفسه في القتل ،ورخص لنفسه في المن من غير فداء ، وان كان الأكثر كان الفداء، وكان يسير في الفداء على مقدار الثروة للأسير ، وفي العفو بالمن على مبدأ من كان يظن أنه أسلم ، وخرج تقية ، ويمن أيضا على من يرى في المن عليه كسبا للمسلمين .

وانه يلاحظ أنه لم يمن على أحد من بني هاشم مع أنه نهى عن قتلهم ، وانه يعلم أنهم خرجوا مستكرهين ولم يخرجوا محاربين .

وكيفما كانت حالهم من مَنّ أو فداء قد أوصى بهم خيراً ، وقد نزلوا عند الأنصار ، وكانهم في ضيافة ، لا في أسر ، حتى ان الأنصاري كان يفضل الأسير في الطعام على أهله وعياله،وكان يرى الأسير ذلك ، فيتعفف فيشدد عليه الأنصاري . فكانوا يؤثرون على أنفسهم . ولو كان بهم خصاصة .

مقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث :

٤٠٠ ــ لقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث . لأنهما كانا قائدي الشرك في المعركة ، ولأن عقبة هو الذي كان يحرض على القتال بعد أن نجت العير ، وأراد بعض كبراء

(١) المائدة

قريش أن يكتفوا بذلك ، ولا يقاتلوا حفظاً للرحم ، كأمية بن خلف ، وعتبة ابن ربيعة ·

وروى الشعبي أنه لما أمـــر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبــة قال : أتقتلني يا محمد من بين قريش ،قال نعم ، ثم التفت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه، وقال: أتدرون ما فعل هذا بي !! جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي ، وغمزها فما دفعها حتى ظننت أن عيني تدوران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ســاجد ، فجاءت فاطمة ، فنسلت عن رأسي ·

وكان مثل ذلك النضر بن الحارث ،وكان حامل لواء المشركين ، فكان قتله لما قدم من أذى ، ولما فيه من اذلال الشرك وأهلة ·

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم الفداء من ذوي الثراء من بني هاشم ، بل شدد في الأخذ منهم ولم يقبل منهم الا الفداء ·

ولعل أدل شيء على شدته في أخذ الفداء من بني هاشم مجاوبته مع عمــه العباس بن عبد المطلب الذي كان يحبه ،وكان يألم لأسره ، والشد عليه بالوثاق·

ادعى العباس أنه أسلم من قبل ، ومعنى ذلك أنه ليس عليه فداء ، لأنه جاء مكرها لا محاربا ·

فقال له النبي صلى الله تعالى عليــه وسلم : أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم باسلامك ، وسيجزيك خيراً فادعى أنه لا مال عنده يفدي به نفسه ، ومن معه من بني هاشم عقيل ونوفل ولدى أخيه فقال له رسول الله صلى الله تعـالى عليــه وسلم : فأين المال الذي أودعت أنت وأم الفضل ، وقلت لو أصبت في سفري هذا فهذا لبني الفضل وعبد الله فقـــال العبـاس رضي الله عنه والله اني لأعلم أنك رسول الله : ان هـــذا شيء ما علمه الا أنا وأم الفضل ·

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم مائة أوقية من ذهب فداء له ولابني أخيه عقيل ونوفل ، وعن حليفه له هو عتبة بن عمرو أحد بني الحارث ابن فهر ·

وهكذا أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الفداء ، لايني عن ثري ، ولا يعفو الا عمن يرجى منه خير للاسلام ، أو من يمن عليه في نظير أن يمن على

مسلم أخذوه عنوة من غير حرب ، كمافعل أبو سفيان في معتمر من أصحاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذه،حتى يفك اسار ابن له ،ففك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اساره لذلك ٠

وكان صلى الله تعالى عليه وسلميقبل من الفداء نوعا معنوياً ، وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا كان الأسير ليس له مال يفدي به نفسه ، ولكن له علم بالقراءة ، فانه يكون فداءه أن يعلم بعض الأميين من أصحاب رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم القراءة ٠

وقد مَنَّ النبي صلى الله تعالى عليهوسلم على ناس من الأسرى ، منهم من كان يظن فيه الاسلام ، وقد شهدعبد الله بن مسعود لسهيل بن بيضاء بالاسلام فقد قال سمعته يذكر الاسلام٠

فقبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهادته ، ومَنَّ عليه ٠

وممن مَنَّ عليه رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم أبو العاص بن الربيع الأموي زوج زينب بنت الرسولصلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان زوجاً باراً مكرماً لزوجه غير مضار لها ٠ وقدأرادت قريش أن تحمله على طلاقها كما طلق ابن أبي لهب ابنة النبي صلى اللهتعالى عليه وسلم ٠ فتأبى عن ذلك ٠

ولقد كانت زينب رضي الله تعالىعنها بمكة فأرسلت فداء لزوجها البار الطيب ، وبعثت في ضمن الفداء قلادةلها ٠ كانت أم المؤمنين خديجة قد أدخلتها بها على أبي العاص حين بنىبها ، فلما رآها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أثارت ذكريات الزوجالرفيقة الشقيقة ، والرحم ، فرق لذلك رقة شديدة ٠

وكان للرسول الأمين أن يطلق سراحه ، كما أطلق سراح غيره من بني مخزوم وغيرهم ، ولكن لكيلا يكون فينفس أحد ضيق أو حديث نفس ، ولتطيب النفوس كلها جعل اطلاق سراحه للصحابة ، فقال : « ان رأيتم أن تطلقوا أسيرها ، وتردوا عليها الذيلها ، ففعلوا » ٠

ويجب أن ننبه هنا لأمرين :

أولهما ــ أن النبي صلى الله تعالىعليه وسلم رأى ألا تبقى من بعد في مكة ، وألا تكون في فراش العاص منبعد ، فأخذ عليه عهداً أن يخلي سبيلها رضي الله عنها ، بأن تهاجر الى المدينة ،فوفى أبو العاص بذلك ٠

ثانيهما ــ أنه لم يكن قد نزل التفريق بين المسلم وغير المسلم ، لأنها لا تحل له ، اذ أن ذلك نزل عند الحديبية في سورة الممتحنة ، فقد قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

ويلاحظ هنا أن الله تعالى أشـار الى سبب التحريم وهو الكفر ، اذ قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ (٢)

ولم يقـل الى المشركين ، والكفر يشمل الشرك وما عليه النصـــارى واليهـود الذين كفروا بمحمد ، وآمنوا بالتثليث، وألوهية المسيح ، كما قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٤)

---

(١) ، (٢) الممتحنة (٣) ، (٤) المائدة

وهكذا من رسول الله تعالى على أناس كان يرى خيراً في المَنّ عليهم ، أو يرى فيهم عجزاً عن أن يقدموا فداء .

فمَنَّ على المطلب بن حنطب بن الحارث من بني مخزوم ، ومنَّ على صيفي ابن رفاعه بن عائذ من بني مخـــزوم وممن منَّ عليه أبو عزة عمرو بن عبدالله ابن عثمان ، وكان محتاجاً ذا عيال فمَنَّ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخذ عليه عهداً الا يظاهر عليه أحداً ، وكان شاعراً ، ولكنه نقض ما عاهد عليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع اليهم بعد أن قرب من الاسلام أو دخل فيه ، فقد قال مادحاً النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ مَنَّ عليه من غـــير فداء في قصيدة :

من مبلغ عني الرســول محمداً فانـــك حــق والمليك حميـد

فلما كان يوم أحد أسر أيضاً ، فطلب أن يمن عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقـال له النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم : «لا أدعك تمسح عارضيك ، وتقول خدعت محمداً مرتين ، ويرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

وهكذا فوض النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم أن يتصرف في الأسرى بما يكون خيراً في ذاته وللمؤمنين ، فقتـل من قتل منهـم ، وفدى كثيرين ، ومن على بعضهم .

بيان الله تعالى لخطأ الأسر :

٤٠١ ـ نزل القرآن الكريم من بعد القيام بما اتجهت اليه الشورى بالنسبة للأسرى ـ ببيان الخطأ في أن المسلمـين أسروا قبل أن يثخنوا ، وهو ما كـان يميل اليه سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله تبارك وتعالى عنه ، ولقد ذكر الخبر كما رواه ابن اسحاق أنه لما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في وجه سعد بن معاذ ، فقال له كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم . قال أجل والله يا رســول الله كانت أول وقعة أوقعها الله تعالى بأهـل

الشرك ، فكان الأثخان في القتل أحب الي من استبقاء الرجال » ولقد قال الله تعالى بعد انهاء ما أشار اليه الشورى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩ ﴾ (1)

اذن كان الخطأ ، لا في أنهم فدوهم، ولا في أنهم منّوا عليهم ، ولكن في أنهم أخذوا الأسرى قبل الاثخان أي قبل أن يثقلوهم بالجراح ، حتى لا يستطيعوا أن يثيروا عليهم معركة أخرى،أو تكون صعبة عليهم لكثرة القتلى ، ومن بعد ذلك يكون الأسر ، ويكون المنّ أو الفداء كما قال تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (2)

ويجب أن نذكر هنا ثلاثة أمور :

أولها ـ في معنى قوله تعالى :

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ ﴾ (3)

فان الكتاب الذي قرره الله تعالى ،هو أنه لا عقوبة الا بنص على المنع ، ولم يكن ثمة نص على منع أخذ الأسر ،قبل الاثخان ، وان ما فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اجتهاد ، ولا عقوبة على الاجتهاد في الخطأ .

ثانياً ـ أن كثيرين ممن كتبوا في الماضي ، وتبعهم أهل الحاضر أن القرآن نزل موافقاً لرأي الامام الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، في

---

(1) الأنفال (2) محمد (3) الانفال

الأسرى ، ونحن نرى أن ما جاء به القرآن لا يوافق رأي الفاروق ، لأن ما جاء به القرآن الكريم ، انما كان معارضة لأصل الأسر قبل الاثخان ، ولم يعترض الفاروق على الأسر قبل الاثخان •

انما الذي كره الأسر قبل الاثخان في القتل سعد بن معاذ رضي الله تبارك وتعالى عنه ، فاذا كان ثمة فضل في نزول القرآن موافقا لما كره سعد ، فله في هذا الفضل ، « يختص الله بفضله من يشاء » •

ثالثا ـ وهو الأمر الجدير بالاعتبار عند أهل الاعتبار ، وهو أن الله تعالى وحده يعلم الغيب ، ويعلم السر وأخفى وهو سبحانه وتعالى يعلم أن أخذ الأسرى قبل اثخان العدو ، خطأ ، فلماذا ترك النبي رسوله وحبيبه ، ومعه صحابته يخطئون ، وقد كان وحده هو الذي يعلم الصواب •

والجواب عن ذلك أن هذا فيه عظة وعبرة ، ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي يوحى اليه ، والذي علمه ربه ، وأدبه فأحسن تأديبه اذا ترك يتصرف باجتهاده فقد يخطيء ،ولا ينزه عن الخطأ أحد ولو كان نبيا ، الا أن يعلمه الله تعالى • فهو وحده العليم الحكيم الذي يعلم المستقبل كالحاضر والماضي ، وفي ذلك توجيه للذين يستبدون ،وبيان أنهم يخطئون ، وليس لهم أن يدفعهم الغرور ،فيحسبوا أن آراءهم منزهة عن الخطأ فيتردون بأممهم في أفسد النتائج •

ان ترك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الذي يوحى اليه ، ثم هو في ذاته أعقل الرجال ، اذ كانوا قبل البعثة يهتدون برأيه ـ يخطيء في رأيه ، ثم ينبه الى الصواب ، فيه عبرتان لأولي الأبصار •

أولاهما ـ أنه لا يصح لأحد أن يغتر برأيه ، فيحسبه الصواب الذي لا يقبل الخطأ ، ويعتقد في نفسه العلم،وفي غيره الجهل •

الثانية ـ أنه ليس لأحد أن يستبد في تفكيره الذي يعمل فيه للجماعة ، فلا يقول ما قاله فرعون « ما أريكم ،الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد » •

فعلينا معشر المؤمنين أن نتأدب بأدب الله ، وهو الا ندلي أنفسنا وجماعتنا بالغرور ، فتكون السوءى ، في حاضر الأمة ومستقبلها ، وعلينا أن يكون لنا

في رسول الله أسوة حسنة ، ولا يكون لتامن فرعون ، متبوع يتبع ، فالحق أحق أن يتبع .

ولقد رأينا في عصرنا اخوان فرعون يطلبون أن يتلى ما يكتب لهم كأنه تنزيل من التنزيل وقد بوءوا بهذاالغرور عنهم ، والخنوع من غيرهم أمتهم سوء الدار ، وبئس القرار ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع ،وهو شهيد .

الأنفال :

٤٠٢ ـ كان المشركون يحاربون في غير ديارهم وأرضهم ، وكان المؤمنون كذلك ، ولكن كانوا على مقربة منديارهم ، وكانت الهزيمة قد نزلت بالمشركين ، فكانوا شبه فارين بعد المعركة لا يلوون على شيء الا ما يمكنهم من أن يعودوا الى ديارهم راضين باياب بعضهم سالمين .

فكان لابد أن يغنم المسلمون منهم غنائم ،وكانت هذه الغنائم أول ما غنمه المسلمون في الحروب ، لأنها كانت أول حرب كان الاتجاه فيها الى المنازلة ، وأخذ الغنم نتيجة لهذه المنازلة ، ولم تكن عيرا مصادرة بل كانت حرباً شعواء .

ولذلك اختلف المقاتلون في الأنفال، وهي الغنائم التي تكون قبل القسمة ، ولم يكونوا على علم بقسمتها، والمقسطون منهم سألوا عما يفعلون بشأنها ، وبعض القاسطين ظنوها لمن أخذها .

وذلك أن المجاهدين كانوا ثلاثة أقسام ، قسم واجه العدو كعلي وحمزة وغيرهم ، وقسم كان من ورائهم ، وأولئك جمعوا الغنائم،وقسم حاط العريش الذي كان به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول في ذلك عبادة بن الصامت وهو من البدريين « خرجنا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشهدت معه بدراً ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة وراءهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يصيب أحد منه غرة ، حتى اذاكان الليل ، وفاء الناس بعضهم الى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناه وليس لأحد فيها نصيب .

وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق بها منا ، فنحن نفينا منها العدو ، وهزمناهم ٠

وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، كان هذا الخلاف ، وكان معه تساؤل لمن تكون الغنائم ، فنزل قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ (١)

كانت هذه المناقشة في الغنائم قبل أن ترفع الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر الله سبحانه وتعالى ٠ مايحسم الخلاف ، ويقطع مادة النزاع ، وهو أن يكون أمرها الى الله تعالى ، ومايحكم به سبحانه وتعالى والى الرسول الذي ينفذ حكم الله تعالى ، فليس لهم أن يقتسموا بأنفسهم ، بل الأمر لغيرهم فليصلحوا ذات بينهم ، ولا يصح أن تكون المادة مفرقة بينهم ، وقد جمعهم الحق وجمعهم الجهاد في سبيله ٠

وما الذي اتبعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قسمة الأنفال ، فقال بعض الرواة ، انه قسمها بين المجاهدين بالسوية ، اذ لم يكن حكم تخميس الغنائم قد نزل في قوله تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الأنفال (٢) الأنفال

فالنبي على رواية هؤلاء وزع بالسوية بين كل المجاهدين ، لأنه لم يكن ما يوجب التفاوت ، ولا دليل يرجح طائفة على أخرى ·

ويرى ابن كثير أن التوزيع كان حسب التخميس الذي نص عليه قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم » الآية لأنها متصلة الواقعة، فالأمر في التوزيع كان الى الله والى رسوله على حسب هذا الحكم الذي شرعه الله تعالى، فآية الغنائم متصلة بأول السورة التي أشارت الى التوزيع ، وفوق ذلك فان الآية تشير الى أن ذلك ما أنزله تعالى يوم التقى الجمعان يوم الفرقان ·

ولقد روى أن علياً ذكر أن الناقتين اللتين نحرهما عمه حمزة ، وهو شارب كانتا من خمسه في الغنائم ، ونحن نميل الى ما اختاره الحافظ ابن كثير ·

٤٠٣ ــ كان أثر المعركة في العرب عامة بعيد المدى ، فقد سارت الركبان في الصحراء العربية بهزيمة قريش على يد طريدها الذي أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم ، لأنه ينكر الوثنية ، ويدعو الى الوحدانية ويقول انه يوحى اليه من عند الله تعالى ، فكان ذلك النصر منبهاً للعرب بحقيقة الدعوة المحمدية وسلامتها وقوتها ، فوهنت العقيدة الوثنية بين العرب ، وأخذت عقول تدرك الحقائق وتطرح الأوهام التي نسجها الخيال الضال حول الأحجار ، وبذلك صارت كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الشرك هي السفلى ، وكان يوم الغزوة بحق يوم الفرقان ، اذ فرق فيه الناس وانتقل المسلمون من مستضعفين في الأرض الى أقوياء يكاثرون الناس بقوتهم، كما قال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

(١) الأنفال

هذه اشارة الى أثر ذلك النصر المبين في البلاد العربية ، لقـــد نظر اليه العرب على أن الاســـلام هو القـــوة الحقيقية في البلاد العربية ، وكان من ذلك أن أخذ الناس يفكرون ٠

هذا أثره بشكل عام في الجـزيرة العربية ، أما أثره في المدينة وما حولها، فقد صار القوة المرهوبة فيها ، وكـان فيها اخلاط من الوثنيين الذين بقـــوا على وثنيتهم من الأوس والخزرج ، وكانوا يظهرون عقائدهم ولا يخفونهـا ، وكان فيهم يهود ، قد أكل الحقد قلوبهم ، وان أخفوه ، وان كانوا يعرفون في لحن القول وفي استهزائهـم بالمـؤمنين أحيانا ٠

فلما ظهرت قوة المسلمين في بدر ،وجد في الفريقين منافقون يظهـــرون الاسلام بألسنتهم ، ويخفون الكفر ، ويقـــولون مالا يفعلـون ، وينطقـون بما لا يعتقدون ، ولقد نزل فيهم سورة كاملة ، وأولها قوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ ﴾ (١)

فالقوة الاسلامية التي ظهرت في بدر ، هي التي جعلت هؤلاء من المشركين واليهود ، يتخذون مظهرهم الاسـلامي جنة يتقون بها قوة أهل الاســـلام ، ويشيعون الخبال في صفوف المسلمين ،ويخدعون الذين في قلوبهم ضعف ٠

ان قوة المسلمين جعلت من لا يؤمن بالله ورسوله يخضع ببدنه ، ولا يؤمن بقلبه ٠

كان ذلك في السنة الثانية التي كانت فيها غزوة بدر قال ابن كثير «وفيها خضع المشركون من أهل المدينة واليهود الذين هم بها من بني قينقـاع ، وبني النضير ، وبني قريظة ، ويهود بني حارثة ، وصانعوا المسلمين ، وأظهر الاسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود ،وهم في الباطن منافقون ، منهم من هو على

(١) المنافقون

ما كان عليه ، ومنهم من انحل بالكليةفبقي مذبذبا ، لا الى هـؤلاء ولا الى هؤلاء كما وصفهم الله تعالى في كتابه .

وهو بهذا يشير الى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (١)

وانه يتبين من هذا الكلام أنه بعد أن أظهر الله تعالى قوة المسلمين وأعلى كلمة الدين ، صار الذين يخالفونه ، ويعاشرون المؤمنين بالجوار على ثلاثة أقسام :

أولهم الذين نطقوا بكلمة الاسلام والكفر يسكن قلوبهم، ويستولي عليها، وهؤلاء هم الذين قال تعالى فيهم :

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

فهؤلاء بقوا على كفرهم ، وأمد الله في طغيانهم ، لأن مظهرهم كان غير مخبرهم ، وقد استمرؤوا ذلك حتى زادوا عتوا وفسادا .

والقسم الثاني قوم ضعفت نفوسهم، وانحل تفكيرهم ، فهم منافقون ، في اظهارهم الاسلام ، ولا عقيدة لهم يؤمنون بها ، وان كانوا الى عقيدتهم الأولى أميل ، ولكن قد انحلت بالتعارض ، بين ما يظهرون وما يبطنون ، فقد خدعوا المؤمنين وأوغلوا في الخديعة ،حتى خدعوا أنفسهم ، وهم الذين قال فيهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :« مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى

---

(١) النساء (٢) البقرة

هؤلاء » ، وقد وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذا النوع من المنافقين بقوله عليه الصلاة والسلام : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين لا تدري الى أيهما تذهب » .

والقسم الثالث وهم أكثر اليهود الذين ثبتوا على دينهم من بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة وبني الحارث، وأولئك ثبت أكثرهم على اعتقادهم وجاهدوا بالبقاء عليه ، والاعتراض الديني على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم نافقوا في أنهم لم يخلصوا في العهد الذين عاهدهم عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يخفون الخيانة ، ويتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويكاتبون أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويحرضونهم عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، فينافقون المشركين ، ويقولون ان ماهم عليه من شرك خير مما يدعو اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من توحيد .

وفي الجملة ظهر النفاق بعد النصر المحمدي من أعداء هذا الدين .

ولنخص اليهود ، ومن والاهم بكلمة موجزة موضحة :

النبي صلى الله عليه وسلم وحلف اليهود :

٤٠٤ ـ عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حلفا مع اليهود ، جعل فيه له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وتعاهد معهم على البر والتقوى ، لا على التعاون على الاثم ، وأنهم في أحيائهم متعاونون على دفع الاثم وعقل الجاني الذي يجب عليه الدية ، وفي الجملة أعطاهم الحرية والحماية ، وعقد معهم جماعة ، وأحياء متفرقة عقدا ملزما ، ولكن الحسد كان يسكن قلوبهم من أن الرسول الذي يبعث كانوا يتمنون أن يكون من ولد اسحق لا من ولد اسماعيل، وقد كانوا يعرفون أن نبيا سيبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسدا من عند أنفسهم ، وكلما استيقنوا أنه النبي المبشر به في التوراة ازدادوا ضيقا وغضبا وكفرا ، وكلما وجدوا آيات النبوة زادتهم طغيانا وضلالا ، وعتوا وفسادا في الأرض ، وكأنهم وحدهم سلالة قابيل الذي قتل أخاه ، لأنهما قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر (قابيل) .

ولننقل شهادة أم المؤمنين صفية بنتحيي بن أخطب ، قالت رضي الله تبارك وتعالى عنها ٠

عندما قدم رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين (أي في غلس)قالت فلم يرجعاحتى كانا مع غـــروب الشمس ، فأتيا ساقطين يمشيان الهوينا ،قالت فهششتاليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت الي واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ،وسمعت عمي أبا ياسر ، وهو يقـــول لأبي حيي بن أخطب أهو هو ٠٠ ؟ قالنعم والله أتعرفه وتثبته ؟ قال نعم ، قال ما في نفسك منه ؟ قال : عداوته واللهما بقيت ؟

تلك شهادة صادقة من سيدة برة علىأبيها ، فما جعلته الآية المثبتة لرســالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنامصـــدقا بل جعلته عـــدوا لجوجا في عداوته ، وذلك فعل الحسد الذي كانمن قابيل على أخيه هابيل اذ تقبل منه الايمان وحده ، والله يختص برحمتـــهمن يشاء ٠

وحيي بن أخطب وأخوه صـــورةنفسية لكل يهودي ممن كان بجـــوار المسلمين بالمدينة ، وبهذه العداوة كانوايتحركون ، وطويت قلوبهم على الضغينة المستكنة ٠

فلما انتصر النبي صلى الله تعـــالىعليه وسلم ازدادوا ضيقا ، وظنـــوا أن الدائرة من بعد ستدور عليهم ،فأرادوابغريزة حب البقاء أن يعملوا عمـــلا يظنون فيه بقاءهـــم ، لكيـــلا يجـــدالمسلمون السبيل لاخراجهم ، واتحدوا مع المشركين ممن بقوا في المـــدينة ،وحملوا أولئك على أن يظهروا الايمان، ويخفوا الكفران اذ أوعـــزوا اليهـــمبخلقهم ، الذي اشتهروا به في ماضي أمرهم ونفذوه في حاضرهم ٠

ولقد انضاف بذلك الى اليهود باغرائهم من كانوا قد بقوا على الوثنية من الأوس والخزرج ، وان لم يكـــونوا الكثرة ، ولكنهم كانوا بما أظهـــروا من ايمان يبثون الوهن في قلوب المؤمنين ،ويلقون بأسباب الفشل ، وقـــد ظهرت رؤوسهم فيما ظهر بعد بدر من الغزوات ٠

وقد ذكر ابن اسحاق كثيرين ممن نافقوا من اليهود الذين أظهروا الاسلام ، وأخفوا عقيدتهم ، وأكنوا الأذى للمسلمين . والكيد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

كما ذكر من الأوس والخزرج من لف لف اليهود ، وأظهر الاسلام ، وكان كثيرون منهم من الخزرج ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول ، واليه كانوا يجتمعون ، وهو الذي قال : « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » في غزوة بني المصطلق .

والنفر من منافقي الخزرج ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول هم يمالئون بني النضير ويدسون اليهم أنهم معهم عندما خافوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنكثوا في أيمانهم وعهدهم الذي عاهدوه، وأرادوا معاونة المشركين فقد أرسل اليهم ابن سلول وشيعته أنهم ان خرجوا يخرجون معهم ، عندما حاصرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حصونهم ، وأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، لقد قال ابن أبي والنفر معه ، « اثبتوا لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وان قوتلتم لننصرنكم » وقد أنزل الله تعالى فيهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦) ﴾ (١)

(١) الحشر

وكان المنافقون من بقية الأوس والخزرج واليهود يحضرون مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون ، ويبثون الشك في قلوب المؤمنين بأوهام يذكرونها ، وبأسئلة مشككة يستجوبون بها .

٤٠٥ ـ يقول ابن اسحاق اجتمع يوماً بالمسجد من المنافقين أناس ، فرآهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضي صوتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا .

فكان المؤمن يأخذ برجل المنافق ، فيسحبه سحباً ، وأحيانا يجذب المؤمن المنافق ، وينتره نتراً شديداً ويلطم وجهه وهو يشيعه باللعنات قائلا له : « أف لك منافقاً خبيثا ، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » .

وأحيانا يجيء المؤمن الى ذي اللحية الطويلة منهم ، فيأخذ بلحيته ، ويقوده منها قوداً ، حتى يخرجه من المسجد ، وأحيانا يأخذ المؤمن المنافق ويأخذ بجمة المنافق ذي الجمة « فيسحبه منها سحبا عنيفاً » .

وذلك العنف في الفعل يصحبه عنف في القول ، من مثل « لا تقربن مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانك نجس ، وقول بعضهم ، غلب عليك الشيطان وأمره » .

وذلك غير الذين كانوا يدفعون من أقفيتهم .

وكانوا هم والذين بقوا على يهوديتهم من يهود أشد الناس أذى للنبي وأصحابه ، فالمنافقون كانوا يبثون في المسلمين روح التردد والهزيمة وفي المسلمين سماعون لهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١)

واليهود من وراء المنافقين يتعاونون معهم ، ويكيدون معهم ، ويمكرون ، ويمكر الله تعالى بافساد تدبيرهم ، وكاد اليهود ليلقوا الشك في قلوب المؤمنين يظهرون الايمان ، ثم يعلنون الردة ليشجعوا المسلمين على الردة وليكونوا لهم مثلا لمن يخرج من الاسلام بعد الدخول فيه ، وهؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢)

وهكذا كان الافساد اليهودي ، ينافقون ، ويدعون الوثنيين الى النفاق ، ويبثون بنفاقهم روح الفرقة بين المسلمين ، ويستهزئون ويسخرون من أهل الايمان ، ويجعلون من انفسهم مثلا لمن يخرج عن الاسلام ، فيظهرون الاسلام ثم يخرجون ليكونوا مثلا سيئا للمسلمين لعلهم يرجعون ، كما عبر القرآن الكريم عنهم .

---

(١) التوبة (٢) آل عمران

٤٠٦ ـ كانت الحرب بين الأوس والخزرج قائمة بين الفريقين ، حتى جمع الله تعالى بينهما بالاسلام ، وألف بين قلوبهم ، فكانت القوة ، ولكن اليهود كانوا يعلمون بأنباء العداوة السابقة ،فكانوا يبثون فيهم ما يحيي نار العداوة بعد موتها ، ويثيرون نارها بعد اطفائها ، وفي كل فريق من يسمع لضعف في ايمانه ، أو لبقايا العصبية ،أو لتراث بقيت بعد الحرب ٠

لقد كان رجل من شيوخ اليهود ، وذوي الضغن والحسد اسمه شماس بن قيس ، قد هاله أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أكرمه الله تعالى به من نصر في بدر ، وهاله أن الأوس والخزرج اجتمعوا وقد يعيشون على الفرقة بينهم ، فيوالون فريقاً على فريق ، ويتخذون ممن يوالونهم قوة يثبتون بها أقدامهم ، فلما رأوا اجتماعهم بالاسلام ، فقال شماس هكذا اجتمع بنو قيلة بهذه البلاد والله ما لنامعهم اذا اجتمع ملؤهم من قرار ٠

قدر ذلك الشيخ الخبيث ودبر ، فوجد أن يثير الخلاف القديم جذعا ، فأثار ما كان يوم بعاث ، وهو الذي كان بين الأوس والخزرج ، وانتصر فيه الأوس ، وكانت عقبه البيعة الأولى ،ثم الثانية ٠

أثار الأمر في هذا اليوم بين الأنصار رضي الله تبارك وتعالى عنهم ، وفيهم ضعاف العقول يستطارون فتكلم هؤلاء وتنازعوا ، وتفاخروا ، واشتدت المجاوبة فتواثب رجلان من الحيين ،واحد من الأوس والآخر من الخزرج ، وقال أحدهما لصاحبه ، ان شئتم رددناها الآن جذعة ، فغضب الحاضرون من الفريقين ، واتفقوا على مكان يكون فيه اللقاء ، وقالوا موعدكم الظاهرة ٠

بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلم أنها فتنة يهودية ، وخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال :

« يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله تعالى للاسلام ، وأكرمكم به ، وقطع عنكم به أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » ٠

أدرك أنصار الله ورسوله أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ـ ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سامعين مطيعين موفورين .

ورد الله تعالى كيد الكافرين من اليهود في نحورهم .

وانزل الله تعالى في اليهود قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

وانزل الله تعالى في المسلمين الذين انساقوا وراء شر اليهود :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٢)

ففي هذا النص الكريم تحذير للمؤمنين من اليهود الذين يفرقون جمعهم ، وتذكير بما كانت عليه حالهم من قبل ، وبيان الطريق لأن يمنعوا الأشرار من الدخول بينهم ، وذلك بالتواصي بالخير بينهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « فمن يقع في الغواية منهم يرشده ذو العقل والحكمة فيهم وان التفرق بعد البينات اثم كبير ، وله عذاب عظيم » .

(١) آل عمران (٢) آل عمران

ليسوا سواء :

٤٠٧ ـ اذا كان ما ذكرناه صادقا على اليهود الذين كانوا بالمدينة عندما هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليها، فالحكم فيه بني على الغالب الكثير، لا على الجميع ، فمنهم ناس اختاروا الاسلام ديناً ، وآمنوا بالله تعالى ورسوله حق الايمان ، كما قال الله تعالى :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ * وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (١)

فهؤلاء من أهل الكتاب ، وأهل الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وسيجزون أجرهم مرتين .

ونذكر من هؤلاء اثنين كان كلاهما من أحبار اليهود :

وهما عبد الله بن سلام ، ومخيرق .

وجاء من أخبار السيرة في اسلام عبد الله أنه قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له أي نترقبه فكنت أمر ذلك صامتاً له ، حتى قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة .

فهو قد عرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل قدومه المدينة ، وتعرف صفات النبوة فيه التي بشر فيها في التوراة ، وخاطب بذلك بعض أهل بيته ، اذ كان فرحا بقدومه ، ولم يوافقه ابتداء من عرف من أهل بيته ، حتى قالت له عمته في فرحته : « والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت ، فقال لها المؤمن المخلص الذي لم يشب اخلاصه تعصب لنحلة سابقة : « أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بعث ولم تلبث أن وافقته » .

---

(١) آل عمران

واذا كان عبد الله بن سلام الحبر اليهودي المخلص قد عرف الحق وأدرك فقد عرف قومه من اليهود وأدرك انحرافهم ، وأنهم أتخذوا آلهتهم هـواهم ، وهواهم هو شهوة التحيز ، حتى جعلوا الدين عنصراً ، وليس اعتقاداً خالصاً ، فأراد أن يكشف حالهم •

ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد اذ آمن ، ولم يعلن ايمانه ، فقال له :

يا رسول الله ان يهود قوم بهت (أي يبهتون ويكذبون بالباطل) ، واني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك ، وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا باسلامي فانهم ان علموا بهتوني ، وعابوني •

وأدخلني الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في بعض بيوته ، فدخلوا عليه وكلموه ، وسألوه ثم سألهم أين الحصين (١) بن سلام ، فقالوا سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وعالمنا •

فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم ، فقال لهم : « يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، والله ، انكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته فاني أشهد أنه رسول الله ، وأومن به وأصدقه ، وأعرفه ، فقالوا كذبت » •

فقلت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب ، وفجور ، فأظهرت اسلامي واسلام أهل بيتي جميعاً •

ولقد كانوا يكثرون من الطعن فيه ، ويقولون انه من الأشرار عندنا ، وهو الذي ذكروا أنه من خيرهم وأعلمهم وأعدلهم ، ولكنهم يكفرون بما يعلمون ، ويكتمون ما عندهم •

وأما الثاني وهو مخيرق ، فقد كان علماً من أعلامهم ، وحبراً من أحبارهم•

وكان رجلا ذا مال أعطاه الله بسطة من العلم والمال ، وكان يعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بصفته في التوراة •

---

(١) وكان اسمه هذا قبل الاسلام

ولم يكن ممن يجعلون الاعتقادعنصرية ، بل كان ممن يؤمنون بالحق، ويعلمون أن الحق أحق أن يتبع ، ويقول ابن اسحاق « غلب عليه الف دينه ، حتى اذا كان يوم أحد ، قال : يا معشريهود ، والله انكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق » ٠

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأحد ، ودخل في جنده وعهد الى من وراءه من أهله ، فقال ان قتلت هذا اليوم ، فأموالي لمحمد صلى الله تعالىعليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله تعالى٠

فقاتل حتى قتل ، فكان رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم يقول : مخيرق خير يهود ٠

وقد أسلم في ساعته الشديدة ، يوم جاءت قريش تريد أن تغزو المدينة ثأرا وانتقاما ، فأبى الا أن يكون معالمؤمنين ، فاستشهد في سبيل الله ،فكان خيرا في ذاته ، وكان خير من في اليهود ٠

إثارة الغـيرة :

٤٠٨ ـ صدق الله تعالى اذ يقول في شأن أهل الكتاب عامة ، واليهود خاصة ، منهم أمة مقتصدة ، وكثيرمنهم ساء ما يعملون ، ولكن الكثرة هي التي كان لها لجب وصخب ، وهيالتي ظهرت بلجاجتها ، وعنفها في الكراهية وحسد الناس ، وهؤلاء هم الذين ظهروا ، وهم الذين ظهر زبدهم، واستمر ظاهرا ، فهم يكرهون الناس ،أينما كانوا ، وحينما ثقفوا ٠
وقد ذكرنا حالهم بعد غزوة بدر ، وأعمالهم التي كانت أثرا لانتصار أهل الايمان ، فان الخير يجيء الى المحسود ،فيزيد الحاسد بغضا وضراوة ٠

لقد سكتوا في السنة الأولى من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أثر المعاهدة ، التي عقدها ، والموالاة التيأولاهم بها ، ليكون منهم جماعة مندمجة معه ، وهي على دينها ، ولسان حاله ،يقول لهم « لكم دينكم ولي دين » وليس بيننا وبينكم من بعد الا التواد ،والتعاون على البر والتقوى ، والتناصر على أعداء المدينة التي يهاجمونها ٠

كان ذلك ، والحسد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللذين آمنوا يملأ قلوبهم ، والضغن يأكل صدورهم فاذاكان المؤمنون قد أخلصوا في ولائهم ، فأولئك قد أضمروا البغض ·

ولما كان الانتصار ، كان أول ثمرات الانتصار في قلوبهم المدنفة بالحسد، أن تحركوا لافساد أهل الايمان وتعاونوا في ذلك مع المشركين ·

اجتذبوهم الى النفاق ، فانجذبوا اليه ، وكان منهم منافقون ، والنفاق يسكن القلوب الحاقدة الحاسدة الضعيفةالمستكينة ، فكان أول أثر مرير من آثار تلك الغزوة المباركة أن ظهر النفاق ناتئاً برأسه ، ويفت في جماعات المسلمين ، ويعملون على تفريق صفوفهم ويشتد أثر النفاق في مدة الحروب ، حيث تشتجر السيوف ،وتلتحم الأجسام ·

ففي غزوة أحد التي كانت في السنة الثالثة ، كانوا يبثون في جيش المسلمين روح التمرد والهزيمة ، ويأخذون قلوب الضعفاء من المؤمنين يبثون فيها الذعر ، والخوف ، حتى همت طائفتان من جيش الاسلام أن تفشلا ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (١)

وهاتان الطائفتان كانتا من المنافقين، وضعاف الايمان ، فاذا كان المؤمنون في غزوة بدر قد دخلوا وقلوبهم مستبشرة ، فقد دخلوا في غزوة أحد، والمنافقون يبثون فيهم روح التردد والعجز ، ولكن الله سبحانه وتعالى عليه ناصر المؤمنين ان لم يأخذوا في أسباب الهزيمة ، وان استقاموا على الطريقة، ولم يخالفوا ، وأنه اذا كان النبي صلىالله تعالى عليه وسلم يعيش في المدينة والمؤمنون من أصحابه يحيط بهم أولئكالمنافقون والمفتونون والحاسدون ،فانه

---

(١) آل عمران

يجب عليه الحذر منهم ، وقد نفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بأمر ربه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

وهكذا نجد حقد اليهود وحسدهم قد أفسد النفوس ، وفرق ما بينهم وبين أهل الايمان .

ولم يقفوا عند حد العمل على افساد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، ومحاولة اضعاف الايمان ، واغراء غير المؤمنين بالنفاق ، حتى شاركوهم بل كانوا يحاولون التشكيك في قلوب المؤمنين ، لأنهم يودون أن يكفروا حسداً من عند أنفسهم .

وكانوا في سبيل ذلك يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلة معنتة لا لتتبين نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرجون من توجيه هذه الأسئلة ألا يجيب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن بعضها ، فيتخذوا ذلك ذريعة للتشكيك ، والقاء الريب في قلوب المؤمنين ، ولنذكر شيئا من هذه المحاولة :

---

(١) آل عمران

وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ :

٤٠٩ ـ جادلهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالتي هي أحسن ، وهو يعلم أنهم يريدون الكيد بالمسلمين والقاء الريب في قلوبهم ، رجاء أن يجدوا ثغرة في الرسالة يطيرون بها فرحاً ، ولكن الله تعالى أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يجادلهم ، فقال تعالى :

﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١)

لأن ذلك سبيل من سبل الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ٠

كانوا يسألون ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجيبهم بما آتاه الله تعالى من علم القرآن والحكمة ، فيرتد كيدهم في نحرهم ، وتثبت الرسالة المحمدية ، ويذهب ريب كل مرتاب ٠

لقد سألوه متى تقوم الساعة ، وهم يعلمون من علم الكتاب أن الساعة لا يعلمها الا الله تعالى ، ولكنهم سألوا السؤال ، وهم يعلمون الاجابة ، فيشككون في أمر البعث الذي يجادل فيه المشركون ، وقد حكى الله تعالى السؤال والجواب الحكيم الصادق ،فقال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) النحل

(٢) الاعراف

ولقد كان صيغة السؤال من بعضهم تومىء بالتشكيك في الرسالة ، فقد قال قائلهم : أخبرنا متى تقوم الساعة ،ان كنت نبيأ كما تقول ٠

فأمره الله تعالى بأن يجيب ذلك الجواب الصادق ، ولو كان السؤال ممن لا يؤمن لأن ذلك هو الحق ، والحق أحق أن يتبع ٠

وسألوه عن الروح ، ليمنتوه أيضا ،وليلقوا بالريب في نفوس المؤمنين فأمره الله تعالى بأن يقول انها من أسرار هذا الوجود الذي لا يعلمه الا الله تعالى ، فقال تعالى في السؤال والجواب:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

وان حقيقة الروح لا تزال سرأ من أمر الله لا يعلمها أحد سواه ، نرى مظاهر وجودها ، ولا نعرف حقيقة أمرها ، لقد عرف ابن الانسان الكون وظواهره ، وأدرك بالاستقراء الأفلاك وأبراجها وارتفع ابن الأرض الى السماء ، ووصل الى القمر ، بأسباب المادة ، لكنه الى الآن لا يعرف حقيقة الروح ولا كنهها ، وان كان يعرف بعض ظواهرها ، وأعراضها ٠

ذي القرنين :

٤١٠ ــ وسألوه عن ذي القرنين ماهو وما كان أمره ، وما فعله ، فذكر الله تعالى السؤال ، واعلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالجواب في قوله تعالى :

(١) الاسراء

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا
تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ *
فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)
وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا
سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ
ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ
يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)
ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ
ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا
رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) ﴾ (١)

هذا سؤال قصد به الاعجاز ، واذا عجز محمد عن الاجابة طاروا فرحا ، والقوا بالريب في النفوس ، وذلك مايقصدون ، واليه يهدفون .

ولكن الاجابة كانت علماً غزيراً ، وتتبعاً دقيقاً لسيرة ذي القرنين ، وما كان له من أعمال لها أثر وذكر ولسان صدق ، وكان ذلك البيان العجيب

(١) الكهف

الصادق مسترعياً لعقول وقلوب الذين يستمعون اليه ، فكان أثر الاجابة حجة لأهل الايمـــان مثبتاً لدينهم الذي ارتضوا ٠

وقد سألوا سؤالا آخر يتعلق بالقرآن ليشككوا في أمره ، وهـــو حجـة الرسالة المحمدية ، ودليلها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه٠

قالوا أحق يا محمد ، أن هذا الذي جئت به الحق من عند الله ، فانا لا نراه منسقاً ، كما تنسق التوراة ٠

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انكم لتعـرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، ولو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به ٠

فوجهوا السؤال الى ناحية أخرى ،لأن اعتراضهم واهن ، اذ أن نســق القرآن لا يمكن أن يوزن به نســق التوراة ، ولو كانت هي الألواح العشر التي نزلت على موسى ، فلكل نبي معجزته وآياته ٠

حولوا السؤال الى ناحية أخرى قد توجد شكا ٠ قـــالوا : يا محمد ٠ أما يعلمك هذا انس ولا جن ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « والله انكم لتعلمـــون أنه من عند الله ، واني لرســول الله تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة » ٠

قالوا في لجاجة ، يا محمد ، فان الله يصنع لرسوله اذا بعثه ما يشــاء ، ويقـدر منه على ما أراد ، فانزل علينا كتاباً نقرؤه ، والا جئناك بمثله ٠

يذكرون بهذا أنهم يستطيعـون أن يأتوا بمثله ، فيقـــول الله تعـالى على لسان نبيه :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ (١)

ولســـان الحال يقول : ائتوا ان استطعتم ، ولكنكـــم لا تستطيعـون ، وفيصل الأمر أن تأتوا ، ليتبين أمركم ، وينكشف خبيء مكركم وضـــلالكم ، اذ تسفهون في أنفسكم بما لم يسفه به المشركون ٠

---

(١) الاسراء

ويسألون سؤالا آخر يدل على عقليتهم المادية ، وعلى عدم معرفتهم الله سبحانه وتعالى ، وصفاته العلية الذي ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ·

وذلك أنهم كانوا متأثرين بالفلسفة الأيونية التي كانت تؤمن بالأسباب والمسببات ، ولا تؤمن بغيرها · فالأسباب العادية جعلوها قانون الوجود ، فكل شيء نشأ بالعلية ، فالوجود الانساني والخلق كله معلول لعلة ،والعلة سبب عن آخر ، وبهذا أخذت الفلسفة اليونانية ، فيحسبون أن العالم كله نشأ بقانون العلية ، عن الأول ، وهو علة لما قبله ، وبذلك يكون التسلسل لما لا نهاية ·

أرادوا أن يظهر عجز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسؤال من هذا النوع ، وتناسوا أن الله تعالى هو الفاعل المختار ، الفعال لما يريد ، وأن انشاءه للكون ، ليس بالسببية أو العلية ، بل أنشأه بارادته المختارة ، وهذا سؤالهم الذي دل على كفرهم ·

قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد ، هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟ فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضبا لربه »·

ولقد كان غضب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن هذا السؤال كان من اليهود ، وهم أهل كتاب مفروض أنهم يعرفون الله ويعرفون صفاته ، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن ،وأنه الفاعل المختار ، القادر على كل شيء ، وليس فوقه شيء ، وهو مبدع الوجود ، بديع السموات والأرض ·

ولم يقع من العرب مثل هذا السؤال ، فهم كانوا يعرفون أن الله وحده خالق الوجود ، وأنه ليس فوقه أحد ،وانما شركهم في أنهم كانوا يعبدون مع الله الأوثان التي ابتدعوها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن اليهود أهل الكتاب أسفوا في تفكير الى ما لم ينزل اليه المشركون أهل الأوثان،وهكذا تذهب اللجاجة في التعصب الى أن قالوا ما لا يعقلون ·

ويقول راوي هذا الخبر ، وهو سعيد بن جبير ، فجاءه جبريل عليه

السلام ، وهو غضبان أسفا ، فسكنه وقال له : خفض عليك يا محمد ، وجاءه بجواب ما سألوه عنه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ (١)

كان هذا تنبيهاً لهم الى ما أسفوا فيه ، ولكنهم نزلوا مرة ثانية عن مرتبة الوثنيين من العرب ، وظنوا الله مادة كالأحياء ، وتلك بقية من نزعتهم المادية.

قالوا : فصف يا محمد ، كيف خلقه؟ كيف ذراعه ، كيف عضده .

فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كغضبته الأولى ، وساورهم ، فأتاه جبريل الأمين وجاءه بجواب من الله تعالى عما سألوه ، وهو قوله تعالى :

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ (٢)

هذه بعض مجاوبات بين اليهود الذين لا يتقيدون بفكر ولا منطق ، ولا علم بكتاب ، ولا ايمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجادلهم ، بالتي هي أحسن ، مع سوء قصدهم ، اطاعة لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣)

نترك الآن اليهود وأثر الانتصار المحمدي النبوي عليهم ، وكيف نافقوا واتجهوا الى الايذاء النفسي بكل ضروبه ، والنبي والمؤمنون الذين صابروا

---

(١) الاخلاص (٢) الزمر (٣) العنكبوت

في ميدان القتال ، صابروا اليهود وعلموا شرهم في ميدان الدس ، والنميمة والخيانة ، والفت في العضد، أو ما يسمى بلغة عصرنا الحرب الباردة ، فصبروا وانتصروا في الحالين ، وكان النصر مؤزراً له ما بعده في تاريخ الاسلام ٠

في الفترة بين بدر وأحد :

٤١١ ـ كانت فيما بين الغزوتين اللتين كان فيهما تعليم للمسلمين في الحروب ، فالأولى علمتهم أسباب النصر، والثانية أرتهم أسباب الهزيمة ، وأن طاعة القائد الحكيم فيها النصر ، والتقاء القلوب ، وكان الظفر المؤزر من بعد ذلك ، واذا لم يكن انتصار حاسم في بعض المواقع كحنين في ابتدائها ، وكبعض الغزوات مع الروم ، فلم يكن انهزام ، ولم يكن خذلان ٠

وانه في هذه الفترة بعد الانتهاء من الأولى ، والابتداء في الثانية قد كانت شرائع الاصلاح الاجتماعي بتنظيم التعامل بين الناس ، والاصلاح الاجتماعي ، هو الذي يقيم الجماعة الاسلامية على التعاون الجماعي فوق التعاون الآحادي ٠

اذا كان الاخاء الذي كونه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تأليفاً آحاديا ، فقد شرع الله تعالى بعد غزوة بدر الزكاة ، وهي التعاون الاجتماعي ٠

لقد شرع الله تعالى قبيل غزوة بدر صدقة الفطر ، وهي معاونة من الغني للفقير والمسكين ، ولا يتجاوز المصرف فيها الفقراء والمساكين ، على ما حققه الأكثرون من الفقهاء ، ومنهم ابن القيم ، كما ذكرنا ، وانه لا تصرف في كل مصارف الزكاة على ما سنشير من بعد ، ولأنه ورد في الأثر أن الواجب في صدقة الفطر ، هو اغناء المساكين عن الحاجة في ذلك اليوم الذي هو فرحة المسلمين جميعاً ، وهو فرحة عيد الفطر ، فيعم الفرح بهذه الصدقة المفروضة على رأي الأكثرين ٠

وأما الزكاة ، فانها تعاون اجتماعي عام يشمل الفقير والمسكين ذوي الخصاصة، ويشمل غيرهما ممن يكونون في حاجة اجتماعية وان لم تكن خصاصة ٠

ولقد بين الله تعالى المصارف بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

فهنا نجد أصنافا ثمانية تصرف لهاالزكاة التي يجمعها ولي الأمر في كل اقليم من الأقاليم ، كما قال عليه الصلاة والسلام « خذها من أغنيائهم ،وردها على فقرائهم » .

والمصرفان الأولان الفقراء والمساكين ، وخلاصة ما انتهى اليه الفقهاء من التفرقة بين الفقير والمسكين ، أن الفقير المحتاج ، ولو كان له كسب ، ولكن لا يتكافأ مع حاجاته ، أما المسكين فهو العاجز عن الكسب لعاهة أو لشيخوخة أو لمرض مزمن أو نحو ذلك من الأسباب التي تعجز صاحبها عن الكسب قليلا كان أو كثيرا ، فكلاهما يستحق ، وان كان المسكين أشد استحقاقا ، فان ضاق بيت المال عن الانفاق عليهما معا كان المقدم المسكين .

والصنف الثالث من الأصناف الثمانية العاملون عليها ، أي الجامعون لها من الأغنياء الذين يجب عليهم أداؤها ،والذين ينفقونها على مستحقيها ، من بقية الأصناف الثمانية ، وان ذكر العاملين لجمع الزكاة وصرفها في ضمن المصارف يدل على أن الزكاة تكون لها حصيلة مالية قائمة بذاتها توزن فيها مواردها بمصارفها ، وتكون جزءا منفصلا عن ميزانية الدولة ، ولذلك جعل لها المنظمون لبيوت المال بيت مال للزكاة قائماً بذاته ، والصنف الرابع المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين يدخلون في الاسلام ، وتؤلف قلوبهم بقدر من المال تثبيتاً لايمانهم ، وليدعوا الى الاسلام قبائلهم ، ويدنوهم الى الاسلام .

وهذا مبدأ لم يلغ ، وكذب ما ادعاه بعض الناس من أن عمر رضي الله عنه قد ألغاه ، انما كان عمل الفاروق أنه لم يعطه لناس كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطاهم ، وفعل أبو بكر ما فعل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاء عمر رضي الله تعالى عنه ومنعهم ، لكيلا يكون حقا مكتسبا، وليس عطاء لمقصد ، وأجمع الفقهاء على أنه اذ وجد ما يوجبه وجب صرفه.

---

(١) التوبة

ويصح أن يصرف في الدعوة الى الاسلام ، كما يصح الصرف من حصة المؤلفة قلوبهم على الذين يدخلون في الاسلام فيقطعون من ذويهم ، ويضيق عليهم في أسباب رزقهم ، فيجب أن يعطوا تأليفاً لقلوبهم،وتثبيتاً لايمانهم، ومعاونة لمن يستحق المعاونة .

والصنف الخامس ـ اعتاق الرقيق، وذلك لأن الاسلام دين الحرية ودين الكرامة والانسانية ودين العدالة الحقيقية ، ودين الاخاء ، فلا يمكن أن يرضى عن أن يكون انسان مملوكاً لغيره ، واذا كانت المدينة في عهد النبي والراشدين من بعده هي الصورة الاجتماعية العالية التي تنفذ فيها أحكام الاسلام كاملة موفورة ، فان الزكاة قد بينت أحكامها في السنة الثانية ، وأخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ في المجتمع الأحكام الاجتماعية العادلة التي تحمي المجتمع من آفاته ، وان اعتاق العبيد يكون بمعاونة المكاتبين وهم الذين عقدوا مع مالكيهم عقداً على أن يسددوا لهم قيمتهم المالية في سبيل أن تحرر رقابهم، فهؤلاء يعانون من الزكاة بما يمكنهم من سداد ما عليهم من المال ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (١)

ويكون منه اعتاق من في الرقاب بشرائهم وعتقهم ، وقد كان السلف الصالح يفعلون ذلك ، يروى أنه في عهد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز كتب اليه والي الصدقات في افريقية يشكو من أن بيت المال قد اكتظ ، ولا يجد فقيراً يعطيه . فارسل اليه الحاكم العادل أن سدد الدين عن المدينين . فسددها ، وأرسل اليه يشكو من اكتظاظ بيت مال الصدقات ، فارسل اليه اشتر عبيداً من عبيد المسلمين وأعتقهم ، وبهذا تلاقى الأحرار على نصرة الاسلام ، في عهد سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(١) النور

والمصرف السادس ـ الغارمون ، وهم الذين أثقلتهم الديون ، وكانوا قد استدانوا في غير معصية وأنفقوا في غير سرف اذا عجزوا عن سداد الدين ، فان بيت مال الصدقات يسدد الدين عنهم ، رفعا لخسيسهم ، وكذلك يسدد الدين عمن استدانوا لأمر اجتماعي كالاصلاح بين متخاصمين ، أو تحملوا ديات بين المتنازعين في الدماء ، فان بيت المال يعاونهم على سداد ما عليهم من ديون ، ولو لم يكونوا عاجزين ، لكي يتقدم أهل المروءة لاصلاح ذات البين ، ولتخفف عنهم المغارم ، في هذا السبيل .

وانه يجب المقارنة في هذا بين شريعة الله التي نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقانون الرومان الذي كان يعاصر نزولها فانه بينما كان ذلك القانون يبيح في بعض عصوره أن يسترق الدائن المدين اذا عجز عن السداد ، جاءت الشريعة بمعاونة المدين في سداد دينه ، وذلك فرق ما بين شريعة الله وشريعة الانسان .

والمصرف السابع ، هو معاونة ابن السبيل ، وهو من كان غريباً لا مال في يده ، وان كان له مال في بلده ، فانه يعان من بيت مال الصدقات ، حتى يئوب ، ويصح لبيت المال أن يعينه بالمال ، دينا عليه ، حتى يعود الى أهله اذا كان ذا مال يستطيع السداد منه من غير ارهاق ولا مشقة ، والأصل أن تكون المعونة تمليكا لا أن تكون ديناً .

والمصرف الثامن هو الانفاق في سبيل الله ، وهو الانفاق في الجهاد ، فللجهاد قدر في مال الزكاة يعادل الثمن أو أكثر على حسب حاجة الجند في عتادهم والانفاق عليهم .

وبعض العلماء يقول ان كلمة في سبيل الله تشمل كل ما يكون من المنافع العامة ، مثل انشاء الجسور وتعبيد الطرق ، وقد قال ذلك القفال الشاشي ، على أن يدخل ذلك في المصرف الثامن ، لا أن تدخل فيه كل المصارف السابقة ، كما فهم بعض الذين يحاولون تعطيل تلك الفريضة الشرعية وهي فريضة الزكاة .

المعاقل والديات :

٤١٢ ـ ذكرنا أنه في الفترة بين الغزوتين الكبيرتين كان اصلاح اجتماعي عملي واسع النطاق فانه قبل غزوة بدركان الاصلاح النفسي بالصلاة ، والصوم ،والاجتماعي المحدود ،بصدقةالفطر ، وما كان الاصلاح النفسي الا لتتآلف النفوس بالقرب من الله تعالى ، والشعور بجلاله وعظمته ، فمن قرب من الله رحم عباد الله ، ومن رحم عباد الله ائتلف معهم ، وكان معهم قوة مصلحة ، رافعة دعائم الحق والخير ·

وكانت الزكاة من بعد ذلك اصلاحا عمليا يؤخذ بقوة الحاكم الذي يستمد السلطان من الله تعالى لا بمجرد الرغبةوالاختيار ،وان الثواب على مقدارهما·

وكانت هذه الفريضة من دعائم المدنية الفاضلة ·

ولكن المدنية الفاضلة يجب أن تكون فيها الزواجر الاجتماعية التي تحمي الفضيلة ، لأن فضيلة الاسلام ايجابية،فيجب أن يكون لها من القوة ما تدفع به الرذائل ·

وكما أن القوة الحربية في الدولةلحمايتها من الاعتداء ، فالزواجر الاجتماعية من الحدود والقصاص هيالقوة التي تحارب بها الرذائل ·

ولقد ذكر ابن جرير الطبري أنهفي السنة الثانية من الهجرة شرعت المعاقل أي الديات ، واذا كانت الديات والمعاقل قد شرعت ، فانه قد شرع القصاص في النفس وفي الأطراف ،وذلك لأن الديات قصاص معنوي ،عند عدم استيفاء القصاص صورة ومعنىبالقتل قصاصاً أو قطع الأطراف ·

فالقصاص قد شرع وجوبه في السنة الثانية ، اذ نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ (١)

---

(١) البقرة

وان ذلك بلا ريب اصلاح اجتماعي خطير ، لأنه يحمي الانسان من أخيه الانسان ولأنه بقيام القصاص تكون حياة كريمة آمنة لا اعتداء فيها ولا افساد ، ولأن ذلك ابطال للعادات الجاهلية التي كان فيها الألف بالواحد ولا يقتل قاتل الكبير ، بل يقتل من يرى أهله أو قبيله قتله ممن يحسبون أن يكون له كفئا ، ولا يرضون أن تكون النفس بالنفس .

ولقد كان في القصاص قتل لروح الحسد والحقد في النفس ، أو تخفيف لآثار الحسد ، أو حمل للحسود على أن يضبط نفسه، اذ يرى العقاب يترصده، ولقد قال تعالى أثر الحسد الذي حمل قابيل على أن يقتل هابيل أخاه التقي الذي تقبل الله تعالى قربانه :

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ (١)

وان أحكام الديات بأنواعها كما ذكرنا تابعة لأصل الحكم بالقصاص في هذه الآية ، وقد بينت آية القصاص في التوراة أن شريعة النبيين في التوراة القصاص واستمرت في الاسلام فقال تعالى في سورة المائدة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

وبهذا يتبين أنه في الفترة بين الغزوتين كان الاصلاح الاجتماعي باقامة العدل بين الناس ، وسن سنة القصاص، وبيان الديات، حيث لا تتوافر شروط القصاص ، أو حيث لا يمكن ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) المائدة

(٢) المائدة

بنــاء عليّ بن أبي طــالب بفاطمة رضي الله عنهـــا :

٤١٣ ـ في هذه السنة بعد غزوة بدر بنى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بفاطمة رضي الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها سيد الخلق أجمعين ٠

وقد روى البخاري بسنده في ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قال : كان لي شــارف من نصيبي من المغنم يوم بدر ، اذ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطاني شــارفين مما أفاء الله من الخمس يومئذ ـ فلما اردت أن أبني بفاطمة بنت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعدت رجـــلا صواغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر (نبات نفيس بالصحراء) فأردت أن أبيعه من الصـــواغين ، فأستعين به في وليمة عرسي ، فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب والغـــرائر والحبال ، وشــارفاي مناخان الى جنب حجرة رجل من الأنصار ، حتى جمعت ما جمعت فاذا بشارفي قد أخبت (أي قطعت) أسنمتها ، وبقرت خواصرهما وأخذ من أكبادهما فلم أملك عيني حين رأت المنظر ، فقلت من فعل هـــذا ،قالوا فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو في هذا البيت في شرب من الأنصار ،وعند قينته وهي تغنيـــه ، وجاء في غنائها : « ألا ياحمر للشرف النواء ٠٠ فانطلقت حتى دخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده زيد بن حارثة ٠٠ فقلت يا رسول الله ما رأيت كاليوم ، عدا حمزة عــلى ناقتي فأجب اسنمتها ، وبقر خواصرها ، وها هو ذا في البيت مع شرب (أي ندامى يشربون الخمر) ، فدعا الى ردائه ، فارتداه ، ثم انطلق يمشي ، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن ، فأذن له ، فطفق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة ثمل محمـــرة عينه فنظر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر الى ركبتيه ، ثم صعد النظر ، فنظر الى وجهه ، ثم قال: وهل أنتم الا عبيد لأبي ، فعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى ، فخرج وخــرجنا معه ٠ هذا لفظ البخاري في روايته ٠

سقنا هذا الخبر لأن فيه خبراً عن زواج فارس الاسلام علي بن أبي طالب وقد كان يناهز الرابعة والعشرين من عمره ، وانا نتيمن دائماً بذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وآله الأبرار ٠

والخبر يدل فوق ذلك على أمور :

أولها : أن علياً المجاهد العظيم ، ماكان عنده مال لعرسه ، فخرج يجمع المال من جوف الصحراء ليستعين بجهده على ذلك ، وهو ابن عمه ، وربيبه الذي رباه ·

ثانيا : أنه يصرح بأن الناقتين من نصيبه في الخمس الذي كان للنبي وآله فدل هذا على أن أنفال بدر خمست ولم توزع بالتساوى ، كما ادعى أبو عبيد في كتابة الأموال ·

وثالثها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذا الوقت المثير ، لم ينس الاستئذان ، فاستأذن على الشرب·

ورابعها : ما تفعله الخمر في النفوس ،فمحال أن يصدر عن أسد الله حمزة في صحوه ما صدر عنه ·

وخامسها : أن الخمر لم تكن حرمت تحريماً قاطعاً ، ولم يكن قد تبين حكمها بيانا شافيا ·

وانها تغري بالعداوة والبغضاء ،وكادت توجد العداوة بين علي وحمزة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وحمزة ، لولا أنهم الحكماء الأبرار ·

حروب في الفترة بين الغزوتين الكبيرتين :

٤١٤ ــ بعد غزوة بدر الكبرى كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما حوله من القبائل ، ويسير اليهم ، فبعد سبع ليال من قفوله الى المدينة كما قال ابن اسحاق اتجه الى بني سليم ، فذهب اليهم ، وبلغ ماء من مياههم اسمه الكدر ، فأقام ثلاث ليال متعرفا أحوالهم ، وبيئتهم ، ثم عاد ، ولم يلق كيداً وأقام بالمدينة ، وكان ذلك في شوال من السنة الثانية للهجرة، وتسمى غزوة الكدر ·

وقد كانت من جولات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في القبائل يتعرف أحوالهم ، ويعرف من يلقاه بالدعوة الاسلامية ، فهذه تسميتها بالغزوة هي وأشباهها ، لا يعني الحرب ، ولكن هي نشر الدعوة ، والاستعداد لما يكون من بعد ·

وكان كلما خرج خرجة من هذا النوع وغيره ، أقام في المدينة من يخلفه عليها ، لا يختص أحداً دون غيره ·

غــزوة السَــوَيْق :

٤١٥ ـ في ذي الحجة كانت غزوة السويق :

وسببها أن رجوع فلول جيش قـريش المهـــزوم قد أرث حقـد كبراء قريش الذين بقوا من معاندي النبوة،ومحاربي الدعوة المحمدية الى التوحيد، وهجر الأوثان ، وعبادة الرحمن وحده

واخص من تالم منهم أبو سفيان الذي آلت اليه زعامة الشرك بعـد أبي جهل ، وعقبة بن أبي معيط ، وقد كان أظهر قواد المشركين في بدر ٠

نذر أبو سفيان ألا يمس الماء رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً ، وقـــد كانت رهبة من المسلمين شديدة اثر الهزيمة المنكرة التي مني بها قومه ،وقتل الأشياخ منهم ، فاورثهم ذلك فزعا وخوفا مع الرغبة الشديدة في الانتقام ٠

ومـع هـذه الحال أراد التحلة من يمينه ، فخــرج في مائتي راكب من قريش ، فسلك الطرق النجدية ، فنزل بصدر قناة الى جبل يقال « يثب ،يقرب من المدينة ثلاثة فراسخ ، أو نحو ذلك»ولكنه لم يتجه الى أحد من المسلمين حتى يتصل بيهود بني النضـير الذين كانوا يجاورون النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم في المدينة ، وقد علم ما كـــان يســكن نفوسهـــم من احن وبغض للمسلمين مع العقـــد الذي بينهـم ،ويظهر أنهم كانوا معهم عـلى مــودة كونتها عداوة المسلمين عامة ،وعداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة٠

التقى أبو سفيان ببني النضـير ،تحت الليل،فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه ، فلم يفتح له ، ودفعــه الحرص ، ألا يعاونه ، فانصرف الى سـلام ابن يشكم ، وكان الســـيد على بني النضير في زمانه ، وصاحب كنزهــم الذي اكتنزوه ، فقـــرى أبا سفيان ،وأخبره ما كان خفياً عليـــه من أخبار المؤمنين ٠

خرج أبو سفيان من المدينة بعــد أن عرف من أسرار المسلمين ما كان يعلمه بنو النضير ، فأرسل رجالا ممن معــه حتى أتوا ناحية من المدينة يقــال لها العريض ، فحرقوا النخيل ، وخربوا ،ثم وجدوا بها رجلا من الأنصـــار ،

وحليفاً في حرث يزرعونه ، فقتلوهما، وانصرفوا راجعين هاربين ، غير مقاتلين ، وتخففوا مما يحملون ، حتى يسهل الهرب ، وتركوا أزوادا مما تزودوا بها ٠

علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان أشد حرصاً وسبقاً الى الفزع والهيمة اذا تنادوا بها ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام على المدينة أبا لبابة ٠

فسار حتى بلغ المكدر ، ولكن كان أبو سفيان ومن معه قد أمعنوا في الهرب فلم يدركوه ، ولكن وجدوا زادجيشه الذي كان يبلغ نحو المائتين ٠

وكان أكثر مما تركوا سويقاً من أزوادهم ، فأخذ المسلمون سويقاً كثيراً، وجدوا فيه غذاء طيباً ٠

ولذا سميت الغزوة ذات السويق ٠

وقد كانت نتيجة هذه الغزوة ارهاباً شديداً للمشركين ، واشعار أولئك الأعداء باليقظة من جانب أهل الايمان، والحذر من ألا يؤخذوا على غرة ٠

وكان من نتيجتها أيضاً أن علم المشركون أن الطريق لهم ولما لهم غير مأمون ، وأنه يتربص بهم الدوائر ،فازدادوا خوفا على الخوف الذي ولدته الهزيمة ، وأحسوا بذلك أن الاسلام صار قوة للحق لا ينال منه بغرة ، واذا كانوا قد قتلوا اثنين في حرثهما ، فماكان ذلك منالا لأبطال ٠

غزوة ذي أمر :

٤١٦ ــ أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة السويق بالمدينة بقية شهر ذي الحجة يدبر أمر المسلمين وينفذ أحكام القرآن الكريم ٠

ولم يلبث الا قليلا حتى اتجه الى تعرف أحوال البلاد العربية ، واتجه الى نجد التي كان قد أتى من طريقها جيش أبي سفيان الذي فاز بقتلى الحرث ، ولم يظفر بمقاتل ، فكان مخربا لا محاربا ، ثم فر هاربا ٠

غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نجداً يريد غطفان ، وخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ٠

ولقد ذكر الواقدي في تاريخه ،فقال : « بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن جمعا من غطفان من بني ثعلبة تجمعوا بذي أمر يريدون حربه، فخرج اليهم من المدينة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من العام الثالث ، واستعمل على المدينةابن عفان •

وكان معه أربعمائة وخمسون رجلاوهربت الأعراب ، في رؤوس الجبال حتى بلغ ماء يقال له ذو أمر فعسكر به، ولم يمكث في هذه الغزوة أكثر من أحد عشر يوما وعاد •

ويذكر الواقدي في هذه الغزوة أن المسلمين أصابهم مطر كثير ، ابتلت منه أثواب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،فنزل تحت شجرة نشر عليها ثيابه لتجفف على مرأى من المشركين الذين شغلهم خوفهم وهربهم •

ولكن رجلا مندفعا منهم يقال له غورث بن الحارث أغروه بأن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في أمنه ؛ فيأخذه على غرة •

فذهب ذلك الرجل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه سيف صقيل ، حتى قام على رسول الله شاهراالسيف عليه ، وقال : « يا محمد من يمنعك مني ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الله ، فوقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لااله الا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله لا أكثر عليك جمعا أبدا » •

ذكر هذه القصة الواقدي في تلك الغزوة وهي غزوة ذي أمر ، ولكن البيهقي ذكر في غزوة ذات الرقاع قصة تشبه هذه ، وحمل السيف منسوب الى غورث •

وبعضهم يقول انهما قصتان ، ولكن يلاحظ ابن كثير أن غورث المنسوب اليه حمل السيف واحد ، في الروايتين، فلا يمكن أن تكون ثمة واقعتان الا اذا فرضنا أن غورث هذا لم يسلم ، ولم يعط عهداً للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن لا يكثر عليه جمعا أبدا •

والله أعلم بالحق في الأمر •

غـــزوة الفـــزع من بحــران :

٤١٧ ــ كانت قريش لا تريد أن يعيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين في أمن ، وما كان يمنعهم من الاغارة على المــدينة الا أنهم في غب هزيمة ، وهي توجد الفزع ، فكان الخوف يردهم عن غاياتهم ٠

والنبي صلى الله تعالى عليه وســلم يعمل على تتبع أحـــوالهم ، وتقصي أخبارهم ، ونقص الأرض عليهم من أطرافها ، وهو يريد بهذا مع تخويفهم أن يتعرف أحوال قبائل العرب ، وينشر نور الاسلام متنقلا في أحياء العــرب وقبائلهم في منتجماتهم ، ومتعــرفا أرضهم ٠

لذلك خرج من المدينة تاركا عليها ابن أم مكتوم ، وســار يريد قريشا ، حتى بلغ بحران ، وهو معدن من ناحية مكان بقال الفروع ٠

ذهب الى ذلك المكان فأقام به شهــر ربيع الآخر ، وجمــادى الأولى ، وهو في هذه المدة يدرس حال القبائـــل ويتعرف حالها ، ويدعو الى الاســلام في ربوعها ، غير وانٍ ولا مقصر ، فذلك عمله الذي بعث له ٠

فما كان مبعوثا لأجل الحرب ، وانما كان مبعوثا لأجل الهداية ، والحرب كانت لحماية الدعوة من الأذى ، ولمنع الفتنة في الدين ، ولفتح الطريق لها ٠

ولذلك لا يصح لأحــد أن يعترض فيقول اذا كان لم يلق كيدا ، ولا حربا ولا عيرا ولا فقيرا فلماذا يترك المدينة تلك المدة التي ليست قصـــيرة ، لأن الغاية نشر الاسلام ، لا مكيدة حرب ولا مصادرة مال ، فالغاية هي نشر دعوة التوحيد ٠

تكشف الوجه اليهودي في بني قينقاع

٤١٨ ـ ذكرنا بايجاز ما كان يقوم به اليهود ، من اثارة للريب في قلوب المسلمين ، وما كانوا يحاولون به أن يثيروا روح التردد والهزيمة في المجاهدين ، وما ملأ قلوبهم من غيظ بعد غزوة بدر الكبرى ، وكيف علموا الوثنيين الحقد وسبقوهم اليه ، وكيف أخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المنافقين من المسجد ، عندما رآهم يهمزون ويلمزون ذكرنا ذلك ، ولكن طائفة منهم تكشف غيظها ، ولم تخف أمرها ، لأنها كانت تعيش في وسط المدينة مع المسلمين ، ولم تكن في أطرافها ، وأولئك هم بنو قينقاع .

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً على أن يدعوهم الى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، تاركاً مايعرف من أن قلوبهم تنضح بالحقد يبدو على ألسنتهم ، فالداعي الى الحق لا يني عن الدعوة اليه ، ولو كان من يدعوه يهودياً لا يؤمن بشيء ، ولا يرضى الا بالخبال للمؤمنين .

التقى بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسوق قينقاع فحدثهم حديث الجار لجاره الذي عاهده يدعوه الى الرشد ، قال لهم : « يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فانكم ، قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وعهد الله تعالى اليكم ، فأجابوا هذا الحديث الرشيد الودود بكلام فيه جفوة وحدة قائلين :

يا محمد ، انك ترى أنا قومك ، لايغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منها فرصة ، انا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا الناس .

لقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الجواب المرعد المنذر بالاغضاء ، فما كان يحارب المعتدي بالقول ، ولكن كان يحارب الفعال .

وذكر ابن اسحاق أن الله تعالى قد أجاب عنه بقوله تعالى :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وهذه الرؤية المضاعفة كانت حال اللقاء في الحرب ، اذ كانوا يرون أنفسهم رأي أعينهم مثلي المؤمنين ، والله تعالى هو الذي يؤيد بنصره من يشاء قلة كانوا أو كثرة ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ٠

ولكن بني قينقاع لم يقفوا عند حد القول ، في بث روح التفرقة والشك في أنفسهم ، بل انتقلوا من الاساءة بالقول الى الاساءة بالفعل ، وهم على كثب من المسلمين ، وكانوا يجاهرون بنقض العهد وأنهم لا يحترمونه ، ويتناولون النبي والمؤمنين بالذم ،والأذى ٠

ولقد قال ابن اسحاق : ان امرأة من المسلمين قدمت تبيع في سوق بني قينقاع ، وجلست الى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ٠ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ ، الماجن فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فكان الشر بينهم وبين بني قينقاع ٠

عندئذ كان لابد من الحرب دفاعا عن الفضيلة وعفة النفس ، وقد نقضوا العهد بأقبح طريقة ٠

---

(١) آل عمران

موقعة بني قينقاع

٤١٩ ـ أخذ بنو قينقاع من قبل ما حدث مع المرأة ، وما كان من تهديد ـ يتطاولون على المسلمين بالسب ،والأذى، والتحامل ، وعدم صون لسانهم عن المسلمين والاسلام ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يصابرهم ويوفي بعهدهم ، حتى كان منهم القتل .

حاصرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ديارهم ، وأقام على المدينة في أثناء محاصرته لهم التي دامت خمس عشرة ليلة بشير بن عبد المنذر وهو أبو لبابة .

ولما اشتد الحصار عليهم واستطال، نزلوا على حكم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأجلاهم ، ولم يقتلهم ، وقد كانوا حلفاء الخزرج الذين منهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي ، كما كان منهم عبادة بن الصامت ، وقد ناصرهم ابن أبي ، وتعرض للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رأس النفاق :

يا محمد أحسن في موالي ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا محمد أحسن في موالي فأبطأ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا محمد أحسن في موالي ، ومع تبجحه في نداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وصف الرسالة ، اذ غلبه النفاق في النداء ، فبدا في لحن قولهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠ ﴾ (١)

مع هذا التبجح تجرأ فوضع يده في جيب درع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال ويحك أرسلني ، قال المنافق : والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر (١) ، وثلاثمائة دارع (٢) قد

---

(١) محمد

(٢) الحاسر : الذى لا درع له .

(٣) الدارع : لابس الدرع

منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ، اني والله امرؤ أخشى الدوائر ، وكأنه حسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيقتلهم ، والنبي أراد اجلاءهم ، ولم يرد قتلهم ، فقال له : هم لك ، أي أنه يجليهم ، ولا يقتلهم ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دفع شرهم بأقل ضرر ينزله بهم .

هذا موقف رأس النفاق ، أما موقف المؤمن عبادة بن الصامت ، وهو حليفهم مثله ، فانه قال : « أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » .

ذانكم رجلان مؤمن ومنافق .

ويقول ابن اسحاق ان في ابن أبي وعبادة نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

(١) المائدة

وإذا صح أن الآيات الكريمات نزلت لمناسبة موقف رئيس المنافقين ، ورجل مؤمن من المؤمنين ، فان الآيات فيها وصف عام ، لمن يكون ولاؤهم ، لله ومن يكون ولاؤهم لغيره .

وان أمر بني قينقاع قد انتهى باجلائهم ، وطهرت المدينة من أرجاسهم ، وما كان ذلك اعتداء من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان ذلك لرد اعتدائهم ، ولنقضهم للعهد ، ولأنهم صاروا جيران سوء ، يحق اجلاؤهم ليسلم الناس من فسادهم .

سَرِيَّة زيد بن حارثة :

٤٢٠ ـ بعد غزوة بدر ، وما أصاب قريشاً فيها ، خافوا طريق المدينة في وصولهم بمتاجرهم الى الشام فاختاروا طريقا حسبوه أسلم من هذا الطريق وان كان أطول ، فاختاروا طريق العراق وهو طريق مع بعده لم يكونوا من قبل يسلكونه ، فلم يعرفوا مسالكه؟ فاستأجروا رجلا من بني بكر بن وائل حليف بني سهم ليكون لهم دليلا ، وليستمدوا من حلفه أمناً لهم .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي كان يتعرف الصحراء وطرائقها علم بمسلكهم ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم زيد بن حارثة ، يتتبع مسالكهم ، فلم يفلتوا منه ، ولقيهم على ماء يقال له ماء القردة ، وهم يستسقون ، فأصاب العير ، فأحضرها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقسمت غنائم ، ولكن الرجال الذين كانوا يصحبون العير قد نجوا بأنفسهم فارين .

ويقول الواقدي في تاريخ هذه السرية ، والعلم بالعير « كان خروج زيد بن حارثة في هذه السرية في مستهل جمادى الأولى على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة (في السنة الثالثة) وكان رئيس العير صفوان بن أمية ، وكان سبب بعثة زيد بن حارثة أن نعيم بن مسعود قدم المدينة ومعه خبر هذه العير ، وهو على دين قومه ، واجتمع بكنانة بن أبي الحقيق في بني النضير ، ومعهم سليط بن النعمان ، فشربوا فتحدثوا بشأن العير .. فخرج سليط من ساعته ، فأعلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث من

وقته زيد بن حارثة ، فلقوهم فأخذوا الأموال ، وأعجزهم الرجال وانما أسروا رجلا أو رجلين ، وقدموا بالعير، فخمسها ، فبلغ خمسها عشرين ألفاً ، وقسم أربعة أخماسها على السرية • وكان فيمن أسر الدليل فرات بن حيان ، فأسلم رضي الله عنه ، وان هذا الخبر ، يمين الوقت ، ويذكر طريق العلم بهذه العير » •

واني أرى أن خبر نعيم الذي وصل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حينه كان من أحد طرق المعرفة ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقظا عالما بما يفعل قريش من أوقات متاجرهم وخروجها الى الشام ، وميقاته ، وخروجها الى اليمن وميقاته ، فقد كانوا يألفون مواعيد معلومة يعدون فيها المتاجر ، والله تعالى قد أعلم بما يألف قريش ، فقال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

فالنبي لابد أن يكون بفراسة المؤمن يعلم أنهم سيخرجون في ذلك الوقت ، وانهم اذا لم يمروا به ، فانهم لابد أن يمروا بطريق آخر ، وهو طريق العراق فجاء الخبر ، متفقا مع ما نحسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد حسبه والله أعلم :

---

(١) قريش

كعب بن الأشرف اليهودي

٤٢١ ــ هذه حال فردية ولكنها ذات صلة بسير الحروب ، بين أهل مكة المشركين والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان يقوم به اليهود في هذه المعارك آحاداً وجماعات من تحريض للمشركين وتخذيل للمؤمنين ، وبث روح التردد والهزيمة في أهل المدينة ، واثارة الحروب في مكة ، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله تعالى .

وكان كعب بن الأشرف يقوم في ذلك بأعمال خطيرة ، تؤجج النيران ضد المؤمنين ، وذلك كعباً من طيء ، وأمه من بني النضير ، وظاهر حاله أنه لم يدخل في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يقف من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا المؤمنين موقف المسالمة أو يعتزل ، فلم يكن مع هؤلاء وأولئك، بل أظهر العداوة ، وعمل تحت سلطانها، وبدا ذلك فيما يأتي :

(أ) أنه لما علم بمقتل المشركين من أهل بدر ، أعلن غضبه على المؤمنين قال : « لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وبذلك أعلن العداوة المكنونة في نفسه، وماذا يصنع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع عدو أظهر عداوته ، ولم يكن له عهد مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم » .

(ب) أنه كان يهجو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويشدد في الهجاء ، غير ملاحظ كرامة ، ولا حرمة ، بل كان منخلعاً من كل عهد ، ومن كل فضيلة ، وكان كالذين آذوا موسى من اخوانه اليهود ، وهو متحلل من كل مروءة .

(جـ) أنه قدم المدينة يعلن عداوته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويجاهر بها ، ويحرض اليهود على المؤمنين ،ويلقي بالشر والفتنة بين المؤمنين من غير حريجة من خلق أو دين أو عهد ، وجعل يشبب بنساء المؤمنين ، ويشيع قالة السوء عن فضليات هؤلاء النساء .

(د) وكان يحرض يهود على أن تنقض عهدها مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان بأفعاله يجرىء كل من لم يؤمن بمحمد على الخروج

عليه ، وشن الحرب ، ولم يترك بابا من أبواب الكيد ، الا دخل اليه ، وليس له أهل يرد عليهم فيمنعوه ، بل هو منفرد بأعماله مقيم في حصن ، لا ينتمي الى بني النضير الا من جهة أمه ، ولا تسري عليه عهودهم ·

(هـ) انه لم يقف عمله عند العداوة والبغضاء ، واشاعة الفساد ، وتحريض يهود ، بل انه تجاوز ذلك ،اذ ذهب الى مكة ، واستعدى قريشا ، فنزل على الذين أوذوا في غزوة بدر ،وأخذ يحرضهم على قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وربط حباله بحبالهم، ونفسه بنفوسهم ، حتى لقد قال له أبو سفيان من فرط ما امتزجت نفوسهم به : « أناشدك أديننا أحب الى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأينا أهدى في رأيك ، وأقرب الى الحق اننا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقي اللبن على الماء ، ونطعم ما هبت الشمال فقال له كعب اليهودي الكتابي أنتم أهدى سبيلا ، وقال الله تعالى في كتابه » :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝ ﴾ (١)

وهكذا قد بدت العداوة من أفواههم، والتحريض من أعمالهم ، وارادة الفساد ، واشاعة الفاحشة بين المؤمنين من تصرفاتهم ، وكان كعب المثل الواضح في ذلك ، وكان يقول القصائد محرضا المشركين على المؤمنين، ويقول في شعره محرضا قريشا :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع

---

(١) النساء

ويقول في التحريض من هذه القصيدة :

ويقـــول أقـــوام أسر بسخطهـــم	ان ابن أشرف قـــل كعبا يفـــزع
ويقول : نبئت أن بني المغيرة كلهم	خشعـــوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنـــا ربيعـــة عنـــده ومنبه	ما نال مثـــل المهلكـــين وتبـــع
نبئت أن الحـــارث بن هشـــامهم	في الناس يبني الصـــالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجمـــوع وانمـــا	نحمي على الحسب الـــكريم الأروع

وهكذا يحرض على القتال ، ويرثي القتلى بعبـارات تؤجج نيران الحقـــد ليدفعها الى الثأر ٠

النـبيّ صَلى الله عليْـه وسَـلم لايعلن الحَرب إلا على مَن أعلنها :

٤٢٢ ــ هذا مايفعله الرجل اليهودي المنطلق من كل العهود والمواثيق ، أيسكت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو المحارب الحذر الذي يهجـــم على مداخل الأذى قبل أن يلج منه العدو ،أم يعلنها على قومه أو من ينتمي اليهم من بني النضير ، وأكثرهـــم لم ينالوا المؤمنين بمثل ما نال ، ولا تزر وازرة وزر أخرى والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلن الحرب الا على من أعلنها ، ولما يعلنوها ٠

أم يسكت ويترك الشر يستشري ،ويحاكيه في أفعاله بقية يهود ، لا شك أن آخر الدواء الـــكي ، انه لابد أن يجتث الداء في موضعه ، ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله ، ولا منجاة حينئذ ،لم يبق الا أن يقتـــل كعبا حسمـــا لمادة الفساد ، وما السبيل لدفع شره غـير القتل ، انه لا سبيل الا هو ، وأن يقضي على الداء ، آن أن يعلن عليـــه النبي الحرب ، وهل تعلن الحرب على واحد ، لقد قلنا ان من ينتمي اليهم لم يكن منهم مثل ما فعل ٠

فلم يبق الا أن يقتل ، وأن يدعـو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يتولى قتله في مأمنه ، وقد اتخذ حصناً ياوي اليه ، فحرض عليه الصلاة والسلام من يقتله من غير ضجة ، ولا ازعاج لأحـــد من الآمنين ، ولقد انتدب لذلك من رأى في نفسه القدرة من الصحابة،واستأذنوا الرسول في أن يخدعوه بالقول فأذن ٠

ولقد وجدنا من الغـــربيين الذين يكتبون في تاريخ الاســلام من أثاروا زوبعة حول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • وكيف يأمر بالقتل غيلة ، وهو نبي مرسل ، قالوا ذلك ، ونسوا أنه نبي محارب لا يدعــو الى الاستســـلام للشر ، بل يقاومه ، ويحتاج لحمــاية ، الناس من الدماء ، وانه بمقتضى حكمة النبوة يجب أن يدفــع الضرر الكثير بالضرر القليل ، وانه في سبيل أن تحقن الدماء في القتال يجب منع أسبابهــا ، وان الذي كان يثير الحرب جذعا هــو واحد وقتل واحد شرير خير من قتــل جماعة في ميدان الحــرب ، فهــو كان يحرض على الحرب •

قالوا ان القتــل كان غيلة ، ونحن نقـــول في ذلك ان الرجـــل جاهــر بالمداوة ، وشبب بنساء المسلمين ، وحرض اليهـــود على الانقضــاض على المؤمنين ونكث العهـــود ، ولم يكتف بذلك ، بل ذهب الى مكة ، وأثار الأحقاد ودعا الى أن يقاتلوا محمداً •

فعل كل ذلك جهاراً نهاراً ، فاذا لم يتوقع من محمد صلى الله تعــالى عليــه وسلم أنه يتربص به الدوائر الدائرة ، وأنه يريد أن يقضي عليه ، لأنه مادة الشر ولسانه ، اذا لم يقدر ذلك فهــو أبله ولم يكن كذلك فمحمد عليه الصلاة والسلام أمر بقتله في وقت كان هــو يتوقع ذلك ، أو ينبغي أن يتوقع ذلك ولا يعد القتل غيلة لمن يتوقع القتل ، ان قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يشـــبه من يعلن عن شرير بأنه ارتكب آثاما كثيرة ، وأن من أحضره حيـــاً أو ميتاً ، فله جزاء •

اننا فرضنا أن الحكمة والعـــدالة والأخلاق توجب التخلص منه ، واذا لم يجز التخلص منه بالطريقة التي حدثت وهي الخـــديعة ، فكيف كـــان يمكن التخلص ، أيحضره من ينتمي اليهـــم فيقدموه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، انهم لا يفعلون ذلك ، ولم يوجـــد من يتحمل تبعة عمله وما يفعل ، واذا لم يكن ذلك أيأمر النبي صلى الله تعـــالى عليه وسلم باحضاره بين يديه والحكــم عليه بالقتل ويتولى قتله ، وما الفرق بين هذا ، وبين ما كان من حيث المعنى•

ان قتله كان أمراً لابد منه لما قــام به ، ويقوم به رئيس الدولة العــادلة التي يحكمها ذلك الحاكم العادل ، فانه لا سبيل لدفع فساده وافساده الا بقتله، بأي طــريق كان القتل ، وكل ما فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أباح

دمه ، جزاء ما ارتكب ، ومنعا لاستمراره في غيه ، فقد كان يقوم بجريمة مستمرة غير متحرج ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان مخيراً بين أمرين اما أن يقتله واما أن يتركه يرتع اللذين لا مناص من اختيار أحدهما ٠

وان أولئك الذين يثيرون الشك حول أعمال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحول رسالته السماوية التي كانت رحمة للعالمين ـ يقولون ان الرسالة الالهية تتنافى مع القتل غيلة ، بل تتنافى مع أصل القتل ، كما كان من عيسى عليه السلام الذي يروون عنه أنه قال : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر »

ونقول في الجواب عن ذلك ، ان قمع أعداء الدعوة الدينية لا يتنافى مع الرسالة ، فموسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل ، قد قتل بيده ، وقاتل ، ودعا بني اسرائيل الى القتال، وما تنافى ذلك مع رسالته الالهية التي نزلت بها التوراة ، وهي كتب العهد القديم المقدسة عند اليهود والنصارى معاً ٠

ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال ، ونقول في ذلك ان القتل المشروع يكون بباعث من الرحمة، فليست رحمة النبوة انفعالة رعناء تكون على موضع البرء والسقم ، انما رحمة النبوة تكون بالكافة ، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه ، ومنع الفساد في الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (١)

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « أنا نبي المرحمة ، وأنا نبي الملحمة وملحمته نابعة من مرحمته ، وكثير من العفو يكون مشتملا على أقسى العذاب ، وهو العفو عن الجاني الذي لا رجاء في صلاحه » ٠

---

(١) البقرة

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلمقد اشتملت شريعته على العفو في الأمور التي لا يعود العفو فيها بالشرعلى الجماعة ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (1)

فالصبر عن أخذ الجاني بجريمتهانما يكون في الاعتداء على الآحاد الذي لا يتعدى الأمر فيه الى الجماعةوقوله تعالى :

﴿ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (2)

انما هو في الأمور الشخصية التيلا يعود ضررها على الكافة ،ويقول تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ (3)

وهذا واضح أنه في الأمور التيتمس الشخص ولا تصل الى الجماعة ، وكلام النصارى الذي ينسبونه الىالمسيح عليه السلام انما هو في الأمور التي لا تمس الا الشخص ، واذا فهموهعلى أوسع من ذلك،فلكل شرعة ومنهاج، والله ولي الرشاد .

---

(1) النحل
(2) الأعراف
(3) فصلت

غـزوة أحـد

٤٢٣ ـ أهمت قريشا هزيمة بدر الكبرى ، اذ كانت حقاً يوم الفرقان بين الحق والباطل ، وقوة المؤمنين وضعفهم ، وكانت أول هزيمة تنالهم من جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت مرارة الهزيمة شديدة ، لأنها نالت أشياخهم ، والزعماء فيهم الذين كانوا يجعلونهم بحكم الجاهلية لا يعدلهم بل تعدلهم قبائل ، وما من بيت من بيوت كبرائهم الا كان فيه جرح كبير قد ولد ترة شديدة .

وفوق ذلك قد أحسوا بأن دولة الشرك التي كانوا يستمسكون بها قد أخذت تنهار ، وقد كانوا يعتبرونها عقيدة آبائهم ، وكانوا يقولون ان نتبع الا ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

وقد وجدوا من بعد ذلك مكانتهم في العرب ، وشرفهم أخذ ينهار ، ولو توالت هذه الحال لزال شرفهم ولزالت مكانتهم ، وظنوا أن الأعراب الذين كانوا يخضعون لشرفهم سيخرجون من بعد عن نفوذهم ، وأن القبائل العربية ، تتسنم مكانهم ان استطاعوا .

ورأوا متاجرهم تساق الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غنائم تقسم بين أصحابه ، وأنهم لا قبل لهم بأن ينفذوا بمتاجرهم الى الشام ليتوردوا ويستوردوا وتستقيم لهم رحلة الشتاء والصيف .

رأوا كل هذا وحاولوا أن ينالوا من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نيلا ، فلم ينالوا ، فأغاروا غارة السويق ، فما استفادوا كثيرا ، بل لم يستفيدوا قليلا .

رأوا كل هذه الدنايا ، فهل يسكتون ، وان سكتوا عن متاجرهم ، فلن يسكتوا عن شرفهم الذي ثلم ، ولن يسكتوا عن الثارات التي ولدتها المقتلة في أشياخهم ، ومن كانوا في موطن الزعامة فيهم .

القوة بدل العير :

٤٢٤ ــ مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ليقودهم الى المعركة الجديدة ، وكانت قيادة المعركة التي هزموا فيها بين أبي جهل ، وعقبة بن أبي معيط ، فأرادوا توحيد القيادة هذه المرة ، وأبو سفيان بقية رجالهم ،أو من هو في مكان الزعامة منهم ،وأبو سفيان هو الذي نجا بعيرهم ، ويريدون أن تكون العير الناجية فداء لثأرهم ٠

قال هذا الوفد الذي ذهب الى أبي سفيان ، وخاطب أصحاب العير قائلا :

يا معشر قريش : « ان محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً » ٠

فنزلوا عن المال ، ليكون مادة القتال ، وأخذوا الأهبة من الرجال ،وأدوات الحرب ، لأنهم علموا أنها الذلة والخزي والعار ، ان لم يستردوا مكانتهم ٠

اجتمعت كل بيوتات قريش وبطونهم ، ولم يبق أحد منهم الا أخذ الأهبة، واستعد للقتال ، وأن يضربوا المدينة ضربة قاصمة ، ان لم يقتلعوا الاسلام منها ، فانهم ينالون مارباً وثأراً ،ويستردون شرفاً ويدفعون عاراً ٠

وضموا اليهم كنانة وتهامة ، وأحباشاً كثيرة ممن لهم دربة في القتال بالرماح ، وكان منهم وحشي قاتل أسد الله حمزة الذي مني بالعتق اذا قتل حمزة الذي كان سيفه البتار يهد قريشاً هداً ، فما ذهب ليقاتل ، ولكن ذهب ليترصد حمزة ، لا ليواجه الجيش ،فكأنه ذهب للاغتيال ، لا للقتال ٠

ولم يكتفوا بمن استعانوا بهم من قبائل حول مكة وأحباش ، بل استعانوا ببعض المشركين من الأوس في يثرب لأن لهم أحقاداً كأحقادهم ، ولم يرضوا النفاق أو لم يظهروا به ، فقد روى قتادة أن أبا عامر بن صيفي أخذ بني ثعلبة ، وكان قد خرج من مكة مباعداً لرسول الله ، ومعه خمسون من غلمان الأوس ، وكان قبل قدوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوهمت قريش أو أوهمها أنه ان لقي قومه ، لم يختلف عليه أحد ٠

وقد اجتمع بذلك نحو ثلاثة آلاف ،ومعهم مائتا فرس عليها مائتا فارس ، وكان خالد بن الوليد على مائة جعلها يمين الخيل ، وعكرمة بن أبي جهل على مائة جعلها على ميسرة الخيل ، وانهم رأوا أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما يقاتل مزوداً بحمية الدين،ومؤيدا بروح معنوية تفوق قوة العدد والعدة وتتغلب على الصعاب ، فرأوا أن يكون معهم المحرض المعنوي ، وهو أن يكون نساؤهم معهم ، بحيث يستحون أن يفروا أمامهن ، وأن يؤخذن سبايا ٠

فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهو القائد بزوجه هند بنت عتبة ، وكان لها ثارات ، قتل ابنها وأخوها وأبوها ،وخرج عكرمة بن أبي جهل ومعه زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ٠٠ وهكذا كثيرات من عقائل القوم ، وذوات الشرف في قريش ،ليكون خروجهن محرضاً على الجلاد ، ومانعاً من الفرار ، وجملة القول في ذلك أنهم تزودوا بالعدد ، وبالسلاح والكراع ، وبالمحرضات كلها ، لأنهم يعلمون أنهم أمام خصم مزود بكل قوي النفس والايمان الذي فقدوه ٠

وجاءوا معهم بالشعراء والخطباء ليحرضوا ، وليدفعوا في الجند روح البأس والقوة ، وحب النضال ، ولم يتركوا باباً من أبواب الاعداد الا دخلوا منه ٠

وكان ممن اشترك في التحريض على القتال أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي ، وكان قد أسر فيمن أسر ببدر الكبرى ، فَمَنَّ عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بغير فداء ، لأنه فقير كثير العيال ، على ألا يظاهر عليه ، وبالتالي لا يكون لسانه للتحريض على قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولكن المشركين ما زالوا به حتى أخرجوه عن عهده للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال له صفوان بن أمية يا أبا عزة انك امرؤ شاعر ، فاعنا بلسانك ، فاخرج معنا ، فقال : ان محمدا قد مَنَّ علي ، فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال بلى ، فأعنا بنفسك ، فلك عهد الله علي ان رجعت أن أعينك في بناتك وان أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ٠

خرج أبو عزة وأخذ يحرض بني كنانة هو وغيره على أن ينضموا الى جيش قريش ومن معهم في قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليهوسلم قد علم بمخرجهم ، وفي كثير من الروايات أن العباس بن عبد المطلب الذي لم يشترك في هذه الحملة أرسل الى النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بخبره ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلمكان له فوق ذلك العيون يبثها ويتعرف أخبارهم ، فيعرف عيرهم وبالأولى يعرف نفيرهم ، ولكنه انتظر حتى يقع ما توقع ، ويكون أمامهم وجهاً لوجه ،وما كان له أن يلقاهم قبل ذلك في غير مأمنه ، وحيث مستقره ٠

وقد سار جيش قريش سيرته ، حتىوصل الى المدينة ،وانساب في مزارعها، تأكل وتعبث أفراس المشركين وابلهم ،متحدين مهاجمين ٠

لقاء النبي لهم صلى الله عليه وسلم :

٤٢٥ ــ كان قدوم ذلك الجيش اللجب الى المدينة في أول شوال من السنة الثالثة ، وكانت الغزوة في منتصفه ،وروي أنها كانت في الحادى عشر منه ٠
وقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليهوسلم الأهبة للقاء لا بكثرة العدد والعدة ولكن بقوة الايمان والحق وقوة الشورى وبث روح التعاون والاندماج النفسي بالشورى فان الشورى بين المخلصين تجعل نفوسهم تندمج وتحس كل نفس بأنها جزء من الأنفس ٠

وقف بعد الصلاة بين المسلمين ، وقد عاينوا وأحس المؤمنون منهم بأن الأمر خطر : أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشير المسلمين قبل المعركة ٠

وكان محور الشورى يدور على أمرين أيخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان ، ويقاتلهم حيثيكون خير مكان للقتال ، أم أنه يبقى في المدينة ، فان أقاموا أقاموا في أسوأمقام ، وقد ينفد منهم الزاد والراحلة ، وان دخلوا الى المدينة ولها مسلكهاالمبنية بالحجارة والآجر ، وكأنها حصن وهم لا يعرفون مداخله ٠

كانت الشورى في أي الأمرين أنكى للعدو ، وأقرب الى النصر ، لقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكره الخروج ، وروي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « امكثوا واجعلوا الذراري في الآطام فان دخل علينا القوم في الأزقة قاتلناهم ، ورموا من فوق البيوت » ، وروى ابن اسحاق أنه عليه السلام قال : « ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا، فان أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » .

وانه مما يسترعي الأنظار أن عبد الله بن أبي بن سلول كان على هذا الرأي، ولعله جبن اللقاء منه ، ولكيلا ينكشف النفاق ، أو لأنه يرى أن بعض مواليه اليهود قد يجدها فرصة للانقضاض .

ومهما يكن من مقصده ، والله أعلم بذات الصدور ، فانه قد قال :

يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فوالله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط الا أصاب منا ، ولا دخلها علينا الا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فان أقاموا أقاموا بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

وقد خالف ذلك الرأي مع أنه رأي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كثيرون من المجاهدين ، وكانوا صنفين ، صنف من أهل النجدة والبأس والقوة لم يجدوا في الانتظار ما يتفق مع ما عندهم من اقدام ، وأنه لا بد أن يلاقوهم ولا ينتظروهم ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، فقد قال في قوة : «والذي أنزل عليك الكتاب لنجادلنهم».

وقال رجل من الأنصار الأشداء : ومتى تقاتلهم يا رسول الله اذا لم تقاتلهم عند شعبنا .

والصنف الثاني من الذين لم يحضروا بدراً ، وأرادوا أن يكون لهم في هذه الموقعة شرف مثل شرفها ، وقالوا كنا نتمنى مثل هذا اليوم ، وندعو الله فقد ساقه الينا ، وقرب المسير .

وبذلك انتهى الرأي بالخروج ، لتكاثر الذين أرادوه ، وكثرة الذين أرادوا أن يستعيضوا عن شرف الجهاد في بدر بشرف الجهاد في أحد .

وما كان لمحمد الذي جاء بالشورى،وأمر بها الا أن يستجيب لحكم الكثرة ، ولا يفرض فيه الخطأ ، كما يفعل ويروج المستبدون في هذا العصر ، اذ يفرضون في أنفسهم الصواب الذي لايحتمل الخطأ ، وفي تفكير غيرهم الخطأ الذي لا يحتمل الصواب ، وتردت بهم الجماعات في منهوى سحيق ٠

النبيّ صلى الله عليه وسلم يعدّ المؤمنين للقتال :

٤٢٦ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف خبر الأماكن التي يلقى فيها العدو المكائن المكابر ، وأنه لكي يختار لجيشه لابد أن يعرف أماكن جيش العدو ويمر في غير ممرهم ٠

قال النبي كما روي في الصحيحين هل من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ،فقال أبو خيثمة أنا يا رسول الله ،فأخذ يسير ، فنفذ في حرة بني حارثة ، وبين أموالهم ، حتى سلك بهم في مال لمربع ابن قيظي ، وكان رجلا منافقاً ضريراً،فلما سمع حس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المسلمين ،فقام يحثي في وجوههم التراب ، ويقول : ان كنت رسول الله فاني لا أحل لك أن تدخل في حائطي ، وأخذ حفنة من التراب في يده ، ثم قال : والله لو أني أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر ٠

ولكن قبل هذا النهي ضربه بعض القوم بالقوس فشج رأسه ٠

كان هذا الاتجاه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن نزل على رأي الكثرة ممن استشارهم من المؤمنين ٠

وقبل أن يخوض بهم المعركة نبههم الى أنه نزل على آرائهم ، فلبس لأمة الحرب ، واتخذ درعه استعداداً للميدان ، وأخذ يضع الجيش مواضعه ٠

احس بعض المؤمنين أنهم استكرهوا الرسول ، وقالوا أمرنا رسول الله أن نمكث بالمدينة ، وهو أعلم بالله تعالى وما يريد ، ويأتيه الوحي من السماء ٠

حسبوا أن الأمر من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالبقاء يتصل بالوحي

وأمر الله فيه ، وظنوا ذلك لفرط ايمانهم ولو كان الأمر كذلك ما أخذ فيه رأي أحد ، فلا رأي في أمر الله تعالى ونهيه ، ولكن كان من الرسول الرأي في الحرب والمكيدة ، ولهذا عرض الأمر عليهم ، واختار رأي الكثرة ، لأنه الشورى •

ويظهر أنهم رجعوا عن رأيهم على حسب الزعم الذي زعموه ، ولكن ليس معناها التردد ، فان مع التردد الهزيمة ، اذ التردد يترتب عليه عدم العزيمة ، والعزيمة من قوة الجيش •

ولقد نبههم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى منع التردد ، وقال في حكمة النبوة « ما ينبغي لنبي لبس لأمة الحرب وأذن بالخروج الى العدو أن يرجع ، حتى يقاتل ، وقد دعوتكم الى البقاء ، فأبيتم الا الخروج فعليكم بتقوى الله تعالى ، والصبر عند البأس ، اذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله » •

مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه من المؤمنين ، وكان عدة المشركين نحو ثلاثة آلاف كما ذكرنا ، بينما كان عدة المسلمين ، وفيهم مرضى القلوب ألفاً ، وأراد بعض الأنصار أن يستعينوا بحلفاء لهم من اليهود ، فقد ذكر الزهري أن الأنصار استأذنوا الرسول في الاستعانة بحلفائهم من المدينة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا حاجة لنا فيهم ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يكون جيشه ممن يريدون القتال دفاعا عن عقيدتهم ، ولأن الله تعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾(١)

وما كان له أن يستعين باليهود في نصرته ، وقد كان بينه وبين بني قينقاع ما كان مما اضطره لأن يخرجهم ، وكتب الله عليهم الجلاء •

---

(١) آل عمران

المنافقون :

٤٢٧ ـ نقى الله تعالى الجيش الاسلامي من المنافقين فخرج من الألف نحو ثلث الجيش من أتباع عبد الله بن أبي ، وأظهر أنه خرج مغاضباً ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأخذ برأيه ، وكذلك كل مستبد يريد أن يفرض رأيه على غيره ، فهو لا يخلو من نفاق ، وقد يبلغ في نفاقه ما بلغه منه عبد الله بن أبي رأس النفاق بين المسلمين، وكان خروجه ومن معه اعلاماً لأهل الايمان بنفاقهم ، ولقد قال أطاعهم وعصاني •

ولقد كان من أثر دعوته الى الخروج أن لامه بعض المخلصين ، وهم باتباعه بعض المؤمنين فكان ممن لامه ومن معه عمرو بن حزام ، وهو يقول له ولمن معه : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، عند من حضر من عدوكم » فكان من نفاقهم أن قالوا والعدو يساور المدينة لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمنا لكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال فقال الرجل المؤمن عند ما استعصوا عليه أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله تعالى عنكم نبيه •

وقد كان رجوعه سبباً في اضطراب بعض المسلمين من المترددين ، وان لم يكونوا من المنافقين ، فقد همت طائفتان من المسلمين أن تفشلا والله وليهما •

وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة أن يعودوا مع من عاد مع عبد الله بن أبي ، وكان ذلك من فرط جزعهم من لقاء عدد يفوقهم أضعافا ، وهو مزود بزاد الضغن والعدة ، وقد أثر النفاق في نفوسهم وان لم يكونوا منافقين •

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

(٢) آل عمران

وقد فرح رجال هاتين الطائفتين لقوله تعالى : « والله وليهما » اذ اطمأنوا الى أنهم لم يكونوا منافقين وان كانوا مترددين ، لأن الله ولي المـــؤمنين ، والمنافقون وليهم الشيطان ٠

وانه اذ خرج هؤلاء كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض عليه صغار المؤمنين الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ، ولم تكن فيهم مهـــارة في الرماية ولا قوة بدنية تغني غناء الرجال ، فقد ثبت في الصحيحين أن عبد الله بن عمر عرض على النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم في أحد فرده ، وكذلك رد يومئذ أسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ٠٠ وغيرهم ٠

وقد هم برد رافع بن خديج وكان في مثل هذه السن ، فقيل له انه يحسن الرماية ، فأجازه ، لأنها لا تحتاج الى قوة في البدن ، ولـــكن الى مهـــارة في اصابة الهدف ٠

وكان سمرة بن جندب قد تقـــدم أيضاً في قريب من هذه السنة فهم النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم أن يرده ،فقيل انه يصرع الراعي ، ويظهـــر أنه رآه قوي المنة ، فأجازه ٠

مقاعد القتال

٤٢٨ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، وقد صفى الله تعالى الجيش من المنافقين ، وثبت المترددين ، فقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داعياً الى التقوى والصبر، وأن الله تعالى ناصرهم، كما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ومبشرهم به ان صبروا ، فقال تعالى حاكياً عن نبيه عليه الصلاة والسلام في تثبيتهم في ذلك اليوم :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

ثبت الله تعالى قلب المؤمنين بهذه البشرى ، وهي الامداد الروحي بالملائكة، ان صبروا في الميدان وثبتوا، وذكروا الله تعالى ، وأنه فوق كل القوى، وصبرت نفوسهم ، فلم تنحرف عن القتال والايغال وراء العدو ، ولم تشغل بالغنيمة عن النصر ، وان صبروا فلم يخالفوا القائد المدرك الذي يدعوهم الى الرشاد ، والى أن يتعاونوا جميعاً في الميدان ، وعلموا أنهم يؤلفون جيشا متعاونا وليسوا فرقا متفرقة ، تتنافس في الغنائم ، ولا تتنافس في النصر .

تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومضى حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي الى الجبل ، فجعل ظهر عسكره عنده لكيلا يتمكن المشركون .

---

(١) آل عمران

وصف الصفوف ، كما فعل في بدر، وقلده المشركون في هـــذا فصـفوا الصفوف أيضاً وجعل الرماة وعددهـمخمسون رامياً ، وراء ظهـــر الجيش ، وجعل عليهم عبد الله بن جبير أمـــيراوأوصاه ، بأن ينضـــح عن المسلمـين الخيل ، وقال له : « انضح الخيــل عنابالنبـــل ، لا يأتـــونا من خلفنا فاثبت مكانك لا تؤتين من قبلك» •

ولبس رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم لأمته ، وشدد الوصية للرماة ، وذلك ليمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين ، وعدد المشركـــين كبير ، وجيشهم كثيف •

وبعد أن صف النبي صلى الله تعالىعليه وسلم جيشه أمره بألا يقاتل ، حتى يأمره بالقتال ، ليتقدم الجيش على قلبرجل واحد ، وظهـــورهم في حمـــاية الرماة •

وذلك تنظيم حربي لم يعرفوه ، ولوأن الرماة أطاعوا ما اضطــــرب جيش المسلمين ، ولا أصابهم قرح في هـــذهالغزوة ، وقد كان أمام جيش الايمـــان جيش الشرك يفاخر بكثرته وعدته ،وقد اتخذت الأفراس التي تجـــاوزت مائتين ، والابل مزارع المدينة مستراداًومذهباً ، وذلك مما أثار حميـــة أهل المدينة للقتال ، حتى قد قال قائلهـم ،والنبي يشـــاورهم في الخـــروج الى المشركـــين أترعى زروع بني قبيلـةالأوس والخزرج ولما تضار •

الجيشان

٤٢٩ ـ التقى الجيشان ، ولكن لم تبدأ المعركة ، ولا بد أن نذكر الأوصاف الظاهرة والنفسية للجيشين قبل أن يخوضا المعركة ، لأن الحال لهما تنبيء عن المآل ، والله ولي المؤمنين •

كان جيش المشركين مزوداً بكل أسباب القوة المادية فعددهم أضعاف مضاعفة لعدد المؤمنين ، ومن ناحية الدوافع النفسية كان يدفعهم الى القتال أولاً الثأر ، ومحاولة استرداد مكانتهم في العرب ، والخشية على تجارتهم التي كانت مصدر ثروتهم ، وقد تهددتها قوة المسلمين • وقد أخذوا عليهم كل مرصد ، فوجد الدافع الى القتال والاستماتة فيه من النفس والنفيس ، وأدركوا أن الأمر بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر حياة عزيزة كريمة يتفاخرون فيها ، أو موت ذليل فيه العار والثبور •

ولقد أخذوا يعدون العدة الحربية في التنظيم آخذين مما صنع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو تنظيم الصفوف ، فالمحارب مأخوذ بنظام محاربه ، تسري اليه بالمحاكاة والمدافعة نظمه ومسالكه •

ولقد أخذوا نساءهم معهم ، وكلهن موتورات محنقات ، فأرادوا أن يثبتوا بهن ، وألا يرتكبوا عار الفرار أمامهن ، ويسلمونهن للسبي •

وكل ذلك لتقوى الروح المعنوية ، ولا يفرون يوم الزحف ، وقد رأوا محمداً وصحبه يثبتون عند الحرب ولا يفرون يوم الزحف •

ولقد روي أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللائي معها ، وأخذن يضربن بالدفوف ويحرضن على القتال ، وكان اللواء في بني عبد الدار فقالت محرضة لهن :

ويها بني عبد الدار ، ويها حماة الأدبار ، ضربا بكل بتار •

وتقــول هند الموتورة في أبيها وأخيهاوابنها :

ان تقبلوا نعــانق ونفــرش النمــارق
أو تدبروا نفــارق فــراق غــير وامق

ولقد كان أبو سفيان حــريصا علىبث الروح الدافعة الى القتال في جنوده الى آخر لحظة قبل القتال ، لقــد كان اللواء لبني عبــد الدار ، وروى أبو اسحاق ان أبا سفيان قال لهم يحرضهمعلى القتال : يا بني عبد الدار ، قــد وليتم لواء يوم بدر ، فأصابنا ما قــد رأيتم ، وانمــا يؤتى الناس من قبــل راياتهــم ، اذا زالت زالوا ، فاما أنتكفونا لواءنا ، واما أن تخلوا بيننــا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعــدوهوقالوا نحن نســلم اليك لواءنا ستعلم غدا اذا التقينا ، كيف نصنع !!

جـيش المؤمنين :

٤٣٠ ــ هذا جيش قوي بالعدد، وقوي بالعدة ، وبثوا فيه روح القــوة وأثاروا فيه الحمية ، فكانوا المجتمعينعلى باطلهم ، جمعهم الشر والحقــد والثأر •

ولنتجه الى جيش المؤمنين، ولا يمكنأن نقول انه في ايمانه وقوة روحه كان أقل من قوة المشركين المدافعة ، فاذا كان أولئك يدفعهــم الحقــد والضغينة والتراث ، فان جيش الايمان يدفعــهايمان قوي راسخ كالرواسي ، وحب في الشهادة ، وارادة من عند الله ومعهــمأعظم قــواد الأرض ايمــانا وروحاً ، وللمؤمنين فيه أسوة حسنة ، ولــكنيجب أن نذكر بعض الملاحظات :

(أولاها) أن بعض الذين لم يحضروا بدراً ، ورأوا غنائمها ، ربما كان من المحرض لهم على القتال والخــروجللأعداء ــ رجاء أن ينالوا من الغنــائم أو الأنفال ما ناله اخــوانهم من قبل ،وان كان ذلك مع الايمان والرغبة في أن يفدوا الاسلام بأنفسهم ، وجــانبالمال ان كان بعض الهدف ربما دفــع الى طلبه ، فغلب عند ظن النصر ، ومنأجل ذلك كان المنع من الأسر قبــل أن يثخن المسلمون في العدو ، واذا كانالأسر ممنوعا ، فالجــري وراء الغنائم أشد منعاً قبل أن يثبت النصر ، ويستقر •

(الثانية) أن بعض المقاتلين من جيش المؤمنين بعد تصفيته ، وتنقيته من المنافقين كان لا يزال فيه بعض المترددين الذين لم يعقدوا العزم قوياً ثابتاً، فالطائفتان اللتان همتا ، بأن تفشلا ،لا أستطيع أن أقول ان كل آحادهما • قد عقد العزم ، وأصر على القتال وأراد النصر ، وانه لا يذهب بقوة الجيش الا التردد ، فان كان من بعض آحاده ،نقصت القوة بمقدار تردده •

(الثالثة) أن اليهود كانوا حول المدينة ، ولهم تراث ، وقد انضم اليهم المنافقون ، وهؤلاء يكونون عورة من وراء الجيش المقاتل •

ولكن قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذهبت بكل عوامل الضعف ، واختفت كل عناصر التردد ابتداء ولم يحدث النزوع الى الغنائم الذي كان مستكناً في بعض النفوس الا عندما لمع بريق الغنيمة ، وظهرت بوادر النصر ، فلم يكن التتبع للفلول المهزومة من قوات المشركين •

هذا بانصاف حال الجيشين المقاتلين وكلمة الله أعلى ، وله وحدة العزة ، وانه ناصر جنده ان استقام على الطريقة ، واتخذ الصبر في الزحف ، والصبر بضبط النفس عدة له ، فان ذلك هو القوة بعد توفيق الله تعالى •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذ الأهبة وقوى النفوس ، وشحذ العزائم وحقق قوله تعالى :

المعركة

٤٣١ ـ بوأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لجنده مقاعد للقتال ، وقد عني بأمرين عناية شديدة أولهما بالرماة ، فقد شدد عليهم الوصية بألا يبرحوا مكانهم ، ومما قاله لهم في ذلك«احموا لنا ظهورنا اننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا ، والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها ، وان رأيتمونا نقتل فلا تمينونا ولا تدفعوا عنا، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فان الخيل لا تقدم على النبل » ·

الأمر الثاني جعل في صفوفه الأولى الأشداء من جند المؤمنين الذين أبلوا بلاء حسناً في غزوة بدر كأسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب ، وفارس الاسلام علي بن أبي طالب والزبير بن العوام الذين يذكرهم وجودهم بهزيمة بدر فيكون ذلك ارهاباً لهم وايقاناً بأن الليلة كالبارحة ، ولأنهم يدقون صفوف المشركين دقاً ، فيفتحون الطريق لمن وراءهم ، ويزيلون الرهبة من لقاء أهل الشرك ، ولو كثر عددهم ، ونهاهم عن أن يقدموا الا بأمره ، ويستأنوا ·

وقد أخذ يتفرس الوجوه ، ويحرض الأبطال ، ويدفع الصناديد الى البأس ، فحمل سيفا ودعا المؤمنين الى أن يحملوه ، ويحموه ·

روى الامام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ سيفا يوم أحد ، فقال من يأخذ هذا السيف بحقه ، فجعلوا ينظرون اليه ، فقال من يأخذه بحقه ·· فقال أبو دجانة سماك أنا آخذه بحقه · فأخذه ففلق به هام المشركين ·

قال ابن اسحق ، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب يعتصب بها ، فيعلم أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم جعل يتبختر بين الصفين بعد أن اعتصب بعصابته ،فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبختر : انها لمشية يبغضها الله الا في هذا الموطن ·

كان لواء المشركين مع طلحة بن أبي طلحة ، ثم عثمان بن أبي طلحة ، وكان حملة اللواء جميعاً من بني عبد الدار ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى لواء جيش الاسلام علي بن أبي طالب فلما رأى عليه السلام حامل لواء المشركين من بني عبد الدار طلحة بن أبي طلحة أخذ اللواء من علي كرم الله وجهه في الجنة ، وأعطاه مصعب بن عمير من بني عبد الدار .

٤٣٢ ـ ابتدأ القتال من قبل المشركين أبو عامر بن صيفي وهو أوسي ، كان يسمى الراهب ، وسماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الفاسق عندما خرج الى قريش يحرضهم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قبل قدوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ذا مكانة في قومه .

فدفعوه ليتقدم جيش الشرك ، وكان في نحو خمسين ، وظنوا أن ذلك يوهن من قوة الأنصار ، ويبعث على التردد ، ولذا قال عندما تقدم ونادى يامعشر الأوس ، فقالوا له : « لا أنعم الله بك عينا » فطاش سهمه ومن معه وخاب فألهم وقال لما سمع ردهم : « لقد أصاب قومي بعدي شر » .

أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال ، وكانت كلمة التعارف بين المؤمنين أمت أمت ، اندفع الصناديد من جيش المسلمين يقتلون في جيش الشرك يضربون فاندفع أبو دجانة يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه تعهد لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذه بحقه حتى انه ليضرب الرجل على رأسه بالسيف ، فيفرقه فرقتين .

وكان النساء قد خرجن في القتال ملثمات ، أو ظاهرات بمظهر رجال ، فلقي أبو دجانة امرأة قيل انها هند امرأة أبي سفيان بنت عتبة ، فرفع السيف عنها ، ولم يجد من كرامة سيف رسول الله أن يقتل به امرأة ، ولو كانت تقاتل .

وحمزة بن عبد المطلب يدق جيش المشركين بسيفه دقا ، وأوغل بسيفه البتار في جيش المشركين ، وهم يفرون منه فرارا ، كأنها النعاج تفر من الأسد الهصور .

وحامل لواء الشرك طلحة بن أبي طلحة يطلب المبارزة ، فلا يقدم على مبارزته الا علي بن أبي طالب ، وماهي الا جولة من جولات علي الا كانت بعدها الضربة القاصمة التي وصفها المؤرخون بأن ضربات علي كانت أبكارا، أي لا يضرب الا ضربة واحدة تكون بكرا منفردة .

الخسارة الفادحة - مقتل حمزة مع المضاء في القتال :

٤٣٣ ـ كانت الجولة للمسلمين ،حتى ان المشركين يفرون فراراً أمام سيوف الله تعالى التي سلها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الشرك وأهله ، وأمام الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، فماتقدموا حريصين على الحياة الدنيا ،انما يحرصون على ما عند الله في الآخرة .

قتل حامل اللواء الاسلامي مصعب بن عمير ، فحمل اللواء علي رضي الله عنه ، فما سقط اللواء ، ولكن الخسارة الكبرى كانت في مقتل حمزة .

لقد قتل غيلة ، وما قتل في مبارزة،ولا في مواجهة فما كان بنو هشام ليقتلوه الا غيلة خيانة وجبنا ، لقد تواصت هند ، وغيرها من قريش مع وحشي العبد الحبشي الذي يجيد القذف بالرمح ، ولا يجيد الضرب بالسيف ، وما كان يجديه لو أجاده أمام أسد الله تعالى حمزة .

كان حمزة يجندل الأبطال ، وما تقدم نحوه أحد الا جمله يعض التراب مستهزئاً به ، ساخراً منه ، وهو يتبختر، ويدل بمواقفه في القتال .

وقد كان يتربص به العبد الذي جعل سيده جبير بن مطعم قتل حمزة عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثمن عتقه ، كما قتل حمزة عمه .

كان وحشي يختبيء وراء الأشجار لتسنح له فرصة يرمي فيها رميته ، وحمزة ، كما قال العبد ، يحمل سيفه كالجمل الأورق يهد به الجيش هدا ، فرماه بحربته التي لم تخطيء ، ونال حريته ٠

فقتل عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسيد الشهداء ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » ٠

واذا كان ذلك قد أرضى جبير بن مطعم ، وأرضى هند بنت عتبة ، فانه لم يرض الشرف والمروءة ، وأرضى النذالة والخيانة ، وأنى يكون هذا من فعل أبي دجانة ، وقد رأى محاربة امرأة فتركها تنزيها لسيف رسول الله أن يقتل به امرأة تقاتل ٠

ولكن ما وهن جيش الاسلام ، ولا ضعف ، وان ذهبت منه قوة ليس من السهل أن تعوض اذا استشهد منه رجل كان كألف من الرجال الأشداء ٠

بل استمر جيش الحق في تتبعه لأعداء الله تعالى ، فلم يهن ، وان حزن بل مضى في طريقه ، وكان هو الغالب الأغلب ، والمشركون يتساقط من بين أيديهم لواؤهم حاملا بعد حامل ٠

قتل حامل اللواء ابن أبي طلحة ، فحمله أخوه عثمان بن أبي طلحة ، ثم حمله من بعده أخوه أبو سعد وقد طلب المبارزة من علي متحديا ، فتصدى له علي الذي لم يفر من مبارز ، ولم يبارز أحداً الا نال منه ، فبارز حامل لواء المشركين ، ومن آل اليه لواء المؤمنين بعد مصعب بن عمير ، فاختلفا ضربتين فنبت ضربة ابن أبي طلحة ، وضربه علي فصرعه ، ثم انصرف عنه ، ولم يجهز عليه ، لعله لم يجهز عليه ، لأن فارس الاسلام لا يقتل مصروعا ، بل يقتل من يقف أمامه ، وقال علي رضي الله تعالى عنه عند ما قال له بعض أصحابه أفلا أجهزت عليه ، قال : انه استقبلني بعورته ، فعطفني عليه الرحم ، وعلمت أن الله قد قتله ٠

لا نقول قابلوا بين علي ومن حرض العبد ، فان تلك بطولة علي ، وهذه أخلاق العبيد ٠ توالى القتلى من حملة لواء المشركين ، حتى حملته امرأة ٠

وصناديد الجيش الاسلامي حتى بعدمقتل حمزة بالخيانة والغيلة والغدر مستمرون في الضرب في اهتداء ، وقدشقوا صفوفهم ، كما تشق السكين الكمثرى ، وأداروها رحى في صفوفهم ، وهم يفرون تاركين أموالهم وعتادهم ومع كثير مما يغنم ٠

الغنائم القاتلة :

٤٣٤ ــ تفرق معسكر الشرك ، وفر من فر منهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم ينالوا خيراً ، ولكنهم لم يسحقوا ، ولم يثخنوا وكانوا يفرون فراراً ، والعدد لجب كبير ، وفيهم قوة الخيل قوة خالد بن الوليد ، وقوة عكرمة بن أبي جهل ، ومع كل منهم مائة فارس ، قد أعدوا العدة ،لينقضوا ان وجدوا الفرصة ، وكلاهما ذو بصر أريب يدفعه الثأر والحمية ٠

غر الأمر طلاب الغنائم ، وبينما علي والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وصناديد الأنصار يقصمون ظهور المشركين ، حتى حملوهم على أن يتركوا متاعهم ، أخذ هؤلاء من وراء أولئك يجمعون الغنائم ، ويأخذون الأسلاب ، ويتركون أبا دجانة يفلق الهام ، ولا يحمون ظهور المؤمنين ، والطمع يغري بالطمع ، والمال يغوي ويضل ٠

ولقد وصف ابن اسحاق المعركة قبل التسابق على الغنائم فقال أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده ،وحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها ،ويقول البطل الزبير بن العوام « ولقد رأيتني أنظر الى خدم هند وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير » ٠

أخذ ناس يجمعون الغنائم ، ورأى الرماة الغنائم تكثر ، ويتسابق اليها من يريدونها ، فتركوا حماية ظهور المؤمنين ، ونضح الخيل بالنبال ، وأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بألا يتركوا أماكنهم سواء أكان القتل للمؤمنين أم كان على المؤمنين ، لأنه لايريد أن يحيط جيش المشركين الكثير بجيش المؤمنين الذي لم يصل في العدد الى ربعه ٠

زايلوا أماكنهم ، وعين خالد وعكرمة تترقبهم، ويريدون فرصة ينتهزونها لفعل الخيل ، فانقضوا على مواطن الرماة ، وأخذوا جيش الايمان من ظهره.

والجزء الأكبر من جيش قريش يسيرفي انكسار ، ولا يتوقع الا الهـزيمة حتى أخذ ينادي خالد بن الوليد جيش قريش بأنه أخذ يضرب جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من ظهورهم ،فمادوا كلبين على جيش المسلمين يريدون أن ينالوا منالا ، وأرادوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ، واذا كانوا قد أحاطوا بجيش الرسول ، فالله من ورائهم محيط .

قال ابن اسحاق :

انكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله تعالى من أكرم من المسلمين بالشهادة، حتى خلص العدو الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرمي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالحجارة حتى وقع ، فأصيبت رباعيته وشج في وجهه ، وكلمت شفته .

وهكذا وصل جيش المشركين الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته الطاهرة ، ووقع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في حفرة من الحفر ، وكان أبو عامر الأوسي ، قد حفرها ليتردى فيها المسلمون عند هجومهم ، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما .

وأخذ عليه الصحابة يزيلون وضر الجروح عن وجهه ، ونزع أبو عبيدة عامر بن الجراح احدى الحلقتين من وجهه ، نزعها بأسنانه ، فسقطت ثنية أبي عبيدة ، ثم نزع الأخرى ، فسقطت ثنية أخرى .

كان جيش الشرك لا يريد الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ظانين أنهم ان قتلوه ، انتهى الأمر ، ولذلك أحاط به الصناديد من المؤمنين الذين كانوا في صدر الجبهة ، وأخذوا يذودون عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسيوف تمتورهم ، ومنهم كثيرون ذهبوا فداء لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذهب من جيش الشرك من يخصه بالضربة غير مبال بشيء .

وفي ذلك الوقت اشتدت الحماسة في الدفاع عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بجواره مصعب بن عمير حامل اللواء يذود فقتله من يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وظن أنه قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونادى في قريش أن محمداً قتل ، وقد أعطي اللواء لعلي •

وقد اتجهوا الى النبل يصوبونها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واتخذ أبو دجانة من نفسه ترسا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه ، حتى كثر النبل ، وبينما أبو دجانة يترس

دون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كان سعد يرمي المشركين بالنبل ليبعدهم عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والرسول يناوله ما يرمى به ، ويقول له : ارم فداك أبي وأمي •

لنترك الذين حول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أصاب الرسول ، ولنتجه الى ما جرى في جيش الايمان بعد الاحاطة بهم •

لقد شاع في المشركين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل ، فأيأس الخبر الجميع ، ويئس الضعفاء وتحمس الكثيرون ، وصاح فيهم أنس بن النضير : « ماذا تصنعون بالحياة بعده ،قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واستجاب الناس لندائه ، وقاتل حتى قتل » •

ثم جاء البشير من بعد فترة بأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقتل ، فنهضوا ، ونهض معهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الشعب الذي كان به بجوار أحد ، ومعه أبو بكر وعمر ،وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم ورهط من أقوياء المسلمين يستردون الموقف بعد المباغتة التي بلغ الاضطراب فيها أن قتل بعضهم بعضا وقد صارت الأمور لأهل الايمان فوضى •

وكان أبو سفيان قد أشرف بمن معه على المسلمين ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو في هذه الشدة، لا يعلونا اللهم ان تقتل هذه العصابة لاتعبد في هذه الأرض ، وندب من أصحابه من أنزلوهم ، واستقل المسلمون في ذلك حتى أزاحوهم عن الجبل ، وشقوا طريق قريش ، وان كان الجيش كليلا مكلوما ، ولكنها قوة الايمان المستيقظة في قلوب رجال بدر الكبرى ، وبقية سيوفها ، وبقية السيف أبقى عددا ،كما قال علي بطل بدر وأحد •

نهنه ذلك من عزيمة قريش ، اذ كانت الحجارة ترمى من الجبل على فرسان خالد الذي أخرجهم من الهزيمة الساحقة ، وان لم يأخذهم الى نصر حاسم ٠

والقي الياس في قلوبهم من نصر حاسم حالق لقوى المسلمين ما جاء به البشير من أن محمداً صلى الله تعالىعليه وسلم حي ، يدبر لهم ، ويكيد ٠

عادت القيادة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اضطربت أمور الجيش ، وحمل الله اللواء علياً بنأبي طالب ، بعد أن سقط حامله مصعب ابن عمير ، وانه بعد أن حمل اللواءعلي ، وهو الذي يهجم ويضرب ، فلا يهمه أيقع الموت عليه أم يقع على عدوه، وبعد أن استولى المسلمون على الهضبة أخذوا يقاتلون ، ولم يفن المشركين ،اذ استمر خالد في هجومه ، فقام المسلمون ، وكانت الصفوة المختارة منأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أمثال أبي دجانة والزبير ، وطلحة ، وحامل اللواء علي فقابلوه بهجوم مضاد وصدوه ، بعنف الجبال ٠

ومض برق النصر لقريش عندما اضطرب جيش المسلمين ، وكثر الفتك فيه ، وليس عدداً كثيراً بجوار عددالمشركين ، وعندما شاع بينهم أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل وحسبوا أنهم منتصرون ساحقون لجيش النبي ، جيش الايمان ، ولكن ذهب البرق الذيخطف أبصارهم عندما علا جيش المسلمين الى الهضبة ، وصد هجمات خالد ومنمعه ، وحمل اللواء علي ، واللواء حامل النصر ، وان تخاذل خذل من وراءه ،وعلي لا يتخاذل ، وقد علموا سيفه في بدر وأحد ، وكما قال أبو سفيان يؤتىالجيش من حامل لوائه ٠

ولا ننسى أن جيش قريش قد أصابته جراح الحرب ابتداء ، فالأمل هو الذي داوى جرحه فهجم ، وسط اضطراب جيش الايمان ، فلما استقام له الأمر ، ففرت جراحهم ، وخافوا العقبى، ويئسوا من النصر الساحق ، اذ رأوهم وقفوا أمامهم ، وقد ذاقوا منقبل وبال الأمر من هجومهم ، وان كانوا قليلا ٠

عندئذ رأوا أن ينهوا القتال ، وقدفرحوا بهذا النصر المؤقت ، وخشوا أن يضيع منهم وانه لا بد ضائع ، لقياسهمالقابل على الماضي ، والحاضر لحظة ستصير ماضياً ٠

أحد ليست هزيمة للمسلمين :

٤٣٥ ـ هذه غزوة أحد التي يقول فيها المؤرخون ان الهزيمة فيها كانت على جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكني أرى أن تسمية ما أصاب المسلمين هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق ، انما تكون الهزيمة اذا كان جيش الايمان قد فرفراراً ، والآخر قد تبعه في فراره ، حتى داهم المدينة ، وكان ما يكون بعد ذلك •

انما الذي أنهى القتال هم المهاجمون ، وكانما اكتفوا بان أصابوا مقتلة من المسلمين ، ورضوا بذلك لأنهم لا طاقة لهم فيما وراء ذلك ، وقد رأوا السيوف الاسلامية تبرق ، وذاقوها مرتين ، ولذا تتبعهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

واذا كان ما في أحد لا يسمى هزيمة ، فانه لا يسمى نصرا أيضا لأحد الفريقين ، وقد يسمى جراحا للمسلمين ، كما سماها القرآن ، اذ سماها قرحا ، وسماها اصابة ، فقد قال تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١)

(١) آل عمران

ثلاثة أمور هامة في أحد :

٤٣٦ ــ وقبل أن نترك الكلام في الموقعة التي أنهاها المشركون ، ولم ينهها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يعترف بانتهائها بانهائهم ، بل سار وراءهم حتى فروا هم فراراً . لا بد أن نشير الى أمور ثلاثة :

أولها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل مشركا بيده في هذه الغزوة ، ذلك أن أبي بن خلف قد أراد أن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد اعتزم ذلك الاثم وهو في مكة ، فلما كان يوم أحد أقبل أبي مقنعاً بالحديد ، وهو يقول : لا نجوت ان نجا محمد . فاستقبله مصعب بن عمير ، فقتله ولكن قيل مصعب بن عمير ، قتله غيره ، وكان على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرده بنفسه ، فأخذ الرمح وأبصر عليه الصلاة والسلام ترقوة أبي بن خلف من فرجة بن سابغة الدرع ، والبيضة الحديد ، فصوب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الترقوة من بين الحديد، فطعنه بالحربة، فوقع الى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، كما يقول الرواة ، فأتاه أصحابه ، وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له ما أجزعك !! انما هو خدش ، فقال والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين فمات الى النار فسحقاً لأصحاب السعير .

ويقول ابن اسحاق في وصف قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له وقد جاء اليه قال : دعوه فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الحربة من الحارث بن الصمة ، فقال بعض القوم ، كما ذكر لي ، فلما أخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير اذا انتفض ، ثم استقبله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ بها عن فرسه مراراً .

وان هذا يدل على قوة بأس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وان كان لا يقتل بيده .

الأمر الثاني: أن النساء كن يخرجن في جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحملن الماء للمجاهدين ويداوين الجرحى ان أمكن ذلك ، وقد يضربن بالسيف ، ان كانت ضرورة لذلك ، يروى أن أم عمارة نسيبة المازنية قد خرجت مع الجيش تحمل سقاء فيه ماء ، لتسقي الجيش ، وكانت تشد أزر المجاهدين ، فلما أحدق المشركون وأحست بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرض للمشركين ، وقد جعلوه هدفا مقصوداً • استلت السيف ، وأخذت تذود عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذائدين ، وترمي بالقوس ، حتى نزلت بها جراح شديدة وأصاب عاتقها جرح أجوف له غور •

ولقد كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسل الدم عن وجه أبيها الكريم ، وتداوى جرحه ، روى البخاري عن سهل بن سعد أنه قال : « أما والله اني لا أعرف من كان يغسل جرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن كان يسكب الماء وبما روي ، كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسله ، وعلي يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها »

والظاهر من هذا الخبر أن فاطمة الطاهرة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرجت مع المجاهدين ، فداوت جرح أبيها عليه الصلاة والسلام او أن يكون الدم استمر يسيل حتى عاد الى داره والله تعالى أعلم •

الأمر الثالث : ما فعله المشركون بالقتلى ، وخصوصا الجثمان الطاهر ، جثمان حمزة رضي الله عنه ، وأقرنه بما فعل علي رضي الله عنه عندما صرع مبارزه ابن أبي طلحة ، فقد بدت عورته ، فرفع علي سيفه وأخذته المروءة والرحم ، ولكن انى تكون امرأة أبي سفيان وأبو سفيان ، وعلي البطل الذي يقرع الأقوام في وجوههم ، ولا يقرعهم مدبرين •

سلط المشركون النساء على القتلى يمثلن بهم بقيادة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وأم معاوية ، وذكر ابن اسحاق « أنه وقعت هند بنت عتبة ، والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجدعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم.

خلاخل ، وقلائد ، وقد أعطت قلائدهاالحقيقية وخدمها وأقراطها وحشيأ الذي اغتال حمزة غـــدراً وخيانة وجبناً ،وبقرت بطن حمزة ، وأخـــذت كبده فلاكتها ولم تسغها ، فلفظتها ثم عـلت على صخرة مشرفة » ·

وأنشدت تقول :

نحن جـــزيناكم بيـــوم بـدر	والحـــرب بعد الحرب ذات سر
ما كان عن عتبـة لي من صـبر	ولا أخي وعمــــه وبكـــري
شفيت نفسي وقضيت نـــذري	شفيت وحشي غليـــل صـدري
فشكـــر وحشي عـــلي عمـــري	حتى تـرم أعظمي في قبـــري

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ :

٤٣٧ ـ قال تعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وان النص السامي الـكريم ينطبق على الذين ثبتوا من رجال المؤمنين في أحد ، سواء أنزلت الآية فيهم أم كانت عامة ، تعم كل رجال الجهاد من المؤمنين·

فقد كان في هذه الغزوة رجال كانوا صادقين في حربهم ، وصـــادقين في ايمانهم منهم سيد الشهداء حمـــزة بن عبد المطلب الذي كان يدق جيش الشرك دقا ، ومنهم أبو دجانة الذي كان يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وأعطى الســـيف حقه ·ومنهم مصعب بن عمير ، ومنهـــم بطل الأبطال علي بن أبي طالب الذي حمـل اللواء في الشديدة ، فـــكان اعطـاء

(١) الاحزاب

اللواء له ارهابا للشرك ، ومنهم طلحة بن عبيد الله ، الذي كان له الفضل الأول في تحويل الحرب من هزيمة متوقعة للمؤمنين الى نصر متوقع للمؤمنين ، ومن بعده أنهى المشركون القتال خشية أن تكون العاقبة عليهم ، لا لهم ، وذلك عندما طلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صحابته الأبطال الذين يحوطونه أن يعلوا الى الجبل ،حتى لا يكون أبو سفيان في علو عليهم.

ولنترك البيهقي يتكلم في دلائل النبوة انهزم الناس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار ، وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون ، فقال ألا أحد لهؤلاء ، فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام ، كما أنت ، فقال رجل

من الأنصار فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ومن بقي معه ، ثم قتل الأنصاري فلحقوه ، فقال ألا رجل لهؤلاء ، فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار فأنا يا رسول الله ، فقاتل ، وأصحابه يصعدون ، ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة أنا يا رسول الله ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال ، فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه أحد الا طلحة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من لهؤلاء : فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقاتل قتال جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله ، ثم صعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه وهم مجتمعون ،وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك يوم كان لطلحة .

وان صعود جيش المسلمين الى الجبل بعد أن أبعدهم المشركون فيصل بين الاضطراب في جيش المؤمنين ، وبين اعادة الخطة ، والسير على المنهاج من غير اضطراب وحامل اللواء علي كرم الله وجهه ، ولذا أخذوا يضربون أقوى في المشركين بقيادة خالد بن الوليد ،وينتصفون منهم ، وقد زال عنهم وعث الجروح ، وانتظم جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك أنهوا القتال وشيكا ، ولم يستمروا خشية أن تدور عليهم الدائرة كما ابتدأ المسلمون يحسونهم باذنه .

فرحة أبي سفيان بالنصر القريب :

٤٣٨ ـ أنهى أبو سفيان الحرب فرحا ، راضيا بما وصل اليه ، وان لم يكن نصراً لهم وسحقا للمسلمين ، ولكنه أدرك الثار وكفى ، والوقائع أقنعته بأن يكتفي بذلك ، حتى لا يضيع من يده ما أخذ ، وهو أنه ثار ، وأخذ ترته ، وكفاه ذلك ، ولم يقتلع المدينة، ولم يستطع أن يمنع أسباب مصادرة ماله وغيره ولكن وقف يفاخر بما وصل اليه ، وينادي المؤمنين ، يقول :

أفي الجيش محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ نادى ثلاثا ، فنهاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجيبوه ، ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة أفي القوم ابن أبي قحافة ، ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب،

ثم أقبل على أصحابه ، قال أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم فما ملك عمر نفسه فقال : كذبت والله يا عدو الله ، ان هؤلاء لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك • فقال : يوم بيوم بدر، والحرب سجال ، انكم ستجدون في القوم مثله لم آمر بها ، ولم تسؤني •

ثم أخذ يرتجز فرحاً : أعل هبل ، أعل هبل •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ قالوا يا رسول الله وما نقول ؟ قال قولوا الله أعلى وأجل ، قال ان لنا العزى ، ولا عزى لكم • قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألا تجيبونه ؟! قالوا يا رسول الله فما نقول ؟ قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم •

وصف معركة أحد في القرآن

٤٣٩ ـ وصف القرآن الكريم المعركة وصفاً دقيقاً ، ووصف نفوس جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خصوصاً الذين كانوا يطلبون المال في المعركة ، وآثارهم فيها ، فقال تعالى :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(1)

هذه الآيات الكريمات تصور النتيجة التي انتهت اليها المعركة بالنسبة لما أصاب المسلمين من قرح ، وأنه كان اختبار للمؤمنين ليتميز المجاهدون الصابرون من الضعفاء المترددين ، وفي هذا اشارة الى أنه كان في جيش الاسلام مترددون ، كما أشرنا في وصف الجيش .

وفي النص الكريم ما يشير الى حقائق ثابتة ، منها أن الاصابة مرة لايصح أن تحدث الوهن والحزن ، فهما يولدان اليأس من رحمة الله ، وليس اليأس من شأن أهل الايمان ، فانه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون .

---

(١) آل عمران

ومنها أن القياس بالمماثلة بين ما أصابهم في الماضي ، وما أصاب المؤمنين يريح النفس ، وقانون الحيـــاة الذي سنه الله تعالى في الوجود المداولة ، حتى يكون النصر النهائي ، وما النصر الا من عند الله العلي الحكيم .

ومنها بيان أن النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وان كان صاحب الرسالة لا يصح أن يكون مـوته أو قتله منهياً لدعوته ، بل على المؤمنين من بعـــده الا ينقلبوا خاسرين ، وعليهم أن يتحملوا الرسالة ويبلغوها الناس ويجاهـدوا في سبيلها غير وانين ولا مقصرين .

هذه حال المسلمين في أعقاب المعركة ، والعبرة فيها .

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى المعركة في ابتدائها ، ووسطها ، وما أصاب النفس المحاربة ، ان كـانت مترددة ، والنفس ان كانت مجاهدة ، وبين سبحانه وتعالى سبب العجز ، فقـــال تعـــالت كلماته :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا
تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ
طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل
لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ
كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ
إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ *
ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (١)

---

(١) آل عمران

ونرى في هذه الآيات الكريمات وصفا دقيقا للمعركة ، ووصفا للنفوس بينه العالم بما في الصدور .

ونرى الآيات تبين ابتداء المعركة ،وقد كان فيها جيش الايمان يحس الشرك بأن يصيب حسه ، واصابةالحس قتل الأنفس ، وازالة عنصر الحياة فيها ، بازالة الحس الذي هو مظهر .

ويجيء من بعد ذلك الاختلاف حول الغنائم ، بسبب التردد بين أخذها وبين تركها ، وفي الأولى عصيان القائدالأعظم ، وفي الثانية عصيان النفس ، وطاعة القائد هو أولى بها ، وان كل تنازع عجز ، ولذا بين القرآن أن ذلك فشل ذريع ، ثم غلب بعد ذلك العصيان .

وانبثق في هذا الخلاف ما تكن النفوس ، فكان منها من يريد الدنيا ، وهم الذين تبعوا الغنائم ، وأخلوا بالصفوف ، وصرف الله تعالى جيشه الذي كان موحداً في الظاهر ، لتكون تلك الجراح،والمقتلة التي أصابت المسلمين.

وصور الله تعالى المعركة في انتصارها وكبوتها ، اذ هم يصعدون ، والرسول يدعوهم في أخراهم .

ثم من بعد ذلك كانت الحسرة ،فلم ينالوا مالا ، ولم يحفظوا نفسا ، وأصابهم غم شديد ، بل أصابهم غمان. غم بسبب ضياع الأنفس وضياع المال اذ تعجلوه قبل ميقاته ، وغم اذ نالهم ما نالهم ، وأحسوا بما كان منهم، فلا يحزنون على مال فاتهم ، ولا جروح أصابتهم ، انما هو الغم والغم انزال غمة بالنفس ، تكون منها في ظلام لا يرى ما وراءه،ويصيب النفس بالاعياء المرهق كدا وحسرة .

وان ذلك كان عاما لمن كان يريد الدنيا ، ومن كان يريد ما عند الله ، وقد خص الذين يريدون ما عند الله تعالى بأنه بعد الغم المتوالي ، غما بعد غم ، كان الاطمئنان والرضا بما كان مستفيدين من العبر ، وكان مظهر هذا الاطمئنان النعاس الذي لا يكون الا من قرار نفس ، واطمئنان حاضر ، ورضا بما قدر الله تعالى ، وقد بذلوا في جهادهم كل الأسباب ، وقد فاتهم النصر الحاسم كمن كان الشيطان قد استزلهم بأن أوقعهم في الزلل ، بما كسبت قلوبهم من طلب للمال .

والآخرون الذين لم ينلهم الاطمئنان ، لأنهم الذين باشروا سبب الفزع والاضطراب الذي أصاب جيش قد أهمتهم أنفسهم ، فكانوا في هم دائم ، لأنهم فقدوا المال الذي كانوا يريدونه، وأصابتهم حسرة من الجراح التي نزلت بهم ، وبالمؤمنين ، ولأنهم لم يطيعوا .

ولقد حدث من بعضهم أنه بعد الانكسار المؤقت الذي أصاب الجيش فكر بعضهم في أن يكتب الى عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، يؤمنون أنفسهم عنده، ويظهرون له الطاعة بعد العصيان .

فقد جاء في تاريخ الحافظ بن كثير أن بعض الذين كانوا قد هموا بالفشل أنهم قالوا « ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا امنة من أبي سفيان يا قوم ان محمداً قد قتل ، فارجعوا الى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ، فقال أنس بن النضر يا قوم ان كان محمد قد قتل ، فان رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء ،وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل » .

وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، ونذكره هنا بياناً لما تشير اليه ، فهؤلاء هم الذين أهمتهم أنفسهم ، وقد جرهم الشيطان الى الزلل بسبب ما كسبت نفوسهم من تردد ، ومرض نفسي ،فكان زللهم نكبة للجيش ، وان لم تؤد الى هزيمة وان هذا يزكي ما قلنا في أول القول عندما وصفنا جيش المسلمين، بأن فيه بعض المترددين دعاة الهزيمة اذا وجدت أسبابها ، وأنهم ما جاؤوا الا للغنائم ، وأنهم نفسوا على أهل بدر ما نالوا من أنفال ، فلم يريدوا القتال الا لينالوا مثل ما نال الذين سبقوا بالجهاد حقاً وصدقاً .

تمام المعركة

٤٤٠ ـ قلنا أن غزوة أحد لم تكن فيها هزيمة على ، المؤمنين ، وانما الذين أنهوها هم المشركون ولم تكن قدانتهت من قبل المؤمنين ·

نعم انه كانت جراحات من المؤمنين، ولكن لم تثخنهم ، وكانت جراحات في المشركين دون جراحات في المؤمنين، ولم يكن عمل المشركين الا أن جاؤوا فأخذوا ببعض ثاراتهم ، ولم يأخذوا بهاكاملة ، فهل نالوا من علي نيلا ؟ وهل نالوا من الزبير ؟ وهل نالوا من أبيدجانة ؟ وهل نالوا من طلحة بن عبيد الله ، فان كانوا قد نالوا من حمزة ،فانالذين وتروهم كانوا لهم بالمرصاد ·

واذا كان المشركون قد أنهوا الحرب ، بما يشبه الفرار عندما استرد المسلمون جأشهم ، واستقاموا لجهادهم ،وأخذوا يكيلون لهم ، وخافوا على أنفسهم من عودة الوثبة ، وأن يحسوهم باذن الله تعالى كما ابتدؤوا ، لم ينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب، ولذا تبعهم بالجند المؤمنين ، ولا يجدد الجيش ، بل يذهب اليهم بمن كانوا معه، واذا كان قد فقد من جيشه نحو السبعين ، فانه بقي له فوق ستمائة ،واذا كانوا قد أصابتهم جراحهم ، ولكنها لم تثقلهم ، وهم بقية السيفوبقية السيف كما قال بطل الجهاد علي بن أبي طالب ، بقي عدداً ·

خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد ثانية

٤٤١ ـ بعد أن عاد النبي صل الله تعالى عليه وسلم الى المدينة من المعركة التي كانت يوم السبت ١٥ من شوالسنة ثلاث ، وكان يوم الأحد في الغداة يدعو جنده للذهاب الى تتبع المشركين،ورأى صلى الله تعالى عليه وسلم آلا يخرج معه الا من كان من رجاله في أحد ، وقد عرض عليه عبد الله بن أبي ومن رجعوا أن يخرجوا معه ، فرفضرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا ، وقد فرح المؤمنون بخروجهم ، وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يخرجن معي الا منشهد القتال » فاستجاب الذين أخلصوا

دينهم لله فرحين على ما أصابهم من جروح وبلاء ، وقد روي أن الله تعالى قال فيهم :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (١)

هذا جانب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليتمم المعركة ، بطلب العدو الذي أنهى هو الحرب ، ورحاها دائرة ، ولم يتركوها رحمة ، بل لمجرد الرضا بما وصلوا اليه من ثارات غير كاملة ، فالأبطال الذين جندلوا مشايخهم ببدر كأبي دجانة وعلي والزبير ما زالت سيوفهم مشهورة عليهم .

والمشركون من بعد أن أنهوا القتال شبه فارين من نهايته ، فانه روي أنهم أخذوا يتلاومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكة القوم وحدهم ، ثم تركتموهم ، ولم تبتروهم بل منهم رؤوس يجمعون لكم .

ذلك قولهم بأفواههم ، والحق أن رجالات محمد ما زالت فيهم البقية المرهبة ، وما زال الايمان بنصر الله يملأ قلوبهم .

ولقد هم المشركون أن يرجعوا لولا أنهم علموا الوثبة الاسلامية بقيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ابتدأت العودة اليهم عندما علا النبي عليه الصلاة والسلام بجيشه فوق الهزيمة ، وأخذ يذيقهم وبال أمرهم ، فانتهوا لما علموا ذلك ورجعوا عن عزمتهم ورضوا بما نالوا .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حمراء الأسد ، وهي تبعد عن المدينة بنحو ثمانية أميال ، وأقام على المدينة ابن أم مكتوم ، وقد لقيه بعض بني خزاعة ، وكانوا يميلون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمهم وكافرهم فقال قائلهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟! يا محمد انا والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولو درينا أن الله تعالى عافاك فيهم ، وقائل هذا القول هو معبد بن أبي معبد الخزاعي .

---

(١) آل عمران

ذهب من ذلك معبد الى الروحاء وفيها أبو سفيان بن حرب ، وقيل انهم كانوا أجمعوا الرجعة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن من غير اقدام ، بل على خوف ، ووجل ، ولذلك جبنوا لما علموا بخروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للقائهم .

سأل أبو سفيان معبداً قائلا ما وراءك يا معبد .

قال معبد : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويلك ما تقول ؟ والله ما أراك ترتحل ، حتى ترى نواصي الخيل ، ووالله لقد اجتمعنا للكرة عليهم ، حتى تستأصل شأفتهم .

قال سعيد ، فانى أنهاك عن ذلك .

نهنه من عزمتهم ، وقلل من شوكتهم ، كلام معبد ، وقد كانوا على وجل من اللقاء ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم من اللحوق بهم ، فكلفوا بعض عبد القيس بأن يفزعوا النبي كما فزعوا هم فركب عبد القيس ولحق بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بحراء الأسد ، فأخبره بأن أبا سفيان قد أجمع على السير اليه ليستاصل بقيتهم .

فلم يفزع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما فزع هو بل قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قال البخاري : انه نزل في هذا قوله تعالى :

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (١)

وأخيراً ارتد المشركون على أعقابهم خاسئين ، ورضوا بما لقوا .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتبعهم ، فهل كان المسلمون بعد ذلك في واقعة أحد مهزومين ؟ لقد أصابهم قرح والجروح تصيب المقاتلين ولا تعد في قانون الحرب هزيمة ، انما الهزيمة أن يولوا الأدبار ويفروا فراراً .

---

(١) ال عمران

٤٤٢ ـ ان القائد الذي يسير وراء الجيش ، ويقدم روحه بين يديه ،ويقدم معه على مواقع الردى غير هياب ولا وجل ، هو القائد الرحيم الذي يحمي الجند من ورائه بأن يحنو عليهم كما يحنو الأب على أبنائه ، فاذا قدمهم للاستشهاد فلمقصد أسمى ، يقدم نفسه فيه أمامهم •

وليس القائد المظفر هو الذي يقدم جيشه الى الميدان ، كما يقدم أدوات الحرب ، ومعدات القتال ، من غير قلب يرحم ، وينسى أن الجيوش قلوب تقدم، وأرواح تتقدم فداء للمعنى الانساني العالي الذي تقاتل من أجله ، وتخوض له مشتجر السيوف ، وتلقى بالحتوف نصراً له ، وتأييداً لكلمة الحق ، ان هذا النوع من القواد الجامدين الذين يحسبون الحرب تخطيطا وليست رحمة ، أو تلابسها رحمة لا ينتصر ، وان انتصر مرة ، لا يعاوده النصر مرة أخرى ، لأنه لا يجد جنداً ينصرونه ، ولقد رأينا من يحسبون أنفسهم قواد الحرب من يرى صرعى جيشه في الصحراء ، ولحومهم تنهشها ذئابها ، ويقول غير حزين : هكذا الحرب ، ولذلك توالت هزائمه •

ولقد كان بونابرت قائداً مظفراً حتى عاد الى فرنسا ، وترك جنده في روسيا يأكلهم الثلج ، وقد أذاقهم لباس الجوع ، فكان ذلك مفتاح هزيمته ، وما انتصر من بعد ذلك انتصارا حاسما •

وان محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم كان المثل السامي لرحمة القائد بجنده، كانهم قطع من نفسه ، ولقد زكى الله سبحانه وتعالى هذه الرحمة المحمدية النبوية ، فقال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

(١) آل عمران

وقد بدت رحمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجنده في أحد ، وعقب الجروح التي أصابت الجيش الاسلامي ،فما وجه لوما لأحد ، وما جال بخاطره أن يحاكم المقاتلين لأخطاء وقعت ، بل كل همه في الميدان أن يسترد الموقف لأصحابه ، وأن يقفوا ، ولا يخروا صرعى أمام أعدائهم ، بل ارتقى بهم الى الهضبة وأعطى الراية من يحملها بحقها ، وناضل ، وقاوم ، حتى أيئس المشركين من أن يستأصلوا المؤمنين ،بل خافوا منهم ، وأنهوا القتال وان لم يكونوا مدحورين، خشية أن يندحروا ،اذ رأوا جند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد اشتد بأسهم في القتال مع هذه الجراح التي جرحوها ٠

وعفا عنهم ، ليستبقي نخوتهم ، وبأسهم لما ياتي ، وان لم يكن ما وقع لا يسر ، بل كان يضر ، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بالعفو ، بل استغفر لهم بأمر ربه ٠

ولعل شوراهم هي التي جعلتهم ، يواجهون المشركين ، وقد كانوا بمنجاة عن ذلك ، لو أخذوا برأي الرسول ، ولكن الشورى لم تكن سبب الجراح ، انما عصيان القائد ، والخروج عما رسم من نظام كان هو السبب المباشر ،ولذلك أمره الله سبحانه وتعالى أن يستمر في الشورى فخطأ الشورى دائما الى صواب، لأنه يقوي ارادة الأمة ، وصواب الاستبداد دائما الى خطأ ، لأنه يضعف ارادة الأمة ، وضعف الارادة يضعف العزيمة ويفسد النفس ، وذلك في ذاته خطأ ٠

ولقد أخذت الرحمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشهداء من الصحابة ، فأمر بأن يدفنوا بدل أن يرسلوا الى أهليهم ، ومن أخذه أهله رده الى الموطن الذي استشهد فيه ،وذلك لكيلا تتبعثر أبدانهم الطاهرة ، ولكيلا تثير رؤية ذويهم ألما وحزنا ، ولكيلا يتصايح أهلوهم بالندب والنواح . فكانت رحمة الله تعالى بهم أن يدفنوا حيث هم ، ليعرف الناس فضلهم ، ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد يزور مصارعهم ، وسلك ذلك أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، رضي الله تعالى عنهم جميعا ، وعلي كان يكرم ذرية أهل بدر وأهل أحد ، فيزيد في الصلاة عليهم تكبيرات في صلاة جنازتهم ٠

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدفن الشهداء ، ويجمع في القبر أكثر من واحد ، ويختار من كانوا ذوي صحبة بينهم ، فيدفنهم في قبر واحد ، وكان يقدم في الدفن الأقرأ فالأقرأ ، وكلهم شهداء ذوو فضل عظيم ومقام كريم في الاسلام .

وقد كان عليه الصلاة والسلام لايمنع أن يبكي أهل الشهيد من بكاء عليه حزنا ، وان كان قد فاز بالشهادة ،وكان يقول عليه الصلاة والسلام : « البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان ».

وكان يبكي بكاء شديدا على عمه حمزة أسد الله تعالى ، حتى انه رأى نساء الأنصار يبكين قتلاهم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم حزينا باكيا ، وحمزة « لا بواكي لحمزة » .

ومن رحمته عليه الصلاة والسلام بأهل الميت أنه منع السيدة العظيمة عمته صفية من أن ترى أخاها حمزة مقتولا ،وقد عبث العابثات من نساء المشركين بجثمانه الطاهر ، ومثلوا به .

قال ابن اسحاق : قد أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر اليه (حمزة) وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للزبير الحقها فارجعها ، لا ترى ما بأخيها ،فقال لها الزبير ، ارجعي يا أمه ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمرك أن ترجعي ، قالت ، ولم وقد بلغني أنه قد مثل بأخي ، وذلك من الله فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ، ولأصبرن ان شاء الله ، فلما جاء الزبير الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبره بذلك قال خل سبيلها ، فأتته فنظرت اليه واسترجعت واستغفرت .

ولقد دفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمه سيد الشهداء حمزة مع ابن اخته عبد الله بن جحش ، وقد مثل به ، كما مثل بخاله حمزة .

وهكذا كان النبي القائد الرحيم يعيش بعد الجراح مع الأسر المجروحة يواسيها ، ولكنها مواساة النبوة ، والحقيقة ، أن قتلاهم شهداء ، وأنهم أحياء يرزقون ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1]

(١) آل عمران

وأنهم قد نالوا خير الحسنيين ،وأنهم يتمنون لو يعودون ليقتلوا في سبيل الله شهداء كما قتلوا ، ولكن كتب الله أن الذين يموتون لا يرجعون ، ولكن يبعثون في يوم الميقات المعلوم ٠

العدد والحساب بين بدر وأحد :

٤٤٣ ـ وقف أبو سفيان بن حرب الذي كان قائد الشرك مفاخراً قائلا « يوم بيوم بدر ، والحرب سجال » زاعماً أنهما يومان متقابلان تساويا في الخسارة ، فخسارة المسلمين يوم أحد كخسارة المشركين يوم بدر ، فهل هما متساويان ٠

العدد والحساب فيهما الحكم والاجابة ، لقد كان القتلى من المشركين في بدر سبعين ، والأسرى مثلهم وفروا يومها منهزمين مدحورين ، والسيوف الاسلامية تعمل في أقفيتهم فهل كانت هذه حال المسلمين ٠ كان القتلى من المسلمين في أحد سبعين ، أربعة من المهاجرين ، وأكثر من خمسة وستين من الأنصار ، ولم يكن من المسلمين أسير قط ، وكان القتلى من المشركين في غزوة أحد اثنين وعشرين ، وأسير هو أبو عزة الجمحي الذي أسر يوم بدر ، وخان العهد الذي أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الا يظاهر عليه ، فظاهر على المسلمين وجاء مقاتلا ، فأسر ، وطلب أن يَمُنَّ عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لفقره ، ولبناته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم الذي يجازي الاحسان بالاحسان ، والاساءة بعقابها ٠ قال له:(لا أدعك تمسح عارضيك ، وتقول خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) وأمر به فقتل ٠

ولم يكن من المؤمنين أسير ، ولم يفروا ولم ينهزموا مدحورين ، ولم تعمل السيوف في أقفيتهم اذ لم يولوا مدبرين ، واذ كان قد أحيط بهم في الدورة الثانية من أدوار القتال ، فقد شقوا طريقهم وارتفعوا عليهم ، واختاروا لأنفسهم المكان الملائم ، وأخذوا يسلبون نتائج المعركة من أيديهم حتى حسبوها ستفلت من أيديهم ، بهذا القتال ،وتتبعهم المسلمون في اليوم التالي ،وان كانوا مجروحين لم ينهزموا لأنهم يقاتلون في سبيل الله ، فهم ليسوا مع المؤمنين على سواء ، ونتيجة الحساب بالمعادلة تنتج أن عند المسلمين زيادة في الغلب ٠

وان الجروح التي أصابت جيش الاسلام لا تعد هزيمة • وكما قال صديقنا القائد العظيم اللواء ركن محمود شيث خطاب ، ان فقـــد عشرة في المائة من الجيش مع بقائهم ثابتين ، ومع أنهـــم شقوا الطريق الى النصر ، لا يعد هزيمة بحال من الأحوال •

انما هو جرح ، كما قال الله تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (١)

فما كانت المداولة بين الناس هنا في الانتصـــار والانهـزام ، بل كان في القرح الذي مسهم مثله ،فكانت الهزيمة لهم ابتداء ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بالمسلمين هزيمة مثلها ، بـل فروا في النتيجة فراراً •

العبرة فيما أصاب المسلمين :

٤٤٤ ـ ولكن مع ذلك دروس ففي أحد عبر وأغـــلاط ، هي التي جعلت المسلمين يمسهم قرح ، كما مس المشركين قرح أولا ـ وقرحهم أشـد ، لأنه صحبته هزيمة •

وان الجرح الذي أصـــاب المسلمين له أسباب :

أولها : أن جيش المسلمين كان فيه من يطلب الغنيمـــة ، لأنه حسب أن النصر مفروغ منه بالقياس على ما كان في بدر ، وقد ظهرت نيات هؤلاء قبل المعركة ، اذ همت طائفتان أن تفشـلا والله وليهما ، وظهرت في أثناء المعركة، فقال تعالى :

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢)

(١) آل عمران (٢) آل عمران

والذين يريدون الدنيا سارعوا الى الغنائم ، وعصوا أمر الرسول ٠

وظهر الذين يريدون الدنيا بعد المعركة ، فقد أهمتهم أنفسهم ، وندموا على الخروج لأنهم لم يصيبوا مالا وأصابتهم جراح ، ولم يعرفوا أن شأن القتال اتباع مناهجه فان خرجوا عنها وخالفوا أمر القائد ، ينلهم الثبور ، وانهم ان أطاعوا ، وسلكوا المنهج المستقيم نصرهم الله تعالى بتوفيقه ٠

ولقد كان هؤلاء يثيرون التردد في الجهاد في قلوب أهل الايمان ، وقال الله تعالى فيهم :

﴿أَوَلَمَّا أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ (١)

وثانيها : ان بعض الجيش الاسلامي بتأثير الذين يريدون الدنيا قد شغلوا بالغنائم ، ولم يطاردوا المشركين بعد أن اضطربت صفوفهم بضربات المؤمنين الصادقين أولي البأس من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يتبعوا المشركين حتى يثخنوهم ، ويعجزوهم عن أن يحيطوا بهم ، ويضربوا فيهم ٠

وثالثها : عصيان القائد ، وذلك من الذين يريدون الدنيا ، وقد عارضهم الذين يريدون الآخرة ، ولكن الأولين كشفوا ظهر المسلمين ٠

ولقد كانت نتيجة هذه الجراح عبرة ولم تكن هزيمة ، وهي أن الله تعالى محص الذين آمنوا بالله وطلبوا الآخرة من الذين يريدون الدنيا ، ولا يفكرون فيما عند الله تعالى في الآخرة ٠

---

(١) آل عمران

فانه في الوقت الذي كان يجري هؤلاء وراء الغنائم التي كانت وبالا ـ كان المخلصون الذين يريدون الآخرة قد أحاطوا بالرسول يتلقون عنه ضربات السيوف وينضحون النبل ، ويرمون ، ويأتمرون بأمر القائد الأعظم بأمر الرسول وقد باعوا أنفسهم لله تعالى يقاتلون ، فيقتلون ويقتلون ، حتى شقوا الطريق ، وعلوا الى الهضبة، وأخذوا يكيلون الضربات ، حتى أيئسوهم من نصر، وأن يلحقوا بالمسلمين هزيمة، ولقد قال تعالى وقد تبين المجاهدون الذين أشرنا اليهم ، والذين استردوا الموقف ، بعد أن خرج بعمل الذين يريدون الحياة الدنيا ٠

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (١)

وقد تبين المجاهدون الصابرون ، وكان منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، وان غزوة أحد مهما تكن نتيجتها قرر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انها جرح أصيب به المسلمون من الشرك ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يصيب المشركون منا مثلها ، حتى يفتح الله علينا » ٠

دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد :

٤٤٥ ـ رأينا أن نتيمن بذكر دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في أعقاب المعركة في شدتها على أهل الايمان ، روى الامام أحمد رضي الله تعالى عنه في سنده ، بالسند المتصل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « استووا حتى أثني على ربي عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفا ، فقال اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم اني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم اني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف اللهم اني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ،

(١) آل عمران

وشر ما منعتنا ، اللهـــم حبب الينــاالايمان ، وزينه في قلوبنا ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصـــالحين غـــيرخزايا ،ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصـــدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب،انه الحق ٠

هذا الدعاء الذي رواه الامام أحمد، وقد رواه النسائي أيضا في سننه ٠

وهكذا دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه الذين يريدون الحق متجهين الى الله تعالى لا يرضون الا رضاه في جهادهـــم ، واستشهـادهم ورغبتهم فيما عنده ، وخرج بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واتجاههم الى الله تعـالى ، واستووا وراءه صفوفا حامدين شاكرين ، غير ناكصين ، زادتهم المحنة ايمانا وتسليما ، واذعانا وتفويضا ، فما ارتابوا ، بل ازدادوا ايمانا ويقيناً ، رغبة في حمية دينية ، وقـــوة ربانية ، وما ضعفوا ولا استكانوا ٠

وبذلك كان التمحيص بهذه الشدة، فنفت الأخباث ، وبقي الجـــوهر ، وصقل ٠

وبينما المؤمنون يدعون مع النبي ذلك الدعاء كان الذين أهمتهم أنفسهـم يظنـــون بالله غير الحق ظن الجاهلية ،« يقولون هل لنا من الأمر من شيء ٠٠ يقولون لو كان لنا من الأمـــر شيء ما قتلنا ههنا » ٠

ويقـــول لهم المنافقون الذين رأوا ضعفهم ، وضعضعة نفوسهم ٠

﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (١)

أعقـاب أحد وكشف المنـافقين :

٤٤٦ ـ بينا أن الجيش الاسلامي لم يهزم في أحد ، ولم ندع أنه انتصر ، لأنهم خرجوا من القتال ، ولم يمكنـــوا المسلمـــين من أن يضربوهـم الضربة القاصمة ، بل انهم خرجوا راضين بالجراح في شبه اختلاس لا لقاء ، ولما ركبوا

(١) آل عمران

ابلهم تأكد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم عائدون ، فعاد الى المدينة ، حتى يداوي الجيش جروحه ، ثم خرج اليهم في حمراء الأسد ، عساه يدركهم لينال جيش الايمان منهم •

ولكن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نصره الله تعالى في أحد فقد أثر عنه أنه قال : ما نصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في موطن نصره في يوم أحد ، فأنكر عليه ذلك ، فقال بيني وبينكم كتاب الله تعالى ، ان الله تعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (١)

والحس القتل ، ولقد كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة •

واذا قتل أصحاب اللواء كان دليلا على عظم كفة المسلمين ، فان الكفة راجحة ، وكفتهم غير راجحة ، فقد قتل كل حملة لوائهم ، حتى رفعته امرأة •

أما المؤمنون ، فكان لواؤهم مع مصعب بن عمير ، وأخذ يقاتل منافحاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتل ، واستطاع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشق الى الهضبة ويحمل اللواء علي بن أبي طالب ، فانحسروا دون لواء المسلمين ، ولم ينالوا خيراً •

ومع أن المسلمين لم يهزموا ، وجيش الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسقط لواؤه ، قد تشايع بين اليهود والمنافقين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هزم جيشه ، وسموا الجراح التي أصابت المسلمين هزيمة ، وانتهزوها فرصة لاظهار الشماتة والتهكم ، حتى قال قائلهم لو كان نبياً ما هزم ، وأخذوا يعيرون اخوانهم أو من ليسوا لهم اخوانا ، بأنهم لو كانوا معهم ما قتلوا وما أصيبوا ؟

---

(١) آل عمران

ولقد بلغ بهم التهكم أن كبير المنافقين عبد الله بن أبي صارح بالتهكم ، ووقف كعادته يظهر أنه يؤيد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو في قوله يسخر ، كما كان يسخر من قبل ٠

قال ابن اسحاق في سيرته بسنده « كان عبد الله بن أبي له مقام يقومه كل جمعة ، لا ينكر له شرف في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يخطب قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهركم ، أكرمكم الله تعالى به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له ، وأطيعوا ثم يجلس » ٠

وما كان ذلك منه الا نفاقا ، اذ كان يستتر كفره بهذه الكلمات ، ويبث الكفر والنفاق والتردد في نفوس المؤمنين ٠

وقد رآه المؤمنون يبث روح التردد والهزيمة في جيش الايمان ، ثم ينسحب ليفت في العضد ، ويبث روح التردد ، حتى همت طائفتان أن تفشلا ٠

ولكنه كان دائباً على اظهار مالا يخفيه ، فقد وقف كذلك ، والجيش الاسلامي قد عاد جريحاً ، ولم يكن مهزوماً ، وقد وقف كما كان يقف كل جمعة ، فأدرك المؤمنون تهكمه ، وأخذوه بثيابه ، وقالوا اجلس أي عدو الله والله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ٠

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : « والله لكأنما قلت هجرا أن قمت أشدد أمره ٠٠ فوثب الي رجال يجبذونني ٠

قال له رجال من الأنصار ارجع يستغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم قال : والله ما أبغي أن يستغفر لي انه يقول يريد الشماتة ، وكما قال الله تعالى فيه وفي أصحابه ، ومرضى القلوب :

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ (١)

---

(١) محمد

أصابت المنافقين فرحة شديدة ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وكما قال تعالى :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

هذا ما كان من أهل النفاق .

اليهود :

٤٤٧ ـ كانت فرحة اليهود شديدة ، وأوجدت فيهم طمعاً ، انهم موتورون من المسلمين بما كان لبني قينقاع جزاء ما اقترفوا ، وكانوا يتوقعون أن ينزل بهم ما نزل بهم ، فلما كانت أحد طمعوا بدل أن يستمر خوفهم ، وظنوها فرصة سنحت ، وكانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر .

ولا شك أن فرحتهم كانت عظيمة ، وخصوصا أنه كان منهم من قاتل مع المشركين ، وهو أبو عمار الراهب ، وحسب أن مجيئه يخذل أهل يثرب عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولقد بدت البغضاء من أقوالهم ، وأفعالهم ، حتى ليهمون أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم غيلة بأن يرموا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم حجرا من سطح بعض بيوتهم ، ومعه أصحابه أبو بكر وعمر ، وعلي ، رضي الله تعالى عنهم جميعا ، ولكن الله تعالى نجاه منهم .

وقد كان المسلمون يظنون بهم الظنون لفرط ما كان من عداوتهم سرا وجهرا ، وظاهرا وباطنا .

ويجب أن نقول هنا ما قاله الله تعالى فيهم :

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (٢)

(١) آل عمران (٢) آل عمران

وان أولئك هم الذين أسلموا من اليهود عند حضور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة كعبد الله بن سلام ، وفريقه الذين آمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فله جزاء ـ الحسنيان ·

ومعهم عدد قليل أسلموا مخلصين في شدة أحد ، ويذكر التاريخ منهم مخيرق ، قال فيه ابن اسحاق كان ممن قتل يوم أحد ، مخيرق ، وكان أحد بني ثعلبة ، فلما كان يوم أحد قال : يامعشر يهود ، والله لقد علمتم أن قصد محمد عليكم لحق ، قالوا ان اليوم يوم السبت، قال : لا سبت لكم · فأخذ سيفه وعدته،وقال ان أصبت فمالي الى محمدصلى الله تعالى عليه وسلم يصنع به ما شاء ثم غدا فقاتل مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى قتل ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مخيرق خير يهود ·

وقد روى السهيلي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل أموال مخيرق وكانت سبع حوائط أي حدائق ـ أوقافا في المدينة ·

ويظهر أنها كانت اول أوقاف سنها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي حجة للذين أجازوا الأحباس ولم يمنعوها ، فهي عمل نبوي ثابت الى يوم القيامة ·

ولقد دخل بعض أهل يثرب ممن لم يكونوا دخلوا في الاسلام حرب أحد ، فأسلموا وقتها ، ومن هؤلاء أصيرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش ·

أخذته الحمية عندما جاءت قريش ،ومعها الأحابيش وغيرهم يغيرون على المدينة في أحد ، فخرج مع المحاربين وقد دخل الايمان قلبه ، وكان من قبل يأبى الاسلام على نفسه ويستنكره من قومه ، فلما كان يوم أحد حمل سيفه ، ودخل في عرض الناس ، فقاتل ، حتى أثبتته الجراح ، وبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة اذا هم به ، فقالوا ان هذا للأصيرم ، وما جاء به ولقد تركناه وانه لمنكر ،فسألوه فقالوا ما جاء بك يا عمرو أحدب على قومك أم رغبة في الاسلام ،فقال رغبة في الاسلام ، آمنت بالله ورسوله وأسلمت ، ثم أخذت سيفي ،وغزوت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقاتلت حتى أصابني ما أصابني ، فلم يلبث أن مات ·

وقد أسلم وهو داخل للمعركة ، وآمن بالله ورسوله ، ولم يكن وقت بين اسلامه وتقدمه ومقتله للصلاة ، وقدشهد له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة .

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط فسألوه من هو فقال أصيرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت .

هذه أمور أحاطت أحداً ، وأعقبتها في داخل المدينة ، وما حولها ، أما آثرها في بلاد العرب ، والقبائل المصاقبة في المدينة ، وما تحمله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون في أعقابها ،فنتركه الى الكلام في سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وغزواته من بعدها .

الأحكام المستفادة
من النبي صلى الله عليه وسلم

٤٤٨ ـ كانت غزوة بدر الكبرى ايذانا بشرعية القتال دفاعا عن النفس، ودفعاً للاعتداء ، وحماية للدعوة ، كماصرح بذلك القرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الحج (٢) البقرة (٣) البقرة

وقوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وهكذا نزلت آيات كثيرة في اباحة القتال ، بل وجوبه دفعا للفساد ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

كان هذا لمناسبة أول قتال ، أما في أحد ، فقد شرعت أحكام تفصيلية في الجهاد من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من تكوينه لجيشه ، ومن استقباله لعدوه :

١ ـ ومن هذه الأحكام التي ثبتت في هذه الغزوة أنه لا يخرج الى الجهاد من لم يبلغ الخامسة عشرة الا اذا كان قوي الجسم ، كقوة الشبان البالغين ، أو كانت له مهارة فنية في الحروب ، كالرمي بالنبل ، فقد أجاز اثنين ممن دون الخامسة عشرة بقليل لمهارة أحدهما في الرمي ، ولقوة الثاني في المصارعة .

وقد أجاز صلى الله تعالى عليه وسلم خروج النساء في الغزو ، يسقين الغزاة ، ويداوين الجرحى ، والقتال ان تعين القتال عليهن ، كتلك التي كانت تناضل مع المناضلين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أحاط به المشركون يحاولون قتله ، فردهم الله تعالى بغيظهم لم ينالوا منه عليه الصلاة والسلام شيئا .

ولذلك أجاز الفقهاء خروج المرأة مع الجيش مداوية ومقاتلة ، وقال بعضهم لا يحل لها ركوب الخيل الا أن تكون محاربة .

٢ ـ ومنها أنه اذا أخذت الأهبة للجهاد لا يجوز أن يترددوا ، فان

(١) البقرة (٢) البقرة

التردد يلقي بالخذلان في النفوس ، والاختـــلاف والتدابر ، ولذلك لما لبس النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم لأمةالحرب ، وغير المجاهدون رأيهم ، قـال صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان لنبي لبس لأمة الحرب أن يخلعها ، وكـذلك الأمر في كل أمـر ينتهي بالشـــورى لا يصح أن يكون موضع تردد حسمـا للأمور وفضا للنزاع •

٣ ـ ومنها أنه يجوز للمجاهدين مجتمعين أن يأخذوا طريقهم ، ولو في أرض مملوكة ملكا خاصا ، كما اجتاز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه بعض الحدائق ، ولم يلتفت الى اعتراض المعترضين ، لأن الملك الخاص له حق الصيانة ، الا اذا ترتب على الحقوق الخاصة ضرر عام ، فاذا لم يكن للجيش طريق الا الملك الخاص ، لم يمنـع من سلوكه مهما يكن اعتراض صـاحبه ، ولذلك لم يلتفت النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم الى اعتراض الأعمى صاحب الحـديقة ، وقـال انه أعمى البصر والبصيرة •

٤ ـ ومنها جواز أن يتمنى المجـاهد في سبيل الله الشهادة من غير مواناة ولا استسلام بل في حزم وعزة وقـوة وتمني الموت منهي عنه في غير هذا المقام كما قال عبد الله بن جحش عندما تقدم للجهاد « اللهم لقني من المشركين رجلا عظيما كفره ، شديداً حرده ، فأقاتله ، فيقتلني ويسلبني ثم يجدع أنفي وأذني لقيتك فقلت يا عبـد الله بن جحش ، فيم جدعت !! قلت فيك يا رب » •

ويظهر أن ذلك الدعاء بعد أن رأى المشركين يمثلون بالقتلى •

٥ ـ ومنهـا أن المسلم اذا قتل نفسه أثم ، ودخل النار ، ولو كان ذلك من جراح شديدة ، وذلك أن مسلمـا اسمه قزمان أبلى يوم أحد بلاء شديداً حتى أثخن بالجـراح ، فلما اشتدت به نحر نفسه ، فأثمه النبي صلى الله تعالى عليـه وسـلم ، لأنه يئس من روح الله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

٦ ـ ومنها أن السنة في الشهداء ألا يغسلوا ولا يكفنوا في غير ثيابهـم التي كانوا يجاهدون بها ، بل يدفن فيه بدمه وكلومه الا أن يسلبهـا فيكفن في غيرها •

---

(١) يوسف

٧ ـ ومنها أن السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم ، ولا ينقلوا الى مكان آخر ، وذلك لتكون زيارة قبورهم فيها عبرتان : عبرة الاستشهاد والجهاد ، وعبرة رؤية المكان الذي صارعوا فيه وجاهدوا حتى نالوا أعلى الحسنيين ٠

ولقد حصل في أحد أن بعض الصحابة نقلوا قتلاهم الى المدينة ، فنادى منادي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برد القتلى الى مصارعهم ، قال جابر بن عبد الله بينما أنا في النظارة، اذ جاءت عمتي بأبي وخالي ، كما دللتهما على ناضح فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا ، وجاء رجل ، ينادي : ألا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمركم أن ترجعوا القتلى فتدفنوهم في مصارعهم حيث قتلت فرجعنا بهما ، حيث دفناهما في القتلى حيث قتلا ٠

وبعمل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم صارت السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم ٠

٨ ـ ومنها جواز أن يدفن الرجلان والثلاثة في قبر واحد فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر ، ويقول أيهم أكثر أخذاً في القرآن ؟ فاذا أشاروا الى رجل قدمه في اللحد واذا كان رجلان بينهما محبة في الدنيا دفنهما معاً في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فدفن عبد الله بن عمرو بن حزم، وعمرو بن الجموح في قبر واحد ، لما كان بينهما من المحبة ٠

٩ ـ ولقد حدث عند ما كان الاضطراب في جيش المؤمنين بسبب المفاجأة أن قتل بعض المؤمنين مؤمناً يحسبه كافراً ، فانه لا يذهب دم المقتول هدراً ، بل تكون ديته في بيت المال ، كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فودى الذين قتلوا خطأ من المؤمنين لأنه كان بقيادته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ولي أمر المؤمنين ٠

١٠ ـ ومنها أن ذوي الأعذار يرفع عنهم واجب الجهاد ، ولكنهم ان خرجوا مجاهدين كان لهم ثواب الجهاد ، وان قتلوا كانوا شهداء ، فرخصة التخلف لعذرهم رخصة ترفيه ، لاتسقط الواجب ، ولكن تسوغ التخلف،

كمن يصوم وهو صاحب رخصة كمرض أو سفر ، فان الصـــوم يجزي عنه اذا صام ، وان أفطر فعدة من أيام أخر ٠

وقد خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج ، وليس على الأعرج حرج ، فـلم يمنعه النبي من أن يجاهد ، فجاهد حتى استشهد ، وتولى دفنه النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم مع شهيد كان له معــه صحبة ومحبة ٠

١١ ــ ومنها أن العدو اذا طرق الديار لا يجب على المؤمنين أن يخــرجوا لقتاله ، ولا يجب عليهم أن ينتظــروا حتى يدخل عليهم الديار ، بل ينظرون الى ما يكون المصلحة والمكيدة في الحرب، فان كان الأول أشد نكاية اتبــع وان كان الآخر التزم كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

١٢ ــ ومنها وجوب الشــورى ،كما استشار النبي صلى الله تعالى عليــه وسلم جند المؤمنين ، ليدخـــل الجنــد مطمئنين ، آمنين راضين ، غـير مرهقين في نفوسهم ، ولا في تفكيرهم ، فيكــون ذلك أرجى للنصر ٠

١٣ ــ ومنها ألا يصلى على الشهيد، فانه ثبت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصل على شهـــداء أحد ، ولم يصل على شهيد مات في المعـــركة في أي غزوة من الغزوات ، لأن شهـــادته تغنيه عن دعاء الأحياء ، وصلاة الجنازة دعاء وتضرع واستغفار ٠

١٤ ــ وقد قال ابن القيم انه يجوز للمجروح أن يصلي قاعداً ، ولو كان اماما ، ويقول في ذلك ان الامام اذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدا ، وصلوا وراءه قعوداً ، كما فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الغـــزوة واستمرت على ذلك سنته الى حين وفاته٠

ولكن هل يجوز أن يصلي المأموم واقفاً وراء الامام الذي يصلي قاعــداً ! ان ذلك موضع خلاف بين الفقهاء ،ليس هذا موضعه ٠

هذه الأمور التي ذكرناها كلها كانت من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الغزوة ، وما يعمله يكـــون بيانا لحكم شرعي يتبع ، ولا شك أن بعض هذه الأحكام تدخل تحت أنواع ثلاثة من الأحكام التكليفية ، فمنها ما يدخل تحت حكم الجواز ، والمصلحة ترجحه أو توجبه ، كما رأينا في خروج النساء في الحرب والجهاد ، فانه جائز أو مباح ،وقد يكون مستحباً اذا كان في الرجال

كفاية وفي النساء عون ، وقد يكــون واجباً اذا كان الجرحى يحتاجون الى عدد كبير من المداوين ٠

وكما رأينا في الذي خـرج وعنده عذر فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أجازه ، فانه يكتفي بالجواز ، ابتداء ،ولكن ان كان ذا بأس وشدة مع عذره ، فان الأولى الخروج مع رخصة القعود ٠

وهو في الحالين شهيد ان استشهد ،له جزاء الشهداء ، ومجاهد ان نجا ، له جزاء المجاهدين ٠٠ والله أعلم ٠

صدى أحد

وسرايا النبي صلى الله عليه وسلم

٤٤٩ ـ تسايرت الركبان بموقعة أحد ، وقريش تدعي أنها هزمت محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتنشد بذلك شعراً والشعر في البلاد العــربية كان أداة النشر ، وطريق الاعلام ، فان حدثا يذكر في قصيدة جدير بأن تعلم به القبائل العربية في قاصيها ودانيها ،ولماكانت النفوس مستشرقة لأن تعرف ما بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش الذين أخرجوه من مكة ، أو خرج بأمر ربه ، وصارت بينه وبينهم مغالبة شديدة هم يغالبون بجاهليتهم وغطرستهم ، وهو يجاهد بالحق يدفع به الباطل ٠

وقد رأوا الحق يدفع الباطل يوم الفرقان ، وذاع في البقاع أمر الهزيمة التي فروا فيها فراراً ، فذلت أنوفهــم أو كادت ، وزلزلت هيبتهم ، وقد كانوا شرف العرب ومحتدهم ٠

فكان لابد أن يشيعوا أنهم أخذوا ثاراتهم ، ونالوا مأربهـــم ليستردوا هيبتهم ، ويستعيدوا شرفهم الذي مزق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رايته ٠

اذا كانت بدر قد هزت مكانة قريش في العرب ، وحركت عليهم من كانوا ينفسون عليهم مكانتهم ، فكان لابد أن يشيعوا ما زعموه هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في أحد ، وأن يملأوا بها الأجواء ، وأن يرددوها في كـــل

مكان ، وقد صارت المعركة بين مكة والطائف وما حولهما ، ومدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

تحركوا لمناوأة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ، طمعت قبائل في المسلمين بعد أن كبتهم الله ببدر ، وتحركت عوامل محرضة على أهل الايمان مجرئة عليهم ، ونشر الأخبار عما زعموه هزيمة يؤلب على المؤمنين ، ويثير الأضغان من عبدة الأوثان عليهم ، فكثر الغدر والخيانة من قبائل العرب ، وكثرت مداهنة قريش ٠

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يصابرون ويجاهدون ٠

وبمقدار ما كانت قريش تزدهي،كان يعتريها أمران :

احدهما ــ أنهم لم يشتفوا من أعدائهم رجال الايمان ، فما زال من أعملوا سيوفهم في رقاب المشركين في بدر صناديد المؤمنين أحياء وسيوفهم مشهورة ينتظرون الأمر لتضرب ، فاذا كانوا قد نالوا من حمزة ، فأمامهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وأمامهم وزيرا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وأمامهم نور الله ورسوله يسطع فتعشى أبصارهم ٠

ثانيهما ــ أنهم يتوجسون خيفة من جولة لأهل الايمان تجتالهم ، وخصوصا أنهم يتربصون بهم حتى يؤمنوا ، فماداموا على شركهم ، واعتدائهم فسيوف الحق من ورائهم ٠

لذلك كانوا يتبعون أخبار المؤمنين ،ويعملون على تحريض القبائل على أهل المدينة ، ويعطون العطايا لمن يأتونهم برجل من أهل الايمان أو رجال ، ويشترون منهم من يتمكنون منهم من رجال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفرا ونفاقا يسايرونهم، ويتمنون الأماني منهم ، وانك لتراهم يعملون الغدر والخيانة لينالوا مآربهم٠

ولذلك ترى سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينالونها بالغدر والخيانة عن طريق أولئك الأعراب ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم

يحترس ويعلم خبايا الأمور ، ويتعرف الأخبار ، ويحاول أن يقعد لهم في كل مرصد .

ويرسل السرايا التي سماها صديقنا اللواء شيت خطاب دوريات ، تتعرف ما في البلاد والقبائل ، ومنها من يعود بالغنائم ، ومنها من يترصده الأعراب ليقدموه قربانا للمشركين ، ومنهم من يظهر الميل الى الاسلام فيبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يهديهم ، فاذا بهم يخونون ويغدرون ، فيقتلونهم قربا للمشركين أو يبيعونهم لهم ليأخذوا منهم تراثهم .

سَرِيّة لبَني أسَد :

٤٥٠ – جمع طليحة الأسدي وأخوه سلمة ابنا خويلد عدداً كبيراً من بني أسد ليقصدوا حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن ينالوا عند زعماء مكة منالا ، وقد ظنوا أن المدينة أصبحت ترام منهم ، وممن على شاكلتهم بعد أن أشاعت قريشا خبر هزيمة مزعومة .

فعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما تمالؤا عليه ، وما أرادوا ، وما كان ليتركهم حتى ينفذوا مما يريدون ، وان كان فوق طاقتهم .

فأرسل أبا سلمة في خمسين ومائة من المهاجرين والأنصار وأوصاه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا .

سار حتى وصل الى قطن وهو ماء لبني أسد .

ويظهر أنهم مع ما كانوا قد أزمعوه من حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فوجئوا ، فأذهلتهم المفاجاة ، فتفرقوا مذعورين ، وتركوا نعما كثيرة لهم من الابل والغنم .

غنم ذلك كله أبو سلمة ، وأسر منهم ثلاثة مماليك ، وقفل راجعا الى المدينة ومعه هذه الغنائم ، وقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خمس الغنائم ، وكان فيها عبد ، وقد وزع خمسه وقسم أبو سلمة خمسه بين أصحابه ، كما

شرع الله تعالى في الغنيمة ، فقد قال تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

وان أبا سلمة رضي الله تعالى عنه قد أخرجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه السرية في المحرم من السنة الرابعة أي بعد خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة .

ولقد مكث فيها نحو بضع عشرة ليلة ومات بعدها ، لجرح أصابه في أحد، ولقد قال ابنه عمرو « كان الذي جرح أبي أبو أسامة الجشمي ، فمكث شهرا يداويه فبرأ ، فلما برأ بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المحرم (يعني من سنة أربع) فغاب بضع عشرة ليلة ، فلما دخل المدينة انتقض به جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى » .

وهكذا أدى ذلك الشهيد واجبه مرتين احداهما في أحد ، وقد جرح جرحا قاتلا ، وكرمه الله تعالى بأن أرسله في سرية الى بني أسد ، ثم تحرك الجرح فمات شهيدا ، ولكن بين أهله .

ولعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اختاره ليرسله الى بني أسد ، لأنه منهم ، اذ هو أبو سلمة بن عبد الأسد أبي طلحة الأسدي ، فيرسل عليه الصلاة والسلام الرجل المؤمن على رأس المقاتلين من المؤمنين ليقاتل المشركين من قومه ، فتكون الفائدة من ناحيتين احداهما - تأديب المشرك لحمله على الايمان الثانية التأكيد في محو العصبية الجاهلية، واحياء الوحدة الاسلامية .

---

(١) الانفال

يوم الرّجيع

٤٥١ ـ الرجيع مكان على ثمانية أميـــال من عسفان ، وقد قال ابن كثير تابعاً للواقدي غزوة الرجيع ، وما ارتضينا ذلك العنوان ، الا لأنه كان الأمر فيه أمر خيانة ـ وغدر من بعض المشركين بتحريض من قريش ، لينالوا بعض ما بقي من ثأرهم ، وانه لا يزال كثيراًكما ذكرنا ، فأكثر الذين وتروهم من شجعان المسلمـــين لا يزالون يحملون السيف ، ليخوضـــوا بهـا في صفوف المشركين مرة أخرى أو مرات ٠

وقصة الرجيع كما روتهـــا كتب السيرة وصحاح السنة . هي قصة غدر ، ولؤم بتحريض من المشركين :

قدم على رسول الله صلى الله عليـــهوسلم بعد غزوة أحد رهط من عضـــل والقارة ، وهما بطنان من الهون بن خزيمة بن مدركة ٠

قالوا يا رسول الله ان فينا اسلاماً «فابعث معنا نفراً من أصحابك يفهموننا الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلمـــوننا شرائع الاسلام ، فبعث رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم نفراً من أصحابه ، قال ابن اسحـــاق بسنده ان عدتهم ستة ، وقال البخاري بسنده فيصحيحه ان عدتهم عشرة ، وقـــال ابن اسحاق ان الذي أمره الرسول على وفدالايمان والدعوة هو مرثد بن أبي مرثد الغنـــوي الذي كـــان أخاً لحمزة بنعبد المطلب سيد الشهداء في المؤاخـاة التي آخى بها النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بين المهاجرين والأنصار ٠

وفي رواية البخاري أن الذي أمرهعليهم رسول الله صـــلى الله تعالى عليـه وسلم هو عاصم بن ثابت بن الأفلح ،وان رواة الحديث والأخبار يرجحـون رواية البخاري ٠

ويؤيد رواية البخاري الواقدي ٠

انطلق ذلك الوفد المؤمن مغادرا المدينة متجها الى عضل والقارة دعاة هداية، وليسوا محاربين ، وما كانوا يعلمون أن القوم يأتمرون في غدر وخيانة وكذب لم يعرف في أشراف العرب ٠

حتى اذا كان في الرجيع بين عسفانومكة ، وهو بالهذيل غدروا بهم ونادوا

مستصرخين وفوجيء وفد الهداية الى الاسلام برجال بأيديهم السيوف قد غشوهم .

وأرادوا أن يأخذوهم بالغش والخديعة كما استنفروهم بها ، فقالوا لهم انا والله ما نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب شيئاً من أهل مكة ، وربما كانوا صادقين ، وان ذلك من انخداع العرب بما زعمه المشركون من نصر نالوه ، ولقد قالوا في خديعتهم : « لكم علينا عهد وميثاق ألا نقتلكم » .

فترت بذلك عزيمة بعض المؤمنين بعد أن أخذوا سيوفهم ليقاتلوا ، ويموتوا مجاهدين ، ولا يموتوا مستسلمين .

« قال عاصم بن ثابت ، ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن بكير من العشرة الكرام ، أو الستة على اختلاف العدد ، لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبدا » .

وقد كانوا على حق ، لأنهم ابتدؤوا بالغدر والخيانة أو تسليط الغادرين الخائنين ، وعلى فرض أنهم صادقون فيما يعاهدون عليه من أنهم لايقاتلونهم فانهم سيسلمونهم لأهل مكة ليصيبوا منهم شيئاً ، ولا شك أن أهل مكة سينزلون بهم أذى ، القتل أقله .

ولذلك قاتل أولئك الثلاثة ، وقتلوا ، فاختاروا أن يقتلوا مجاهدين من أن يقتلوا مستسلمين ، أما اخوانهم فلم يرتضوا ذلك الموقف الشجاع الذي كانت نهايته شهادة في غير استسلام واستخذاء ، بل في قوة وايمان وجهاد .

استسلم الباقون ظانين أن لهم عهوداً ، وقد ذكر منهم ابن اسحاق ثلاثة وهم : زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدي ، وعبد الله بن طارق .

ولنذكر بعض ما فعلوه بعاصم بن ثابت الذي أصاب من قريش في ميدان القتال ، فقد أصاب في أحد ابني امرأة من قريش فنذرت ان تمكنت منه أن تشرب الخمر في قحفة عاصم ، فلما قتل طلبت رأسه ، وقد قيل ، عندما أرادت ذلك ، نبه رجل أبا سفيان بن حرب كيف يصنع برأس ابن عمه فلم يستخف ولم يلم ، وماذا ينتظر من أبي سفيان زوج هند التي فعلت ما فعلت ، فلم ينكر ، ولكن الله تعالى حمى رأس المؤمن التقي من أن يمسها الأنجاس فحامت حولها الزنابير لتحميها .

ولنتجه من بعد الى الذين رضوا بمواثيق المشركين ، ولم يتنبهوا الى قول الله تعالى :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

لقد أسروهم ، ثم خرجوا بهم الى مكة ليبيعوهم بها،حتى اذا كانوا بالظهران، وهو واد قرب مكة ، استطاع أن يفك أحد الثلاثة عبد الله بن طارق يده من رباطها ، وأخذ سيفه ، فاستأخر عنه القوم ، وباعدوه حينا من لقاء سيفه ، ولكن رموه بالحجارة حتى قتلوه ، فمات غير مستسلم ، وان كان قد وثق بعهدهم الذي عاهدوا عليه ٠

وأما الآخران خبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة فقد باعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة ٠

فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عمار بن نوفل ، وكان خبيب هو الذي قتل أباهم الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً ، يسومونه الخسف والهوان ، ولكنه كان في سعة نفس من ايمانه ،ومهما يرومون من اهانة ، فنفس المؤمن لا تهون ، وكانه وثق بعهدهم ليرى الله تعالى الناس المؤمن اذا خدع ، وصبره اذا أوذي ليرتفع الى درجات المجاهدين بالصبر ، كما هو مجاهد في ميدان القتال،قدموه ليقتلوه صلباً ،فاستأخرهم حتى يصلي ركعتين فصلاهما ، ثم أقبل عليهم مستبشراً يقول للجلادين : أما والله لولا أن تظنوا أني انما طولت جزعاً من الموت ، لاستكثرت من الصلاة٠

ولقد علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بصلاته عند القتل مستشهداً فاقره ، فكانت سنة نبوية باقراره عليه الصلاة والسلام ٠

رفعوه من بعد صلاته الى خشبة الصلب ، فلما أوثقوه قال : اللهم انا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة مايصنع بنا،اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ٠

---

(١) التوبة

وهكذا مات خبيب بطلا في ميدان الجهاد النفسي ، كما مات أصحابه عاصم ومن معه في جهاد مستشهدين ، ولم يلقوا سيوفهم ٠

وهكذا قتلوا خبيباً صلباً وهو يقول صابرا :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق ، كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وفي اليوم الذي صلب فيه خبيب صلب فيه أيضا زيد بن الدثنة ، وكان صابراً راضياً مطمئناً ، في سمة من الايمان ، قال له عند صلبه زعيم الشرك أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وانك في أهلك ، قال والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، واني جالس في أهلي ٠

وعندئذ قال زعيم الطاغوت ٠٠ ما رايت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ثم قتل الشهيد الصابر ٠

وان يوم الرجيع يدل على أمور ثلاثة :

أولها : ما كان من تحريض قريش من غدر وخيانة واستخدام أخس أنواع الخيانة ٠

وثانيها : أن قريشا لم يشتفوا لثاراتهم من بدر ، وأنهم أنهوا الحرب في أحد غير مختارين ، والا لبقوا حتى يأخذوا بكل ثاراتهم ، وانه قد جدت لهم في أحد ثارات أخرى ٠

وثالثها : أن العرب بسبب الدعاية التي قامت بها قريش من اشاعة أن جموع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد هزمت ، قد وجد فيهم من يعمل لحسابها ، ويرجو رضاها ، ولم يكن شيء من ذلك بين بدر وأحد ، ولكنه كان بعد أحد لاشاعة الهزيمة الكاذبة والله أعلم ٠

سرية عمرو بن أمية ويوم بئر معونة :

٤٥٢ ــ هذا يوم آخر بعد يوم الرجيع لاحق به ، ويتجلى فيه الغدر ، كما يتجلى فيه العمل من القبائل لحساب قريش ، ويذهب في هذا اليوم نتيجة الغدر نحو أربعين من المؤمنين لا ستة ولا عشرة ٠

وان هذا الغدر كان يبيت في مكة ،ويدبر أمره في قريش ، وقبل يوم بئر معونة نذكر ما نواه أبو سفيان من غدر بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومحاربته له ·

وهذا الخبر هو كما قال الواقدي :كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة ، ما أحد يغتال محمداً، فانه يمشي في الأسواق ، فيدرك ثأرنا ، ومؤدى هذا أنهم الى الآن لم يدركوا ثأرهم ، وأني يدركونه فأتاه رجل ، وقال له ان أنت وفيتني خرجت له حتى أغتاله ، فاني هاد بالطريق خريت معي خنجر مثل خافية النسر ،قال أبو سفيان أنت صاحبنا وتفقه ، وقال له اطو أمرك ، فاني لا آمن أن يسمع أحد ، فينميه الى محمد ، فقال العربي لا يعلمه أحد ·

سار الرجل خمس ليال حتى وصل الى المدينة فسأل عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجده ، فلما رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أدرك بفراسة المؤمن وباعلام الله أن هذا الرجل يريد غدراً ، قال الرجل أيكم ابن عبد المطلب فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : أنا ابن عبد المطلب ·

ذهب الرجل ينفذ ما دبر مع أبي سفيان ينحني على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأنه يساره ، فتنبه بعض الصحابة،وجذبه أسيد بن حضير، وقال له : تنح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجذب داخل ازاره ، فاذا الخنجر ، فقال يا رسول الله هذا غادر ، فسقط في يد الأعرابي ، وقال دمي ، دمي يا محمد ، وأخذ أسيد بن حضير يلببه ·

قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصدقني ما أنت وما أقدمك ، فان صدقتني نفعك الصدق وان كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به ·

قال الأعرابي فأنا آمن ، قال عليه الصلاة والسلام وأنت آمن ، فأخبره بخبر أبي سفيان ، فوضعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند أسيد بن حضير فلما جاء الغد قال له قد أمنتك ، فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من هذا قال وما هو ؟ قال أن تشهد أن لا اله الا الله،وأني رسول الله ، فشهد الرجل الشهادة·

علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يدبر له في مكة ، وما يريدونه منه ، وقد انتقلوا من الحرب الى الاغتيال وبدا ذلك يوم الرجيع ، ثم تبين أنه يبيت لشخصه الكريم في مكة ·

فارسل سرية لتعرف ما في مكة ،وتفعل مع أبي سفيان ما كان سيفعله بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، « والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » ٠

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري ، وكان فارساً فاتكا من فتاك العرب ، قد آمن وحسن اسلامه ، وسلمة بن أسلم ، ليتعرفا أحوال مكة ، وليصيبا من أبي سفيان ٠

ذهبا الى مكة وصليا وطافا بالبيت ٠

وقد علم أهل مكة بهما ، وكان عمرو كما ذكرنا فاتكا في الجاهلية يخشى بأسه ، فتجمعت الجموع ، لملاقاته ولكنه تركهم ، وقد عرف حالهم وما يدبرون، ولم يتمكن من أحد ، وعاد وصاحبه ،وقد تمكن هو من قتل الذين كانوا يتبعونه فرادى ، فقتل بعضهم ، وأسر بعضهم ، وأتى بمن أسر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد سبقه سلمة بن أسلم ٠

بئر معونة :

٤٥٣ ـ في نفس هذا الشهر وهو صفر في السنة الرابعة من الهجرة وكان من أمر هذه السرية أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة قدم المدينة ، فعرض عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ودعاه اليه ، ويقول ابن اسحاق فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام ، قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ،فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اني أخشى عليهم أهل نجد ٠ قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك ٠

اطمأن النبي الكريم الحريص على تبليغ رسالة ربه ، حيثما وجد موطنا من مواطن التبليغ ، وخصوصا عندما أعلن أبو البراء أنهم في جواره ٠

اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لامرتهم المنذر بن عمرو أخا بني ساعده ، وكانوا كما روى ابن اسحاق أربعين ، وكما روى البخاري سبعين ٠ ولنترك الكلمة للبخاري :

قال : بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين رجلا لحاجة يقال لهم القراء ، فعرض لهم حيان من بني سليم ، رعل وذكوان عند بئر يقال له بئر معونة فقالوا والله ما اياكم أردنا وانما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلوهم ٠

ويقول البخاري بروايته في أوصافهم وبيان أنهم طلبوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمدهم بمن يعلمهم وان رعلا وذكوان وعصية وبني سليم استمدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عدد فأمدهم بسبعين من الأنصار ، كنا نسميهم القراء في زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى اذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقنت شهرا يدعو في الصباح على أحياء العرب من رعل وذكوان وعصية ٠

ولقد روي أنهم قالوا وقد عملت السيوف فيهم « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » كانوا يعلمون الناس الإسلام ، وقد بعثهم النبي لذلك ، ولذا نرجح أنهم ما كانوا مقاتلين ، ولم يستعدوا على عدو ، كما يفهم من الرواية الأولى للبخاري ٠

ولننظر من بعد ذلك الى تفصيل الرحلة التي انتهت بالغدر المقيت عند الله وعند كل كريم ٠

ذهبوا كما أمرهم الرسول هداة مرشدين كما طلب أبو البراء ، وأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع المنذر بن عمرو كتاباً الى عامر بن الطفيل يبين فيه أنهم مبلغون لا محاربون ولكنه ابان ذاك كان عدواً للمؤمنين ، فلم يرع جواراً ولا ذمة صاحبه في الشرك أبي براء الذي ما زال بالنبي حتى أرسل من أرسل وكان كارهاً ابتداء ، ولكنه التبليغ الذي حمله وسهل ارسال هؤلاء ، ولم يكن الغدر متوقعاً ٠

ولذلك قتل من أعطاه الكتاب ٠

وقد ذكر البخاري في أخبار عامر بن الطفيل ، أنه حسب النبوة ملكا ، فخير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين ثلاث خصال بثلاث يكون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل السهل ، وله أهل المدر ، اي يكون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل الوبر في الصحراء ،وله هو أهل القرى ، أو أن يكون خليفة

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أن يغزو والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بغطفان .

كانت هذه حال عامر بن الطفيل ابان ذاك ، وقد علم بالجوار .

ولم يكتف بذلك ، بل استصرخ بني عامر على أولئك المؤمنين ، وقد علموا بجوار أبي البراء ، فامتنعوا وقالوا لن نخفر جوار أبي البراء وقد عقد لهم عقداً وجواراً .

فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم عصية وذكوان ورعل فأجابوه الى ذلك الغدر اللئيم ، فخرجوا حتى غشوا المؤمنين ، فأحاطوا بهم في رحالهم ،فلما رأوهم حملوا سيوفهم ، قاتلوا ، ولكنهم كانوا يقاتلون من أحاطوا بهم حتى قتلوا عن آخرهم كما ذكر .

ولم ينج منهم الا كعب بن زيد أخو زيد بن النجار ، فانهم تركوه وبه رمق ، فحسبوا أنه مات ، وكان عمرو بن أمية الضمري في سرح القوم ورجل من الأنصار .

وفرغوا من القتلى ، فأخبروا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقنت ثلاثين يوماً لما أصاب رسله ، صلى الله تعالى عليه وسلم .

قصة بئر معونة

٤٥٤ ـ تلك قصة بئر معونة في صفر ، وبئر معونة بين مكة والمدينة . ونلاحظ في هذه القصة بعض أمور :

أولها ـ أن أبا براء ما كان مسلماً ،وربما كان له ميل الى الاسلام ولكنه زعيم في قومه ، ويريد أن يكون مع قومه ، فلا يكرههم حتى لا ينفروا ولكن يريد الدعوة اليهم ، حتى اذا استأنس باسلامهم أعلن اسلامه واكتفى بأن جعل الدعاة الى جواره .

ثانيها ـ أن الغادر عامر بن طفيل كان يعمل لحساب الشرك أو لحساب مكة ، وما كان ليفعل لولا أنه وجد في قريش قوة ، وهي ما أشاعوها من هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وثالثها ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أرسل اليهم مبلغين حفظة عباداً يختطبون نهاراً ، ويقومون ليلا ،ولم يرسل معهم أبطال حرب كالزبير وسعد بن أبي وقاص ، وعلي بن أبي طالب ، وان كان هؤلاء في عبادتهم وزهادتهم لا يقلون عن الأولين ، لأنهم أسود فوارس بالنهار قوام بالليل .

رابعها ـ أن هذه ثاني غدرة برسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبلغين ليغدر بهم ، وكانت الأولى في يوم الرجيع ، وهذه في بئر معونة .

فهل كان خدع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو قائد الأمة سهلا بهذا الشكل ، فنقول لم يكن الخدع بعيداً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بشر كسائر البشر ، يحتاط ، وكفاه ، وقد فرض الله سبحانه أن يخدع ، والكريم المخلص يخدع ،والخب اللئيم الذي يفرض الشر لايسهل خدعه كالكريم الطيب الذي يفرض في الناس الخير ، وقد قال سبحانه وتعالى في ذلك :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (1)

ففرض أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد يخدع من الخب الغادر اللئيم .

وان الرجل المؤمن الحكيم ، وقد أوتي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحكمة وعلمها الناس ، يخدع من ناحية، ما يريد ، وما هيء له .

وقد أحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبليغ رسالة ربه وهداية العرب الى الوحدانية ، وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له وذلك عمله الذي بعثه الله تعالى له ، وما كان قتاله الا دفاعاً . فالقتال لحماية الدعوة من الاعتداء ، ولم يكن هدفاً مقصوداً لذاته، فاذا جاء من يسهل له الدعوة استجاب ، والحر الأبي لا يفرض الغدر ابتداء ، ولكن يفرض الغدر حتما اذا كان الأمر من غادر .

---

(1) الأنفال

وفي الحق ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خدع في المرة الأولى لأنه رسول يريد تبليغ أمر ربه ، قال تعالى:

﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فما كان له أن يتردد في اجابة من دعوه ليعلمهم الاسلام ، وليقضي الله أمراً كان مفعولا ٠

هذا في يوم الرجيع ، أما يوم بئر معونة ، فما كان مخدوعاً ، بل كان يقظاً ، وخشي على من أرسلهم من خشونة أهل نجد ، وجفوتهم ، وأنهم أعراب غلاظ ، وما وافق حتى عقد عهدا بالجوار ، وكان مكتوباً بدليل أنه قدمه رسول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى عامر بن الطفيل فمزقه بسيفه ، وبدليل أن بني عامر رفضوا أن يصرخوا ابن الطفيل اذا استصرخهم حفظاً للجوار ٠

ولكن الغدر والخيانة جعله يستصرخ بغيرهم ، كما أصرخوه وكان ما كان من قتل الأطهار العباد الزهاد الذين يحتطبون بالنهار ، ويقومون بالليل ٠

ولقد أدرك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غدر الغادرين ، وربما ظن بقلبه الطاهر الرباني أنه لم يكن حريصاً في ارسالهم ، فقنت ثلاثين يوما استغفاراً لربه ، فما كان غير حريص ، ولا مخدوعا في هذا ٠

وانه مهما يكن الأمر في هذا ، فانه من المؤكد أن مسارعة عامر ابن الطفيل لهذا الغدر ، ما كان الا لاشاعة أن المؤمنين هزموا في أحد ، فتكشفت قلوب الغادرين والمدهنين لقريش ، الذين ظنوا فيهم القوة ، والله ولي المؤمنين ٠

(١) المائدة

غزوة بني النضير :

٤٥٥ ـ أشرنا الى أن غزوة أحد ،والظن بأن المسلمين هزموا فيها أظهر حقداً دفيناً ، في المنافقين واليهود ، وما كانوا يترددون في اعلانه رهبة وخوفا أظهروه حقداً وطمعاً ٠

ولما توالى الغدر بالمؤمنين لم يكن ليكف اليهود والمنافقين عن أن يقوموا بدورهم في الغدر ، وهم على مقربة من المؤمنين ، فهم أقدر ، وغدرهم أنكى ، لذلك أخذ النبي حذره منهم ، وكان يترصد حركاتهم ، وغدر غيرهم كان ارهاصا بغدرهم ، واظهار ما تنطوي عليه نفوسهم ، وبدا غيظهم في أفواههم وغدرهم ظهر في بعض أعمالهم ٠

قتل عمرو بن أمية الضمري اثنين قد أعطاهما الرسول جواره ، وكان القتل خطأ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لأدينهما » أي لأدفعن الى أهلهما الدية ٠

وكان الاتفاق الذي تم العهد عليه عندما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند قدومه الى المدينة فيه يتعاونا في أداء الديات ٠

ذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى يهود بني النضير ، ومعه أبو بكر وعمر وعلي ليستأدي ما وجب عليهم من المعاونة في دية هذين القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ ٠

فلانوا في القول ، ولكنهم استخفوا غدراً ، قالوا له : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ٠

ولاحظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه خلا بعضهم الى بعض ، وتساروا في القول ، وفراسة المؤمن مدركة يقظة ، وكان الذي تناجوا به غدراً ، وقال بعضهم لبعض لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال ٠

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه من كبار أصحابه ، قالوا فمن رجل يعلو على هذا البيت ،فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ،فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، وقال: أنا لذلك وصعد ليلقي الصخرة ٠

رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلوتهم بعضهم ببعض وحركاتهم المريبة فأدرك أن في هذا شيئاً يبيتونه، وقد رأى الغدر في يوم الرجيع وبئر معونة ، فلابد أن يكون قد تسارع ظن الغدر اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخصوصا أن حركاتهم كثرت ، وتأخروا عن الاجابة وقد أعلم الله تعالى نبيه بما أرادوا من غدر ، والله يكتب مايبيتون.

والصحابة قد استطالوا الزمن ، وركبتهم ظنون الغدر ، وكما قال ابن اسحاق استلبثوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أي اعتقدوا أنه لبث زمناً طويلا ، فسألوا عنه رجلا مقبلا من المدينة داخلا المدينة .

أقبل أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتهوا اليه ،فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحركاتهم ،وبما كانوا قد أرادوا من الغدر.

إجلاؤهم :

٤٥٦ ـ لم يجيبوا داعيه الى المعاونة التي يفرضها عليهم العهد الذي عاهدوه عليه ، وأعطوه كلاما لينا ، ودبروا تدبيراً خبيثا ، وكان ذلك غدراً في العهد ابتداء ، وما كان ليرضى أن يعيشوا معه ، وهم ينقضون الميثاق الذي وثقه عليهم ، ووفى به من جانبه صلى الله تعالى عليه وسلم والمواثيق عهود فيها واجبات وحقوق متبادلة تلزم كل فريق، بمقدار ما يلزم الآخر ، ولا يمكن أن يكون جوار حسن من غير عهود توفى ،ومواثيق تربط بالمودة ، أو بالوفاء ، فكان الجلاء أمرا لابد منه، وفوق ماعلمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من ارادة الغدر به ، والقضاء عليه ، فلم يكن لبقاء الجوار مكان ، وكان على أخفهم حملا ، وأقلهم عدداً أن يرحل ، ويترك الأرض لأهلها ، يعيشون في أمن واستقرار فلا يعيش الثعبان بين ظهورهم .

بعث رسول الله يأمرهم بالخروج من جواره لنقضهم العهد أولا ، اذ لم يعينوا في دية الرجلين ولأنهم هموا بالغدر ثانيا ، واذا كانوا يدعون أنهم لم يفعلوا مع علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليقيني بذلك فانهم يكفيهم نقض الميثاق في المعاونة ، ولا سبيل لاقامتهم معه من غير وفاء بعهد وثقوه.

أرسل لهم محمد بن مسلمة أن يخرجوا وأرسل اليهم عبد الله بن أبي بن سلول ينهاهم عن الخروج ، وأنهم معهم ، ولئن قوتلوا ليقاتلن معهم ·

ويقول ابن كثير في تاريخه : بعث اليهم أهل النفاق يثبتونهم ، ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر فقويت عند ذلك نفوسهم ، وحمى حي بن أخطب ، وبعثوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونابذوه بنقض العهود ·

أعلنوا بهذا نقض الميثاق جملة لا الجزء الخاص بالاستعانة في الديات ، فكان هذا اعلاناً للحرب من جانبهم ·وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليتركهم ينقضون العهد ، ويهمون بالغدر في غير اكتراث بعهد ولا حسن جوار ويهمون بالقتال ولا يقاتلهم ·

أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالخروج اليهم ، مهما يؤيدهم المنافقون سراً أو علناً ، فجعل على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول ·

سار بمن معه من المهاجرين والأنصار فنزل بساحتهم فحاصرهم وتحصنوا بحصونهم ، وقد أوهمهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه سيقطع نخيلهم ويحرقها فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ·

ويظهر أنهم توهموا ذلك ، أو أوهموا لتضعف نفوسهم ، ويهون عليهم الاستسلام ، ولم يقطع ولم يحرق كما تدل الآية الكريمة التي بينت مآلها في سورة الحشر ، وهي سورة جلائهم ·

وقد ذكرنا أن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي قد بعثوا اليهم ابتداء بأنهم معهم ليثبتوا ويتمنعوا ، فثبتوا وتمنعوا، وكان الحصار، وقد استمروا في غيهم ، وقالوا لهم لن نسلمكم ، ان قوتلتم قاتلنا معكم ، وان أخرجتم خرجنا معكم ·

تربص اليهود ذلك من المنافقين ، وصدقوهم ، وتوقعوا أن ينصروهم ، وهم بين المسلمين ، فما فعلوا شيئاً ،فاضطرب أمر اليهود وانزعجوا ، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب ·

عندئذ اضطروا لأن يعودوا ويقبلوا الجلاء الذي طلبه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير حرب ولا حصار ، واعنات، ولكن لم يرضوا بسبب تحريض أهل النفاق ٠

عادوا وطلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجليهم ،ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم ٠

أجابهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فكان الرجل منهم يأخذ من بيته ما يخلع به بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ٠

خرجوا الى خيبر ، حيث تجمعوا في حصونها مع بني قينقاع ، ومنهم ذهب الى الشام ، فكان من أشرافهم الذين ذهبوا الى خيبر بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب ، فكانوا لهم سادة ،ودانوا لهم بالطاعة ٠

وقد نزل في بني النضير ، ما كان من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أمر الله تعالى نزل أكثره من سورة الحشر، قال الله تعالى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ (١)

---

(١) الحشر

وقد حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأجلاهم في ست عشرة ليلة ٠

أحكام شرعية اقترنت بغزوة بني النضير :

٤٥٧ ـ أحكام شرعية ثلاثة اقترنت بغزوة بني النضير ، أو شرعت بعدها :

أولاها : منع التخريب :

وذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان منه ما توهموا أنه سيقطع نخلهم بعد أن استطال حصارهم ، فاحتجوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه نهى عن التخريب وعيبه ، وكيف يقطع النخل مع هذا ٠

والحقيقة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطعه وان هم بقطع النخل افزاعاً لهم ، وتخويفاً ليسارعوا بالاستسلام ، وقد كانوا تحصنوا بحصونهم ، ويرمون الحجارة من فوقها، وكان لابد أن ينزلهم من صياصيهم ، وهي الحصون ، والآية الكريمة صريحة في أنه أمر بقطع الثمار ، لا بقطع الأصول بل أبقى ما أبقى قائماً على أصوله كصريح الآية ، ولو كان صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع الأصول ما بقي نخيل تقوم عليها ثمار ٠

ولبيان الموضوع كاملا نذكر الفقه فيه ، وأساسه هذه الآيات التي تلوناها في واقعة الجلاء ، ان النهي عن قطع النخيل والتخريب بشكل عام قد جاء في وصية أبي بكر الصديق لبعض جنده ،وما كان أبو بكر الا متبعاً للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهاهي ذي ٠

روى الامام أحمد في سنده أن أبابكر بعث الجيوش ، وبعث يزيد بن أبي سفيان أميراً ، فقال وهو يمشي ويزيد راكب ، اما أن تركب ، واما أن أنزل، فقال الصديق : ما أنا براكب ، وما أنت بنازل ، اني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ، انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم ، وما زعموا ، وستجد قوماقد فحصوا أوساط رؤوسهم من الشعر، وتركوا منها أمثال العصائب ، فاضربوا ما فحصوا بالسيف ، واني موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ،ولا كبيراً هرما ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا نخلا ولا تحرقها ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاة أو بقرة الا لمأكلة ، ولا تجبن ولا تغل ٠

هذه وصية أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولابد أن تكون بهدي من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك ننفي أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع نخيل بني النضير ، فمحال أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر في موضع ، وأبو بكر ينهى باطلاق ، ولأن القرآن الذي نزل في واقعة الجلاء لم يذكر قطع النخيل ، وهي الأصول بل الذي فيه أنه قطعت ثمار ، وبقيت أخرى على أصولها قائمة ٠

ولكن مع ذلك لما اشتدت لجاجة الحروب بين المسلمين والمشركين أو الكفار بشكل عام اختلف الفقهاء في جواز التخريب في أرض العدو من قطع أشجار ، وتهديم بنيان ، وذبح الحيوان لغير مأكله ، أو اهلاكه بشكل عام ٠

فكثيرون من الفقهاء أجازوه ، لأن الحرب لا تبقي ولا تذر ، ولأنه اذا أبيحت الأنفس ، فكيف يصان ما عداها وهو دونها ، ويستندون في ذلك الى أخبار نسبت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزواته ٠

أولها ــ وهو في قصة بني النضير أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بتخريب بني النضير ، وقال الله تعالى في ذلك :

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١)

ثانيها ــ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يحرق قصر مالك بن عوف ، وقد كان أميراً لجيش المشركين في الطائف ، ورمي بالمنجنيق حصنا للطائف ٠

ثالثها ــ أنه عليه الصلاة والسلام أمر بقطع كروم العنب لثقيف في الطائف ، وقد ذكر في المغازي أنهم عجوا عند ارادة قطعها ، وقالوا : «كيف نعيش بعد قطعها» ٠

هذه حجج الأكثرين من الفقهاء الذين قالوا ما قالوا تحت سلطان لجاجة الحروب وشدتها ، وعدم تحرجها من قبل المشركين ٠

أما الفريق الآخر من الفقهاء وان لم يكونوا الأكثر قد تمسكوا بقول الصديق الذي لا يمكن أن يخرج عن قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن عمله ، فمنعوا التخريب ، وعلى رأس هذا الفريق فقيه الشام الأوزاعي فقد قرر أنه

---

(١) الحشر

لا يجوز التخريب الا اذا ألجأت اليه ضرورة حربية ، كأن يتحصن المحاربون بحصن ولا يمكن الوصول اليهم الا بهدمه ، أو تكون الأشجار غابة كثيفة ، قد اتخذوها مستتراً يكمنون للمسلمين فيها ، وينقضون عليهم من مساترها ٠

وان الناظر الى أدلة الذين أباحوا التخريب في غير ضرورة ملجئة ، لا يجدها منتجة لاباحته باطلاق فان تخريب النبي لبيوت بني النضير ، لأنهم اتخذوها حصوناً يقذفون منها الحجارة على المؤمنين ، فكان لابد أن تزال تلك الحصون دفعاً للأذى ، فكانت الضرورة ملجئة لذلك ، وقد قرر الجميع أن الضرورة تقدر بقدرها ٠

وان قصر عوف بن مالك كان قد اتخذه حصناً ، وكذلك الحصون التي رميت بالمنجنيق لثقيف ، فما كان رميها الا لضرورة حربية ، لا للتخريب والافساد ٠

أما ما هم به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قطع كروم العنب لثقيف فلأنهم كانوا يتخذون منها الخمر ، والخمر حرام ، ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطع ، وانما أمر فقط بالقطع ، أو قطع قليلا لافزاعهم ، وذلك ليحملهم على التسليم بدل الاستمرار على القتال ، وبذلك تحقن الدماء ، ولذلك سلموا بمجرد أن رأوا المسلمين يعتزمون قطعها ٠

وانه بمراجعة الشريعة في مصادرها من كتاب وسنة وآثار للنبي صلى الله تعالى عليه وصحابته وسلم يجد انها لاتدل على جواز التخريب ، بل تمنعه ٠

ولنقف عند الآيات الكريمة التي تلوناها في قصة اجلاء بني النضير ، فنجد أن الآيات لا تبيح التخريب باطلاق وفي كل الأحوال ، وأن القطع الذي ذكره القرآن انما هو في قطع الثمار لا في قطع الأشجار ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١)

الى آخر الآيات الكريمات التي تلوناها٠

وذلك لأن اللينة المراد بها الثمرة والمعاجم في اللغة تؤيد ذلك ،لأن كلمة

---

(١) الحشر

لينة جمعها لون وهو بالاتفاق نوع من ثمر النخل ، ولأن الآية تخير بين قطع اللينة أو بقائها على أصولها ، وذلك يقتضي أن تكون ثمرة قائمة على الأصول تبقى أو تقطع ، والأصول النخيل ، فلم يذكر في القرآن اباحة قطعها ولأن الآثار الواردة في غزوة بني النضير التي هي موضوع الآيات الكريمات تفيد أن الصحابة ما كانوا يقطعون النخل ، بل كانوا يقطعون الثمر ٠

فقد روي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام على نخيل بني النضير قبل اجلائهم ، فكان أبو ليلى يقطع العجوة ، وهي تمر جيد ، وابن سلام يقطع اللون وهو تمر رديء ، فقيل لأبي ليلى لم قطعت العجوة ؟ قال لأنها أغيظ لهم ، وقيل لابن سلام لم قطعت اللون ؟ قال لأني علمت أن الله تعالى مظهر نبيه ومغنمه أموالهم، فأحببت ابقاء العجوة، وهي خيار أموالهم ، وان قطع الثمار لا يعد تخريباً ، لأنه سيكون مأكلة ٠

والذي ننتهي اليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، في حروبه ٠

أولا : أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء ، لأن الهدف من الحرب ليس ايذاء الرعية ، ولكن دفع أذى الراعي الظالم ، وبذلك وردت الآثار ٠

ثانياً : أنه اذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها ، كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لايذاء جيش المؤمنين ، فانه لا مناص من قطع الأشجار ، وهدم البناء ، على أنه ضرورة من ضرورات القتال ، كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حصن ثقيف ٠

ثالثاً : أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج ، على أساس هذه الضرورات ، لا على أساس ايذاء العدو والافساد المجرد ، فالعدو ليس هو الشعب انما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا ٠

٤٥٨ ـ كانت غنائم بني النضير هي أول غنائم من أهل القرى من أرض ونخيل ، وحصون ، فهي التي سنت ما يتخذ من حكم الاستيلاء على الأراضي أتوزع على المحاربين أم تكون محبوسة على مصالح المسلمين، فيكون لهم غلاتها، وتبقى تحت أيدي أصحابها ، على ألا تكون أيديهم أيدي ملاك رقبة ، بل ملاك منفعة على خراج يؤدونه .

ويقول الفقهاء ان ذلك الخراج هو بمثابة أجرة للأرض قد استأجروها به ، واليك النص الذي جاء في هذه الأراضي .

قال الله تعالى عقب اجلاء بني النضير:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠ ﴾ (١)

---

(١) الحشر

ونجد هذا النص الكريم قسم ما أفاء الله تعالى به على رسوله والمؤمنين معه قسمين : أحدهما مالا يعد شيئاً ثابتا أو أرضاً ، بل هو مال غير ثابت فالأمر فيه الى رسول الله صلى الله تعالى عليـــهوسلم يوزعه كما شرع الله تعالى له ،وقد أشار الى ذلك بقوله سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

ويوزعه النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بمقتضى أمره في قوله تعالى :

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (٢)

الى آخر الآية الكريمة ٠

والقسم الثاني هو ما أفاء الله تعالىبه من أهل القرى ، وهو الأموال الثابتة من نخيل قائم وأرض زراعية ٠

وهذه قد جعلها الله تعالى لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمســـاكين وابن السبيل ٠

وهنا يجيء البحث فيه أتقسم الأرض بين الغانمين وتخمس كمـــا تخمس الغنائم ، فيكون لله وللرسول وذي القربى واليتامى والمساكين الخمس وأربعة للذين جاؤوا من بعدهم ٠

رأى بعض الصحابة ، وكان بلال أشدهم أن تقسم الأرض قسمة الغنائم ، ورأى عمر وعلي وجمع من الصحابة أنتكون محبوسة غـــلاتها على مصـــالح المسلمين ، وقد بدا ذلك الخلاف عنـــدالاستيلاء على أرض سواد العراق ، وقد جمّع عمر الصحابة خارج المدينة ، وأخذيجادلهم ويجادلونه ثلاث ليال ســـويا ، هو يحتج بالا يكـــون المـــال دولة بينالأغنياء ، وقـــال ان الله سيفتح فارس ومصر والشام ، فلو قسمت فماذا يبقىلسد الثغور وماذا يبقى للذرية ٠

وهم يعارضون بأنها غنائمهم ، وأشد من يعارضه بلال وصحب له ، فكان عمر الفاروق يقول اللهم اكفني بلالاوصحبه ٠

---

(١) الحشر (٢) الأنفال

وبعد ثلاث ليال أراد أن يحكم بينه وبين مخالفيه طائفة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، فلما التقوا به ذكر لهم أنه ما أزعجهم الا ليحكموا بينه وبين مخالفه ، وبعد أن عرض وجهة نظره من الوجهة المصلحية الاجتماعية ، ذكر لهم أنه وجد قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (١)

الى آخر الآيات، وفصل القول ووزع الأقسام التى تشتمل عليها الآية، وذكر أن الغلات أولا للمهاجرين ، ثم للذين آووا ونصروا ثم للذين اتبعوهم ثم للذين جاءوا من بعدهم .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

ولما تلا عليهم الآيات انقطع الخلاف، وصار الاجماع على أن تكون الآرض محبوسة لمنافع المسلمين بحكم هذه الآية:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ (٣)

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى ثمرات أرض بني النضير للمهاجرين ليرفع بذلك مؤونتهم عن الأنصار ، اذ كانوا قد ساهموهم في الأموال والديار، ولم يعط مع المهاجرين من الأنصار الا أبا دجانة وسهل بن حنيف لحاجتهما .

ومؤدى ذلك أنه وزع الأموال والثمرات على ذوي الحاجة وذوي القربى واليتامى والمساكين وفعل ذلك مع الذين اتبعوا من مهاجرين وأنصار ، ثم من جاؤوا بعدهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) الحشر (٢) الحشر (٣) الحشر

تحريم الخمر

٤٥٩ ـ جاء تحريم الخمر في أعقاب غزوة بني النضير ، كما جاء في سيرة ابن اسحاق وصحاح السنة ، وظاهر القول أن ذلك التحريم هو البيان الشافي لحقيقة الخمر الذي طالما دعا ربه اليه الرجل الذي ينظر بنور الله تعالى عمر ابن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وهو قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١)

وبذلك كان التحريم القاطع .

وان القرآن الكريم والنبي الأمين لم يكن منهما ما أقر الخمر أو أباحها ، انما كانت موضع عفو قبل اعلان التحريم القاطع ، فكل أمر يسكت القرآن الكريم عنه ، وهو يتنافى مع معاني الاسلام ، فانه يكون محل عفو الله تعالى ، ويقال انه عفو ، ولا يقال انه مباح ، فمرتبة العفو تقتضي أن يكون الأمر غير مستحسن في ذاته ، ولا يرضى عنه الاسلام ، ولا الخلق الاسلامي ، ولكن لم يجيء النص بالتحريم فيكون موضع عفو حتى يجيء النص المحرم .

وتحريم الخمر قد جاء في القرآن على أربع مراتب :

أولاها : بيان أنه أمر غير حسن في ذاته ، وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك في قوله :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢)

(١) المائدة (٢) النحل

أي تتخـــذون منه مسكرا ، وفي مقابل المسكر رزق حسن ولا يمكن أن يكون مقابل الرزق الحسن حسنا مثله ، فهذا النص يشير الى استنكار الخمـــر ، وأنها ليست أمراً حسنا ٠

الثانية : بيان أنها إثم ضـــار ، واذا كان فيها نفع فاثمها أكبر من نفعها ٠ ولذلك جاء الاستنكار المؤيد بالسبب، فقال تعالى :

﴿ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ (١)

ومن المقررات في الشرائع والعقول أن الأمر الذي يكـون ضرره أكبر من نفعه يكون محرماً ، اذ أن التحريم والاباحة والندب تناط بالضرر والنفع ، فما يكون نفعه أكبر يكون مطلوباً ، وما يكون ضرره أكبر ، يكون ممنوعاً ، وان الله سبحانه وتعالى خلق الأمور وقد اختلط نفعها وضررها ، فلا يوجد ماهو نافع نفعاً محضاً ، ولا يوجد ماهو ضار ضرراً محضاً، والعبرة بالكثرة والقلة ، ويتفـــاوت الطلب بتفاوت المصلحـة ، ويتفاوت النهي بتفاوت المضرة ٠

فكان هذا النص دالا على التحريم ، لكن بغير دلالة صريحة شافية ، ولذلك كان الفاروق رضي الله تعالى عنه يقول: « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً » ٠

المرتبة الثالثة ـ التربية على الامتناع من الخمر ، بأن تتعـود النفس التي مردت عليها التخلي عنهـا طـول النهار وأطراف الليل ، فاذا جاء التحريم القاطع الحاسم الشافي تكون النفس المؤمنة قد تربت على أن تنفطم عنهـــا ، فتنفطم بالأمر القاطع ٠

وذلك بقول الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٢)

وان الصلاة ركن الدين وعمود اليقين، ولابد أن يقيموها ، وهي مفرقة في أوقات النهار وزلفاً من الليل ٠

فاذا كـــان الصباح لا يشربون حتى يقربوا صلاة الصبح وهم في صحـــو كامل ، فيمرنون على ترك صـــبوح الخمر ٠

---

(١) البقرة (٢) النساء

والنهار عمل لا لهو فيه ، ولا خمر ،بل أمر جد ، واذا جاء الزوال لايقربون من الخمر ، لأنهم يقربون من الصلاة ،فلا يشربون حتى لا يقربوا صلاة الظهر ، وهم سكارى لا يعلمون ، وكذلك العصر ، وكذلك صلاة العشاءين ، وبذلك يفوت عليهم شرب الخمر مساءفيفوت عليهم الغبوق كما فات عليهم الصبوح ،

ولا يكون لهم الا ما بعد العشاء ، وان بعد العشاء يكون النوم بعد الكد واللغوب ٠

المرتبة الرابعة ــ التحريم القاطع بعد أن أدركوا أنها شيء غير حسن ، وبعد أن أدركوا أن ضررها أكبر من نفعها ، وبعد أن مرنوا على الاستغناء عنها بعد أن ألفوها ، وصارت خلب أكبادهم ، ونبع نفوسهم ، ولذلك نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

وقد كان التحريم مشددا ذاكرا سبحانه وتعالى حكمته بأنها توقع العداوة والبغضاء ، وقد ذكرنا ما كان بين علي وعمه حمزة ، لولا أنهما من بيت النبوة وكنفها ، وأنها تصد عن ذكر الله لأنها تضعف صوت الضمير ، وتجعله في غفوة ، فلا يدرك الخير ،وهي تصد عن الصلاة ، وحسبها هذه الأمور شرا ٠

وهنا نلاحظ أنه كان ذلك الاصلاح الاجتماعي بعد الحرب ، لأن المجتمع الفاضل يجب أن يحمي نفسه من العدو المهاجم المردي ، ويحمي نفسه من المآثم الداخلية ،فكان جهاد النفس في محاربة الخمر واجلاء شيطانها بعد محاربة اليهود ، واجلائهم ، فاجتمع الجهادان ٠

---

(١) المائدة

أثر غزوة بني النضير في اليهود :

٤٦٠ ـ ذكرنا بني النضير ، وكيف أظهروا ما كمن في نفوسهم من شر ، وهموا بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اضطر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لاجلائهم ، لأنه لا يعيش والحيات والأفاعي بجواره ، ينقضون العهود والمواثيق ، ويريدون فرصة للانقضاض عليه ، لينتهزوها •

وان اليهود في ماضيهم وحاضرهم لا يؤمنون الا بالقوة، فان رأوها خضعوا وذلوا ، ونافقوا ، وربما يكون منهم من تهديه صدمة القوة الى الحق •

ولم يكن بالمدينة من اليهود الا بنو قريظة ، فأرعدوا في أنفسهم . وكان منهم من يفكر في الرجوع الى الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم •

كان منهم رجل ديان باليهودية ، وهو عمرو بن سعدى القرظي ، فاقبل على أرض بني النضير بعد جلائهم ،فلما طاف بمنازلهم ورأى خرابها ، وقد صارت يبابا ليس بها داع ولا مجيب •

فهداه ما رأى عليه حال اخوانه الى أن ينظر في التوراة ، وما فيها من صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومال قلبه لأن يعلن ما كتموه ، وأن يظهر ما أخفوه ، وقد بدت العبر •

التقى بقومه من بني قريظة وقال لهم :

رأيت اليوم عبراً ، وقد عبرنا بها ،رأيت منازل اخواننا خالية بعد ذلك العز والمجد والشرف الفاضل ، والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم ، وملكها غيرهم ، وخرجوا خروجا ذليلا •• وأوقع ببني قينقاع ، فأجلاهم وهم أهل عدة وسلاح ، ونجدة ، فحصرهم ، فلم يخرج انسان منهم وأسر باقوهم ، حتى سباهم ، وكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب •

يا قوم : قد رأيتم ما رأيتم ، فأطيعوني ، وتعالوا نتبع محمداً ، والله انكم لتعلمون أنه نبي قد بشرنا به •• فأسكت القوم ، ولم يتكلم أحد الا كعب ابن أسد •

قال له ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال أنت يا كعب . قال فلم وما حلت بينك وبينه قط .

وقال بعض اليهود الحاضرين . «بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا ، فان اتبعته اتبعناه ، وان أبيت أبينا ، كان ذلك التفاؤل من اليهود بعد أن رأوا ما كان لبني النضير ، ثم ما كان من قبل لبني قينقاع ، فهز ذلك أعصابهم ، وحملهم على التفكير فيما بين أيديهم ، وما عندهم من كتاب ، أصابتهم حيرة بلا شك فأمامهم حق عرفوه ، وان لم يذعنوا له ، وما عليهم من تعصب ينأى بهم عن الحق ، وما يحسبون أو يرجون في أعدائه من أن يكون لهم غلب ، وبذلك يجزيء عنهم ، ويأمنون جانبه ، ثم ما أفزعهم مما رأوا في اخوانهم من بني قينقاع وبني النضير .

جعلهم حب الذات ، وهو ديدنهم أن يفكروا ويعتبروا بما كان ، وما من طمع بأن يكفيه أمره غيرهم فيكونوا نظارة يرون ما يسرهم من غير أن يضاروا ، وذلك شأنهم دائما ، يتقون الأذى بسيوف غيرهم ، ولا يحملون هم السيوف ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

ولقد انتهى ترددهم بأن أصروا على كفرهم . والقوا حبالهم مع المشركين من كفار قريش . وكانت التدبيرات معهم . وقد ظهر ذلك أشد ظهور في معركة الخندق . اذ تحالفوا مع المنافقين والمشركين ، على أن يضربوا من الأمام بأيدي المشركين ومن الخلف بأيدي اليهود ، وفي الوسط اليهودي يوهنون ويفسدون ويدلون على عورات المؤمنين ، ولنترك القصص للحوادث يتبع بعضها بعضا .

غزوة ذات الرقاع :

٤٦١ ـ ذات الرقاع بقعة فيها ،نخل ، وقيل سميت ذات الرقاع ، لأن الألوية كان فيها رقاع ، وقيل غير ذلك ، فقيل انهم كانوا يربطون على أرجلهم الخرق والرقاع من شدة الرياح .

كانت هذه الغزوة في آخر جمادى من السنة الثالثة .

وكان الاتجاه في هذه الغزوة الى بني محارب ، وبني ثعلبة من غطفان ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أربعمائة مقاتل .

وذلك لما كان من عامر بن الطفيل ، وقتل أكثر من سبعـــين والفـرار من المؤمنين خديعة وغدرا مما يدل عـــلى الاستهانة بالرسول وجيشه بعد غـــزوة أحد التي ادعى فيها بغير الحق هزيمـة المؤمنين واشـــاعة ذلك في الصحـراء ليستردوا هيبتهم ، ويحرضوا العـرب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين •

وكان لابد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلن قوة الايمان ، وأن يقتص من الذين قتلوا الأبرار الأتقياء من أصحابه غدراً وخيانة •

خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أربعمائة رجـــل كمـا ذكرنا ، فوجد جمعاً عظيما من غطفان، فلما تراءى الجمعان تهيب كل صاحبه ، ويقول ابن اسحاق خاف الناس بعضهـم بعضاً ، ولم يكن قتال ، فلم ينل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم منهـم ، ولم يقتص لأولئـــك الأبرار الذين قتلوا خيانة وغدراً •

ولكنهم اذا كانوا لم يقتصوا منهـم لكثافة عددهم وكانوا عدا كبيرا وبعـد الشقة بين موضع القتال والمدينة ، فان النبي قـــد أرهبهـم ، واسترد ما كان للجيش الاســـلامي من هيبة ، وذهبت سورة ما أنشأته قريش لنفسها •

وفوق ذلك ، ارتاد البلاد العربية ، وتعرف مداخلها ، ثم أشـــار لقـريش الى أنه يرصدهم ، كل مرصد ، ويتتبع متاجرهم ان أراد ، وما كان الدخـول في معركة يشك في نتيجتها خيراً من أن يصل الى الأمور من غـــير حـــرب ، وأما القصـــاص لأولئك الأبرياء الذين ذهبوا في غدر دنيء ، وخفر للعهـــد لا يرضى عنه عربي ، ولا يقبله من له مروءة ، فان أمر ذلك الى الله، والمستقبل القريب ، وان ربك لبالمرصاد ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لينتقم اذا استجابوا لله وآمنوا بما أنزل عـــلى الرسول •

صـــلاة الخوف

٤٦٢ ــ كانت الأهبة للحرب من جانبهم عنيفة شديدة ، وان كان الله تعالى قد ألقى في قلوبهم الرعب ، وكان على المؤمنين أن يحذروهم ، ولقـــد كـان المشركون يتفاهمون فيما بينهم على أن ينقضـــوا على المسلمين اذا حان وقت صـــلاتهم ، وهـم يعلمون وجرى على ألسنتهم أن الصلاة أحب اليهـم من كل شيء ، فكانوا يطمعون أن يصيبوا منهم غرة وقت صلاتهم ، ولكن الله تعالى قد علم جنده الحذر ، فقال عز من قائل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

ولذلك شرعت صلاة الخوف لمثل هذه الحال ، ونزلت آية شرعيتها في هذه الغزوة ، فقال تعالت كلماته :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٢)

ويظهر أن الآيات الكريمات قد نزلت في وقت ذلك اللقاء بين المؤمنين والمشركين الذي كان فيه الحذر من الجانبين ، وهذه الآيات تدل على أحكام شرعية .

أولها : قصر الصلاة الرباعية لأجل السفر أو الخوف ودل على ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النساء (٢) النساء (٣) النساء

وثانيها : أنها ثبتت صلاة الخوف بها،وظاهرها الذي تدل عليه أنه يصلي ركعتين ، وليحرم الجميع بالصلاة معه ،ولكن تجيء طائفة منهم النبي بأسلحتها، ولتصل معهم ركعة ، والطائفة الأخرى تحرس المصلين مع تسلح المصلين أنفسهم ، فاذا أتم الركعة مع هذه الطائفة ، تأتي الطائفة الأخرى ، مع أسلحتها ، ولتأخذ حذرها ، ويصلي صلى الله تعالى عليه وسلم الركعة الثانية مع الطائفة الأخرى ، ويسلم صلى الله تعالى عليه وسلم عند كمال صلاته ٠

ومن بعد ذلك تصلي كل طائفة الركعة الباقية لها مع بقاء الأخرى حارسة، فالطائفة التي ابتدأت الصلاة مع النبي تكون ركعتها لاحقة لأنها الثانية ، والطائفة الأخرى التي جاءت الأولى تصلي مسبوقة ، لأن ما فاتها هو الركعة الأولى ٠

ونلاحظ في صلاة الخوف ـ أولا ـ أنها ركعتان ، وروي أنها كانت الأربع في حال الخوف من غير سفر ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،وكذلك كل امام يقسم المصلين فرقتين احداهما تحرس ، وقد أحرمت للصلاة ، ويصلي بالأخرى ـ وان ذلك يقتضي الحراسة الدائمة ، مع عدم الانقطاع عن الصلاة٠

وثانيا : أن الصلاة تكون بامامة القائد ، أو من يقوم مقامه ليكون الجمع بين الصلاة والامامة أي تكون الصلاة جماعة ٠

وثالثا : أن ينتفع الجميع بفضل الجماعة فان فضل الجماعة ينالها اللاحق، وهو الذي يقطع الصلاة بعد الدخول فيها ،ثم يتمها ،والمسبوق ، وهو يتأخر دخوله فيها ، ثم يعيد ما سبق به ٠ وله فضل الجماعة ٠

وقد روى ابن هشام عدة روايات في صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الخوف وقد تعددت هذه الصلاة في مواطن كثيرة ، ولبها واحد ٠

فقد روي عن جابر بن عبد الله قال:« صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بطائفة ركعتين ثم سلم ، وطائفة مقبلون على العدو ، جاؤوا فصلى بهم ركعتين أخريين » ٠

والآية تنطبق على هذه الرواية ولا تخرج عما قلنا ، بيد أن الرواية تدل على أن النبي صلى بهم أربعاً ، وكل صلى ما فاته ، وروي عن جابر أيضاً قال :

صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فركع بنا جميعاً ، ثم سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد معه النصف الأول فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم ، ثم تأخر الصف الأول ، وتقدم الصف الثاني حتى قاموا مقامهم ، ثم ركع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعاً ، ثم سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الذين يلونه معه ، فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرون بأنفسهم فركع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعاً ، وسجد كل واحد منهم بأنفسهم سجدتين ٠

واننا نرى في عبارة هذه الرواية اضطرابا ، ولا نرى أن الآية تنطبق عليها ، والأولى أحق بالأخذ ، وعليها الفقهاء الأربعة ٠

وتدل الآيات السابقة على أن الصلاة لا تسقط في سفر أو حضر ، ولا أمن ولا خوف ٠

وانها في الخوف والسفر قد تقصر، أو تكون بالايماء ، ولكن لا تسقط ، لأنها ذكر الله ، ويجب أن يكون العبد قائما به في كل حال ، ولو على الجنوب ٠

وانه اذا كان الأمن والاطمئنان يجب أن تقام الصلاة كاملة مقومة على وجهها بركوعها وسجودها ٠ والائتمام الكامل والجماعة الكاملة كما قال تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

أي معينا في مواقيته ، لا يجوز التخلف عنها في اي حال ، ولا عذر في تركها ، لأنها مخاطبة العبد لربه ،وذلك هو الدين القيم ٠

في ذات الرقاع :

٤٦٣ ــ اذا كانوا قد غدروا بالسبعين قارئا ، وقد أمنوهم ، فقتلوهم، وقد جاؤوا بأمان مكتوب فمزقوه وفجروا بقتلهم ، ولم يرعوا الاً ولا ذمة ، اذا كانوا قد فعلوا ذلك ، فقد كان منهم من أراد أن يرتكب ما هو أشد من ذلك غدرا ، وأبعد أثرا ، وأفجر فعلا ٠

---

(١) النساء

فقد روى ابن اسحاق بسنده أن رجلا اسمه غورث بن الحارث من بني محارب، قال لقومه ألا أقتل لكم محمداً ، قالوا وكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فأقره الغادرون ، وأعادوا غدرهم جذعا ، وكانوا الغادرين في العرب ، ولم يكونوا الشجعان الأبطال .

أقبل الرجل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس آمن وسيفه في حجره ، فقال الرجل يا محمد انظر الى سيفك هذا ؟

فجعل الرجل يهز السيف ، ويهم به، فكبته الله . ثم قال يا محمد ، أما تخافني ؟ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أخاف منك ، قال : أما تخافني وفي يدي السيف ؟ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لا ، يمنعني الله تعالى منك .

هذه رواية ابن اسحاق ، وفي الصحيحين عن جابر أنه غزا مع رسول الله غزوة نجد ، أي ذات الرقاع ،فلما قفل راجعا أدركته القافلة في واد كثير العضاة ، فتفرق الناس يستظلون،وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت ظل شجرة ، فعلق بها سيفه ، قال جابر فنمنا نومة ، فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعونا ، فأجبناه ، واذا عنده أعرابي، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا اخترط سيفي ، وأنا نائم ، فقال ما يمنعك مني ؟ قلت الله ،قال من يمنعك مني قلت الله ، فشام السيف وجلس ، ولم يعاقبه » .

وفي رواية مسلم زيادة ، وهي عن جابر : « أقبلنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كنا بذات الرقاع ، وكنا اذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءه رجل من المشركين وسيف رسول الله معلق على شجرة ، فأخذه فاخترطه ، وقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تخافني ؟ قال : لا،قال فما يمنعك مني ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الله يمنعني منك » .

ويروى أن السيف سقط من يد الرجل فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال من يمنعك مني فقال الرجل خاضعا : « كن خير آخذ . قال تشهد أن لا اله الا الله ، قال لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ، ولا أقاتل مع

من يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه ، وقال : جئتكم من عند خير الناس » .

وتعدد الروايات لا يمنع صدقها ،وهي يتمم بعضها بعضاً ، ولا اختلاف بينها ، وكلها يذكر أنها كانت في ذات الرقاع .

واذا كانت قد ذكرت في غيرها ، فان ذلك دليل على تكرارها ، ولا تنافي بين الروايات .

وقد ذكرنا هذه القصة لأمرين :

أولهما : ما انحدر اليه بعض المشركين من أخلاق تتنافى مع مراعاة الجوار ، والمروءة وفيها ارادة الغدر والقتل من غير مواجهة ، وكيف استباحوا ذلك بالنسبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كفرا وفسوقا وعنادا.

ثانيها : أن ذلك بلا ريب فيه أمر خارق للعادة ، لأن السيف تنقبض عليه اليد في وقت ارادة الضرب ثم يسقط من يده على غير ارادة منه ، وقد اعتزم الشر وبيته ودبره ، فلما حانت ساعته، خانته يده ، وقد كان ذلك من النبي في أمور كثيرة ، ولكن لم يجعلها دليل نبوته ، ولم يتحد بها العرب ، بل تحدى بالقرآن وحده ، لأنه ما جاء بالخوارق الحسية ، كعصا موسى وابراء الأكمه والابرص وغير ذلك من الحوادث التي تنقضي بمجرد وقوعها ، بل كانت معجزته باقية ، لأن رسالته باقية ،لا تنقضي بزمانها ، وهي القرآن الباقي الخالد الذي يتحدى الناس في كل جيل وفي كل مكان .

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (١)

النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه :

٤٦٤ ـ شغلتنا أخبار الغزوات والسرايا عن النواحي الأدبية التي كانت بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته والتي كانت تربط القلوب بالمودة الراحمة ، فقد كان رؤوفا رحيما، يمين المحتاج ، ويواسي الضعيف ،وما كان ليخرج بهم الى ميادين القتال ، الا وهم يشعرون برحمته ، ومودته ،

---

(١) الاسراء

فكان نبي المرحمة والملحمة ، ولابد قبل الملحمة من المرحمة ، فان النصر وسيلته الرحمة بالجند والرعية ، والرعاية لهم رعاية المشير لعشرائه ٠

رأى رسول الله جابر بن عبد الله قد تأخر عن الرفاق ، اذ هم يمضون وهو متخلف عنهم ، وكان سبب تخلفه عن الركب أن جمله ضعيف ، فسأله مالك : قال يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا ، فقال له محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنخه ، وقطع جابر عصا من شجرة بأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذها ونخسه بها نخسات ثم قال لجابر اركب ، فركبه ، وقال جابر ، والذي بعثك بالحق يواهق ناقته مواهقة ، أي يسارعها ولا يبطؤ٠

هكذا كانت مراعاة القائد لجنده ،يتتبع الضعيف فيقويه ، والمتخلف فلا يتركه حتى يسير معه ببركة الله ، وما سقنا الخبر لذلك فقط ، بل سقناه لهذا ، ولأنها بركة بأمر خارق للعادة ٠

وان حديث الجمل لا ينتهي بذلك ،بل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبتاع الجمل ، فيريد أن يهبه له جابر ،فيأبى الا الشراء ، ثم يساومه ، طلبه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بدرهم فأبى فزاده الى درهمين فأبى ، فما زال يزيده حتى جعل ثمنه ، أوقية من ذهب، ولكنه يهبه للرسول ، بعد أن ساوم هذه المساومة ٠

واذا كان قد تعرف حال صاحبه وهو في السفر ، فلا بد أن يؤنسه ويمينه ، ويتعرف حاله ، فسأله رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام : يا جابر ، هل تزوجت ؟ قال نعم يا رسول الله ٠ قال عليه الصلاة والسلام أثيباً أم بكراً ، قال : لا بل ثيباً ، قال عليه الصلاة والسلام أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ٠ قال جابر يا رسول الله ان أبي أصيب يوم أحد ، وترك بنات له سبعا ، فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن ، قال له الرسول المعطوف الألوف ، أصبت ان شاء الله ٠

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكتفي بذلك الود الراحم ، بل انه يقيم الوليمة لزواج صاحبه ، فاذا وصل الى مكان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال اسمه صرار ، نحر جزورا ، يأكل هو وأهله ، كان ذلك والجمل لا يزال في يد جابر ٠

فرأى ازاء تلك المحبة والمودة أن يرسل الجمل الى رسول الله ، وقد وهبه له ، فرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وأرسل معه ثمنه ، وهو الأوقية من الذهب التي ارتضاها ثمنا له •

ولننقل كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنرطب به أسماعنا ، ونملأ به قلوبنا ، لما رأى الجمل قال ماهذا قالوا هذا جمل جابر ، فقال أين جابر ؟ فذهب اليه فقال الرسول الكريم: « يابن أخي ، خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال له اذهب بجابر • وأعطه أوقية ذهب » •

ذكرنا هذه القصة لنعرف مودة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأفته بهم ، وملاحظته وادخال السرور على نفوسهم ، واذهاب العنت عنهم، لتكون منهم قوة في الأرض ، فليست القوة ، بالفظاظة والتحكم ، انما القوة بالمحبة والتراحم والتودد •

غزوة بدر الآخرة :

٤٦٥ ـ في نهاية غزوة أحد من قبل المشركين نادى أبو سفيان مهددا ، أو واعدا بأن موعدكم بدر من العام المقبل، وما كان أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليخافوا اللقاء ، وقد أدوه في أعقاب قفول قريش •

ولذلك خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر في شهر شعبان من السنة الرابعة ليلقاهم ببدر ولينتصف لجرحى أحد وشهداء المسلمين ،وخصوصا سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عمه وأخاه في الرضاعة ، خرج في ذلك الميقات،وأقام على المدينة عبد الله بن عبدالله بن أبي بن سلول ، أي ابن رئيس المنافقين ولم يكن كأبيه ، بل كان برا تقيا ، ومؤمنا صادقا ، حتى انه لما اشتد أمر النفاق ، قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دعني أقتل عبد الله بن أبي حتى لا يقتله مؤمن فيحنقني • اختاره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة ، لمكانته في الايمان وأهله ، ولتبرأ نفسه من سقامها ، وفي الوقت الذي كان يقيم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي مقامه على المدينة،كان أبوه عبد الله بن أبي يثبط المسلمين عن الخروج للقاء قريش ، فيروي عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استنفر الناس لموعد أبي سفيان ،وانبعث المنافقون يثبطونهم ، فسلم الله

تعالى أولياءه ، وخرج المسلمون وصحبه الى بدر ، وأخذوا معهم بضائع ،وقالوا ان وجدنا أبا سفيان ، والا اشترينا من بضائع موسم بدر ، خرج المسلمون كما ترى يتمنون أن يكسروا أنف الشرك.

خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ومعه نحو خمسمائة وألف، وقد خرج على نية لقاء العدو حتى نزل وانتظر ثماني ليال ، عساه يلقى قريشا بقيادة أبي سفيان كما وعد أو توعد ،ولكنه لم يجيء في الميقات .

وابو سفيان كان قد أراد الخروج على تردد ، فخرج في أهل مكة ، حتى نزل مجنة من ناحية الظهران ، ولكنه مع خروجه ووصوله الى ذلك المكان كان التردد لا يزال يسيطر عليه ،خشية العاقبة ، ولذا بدا له أن يعود من حيث نزح ، وقال في سبب نكوصه لقومه :

« يا معشر قريش ، انه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، فان عامكم هذا عام جدب واني راجع فارجعوا .. فكان أهل مكة يسمون الجيش الذي خرج بقيادة أبي سفيان ثم عاد جيش السويق يقولون انما خرجتم تشربون السويق .

ولعل هذه النظرة وذلك القول فيه لوم وتهكم ، لأنهم خرجوا للقتال وعادوا من غير لقاء أو قرب منه ، وان هذا يدل على أن أبا سفيان تخاذل عن اللقاء ، والسبب الذي استحله للعودة وهو الجدب كان قائماً وقت الخروج فكان أولى أن يمنع الخروج ، لا أن يوجبه ،ولكنه فكر وقدر الهزيمة ، وقد ذاق مرارتها في بدر ، فآثر العافية ،ورضي من الغنيمة بالاياب .

وأتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بماء بدر بعض بني ضمرة الذين كان قد وادهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة ودان التي غزاها وقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد أجئت للقاء قريش وقد يوهم سؤاله أنه مال مع المائلين لقريش بعد أحد ، واشاعة قريش أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم هزم ،وما كانت هزيمة » .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: « نعم يا أخا بني ضمرة وان شئت رددنا اي ما كان بيننا وبينك من موادعة» وجالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

قال : لا ، والله يا محمد مالنا بذلك من حاجة .

رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، ولم يلق حربا ، وكان النكوص من جانبهم وان ذلك بلا ريب يزيل ما كانوا يرجونه من اشاعة الهزيمة ليوهنوا شأن النبي والمؤمنين في بلاد العرب ، ويعلو شأنهم ، فيتهيبهم الناس دونه •

ولقد قال الواقدي ان جيش المؤمنين في مدة اقامته الليالي الثماني، اتجروا، اذ لم يجدوا قتالا ، وكانت سوق تعقد في ثمانية أيام ، فرجعوا في وفر مالي ، وقد ربحوا من الدرهم درهمين أي أنهم باعوا واشتروا وكسبوا فزاد رأس مالهم ضعفين ، وهذا كما قال الله تعالى :

﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (١)

غزوة دومة الجندل :

٤٦٦ ـ وهي مكان يبعد عن المدينة بمسيرة نحو خمس عشرة ليلة من ناحية الشام • وقد كانت سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، أكثرها في ناحية مكة وما حولها ، ونجد وما يقاربها ، وفي هذه الغزوة اتجه ناحية الشام ، ليكون ذلك اعلاما لقيصر الروم الذي كان يحكم الشام ، بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا الدين الجديد فيتعرف الحال والمآل ، فيكون ذلك تنبيها له ما بعده ، كما سيجيء الأمر في الغزوات التي اتجهت الى لقاء الرومان في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

لذلك اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم الى دومة الجندل ليدنوا الى أدنى الشام من الصحراء العربية ، ولأن دومة الجندل كان بها جمع كبير ، وأنهم كانوا يشبهون قطاع الطريق ، فيسرقون من يمر بهم وينتهبونه ، ومع ذلك كان فيه سوق عظيمة • فكان لابد أن يغزوها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليؤمن طريق جيوشه عندما يريد الشام ، خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة في شهر ربيع الأول من السنة الخامسة ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري •

(١) آل عمران

ونرى من هذا أنه ما كان يخص نوعا ، معيناً من الرجال باستعمـــاله في المدينة وهو غائب عنها وفي ذلك اشعار للمؤمنين بأن الولاية حق لكل مؤمن من غير نظــر الى قبيل أو نــوع من الرجال ٠

ندب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناسْ ، وخـــرج في ألف من المسلمين ، وكان يسير بالليل ، ويكمن بالنهار ، ولعل الوقت كان صيفاً ،فكان السير ليلا أخف وأيسر ، وعلى أي حال،فهو كتمان للمسير ، والحــرب خدعة ، وكان يسير ومعه دليل من بني عذرة ،وهو هاد خريت ٠

لما دنا من دومة الجندل ، وقد وصل الخبر اليهم ، فتفرقوا فنزل بساحتهم ، فلم يجد أحـــداً فاقام بها أياما ، وبث سراياه ، داعية الى الاسلام بين الأقوام متعرفة فاحصة وقد أسلم على يديه من أسلم ، ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد شهر من خروجه ٠

النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة :

٤٦٧ ــ كانت غزوة بدر الآخرة في شعبان من السنة الرابعة ، ثم كانت من بعد غزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة ، فمكث الرســـول صلى الله تعالى عليه وسلم من غير غزو نحو ستة أشهـــر أو تزيد ، فمـــاذا كان يعمل ؟

ونقول في ذلك كان يقـــوم بحق التبليغ للرسالة ، فما بعث محمد صـــلى الله تعالى عليه وسلم للقتال ، ولـــكن بعث لتبليغ رسالة ربه ، وما كان القتال الا دفعاً للذين يقفون في سبيل الدعوة، أو يكيدون للنبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وللمـــؤمنين ، أو يريدون أن يفتنوا الناس عن الاسلام ، فالقتال كان لحماية الدعوة ، وهي الأصل ، وبيـــان أحكام الله تعالى للعباد هي تبليغ الرسالة والله تعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٧ ﴾ (١)

(١) المائدة

كانت اقامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة في الفترات التي تكون بين الغزوات لبيان حقائق الرسالة المحمدية ، والأحكام الشرعية ، وتعليم المؤمنين ما يدعو اليه ربهم ، وتحفيظهم ما يتيسر لهم من حفظ القرآن بحيث يحفظه مجموعهم ، ويحفظ بعضهم كله كزيد بن ثابت . فكان عمله عليه السلام في فترات السلم تبليغ ما أمره الله تعالى به ، وبيان الطريق لتنفيذه وتطبيقه ، وتعليم الناس ما لا يمكن معرفته الا بالتدريب عليه .

لقد رأينا بعد غزوة بني النضير نزول القرآن بتحريم الخمر ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتولى تنفيذ ذلك التحريم ، ببيان العقوبات الزاجرة المانعة من الشرب ، فقد جيء له بشارب ، فضربه بالنعال أربعين بنعلين ، فكانت ثمانين ، فاعتبر كثيرون من الصحابة حد الخمر ثمانين ، وشدد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المنع ، فقال في شارب الخمر : اذا شرب ، فاضربوه ، فان عاد فاجلدوه ، فان عاد فاقتلوه .

وجاء قوم يقولون انا بأرض برد نستدفىء بالخمر ، فنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن شربها ، فقالوا انهم لا يمتنعون ، قال فقاتلوهم وبذلك بين لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الشرع ، ودربهم على تنفيذ ما أمر الله به ، وما نهاهم عنه ، ويقيم الحدود التي شرعها الله تعالى ، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بما أنزل الله تعالى .

وقد بين لهم صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الزواج ، وشرح لهم المحرمات ، وعلمهم الفرق بين ما هو سفاح ، وما هو نكاح ، وما للرجل على امرأته ، وما لها عليه من حقوق ، وبين أحكام الملكية الخاصة ، وبجوارها الملكية العامة ، وما على الآحاد من الناس من حقوق ، وما عليه واجبات ، ويتلقى الذين جاؤوا اليه ليتعلموا الاسلام ، ويرسل الى كل عشيرة أو قبيلة من يعلمها أمر دينها ، ويتحقق بذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) التوبة

فهو يرشد ويهدي بنفسه من يجيئون اليه ، ومن هم قريبون منه ، ويرسل رجاله الى من يرشدونهم ويتلقى القرآن، من لدن حكيم عليم ، ويأمر من بحضرته ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوا ما ينزل به الروح الأمين •

ويعلمهم صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام البيوع والشروط ، والمعاملات والديون وما يتعلق بها وغير ذلك من الأحكام التي تنظم الجماعة الاسلامية ، وتكون منها المدينة الفاضلة ، وهو في هذا يبلغ رسالة ربه •

غزوة الخندق :

٤٦٨ ـ كانت غزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة ،وبعدها بستة أشهر كانت غزوة الخندق ، اذ كانت في شوال من السنة الخامسة وفي هذه الأشهر الستة كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبلغ الدعوة ، ويعلم المؤمنين مبادىء الاسلام في المجتمع والفضيلة ، والمعاملات المالية ، وغير المالية ، ويبث دعاته في البلاد العربية،وأخبارها تتجاوزها الى ما وراء تلك البلاد ، تسري فيها كما يسري النور ،وهو آمن مطمئن ، لم يزعجه غاز يغزو مدينته ، ولا غادر يغدر به في دعوته الحق ، يجيئه المؤمنون به فرادى من كل القبائل ، ينضمون الى صفوفه ، أويعودون دعاة الى أقوامهم ان وجدوا فيهم •

وكان اليهود من بني خزاعة بجواره ، قد يكيدون له ، وان كانوا لا يظهرون ، يمالئون الأعداء ، ويتضافرون مع المشركين ممن يرسلونهم من بني النضير الذين أجلوا ، فهم جميعاً ملة واحدة في الكيد للمسلمين وارادة اقتلاعهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسالمهم ، ويحذرهم ، يخادعونه ، والله خادعهم •

ونوجه الأنظار الى أن الغزوات المحمدية ما كانت تتجاوز شهراً في سيرها ، وذلك قليل في عمر الدعوة الاسلامية ، وهي كأمر يعرض فيدفع ، ثم ينصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى تبليغ رسالة ربه ، وبيان شرعه والدفاع بالحجة والبرهان عن العقيدة والرسالة أمام اليهود ، وأمام المشركين لا يألو جاهداً ، فهو يجادل ويبلغ ويعلم،ويحفظهم القرآن ويعلمهم الحكمة ، فيرددون أحاديثه ، وينقلون أعماله ، والرسالة يتكامل تبليغها •

كيف كانت غزوة الخندق وأسبابها :

٤٦٩ ـ ان السياق التاريخى للوقائع يشير الى أن القرشيين تضعضعت نفوسهم ويظهر أنهم ما كانوا ليقدموا على حرب وحدهم ، خشية من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من جند أشداء فقد مكثوا لا يقاتلونه ولا يذهبون سنتين كاملتين ، وان كانوا يشجعون عليه غيرهم من غطفان وغيرهم ، ممن غدروا وخانوا ، وهم كانوا يهابون لقاء المؤمنين الأشداء الذين يطلبون الحياة من وراء الموت ،ولا يضنون بنفوسهم على الاستشهاد ·

كل قبيلة من الأعداء كانت تخاف المؤمنين وحدها ، واذا كانوا قد اجتمعوا على الشرك والكفر فانهم أرادوا أن يجتمعوا على القتال ، فينقضون على المؤمنين مجتمعين ، ويقتلعونهم من المدينة لتعود كما كانت دار شرك ويهود كما كانت أولا ·

واذا كانت الحاجة الى نصر الشرك تدعوهم الى الاجتماع ، فقد أخذ كبار اليهود الذين طردوا من المدينة يدبرون لهم ، ويدخلون في صفهم ، فاجتمع ناس من بني قينقاع ، وبني النضير ، بالمشركين يحرضونهم على الاجتماع ، وأن يكونوا معهم ، والمنافقون يؤيدونهم ، وبنو قريظة من ورائهم ، فكان اليهود مدبرين ، أو مشتركين في التدبير ·

قال ابن اسحاق بسنده « انه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلي ،وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ، وبني وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقالوا انا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله ·

قالت لهم قريش يا معشر يهود : انكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ، قال اليهود أهل الكتاب الذين يدعون أنهم يتبعون التوراة : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم

أولى بالحق ، وهكذا نرى حقـــدهم ،وعنادهم دفعهم الى الكفر في دينهـــم ، ولقد نزل فيهم قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

لم يكتف هؤلاء اليهود بتحريض قريش الذين لم يكـــونوا محتاجـين الى تحريض ، ولكن يحتاجون الى من يؤازرهم ، بل ان أولئك النفر من اليهـود خرجوا الى غطفان من قيس بن غيـلان فدعوهم الى حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروهم أنهـم يكونون معهم ، وأن قريشا قد تابعوهم اجتممت الأرض كلهـا ، واجتممت قـــريش ،وغطفان ، اجتمع هؤلاء ومعهم اليهـود وغيرهم فخرجت قـــريش بقيادة أبي سفيان بن حرب •

وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ، وكان في بني فزارة •

وبنو مرة وقائدهم الحارث بن عوف المري •

وغير هؤلاء من القواد الذين كانوا يقودون جماعات •

اجتمع هؤلاء ومعهم قبائل من العرب، ليغزوا المدينة ، وقد أمر الله تعـالى نبيه بأن يقاتلهـم كافة ، وانه لناصرهم كما قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾(٢)

سمع النبي صلى الله تعالى عليـــهوسلم بمســـيرهم ، وجاءه الخبر بكثرة الجموع ، وما دبروا ، وما استحصدوا له •

وروي أن أبا سفيان أرسل مرعدا مهددا بهذه الجموع التي جمعها ، وكتب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هذا نصه :

أما بعد فانك قد قتلت أبطالنا ، وأيتمت الأطفال ، وأرملت النساء والآن قد اجتممت القبائل والعشائر يطلبون قتالك ، وقلع آثارك ، وقد جئنا اليك

---

(١) النساء (٢) التوبة

نريد نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك ، والا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار .

تجاوبت القبائل من فزار لنصر اللات في بيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

وقد نقل هذا الكتاب في كتاب السيرة لابن جرير الطبري .

وقد أكد هذا الكتاب ما وصل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أخبار ولم يجد تهديده لاعتماد النبي والمؤمنين على الله .

ورد عليه الصلاة والسلام كتابه قائلا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق وفهمت مقالتكم فوالله ، مالكم عندي جواب الا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام وبفلق السهام وخراب الديار ، وقلع الآثار والسلام على من اتبع الهدى » .

ونشك في نسبة هذا الكتاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما فيه من السجع .

ومهما تكن قيمة الرواية ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مضى في الاستعداد .

فجمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صحابته ، واستشارهم فيما يصنع مع هذه الجموع ، لقد كانوا أكثر من أن يخرجوا اليهم ، ولا أن يتركوهم يدخلون المدينة ، وخصوصاً أن بني قريظة على مقربة من المؤمنين يدلونهم على عورات المسلمين لا هذا ولا ذاك يصلحان للعمل ، ولا بد من عمل يكون وقاية حتى يجيء نصر الله تعالى ، وقد وعد به ، فقال تعالى :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

استشار أصحابه ، فتقدم سلمان الفارسي ، وأشار بالخندق ، لأن ذلك كان يصنعه الفرس في حروبهم ليحولوا بينهم وبين القوى المهاجمة ، وكان في زمن موسى عليه السلام .

(١) الروم

اختار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرأي ، وهو جديد في العرب ، قد تروعهم فكرته ، ويفزعهم أمره ، فأخذ في تنفيذه .

فجمع المسلمين ليحفروه ، حتى اذا جاءت الأحزاب وجدوه حائلا بينهم وبين مآربهم .

حفر الخندق :

٤٧٠ ـ كان على أهل المدينة أجمعين أن يشتركوا في حفر الخندق ، والنكبة في ذلك الهجوم العام تعم أهل المدينة أجمعين ولا تخص ، فان الشر اذا طم لا يفرق .

ولكن المنافقين يستأذنون في التخلف، ويعتذرون بالضعف ، وما كان من ضعف الأجسام فالعذر فيه انما كان عذرهم في ضعف الايمان .

ومنهم من استجابوا للدعوة ، ولكنهم عندما اشتدت الشديدة ، أخذوا يتسللون لواذا ، لأنهم لا يريدون أن يشتركوا في نصرة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو كان في ذلك انقاذ للمدينة التي تؤويهم من أن تخرب بيد المشركين ، ولقد قال سبحانه وتعالى فيهم :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١)

ومع ذلك تخلفت طائفة من المنافقين ابتداء ، وذهبت أخرى ، ولكنها كانت أشد نكاية من الأولى لأنها كانت تخذل وتوهن قوة العاملين ، اذ كانت تتسلل لواذا غير عاملة تثير الاحساس بالشدة، وليشجعوا من يمكن أن تخور عزائمهم، والأمر صعب شديد .

تقدم المؤمنون الصادقون لحفر الخندق ، والنبي صلى الله تعالى عليه

---

(١) النور

وسلم معهم ، يحفر ويشتد في الحفر ،حتى يستر التراب جلد جسمه صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يني عن العمل بجد لاغب ، ولا يقبل أن يعفيه المؤمنون ، ولسان حاله يقول انه ليس أقل منهم في طلب الجزاء ، ولا أضعفهم •

كان حفر الخندق في ذاته عملا شاقا مجهدا ، وقد أقبل عليه المؤمنون ببشر وترحاب ، وكانوا ينشدون الرجز ، والنبي يشاركهم بأن يقول معهم آخر كلمات الرجز الذين ينشدونه ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ما يناسبه مما يثير همة المؤمنين بالدعاء لهم • فيروى أنه كان يقول : « اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » وذلك تشجيع للعمل ، وترنم بما يرجو المؤمنون •

وهم ينشدون :

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الاسلام ما بقينا أبدا

وينشدون أيضا :

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام ان لا قينا

ان الألى قد بغوا علينا ... اذا أرادوا فتنة أبينا

كانوا ينشدون هذه الأشعار ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينشد الأشعار ، ولا ينبغي الشعر له ، فما كان يتابعهم في البيت من الأبيات ،ولكنه كان يجهر بالقافية معهم مشاركة في الوجدان والاحساس من غير أن يقول ما لا ينبغي له أن يقوله •

وهكذا كان شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم في كل ما كانوا ينشدونه يشاركهم في النشيد بآخر القوافي •

اقتران حفر الخندق :

٤٧١ ــ ولقد اقترن حفر الخندق بمشقة شديدة اذ ابتدأ في غداة يوم شديد البرودة •

وقد قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحفر من الخندق بين الصحابة من الأنصار والمهاجرين فكان يجعل لكل عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم أربعين ذراعا •

وقد اختلف الصحابة فيمن يكون سلمان الفارسي منهم . لأنه صاحب الفكرة التي هداه الله تعالى عليه . ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « سلمان منا آل البيت » .

ولقد كان العمل شاقا ، ولم يكن القوت كافيا ، لأن كثيرين من الصحابة قد انقطعوا عن موارد أرزاقهم، فاجتمع لديهم شدة العمل وقسوته والجوع . ولكن الايمان كان يخفف كل شدة ، والصبر يوجد قوة احتمال ، ورعاية الله تعالى فوق كل شدة .

وقد ذكر ابن اسحاق وغيره من الرواة أنه قد حدثت خوارق كثيرة على يدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في تلك الشدة التي اشترك فيها كل أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو على رأسهم .

قال ابن اسحاق ، وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله عبرة في تصديق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحقيق نبوته ، عاين ذلك المسلمون .

منها ــ معجزة الكدية (وهي صخرة شديدة صلبة) فكان مما بلغني أن جابر بن عبد الله كان يحدث أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية ، فشكوها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأتى باناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله تعالى أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فوالذي بعثه بالحق نبيا لانهالت حتى عادت كالكثيب .

هذا كلام ابن اسحاق : وقد رويت مسألة الكدية بروايات أخرى ، ذكر الثانية ابن اسحاق كما ذكر الأولى ، وقد ذكرت الثانية في كتب السنة الصحاح الأخرى .

قال ابن اسحاق في الرواية الأخرى ، وحدث عن سلمان الفارسي أنه قال ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت علي صخرة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قريب مني ، فلما رآني أضرب ، ورأى شدة المكان علي نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال ثم ضرب به أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قلت (أي سلمان) بأبي أنت وأمي ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول

وأنت تضرب ؟ قال : وقد رأيت ذلك ياسلمان ، قلت نعم ، قال : أما الأولى فانه قد فتح على اليمن ، وأما الثانية فاته قد فتح علينا الشام والمغرب ،وأما الثالثة فان الله تعالى قد فتح علي بها المشرق .

هذه رواية تخالف الأخرى ، ولا مانع من أن يكون الأمران قد وقعا ، وخصوصاً أن الأولى رواها جابر والثانية رواها سلمان الفارسي ، ولكل رواية واقعة ، وفي كل واحدة منهما خارق للعادة ، ففي الأولى كانت نضحة الماء الذي فيه تفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أذابت الصخر فجعلته ككثيب الرمال .

والخارق في الثانية أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجرى الله تعالى على يديه ما كشف له به أنه سيفتح الله تعالى أمة اليمن وما وراءها والشام وما وراءها الى المغرب ، والمشرق ، وهو يمتد الى الهند والصين .

ونحن لا ننكر خوارق العادات ، ولا يمكن أن ننكرها قط على نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يجب أن نؤكد هنا ، ما أكدناه من قبل ،وهو أن هذه الخوارق التي أجراها الله تعالى على يد رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليست هي معجزته التي تحدى فيها الناس أن يأتوا بمثلها ، انما المعجزة الكبرى هي القرآن الذي تحدى العالمين أن يأتوا بمثله ، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

الجوع والطعام :

٢٧٤ ــ قلنا ان حفر الخندق اقترن بمشقة شديدة في الحفر ذاته ، وبمشقة أشد في الجوع للبعد عن قلب المدينة ،ولانقطاع المؤمنين عن العمل للرزق ، بالانصراف للحفر ، غير مدخرين أى جهد لغيره ، وحتى ما يقوم به الأود ، وان الجهاد في سبيل الله غذاء النفوس يقبلون عليه ولو تعبت في سبيله الأبدان ، وأرهقت الأجساد ، لانهم يريدون ما عند الله ، وعنده الفوز العظيم .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الأسوة الحسنة في الصبر وضبط

النفس ، والجلادة وتحمل الجوع ، حتى انه صلى الله تعالى عليه وسلم ليشد الحجر على بطنه حيث لا يجد ما يذوقه .

لقد عرض البخارى حديث جابر عن الكدية ، وجاء فيه « انا يوم الخندق نحفر حفرة ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام ، لا نذوق ذواقاً » .

تلك صورة للجوع الذين كانوا فيه ، وهم يجالدون ، ويبذلون ما لا يبذله الا أقوياء الرجال في دينهم ونفوسهم ، وهنا نجد الخوارق تكون في بركة الطعام القليل الذي يتغذى منه العدد الكثير .

ويذكر ابن اسحاق في ذلك روايتين في بركة الطعام .

ــ أولاهما ــ البركة في تمر ابنة بشير : ذكر ابن اسحاق بسنده « أن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير حدثت فقالت : دعتني أمي عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة الشاعر الأنصارى فاعطتنى حفنة من تمر في ثوبى ، ثم قالت أي بنية اذهبي الى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما فأخذتها ، فانطلقت بها ، فمررت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا ألتمس أبي وخالي ، فقال عليه الصلاة والسلام : تعالى يا بنية ما هذا الذي معك ، فقلت يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمي الى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه .

قال صلى الله تعالى عليه وسلم هاته : « فصببت في كفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما ملأهما ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دعا بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لانسان عنده اصرخ في أهل الخندق أنه هلم الى الغذاء فاجتمع أهل الخندق ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وانه ليسقط من أطراف الثوب .

ــ الثانية ــ وهى تشبه هذه ، وان كان قد اختلف موضوعها ، ذكر ابن اسحق عن جابر بن عبد الله أنه قال عملنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الخندق ، وكانت عندي شويهة ليست جد سمينة ، فقلت لو صنعناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من

الشعير ، صنعت لنا منه خبزاً ، وذبحت تلك الشاة ، فشويناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أمسينا وأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الانصراف من الخندق ، قلت يا رسول الله اني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا ، فأحب أن تنصرف معي الى منزلي ، وانما أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحده ، فلما قلت له ذلك قال نعم ، ثم أمر فصرخ صارخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيت جابر بن عبد الله • قلت انا لله وانا اليه راجعون •

أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرجناها اليه فبرك وسمى ، ثم أكل ، وتواردها الناس ، وكلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس ، حتى صدر أهل الخندق عنها ، أي أن الشاة غير السمينة كفتهم جميعاً •

ولا شك أن هذين الخبرين بهاتين المسألتين يدلان على خارق للعادة جرى على يدى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك من خوارق ، منه ما ذكرنا ، في لقائه عليه الصلاة والسلام ، وغذائه في بيت أم معبد وهو في طريقه الى الهجرة •

وان الخبر يدل فوق ذلك على الجهد الشديد الذي أصاب الصحابة ومعهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قلة الطعام •

ويدل على أمر سام ، وهو فضل التعاون ، وهو أنه كان لا ينفرد أحدهم بطعام عن الباقين بارادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهديه وحكمته •

اللقاء :

٤٧٣ ــ أقبلت قريش ومن معها من كنانة وتهامة والأحباش وكانوا في عدد كبير بلغ عشرة آلاف منهم وممن معهم ونزلوا في أسيال رومة بين مكانين أحدهما اسمه الجرف ، والآخر اسمه زغابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، ونزلوا عند أحد ، وكان عدد قريش أربعة آلاف ، وعدد من معهم ستة آلاف وكانت لهم قيادات مختلفة ، فكان يقود قريشا أبو سفيان بن حرب ، وكانت غطفان بقيادة عيينة بن حصن وكان ثمة قواد يقودون أعدادا

ليست بالكبيرة نسبياً ، فكانت أشجع بقيادة مسعود بن رخيلة وعددهم أربعمائة ، وكانت سليم يقودهم سفيان بن عبد شمس ، وعددهم سبعمائة ٠

لم تكن لهؤلاء قيادة موحدة ترسم الخطة ، ويتبعها الجميع ، وان جعل كل قيادة على قومها يتولى القوم رجل منهم، وقد يكون ذلك مفيداً في ذاته ، ولكن يجب أن تكون ثمة قيادة عامة ترسم للجميع ٠

ومهما يكن فهم لم يختلفوا ، لأنهم جاؤوا الى المدينة ، فلم يجدوا ما يمكنهم من الهجوم جميعاً أو متفرقين ، وما كان ذلك سبب الهزيمة التى منوا بها بنصر الله للمؤمنين بالريح والرعب ٠

لقد جاؤوا الى المدينة يحسبون أنهم يغيرون عليها ، وليفرقوا أو يقضوا عليهم ويسبوا نساءها ، لقد جاؤوا بعد ما تم حفر الخندق ٠

فوجئوا بأنهم لا قبل لهم بأن يدخلوا المدينة ، فوجئوا بالخندق يحول بينهم، وبين أن يقتحموا جند المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بمثله ، ورأوا كيداً لم يكن بتدبير عربي ، بل بعقل آخر ، وبذلك لم يروا أن مهمة القضاء على محمد وأصحابه سهلة ، انها تحتاج الى تدبير آخر غير ما دبروا ، وأن يدخلوا الى المدينة من غير هذا المكان ، فانه لا يمكن أن يدخل منه جند كثيف كعددهم ٠

عندئذ تحرك حيي بن أخطب الذي جمع متفرقهم ، وان لم يكونوا مندمجين موحدين في قيادتهم ، وانه اذ نجح في تحريضهم ، لا يمكن أن يتخاذل عن أن يضم اليهم بنو قريظة ، وقد كانوا يتمنون الغوائل للمؤمنين ، ويريدون الوبال لهم ، وربما كان لهم سعي في الحركة ، وان لم يكن ظاهراً ، تسلل اليهم حيي ، ليكونوا وراء المؤمنين ، وقد يحيط الجميع بهم ، وليجدوا منفذاً الى المدينة عن طريقهم ، ويعملوا معهم ، ويكون المشركون من فوقهم ، وبنو قريظة من أسفلهم ٠

لم يكن بنو قريظة ممن يغامرون ، وكانوا حريصين على الحياة ، كشأن اليهود ، كما قال تعالى فيهم :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ (١)

---

(١) البقرة

دخل حيي بن أخطب على كبيرهم كعب بن أسد القرظي ، الذي وادع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه ، وبعد أن عرض بشجاعته ، عنيفاً ، وقال له انك امرؤ مشؤوم ،واني قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه الا وفاءومعهما عبد الله بن رواحة ، وقال لهم فتح له الباب ٠

ولننقل لك الحديث لتعرف ما كانت تجري به الأمور ، وما كان يسري في النفوس ٠

قال حيي : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر،وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم على جانب أحد ،قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ٠

قال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماء (أى بسحاب قد نزل ماؤها) فاني لم أر من محمد الا وفاء وصدقا ٠

فلم يزل حيي يتحايل بالقول ، ويفتل بالذروة والغارب حتى سمع له واستجاب لما يطلب ، وبذلك كشف طبع اليهودي ، فهو لا يفي بعهد شرفا وكرامة ولكن يفي مضطرا خوف الذل والمهانة ولذلك وافق ، عندما أقنعه بأن القوة مع قريش ، وأمنه على مستقبله،فأعطاه عهدا وأعطاه ميثاقا قائلا له : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ٠

اطمأن كعب ، فنقض العهد ، وهو من شيمته ، وما كان التمسك الا حرصا منه على نفسه ، وخوفا عليها ، فأتاه الشيطان من ناحية نفسه ، فاقتنع ، والعداوة فيه أصيلة ٠

ولذلك سرعان ما انضمت قريظة الى الأحزاب التي جاءت من المدينة ،وكان ذلك فيما بينهم وبين حيي ، وعمل على أن يبلغه لقريش ومن معهم ٠

ولكن وصل الخبر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الحذر الحريص الذي لا يؤتى من غفلة صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يستوثق ليكون الخبر كالعيان فأرسل الى بني قريظة سيد الأوس سعد بن معاذ ، وسيد الخزرج سعد بن عبادة ومعهما عبد الله بن رواحة ، وقال لهم انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فان كان حقا فالحنوا الي لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا فاجهروا به أمام الناس ·

ذهبوا اليهم فوجدوهم على أخبث حال ، نالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنكروا العهد وقالوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ،وقالوا منكرين من رسول الله فلم يطق سعد بن معاذ صبرا فشاتمهم وشاتموه وقال لهم سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أدنى من المشاتمة ·

عاد السعدان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكرا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غدرهم ،ولكن بلحن القول ، لا بصريحه حتى لا يفت ذلك في أعضاد المسلمين ·

المنافقون :

٤٧٤ ـ جاء المشركون من أعلى واليهود من أسفل ، والمنافقون في داخل المسلمين يقولون ويوهنون العزائم ، ويضعون في النفوس روح التردد والهزيمة والنفاق ، وزلزلت قلوب ضعفاء المؤمنين ، وظنوا بالله الظنونا ، حتى قال بعض ضعفاء الايمان قول غير المؤمنين : كان محمد يعدنا أن ناكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط، ووجد من يستأذن في التخلف من أولئك الضعاف في أيمانهم ، حتى قال بعضهم « يا رسول الله ، ان بيوتنا عورة من العدو » وذلك على ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نرجع الى دارنا ·

وان أبلغ التصوير للنفوس في هذا الهول هو كلام الله تعالى عن الأحزاب وآثارهم ، فيصف ما في الأنفس العليم بذات الصدور ، يقول سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ
يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا
الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ
الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ
أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ
لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

(١) الأحزاب

هذا أدق وصف لحال النفوس في ذلك الهول ، فهل وهنت ارادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو ضعفت عزيمته، بل كان يؤمن بنصر الله تعالى ، ويدبر الأمر ، ويأخذ الأهبة بعزم الرسول ، وهو من أولي العزم من الرسل ، فضرب المثل لمن معه من المؤمنين •

حراسة المدينة :

٤٧٥ ـ تقدم للميدان بثلاثة آلاف من المقاتلين ، وأمر بالذراري والنساء أن تكون في أطم ، أي مبان متينة تكون كالحصون لكيلا يكونوا تحت عين بني قريظة ، ولكيلا يكون المجاهدون في فزع على نسائهم وذريتهم ولكيلا يصيبوا منهم غرة •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضع حراسة على المدينة خشية أن ينقضوا عليها ، فأقام سلمة بن أسلم على مائة من الرجال ، وأقام زيد بن حارثة على ثلاثمائة أخرى لحراسة المؤمنين من اليهود •

وذلك كله حذراً من المشركين ، وكان لابد من اتخاذ المكيدة ، والحرب مكيدة •

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

فأراد عليه الصلاة والسلام أن يخذل المشركين بعضهم عن بعض باثارة الطمع في بعضهم ، فيتخلون عن باقيهم ، فأراد أن يطمع غطفان ومن معها من نجد ، فأرسل الى عيينة بن حصن والى الحارث بن عوف بن أبي حارثة من قوادهم ، فطلب اليهما المصالحة على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة ، فقبلوا ذلك طمعا منهم ، وأن يعودوا ، وكتبوا الكتاب من جانبهم ولم يكن من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهادة ولا عزيمة صلح لأنه لا يمكنه أن يعزم ذلك من غير مشورة أهل الثمار ، فلما عرض عليهم من بعد أن جاء الكتاب ، وكان ذلك العرض أن بعث الى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، فذكر لهما ذلك ، واستشارهما •

(١) آل عمران

قالا له يا رســـول الله : أمرا تحبه فتصنعه أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، قال صلى الله تعالى عليه وســـلم بل شيء أصنعه لـــكم ، والله ما أصنع ذلك ، الا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكـم شوكتهم الى أمر ما .

قال سعد بن معاذ : يا رســول الله قد كنا ونحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ،وهم لا يطمعـــون أن يأكلوا منهـــا ثمرة الا شراء أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله تعالى بالاســـلام ، وهـــدانا اليه ، وأعزنا به وبك تعطيهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهـم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم : فانت وذاك . فتناول سعـــد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، وبذلك انتهت ارادة الصلح ، ان كانت .

وقـــد أفاد عـرض الصلح أمرين عظيمين .

أولهما : أن النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم علم عزمة أصحابه ، وأنهم يريدون لقاءهم .

ثانيهما : أن ذلك أطمع غطفان ومن معها من القبائل ، والطمع اذا سكن حل العزيمة وقد ترتب على ذلك الاطماع ، أنهم تململوا بطـــول الحصـــار وجرى بينهم وبين القرشيين خـلاف وهموا أن يعودوا من حيث جاؤوا من غير أن ينالوا شيئا .

إســلام نعيم بن مسعود :

٤٧٦ ـ بهذا العرض خـذل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين قريش ، وبين من جاؤوا بهم من الأعراب ،وبقي أن يخذل بين اليهـود وبين المشركين ، وساق الله تعالى اليه من رضي بأن يكون لسان ذلك التخذيل .

فقد أتى رجل من غطفان هو نعيم بن مسعود وقال يا رسول الله اني قـد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت فقال صلى الله تعـالى عليه وسلم انما أنت فينا رجل واحـد فخذل عنا ان استطعت ، فان الحـرب خدعة .

خرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي اياكم وخاصة ما بيني وبينكم ، ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تجلوا منه الى غيره ،وان قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ،وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ،فلا تقاتلوا مع القوم ، حتى تأخذوا منهم رهناء من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، قالوا لقد أشرت بالرأي ٠

كان هذا تنبيه صدق لبني قريظة ،وان كان القصد تخذيلهم عن قريش ، ولم يكن كاذبا ٠

ذهب من بعد الى أبي سفيان بن حرب قائد قريش ، وقال قد عرفتم ودي لكم ، وفراقي محمداً ، وانه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عني ! فقالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا ، فيما بينهم وبين محمد ، وأرسلوا اليه ، انا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على ما يبقى فنستأصلهم ، فأرسل اليهم أن نعم ، فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهناً ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحداً ٠

ثم خرج الى غطفان فقال لهم مثل ماقال لقريش ٠

بعد هذا التحذير من ذلك المسلم التقي المدرك ، أرسل أبو سفيان عكرمة ابن أبي جهل يستنهض قريظة للقتال وقال لهم ، انا لسنا بدار مقام ، قد هلك منا الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، وكان اليوم يوم سبت ،فاعتذروا ، وقالوا لا نعمل فيه شيئاً ، وكان بعضنا قد احدث فيه حدثاً ،فأصابه ما لم يخف عليكم ٠٠ ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً ، حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً ،فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به ، ولا طاقة لنا بذلك منه ٠

هكذا أدركت قريش أن بني قريظة تريد أن تأخذ لنفسها أمانا من الرجعة فيما تقول ، وهي تريد قتلهم ، وأدركت قريظة أنهم لا يريدون تأمينها ، وبذلك تم ما أريد من التخذيل بينهم وأشد التخذيل ما يكون بفقد الثقة وأن يتظنن كل فريق ·

ولكن الفريقين مع ذلك استمروا في غيهم ، فكانوا يبثون العيون على أطم المسلمين التي بها الذراري والنساء ، لينقضوا عليهم ، وينالوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ·

فاذا كان للتخذيل أثر ، ففي فقد الثقة بين الفريقين ، ولكن عداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما زالت تجمع بينهما ، فلم تنخلع قريظة عن الايذاء وارادة الانقضاض على بيوت المؤمنين ·

٤٧٧ ـ كانت صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أطم (حصن) لحسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه ، ولم يكن محاربا ، فكان مع الصبيان والنساء ، ولم يكن الحجاب قد نزل ، قالت صفية ، « فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلمت ابنة عبد المطلب من أنه يطيف بمساكن الذراري والنساء ، ومن أن قريظة قطعت ما بينها وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن هذا الرجل عين على المسلمين ، ويريد عورات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

قالت السيدة صفية لحسان الشاعر ، ليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا ، ان أتانا آت ، وأن هذا اليهودي يطيف بالحصن ، واني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله : قال حسان : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله عرفت ما أنا بصاحب هذا ولما لم أر عنده شيئا احتجزت (أي شدت وسطها) ثم أخذت عمودا ،

ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود ، حتى قتلته ، فلما فرغت منه ورجعت الى الحصن ، فقلت : يا حسان انزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعني من سلبه الا أنه رجل ، فقال مالي بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب .

وقد ذكرنا هذه القصة لا لنثبت شجاعة أخت حمزة أسد الله ، ولا لحال حسان رضي الله عنه ، ولكن ذكرناها ،لنعلم منها كيف كان اليهود حريصين على أن يأتوا دور النبي والصحابة في غيبتهم .

الجيشان :

٤٧٨ ـ تلاقي الجيشان : يعتز جيش الشرك بكثرة العدد وكثرة العدة ، وأنه من جميع العرب ، ويعتز بأنه استطاع بمحالفته لبني قريظة أن يحيط بالمدينة ، وأنه يستطيع الانقضاض عليها من طريق حلفائه ، ولكن لم يتنبه بأن فيه ضعفا ، يفرق كلمته ،اذ أن تعدد القواد ، لا يوحد كلمة قيادة موحدة تحسن الهجوم الموحد ،وبذلك لا تغني عنهم كثرتهم شيئا ، لأن الكثرة المتفرقة خير منها القلة المتحدة ،المتآلفة المتآزرة ، وهذا عيب ذاتي في أصل تكوين الجيش من أحزاب .

وفوق ذلك ما كان من اطماع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لغطفان وعدتهم ستة آلاف في صلح يأخذون فيه ثلث ثمار المدينة ، وان ذلك يثير طمعهم ، ويفت في عضدهم ، وان كان أمر الصلح لم يبت فيه ، ولكن بابه مفتوح لم يغلق .

ثم فوق هذا وذاك فقد الثقة بينهم وبين قريظة الذي لم يجعل ثمة فائدة في التحالف معهم ، وان كانوا قد عملوا عملا في ايجاد الذعر بين المؤمنين ، وربما كان منهم من حاول الهجوم على دور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وآل بيته الكرام ، وقد رأينا عيونهم تتبث في المدينة .

هذا جيش المشركين ومن معهم ، أما جيش أهل الايمان ، فقد خلصته الشدة من المنافقين فيه وضعفاء الايمان من الذين زلزلوا ، وكان خالصا

صافيا ، وليس فيه الا من قال فيهم :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

اجتياز الخندق :

٤٧٩ ـ فوجيء المتجمعون من المشركين بالخندق ، اذ لم يكونوا يعرفونه فلم يكونوا أهل حروب جماعية ، فعرفوا تدبيرها ومكايدها كما أشرنا من قبل ،وراوه سدا يحول بينهم وبين أن ينقضوا جمعا متكاتفا على المدينة ، فيقتلعوا الاسلام منها اقتلاعاً ، وبذلك طاش أول هدف لهم .

ولكن بعضهم وجد ثغرة منه فقد استطاع بعض فرسانهم أن يقتحمها ومنهم عكرمة بن أبي جهل ، وبعض بني مخزوم ، وعمرو بن عبد ود العامري العربي المرهوب الذي حضر بدراً وأثخن بالجراح ، ولم يحضر يوم أحد لجراحه ، وقد خرج يوم الخندق معلماً ليرى مكانه ، ويعلم أنه جاء لشفاء غيظه .

وقد خرج منادياً للمبارزة ، وأراد علي أن يخرج له فرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرتين حتى عير المسلمين، فعندئذ خرج علي اليه ولم يمنعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

فلما التقيا قال له علي داعياً الى الهدى : يا عمرو ، انك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا أخذت منه خيرهما .

قال عمرو : أجل .

قال علي : فاني أدعوك الى الله ورسوله والى الاسلام . قال لا حاجة لي بذلك .

قال علي : فاني أدعوك الى النزال، فقال له لم يابن أخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له علي : لكني والله أحب أن أقتلك ، فحمي عمرو عند ذلك واقتحم عن فرسه ، وعقره . ونزل للقاء علي ، ويظهر أن علياً كان راجلا ، فأبى أن يقاتل علياً الا راجلا .

(١) الأحزاب

ثم أقبل على علي ، فتجاولا وضرب ضربة تلقاها علي بدرقته ، ولكنها اخترقتها وجرحت رأس علي ، فضربه علي ضربة في ترقوته فقتلته ، وكانت ضربات علي أبكاراً عندئذ كبر المسلمون ، فعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن علياً رضي الله عنه قد قتله ٠

اقبل علي نحو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووجهه يتهلل ،فقال له عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه، فانه ليس للعرب درع خير منها ، قال علي ضربته ، فاتقاني بسوءته ، فاستحييت ابن عمي أن أسلبه ٠

ويظهر أنه كان عظيما بين المشركين يعتزونه فارسلوا يطلبون جثمانه بمال يقدمونه ، فأعطاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اياه ، وقال هو لكم لأننا لا نأكل ثمن الموتى ٠

كان أولئك الذين قد اجتازوا الخندق وفيهم عكرمة ، وغيره ، وفي بعض الروايات فيهم خالد بن الوليد ،قد رأوا ما كان بين علي وعمرو بن عبد ود الذي كان كما قيل لم يهزم في مبارزة قط ، ولم يلبثوا من بعد مقتله الا أن يجتازوا الخندق كما بدؤوا ، وما تقدم أحد منهم لعلي بعد أن قتل عمرو بن عبد ود ٠

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه ان نوفل بن عبد الله بن المغيرة تورط في الخندق ، ورماه المؤمنون بالحجارة وجعل يقول : قتلة أحسن من هذه ، فنزل اليه علي وقتله ، وروي أن الذي قتله الزبير بن العوام ، وطلبت قريش جثته بعد قتله في نظير مال ، فأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير مال ٠ وقال لا نأكل ثمن الموتى ٠

٤٨٠ ـ استمر الحصار قائماً بعد الهجمة التي هجمها الذين اجتازوا الخندق من مكان ضيق غير مرتفع ، وقد قتل اثنان من المشركين فيه ، وهما نوفل المخزومي ، وعمرو بن عبد ود العامري ، ثم الرهبة بعد ذلك من اجتيازه ، وكان النبل من الجيش منهمرا كالسيل ، والمسلمون ينالونهم بالرمي أيضاً ، وقد قتل منهم واحد بالنبل ، وقتل من المسلمين خمسة ، أصيبوا فقتلوا ، والسادس كان هو سعد بن معاذ الصحابي الجليل الذي كان ثاني اثنين

ذهبا الى بني قريظة ، ورأوا خيانتهم للعهد في وقت الشديدة وسعد رضي الله عنه كان قد خرج الى الميدان بدرع غير سابغة ، فذراعاه كانتا عاريتين ، وأصابه سهم في أكحله ، أثبته ، ولكنه دعا الله تعالى ألا يموت الا بعد أن يرى في بني قريظة جزاء غدرهم فعاش رضي الله تعالى عنه ، حتى كان هو الحاكم فيهم ثم قبضه الله تعالى اليه راضيا مرضيا ٠

كانت المناوشة اذا بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمشركين ، اذ عجزوا عن أن يصلوا الى المؤمنين والخندق أمامهم ، والمؤمنون الصادقون من علي واخوانه من ورائه ، ومعهم سيوف تبرق ٠

فلم يكن لهم الا الهجوم على بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أسفل المدينة ، وان ذلك كما يظهر من جانب قريظة ،فهو الجانب الذي يمكن أن يجيء الشرك الى المدينة من جانبه ، وان الظن أن بني قريظة هم الذين قاموا به تأييدا لحلفائهم الذين نقضوا الميثاق من أجلهم ، وليشفوا غيظهم ، ولينالوا ثأر بني النضير وبني قينقاع من اخوانهم،وان كان ما أصابهم انما هو بالاعتداء ونقض العهد ، وغدرهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

يقول ابن كثير في تاريخه نقلا عن عقبة بن موسى « وجهوا نحو منزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتيبة فقاوموهم يوما الى الليل ، فلما حانت صلاة العصر رجعت الكتيبة فلم يقدر النبي ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه ، أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا ، فانكفأت الكتيبة مع الليل ، وروي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال شغلونا عن الصلاة ملأ الله بطونهم ، وقلوبهم وقبورهم نارا » ٠

وان هذا الخبر يفيد أن الذين كانوا على حراسة المؤمنين من خيانة بني قريظة هم الذين قاتلوهم ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لحق بأولئك المجاهدين الأبرار ، وردوهم فلم ينالوا شيئا من بيوت المؤمنين ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذ لحق بأولئك المجاهدين ترك حراسة الخندق للمجاهدين من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، وما بدلوا تبديلا ٠

واذا كانوا لم ينالوا منالهم ، فقد أزعجوا البيوت في المدينة ، وتلك هي الجريمة الكبرى التي ارتكبها القرظيون بنقضهم للميثاق كشأن أسلافهم

وأعقابهم من بعدهم ، وان ذلك أمارة اشتداد البلاء ، وأن الجمع بين صلاة العصر والمغرب في وقت المغرب قد ثبت في صحاح السنة في هذه الموقعة.

فقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وصيغته كما في البخاري عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ، وقال يا رسول الله ما كدت أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « والله ما صليتها ، فنزلنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتوضأ للصلاة ، وتوضأنا ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس . ثم صلى بعدها بالمغرب .

وان هذا يدل على جواز الجمع بين الصلاتين جمع تأخير لعذر الحرب ، وأجازه أحمد لعذر الحرب ولغيره .

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستجابته :

ـ ٤٨١

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١)

اشتد البلاء على الرسول والذين معه، فقد كانوا محاصرين نحو عشرين ليلة ، وكان من القرظيين تلك الخيانة، وان هموا بكتيبة غليظة أن يغزوا بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

نعم انه لم تكن الشديدة على المؤمنين وحدهم ، بل كان جيش الشرك في ليال برد شديدة البرودة ، وقد قل الزاد ، وجف الحافر ــ وأصابهم سوء الظن بعضهم ببعض حتى قال أبو سفيان متكلمهم انكم والله ما أصبحتم بدار

(١) البقرة

مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، كانت حال المؤمنين قابلة للصبر بالايمان ، أما غيرهم فـلاايمان يعزيهم ، ولا رجاء فيما عند الله يشجعهم ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دائم الاتجاه الى ربه ، ورويت عنه في هذه الموقعة عدة أدعية نبوية مفوضة ضارعة ، تكررت فكانت الاستجـابة كما قال تعالى :

﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

وكان من دعائه في هذه الشدة ما رواه الامام أحمد أنه قال : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » ، ومن دعائه ما رواه الصحيحان مسلم والبخـاري « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب اهزم الأعداء اللهم اهزمهم وزلزلهـم وانصرنا عليهم » .

ومن دعائه ما رواه البخاري عن أبي هريرة أنه كان يقول : « لا اله الا الله وحده ، أعز جنده ، وأعز عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

وقد استجاب الله تعالى لرسوله ، ومن أحق بالاستجـابة من الرسـول ، والدعاء عبادة ، وأي عبادة أطهر وأنقى وأخلص من عبادة الرسول .

أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية في يوم برد شديد البرودة ، وأرواح الله الطاهرة تبث الرعب في نفوسهم وفسد ما بينهم ، وبين أنفسهم ، فتخاذلت غطفان عن قريش ، وتظننت قريظـة فيهم وتظننوا فيها بل روي أنهم أرسلوا الى الرسول يطلبون اليه الصلح على أن يرد بني النضير الى أرضهم .

جاءهم الخوف وقد سكن قلوبهم ، وجـاءت الريح تزعجهـم ، حتى ان أبا سفيان يقول « لقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فاني مرتحل » .

ارتحلوا مذؤومين مخذولين ، وتركوا من ورائهم متاعهم .

ومن نالوا من المؤمنين قتلوا بالنبال من المؤمنين ستة ، وقتل المؤمنون منهم ثلاثة فيهم عمرو بن عبد ود ، الذي كان يعد بالعدد من الرجال ، ولا يعـد

---

(١) غافر

بالواحد ، قتله فارس الاسلام علي بن أبي طالب ولننقل ما ذكر الله تعـالى في بيان ختام الواقعة ، ونكرر التلاوة اذ تلوناه من قبل :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

قال تعالى في أثناء وصف القصـة ،وبيان نتائجها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

وبذلك انتهت معركة الأحزاب ، التي اهتزت لها الجزيرة العربية كلها ، ونادت بالويل والثبور وأنها مقتلعة الاسلام من موطنه ، فباؤوا بخسران مبين، منهـــزمين في الميدان ، ومضطـربين في نفوسهم ، وقـد رأوا من آيات ربهم الكبرى ما رأوا •

فقد جاء في كتاب مغازي الواقدي لما ملت قريش كتب أبو سفيـان كتاباً وبعثه مع أبي سلمة الحشني ، جاء فيه :

باسمك اللهم ، فاني أحلف باللات و العزى وأساف ونائلة وهبل ، لقـد سرت اليك في جمعنا ، وانا لا نريد ألا نعود اليك أبداً ، حتى نستأصـلكم ، فرأيناك قد كرهت لقاءنا ، فجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعري من علمـك هذا ، فان نرجع عنكم ، فلكم منا يوم كيوم أحد تنتصر فيه النساء •

فكتب النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم :

من محمد رسول الله الى أبي سفيان بن حربْ • أما بعد فقد أتاني كتابك ، وقد غرك بالله الغرور •

وأما ما ذكرت أنك سرت الينا في جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعـود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعله لنا حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قـولك من علمنا الذي صنعنا من ذلك ، فان الله ألهمني ذلك ، لما أراد من غيظك ، وغيظ أصحابك ،وليأتين عليـك يوم أكسر فيـه اللات والعزى ، وأساف ونائلة وهبـل حتى أذكرك ذلك •

---

(١) و (٢) الأحزاب

٤٨٢ ـ كانت لهذه الغزوة نتائج طيبة :

(أ) اذ رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وقد بذلوا أقصى ما يستطيعون فيها ، جمعوا العرب ليغزوا المدينة فما رجعوا الا بستة من القتلى يقابلهم ثلاثة فيهم فارسهم وقد قتله فارس المسلمين علي كرم الله وجهه .

وان أثر هذا أن ألقي اليأس في قلوبهم من أن ينالوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كانوا ليستطيعوا أن يقوموا بمثل ما قاموا به ، فكان لسان حالهم يقول ، لا نستطيع لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم سبيلا ، ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تغزوكم قريش بعد عامكم هذا . ولكنكم تغزونهم » ، ولقد أشار القرآن بذلك ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾(١)

(ب) وان العرب الذين كانوا قد طمعوا في المؤمنين بعد غزوة أحد التي اشاع المشركون فيها أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصحبه قد هزموا ، قد استكانوا ، ولم يعودوا طامعين في نصر ، بل نأى بهم الخوف عن أن ينالوا منالا ، أو يدبروا أمرا ، فلا يفكروا في اعتداء أو غدر ، أو ممالأة ، وان ذلك اليأس قد يدفعهم الى التفكير فيما يدعو اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كثر الذين يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داخلين في الاسلام أفواجا وفرادى ، اذ أن الغواشي قد زالت ، ومن ذلك كانت وفود القبائل العربية يجيئون يتعرفون الاسلام .

---

(١) الأحزاب

(جـ) وان الآيات المادية قد تؤثر في أولئك الماديين الحسيين ، وخصوصا اذا كانت في موطن الفزع ، فانها اذاجاءت من غير سبب يألفونه ويعرفونه، فانها قد تأخذ عقولهم الى التفكير السليم وتخلعها من الوثنية ، اذ يدخل اليها نور الحق شيئاً فشيئاً ، والنور كلما دخل أشرق ، واذا أشرق اتجهوا الى الحق وطلبوه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم •

(د) وان اليهود قد ظهرت نياتهم لمرأى العين، وانكشفت وصار ما تخفيه صدورهم أمرا معروفا • فقد كانت هذه الشديدة ، التي ادلهمت مبينة ما يبيته اليهود للمؤمنين ، بل تكشفت الوجوه ولم تسترها همزة النفاق ، وصاروا وجها لوجه أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

(هـ) وقد بينت واقعة الخندق أن أهل الباطل جمعهم متفرق ، فقد اجتمعوا ، ولكن سرعان ما اختلفت نوازعهم بين المشركين أنفسهم ، بما أبداه غطفان من الميل للصلح والعودة، وبما كان بين المغيرين والقرظيين •

غزوة بني قريظة :

٤٨٣ ـ ان هذه الغزوة احدى نتائج الفشل الذريع الذي منيت به غزوة قريش ومن معهم للمدينة ، وحيلولة الخندق بينهم وبين أن يدخلوها •

فان بني قريظة قد ارتضوا نكث العهد ، أو نقض الميثاق الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقد حاولوا أن ينقضوا على عورات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

لقد حسبوها فرصة للقضاء على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن تكون المدينة لهم بدل أن يكونوا في عهد معه وسلم وأمان ، ويكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين•

فقد مالأوا وعاونوا ، وأقدموا على مهاجمة بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ولما رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، ادركوا أن الفرصة قد أفلتت من أيديهم وكانت عاقبة أمرهم خسرا •

أولئك المشركون رجعوا الى ديارهم، ورضوا أن يثوبوا ، وعادوا الى

ديارهم لا يغير عليهم مغير ، ولا يأخذ منهم أحد جزاء ما اقترفوا ، أما بنو قريظة ، فانهم سيؤدون الحساب على ما ظاهروا عليه المشركين ، وعلى نقضهم العهد الموثق ٠

لذلك كله امتلأت قلوبهم رعبا ، وكانت النتيجة كما قال الله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

كان بين يدي الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أمور ثلاثة : اما أن يعفو عنهم ، ويتركهم آمنين في ديارهم ، وهم بجوار المؤمنين الذين خانوهم ، وان ذلك غير ممكن ، لأن العفو لا يكون الا لمن يرجى منه خير ، وكيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الاً ولا ذمة ٠

واما أن يخرجهم من ديارهم كما أخرج بني النضير من ديارهم ، ولكن لا تكون ثمة عدالة ، ولا مساواة بينهم وبين بني النضير ، لأن بني النضير نقضوا الميثاق بما دون ذلك ، ولأنهم لم يهاجموا بيوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أوتيت من فوقها ومن أسفل منها ، وأحيطت بكتائبهم ، وكتائب الشرك ، فكانوا احدى الكوارث، أو أشدها فاعلية بعد أن حال الخندق بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم ٠

هذان أمران ليس من المعقول تطبيق أحدهما أو هما ، وليس من العدل تطبيق الثاني ٠ لم يبق اذن الا القتال ، وعندئذ تقول الحقيقة ويل للخائن المغلوب ، وانه اذا كان قتال ،فان نتيجته معروفة من قبل وقوعه ، اذ أنهم سيبادون عن آخرهم ، ويكون ذلك شفاء لقلوب المؤمنين الذين زاغت منهم الحناجر بسبب انضمامهم للمشركين ٠

ارادوا أن يخرجوا كما خرج بنو النضير ، فلم يرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعدم التساوي بين حالهم ،وحال بني النضير ، فاختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القتال بأمر ربه ولكنهم استسلموا ٠

(١) الأحزاب

٤٨٤ ـ جاء أمر الله تعالى بأن يخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقتال بني قريظة ، فروي أن جبريل أمين الوحي جاء يقول للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد وضعت السلاح يامحمد ؟ قال نعم ، فقال جبريل ، فما وضعت الملائكة السلاح .. ان الله عزوجل يأمرك يامحمد بالمسير الى بني قريظة .

سار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بني قريظة بأمر الله ، وان منطق الحرب يدعو الى ذلك ، والحذر الذي أمر الله به يوجب ذلك .

أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مستجيبا لأمر ربه فأذن في الناس من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين الا في بني قريظة .

استعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة ابن أم مكتوم .

أعطى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الراية لعلي بن أبي طالب .

سار علي رضي الله تعالى عنه ، حتى اذا دنا من حصونهم سمع منهم مقالة قبيحة في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكأنهم مستمرون على غيهم .

فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وظن الرسول أنهم قالوا فيه وعلي لا يريد أن يسمع منهم أذى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حصونهم ، وقال لهم : « هل يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ـ قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا » .

مضى اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اجتمع جيشه ، والراية مع علي حتى نزل على بئر من آبارهم ؟

وكان من بين أصحابه من لم يصل العصر الا في وقت العشاء ، لأنهم انتظروه الى العشاء ، وقد قال لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة

فينتظرونه حتى يصلي بهم العصر ،فصلوا العصر بها في وقت العشاء فما عابهم صلى الله تعالى عليه وسلم ·

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقتالهم ، وهو ما أمر الله به ، وهو الأمر بالمعقول في ذاته كماذكرنا من قبل ، ولكنهم لم يخرجوا لقتال ·

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وكان معهم في حصن كعب بن أسد بن حيي بن أخطب الذي حرضهم على نقض العهد ووعد كعبا أن يكون في حصنه يصيبه ما يصيبه اذا لم يصب المشركون من محمد شيئاً ، فوفى بما وعد ·

لما أيقنوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير تاركهم حتى يناجزهم القتال ، تقدم اليهم كعب ابن أسد ،وقد رأوا أنه لابد من الحرب ، خيرهم بين ثلاثة : أحدها ــ الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال في ذلك : نبايع الرجل ونصدقه فوالله لقد بين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على أموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره ·

والثانية : أن يقاتلوا منفردين عن الأولاد والنساء بعد قتلهم ، فرفضوا·

والثالثة : أن يصيبوا غرة من محمد يوم السبت اذ ربما لا يكون مستعداً لقتالهم ، لأنه ليعلم أنهم لا يقاتلون يوم السبت ·

رضوا أخيرا بالاستسلام ، ولكنهم لا يعرفون النتيجة ، فأرسلوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرسل اليهم أبا لبابة ، فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يشكون في وجهه ، فرق لذلك ، ولما سألوه أترى أن ننزل عن حكم محمد ،قال نعم ، وأشار بيده الى حلقه بأنه الذبح ، قال أبو لبابة ، والله فما زالت قدماي عن مكانهما ، حتى عرفت اني قد خنت الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده ، وقال لا أبرح مكاني هذا ، حتى يتوب الله علي بما

صنعت وذلك هو الضمير المؤمن القوي،وقد استبطأه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم علم أمره ·

ولنؤجل قصة أبي لبابة وتوبة الله تعالى الى ما بعد ما آل اليه أمر بني قريظة الذي استحقوه عدلا وصدقا ،فقد غدروا ، ونقضوا الميثاق ،وحاولوا آثمين ازالة دولة الاسلام ، ولكن قضى الله أمرا كان مفعولا ·

نزولهم على حكم سعد بن معاذ :

٤٨٥ ـ نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وقد كان من الأوس من يطمع في أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيجليهم عن المدينة ، كما فعل مع بني قينقاع ، وبني النضير ، مع تفاوت الجرائم التي وقعت من هؤلاء ، وأن الأولين لم يمالئوا على من جاؤوا لاقتلاع الاسلام من المدينة كما فعل هؤلاء ، والأولون لم يكونوا مقاتلين ، بل كانوا غادرين ناقضين للميثاق فقط ، فكان المنطق الاكتفاء بجلائهم ، اذ لا يبقون من غير ميثاق محترم ·

أما بنو قريظة فقد نقضوا وقاتلوا، وهاجموا بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجب أن يعاملوا معاملة مقاتلين ، وبمثل ما عاملوا به المؤمنين، وبمثل ما كان ينتظر أن يعاملوا به المؤمنين ، لو كان الأمر قد تم للأحزاب كما يريدون ·

نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأوسي، وقد جيء به راكبا،اذ لم يكن يستطيع المسير للجرح الذي أصابه من السهم واثبته ، بل اثخنه ، وبعض قومه من الأوس قالوا له مشفقين على بني قريظة : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما ولاك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : « لقد آن بسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم » ·

عندما قابل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سعداً ، التفت الى أصحابه ، وقال : قوموا الى سيدكم ، فقاموا اليه، وقال الأنصار : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ·· ثم بعد كلام أصدر الحكم ، وهذا نصه :

اني أحكم فيكم أن تقتل الرجال ،وتقسم الأمـــوال ، وتسبى الذراري والنساء •

هذا هو الحكم ، وقد أيده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقـوله : « ولقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات نفذ فيهم رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم حكم معاذ واثبت قبل التنفيذ أنه حكم الله تعالى فيهم ، فقتل الرجال الا بعضا قليلا أعطاهـم بعض الصحابة أمانا ليد سابقة قدموها لهم •

وقسـم أموالهم غنيمة بين المسلمين، وبها تبين تقســيم الغنـائم ، وسبي النساء •

نظـرة في الحـكم :

٤٨٦ ـ لا شك أن الحكم شديد ،ولكنه عادل ، والنظر لا من ناحية أنه عادل ، ولكن : أما كان موضع للتخفيف، وتقول في ذلك •

انهم مقاتلون ، واستمرت لهم صفة المقاتلين الى آخر لحظة ، وعلي بن أبي طالب ، عندما تقدم لهم خاطبهـم على أنهم مقاتلون ، وقال رضي الله عنه ، وهو يهاجمهم : لأذوقن ماذاق حمزة ،ولأفتحن حصنهم ، فلما رأوا العزيمة في علي ومعه الزبير ، وأنهم مغلوبون لا محالة ، وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، منهم ارتضوا ما ينفـذ فيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم ، فهـم الذين نفذوا الحكم فيهم اذ ارتضـــوا المحكم فيهم ، ومن المقـررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيـه ،فقد فوض لهم ، ولهم بهـذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا ولقد حكم،وهو الذي ذهب اليهم ليحول بينهم وبين تنفيذ نقض الميثاق فردوه ردا نكرا ،وعرف أنهم يريدون اقتلاع الاسـلام ، وقتل أهله •

ولقد خضع المدبرون منهم لحكمه ،وادركوا أنه بما قـدمت أيديهم ، حتى لقد روي أن حيي بن أخطب عندما قدم للقصاص : قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله مالمت نفسي في عداوتك ، ولكن من يخذل الله يخذله ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس، انه لا بأس بأمر الله كتاب وقـدر ، وملحمة كتبها ، ثم تقدم لضرب عنقه•

وهكذا كانوا يحسون بأن ما نزل بهم قصاص ، وما للناس يقولون كان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن يشفق عليهم ، ومع ذلك اذا لم يقتل رجالهم ، فماذا يصنع معهم ، أيعفو عنهم ، ولو تمكنوا لقتلوه وقتلوا الاسلام ،وشردوا أهل المدينة ، ان العفو عن الجاني ظلم في ذاته ، أم يخرجهم من أرضهم ويجردهم من أموالهم ، وذلك لا يخلو من عفو ، وقد قلنا انه في هذا المقام ظلم ، ثم ماذا يكون اذا خرجوا ، وفيهم أكثر من سبعمائة مقاتل ، الا يكونون حربا عليه ، ويتجمعوا يؤلبون يهود الجزيرة العربية ، ويكون قد أشفق عليهم لينقضوا عليه ان واتتهم الفرصة ، كمن يشفق على اللصوص ليجمعوا أمرهم ، ويستلبوه ما يعتز به ، ويأخذوا ما عنده •

انه لم يكن الا القتل ، كفاء ما صنعوا ، وهم الذين قتلوا أنفسهم بما دبروا وبما فعلوا ، قد يقال انهم قد صاروا أسرى ، والأسرى لا يقتلون ، ونقول في الجواب عن ذلك :

ان المسلمين والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يشدوا الوثاق ، لأنهم منهيون عن ذلك بحكم آية الأسرى اذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشد الوثاق وهو لم يثخن فيهم جراحا ، ولم ينل منهم نيلا ، بل انهم هم الذين ارتضوا حكما معينا ، والقتال من جانب المسلمين قائم ، لم تعد السيوف الى أجفانها ولا القلوب الى جنوبها•

بل ان قتالهم امتداد لقتال الأحزاب الذين مالؤوهم لم ينته ، واذا كان المشركون قد ألقى الله في قلوبهم الرعب ، ففروا ، فأولئك قد بقوا ،وكان حقاً عليهم أن يقاتلوا فما قاتلوا •

وقد يقول قائل ان النبيين رحماء ،ونقول لهم ان العدالة رحمة والقصاص حياة ، ورحمة الاسلام دفع الظلم ،واقلاعه من أساسه ، والنبي صلى الله

(١) الأنفال

تعالى عليه وسلم قال : أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة ، والله سبحانه وتعالى عزيز حكيم •

أحكام شرعية :

٤٨٧ ـ قد كانت أحكام شرعية خاصة بالصلاة قد ثبتت عملياً في غزوة الأحزاب وبني قريظة ، كما كانت أحكام شرعية قد ثبتت في توزيع الغنائم بالنسبة لتقسيم أموال بني قريظة ، ولعلها أكبر أموال وزعت من الغنائم الى هذا الوقت من الغزوات •

وبالنسبة للصلاة في غزوة الخندق عندما هوجمت بيوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله مالت نفسي في الى ما بعد الغروب ، فجمع صلى الله تعالى عليه وسلم بين العصر والمغرب جمع تأخير •

وقد قال الذين اتبعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان عذر الحرب مسوغ للجمع ، وكثيرون من الفقهاء الذين اتبعوا ذلك جوزوا الجمع في كل عذر ، وتكون الصلاة المؤخرة أداء لا قضاء •

وفي غزوة بني قريظة ، كان الجمع بين العصر والمغرب ، ذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في دعوتهم الى اللحاق ببني قريظة قال ألا لا تصلوا العصر الا في بني قريظة ، فقال بعضهم عزم علينا ألا نصلى حتى نأتي بني قريظة ، فانما نحن في عزيمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس علينا اثم ، وأخروا الى وقت المساء فجمعوا بين العصر والمغرب في وقت المغرب ، وطائفة من الناس صلوا احتسابا •

ولم يلم أحدا من الطائفتين ، وهذا يدل على جواز الجمع جمع تأخير ، ويدل أيضاً على أن الخطأ مرفوع عنه الاثم ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، وكان ذلك استجابة لدعاء المؤمنين الذي حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى :

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (١)

ولا شك أن احدى الطائفتين مخطئة فيما عملت ، ولكنها اجتهدت ٠

توزيع الغنائم :

٤٨٨ ـ كان ما استولى عليه في بني النضير أموالا ثابتة ، وما غنم في الوقائع السابقة ، لم يكن كثيرا ، أما ماكان في غزوة بني قريظة فكان أموالا كثيرة بالنسبة لما سبقها ، وخصوصافي الأموال المنقولة ، ولذلك كان التوزيع فيها تطبيقاً للنص القرآني :

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢)

وقد قال ابن اسحاق في ذلك ما نصه : قسم أموال بني قريظة ونساءهم ، وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم في ذلك سهمان الخيل وسهمان الرجال ، وأخرج منها الخمس (أي خمس الله ورسوله وذي القربى) وكان (من بعد الخمس) في أربعة الأخماس ، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ، ولفارسه سهم ، وللراجل من ليس له فرس سهم ، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستاً وثلاثين ، وكان أول فيء وقع فيه السهمان ، وأخرج منهما الخمس ،فعلى سنتها وما مضى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقعت المقاسم ،ومضت السنة في المغازي ٠

ونقول ان هذا التقسيم لم يكن أول تقسيم بالأسهم ، فقد سبق أن اخترنا ما قرره الحافظ ابن كثير في تاريخه أن آية :

(١) البقرة (٢) الأنفال

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (١)

قد نزلت قبل تقسيم أنفال بدر ،وان علي بن أبي طالب نال من خمسه راحلتين .

ولكن يظهر أن الجديد هو ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يكون للفارس ثلاثة أسهم اثنان للفرس، وواحد للفارس وأن لمن لا فرس له سهما ، ولم يكن ذلك التقسيم في أنفال بدر لأنه لم يكن فرسان غنمت بل كان هناك للمسلمين فرس واحد ، قيل انها للزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه ، هذا ما يظهر لي ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

تنبيهات :

٤٨٩ ـ اولها : أن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي كان من أشد اليهود تحريضا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو ممن جمع جموع قريش وغطفان ، وكان يحرضهم ، حتى كانت غزوة الأحزاب ، وكان ما كان من بني قريظة ، ويظهر أنه لم يفعل ما فعل حيي بن أخطب من اقحام نفسه مع بني قريظة لعهد له مع كعب بن الأسد من أن يكون معه في حصنه ان انتصروا أو هزموا .

ولكن عين الحق لا تغفل عن ذلك الذي حرض العناصر المعادية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في كل أرض العرب ، وانه على استعداد لمثلها ، فكان الحذر الذي أمر الله به في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ (٢)

يوجب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولاه قبل أن يعيد افساده وتحريضه لما بدأه ، فأرسل اليه من المؤمنين من قتله في حصنه الذي يقيم فيه بخيبر .

---

(١) الانفال ٤١ (٢) النساء

الثاني : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يميز بين الرجال والصبيان في بني قريظة ، ليتبين من يستحق القتل ، ومن أعفى منه من الذراري تنفيذا لحكم سعد بن معاذ رضي الله تبارك وتعالى عنه ، كان يميز بخروج شعر الفرج ، فمن نبت له ذلك الشعر قتل ، ومن لم ينبت له لا يقتل، روى عن ابن عطية القرظي قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد امر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم وكنت غلاما فوجدني لم انبت فخلوا سبيلي ·

وروى مثله أهل السنن الأربعة من طريق آخر ·

الثالث : قوة الضمير في أبي لبابة، لقد سأله القرظيون أينزلون على حكم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،فأشار الى عنقه بأنه الذبح ، وما ان قالها ، حتى استيقظت النفس اللوامة ، وعلم أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ كشف أمرا لم يأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بكشفه ، وما كان له ذلك ، لذلك انطلق هائما على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وارتبط بعمود من عمد المسجد ، وقال : لا أبرح مكاني هذا ، حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهدت الله تعالى ألا أطأ أرض بني قريظة أبدا ولا أرى في بلد خنت فيه الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبدأ ·

ولما استبطأه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلم أمره قال الرسول الكريم : أما والله لو جاءني لاستغفرت له ، فأما اذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله تعالى عليه وان التوبة النصوح تجب ما قبلها ، وعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوحي من ربه أنه تاب على أبي لبابة ، وأبلغ ذلك الى أم سلمة، اذ كان في بيتها وأذن لها أن تبشره به، اذ قالت أفلا أبشره يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بلى ان شئت ، فقامت على باب حجرتها ،ونادت أبا لبابة في المسجد : فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله تعالى عليك ، فثار الناس ليطلقوه · فقال لا، حتى يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي يطلقني ، فلما مر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه ·

وقد أقام أبو لبابة رابطا نفسه بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة ، فتحله للصلاة ثم يعود فيربط بالجذع ، وقالوا انه نزل فيه قوله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾(1)

وهكذا حكم الضمير ، أو النفس اللوامة تحس بذنوبها لتتوب ، وترجو المغفرة فتتذل لله سبحانه وتعالى ، ولقدقال الصوفية « ان معصية ، أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة ، أورثت عزاوافتخارا » وكذلك كانت نفس أبي لبابة الذي ما كذب ، ولكنه ظن أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أخبر بالحكم قبل صدوره ، وبالأمر قبل ظهوره .

رابعها : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث بسبايا بني قريظة الى نجد فابتاع بها خيلا وسلاحا ، وذلك ليكون منها قوة للمسلمين ، واعداد للعدة لقوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾(2)

وقد اختار صلى الله تعالى عليه وسلم من نسائهم ريحانة بنت عمرو احدى نساء بني قريظة لنفسه وأراد لها الاسلام فتعصت عنه ، وأبت أن تدخل في الاسلام ، زاعمة أنها تبقى على اليهودية ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكرهها ، ولم يصنع ما قد يكون اغراء مانعا من اختيار سليم حر ، ولكنها جاءت اليه من بعد ذلك طائعة فأسلمت ، فسر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من اسلامها ، وقد عرض عليها صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعتقها ، ثم يتزوج منها زواج الحرة المختارة ، فاختارت أن تستمر على رقها ، ليكون أسهل عليها ، اذ لا تتحمل واجبات الزوجية ، فلم تزل عنده الى أن توفى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تذكر بين أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم .

٤٩٠ — وان قصة سبي نساء بني قريظة تدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أنشأ الرق على أعدائه في ميدان القتال ، لتكون المعاملة بالمثل ، اذ لو أسروا من المسلمين لاسترقوا ، والله تعالى يقول :

﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾(3)

(1) التوبة (2) الأنفال ٦٠ (3) البقرة

وان المشركين كانوا يسترقون من غير قتال ، فقد ذكرنا أنهم أخذوا بعض المسلمين غدرا ، وباعوهم في مكة ، وسامهم أهل مكة سوء العذاب ، فلا تثريب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا أخذ من بني قريظة سبايا ، وباعهن بخيل من نجد .

وان هذا يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة للرق عامل بني قريظة ، ومن وراءهم من المشركين بمثل ما كانوا يعاملون به المؤمنين ، حتى في غير حرب ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عاملهم بالمثل في حرب كان الاعتداء من جانبهم ، فهم اعتدوا مرتين ، الأولى بالخيانة وتتبع عورات المؤمنين ، والثانية بأنهم هم والمشركون كانوا يسترقون المؤمنين لو تمكنوا منهم ، وقد تمكن منهم القرشيون فباعوهم وعذبوهم ، كما ذكرنا في يوم الرجيع .

الإيماء بالصلاة للضرورة :

٤٩١ ـ أجيز الايماء بالصلاة للضرورة في حال المنازلة اذا خيف فوات الصلاة ، وقد أخرنا الكلام في هذا عن الكلام في جمع الصلاتين جمع تأخير ، لأن هذا يتعلق برجل أراد أن يجمع الناس من عرفة ليغزوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة ، وهو خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي ، وكان ذلك عقب غزوة بني قريظة ، وقد تاكد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قد اعتزم الشر ، وأراد القتال ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل على حسم الشر قبل وقوعه ، فاذا كان رجل يجمع ويحرض ، وأخذ ينفذ ما شرع فيه يستأصله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن ينفذ شره ، لأن الحذر يوجب ذلك ، ولأنه ان يتركه جمع الجموع ، وكان القتل في الجمع أكثر عدداً من قتل واحد ، ولذلك كان يؤثر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجل على حرب مع رجال لحماية الأنفس من المحاربين ولو كانوا مشركين ، فعسى أن يخرج الله تعالى الكفر من قلوبهم ، ويستبدل به الايمان .

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى خالد بن سفيان عبد الله بن أنيس وقال له : « انه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني ، وهو بعرفه » .

خرج بن أنيس متوشحا سيفه ، فأقبل نحوه ، وخشي أن يكون بينهما مجاوبة تشغله عن الصلاة ، والصلاة لايسقط فرضها ، فصلى وهو يمشى ، يومىء بالركوع والسجود حتى لقيه،فقال له خالد من الرجل ؟ قال رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل،فجاءك لذلك ، قال أجل أنا في ذلك وسار معه قليلا ، حتى استمكن منه فقتله ٠

ومن هذا نرى جواز الصلاة بالايماء في الحرب للضرورة ، اذ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أقر ما صنع في عبادته في الصلاة ، وأقر بما قام به من جهاد ٠

وان ذلك لا يعد القتل فيه بطريق الغدر أو الغيلة ، لأنه انتدب للقتال ، فيجب أن يتوقع أن ينزل به مثل ما يدبر ، ولأن قتله نجاة لكثيرين ، والضرر القليل يحتمل في سبيل دفع ضرر أكبر، وان هذا يدل على أنه بعد غزوة الخندق كانت نفوس تحاول التمرد على حكم الواقع تزعم أنها تستطيع القضاء على المسلمين ، وقد صارت الدولة بأيديهم يغزون ، ولا يغزوهم أحد ٠

مدة غزوة الخندق :

٤٩٢ ـ وقد قطع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة الخندق ، وبني قريظة بقية شوال ، وذي القعدة وبعضا من ذي الحجة ٠

وبعد الخندق وما تبعه تزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان قائد الشرك ، ثم تزوج بنت جحش ٠

ولقد كان من قبل تزوج سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت الصديق ،وتزوج بعد بدر حفصة بنت صاحبه ووزيره عمر بن الخطاب ، وتزوج بعد أحد أم سلمة،ثم تزوج بعد غزوة بني المصطلق جويرية بنت الحارث ، ثم من بعد خيبر صفية بنت حيي بن أخطب ٠

ونترك الكلام في أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام في باب خاص بذلك وأسبابه وحكمته ٠

٤٩٣ ـ نزل في السورة التي تسمت باسم غزوة الأحزاب أمران ، تحريم التبني ، وتطبيق التحريم في زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، ولذلك أوجبنا على أنفسنا الكلام في زواجها في هذا المقام ، لأن هذا الزواج كان تطبيقا لحكم شرعي ، وأعقب زواجها حكم شرعي ، فحق علينا بيان الأحوال التي أحاطت بزواجها ٠

نزل تحريم التبني في أول سورة الأحزاب ، اذ قال الله تبارك وتعالى :

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ﴾ (١)

كان ذلك تحريما قاطعا ، لا ريب فيه ، ولذلك جاز للرجل أن يتزوج امرأة من يتبناه لأنه ليس ابنه ، ووصف زوجة الابن التي يحرم الزواج منها بأن يكون ابنه من صلبه ، لا أن يكون ابنا بالادعاء ، ولذلك قال الله تعالى في ذلك في باب المحرمات :

﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

ذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقرر حكم الاسلام بأن تكون الأسرة مترابطة بالأرحام لتكون قوية ، ولا يكون فيها دخيل ليس من رحمها ، ولا من صلبها ، ولا من دمها ، لأنه يفسدها ، ويحرم ذا الحقوق من حقوقه ، وينافي القاعدة المقررة في القرآن بقوله تعالى :

﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾ (٣)

(١) الأحزاب (٢) النساء
(٣) الأحزاب

ولقد كان التبني شائعاً في البلاد العربية مأخوذاً من القانون الروماني ، وقد ألحق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زيد بن حارثة به بناء على ذلك العرف المأخوذ من قانون الرومان ، وذلك قبل البعث المحمدي ، وقبل نزول الوحي على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ذلك أن زيداً هذا كان عبدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعثر عليه أهله عنده صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأرادوا أن يفتدوا رقه بثمنه ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو لكم ان اختاركم ، فأرادوا أخذه ، فاختار أن يبقى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأعتقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وألحقه به قبل البعثة اكراما له ، كما كان العرف في البلاد العربية ، ولم يعد ابن حارثة فكان ينادى زيد بن محمد ٠

وقد تزوجته القرشية زينب بنت جحش ، وهي نسيبة بين العرب ، على أنه قرشي،وأنه أعظم العرب وأوسطهم نسبا ، وهو من أنفسهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

على قراءة فتح الفاء ٠

فلما نزلت الآيات التي تلوناها بتحريم التبني،ونفي الأدعياء ،تململت بحياتها مع زيد اذ أنه لم يعد ابن محمد، بل أصبح الأمر الحقيقي فيه أنه ابن حارثة ٠

شكا الزوج من تعالي زينب عليه بنسبها ، فكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول له أمسك عليك زوجك ٠ واتق الله ٠

وكان الله تعالى قد أمر نبيه محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بالا يمنع زيداً من طلاقها لأن الله تعالى قد قضى أمراً :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢)

(١) التوبة (٢) الأحزاب

قضى الله سبحانه أن يطلق زيدزينب ، واذا انتهت العدة تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر الله ،ليكون ذلك تطبيقا عمليا لمنع التبني ، وليضرب محمد بذلك الأمثال على اهمال التبني ونفيه نفيا مؤكدا بالعمل ٠

تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنفيذا لأمر ربه ولكيلا يكون حرج في أزواج زوجات أدعيائهم ٠

ولم يكن زواجه عليه السلام شهوة أو رغبة الا أن تكون استجابة لأمر الله تعالى ، وكذبت الاسرائيليات التي أدخلت على كبار المؤرخين كابن جرير الطبرى الذي تولى كبر اذاعة هذا الكذب الاسرائيلي والنصراني وكذب أولئك الكتاب الأوربيون الذين راحوا يروجونها آثمين ، وان كانوا لا يعرفون الاثم ، وكذب الذين يقلدونهم تقليدا أعمى ، ويحتذون حذوهم كحذوك النعل بالنعل ٠

وان الآيات في هذا المقام صريحة بأمر الله تعالى بالزواج ، وصريحة في أن ذلك لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أوليائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وصريحة في أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليس أبا لأحد من رجالهم ، صريحة في كل ذلك ، ومع ذلك كان التقليد وترويج الكذب لهما الأثر ، فنفسد الفهم ، وكانت الآفة في نفوسهم وفهمهم ، لا في الوقائع ذاتها ٠

ولنتل الآية ، وهي توضح الحقيقة، وتكذب الكذابين ، والذين ايف تفكيرهم بالكذب الرائج ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ ﴾ (١)

---

(١) الأحزاب

والذي أخفاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو أمر الله تعالى له بالزواج منها بعد طلاقها ، وأن الله تعالى قدر له أن يطلقها ، وهذا هو الذي أبداه فلا حب ولا عشق ، والذي كان يخشاه من الناس أن يصدعهم بالزواج من امرأة دعيه ، وذلك أمر غير مألوف عندهم ، وكان يجب أن يخشى الله تعالى ولا يخشى الناس ، لأن ارضاء الناس بغير الحق لا يجوز من داعية الى الحق صادع به .

ثم يقول سبحانه وتعالت كلماته في الأمر الذي أبداه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الزواج بأمره سبحانه ، وأنه ليس على النبي من حرج في تنفيذ أمر الله تعالى همس الناس ، أو صمتوا فقال تعالت كلماته :

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

وبهذه النصوص ثبت تحريم التبني ، وعدم الاعتراف به في الاسلام ، وطبق ذلك على سيد الأنبياء والمرسلين والعف الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلعن الله الأفاكين في هذا الزمان الذين لا يفكرون ، ويقصدون الى الأمر المختلف ، ولا يحاولون أن يتعرفوا المعنى المؤتلف .

منع دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم من غير استئذان :

٤٩٤ ــ كان منزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيتا للمؤمنين أجمعين ، وخصوصا أنه كان على مقربة من المسجد ، بل انه متصل به ، وكان أقرب البيوت اليه ، بيت عائشة رضي الله عنها .

---

(١) و (٢) الأحزاب

ويظهر أن المسلمين ما كانوا يجدون حرجا في الدخول الى منزله عليه الصلاة والسلام ، والمؤمنون الذين أشربوا آداب الاسلام ، وهذب الاسلام طباعهم يستأذنون ، ولا يدخلون لغير موجب ، ولا يتخذون فيه مجلساً ، فلما كان ناس لم يتحلوا بهذا النوع من التهذيب الاسلامي ، كان لابد من بيان ينهى ، وقد كان ، وسمى علماء الحديث أن الآيات التي بينت ذلك النهي آيات نزول الحجاب ، بأن لا يدخل أحد الا باذن ، وألا يدخل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مستأنساً لحديث ٠

ونزل ذلك الحجاب في ليلة زفاف زينب بنت جحش الصالحة المتصمة بدينها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد روي عن أنس بن مالك أنه لما تزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا وجلسوا يتحدثون ، فاذا هو يتهيأ للقيام فلم يتهيؤوا ، فلما رأى ذلك قام فقاموا ، وقعد ثلاثة نفر ، وجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليدخل ، فاذا القوم جلوس ، ثم انهم قاموا ، فأخبرت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم انطلقوا ٠

روى الخبر ، البخاري ومسلم ٠

وخلاصته كما ترى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أولم لهم بوليمة ، فلما طعموا لم ينتشروا ، فتهيأ للقيام فلم يقوموا ثم قام فملا ، فقام من قام ، وبقي ثلاثة لم يشعروا بما ينبغي فبقوا ، فدخل صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله وهم جلوس ، ثم انطلقوا بعد٠

وروى البخاري حديثا آخر في هذا المعنى عن أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه يثبت أن الدعوة كانت عامة وواسعة ، يقول أنس : بنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بزينب بنت جحش ، فأرسلت على الطعام داعياً ، فيجيء قوم، فيأكلون ويخرجون ويجيء القوم فيأكلون ويخرجون ، فدعوت حتى ما أجد أحداً، أدعوه ، فقلت يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه ، قال ارفعوا طعامكم ، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت ، فخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانطلق الى حجرة عائشة فقال السلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته، قالت وعليك السلام ورحمة الله

وبركاته ، كيف وجدت أهلك ، باركالله لك ، فتقرى حجر نسائه كلهن ، ويقول لهن ، كما يقول لعائشة ، ويقلن له ، كما قالت عائشة ، ثم رجع فاذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شديد الحياء ، والروايات متلاقية ، وان كان في بعضها زيادة تفصيل .

كان هذا سبباً مقارباً لنزول آية منع دخول بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (١)

هذا تعليم من الله تعالى لقوم يحتاجون الى هذا التعليم وهو تهذيب وتاديب، ليكون المجتمع مبنياً على مودة ورحمة ،وألا يكون ايذاء نفسى ، يكتبه الحياء عند أهل الحياء .

٤٩٥ ــ أوجب الاسلام بنص القرآن ألا يدخل أحد بيتا حتى يستأنس بأهله ويسلم عليهم ويستأذن منهم ، لتربية النفوس ، ولتكون الثقة كاملة بين الناس فلا يرتاب مرتاب ، ولا يشك شاك ، وقد قال في ذلك :

---

(١) الأحزاب

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ
أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ
يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾
لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

وبين سبحانه حكم من يكونون في داخل البيت من الخدم ، ومن ملكت أيمانهم فأوجب الاستئذان في المشية، وقبل صلاة الفجر ، ومن بعد الظهيرة، فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ
مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ
ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ
فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾
وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ
مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) النور

غـزوة بـني لحيـان

٤٩٦ ـ بنو لحيان هم الذين جاؤوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يطلبون اليه أن يرسل اليهم من يعلمهم الاسلام ويحفظهم القرآن ، فأرسل اليهم ستة من أصحابه المؤمنين الفقهاء في الاسلام ، وتبين أنهم أرادوا أن يقدموهم لقريش أسرى يسترقونهم ، فقتلوا بعضهم ، وباعوا الباقين بمكة فعذبهم المشركون ، ثم قتلوهم أفجر قتلة ، اذ قتلوهم صلباً .

كان لابد أن يؤدبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على سوء ما فعلوا، وليس ذلك انتقاماً كما يتوهم من لايستطيعون تمحيص الحقائق ، انما هو قصاص أولا ، ولابد أن يتولى القصاص ولي الذين قتلوا ، ووليهم الله ورسوله والمؤمنون . كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (١)

ثم لابد من تأديبهم ، بانزال أشد النكال بهم ، لأنهم خدعوا في أمر الدعوة ، فلابد أن ينزل بهم ما يكون فيه عبرة لغيرهم ، حتى لا يرتكبوا تلك الخديعة باسم الهداية .

بعد بني قريظة أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة بقية ذي الحجة من سنة خمس ، والمحرم وصفر وشهري ربيع ، يعلم الناس أمر دينهم ، ويبلغ الدعوة ، ويتصل بالقبائل العربية داعياً مرشداً ، ويعلم شعار الاسلام ومبادئه لأصحابه الذين حملوا فقه الاسلام لمن بعده .

وفي جمادى الأولى خرج الى بني لحيان يطالب بأصحاب الرجيع خبيب ابن عدى وأصحابه ، وكان ذلك في سنة ست من الهجرة .

---

(١) المائدة

ولقد ذكر البيهقي أن ذلك كان في سنة أربع ، ولكن ابن اسحاق ذكر أنه كان في سنة ست ، ونحن نختار ما اختاره ابن اسحاق ، فهو أوثق في أخبار السيرة ، كما قال الشافعي رضى الله عنه : الناس في السيرة عيال على محمد ابن اسحاق ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في جمع من أصحابه ، وأراد أن يصيب من الغادرين غرة ، فخرج من المدينة الى طريق على الشام ، ليوهم أولئك أنه يقصد غيرهم ، والحرب خدعة ، وبعد أن سار أمدا عرج على اليسار متجها الى مكة ، وأغذ السير سريعاً ، ليدركهم قبل أن ينتبهوا الى مقصده ٠

ولكنهم حذروا خوفاً ، وقد أدركوا أن القوة قد آلت الى أهل الايمان بقيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتمنعوا في رؤوس الجبال ، وعندئذ علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أخطأ من غرتهم ما أراد ٠ فاتجه الى عسفان في مائتى راكب من أصحابه حتى نزلها ، وأرسل اثنين من الفرسان يتعرفان النواحي ٠

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن سار في القبائل متعرفاً داعياً ، مبيناً شرع الله تعالى لمن يلقاه من أهل الصحراء ، قفل راجعا الى المدينة وانه في هذه الرحلة المباركة ، وان لم يتمكن من تأديب الفجرة الغادرين على غدرهم وخيانتهم فقد تعرف البلاد على حالها والصحراء وقبائلها ، وهو يدعو الى دينه ، حيثما وجد سبيلا للدعوة وأرهب مع ذلك أهل الشر والدعارة من القبائل العربية ، ونشر هيبة الاسلام فيها مما جعلهم يفكرون في أمر هذا الدين الجديد الذي جاء بالحق والقسطاس ، ومعه القوة التي تحميهما ٠

فالنبي لم يرجع من الغنيمة بالاياب ، بل رجع بالغنيمة الكبرى ، وهي نشر الدعوة ، ومعرفة الذين يدعوهم وبسط سلطان الله في الأرض العربية ، ليعمها الاسلام ، ثم يكون من بعد ذلك لمن وراءها من أرض الشام ، وغيرها ٠

غـــزوة ذي قـــرد

٤٩٧ ـ خرجت غطفان بعد الخندق محنقة ، لأنها طمعت في صـــلح ، ولم يعزمه النبي صلى الله تعالى عليــهوسلم بل كان مراوضة لتخذيلهــم عن قريش ، وقد تم بعض ذلك ، عادت معقريش مذؤومة مدحورة ، ولـكن مالم تستطعه بحرب أرادت أن تأخذه بالسلب والنهب والاغارة الجزئية ، والغصب ، ثم الفرار ، فصاروا كشطار العـرب ،بل كلصوصهم ، يستوي في ذلك من كان قائداً ، ومن كان مقوداً .

أغار عيينة بن حصن الفزاري فيخيل من غطفان على نوق لقاح للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجـــل من بني غفار وامرأته . فقتلوا الرجل ، وساقوا المرأة مع اللقاح ، وكانوا بهذا كقطاع الطريق الذين يقومون بالسلب والنهب ورأوا أن ذلك أنكى للمسلمين من أن يلتقوا معهم في حرب تشتجر فيها السيوف ، وان كانذلك أبعد عن المروءة ، والخلق العربى الكريم .

كان بعض فرسان المؤمنين قد عـلمبأمرهم منهم سلمة بن الأكوع ، ومعــه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس ،وقد أصبح يريد الغابة ، حتى اذا كانوا بثنية الوداع نظر الى بعض خيول المعتدين ، فصرخ واصباحاه ، ثم خرج يشتد في آثار القوم ، وكان رجلا قويا مثلالسبع ، حتى لحق القوم ، وأخذ يردهم بالنبل ، ويقول ، اذا رمى : « خذهــاوأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضـــع » (أي اللئام) وكانوا من قـــوة الرمييحاولون أن ينقضوا عليه ، فاذا وجهت خيلهم نحوه انطلق هاربا من لقائهـــموجها لوجه ، ولـــكنه يمارضهم ليتمكن من الرمى ، فاذا رمى يقول : خذهــاوأنا ابن الأكوع ، ولما بلغ رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان منهؤلاء ، وسمع صياح ابن الأكوع .دعا

الفرسان من المهاجرين والأنصار ،فكان أول فارس تقدم المقداد بن الأسود ، وتوالى من بعد ذلك الفرسان الذين يتبعونهم فارسا بعد فارس وقد رأى رجلا من زرين اسمه أبو عياش ، معه فرس ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك ، فقال رضى الله عنه أنا أفرس الناس ، ولكنه ما جرى به خمسين ذراعا ، حتى طرحه أرضا • فتولى الفرس غيره ، وهكذا تولى الفرسان يلاحقون الفارين السالبين •

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع الفرسان ، وأقام على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار رسول الله ومن معه من أصحابه ، واستنقذوا بعض اللقاح ، ولم ينقذوها كلها ، ولكنهم قتلوا من أدركوه من القوم ، واستمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في سيره حتى نزل بالجبل من ذي قرد ، وتلاحق عليه الناس ، وأقام عليه يوما وليلة •

عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قسم على كل مائة رجل جزورا ، وقد نجت امرأة الغفارى على ناقة من ابل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما شغل القوم بالفرار من فرسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكانت قد نذرت لله تعالى ان نجاها عليها أن تنحرها ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما علم عزمتها ، وقال بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ، ثم تنحرينها ،انه لا نذر في معصية الله تعالى ، ولا فيما لا تملكين ، انما هي ناقة من ابلي ،فارجعي الى أهلك على بركة الله تعالى•

وقد روي حديث امرأة الغفاري عن الحسن البصري موقوفا •

وبذلك انتهت هذه الغزوة التي دفعت غارة من غارات الأعراب •

غـزوة بني المصطلق

٤٩٨ ـ ذكر ابن اسحاق بسنده أنها كانت في شعبان من سنة ست من الهجرة ، وروي أنها كانت في شعبان سنة خمس ، وقال الواقدي في تاريخه انها كانت بعد ليلتين من شعبان سنة خمس .

ولقد ذكر بعض الكاتبين في عصرنا أنه يستحيل أن تكون في سنة ست ، لأنه جاء في عقبها حديث الافك ، وذكر كانت فيه مجاوبة بين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وملاحاة بينهما ، وسعد بن معاذ كان قد مات اثر جرح بعد قريظة سنة خمس .

وان هذه الملاحاة لم تكن بين ابن عبادة وسعد بن معاذ ، وانما كانت بين أسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وعلى ذلك لا دليل من حديث الافك على أنها كانت في الخامسة .

وفي الحقيقة انا لا نجد في الروايات ترجيحاً بينها ، ونميل الى أنها كانت في الخامسة ، وقبل الخندق غير ترجيح ولكن نأخذ بترتيب ابن اسحق، ونضعها بعد الخندق ، لأننا نقبل أن نكون عيالا على ابن اسحاق ، كما قال الشافعي رضي الله تبارك وتعالى عنه :« الناس عيال في السيرة على محمد بن اسحق » .

علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون الجموع له ، وهم من خزاعة ، وعلى منهاج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه اذا تأكد أن قوماً يريدون الاغارة عليهم بادرهم قبل أن يبادروه ، فانه ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا .

أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة أبا ذر الغفاري وخرج اليهم كما يقول الواقدي في سبعمائة من أصحابه ، حتى التقى في ماء عندهم يسمي المريسيع ·

وكان لواء المهاجرين مع أبي بكر الصديق ، ولواء الأنصار مع سعد ابن عبادة ، وقيل كان لواء المهاجرين مع عمار بن ياسر ·

وأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينادى فيهم فنادى أن قولوا لا اله الا الله تمنعوا وأموالكم فأبوا الا القتال ·

فقاتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش المؤمنين فما أفلت منهم ، فقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم وسبى نساءهم ·

وقد حدث في هذه الغزوة أن رجلا من المؤمنين اسمه هشام بن صبابة أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه مباح الدم من الأعداء ·

كان ذلك القتل خطأ فكان له دية مسلمة الى أهله ، وقد وداه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم · فجاء أخوه مقيس بن صبابة من مكة مظهرا الاسلام ، فطالب بالدية فاعطاه الرسول الدية ،وأقام مع المؤمنين حتى تمكن من قتل قاتل أخيه ، مع أن القتل كان خطأ ،ثم عاد مرتدا الى مكة ، وبذلك ارتكب جريمتين : أما الجريمة الأولى فهي أنه قتل بعد أن أخذ الدية ، والقتل كان خطأ فلا قصاص وأخذ الثار معتديا آثما ·

والجريمة الثانية أنه ارتد بعد اسلام أظهره ·

ولهاتين الجريمتين كان يستحق اباحة دمه واحداهما تسوغ قتله ·

ولذلك أباح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دمه ، ولذلك كان من الذين أهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم فتح مكة دماءهم ، وان تعلقوا بأستار الكعبة ·

وان هذا يدل على أن الردة توجب القتل ، ويصدق عليه قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » ·

ودلالة اباحة دم مقيس هذا لقتله قاتل أخيه أو لردته ، ولذلك كانت الدلالة احتمالية من حيث تعيين السبب·

إثارة فتنة وإطفاؤها :

٤٩٩ ـ في هذه الغزوة ثارت فتنة ، ولكن أطفأها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكمته .

ذلك أن الناس كانوا يردون الماء ، وفيهم أجير لعمر بن الخطاب يقال جهجاه بن مسعود يقود فرسه فازدحم أجير عمر هذا مع وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج فاقتتلا ، فصاح الجهني يا معشر الأنصار وصاح أجير عمر يا معشر المهاجرين .

ولم يجب الأنصار صرخة حليفهم ، ولا المهاجرون صرخة أجيرهم ، ولكن النفاق استغل ذلك لتكون تارة ثائرة .

غضب عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين مع رهط من رجاله ، وكان في مجلسهم زيد بن أرقم ولم يكن منافقا بل كان مؤمنا .

قال ابن أبي بن سلول ، قد نافرونا ، وكاثرونا ، في بلادنا ، والله ما عدنا وجلابيب قريش (أي المهاجرين) الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير دوركم .

سمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبلغه الخبر بعد فراغه من غزوة عدوه وكان عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له عمر : مر به عباد بن بسر فليقتله .

قال ذلك عمر بحمية الايمان ، ولكن قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الحليم الذي يعالج النفوس والأمور ، فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل ، فارتحل الناس .

فالعلاج ان لم يكن حاسما للفتنة ، فهو مانع من أن تتأجج نيرانها ، ذلك أن الفتن اذا عرضت للنفوس ، وتبادلتها الأقوال ، ورددتها الألسنة يكثر القول الذي يلهبها ، واطفاؤها أو تخفيفها يمنع ترديدها ، وشغل الناس بغيرها .

فكان الأمر بالرحيل شغلا للناس عنها .

جاء عبد الله بن أبي الى رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم ينفي ما نسب اليه ، لأن المنافق يستتر دائما ، ويمنع أن ينكشف فاذا بدا بعض أمره حاول اعادة ستره ٠

قال ساترا كاذبا حالفا : ما قلت ماقال ، ولا تكلمت به ٠

وكان في زعم قومه شريفا عظيما، فقال بعض من حضر من الأنصار من أصحابه حدبا على ابن أبي ، أو تخفيفا لوقع الأمر ، قال عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ٠

ومهما يكن من الأمر فقد عالج النبي الموقف بشغل الناس بالرحيل قبل ميقاته ، حتى لقد قال أسيد بن حضير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يانبي الله لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروح في مثلها ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو ما بلغك ما قاله صاحبكم ؟ قال وأي صاحب يا رسول الله قال عبد الله بن أبي بن سلول ٠ قال : وما قال قال زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال فأنت يا رسول الله والله تخرجه ان شئت هو وهو الذليل وأنت العزيز ٠

ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بذلك ٠ وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فانه ليرى أنك قد استلبت منه ملكا ٠

مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح، وصار في صدر ذلك اليوم الثاني حتى آذتهم الشمس ٠

ويقول في تعليل ذلك ابن اسحاق وانما فعل ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ٠

انه عندما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن آذتهم الشمس ، ومستهم جنوبهم الأرض حتى ناموا ٠

وفي النوم لم يذكروا ما كان من خلاف ، ولم يحسوا الا بالتعب ،فشغلهم التعب الجسمي عن القلق النفسي ، فانطفأت نار هذه الفتنة ، لتكون فتنة أشد ايذاء ، وأبلغ تأثيرا ، وكانت أيضا من النفاق والمنافقين ، وشاعت نيرانها، حتى شملت بعض المؤمنين من الأنصار، وبعض المهاجرين من ذي القربى ممن أشيعت حولها الفتنة ٠

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما بلغه التنادي يا معشر المهاجرين ، ونادى الآخر يا معشر الأنصار ، قال النبي : دعوها فانها منتنه أي دعوى خبيثة جاهلية ، حتى تنتنت بقدمها ٠

وعندما علم عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وقد كان مؤمنا قوي الايمان بما قال أبوه ، وما حرض به مشى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله انه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت لا بد فاعلا فمرني ، فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، وأني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل ترفق به ، ونحس صحبته ما بقي معنا ٠

وكان لفعله أثر شديد في نفس النبي وان كان قد عالجه بما كان فيه الوقاية من تفاقمها ، فقد كان لها أثر في نفوس المؤمنين ، فكان قوم ابن أبي حريصين على منعه من أى فتنة ولومة على كل قول يكون منه بما يدل على قلبه ، فكانوا هم الذين يعاقبونه ، ويأخذونه ويعنفونه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، كيف ترى ياعمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت انوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ٠ فقال عمر رضي الله تعالى عنه ٠ مذعنا ، قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم بركة من أمرى ٠

هذا وقد أنزل الله تعالى جزءاً من سورة المنافقين في هذا الأمر ، فقد قال الله تعالى :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ

كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (١)

هذا حكم الله تعالى على المنافقين ، وقد حكم الله تعالى بأنهم لا يفقهون ولا يجزيهم استغفار الرسول لهم ، لأنهم عنوا في كفرهم اذ الكفر من غير نفاق جهل وحمق وعناد ، ومنشؤه غالبا من عدم ادراكهم الحق ، فهم لا يذعنون ، وتوبتهم قريبة اذا زالت غواشي الضلال والجهالة . أما النفاق فهو دركتان في الكفر هو عناد وحقد من غير جهل ،ومحاولة لستر الحقائق وابعادهم درائع الايمان عن نفوسهم ، ومحاولتهم طمس الحقائق في قلوبهم ، فطبع على قلوبهم، فلا يمكن أن يصل نور الحق الى قلوبهم ، فأصبحوا لا ينفذ نوره اليهم ، ولذلك وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لا يفقهون ، فلا يشق نور الحق قلوبهم المعتمة .

الأسرى والسبايا من بنى المصطلق :

٥٠٠ ــ أثخن المسلمون في بني المصطلق ، اذ لم تبق فيهم قوة يستطيعون أن يغيروا بها على المؤمنين فانه قتل منهم من قتل ، وسيق الباقون أسرى وسبايا ، ولم يسترقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهائيا فقد شد الوثاق ابتداء ، وقيل أنه وزعهم غنائم على المحاربين ، ولكنه أطلقهم في النهاية ونرى أنه تدرج في معاملة الأسرى ، ونرجح بهذا المعنى أن غزوة بني

(١) المنافقون

المصطلق كانت بعد غزوة قريظة ، ذلك أنه في غزوة قريظة قتل الرجال ،وسبى النساء ، وباعهن في نجـــد في خيل اشتراها في مقابلهن قوة للمسلمين ·

أما في هذه وهي غزوة بني المصطلق فقد تصرف صلى الله تعالى عليه وسـلم تصرفا حكيما أدى الى ألا يباع منهـــم أحد ، حتى بعد تقسيمهم بين الغانمين، وألا يسبى منهم امرأة بعد تقسيمهم ·

فان كتب السيرة تروي ما ثبت في صحاح السنة ، وذلك أن الناس قسموا الرجال والنساء بينهم وأبقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جويرية بنت الحارث التي صارت من بعد من أمهـات المؤمنين ، ولنترك الكلمة لابن هشـام الذي روى بعض الروايات ، فهو يقول:

« يقال : لما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غـــزوة بني المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث ،دفعها الى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها · وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ، فأقبـــل أبوها الحارث بن ضرار لفداء ابنته ،فلما كان بالعقيق نظر الى الابل التي جاء بها للفداء ، فرغب في بعيرين منها،فغيبهما في شعب من شعاب العقيق ثم أتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقال : يا محمد ، أصبتم ابنتي ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعـالى عليـه وسلم : فأين البعـيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا ،فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنك يا محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك الا الله تعالى ·

أسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل الى البعيرين ، فجاء بهما الرسول ، فدفع الابل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودفعت اليه ابنته جويرية ، فأسلمت ، وحسن اسلامها ، فخطبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، فزوجه اياهـا ،وأصدقها أربعمائة درهم ·

وقد أعتق بعد ذلك كل من كان في يده واحد منهم ، وقالوا أنسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

هذا ما قاله ابن هشام ، ولم يذكر الرواية التي اعتمد عليها ، وان كانت الصحاح تومىء الى ذلك ، وان لم تفصله ذلك التفصيل ، وهذا الخبر يدل على أن الرق لم يكتب على أم المؤمنين جويرية ·

ولكن ابن اسحق روى عن أم المؤمنين ما يفيد أن رقا قد كتب عليها ، واليك ما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها ، واليك ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة قالت : لماقسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبايا بني المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس أو لابن عم له ، فكاتبت على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستعينة في كتابتها •• قد خافت ؟ فقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت ابن قيس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعين على كتابتي قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل لك في خير من ذلك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ قال أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت نعم يا رسول الله ، قال قد فعلت •

وان الفارق بين الروايتين أن ما ذكره ابن هشام ، أن أباها هو الذي زوجها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأنه لم يجر عليها الرق اذ افتداها أبوها بالابل ، وذكر فيها الصداق ،وهو أربعمائة درهم ، أما رواية ابن اسحق فكتبت أن الرق قد كتب عليها ،وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دفع عنها ما كاتبته عليه •

ونحن نرى أن سياق ابن هشام أكثر انسجاما ، واتساقا مع أحكام الاسلام، اذ أن وليها هو الذي زوجها ، وذلك مبدأ مقرر في الاسلام ، ولم يجز للمرأة أن تعقد زواجها بنفسها الا أبوحنيفة رضي الله تعالى عنه ، وخالفه جمهور الفقهاء •

وفوق ذلك في رواية ابن اسحق ما قد يكون علة في الحديث ، ففيه أنه نسب لعائشة رضي الله تعالى عنها وقد وصفتها بانها امرأة حلوة مليحة : فوالله ما ان رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها صلى الله تعالى عليه وسلم ما رأيت فدخلت ،وانا نرى أن هذه العبارة ، لا يليق أن تنسب لعائشة ، لمكانتها في الاسلام ،ولا أن ينسب ما تضمنته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكتب السنة لم تذكر ما ذكرته رواية ابن اسحق •

ومهما كلف الأمر في هذه الروايات فان زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ترتب عليه عتق قومها جميعا ٠

وانا نقول ان زواجة صلى الله تعالى عليه وسلم منها كاف لأن يدع المسلمون ما بأيديهم من الأسرى والسبايا ، اذ عتق بزواجها رجال مائة دار من العرب ، وقد أسلم قومها ، ودخلوا في ظل الاسلام، وكانت تجمع منهم الزكاة ٠

٥٠١ – لما أسلموا صاروا في ظل الدولة الاسلامية وتابعين لحكم المدينة، فأرسل اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط ليجمع منهم الزكاة ٠

لما سمعوا به ركبوا اليه ، فظنهم مغيرين عليه فهابهم ، ويظهر أنهم كانوا يستقبلونه لا ليغيروا ولا ليثوروا ، ولا ليحاربوا ٠

عاد الى الرسول فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم ، فأثار بذلك ثائرة بعض المسلمين ، وكان منهم من أكثر في القول بغزوهم ٠

وما كان أساس الأمر الا سوء فهم للأمور ، فقد قدم وفدهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

قالوا يا رسول الله : سمعنا رسولك حين بعثته الينا ، فخرجنا اليه لنكرمه ونؤدى اليه ما قبلنا من الصدقة ، فانشمر راجعا ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أننا خرجنا لنقتله ، ووالله ما جئنا لذلك ٠

والظاهر ان اساءة الفهم كانت منه، وفرض أنهم جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خوفا من غزو جرى على ألسنة بعض المؤمنين بعيد ، لأنه من الضرورى حمل حال المؤمن على الصلاح ، ولذا قيل انه نزل في هذا الموضع قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝ ﴾ (١)

والله أعلم بما تخفى الصدور ٠

---

(١) الحجرات

حديث الإفك

٥٠٢ ـ اختصت غزوة بني المصطلق بأن جاء في أعقابها أمور تتبعها أحكام لسياسة الجماعة ، واصلاح النفوس ومداواة مرضى القلوب ٠

فكان فيها معاملة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمن وقعوا في الأسر والسبي بعد أن أثخن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في محاربيه ، وقد كان عمله يتجه الى المن بدل الفداء وقتل الرجال وسبي النساء ، وعمل الرسول سنة متبعة ، فهو لا يفرض الرق الا اذا كان يتوقع أن تكون بينه وبين أسر منهم حرب ، وقد كان يتوقع مع اليهود حربا قد يأسرون من المسلمين فيها ، فيسترقون ويسبون فعاملهم بما يتوقع أن يعاملوا بمثله ، والحرب بينه وبينهم لم تنته بعد ، ولم يثخن في قوتهم ، بل لا تزال لهم قوة مرهوبة ولم يكن يتوقع من بني المصطلق من بعد ذلك حربا وكان في أثنائها ، نفاق المنافقين الذين اتجهوا الى اشعال فتنة منتنة بين المهاجرين والأنصار وهم قوة الاسلام ، وقد عالج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالترفق بالمنافقين ، حتى ينكشف أمرهم ويلفظهم قومهم ، ويكون تأديبهم من أهليهم ، ثم لا يكون لنفاقهم قوة التأثير ، اذ لا يخدع بهم أحد من أهل الايمان ، وينالهم الضلال ، وبذلك بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يعامل المنافقون بتركهم ، حتى يذوي عودهم من ذات نفسه مع التحذير منهم ٠

والأمر الخطير في ذات نفسه ، وكان فيه ايذاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ، وهو حديث الافك ، الذي كان في ذاته اثما عظيما ، وفي آثاره خطيرا في المجتمع ، اذ من شأنه أن يشيع الفاحشة في المجتمع ، ويدنسه بظهور الرذيلة فيه ، وفوق ذلك فيه هجوم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،

وفيه استهانة بمقام صاحب الرسالةالذي كرمه الله تعالى في السموات وفي الأرض ، وقال الله تعالى في شأنه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

وقد اشترك في هذا الحديث المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي الذي قالت فيه أم المؤمنين عائشة الطهور ،ان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي •

وكان مع المنافقين زلل لبعض المهاجرين والأنصار ، فلم تنزه فيه السنة أهل الايمان من قبيل الاستهانة بالأخبار ، وقبولها من غير تمحيص ، ولا التفات لمغزاها ومرماها بل كان تشهيا للحديث منجردا من كل اعتبار ، فكان هذا من بعد تنبها ، الى وجوب العمل على حماية المجتمع من مروجات الشر ، ومن الخرص بالظنون ، والاحتفاظ بكرامات البيوتات ، ولقد قال تعالى في ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٢)

والخير فيما شرف الله به بيت النبوة ، وفيما أعقبه من تطهير نفوس الذين خاضوا فيه باقامة الحد عليهم بجلدهم ثمانين جلدة ، ثم ما بين الله سبحانه وتعالى ان الاثم الذي اكتسبه بعض المهاجرين لا يمنع معونتهم من خير يسدى ، فحسبهم عقوبة الحد الزاجر•

الإفك في كتب السيرة وصحاح السنة :

٥٠٣ ـ ونذكر الآن حديث الافك، كما جاء في كتب السيرة وصحاح السنة •

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يختار من نسائه للسفر معه عندما يريد السفر بالقرعة ، فكانت القرعة في غزوة بني المصطلق على أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ،فخرجت معه في هذه الغزوة وفي عودتها نزلت

---

(١) الاحزاب (٢) النور

لحاجتها ، فتخلفت عن الركب ، ولنترك لابنة الصديق ذكر القصة ، وقد وافق ما جاء في الصحيحين عن هذا الأمر ٠

قالت في سفره عليه الصلاة والسلام لبني المصطلق ، فلما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من سفره ذلك جاء قافلا حتى اذا كان قريبا من المدينة، نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ، ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس فخرجت لبعض حاجتي ، وفي عنقي عقد ٠٠ فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدرى ، فلما رجعت الى الرحل ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت الى مكاني الذي ذهبت اليه ، فالتمسته ، حتى وجدته ٠

وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون الى البعير « أي أنهم ساقوا البعير الذي كان يقلها وقد كانوا قد فرغوا من رحلته فأخذوا الهودج ، وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه ،فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير ، فانطلقوا به ، فرجعت الى المعسكر ، وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت مكانى ،وعرفت أني لو افتقدت لرجع الناس الي ،فوالله اني لمضطجعة ، اذ مر بي صفوان ابن المعطل السلمي ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف ، وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب فلما رآني قال انا لله وانا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا متلفلفة في ثيابى ، قال فما خلفك يرحمك الله فما كلمته ثم قرب الى البعير فقال اركبى ،واستأخر مني ، فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعا يطلب الناس ،فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي فقال أهل الافك ما قالوا ، وارتج المعسكر ،والله ما أعلم بشيء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة » ٠

هذه عبارة أم المؤمنين الصادقة بنت الصديق تبين الواقعة ، كما هي ، وكما عاينت وشاهدت ، ولنتركها تذكر ما شاع ومن أشاع ، فهي تحكي الوقائع ، وتحكي خلجات نفسها المؤمنة الباكية وهي في غضارة الصبا ٠

« فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة لا يبلغني من ذلك شيء ، وقد انتهى الحديث الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والى ابوي ، لا يذكرون منه قليلا ، ولا كثيرا ، الاأني قد أنكرت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعض لطفه بي ،وكنت اذا اشتكيت رحمني ولطف بي ، فلم أزل في شكواي ، فانكرت ذلك منه،كان اذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال كيف بنتكم لا يزيد على ذلك ، حتىوجدت في نفسي فقلت يا رسول الله ، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي : لوأذنت لي ، فانتقلت الى أمي فمرضتني، قال : لا عليك فانقلبت الى أمي ، ولا علم لي بشيء ، مما كان حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة ٠٠فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح ابنة أبي رهم بن عبد ، فوالله انها لتمشي اذ عثرت في مرطها ،فقالت تعس مسطح ، قلت بئس لعمر والله ما قلت لرجل من المهاجرين ، وقد شهد بدرا !! قالت أو ما بلغك الخبر ،فاخبرتني بالذي كان من قول أهل الافك ، قلت أو قد كان هذا ؟ قالت نعم والله قد كان ، فوالله ما قدرت على قضاء حاجتي ، ورجعت ، فوالله ما زلت أبكي،حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي ، وقلت لأمي يغفر الله لك !! تحدث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكري لي من ذلك شيئاً !! قالت أي بنية خففي عليك الشأن ، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر ، الا كثرن وكثر الناس عليها٠

قالت وقد قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخطبهم ، ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ٠والله ما علمت عليهم الا خيراً ويقولون ذلك الرجل ما علمت منه الا خيراً ، ولايدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي ٠

قالت أم المؤمنين عائشة وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح،وحمنة بنت جحش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه يناصبني في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها ، فلم تقل الا خيراً ، وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضارني لأختها فشقيت بذلك ٠

فلما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تلك المقالة قال أسيد بن حضير يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وان يكونوا من اخواننا الخزرج ، فمرنا أمرك ، فوالله انهم لأهل أن تضرب أعناقهم ·

فقام سعد بن عبادة ، وكان قبل ذلك يرى رجلا صالحاً ، فقال كذبت لعمرو الله ، ما تضرب أعناقهم أما والله ما قلت هذه المقالة الا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ·

فقال أسيد بن حضير ، كذبت لعمرو الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، وتساور الناس ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر·

فدخل رسول الله علي ، فدعا علي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى خيراً ثم قال يا رسول الله أهلك ، وما نعلم عنهم الا خيراً ، وهذا الكذب والباطل·

وأما علي فانه قال يا رسول الله ان النساء لكثير ، وانك لقادر أن تستخلف وسل الجارية فانها ستصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة يسالها ، فقام اليها علي فضربها ضرباً شديداً (١) · ويقول اصدقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتقول (بريرة) والله ما أعلم الا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة الا أني كنت أعجن عجيني · فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله ·

ثم دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ، انه قد بلغك من قول الناس فاتقي الله ، ان كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس، فتوبي الى الله ، فان الله يقبل التوبة عن عباده ، فقلص الدمع ، حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم يتكلما ، وايم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنا من أن ينزل في قرآنا يقرأ ، ويصلى به الناس ، ولكني كنت أرجو أن يرى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يكذب الله به عني لما يعلم

---

(١) أكثر الروايات لم تذكر الضرب ، وما كان لعلي ان يضرب في حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفسر السهيلي الضرب بالقول الشديد ·

من براءتي ، ويخبر خبراً ، وأما قرآنا ينزل في ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك .

ولما لم أر أبوي يتكلمان قلت لهما ألا تجيبان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالا فوالله لا ندري بما نجيبه ، ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام فلما استعجما علي استعبرت فبكيت ، فقلت لا أتوب الى الله مما ذكرت أبداً ، والله اني لا أعلم ان أقررتُ بما يقول الناس ، والله تعالى يعلم أني منه بريئة لأقولن مالم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني ، ثم التمست اسم يعقوب أذكره ، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : « فصبر جميل » ، والله المستعان على ما تصفون، فوالله ما برح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مجلسه ، حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت ، وما باليت ، قد عرفت أني بريئة ، وأن الله تعالى غير ظالمي ، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى ظننت لتخرجن نفسهما حزنا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وانه ليتحدر عن وجه مثل الجمان ـ في يوم شات ـ فجعل يمسح العرق من وجهه ، ويقول أبشري يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك . قلت : الحمد لله .

ثم خرج على الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم .

٥٠٤ ـ ذكرنا القصة مع طولها ، كما جاءت على لسان المجني عليها ، وقد اخترنا تلك الرواية لما فيها من جمع لكل معاني الروايات ، ولأنها تصور نفس تلك الصبية الكريمة التي لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من سنها .

امتحن الله تعالى تلك الصبية الطاهرة لزوج أعظم رجل في الوجود الانساني وابنة صاحبه في الغار ، وهي في سن قريب من الطفولة ، امتحنت أولا ـ بأن تخلفت عن الركب ، وصارت في أرض قفر وحدها ، فلم تصرخ ولم

تولول ، بل فوضت مؤمنة أمرها لربها،وتجلببت بجلبابها ، ونامت آمنة مطمئنة منتظرة أمر الله فيهـــا عالمـة أن الله لايضيعها ، ويجيء رجل مكتمل عـرف بالتقوى ، بل قيل انه حصور ليس لهفي النساء أرب فاسترجع عندما رآها ، وعجب أن يرى في الليل ، وفي هـذاالمكان الموحش ، وهو يسترجع ويقول: ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليـــهوسلم ، وينيخ لها البعير ، فتركبه من غير معونة أحد ، وليس معها مـــكانالرحيل بها وهو هودجها ، اذ أنه حمل على بعيرها ، زعم من رفعوه اليها أنهافيه ، لصغر ثقلها •

وانها من بعد ذلك تستقبل المدينةبصخبهـــا وجلبها ، ونفاق بعضهـا ، وفضول الأكثرين الذين لا يتركـــونالظن أو التظنن ، وهو من الاثم ، كما قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (١)

واذا ظنوا أشاعوا غير ناظرين الىعاقبة ، ولا الى أثر القـــول ، ولا الى موضـــوع القول ، ومكانة صاحبته فيأهلها وبعلها ، ومكان من يناله السوء من اشاعة ، ويندفع في ترداده غير عالمله بحقيقة ، ولكنها ظن السوء المجـرد وشهوة قول الفتنة ، والفضـــول الذييسود بعض الناس ، وما أصدق قـول الله تعالى في وصف الذين خاضوا ،وهمالجماعات الانسـانية قلوا أو كثروا ، وهو يقدم لهم أحسن الأدب ، ومايجبالتحلي به عندما يقال القول من أحمق مأفون ، أو من منافق مفتون ، يقـــولتعالت كلماته :

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ (٢)

---

(١) الحجرات (٢) النور

نعم انهم تلقوه بالسنتهم ، لا بعيونهم ، وأخذوه من الألسنة المرددة ، لا من مصادر العلم المتيقنة ، وأشاعوه بالأفواه لتزجية القول في المجالس ، والسمر الماجن الفاسد ، ويحسبون ذلك أمراً سهلا ، معتاداً ، وهو عند الله تعالى أعظم الفرية ، وان المؤمن لا يتلقاه بالترويج والاشاعة انما يرده ،او يبعدوا الفضول عن أنفسهم ، وأنه لا ينبغي ترداده ، بل رده ، لأنه بهتان عظيم ·

وهنا وقد شاعت قالة السوء ، وردده المهاجر والأنصارى والمنافق والمخلص في غير تحر ولا احتراس عن لغو القول ، وبهتانه ، هنا نجد عظمة الرسول ، وايمانه بأن الطيبين للطيبات وحسن ظنه بأهله · وقوة ايمانه النبوي وضبط نفسه ، وصبره ،فيقول شاكياً الناس الى الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت عليهم الا خيراً ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيراً ، ولا يدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي ·

لام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرجال الذين أشاعوا القول الكاذب ، وتضمن قوله لوم الذين استمعوا اليهم ·

ولقد كان ذلك انهاء لترداد القول ،لأن الذي نفى الخبر وكذبه هو صاحب الشأن ، وهم من علموه لا ينطق عن الهوى · فكان ذلك اطفاء للثائرة ·

ولكن اذا كان ذلك القول من أخلاق النبوة فقد بقي حكم البشرية ، والبشرية لها سلطان لم تكذب ولم تصدق ، ولكن النفس ارتابت ، والارتياب ينساب في النفوس اذا كانت له أسباب ولو بالظن الذي لا دليل على صدقه ·

وهنا نجد التعليم العالي من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لمن يختبره الله تعالى بمثل تلك القالة الآثمة فهو لا يسارع الى أهله يبادرهم بالاتهام أو الايذاء ، أو غير ذلك مما يرتكبه ابن الانسان في غضبه أو ريبه ، بل انه يتلقى ذلك بالصبر الكظيم الهادىء الذي يميل الى التبرئة ، ولا يميل الى الاتهام ·

ولكن أمراً لا يملكه وهو الا يبدو عنه أثر للألم المكين ، وان لم يظهر لمنا ولا سخطاً ، بل انه لا يفكر في أن يذكر لها الخبر ، حتى تتبرأ ، فتكون الزوبعة قد هدأت ، والسحابة العارضة قد تبددت ، ولكنها تعلم ، وقد كانت

لا تعلم ، وقد كانت غافلة عما يجري بين الناس من قول ، قد أطفاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باعلان كذبه وبهتانه ٠

ولكن الصبية الطاهرة المؤمنة تعلم، والقول يجري بشأنها من الآثمين الذين لعنهم الله تعالى في كتابه ، اذ قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

وأى ذنب أعظم اثماً من رمي هذه المؤمنة الغافلة الوفية ابنة الصديق وزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم٠

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمنطق العقل والايمان لا يصدق ، وبمنطق النفس البشرية يرتاب فاستشار خواصه ، فكلهم كذب ، وشدد في التكذيب ، وهو يقول انك طيب لا يختار الله تعالى لك الا طيبا ، ونسب ذلك لعمر بن الخطاب الفاروق ٠

وقد سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من القريبين من بيته ، وهما أسامة بن زيد ، وعلي بن أبي طالب ٠

سأل أسامة ، فأثنى خيراً ، وكلامه في أم المؤمنين عائشة يترقرق يبشر الاطمئنان ٠ وسأل علياً القاضي الذي قال فيه « أقضاكم علي » فأجاب اجابة قوية ، لم يتهم ولم يكذب ، ولم يثن ،ولم يهاجم ، بل وقف كما يقولون موقفاً محايداً ٠

وفي الحق ان ذلك هو السبيل لازالة الريب ، قال يا رسول الله ان النساء لكثير ، وانك لقادر على أن تستخلف ،وان هذا لا شك ما كانت أم المؤمنين ترضاه من علي بطبيعة المرأة المحبة المخلصة المثالية ، وهو مهما يكن أثره في قلب أم المؤمنين يؤيد حياد علي في القضية ، وهو يجعله أقرب الى الاتباع، يقول علي القاضي المحقق : سل الجارية فانها تصدقك أخذ التحقيق طريقه ، فسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة ، فقالت ما أدخل الاطمئنان في قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وابتدأ يزيح غشاء الشك ٠

---

(١) النور

قالت والله ما أعلم الا خيراً ، وماكنت أعيب على عائشة شيئاً ، الا أني كنت أعجن عجيني ، فأمرها أن تحفظه،فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله .

كان الاطمئنان وان لم يكن كاملا ،وخصوصاً أن الوصف الذي وصفتها به هو من أسباب اشاعة قول السوء من الأفاكين الآثمين ، فاذا كانت غلبة النوم ألا تسببت في أن تأكل الشاة عجين بريرة ، فقد كانت غلبة النوم هي التي فتحت باب الاتهام الآثم للأفاكين .

بعد أن استأنس النبي بدليل البراءة بعد أن برأها بايمانه ، وبعد أن علمت هي ، واجهها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي حبه في الدنيا والآخرة ، وقال لها ما يدل على أنه غير خاف ، ولا تارك له ، يا عائشة ، انه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله ، وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس ، فتوبي الى الله . فان الله يقبل التوبة عن عباده .

لقد كانت تبكي ، فجف الدمع من قوله ، لأنها كانت ترجو فيه الرضا بعد الجفوة ، ترجوه رضا مطلقاً لا رضاً معلقاً ، وترجو ألا يكون منه ، وهو الحبيب الرسول النفي المطلق في مواجهته ، وتلفتت الصبية المؤمنة المحصنة الطاهرة أن يجيب عنها أحد ،وقد قال أحب حبيب لها في الوجود مالا يقطع بالنفي المطلق ، المثبت لبراءتها ، فلم يجب أبواها ، وكانت في حيرة البريء الذي يجري حوله الاتهام ، ويحيط بها من كل جانب ، رأت أنها ان كذبت لا تصدق ، وان أثبتت كذبت .

فتركت أمرها لله تعالى ، لا ترجو سواه ، وما كانت تظن أنها بلغت مبلغ أن ينزل قرآن يتلى ويصلى به في براءتها ، وانها تزعم أنها أصغر من ذلك ولكن مقامها عند الله كبير لأنها صبرت مطمئنة الى حكم الله تعالى ، ورضيت بأن يكون وحده هو الذي يعلن براءتها،فنزلت الآيات الكريمات المبرئات بالدليل ، اذ قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا

جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ
هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي
الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) النور

٥٠٥ ـ هذه حادثة الافك والبهتان ، وتنظر فيما تشير اليه الآيات الكريمات التي نزلت ببراءة الطاهرة الصادقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ·

تشير الآية الكريمة أولا الى أن أكثر الشر في الجماعة يجيء من أمور يحسبها الناس أمورا هينة وليست هينة في ذاتها · بل هي اثم كبير ، كما أنها ليست هينة في آثارها لأنها تحل المجتمع وتشيع الفاحشة فيه ، وتهون الرذائل، ويكون فيه رأي عام غير فاضل ، بل رأي عام فاسد ولا تفرخ الرذائل الا في رأي عام فاسد ، ولذلك شدد القرآن الكريم في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليكون رأي عام فاضل يحث على الفضيلة ، ويدفع الرذيلة ·

وتدل الآية ثانياً على أن الشهادة في الفاحشة ، لا تكون الا بأربعة شهداء والا كان القول كاذباً عند الله تعالى مهما تكن مكانة القائل الاجتماعية ، ولذلك اقترن بهذه القالة الفاسدة حد القذف ·

وتدل ثالثاً على أن الظالم لا يظلم ولا يمنع من الخير ما دام قد استوفى عقابه على ما ارتكب ، لقد كان أبو بكر رضي الله تبارك وتعالى عنه يمد مسطحاً وهو ذو قرابة به ، فلما خاض في حديث الافك ، قطع عنه فنزل نهي الله تعالى عن ذلك في قوله تعالى في الآيات التي تلوناها، ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى الى آخر الآية الكريمة ·

وتدل هذه على أمرين ، أولهما ــ أن الزكاة يجوز اعطاؤها للعصاة وقد أخطأ في ذلك بعض الفقهاء ، فانها قد تمنعهم من كثير من الجرائم ، وقد تدني قلوب العصاة ، فان الجفوة تولد الجرائم، والعطاء يرطب النفوس فلا تجفو ، وتحس بأن عيشها مؤتلفة مع الجماعة أدنى الى الراحة ·

الأمر الثاني : أن الاعطاء عند الجفوة يقرب ويمنع البعد ، وأن الصدقة تطفيء المعصية وتجلب الغفران ألا ترى الى قوله تعالى :

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (١)

---

(١) الاعراف

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم(ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة)٠

وتدل رابعاً على طهارة نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم طهارة مطلقة لأن الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين، فتلك سنة الله تعالى في خلقه ، ولم تكن مخالفتها الا في امرأة فرعون التي ذكرها القرآن بالخير ، وقد كانت مع شر خلق الله ، وكذلك في امرأة نوح ولوط اللتين خانتا هذين الرسولين الطاهرين ، وقد قال تعالى في ذلك :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

ويقول تعالى قبل هاتين الآيتين :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

فكان نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الطيبات ٠

الأثر النفسي من علي كرم الله وجهه :

٥٠٦ ـ يبدو من سياق القصة كما روتها أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها أن كلام علي رضي الله تعالى عليه لم يقع من نفسها موقع الرضا ، كما وقع كلام أسامة ، وكما وقع كلام الصحابة الذين قالوا خيراً ٠

---

(١) ، (٢) التحريم

وذلك لأن علياً كرم الله وجهه لم يكن في كلامه ما يرضي ، ولكن كان في كلامة ما يكون سبيلا لانهاء الموضوع ، ولكيلا يشغل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر عارض .

وما كان يرضي كلام علي عائشة ،لأنه لم يشهد بالبراءة كما شهد غيره ، ولعلها كانت ترى أنه أعلم ببراءتها أكثر من غيره من الصحابة ، ولأن له بالبيت الذي هي فيه صلة ، فشهادته تكون أقوى من شهادة غيره .

ولأنه قال كلاماً لا يرضي من لها مكانة عائشة في قلب النبي ، لأنه قال النساء غيرها كثيرات وله أن يستخلف غيرها .

واذا كان ذلك لم يرض البريئة الطاهرة ، فانه كان السبيل الى صرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى التحقيق،ووراء التحقيق كان الاطمئنان الابتدائي ، ثم كان وراءه الابراء لها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم الابراء لها من الله تعالى .

ولقد استرسل المؤرخون في ذكر ما بينها وبين علي كرم الله وجهه ، حتى جعلوه سبب الخروج عليه في واقعة الجمل ، وقالوا ما قالوا في ذلك .

ونحن نقول انه بلا ريب لم يرض علي عاطفتها ، ولكنها في ظني ما أبغضته ، وان خالفته على كلام في ذلك ، وان الدليل على أنها لم تبغضه أنه عندما نعي اليها ذهبت الى قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت جئت أنعي اليك أحب أصحابك اليك ، جئت أنعي اليك صفيك المجتبى وحبيبك المرتضى ، علي بن أبي طالب .

وما كان من شأنها أن تبغض أحب أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فرضى الله عنها وكرم الله وجهه .

حد القذف

٥٠٧ ـ أحسب أن حد القذف قدشرع لهذه المناسبة التي شاعت فيها قالة السوء ، وحديث الافك ، لأن الآيات جاءت متصلا بعضها ببعض اذ أنه ذكر فيها نصاب الشهادة بالزنى ،وهوأربعة شهداء وانه اذا لم يكن الشهداء الأربعة ، فان الرامي بالزنى يكون كاذبا ، وهذا الحد هو جزاء الكذب ، وقد ذكر الله تعالى ذلك الحد في قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ (١)

ونلاحظ أن الآية دلت على عقوبةأصلية مادية ، وهي ضربهم ثمانين جلدة ، وذكرت عقوبتين تابعتين معنويتين ·

احداهما ألا تقبل لهم شهادة أبدا ،لأنهم كذبوا في مقام يجب الاحتراس فيه ، ولأن الله تعالى وصفهم بأنهم الكاذبون ، وحصرهم في وصف الكذب فقال تعالى :

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝﴾ (٢)

وكيف تقبل شهادة من حصر في الكذب بحكم الله تعالى ، ولذلك منع قبول شهادتهم أبدا ، فقال تعالى :

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ (٣)

(١) ، (٢) ، (٣) النور

الثانية من العقوبات التبعية وصفهم بالفسق ، وهذا الوصف يستمر اذا لم يتوبوا ، فالاستثناء بالتوبة انما هو من وصف الفسق ، فلا يكون التائب توبة نصوحاً فاسقاً ، بل لا يكون مذنبا ، لأن التوبة تجب الذنوب ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

ولقد طبق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حد القـــذف على مسطح ، وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش التي منعها دينها من أن تخوض في حـــديث الافك مع أنها الضرة التي كانت تناصي عائشة رضي الله عنهما المنزلة عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قد نزل حد القذف من قبل .

وهنا يرد سؤال : ان الذين تحدثوا حديث الافك كانوا أكثر من ثلاثة ، فقد تناول القول به غير الثلاثة ، بل ان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت ان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ، فلماذا لم يقم الحد ، الا على هؤلاء الثلاثة .

ونقول في الجواب عن ذلك ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر أن هؤلاء قد صرحوا بالرمي ويظهر أنه قام الدليل على أنهم تكلموا ، ولم يقـم الدليل على غيرهم .

ولكن أم المؤمنين عائشة قالت ان الذي تولى كبره رأس المنافقـــين فكيف لا يحد ، وهو الآثم الأول .

ونقول في الجواب عن ذلك أنه بلا ريب هو الذي تولى كبر هذا ، بالتنبيـه على ما يسهل على غيره الرمي ، من غير أن يصرح بالرمي ، ويدس الخبـــر في الناس بلحن القول من غـير تصريح ، فيحمل الناس على أن يتكلموا ، وهـو لا يظهر الكلام الا بين خاصـته الذين يشيعون الافك بتوجيه الأذهان اليه من غير أن يصرحوا ، فهم يوعزون بالقول ، ولا يظهرون ، ويدفعـــون غـيرهم ، ولا يتكلمون ، وتلك خلال المنافقـــين يستترون ولا يتكلمون ، وبذلك تتحقق في غيرهم شروط اقامة الحد ، ولا تتحقق فيهم ، والله أعلم .

والقذف هو الرمي بالزنى ، سواء أكان رمياً للرجل أو المرأة .

---

(١) طه

حد اللعان

٥٠٨ ـ واللعان نزل عقب بيان حد القذف وقبل حديث الافك ، وحد القذف سببه رمي الرجل أو المرأة بالزنى اذا لم يكن بينهما عقد زواج ، أى يكون المقذوف ليس زوجاً للمقذوفة .

أما اللعان فانه يكون عندما يرمي الزوج زوجته، واللعان أن يحلف الزوج الرامي أربع مرات أنه صادق فيما يرمي به زوجته من الزنى أو نفى الولد منه ، والخامسة أن لعنة الله تعالى عليه ان كان من الكاذبين ، فالحلف تضمن سلبا وايجابا ، والايجاب كان بالحلف على وقوعه ، والسلب كان بالحلف باستحقاق لعنة الله ان كان كاذباً .

وقد ثبت بقوله تعالى بعد آية حد القذف :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

وكان اللعان اذا كانت الزوجية قائمة وقت الرمي بالزنى بأن تكون قائمة حقيقة ، أو حكماً بأن تكون في عدة الطلاق الرجعي .

واختص رمي الزوج لزوجته بالاتكون شهادة أربعة ، لأنه لا سبيل لأن يحضر أربعة يشهدون واقعة زنى زوجته ، ولأن الغيظ الذي يكون عليه الزوج لا بد أن يطفأ ولو بالقول في حضرة الحاكم .

ولقد جاء رجل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : يا رسول الله ، ان الرجل يجد الرجل مع أهله ، وان قتله قتلتموه ، وان تكلم ضربتموه ، وان سكت ، سكت على غيظ ، اللهم بين ،فنزلت آية اللعان مبينة كاشفة .

---

(١) النور

وانه اذا تم اللعـان فرق بين الزوجين ، فرقة أبدية عند جمهور الفقهاء ، وأجاز أبو حنيفة العودة اليها بعقـد جديد ومهر جديد اذا كذب نفسه .

وقد قال بعض الناس في أيامنا هذه هل يطبق حد اللعان اذا رمت المرأة زوجها بالزنى ، ولم يكن عندها شهداء أربعة .

ونقول في الجواب عن ذلك ان اللعان ورد بالنص في حال ما اذا رمى الزوج زوجته ، وكان تفصيله في الحلف أربعة وهي ايجابية ، وواحد سلبي ، أما المرأة ، فـكان أربعة سلبية وواحـد ايجابي .

ولا يمكن ثبوت الحدود الا بالنص ،اذ أنها تدرأ بالشبهات ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » .

ولا يمكن أن نثبته بالقياس ، لأن علة القياس غير ثابتة بقدر واحـد في المقيس والمقيس عليه ، اذ أن المـرأة وعاء النسل للرجل ، فمن حقه أن ينفي نسب الولد اذا كان من غـيره ، ولأن زنى المرأة أشد خطراً على الأنساب من زنى الرجل ، فليسا مشتركين في عـلة التخفيف من القذف الى اللعـان ، ولأن المرأة في بيت الرجل ، فالحكم منـه بالزنى عليها قد يكون من غير حضـور شهداء ، يشهدون .

أما الرجل فالزنى منه في أكثر الأحوال يكون خارج المنزل ، فعلمها به ، اما أن يكون من غير بينة ، بل بالحدس والتخمين أو باخبار الناس من غـير تعيين للمخبرين ، وذلك هو الغالب ،واما أن يكون بمخبرين معينين ، وفي هذه الحال تثبت الرمي بالزنى ، ويكون حينئذ حد القذف ، وما يترتب عليه من عقوبات مادية وتبعية والله سبحـانه وتعالى هو العليم بذات الصدور .

حد الزنى

٥٠٩ ـ الآيات تتلى واليه آية حد الزنى ، وآية حد القذف ، وآيات الافك، وهذا التوالى الكافي ينبيء عن أن يكون النزول في وقت واحد أو متقارب ، ومناسبة واحدة ٠

ونشير في هذا المقام الى أن الزنى وردت فيه آيات يبين بعضها بعضاً ،أولها قوله تعالى :

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ (١)

فهاتان الآيتان تفيدان أن ثمة عقوبة تخص المرأة ، وأخرى تعم الرجل والمرأة ، فأما التي تخص المرأة ، فامساكها في البيوت حتى تموت أو يجعل الله تعالى لها سبيلا بالزواج ، كما هوالظاهر الواضح ٠

وأما التي تعم الرجل والمرأة ، فهو الايذاء ، وقد جاءت السنة بعقوبة للرجل تقابل عقوبة المرأة التي تخصها، وهو التغريب سنة ، وهذا يقابل الامساك في البيوت ٠

والايذاء لهما تبينه آية النور ، ولم تكن ناسخة ، كما جاء على أقلام كثيرين من الكتاب ، لأن النسخ لا يصار اليه الا اذا تعذر التوفيق بين النصين، والجمع هنا ممكن ، وهو واجب ، لأن كل آية تتمم الأخرى أو تبينها ، كما في الآيات الواردة في عقوبة الزنى ٠

---

(١) النساء

والايذاء المبين في سورة النور هو قوله تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ (١)

وجاءت بعد ذلك آيات حد القذف ،ثم آيات اللعان ثم حديث الافك والبهتان الذي يصور جريمة الرمي بالزنى ،وأنها تشيع الفاحشة في الدين ،وتفسد الجماعة ، وتجعلها تعيش في مجتمع معتم بالرذيلة ، والاستهانة بها ٠

ويجب التنبيه هنا الى أمرين ـ أحدهما ـ أننا لا نقول جازمين ان هذه الآيات المتعلقة بهذه الحدود ، قد نزلت كلها عقب غزوة بني المصطلق أو في أثنائها ، أو عند حديث الافك ، والذي يغلب علينا أن حد القذف والزنى قد نزل قبلها بقليل أو بكثير كما أشرنا ،ولذلك طبق حد القذف على الذين ارتكبوا ذلك الاثم ، ولا يقال انه قد طبقت عليهم عقوبة ، لم تكن ثابتة وقت ارتكابهم ما حقت عليهم بسببها ، وان العقوبات تطبق على الحوادث اللاحقة ولا تطبق على الحوادث السابقة ، كما يقرر علماء القانون الوضعي ، وان كان في ذلك القول نظر يوجب تمحيصه ٠

التنبيه الثاني : أن العقوبات في الاسلام تسير سيراً ضرورياً مع منازل المرتكبين ، فتكبر العقوبة مع كبر المجرم ، وتصغر مع صغره ، لأن الجريمة مهانة ، والمهانة تهون على الصغير ، لأن نفسه مهينة في نظره ، والمهانة من ذي المنزلة أمر كبير ٠

ولذلك جعل الاسلام العقوبة المقدرة على العبد نصفها اذا وقعت الجريمة من الحر ، وقد قال تعالى في شأن الاماء :

---

(١) النور

﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (١)

فاذا كانت الحرة زنت تجلد مائة ،فانه اذا زنت الأمة تجلد خمسين ٠

وكذلك الأمر بالنسبة للعبد ، وكذلك الأمر بالنسبة لكل الحدود ، لا فرق بين حد وحد ، وكل ذلك في العقوبات القابلة للتنصيف ٠

ولقد أجمع الفقهاء على أنه يجب ما على العبد بعد تنصيفه ، فيكون السوط الذي يجلد به العبد أخف من سوط الحر ٠

---

(١) النساء

الحُدَيْبِيَة

٥١٠ ـ انتشر الاسلام في الصحراء العربية ، تبعه من تبعه ، وعلم بأمره الكثيرون ، وكان من الأعراب مؤمنون كما كان منهم مسلمون ، أعلنوا اسلامهم ، وان لم تؤمن قلوبهم ، وكان منهم من استمر على شركه ، ولكن صار في المسلمين قوة ولهم هيبة تجعل الذين بقوا على شركهم ينظرون الى الدعوة للتوحيد ، والايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أنها ذات مكانة جعلتهم يفكرون ويقدرون ، ولا يكتفون بالرد بادي الرأي ، والانكار المطلق من غير تفكير ولا تدبير •

والقول المجمل أن الريب دخل قلوبهم من ناحية عبادة الأوثان ، وهم يعلمون الله تعالى بذاته وصفاته ، ولا شك أن ريبهم في أوثانهم هو الطريق لأن يدخلوا في دين الفطرة مؤمنين آمنين ، صارت الدعوة الاسلامية تملأ الآفاق ، ولم يعد أحد من الأعراب أو من لف لفهم يفكر في غزو المدينة فهي محروسة بحراسة الله تعالى ، مصونة بكلاءة الله تعالى •

فاذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أمن غزو الأعراب ، أو أن يدخلوا في أحلاف مع أعدائه ، فقد آن له أن يتجه الى قريش الذين يناصبونه العداوة ، لا ليقاتلهم ، فهو لا يقاتل الادفاعا ، كما رأينا في سراياه وغزواته السابقة •

ولكن قريشاً تعاديه والحرم المكي الشريف تحت سلطانها ، فلا بد أن يفرْغ من عداوتها ، تمكيناً للدعوة ، وتمبيداً للسبيل الى الحج ، الذي هو نسك من نسك الاسلام ، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يريد التفرغ لليهود الذين تجمعوا في خيبر ، وهم وحدهم يريدون الانقضاض على المدينة ، زاعمين أنها ديارهم أخرجهم منها ، وقتل من قتل منهم •

فكان لابد أن يعرف أمر قريش ،وأن يعرف أهم يسهلون له أداء فريضة الحج ، بقية ديانة ابراهيم في أرض العرب ، أم أنهم يقفون في سبيله كما وقفوا دائما لا بد أن يقرن النية بالعمل ، فذهب ليحج ، وكانت موقعة الحديبية التي سماها الله تعالى فتحاً مبيناً ، لأنها أزالت الحواجز النفسية التي كانت تحاجز بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش ، والتقى بهم الأمين الحبيب الذي عرفوه في صباه ، وشبابه ، وزالت المحاجزات بسبب الخلاف والنفور ، والحرب ٠

الحُدَيْبيَة وخروج قريش :

٥١١ ــ في ذي القعدة سنة ست من الهجرة النبوية كما تطابقت كل الروايات ، وهي من أشهر الحج اعتزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من أصحابه الحج ، وكان معه سبعمائة ، ولكن قال جابر بن عبد الله ، كان معه أربع عشرة مائة أي نحو ١٤٠٠ وهذا معقول ، فقد كان جيشه صلى الله تعالى عليه وسلم مرهباً لقريش ، وما كان يرهبها مادون الألف ، ولقد ذكر ذلك العدد ، وهو ١٤٠٠(أربعمائة وألف) البخاري وغيره ، ورقم السبعمائة لابن اسحاق ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم لا يريدون حرباً ، بل يريدون حجاً جامعاً ، ولكنه ما ان وصل الى عسفان حتى لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، ويظهر أن قريشاً قد علمت أو ظنت خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهي الحذرة المتحفزة ٠

قال بشر بن سفيان : يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذي طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ،وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا الى كراع الغميم ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرحيم بقومه راجياً الاسلام فيهم ، وان حاربوه ، ياويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فان أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وان أظهرني

الله تعالى عليهم دخلوا في الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد ، على هذا الذي بعثني الله به ، حتى يظهره ، أو تنفرد هذه السالفة •

بعد هذا لم يرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يلقى مقاتليهم ، حتى لا يسبق السيف الرأى ، وهو يريد أن يحج ، ولا يريد أن يرغمهم ، بل يريدهم مختارين ، لأن الاختيار يؤلف ، والقتال ينفر ، والاجبار بالسيف يرمض النفس ، ويكلمها ، ولا يريد عليه الصلاة والسلام كلما ، بل يريد شفاء للقلوب من غيظها •

ندب رجلا يخرج بالمسلمين الى طريق غير طريقهم فسار في طريق وعث ، حتى وصل ثنية المراد مهبط الحديبية من أسفل مكة •

ولما رأت خيل قريش كروا راجعين ليكونوا بمكة والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالجيش الى ثنية المراد • بركت ناقته ، وكأن الله تعالى قد اختار له هذا المكان ، فلما بركت الناقة قال الناس خلأت فقال عليه الصلاة والسلام (ما خلأت) وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لاتدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها • قال ذلك لأنه جاء وهو الهادي الداعي الى الحق ليقرب نفوسهم بعد الحرب التي شنوها ، ومكنه الله تعالى منهم •

قال لجيشه انزلوا ، فقالوا : ما بالوادي ماء ، ولم يكن به ماء ، ولكن قلب مرطومة ، فأعطى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سهمه رجلا من رجاله ، فنزل به في قليب من تلك القلب وغرز فيه السهم ، فجلس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للرواء حتى شرب الناس •

المراسلة بين الفريقين :

٥١٢ ـ كان مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيش قوي ، ولم تكن مكة على استعداد للحرب ، ولو أراد أن يدكها بجيشه دكا لفعل ، ولكنه اتى للحج ، وليطفىء حربا ، وليبر رحما ، ويزيل نفرة ، وليذهب بوحشة الحروب التي خلفتها •

ولذلك أعلن المسالمة وارادة الحج من غير أن يقهرهم أو يذلهم .

جاء اليه بديل بن ورقاء مع رجال من خزاعة فكلموه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوه ما الذي جاء به ، فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما جاء يريد حربا ، وانما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته ، وقال ما قاله من قبل لغيره .

رجعوا الى قريش ، فقالوا لهم : يامعشر قريش ، انكم تعجلون على محمد وان محمدا لم يأت لقتال ، انما جاء زائرا لهذا البيت ، فاتهموهم وجابهوهم .

وقالوا وان جاء لا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك العرب ، ولكنهم مع هذه العنجهية لم يزيلوا ما بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرسلوا له مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآه مقبلا ، هذا رجل غادر ، وقد كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه ما جاء للقتال ، ولكن لزيارة البيت .

ومع أن قريشا لا تريد حتى زيارة البيت أرسلت بحليس بن علقمة ،وكان يومئذ سيد الأحباش الذي كانوا يعينونهم في القتال فلما رآه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال عليه الصلاة والسلام : انه من قوم يتألهون أي يذعنون لظاهر العبادة فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى بسيل عليه من عرض الوادى من قلائد أشعرت بأنه هدي للحج ، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله .

اكتفى حليس بالنظر الى الهدي عن المحادثة ، فرجع الى قريش ولم يصل الى رسول اعظاما لما رأى وحدثهم بما رأى ، فقالوا له اجلس ، فانما أنت أعرابي لا علم لك .

غضب الحليس عند ذلك ، وقال :

يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أنصدّه عن بيت الله تعالى من بعد ما جاء معظما له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا لحليس مه،كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به •

ما زالوا طامعين في أن يكون لهم من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يرضيهم من غير أن يقاتلوه ، فأرسلوا اليه عروة بن مسعود الثقفي ، وقد ذكر لقريش أنه منهم بمنزلة الولد ، لأن آمه كانت من بنت عبد شمس ، وقد ذكر من جاء اليهم بعد لقائه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أنهم لقوه بالتعنيف وسوء الحظ كما قالوا لبديل الخزاعى ، وكما قالوا للحليس سيد الأحباش ، تبين أن صلتهم به وثيقة ،وانه سيكون أميناً في رسالته مع رغبته في نصرتهم ، وقال في ذلك«قد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم ، بنفسي ، قالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم •

خرج مسعود هذا ، وقد اطمأن الى ثقتهم به ، حتى أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال جمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم الى بيضتك لنقضها (أي يكسرها) بهم ، انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل (١) قد لبسوا جلود النمور ،يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ، والله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً •

وكان أبو بكر رضى الله عنه خلف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له أنحن ننكشف عنه •

ثم جعل يتناول لحية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يكلمه مما يدل على جرأته وصلفه وخشونته وعبثه •

وكان المغيرة بن شعبة واقفاً على رأس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالحديد ، فكلما مد يده الى لحية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقرع يده ، ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الا تصل اليك أى تقطع فلا تصل اليك •

---

(١) العوذ المطافيل : النوق التى معها أولادها ،والعوذ جمع عائذ وهى هنا الناقة أى الناقة ذات الاطفال•

قال عروة الغليظ الجافي للمغيرة بن شعبة ما أفظك ، وما أغلظك ؟ فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو مما كلم به من سبقوه بأنه لا يريد القتال ، ولكن يريد زيارة البيت الحرام .

قام عروة بن مسعود الثقفي من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، وعاد الى قريش يقول لهم .

« يا معشر قريش ، اني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، واني والله ما رأيت ملكا في قوم قط ، مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم » .

كان كل الرسل الذين يرسلونهم يؤكدون لهم أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء لقتال ، بل جاء حاجا ، ويريد أن يصل الرحم التي قطعوها .

غدر وعفو :

٥١٣ ـ غدر من جانب قريش ، وعفو من جانب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه في الوقت الذي تأكد لهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء مقاتلا ، لأنه جاء محرما وساق الهدي ، ولأنه في الشهر الحرام ، لأنه جاء يطلب المودة ، ولا مودة في قتال ، في هذا الوقت فكرت قريش في الاعتداء ، فانه روي عن ابن عباس أنهم بعثوا أربعين أو خمسين رجلا منهم ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليصيبوا من أصحابه أحداً .

فأخذ أولئك أخذاً ، وسيقوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا قد رموا المعسكر بالحجارة والنبل ، وكان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذهم رهائن أو نحو ذلك ، ولكن الرسول الكريم قد عفا عنهم .

تبادل الرسل مع الرسول :

٥١٤ ـ كانت الرسل يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قبلهم ، ومنهم من ينقل الأمر كما هو ، وربما كان منهم من يحرف في القول ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يريد أن يوجه الخطاب اليهم برسول يرسله

اليهم ، يتعرف أحوالهم وما تطـــويه نفوسهم ، وما يقــدر عليه ويفعله من بعد ذلك يكون عن بينة ٠

اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الفاروق عمر بن الخطاب ، وهــو نعم الرسول ، وقـــد كان في الجاهلية يقـــوم ببعض أعمـــال السفارة بين القبائل ، وبين العرب وغيرهم ، ولكن عمر ببطشه وقوته على الشرك ، كان يعمل حساب لقائه معهم ، وقد يحبسونه ، فلا يؤدي حق السفارة التي اختـاره لها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولذا قال غير راد لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يعـــرض الأمر عليه ، قال : يا رسول الله ، اني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عـــداوتي اياها ،وغلظتي عليها ولكن أدلك على رجـل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم عثمان بن عفـــان ، فبعثه الى أشراف قريش ، وأبي سفيان ، يخبرهم أنه لم يات لحرب ، وانما جاء زائراً لهـــذا البيت معظما لحرمته ٠

ذهب عثمان الى مكة للقيام بهـذه السفارة ، وهو الرجل الذي لا عنف فيه، وهو أموي له عصبة من بني أمية تمنعه وتجيره ٠

وقد التقى أول ما التقى بابان بن سعيد بن العاص الأموي حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، وهو في طـــريقه اليها ، فلقيه لقاء المحبة بسبب الرحم، ولأن عثمان رضى الله عنه كان رفيقـاً ودوداً ، وحمله بين يديه ، وأجاره ، بأن جعله في جـــواره ، وذلك يوجب عليه حمايته ، واستمر في جواره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم ٠

انطلق عثمان ، حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسلمها اليهم،وأنه ما جاء للقتال ، وانما جاء زائراً للبيت معظما لحرمته ٠

وقد قبلوا كلامه من غير استنكار ولا رد ، ورحبوا بعثمان رضي الله عنه ، وعرضـــوا عليــه أن يطـوف بالبيت آمنا مطمئناً ٠

ولكن عثمان أبى أن يطوف ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غـــير ممكن من الطواف ، فقال ذو النورين التقي عثمان : ما كنت لأطـوف حتى يطوف رســـول الله صــــلى الله تعالى عليه وسلم .

وبذلك أدى عثمان رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم استبقوه، لا ليؤذوه ، ولعل ذلك لاستشـارته أو الاستفسار منه ، أو ودا ومحبـــة ، أو حفاوة وتكريماً .

وعندئذ راجت الأقوال بين المسلمين بأن عثمان قتل ، وتبلبلت الأفـــكار واضطـــربت النفـــوس ووجـدت عزمة القتـــال ، ولم يـــكن مرادا ابتداء ولا مقصوداً .

بيعة الرضوان

٥١٥ ـ خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من المدينة يريدون الحج ولم يريدوا قتالا ، ولما غاب عثمان رضى الله عنه في مكة ، وشاعت القالة بأنه رضى الله تعالى عنه قد قتل ، ولم يكن ذلك بعيد الاحتمال ، أخذ أهبته للقتال لأن الاعتداء وقع بقتل الرسول، وهو رسول سلام ، وهذا أمر منكر وقبيح في ذاته ، وفوق ذلك يتضمن في ذاته رفض للسلام واعتداء على من أرسله ، اذ الرسول لا يقتل ، ولكن يرد الى مأمنه ، سواء أرفضوا الرسالة أم قبلوها ٠

لابد اذن من الأهبة ، وما خرجوا للقتال ، فلا بد من أخذ البيعة به ، لأن القتال برضا الجند ، وتلك سنة نبوية في كل حروبه عليه الصلاة والسلام فانه يريد جندا مختارا يقدم بنفسه برضا واختيار ، محتسبا النية لله تعالى٠ طالبا ما عند الله ٠

لذلك أخذ البيعة على من معه ،وكان يبايعهم على الموت ، وعلى ألا يفروا من الميدان ، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قرر القتال ، وقال : لانبرح حتى نناجز القوم ، لأنهم بقتلهم ذا النورين عثمان يكونون قد رفضوا السلام٠

كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كل من معه ، ولم يتخلف عن البيعة أحد الا واحد ، وما كان ليلتفت اليه ٠

ولقد رضى الله عن أولئك الذين قبلوا أن يغيروا ملابس الاحرام ويلبسوا ملابس القتال ، وقال الله تعالى فيهم :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ
عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ
لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا
﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وهكذا رضى الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان ، ووهبهم سبحانه وتعالى من بعد ذلك مغانم كثيرة ، وبين سبحانه وتعالى أن أول هذه المغانم أن كف أيديهم عنكم ، فكانت هذه غنيمة عاجلة ،وكان هذا فتحاً مبيناً ، كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

---

(١) الفتح

عقد صلح على هدنة

٥١٦ ـ اقتنعت قريش بأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما جاء لقتال ، وقد عادت القضب الى أجفانها بعد أن عاد عثمان رضي الله عنه ، واطمأنت القلوب ، وعادت رغبة السلام وعزمته الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يريد خطة تمنع القتال ، وتحفظ الحرمات ٠

بعثت قريش سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي ، وقالوا له ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه ، الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً ٠

ولا شك أن هذا شرط ، (كما يقول علماء القانون) تعسفي وتحكمي ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الرؤوف الرحيم ، كما وصفه رب العزة ، لم يمانع في قبول ذلك ، وانضج أصحابه بالرفض ، وهم لا يعلمون ما يعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وما توجبه الرسالة ، وتحتمه الدعوة الى الاسلام ، فما كانت دعوة الاسلام رهباً، بل كانت رغباً ، وما كانت بالسيف بل كانت بالموعظة الحسنة ٠

اجتمع سهيل مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتم الاتفاق المبدئي على ما اشتمل عليه من التزامات ، خلاصتها :

أولا : لا يزور المسلمون البيت حاجين هذا العام ٠

ثانياً : وضع الحرب عشر سنين ٠

ثالثاً : أن من خرج من مكة الى المدينة يرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن عاد الى مكة مرتداً لا ترده مكة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم٠

رابعاً : من أراد أن يدخل في عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل والتزم بالتزامه ، ومن أراد أن يدخل مع قريش دخل ، والتزم بالتزامهم ٠

لما تم الاتفاق الشفوي وقف عمر رضى الله عنه غضبان أسفاً ، وقال لأبى بكر : « يا أبا بكر أليس حقا برسول‌الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قال أبو بكر : بلى ، قال أو لسنا بالمسلمين ،قال بلى • قال أو ليسوا بالمشركين ؟قال بلى • قال فعلام نعطي الدنية في ديننا،فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا عمر ، الزم غرزه أي أمره فاني أشهد أنه‌رسول الله ، فقال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله » •

ثم أتى رسول الله صلى الله تعالى‌عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ألست رسول الله !! قال بلى ، قال أو لسنا بالمسلمين !! قال بلى ، قال أو ليسوا بالمشركين !! قال بلى • قال‌الفاروق : علام نعطى الدنية في ديننا، قال الرسول الرفيق الأمين : أنا عبد الله‌ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني •

عندئذ سكن عمر رضى الله عنه ، وعلم أنه أمر الله تعالى ، فسكت عنه الغضب ، وكان ذا نفس لوامة ، فندم‌على ما كان منه من قول ، وكان يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى ، وأعتق‌من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي •

كتابة الصلح :

٥١٧ ـ تم الاتفاق على ما تشتمل‌عليه الوثيقة ، ثم دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب‌رضى الله تعالى عنه ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترض‌سهيل بن عمرو ممثل المشركين عند كتابة العهد ، وقال : لا أعرف هذاولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اكتب باسمك‌اللهم ، فكتبها ، ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل‌بن عمرو ، فاعترض أيضا سهيل ، وقال لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ،ولكن اكتب اسمك واسم أبيك • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم‌اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو :

١ ـ اصطلحا على وضع الحرب عن‌الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن القتال ، على أنه من‌أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع‌محمد لم يردوه عليه •

٢ ـ وان بيننا عيبه مكفوفة (أى‌لا عداوة) وأنه لا اسلال ولا اغـلال (لا سرقة ولا خيانة) ٠

٣ ـ وأنه من أحب أن يدخل في‌عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهـدهم دخل فيه ٠

وقد شهد على العقد بعض المشركين، ومن المسلمين أبو بكر وعمر ، وعلي ابن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص،وعبد الرحمن بن عوف ٠

وبعد تمام العهد تواثبت خزاعة ،فقالوا نحن في عقد محمد وعهــده ، وتواثبت ، بنو بكر ، فقالوا نحن في‌عقد قريش وعهدهم ٠

هذا ما كتب في العقد ، وكان هناك‌أمر عملي توجب قريش تنفيذه ، وقد رضيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠فقد قالوا تتميما للعهد ، وانك ترجع عنا عامك هذا لا تدخل علينا مـكة ،وأنه اذا كان عام قابل خرجنا عنـك ، فدخلتها بأصحابك فأقمت فيها ثلاثا ،ومعك سلاح الراكب : السـيوف في القرب لا تدخلها بغيرها ٠

قبل رسول الله صلى الله تعالى عليـه‌وسلم ، وآثرها ، مع ما فيها من شطط المشركين ، لأنه يريد سلاماً ، وأن معه‌جيشاً لا قبل لقريش به ، وكان يستطيع أن يقاتل ، والحجة قائمة عليهـم ،ولكنه النبي المسالم الذي يعظ بالحكمة ويدعو بالرفق ، وليس غليظ القلب ٠

أبـوجنـدل :

٥١٨ ـ وبينما هم في مجلس الصلح لم يفارقوه ، بل لم يتموا كتابته اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمـرو‌الذي يمثل المشركين عند كتابة العقد ، جاء وهو يرسف في الحديد ، فلما رأى‌سهيل أبا جندل ، قام اليه ، فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال يا محمد قـدلجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، وهذا أول من أقاضيك عليـه ،فقال النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم انا لم نقض الكتاب بعد ، قال سهيـل‌فوالله اذن لم أصالحك على شيء ، وقد جاء في البخاري مع هذا الكلام أن النبي‌صلى الله تعالى عليه وسلم قال : فأجزه

لي ، قال ما أنا بمجيزه لك ، قال بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل ، وقال بعض الحاضرين المشركين قد أجزناه لك ،ولكن سهيلا هو وليه ٠

قال أبو جندل أى معشر المسلمين أرد الى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون الى ما قد لقيت ، وقد جاء في رواية ابن اسحاق أنه وثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي الى جانبه،ويقول أصبر يا أبا جندل ، فانما هم المشركون ، وانما دم أحدهم دم كلب ،ويدني قائم السيف منه ، ويقول عمر رجوت أن يأخذ السيف ، فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، وذهبت القضية ٠

والنبي يمضي في عقده ، مع ما أثاره في نفسه ونفوس المؤمنين مجيء أبي جندل يرسف في قيوده ، وقال لأبى جندل اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم ٠

مع تلك الكلمات التي تلقى بروح الصبر والاطمئنان في قلب أبي جندل كانت الثائرة تغل في قلوب المسلمين ،ولكن لا يتكلمون احتراما لمقام العهد ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال انه لا يخالف أمر ربه ، ولكن عمر الفاروق ثار بالقول مرة أخرى ، يقول: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ، قال : بلى قال فلم نعطى الدنية في ديننا اذن ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أعطيها وهو ناصري ٠

قال عمر : أو لست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت فنطوف به ، قال :بلى: أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام فانك آتيه ومطوف به ، وهذه رواية البخاري ، وقد جمعنا بينها وبين رواية ابن اسحاق ، فقدرنا أن عمر قالها مرتين وهو مظهر غضب المؤمنين مع طاعتهم ورضاهم بما حكم صلى الله تعالى عليه وسلم استجابة لأمر ربه ٠

التحلل من الإحرام :

٥١٩ ــ كان لابد أن يتحلل المسلمون من احرامهم ، على أن يؤدوا عمرة في عام آخر ، وذلك بأن يقصروا شعرهم أو يحلقوه ، وقد دعاهم النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحلقوا رءوسهم وينحروا ، وابتدأ هو فحلق ، وحلقوا وقصروا من بعده ، وهذه رواية ابن اسحاق بسنده ٠

ولكن روي في البخارى أنه قال لأصحابه رضي الله عنهم لأنهم جميعا أهل بيعة الرضوان ، قال لهم قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ٠

فلما لم يقم منهم دخل على أم سلمة،وكانت معه في هذه الغزوة فذكر مالقى من الناس ، فقالت أم سلمة بعاطفة المحبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعاطفة الشريفة تنطق بالحق أحيانا قالت أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ، أخرج ، ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة ، حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك ، فيحلقك ، فخرج ، فلم يكلم أحدا منهم ، حتى فعل ذلك ، ثم نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ٠

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما لعصيانهم ابتداء ، وهذه رواية البخاري ، وقد كان فيها خبر الحلق وخبر النحر معاً ،وقصة النبي مع أم سلمة رضي الله عنها ،وان هذا التفصيل زاد به البخاري عن ابن اسحاق ، وزيادة الثقة مقبولة في ذاتها٠

٥٢٠ ـ بعد صلح الحديبية جاءنسوة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنات مهاجرات ، ولم يردهن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنهن لم يشملهن العهد ، الذي يوجب رد من يجيء مسلما من غير ولي أمره ، في هذا جاء النص الذي يحرم بقاء المسلمة في عصمة كافر سواء أكان كتابيا أم كان من المشركين ، ولذا قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ (١)

وقد قال الحافظ ابن كثير ، جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ (٢)

---

(١)،(٢) الممتحنة

فطلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا في الشرك ، فتزوج احداهما معاوية ابن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ·

قال ذلك ابن كثير في سرد ما كان في الحديبية ، ولذلك قلنا ان تحريم زواج المسلمة بغير المسلم ، وزواج المسلم بالمشركة جاء في الحديبية بعد امضاء الصلح ·

وهذه الآية تدل على ثلاثة أمور :

أولها ـ أن المسلمة لا تجوز للكافر سواء أكان كتابياً أم كان مشركاً ، والكتابي كافر لا كما أوهمت كتابة المحدثين ممن لا يمحصون الحقائق ، ويقولون ما يقولون مجاملة ، أو موادة للنصارى الذين لا يوادون المسلمين فالنصراني كافر بمحمد وبما نزل على محمد ، وبالوحدانية ، واليهودي كافر بالقرآن ومحمد ، ووصف الله في القرآن اليهود والنصارى بأوصاف الكفر فقال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١)

وقال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٢)

والذين يجيزون زواج المسلمة بغير المسلم قد خرجوا على اطار الاسلام ، لأنهم أنكروا القرآن وأنكروا أمرا معروفا من الدين بالضرورة ، وأجمع عليه المسلمون ·

وتدل ثانياً على أن المسلم لا يجوز أن يتزوج مشركة ، ومن كان عنده مشركة فليفارقها ، وقد فهم ذلك الامام عمر رضى الله تبارك وتعالى ففارق

---

(١) المائدة (٢) البينة

امرأتين كانتا تحته ، وهما مشركتان ،وأخذ ذلك من النهي في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

اى لا تتمسكوا بزواج الكافرين انكان بينكم وبينهن زواج ، لأن الكوافر جمع كافرة ، لا جمع كافر ، اذ لا يجمعوصف العاقل الذي يكون على وزن فاعل على فواعل ، ولكن تجمع فاعلةعلى فواعل ، كفاطمة وفواطم ، وقافلة وقوافل ، وأريد المشركات ، لأنه الذييتفق مع اباحة الكتابيات بقوله تعالى :

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٢)

وتدل ثالثا ــ على أن العدالة توجبعند فسخ الزواج بهذا الحكم الشرعي، أن يرد الى الأزواج المشركين ما أنفقواعلى أزواجهن اللائي انفسخ زواجهن بالاسلام ، فيرد اليهم الصداق ، لأنالفسخ كان بحكم الاسلام يعد من قبل الزوجة .

وفي مقابل ذلك من ينفسخ زواجهامن المشركات بحكم اسلام أزواجهم عليهم أن يردوا الى المؤمنين ما أنفقوامن أموال ، في هذه الزيجة ، وذلك لأن امتناعهن عن الدخول في الاسلام ،وقد دخل الزوج في الاسلام يعد تفويتاً لحقه فوجب التعويض عما أنفق ، لأنسبب الفرقة من جانبها .

وان المسلمين يستجيبون لحكم الاسلام ، فيردون ما وجب من اعطاء ما أنفق هؤلاء ، لأنه مما يؤدى اليهعقد المسالمة وما تؤدى اليه العدالة التي هي خاصة الاسلام مع العدو والولي علىسواء ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٣)

---

(١) الممتحنة (٢) المائدة ٥ ، (٣) المائدة

ولكن لا يضمن أهل الايمان أن يؤدي المشركون ما يجب عليهم اذا انفسخ الزواج بين المشركة والمسلم ، ولذلك فرض القرآن الكريم أنهم لا يدفعون ، والحكم في هذه الحال أن يؤخذ مما يجب اعطاؤه للمشركين مما أنفقوا ، ويسدد للمؤمنين الذين استحقوا ما أنفقوا ، ولم يؤد اليهم حقهم .

ويفهم من أن بيت مال المؤمنين هو الذي يؤدي ما أنفق المشركون في الزيجة التي فسخت بحكم اسلام الزوج ، لأن ذلك تنفيذ لحكم شرعي عام ، ولأنه ما يوجبه روح العهد الذي عقد في الحديبية .

وان المشركين يجب عليهم مجتمعين أن يؤدى للمؤمنين ما أنفقوا في الزواج الذي فسخ للاصرار على الشرك ، فاذا لم يؤد أخذ حق المؤمن من مجموع ما كان يجب على المؤمنين ، هذا تفسير قوله تعالى :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ (١)

وقد أخذنا المعنى في تفسير هذه الآية من تفسير الحافظ بن كثير لهذه الآيات .

وان هذا الحكم يفيد بطريق الاشارة الى أن سبب التفريق ان كان من جانب الزوجة يجب عليها أن ترد ما أنفق الزوج بالمعروف ، وتقدير المعروف للقاضي ، كما كان تقدير ذلك في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأمر المؤمنين ، ويمقتضى تلك الاشارة : اذا أسلم زوج من لا دين لها ، ولم ترض الدخول في دين كتابي أو الاسلام ،فانه يجب عليها أن ترد ما أنفق زوجها ، أو ما خسر بسبب امتناعها عن الدخول في دين سماوي .

تنبيهات :

٥٢١ – الأول : أن هذه الأحكام الفقهية أخذت من نص الآية، وتفسيرها الذي يعد من التفسير بالآثار وهو تفسير الحافظ بن كثير ، ولم ترجع الى كتب الفقه التي اختلفت فيها ، ولا نقول ان هذه الأحكام منسوخة فانا لا نعلم

(١) الممتحنة

لها ناسخا ولأنا نقول ان القرآن ليس فيه منسوخ وخصوصا في الأحكام الفقهية ٠

الثاني : أن أكثر المحدثين ذكر أن هذه الآيات نزلت والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يغادر الحديبية ، فقد قال أبو ثور : أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده اليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق الى أزواجهن ، وحكم على المشركين اذا جاءتهم امرأة من المسلمين (أي كانت تحت مسلم)وبقيت على شركها أن يردوا الصداق الى أزواجهن ٠

التنبيه الثالث : أنه لم يكن ذلك الحكم هو الوحيد الذي كان في غزوة الحديبية ، وان كان ثبوت هذا الحكم بالنفي ، بل هناك أحكام أخرى ثبتت بعمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت ثمة أحكام فقهية كثيرة ثبتت من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد عقد لها ابن القيم في كتابه « زاد المعاد في هدي خير العباد » فصلا قائما بذاته فلنتبعه في ذلك -

٥٢٢ ــ نشير هنا الى بعض ما ذكره ابن القيم ٠

١ ــ منها أن الاحرام بالعمرة في أشهر الحج يجوز ويصح ، ويلزم الاستمرار فيه ، وأن الاحرام بالعمرة وان كان يجوز من غير مواقيت الاحرام، وهي الأماكن التي خصها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن المسافر عليه أن يحرم بالحج قبل اجتيازها ، غير أن الاحرام من الميقات للعمرة أفضل ،فانه صلى الله تعالى عليه وسلم أحرم بها من ذي الحليفة ، كما أحرم بالحج ٠

٢ ــ ومنها أن اشمار الهدي سنة وأنه لا مثلة فيه ، وذلك بأن يحدث في حسمه عند سوقه ما يدل على أنه مخصص للذبح في مكة ، وبالتالي فان سوق الهدي للعمرة سنة في ذاته عند الاحرام ، وان النبي ساق الهدي واشعره ، وكان في جملة ما ساق من هدي جمل لأبي جهل كان من أنفال

بدر ، وان ذلك كان مغايظة للمشركين،وهذا يدل على أن غيظ المشركين ليفل من حدة سلطانهم ، ولاثبات أن كلمة الله هي العليا ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن الله سبحانه وتعالى • قال :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

ومنها جواز الاستعانة بالمخلص من غير المسلمين اذا كان في الاستعانة به فائدة ولا ريب فيه ، ولا مظنة لأن يترتب على الاستعانة ايذاء ، من أي نوع كان ، والا يمنع سدا للذريعة وذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استعان بمبينة الخزاعي ، وكان كافرا ، وجعله عينا على المشركين وكان أقرب الى أن يعرف أحوالهم ، لاختلاطه بهم ، والمصلحة في ذلك ، ولا ضرر • والحق في هذه القضية أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستعن به ابتداء ، بل انه هو الذي قدم معلوماته وان خزاعة مسلمهم ، وكافرهم كانوا على مودة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم • ولذلك عندما تم العهد بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش دخلوا في عهده ولم يدخلوا في عهد قريش كبني بكر ، ورد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للمشركين عهدهم عندما عاونوا بني بكر على خزاعة واستعد لفتح مكة •

وذكر ابن القيم أن من الأحكام الفقهية التي ظهرت في الحديبية استحباب مشورة الامام رعيته وجيشه استخراجا لوجه الرأي وأمنا لطاعتهم ، وتعرفا لمصلحة يختص بها بعضهم دون بعض ، واستجابة لأمر الله في قوله تعالى :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) آل عمران

وقد مدح سبحانه وتعالى عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

ونحن نرى أن النصوص توجب أن يستشير الامام الرعية في ادارة شئونهم ، وقد نرى استحباب ذلك في القتال ، لا في شئون الكافة ·

ومنها أن المشركين والفجار والفسقة وأهل البدع اذا طلبوا أمرا يعظمون به حرمة من حرمات الله تعالى ، أو أمرا هو حق في ذاته أجيبوا اليه ، فكل من يطلب أمرا هو حق في ذاته ، أومحبوب لا اثم فيه ، أجيب الطلب ،ولو كان فاسقا مبتدعا ، أو باغيا على الحق،أو مشركا ، الا أن يكون في ذلك ما يؤدي الى التجرؤ على أهل الحق أو معاونة آثم لذات الاثم وان ذلك موقف دقيق ، اذ التعرف على حق لا يجرالى باطل أمر دقيق لا يدركه الا أهل الايمان وأهل الادراك السليم ·

ومنها أن الحرم ليس مقصورا على المسجد الذي هو مكان الطواف ، بل الحرم يشمل ذلك ، وما حول مكة ،وأن كلمة الحرم تشمل كل ما حول مكة·

ومنها أن المحصر بالحج أو العمرة وهو الذي يمنع من الوصول الى البيت الحرام ، وقد أحرم لزيارته معتمرا أو حاجا ينحر الهدي حيث أحصر ومنها أن المصالحة مع الكفار جائز ، ولو كان فيه ضيم ظاهر اذا ترتب على ذلك مصلحة للمسلمين ، والضيم ظاهر ،والعبرة بالنتيجة ، وان كان الضيم في ذاته ضررا ، فانه يقدم بدفع أقل الضررين ، وان الصلح بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكفار قريش في هذا الوقت كان خيرا في عواقبه ، وان لم يكن ظاهرا لكل المؤمنين أو لكثرتهم·

وهكذا كانت أعمال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تفيد أحكاما شرعية ، سواء أكانت تتعلق بتدبير مصلحي ، أو عبادة مقررة ثابتة ·

وانه اذا كان الأمر مصلحة ، وجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يبدي ما يراه مصلحة ، أو يعين على الواجب ، لأن ذلك من قبيل النصيحة في الدين الذي

---

(١) الشورى

تجب المبادرة بها ، فقد قال صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، الدين النصيحـة لله ولرسوله ، ولــكتاب الله ، ولخاصـــة المسلمين وعامتهم .

ولذلك تقدمت السيدة أم المؤمنين أم سلمة تطلب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبادر هو بالعمل ، فاذاحلق ونحر تبعوه ، لأن العمل يؤثر في الاتباع أكثر من القول ، ولم يجـــدالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم غضاضة في أن يتبع ما أشارت به غير متردد ،لأن الحق أحق أن يتبع ، ولأن الحـق واجب الاتباع في ذاته ، من غير نظـرالى مكانة الداعى بالنسبة للمشير ، ولا الى مقامه بالنسبة لمقامه ، ولنتعلم أن هدي النبي صلى الله تعالى عليه وســلم أن نتبع حيثمـــا كان وممن يكــون ،ولنجعل للمرأة الكريمة الطاهرة العاقلة مكانتها وحق التقدير والاعتبار .

كانت الحديبية فتحاً

٥٢٣ ــ عند قفول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة الى المدينة بعد صلح الحديبية نزلت سورة الفتح ،فقدقال تعالى في ذلك :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ (١)

فسمى الله تعالى ذلك الصلح ، وما وفق الله تعالى النبي للقيام ، فتحـــاً ، وليس دنية في الدين كما خطر على عقول بعض المتقين من كبار المؤمنين ،وكان فتحاً لأنه أنهى القتال بين النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم وبين قـــــريش ، وذلك في ذاته فتح ، ولأنه فتح قلوباكانت مغلقة وعقولا كانت عليها غشاوة حتى انه أحصى عــدد المؤمنين قبـــل الحديبية في مدى تسع عشرة سنة ،ومن أسلم في سنتين بعد الحديبية ، فــكان مثل الأول أو يزيد ، لذلك كله كـــانت الحديبية فتحا ، ولم تكن دنية ، وفوق ذلك كانت تمهيداً لدخول مكة بالفتح الأعظم الذي لم يجر فيه دم ، ولم يكن قتال الا في بعض المتمردين ، وكانـــوا قليلين ، وكان فتحـــا ، لأن المـــؤمنين استطاعوا تنفيذا لأحـــكام الصلح أن يدخلوا معتمــرين ، ثم متحللين محلقين ومقصرين ٠

وغفران ذنب الرسول صلى الله تعالى عليـــــه وسلم ليس على حقيقته معنى الغفران ، انما هو متضمن الرضـــــاوالقبول لكل ما يفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، سواء أكان في الماضي أو الحاضر أو القابل ، فكل ما يفعله الرسول صلى الله تعـــالى عليـــه وسلم مغفور ، وتسميته ذنباً من قبل المجاز فهو ليس الا خطأ لأن ما يعتب به عليه،خطأ كما أخطأ في الأسرى ، وكما كان يقع منه ٠ ليكون أسوة للناس ، فيقروا بأن الانسان اذا خضع لفكره وعقله ربما

---

(١) الفتح

يخطيء ولو كان نبياً مرسلا ، ولو كان خاتم النبيين محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصراط المستقيم الذي هداه الله تعالى هو طريق الدعوة فقد صار معبداً لا عوج فيه بعد هذا الفتح المبين وانه كان من الفتح المبين تضافر أهل الايمان بالبيعة ، فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

ولقد كان من الفتح المبين أن نقيت الجماعة الاسلامية ممن لم تستقم قلوبهم وتكون خالصة للحق لا تبتغي سواه ، ولذلك لم يخرج مع النبي في الحديبية الا من أراد الله تعالى ، وأراد الحج ، لا المغانم وما وراءها ، ولذلك قال الله فيهم في سورة الفتح :

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

ولقد أشار سبحانه وتعالى الى الذين يستقبلهم المسلمون من أولى البأس والشدة ، ولقد كان الذين خرجوا للاعتمار تعرضوا لاحتمال الحرب فتضافروا وبايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن يبيعوا أنفسهم لله تعالى ، ولا يفروا وقال سبحانه وتعالى ما تلونا من قبل :

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (٣)

---

(١) ، (٢) ، (٣) الفتح

وانه كانت الحديبية التي سماها الله تعالى الفتح المبين سبيلا لأن يتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليهود وينفرد لهم ، ثم بعد ذلك يكون الاتجاه الى الرومان ، كما قال تعالى :

﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ (١)

وأولئك هم الرومان ، والدخول الى أرض الشام .

وان الغاية توجب تحمل الوسائل ،ولو كانت قاسية على النفس ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتجه الى اليهود ، وخضد شوكتهم في البلاد وقد اتخذوها للأذى والايقاع ولم ينفع عهد ولا ذمة ما كان أن يتجه الى أولئك، وشوكة قريش تجرح من ورائه ، فلابد أن يؤمن ظهره بعهد ، ولو كان فيه ما توهمه بعض المؤمنين غبناً فاحشا ،ولكنه الطريق المستقيم لتوجيه الدعوة الاسلامية الى مواطنها .

وان ذلك تصديق رؤيا النبي التي رآها ، بأنه سيدخل المسجد الحرام ، ولكنها لا تتحقق واقعة الا في عام قابل ، وكان ذلك الصلح ، فقد قال تعالى :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

وهكذا كان ذلك الصلح فتحاً وطريقاً للفتح ، ودخل به الناس في دين الله أفواجا ، أفواجا .

يقول ابن شهاب الزهري التابعي بحر العلم كما قال الامام مالك ، قال في الحديبية « فما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، انما كان القتال

(١) الفتح ١٦و (٢) الفتح

حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنةووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا وتفاضـوا في الحديث والمنازعة ، فلم يتكلم أحـــد في الاسلام ليقول شيئاً ، الا دخل فيه ،ولقد دخل في تلك السنين (أي التي كانت قبل فتح مكة) قدر ما كان في الاسلام قبل ذلك أو أكثر » ·

ونضيف ، وقضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على نفوذ اليهود قضـــاء كاملا ، واتجه الى خارج الجزيرة العربية ينشر الاسلام فيها ·

٥٢٤ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً كل الحرص على الوفاء بالعهد ، لأن الوفاء بالعهد في ذاته قوة ، ولأن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١)

ولقد شك بعض المؤمنين في وفاء المشركين في عهدهم هذا ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفوا لهم ، واستعينوا الله تعالى عليهم .

ولذلك اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الوفاء .

ولقد كان بعض المؤمنين ينظر الى الأمر في هذا الاتفاق غير مطمئنين الا طاعة الله ورسوله فقد شق عليهم أمران :

أحدهما ـ ألا يتمكنوا من دخول البيت الحرام وقد أحرموا ، ومعهم القوة التي يستطيعون أن يدخلوا بها وليس عند قريش القوة الكافية لردهم، ولذلك تباطئوا في الاستجابة للتحلل من الاحرام بالحلق أو التقصير ، على ما قصصنا من قبل .

الأمر الثاني ـ الشطط في شروط قريش ، وفي املاء العقد ، وأشد شطط وغبن أن من خرج مسلماً لا يقبله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرده الى وليه ، ومن عاد الى مكة مرتداً لا يردونه ، فقد كان ظاهر الشرط أن فيه غبناً على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه عدم مساواة ، ولكن ان نظرنا الى الشطر الثاني وهو عدم رد من يخرج من الاسلام الى الشرك ، فانه عند التأمل لا نجد فيه ضررا على المسلمين ، فما حاجة الاسلام الى مرتد

---

(١) النحل

حائر ، فليذهب الى حيث شاء ، بدلا من أن يكون شوكة في المسلمين ، وقد يرضى أن يبقى منافقاً ، وينضم الى صفوف أهل النفاق ، فيكون عيناً على المسلمين وعلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وأما بالنسبة للجزء الأول من الشرط ، وهو أن من خرج من مكة مسلماً يرد الى وليه ، فقد كان بلا شك شاقاً في ذاته ، وخصوصاً عندما دخل عليهم أبو جندل يرسف في قيوده .

وان هذا الجزء من الشرط وان كان شاقا في مظهره صعب التحمل الا لمن كان قوي الايمان ، فان تطبيقه أدى في نتائجه الى الضرر على المشركين ، ولم يضار به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون ، حتى ان المشركين الذين كان الشرط من جانبهم ولمصلحتهم هم الذين طلبوا الغاءه .

ولنذكر تطبيقه كما أوضحت كتب السيرة وصحاح السنة .

كان أول من طبق عليه الشرط أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية وكان ممن أسلم وحبس بمكة ، وقد استطاع أن يخرج من محبسه ، وأراد الذهاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب اليه بعض المشركين يطلبون تسليمه بمقتضى الشرط وبعثوا رسولين يتسلمانه ، وهما رجل من بني عامر بن لؤي ومولى له ، فقدما على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده أبو بصير فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « يا أبا بصير ، انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وان الله جاعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، قال يا رسول الله أتردني الى المشركين يقتلونني في ديني . قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا بصير انطلق ، فان الله تعالى ، سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » .

انطلق معهما ، واندمج معهما في الحديث ، وأظهر الاستسلام ، حتى اطمأن اليه العامري ، فقال يا أخا بني عامر أصارم سيفك هذا قال نعم قال انظر ان شئت فاستله أبو بصير ، وأراد أن يختبر صرامته ثم علاه به حتى قتله ، فولى المولى مسرعا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس في المسجد ، فقال ان هذا الرجل قد رأى فزعا ، ثم قال له ويحك مالك ؟ قال

ان صاحبكم قد قتل صاحبي ، وبينا هو يشرح حاله ، وكيف قتل العامري طلع أبو بصير متوشحا بالسيف حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله قد وفيت ذمتك ، وأدى الله عنك أسلمتني ليد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن أو يعبث بي قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويل أمه انه محش حرب ان كان معه رجال ، وفي رواية البخاري أنه قال : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ·

وقع في نفسه أنه سيرد اليهم بعد أن قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وانه تفيد بلحنها أن له أن يعتمد على نفسه، وهو قادر على أن يعتمد ·

خرج من حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار حتى وصل الى سيف البحر ، وقد علم المستضعفون بخبر أبي بصير ، وقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه محش حرب ان كان معه رجال فكل مستضعف يعمل على تخليص نفسه ويكون من رجال أبي بصير ،فانفلت أبو جندل الذي جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرسف في قيوده ، ورده صلى الله تعالى عليه وسلم والتحق بأبي بصير ·

وصار كل مستضعف لا يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه سيرده بل يذهب الى رجال أبي بصير على سيف البحر ·

وكونوا منهم عصابة تقطع طريق تجارة قريش ، فما كانوا يسمعون بعير خرجت لقريش الا تعرضوا لها ،يقتلون رجالها ، ويأخذون مالها ، فلم يكن من مصلحتهم التمسك بشرطهم · بل انهم تركوا الأخذ بالشرط ، وأنهم اذ كانوا لا مأوى لهم الحق بأن يفعلوا بهم جزاء ما أذوه ، ولا حلف معهم الا الأذى الذي قدموه لهم ، وخوف الفتنة دفعهم لأن يقفوا ذلك الموقف منجاة لأنفسهم ·

أرسلت قريش الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تناشده الرحمة الا آواهم ، وضمهم اليه ، ولا يردهم ،كان هذا الشرط الذي أزعج النفس المؤمنة مآله أن يكون خيراً للمؤمنين ،وهو شرط عليهم ، انها النبوة التي أدركت ما لا يدركه عمر ، ولا غيره ،وانها الهام الله الذي جرى على لسان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «سيجعل للمستضعفين فرجا ومخرجا » ·

وانه لما توسلت قريش الى النبي صلىالله تعالى عليه وسلم في الغاء العمل بهذا الشرط ، أرسل الى أبي بصير أن يجيء الى المدينة هو ومن معه ، ليكونوا قوة للمؤمنين ، فكتب اليه بالمجيء الى المدينة ، ولكن الكتاب لم يصله الا وهو على فراش الموت ، فتوفى ولكن رجع أصحابه الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

٥٢٥ ـ وبعد أن فتح لمن يسلم بدار الشرك الباب للذهاب الى المسلمين وألغي ذلك الشرط كان يحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين يسلمون ألا يبقوا مستضعفين في أرض الشرك، بل عليهم أن يهاجروا وان ذلك مبدأ الاسلام أن يتجمع المسلمون ، ولا يستمروا متفرقين في الأرض ٠

ومنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من اقامة المسلم بين المشركين ما دامت عنده قدرة على الخروج من بين ظهرانيهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تراءى ناراهما ٠ وقال من حارب مع مشرك وسكن معه فهو مثله ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها، وقال ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض الزمهم بها ٠

وبذلك طلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من كل مستضعف أن يهاجر الى حيث يتجمع المسلمون ما دام قادراً على ذلك ، لأنه بهجرته الى المسلمين يتحقق أمران ٠

أحدهما : أنه يخرج من حال استضعاف وذلك بالخروج من ولاية الكفر أو الشرك الى حيث العزة والمتعة وولاية المؤمنين فهم أهل ولاية الله وولاية الحق ، وهي القوة وهي الأمن والقرار، ولقد أوجب القرآن ذلك فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ (1)

وان نصوص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عامة ، ونص القرآن الكريم ملزم لا مناص من تنفيذه .

الأمر الثاني : أن في الهجرة تجميع المسلمين ، وفي الجماعة قوة ليست في الفرد . وان ذلك أمكن للوحدة ، وأحفظ لهيبة أهل الاسلام .

وانه قد يعترض على جعل الهجرة بالانتقال من أرض الاستضعاف الى حيث القوة الاسلامية مبدأ دائماً ومطلوباً مستمراً . قد يعترض على ذلك بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح » .

ونقول في الجواب ان الحديث مخصوص بالهجرة من مكة الى المدينة ، أو بالهجرة من مكة الى غيرها ، وأن الهجرة مطلوبة قبل الفتح ، لأن المسلمين فيها كانوا يفتنون عن دينهم وكانوا في ذلة ، ولا يستطيعون القيام بشعائر دينهم ، فلما فتح الله تعالى على المسلمين مكة ، وصارت فيها الأحكام الاسلامية وصارت ولاية من ولايات الاسلام ، لم يعد للهجرة سبب يوجبها ، بل انها أصبحت غير مطلوبة ، وربما تضر ولا تنفع لأنها لو استمرت لخلا البيت الحرام من سكان حوله يقومون بسدانته ، وهي أحب أرض الله الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والى ربه ، وهي التي جعلها أرضاً مباركة .

---

(1) النساء

٥٢٦ ـ كانت سنة ست من الهجرة ، خصبة بالدعوات الاسلامية وبث السرايا والبعوث لأجل تعرف الناس ،والدعوة الاسلامية ، وبيان حقائق الاسلام ·

وقد كان أبرز ما فيها غزوتان : غزوة بني المصطلق على الرواية التي تقرر أنها كانت في هذه السنة ، وغزوة الحديبية أو صلحها ، وكانت وحدها فتحاً مبيناً وتمهيداً للفتح الأكبر في سنة ثمان من الهجرة ·

وكانت ثمة سرايا قبل الحديبية سنة ست ، لأنها كانت عقب غزوة الأحزاب للمدينة ، وقد رأى النبي ما رأى من قوة الاسلام برهانا وعقيدة ، وقوته مادية بحيث تبين أنه لا يغلب لأنه مؤيد من الله تعالى ، ففيها كان بعث أبي عبيدة عامر بن الجراح الى ذي القصة في أربعين رجلا مشاة حتى أتوها فهربوا منه في رؤوس الجبال ، وأسر منهم رجلا حضر به لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ذلك في ربيع من سنة ست ·

وفيها بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زيد بن حارثة الى بني سليم فدلتهم امرأة من مزينة على محلة من محال بني سليم ، فأصابوا منها نعما وشاة وأسروا رجالا كان فيهم زوج هذه المرأة التي دلتهم واسمها حليمة فوهبه رسول الله لها وأطلقهما ·

وفي سنة ست هذه قبل صلح الحديبية أخذت أموال لقريش ، وكان فيها أموال كانت مع العاص بن الربيع الذي كان زوجا لزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأطلقه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غير فداء على أن يعيد زينب لأبيها فبر بما وعد ·

لما أخذ المال الذي كان معه ، وقتل من كان معه ، وفر هو الى المدينة ، فلما جاء المدينة استجار بزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأكرمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأجاز جوار زينب وأمر برد الناس

وان هذه الرواية التي رواها ابن اسحاق تدل على أن اسلامه كان سنة ست ، وكان قبل نزول آية :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ (١)

الآيات الكريمات .

وهذه رواية الواقدي أيضا ، ولكن الحافظ ابن كثير يقول أن اسلامه كان سنة ثمان ، وأن اسلامه تأخر عن تحريم بقاء المسلمات أي زواج الكفار منهن ، وانهم لا يحلون لهن ، واني أميل الى رواية الواقدي ، ورواية ابن اسحاق ، وهي أكثر اتساقا مع الآية .

في شعبان سنة ست أيضا كانت سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل يدعوهم الى الاسلام ، ولم يكن لقتال ، وقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم فأسلم القوم ، وتزوج عبدالرحمن بن عوف ، بنت ملكهم تماضر بنت الأصبغ الكلبية ، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وكانت هذه السرية في شعبان .

وفي هذه السنة سنة ست أيضا أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في مائة رجل الى حي من بني أسد بن بكر ، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه جمع لهم جمع يريدون به أن يمدوا يهود خيبر يعاونونهم على المسلمين ، وهذا يدل على أنهم كانوا يستعدون لحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث عليا اليهم، فسار اليهم ليلا نهارا ، حتى أصاب منهم عينا لهم ، فاقر أنهم بعثوا الى خيبر ، وأنه هو الذي يعرض عليهم أن تعطي خيبر لهم تمر خيبر .

وبذلك علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يجمعون الجموع له ، ولذلك لم يكن غريبا أن يتجه اليهم بعد الحديبية ، لأنه تفرغ لهم .

---

(١) الممتحنة

٥٢٧ ـ يقول ابن كثير ان هـذهسرية كانت في سنة ست قبل الحديبية وقد نقلها عن الواقدي ، وقال كـانتفي شوال سنة ست ، أى قبل الحديبية بشهر ، اذ الحديبية كانت في ذي القعدة الذي ولي شوالا ٠

وقالوا ان السرية كانت بقيادة كرز بن جابر الفهري الى العـرنيين الذين قتلوا راعى الرسول صلى الله تعـالىعليه وسلم واستاقـوا النعم ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيآثارهم كرز بن جابر في عشرين فارساً فردوهم ، هذه قصة هذه السرية ،خرجناس استولوا على ابل رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ، وقتلوا راعيها ،فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم هذه السرية ، فردت الابل ٠

وفي القصة أخبار نجد من الواجبأن نذكرها ونبين مقدار الاطمئنان في الرواية والنسبة الى رسول الله صـلىالله تعالى عليه وسلم ٠

جاء في البخاري ومسلم عن أبي قلابة عن أنس بن مالك رضى الله تعـالى عنه أنه قدم رهط من عكل وعـرينـة فأسلموا ، واجتووا المدينة فاتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكرواذلك ، فقال عليه الصـلاة والسـلام الحقـوا بالابل فاشربوا من أبوالهـاوالبانها ، فذهبوا وكانوا فيها ما شاء الله تعـالى ثم قتلوا الراعي وساقـواالابل ، فجاء الصريخ الى رسول الله صلى الله تعـالى عليـه وسلم ، فلم ترتفعالشمس حتى أتي بهم ، فأمر بمسامير فأحميت فكواهم بها ، وقطـع أيديهـموأرجلهم والقاهم في الحره يستقـون فلا يسقون حتى ماتوا ، وفي رواية عنأنس أنه قال : فلقد رأيت أحـدهم يكدم الأرض بفيه من العطش ، وفيرواية للبخاري ومسلم أن رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر فسمـلأعينهم ٠

ولقد قال كمال الدين بن الهمام منكبار فقهـاء الحنفية رواه جمـاعة لمحدثين ٠

ما أخذوا من العير ، فرد كل واحد ماأخذ من هذه العير ، حتى لم يفقد منها شيئا ، حمل أبو العاص بن الربيع المالالى مكة ، ورده الى أهله ، ورد ما كان لهم من الودائع ، فلما تم ذلك أعـلناسلامه ، وخرج مهاجراً الى المدينة ٠

ولكن مهما يكن عدد المصادر التي روته ، فانه حديث آحاد ، وان أهل الخبرة في علم الحديث يقولون ان رواته ثقات ، وان سنده متصل ، وانه لا انكار في سنده ، وان كان آحاداً ، ولكنا ننظر في متنه ، فان الحديث يضعف باحدى طريقين اما بضعف سنده ، أو بضعف متنه بأن يكون مخالفا للمقررات الشرعية .

وانا نرى أن متنه يخالف المبادىء التي قررها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لوجوه :

أولها ـ أن فيه مثلة ، بسمل الأعين ، وأن المثلة منهي عنها ، وان قالوا ان المثلة لم يكن قد نهى عنها ، فاننا أولا نقرر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يمثل باحد من قتلى أحد ، ولا من قتلى الخندق ، فدل هذا على أنها كان منهيا عنها من قبل . وان قيل ان الصحابة فعلوا معهم ذلك ، لأنهم ارتكبوا ما يوجب حداً ، واذا كان الحد ، فهو حد الحرابة الذي بينه الله تعالى بقوله :

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ (١)

الى آخر الآيات ، وليس فيها سمل الأعين ، ولا يقال ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمر به ، لأنه علمه في الرواية ولم ينكر .

ثانيها ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن القتل عطشا ، ولقد قالت الرواية انه تركهم يموتون عطشا حتى انهم كانوا يكدمون الأرض من شدة العطش حتى ماتوا ، ولا يقال ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أمر بذلك ، ولكن مفهوم هذه الرواية أنه علم ، ولم ينكر .

---

(١) المائدة

ثالثها ــ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وان القتل قصاصا لا يبرر ذلك ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن ليبيح ذلك في الحرب على أنهم ربما يعتبرون مقاتلين •

والخلاصة أننا لا نرى أن ذلك الخبر تصح نسبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لمخالفته للمقررات الاسلامية التي قررها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك لا نقول انه صحيح النسبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

٥٢٨ ـ الفقهاء يسوقون قصة العرنيين وما نسب الى رسول الله سبب في حد الحرابة أو قطع الطريق ،ويرون أن ما نسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ينطبق على ما نص الله تعالى في كتابه من حد قطاع الطريق ، ولكن ذكرنا أن ما ينسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ، لا ينطبق كله على ما في حد الحرابة فليس في نص القرآن سمل الأعين ، كما أنه ليس في نص القرآن القتل بالعطش ، حتى يكدمون الأرض من شدة العطش ، فلا يستسقون ، وقد كذبنا نسبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ٠

ومهما يكن فاننا نذكر النص القرآني في هذا المقام ، ومدى ما ينطبق من قصة العرنيين عليه ٠

يقول الله تعالى في بيان هذا الحد :

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ (١)

ولا شك ان وصف الحرابة ينطبق على هؤلاء العرنيين ، وقد نزلت بهم بعض عقوباتها ، وهو قطع الأرجل والأيدى ٠

وما دمنا قد تعرضنا للحرابة أو لقطع الطريق، فانه يجب أن نشير لبعض احكامه ، على قدر ما يتسع له المقام في سيرة النبي الطاهرة ، ويترك

---

(١) المائدة

تفصيله لكتب الفقه ، ولموضعه من بحوثنا في كتاب الجريمة وكتاب العقوبة في الفقه الاسلامى .

المحاربون أو قطاع الطريق ناس يخرجون متفقين على القتل أو السرقة ، وتكون لهم قوة يقاومون بها الدولة افسادا من غير تأويل يتأولونه ، بل سعياً بالشر والافساد ، ونرى ما يراه المالكية انه لا تقتصر جرائم الحرابة على القتل والسرقة ، بل تشمل كل المعاصى ، كالزنى وشرب الخمر ، ويدخل فيها كل المخدرات سواء أكانت سائلة أم جامدة ، وسواء أكانت تتناول بالشرب أم بالتدخين .

وسواء أكانت هذه القوة التي يكونها المحاربون في مدينة أم في غير مدينة ما داموا يستطيعون أن يقوموا بجرائمهم بعيدين عن أن يجاب المستغيث اذا استغاث ، وللفقهاء كلام وخلاف في هذا المقام .

ويعد من المحاربين الجماعة التي تتفق على ارتكاب جرائمها بطريق الغيلة وذلك في رأى مالك ، والنص القرآني يحتمل ذلك كله .

والعقوبات المقررة ، هي القتل ، والقتل والصلب ، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض بالابعاد في مكان ناء لا يستطيعون فيه ارتكاب جرائمهم ، وعد الامام أبوحنيفة أن من النفي ، السجن لأن المقصود منع اجتماعهم .

وأكثر الفقهاء أن الامام العادل يضع العقوبة على قدر الجريمة : فان تولوا القتل قتلوا ولا فرق بين من باشره ، ومن لم يباشره ، لأن من لم يباشره كان معينا مع من باشره .

واذا سرقوا وقتلوا ، قتلوا وصلبوا، ويستوي في العقوبة المباشر وغير المباشر

واذا سرقوا وانتهبوا الأموال ولم يقتلوا فانه تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فاذا قطعت اليد اليمنى ، يقطع معها الرجل اليسرى :

وإذا كانوا قد اتفقوا وهموا بالشر، ولكن لم يمكنوا فان العقوبة تكـون النفي ، بتفريقهم بعيدا عن مـــكان تجمعهم ٠

هذا ما اختاره جمهـور الفقهاء تابعين للتابعين في أقوالهم،ومن الصحابة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ٠

ويرى الامام مالك رضى الله عنه أن الامام مخير في هذه العقوبة أيا كانت الجريمة التي ارتكبوها ، لأن الجريمـة الأصيلة هي الاتفاق على ارتكاب هـذه المعاصي ، ولو لم يمكنوا من تنفيـذ احداها ، والامام ينظر الى ما هو الأنجع في ردعهم ٠

٥٢٩ ـ وفي هذه السنة بعد الحديبية فرض الحج ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من جيش الايمان كانوا قد أحرموا بالحج ·

وشرع الحج فريضة من بعد الحديبية مباشرة ، وقالوا انه كان قد شرع ، وفرضه الله تعالى في هذا الوقت مع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يحج الا في السنة العاشرة ·

وهذا رأى أكثر الفقهاء ، فالحج لا يجب فور القدرة عليه ، ولكن يجب أداؤه في مدى العمر ، وقال بعض الفقهاء يجب قدر الاستطاعة على أدائه ، وقالوا ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخره الى العاشرة لأنه لم يكن مستطيعا ذلك قبل العاشرة ، لأن الأصنام لم تزل قبل التاسعة ، وكان مشغولا بالدعوة ، وبيان الشرع ، حتى نزلت الآية :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١)

وسرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الفرائض الشرعية بايجاز ، وأشهد المؤمنين على التبليغ ·

وانه بعد الحديبية تفرغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للدعوة ، فلم يرسل سرايا للقتال ، ولكن أرسل رسلا للدعوة الى الاسلام ، وتبليغ الدعوة ·

قال الواقدي في ذي الحجة من سنة ست بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ستة نفر مصطحبين حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية ·

وبعث شجاع بن وهب الى الحارث بن شمر الغساني ملك عرب النصارى

ورهينة بن خليفة الكلبي الى قيصر ، هرقل ملك الروم ·

(١) المائدة

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس .

وبعث سليط بن عمرو العامري الى هوزة بن على الحنفي .

وعمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ملك النصارى بالحبشة ، وهو أصحمة بن أبجر .

وسنتكلم عن الرسائل التي كانت مع هؤلاء الرسل عند الكلام على مكاتبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذي نقوله هنا هو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تفرغ للتبليغ،ولم يعد مقصوراً على الجزيرة العربية وما حولها بل تجاوزها الى الأقاليم الأخرى .

٥٣٠ ـ أنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما بينه وبين قريش بصلح مدته عشر سنين ، ليكون للدعوة والتبليغ وان لم يترك ذلك التبليغ أبداً ، فلم تشغله الحرب عن التبليغ بل كان التبليغ في أثناء الحروب ، وليتجه الى اليهود أولا ، والى حرب الشام ثانياً ،لأن الروم في الشام قتلوا بعض من آمنوا من أهل الشام ، ففعلوا مثل مافعلت قريش ، فحق قتالهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ٠

ولذلك كان سيره من الحديبية الى خيبر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يقاتل الا في ميدان واحد ،فبعد أن انتهى من قريش انفرد لليهود الذين نقضوا معه كل العهود وكانوا ألباً عليه، يحرضون ويفسدون ويدسون وكانت خيبر في ذي الحجة على رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى ، فقد فسر قوله تعالى :

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (١)

قال يعني خيبر فقال انها كانت في ذي الحجة من السنة السادسة بعد عشرين يوما من صلح الحديبية والواقدي يروي بسنده عن شيوخه أنها كانت في السنة السابعة من الهجرة ٠

وقد عين الوقت ابن اسحاق فقال أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم الى خيبر ٠

وبعض الروايات قالت ان غزوة خيبر كانت في صفر سنة سبع ٠

ومهما يكن تعيين الزمن ، فان غزو خيبر كان أمراً لا بد منه ، لأنه اجتمع أعداؤه من اليهود ، وما كانوا يألون المؤمنين الا خبالا ، وينتهزون الفرصة لينقضوا ٠

---

(١) الفتح

وقد رأينا أنهم يمالئون غطفان ، ويستخدمون قوة منهم ، وقد بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب ليتعرف أمرهم والتقى بعين لهم ، وأسر من أسر منهم ·

فكانوا بلا شك يريدون أن ينتهزوا معاونة ليغيروا عليه أو يعاونوا من يحاربونه ، وكان فيهم غلظة وشدة ·

فلما اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لغزو بني النضير لكيلا يكون لليهود سلطان في بلاد العرب كان لابد أن تنضم اليهم غطفان ، ولشدة عداوتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقربهم من منازلهم ، ولسبق تحالفهم مع الأحزاب لغزو المدينة ، ولكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً :

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ (١)

وقد احتاط صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ، فنزل موقعاً يفصل بين غطفان وخيبر ، ولنسرد قصة هذه الغزوة من وقت ابتدائها ·

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاصداً خيبر ، فلما أشرف عليها أخذ يضرع الى الله تعالى طالباً النصر والمعونة ، فقال لأصحابه قفوا ، وأخذ يدعو ، وهم يرددون معه ·

اللهم رب السموات ، وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله تعالى ·

خرج رسول الله الى خيبر ، سلك على عصر ، وهو جبل قريب من المدينة ، فبنى به مسجداً ، ثم مر على الصهباء ، ثم اقبل بجيشه ونزل بواد يقال له الرجيع ، وهو فاصل بين خيبر وغطفان ، لكيلا يمكنهم من مظاهرة اليهود عليه ، فحال بينهم ، ولكنهم كانوا قد خرجوا لليهود لينفذوا ما أرادوا من معاونتهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل

(١) الاحزاب

الى ديارهم جماعة من مقاتليه ، ليزعجوهم ، فلما سمعوا من ورائهم حس أولئك الذين ذهبوا خلفهم في أموالهم وأهليهم ظنوا أن المؤمنين خالفوهم اليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا في أهليهم وأموالهم ·

وبذلك أمن رسول الله شرهم ،وخلوا هم بينه وبين اليهود ، واختاروا لأنفسهم السلامة ·

[illegible]

٥٣١ ـ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرض خيبر ، وكانت أرض زرع وحرث ، وقد خرجوا يحملون أدوات من مساحي يحملونها لحرث الأرض ومكاتل يجمعون فيها الثمار ، أو ينقلون السماد الطبيعي من مكان الى مكان بها ، فلما رأوا جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذعروا، وقالوا محمد والخميس ·

تقدم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لفتح قريتهم بحصونها ، وقد قال ابن القيم ، وصاحب معجم البلدان كانت لهم حصون ، هي حصن ناعم ، وحصن القموص ، وقلعة الزبير ،وحصن النطاة ، والكتيبة والوطيح ،والسلام، وهما حصنا أبي الحقيق ، وحصن الزبير، وحصن الصعب ابن معاذ ·

كانت القيادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه ستمائة وألف مقاتل ، فيهم مائتا فارس ، وكان قائد اليهود سلام بن شكم ومعه أربعمائة وألف مقاتل ، ولما قتل تولى القيادة أبو زينب بن الحارث ، وكان حامل راية المؤمنين بطل الجهاد علي بن أبي طالب، فانه ليلة أراد النبي غزو خيبر قال لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، واليك الرواية كما رواها البخاري ·

قال البخاري بسنده « ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال عليه الصلاة والسلام أين علي ابن أبي طالب ،فقالوا يا رسول الله يشتكي عينيه فأرسل اليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ

حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال يا رسول الله أقاتلهم ، حتى يكونوا مثلنا ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم «انفذ على رسلك ، حتى تنزل ساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم » .

ابتدأ القتال حول الحصون ، ويقول ابن اسحاق تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الأموال يأخذ الأقرب فالأقرب منها ، وفي هذه الأثناء خرج المرحب فارسهم فقصده علي بن أبي طالب فقتله .

ثم تدانى جيش المؤمنين ، يأخذ الأدنى فالأدنى ، وأول حصن فتحوه والراية في يد علي كرم الله وجهه حصن ناعم ، ثم القموص حصن أبي الحقيق ، وكلما فتح حصن فر من كانوا فيه الى الحصن الذي يليه ، فيجتمع فيه مع من آلوا اليه فارين من حر السيف وقوة الايمان ، وكانت المبارزات أحياناً .

ولقد فتح القموص بعد حصار دام عشرين ليلة كما جاء في سيرة ابن اسحاق ، وكان في أرض وخمة شديدة الحر ، فجهد أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جهداً شديداً لوخم الأرض وحرارتها .

ولقد تحركت اليهود من بعد ذلك كما قال الواقدي الى قلعة الزبير ، وهي حصن منيع ، فأقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في حصاره ثلاثة أيام .

وقد جاء رجل يهودي يظهر من أمره أنه مال الى الاسلام ، كما يدل قوله وعمله ، فقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا القاسم انك لو أقمت شهراً ما بالوا ، ان لهم سردابا وعيونا تحت الأرض ، يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون الى قلعتهم ، فيمتنعون منك ، فان قطعت مشربهم عليهم خرجوا لك ، فسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مائهم ، فلما قطع عليهم خرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود عشرة افتتحه رسول الله وكان آخر حصون النطاة .

وقد أحس المسلمون بقلة الزاد ، وقالوا والله يا رسول الله قد جهدنا وما بأيدينا شيء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئاً يعطيهم اياه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ضارعاً الى ربه : « اللهم انك عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء ما أعطيهم اياه

فافتتح عليهم أعظم حصونها غناء ،وأكثرها طعاماً وودكاً ، فغدا الناس ، ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه ·

وانه بعد أن فتحت حصون النطاة قبل حصن الصعب بن معاذ تحول الى الشق ، وكانت به حصون ذوات عدد ،فكان أول حصن بدأ به حصن أبي ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قلعة يقال لها سموان ، فقاتل عليها أشد القتال ، فخرج منهم رجل يقال له عزول ، فدعا الى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع الحباب يده اليمنى ، فاتبعه الحباب فقطع عرقوبه، وبرز رجل آخر فقام اليه رجل من المسلمين ، فقتله اليهودي ، فنهض اليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه ، وأحجموا عن البراز ·

بعد أن أحجم اليهود عن البراز كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن فدخلوه ، وأمامهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنما وطعاما ، وهرب من كان فيه من المقاتلة،وتقحموا الحصن كأنهم الضبات ، ثم تحولوا الى حصن آخر من حصون الشق ، وهو حصن البزاة وامتنعوا به أشد الامتناع ، فزحف اليهم رسول الله وأصحابه ،وتراموا بالنبل ، ورمى معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الكريمة ، حتى أصاب نبلهم بنانه عليه السلام ، فأخذ عليه السلام كفاً من الحصى ، فرمى حصنهم بها ، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض ،وأخذهم المسلمون أخذاً باليد هذا ما ذكره الواقدي في تاريخه ·

ويقول الواقدي مسترسلا في بيان فتح الحصون :

ثم تحول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهل الأظبية والوطيح والسلام حصني أبي الحقيق ، وتحصنوا أشد التحصين ، وجاء اليهم كل من انهزم من النطاة الى الشق ، فتحصنوا معهم في حصن وكان حصنا منيما وفي الوطيح والسلالم ، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم ، حتى هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينصب المنجنيق عليهم ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة عشر يوما (أي في هذه الحصون الأخيرة) نزل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حصون ابن

أبي الحقيق وطلب الصلح بعد أن تأكدأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نصب المنجنيق ليقضي على البنيان اذ تحصنوابها ولا سبيل الى الوصول اليهم الا بهدمها ، لأنها حصون لا مساكن ٠

ويتبين من هذا البيان أمران :

أحدهما ـ أن الحصون التي أحصيناها كان كل واحد منها عنوانا لمجموعة حصون ، وقد توالى سقوطها مجموعةمجموعة ، بلا تخريب ، ولكن يقاتل من فيها حتى يفروا الى حصن آخروراءها ، ولذلك يقول ابن اسحاق كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتدنى ،أي يحارب الأدنى ، فالذي يليه ، حتى اذا تجمعوا في الحصون الأخيرة ،التقتفيها جموعهم الفارة ، وتقاتلوا مستميتين ، وبذلك طال الحصار ،واشتد من خارجها ، كما اشتدوا هم في الدفاع من داخلها ، فهم النبي صلىالله تعالى عليه وسلم بعمل المنجنيق ، اذ لا يمكن الوصول الى المقاتلين الا بالهدم،ولا يلجأ اليه بمقتضى قانون الاسلام في الحرب الا عند الضرورة ، اذا تترس به العدو ولا سبيل للوصول اليه الا بهدمه ٠

فلما رأوا أنهم مقتولون لا محالةسلموا ٠

الأمر الثاني ـ ان أشد قتال لقيهالمسلمون كان في خيبر ، لأنهم قاتلوا قوماً في حصون ، ولم يكن القتال فيالعراء ، والأعداء لا يواجهون المؤمنين، بل يقاتلون من وراء حصونهم :

﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ ﴾[1]

وقد انتصر المسلمون في هذه الموقعة ، فكان آخر انتصار على معقل اليهود في البلاد العربية ، ولم يستطيعوا فيهاتدبيرا من بعد ، ولكن كان خبثهم فيما وراءها ، ومكروا ومكر الله والله خيرالماكرين ، وكان قتلى المسلمين ٢١شهيداً وسبي وقتل كثيرون من اليهود ٠

(١) الحشر

٥٣٢ ـ لما هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنصب المنجنيق ،وأيقنوا بالهلكة نزل اليه ابن الحصين مستسلماطالبا الصلح على النجاة بأنفسهم وتسليم ما بأيديهم ، فصالحه بالاجمال على حقن دمائهم ، وسيرهم ، ويخلون بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وبين ما كان لهم من الأرض والأموال، الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ،وعلى أنه ليس لهم الا ما كان على ظهر الناس يعني لباسهم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابلا عرضهم: « وبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله ،ان كتمتم شيئا ، فصالحوه على ذلك »·

قال ابن كثير « ولما كذبوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأخفوا المسك (الجلد) الذي كان فيه أموال كثيرة لحيي بن أخطب ، فتبين أنه لا عهد لهم فقتل ابن أبي الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود والمواثيق »·

هذا اجمال يجب أن نذكره بشيء من التفصيل معتمدين على السنة الصحيحة خصوصا في التفرقة بين الأرض والنخيل والأموال المنقولة من صفراء وبيضاء وسبايا فان لذلك موضعا في الأحكام الشرعية ·

انه كان الاتفاق على أن يجلوا على أن يحملوا معهم ما تحمله الركائب ويتركوا الأموال المنقولة والنخيل وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحصى أموالهم المنقولة من النقود والمتاع والجواهر ، وقسمها بين القائمين على أساس أن الفارس له سهم ولفرسه سهمان ومن لا فرس له وهو راجل في الحرب سهم واحد ، ولم يسهم للنساء بل رضخ لهن ، والعبيد ، فقد رضخ لهم بأن أعطاهم قدرا من الغنائم غير معين بتعيين ولا سهم ·

روى أبو داود والامام أحمد عن عمير مولى آبي اللحم قال شهدت مع سادتي ، فكلموا في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلدني سيفاً ، فاذا

انا أجره ، فأخبر أني أنا مملوك لي شيء من المتاع ، وهـــذا الخبر يـدل بظاهره على أن العبد يجوز له أن يملك، ولا يقال العبد وما ملكت يداه لسيده ، وهذا رأي الظاهرية ٠

وذكر محمد بن اسحق أنه حضر في غزوة خيبر بعض النساء يحملن الماء ، ويداوين الجـراح فرضخ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهن ، وقـد روي عن امرأة من غفار ، قالت أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نسوة من بني غفار ، فقلنا يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك الى وجهـــك فنـداوي الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا، قال على بركة الله تعالى ، فخرجنا معه ٠ فلما فتح الله تعـــالى خيبر رضـخ لنا من الفيء ٠

وروى الامام أحمد عن بعض النساء أنها قالت : خرجنا مع رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة خيبر وأنا سادســة ست نســوة ، فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرســل الينا فدعانا ، فقال ورأينا في وجهــه الغضب ، فقال : ما أخرجكن ؟ وبأمر من خـــرجتن ؟ قلنا خرجنا ، نتنـاول السهام ، ونسقي السويق ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر ، فنعين به في سبيل الله ، فأمرنا فانصرفنا ، فلمـــا فتح الله خيبر اخرج لنا سهاما كسهــام النساء ، ولعل المراد أنه أعطاهن ، كما أسهم للرجال ، لا أن سهامهن مســاوية لسهام الرجال ٠

هذا التقسيم كان في الأموال المنقولة ، من صفراء وبيضاء وتمر ومتــاع وغير ذلك من الأموال التي تنقل ، أو الأموال السائلة ، كما يعبر علماء المال في عصرنا هذا ٠

مـــال حـُـيَيّ بن أخطــب :

٥٣٣ ـ وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد عاهدهم على أن يقدموا كل صفراء وبيضاء ، وكل طعام ومتاع على ألا يكثر منه ، وان العهد كان على ذلك ، فاذا كشف شيء كان مكتوما ، فان العهد ينقض ، فلما تبين أنهم كتمــوا مالا نقض العهـــد ، وقتــل ابنا أبي الحقيق بسبب هذا النقض ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، والآن نفصــل كيف كان اكتشاف الاخفاء وكيف أظهر ٠

حدث البيهقي عن عبد الله بن عمرأنهم غيبوا مسكـــا فيه مال وحــــلي لحيي بن أخطب ، وكان احتمله معـــه الى خيبر حين أجليت النضــير ، فقـــال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما فعل مسك حيي بن أخطب الذي جاء به من النضير ؟ فقالوا أذهبته النفقـــات والحروب ، فقـــال عليــه الســـلام : العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك ٠٠ وكان حيي قبل ذلك دخل خربة يطوف بها ، فذهبوا فطافوا في هذه الخـــربة فوجدوا المسك في الخربة ٠

وبذلك كان نقض العهد ، ويظهر أن الذين كانوا يتسترون عــلى هـــذا المسك هما ابنا أبي الحقيق فقتلهمـــا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم ينقض العهد برمته ، بل نقضــه بالنسبة للذين كتموه ، وكانوا يعلمون بموضعه وان الله تعالى قسم الأمـــوال المنقولة بالأسهم ، وكان سهم لله ولرسوله ولذوي القـــربى واليتـــامى والسائلين وابن السبيل ٠

ووزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سهم ذى القربى على بني هاشم ، وبني المطلب ولم يوزع عــلى بني عبدشمس ولا بني نوفل ، فمشى عثمان بن عفان من بني عبد شمس ، وهم الأمويون ، وجبير بن مطعم من بني نوفل ، قالا للنبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت بني المطلب من خـــمس خيبر وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة منك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم ان بني هاشم وبني المطلب شيء واحـــد ، ولم يفارقونا في جاهليـــة ولا اسلام ٠

وانه لم يناصب أحد من بني المطلب النبي عداوة ، والمطلب هو الذي ربى عبد المطلب ، وعندما ضربت قـــريش حصـــاراً على بني هاشم في شعب أبي طالب انضم اليهـــم في الحصــــار بنو المطلب ، ورضـــوا أن يكون ما ينزل بالهاشميين ينزل بهم ، فكانوا قائمـــين بحق القربى ، بينما أبو لهب الهاشمي أخو أبي طالب لم يرض الدخـــول معاخوته ٠

الأرض و[illegible]

٥٣٤ ـ هذا هو الأمر في تقسيم البيضـــاء والصفراء والمتاع وســـائر المنقولات ، أما الأرض ، فانها لم تقسم كما قسمت الأموال ، بل الأمر فيهـــا كان على غير ذلك ٠

ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أراد اجلاءهم بمقتضى الشرط الذي أخذه عليهم ، قالوا يامحمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، ولم يكن لرسول الله ولا لأصحابه غلال يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها ،فأعطاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر ، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ، ما بدا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويستفاد من هذا أمران ـ أحدهما ـ أن الأرض تبقى في أيدي المغلوبين ، على أنهم مالكين لرقبتها ، بل يعملون في زراعتها ومراعاة أشجارها ، ومساقاتها ، ولهم شطر ما يخرج من زرع وثمر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ الشطر وكان يوزعه في مصارف الغنائم ٠

الأمر الثاني ـ أن ذلك غير ملزم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل له أن ينزع الأرض من أيديهم اذا أراد ،ولا يريد الا ما يكون فيه مصلحة للمسلمين ٠

وقال في ذلك الامام مالك رضي الله عنه ، ان الامام مخير في الأراضي المفتوحة ان شاء قسمها ، وان شاء أرصدها لمصالح المسلمين وان شاء قسم بعضها ، وان شاء أرصد بعضها لماينوبه في الحاجات والمصالح ٠

وشطر الغلات الذي يتولى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، روي أنه كان يوزعه توزيع الغنائم ، فيكون خمسه لله وللرسول ، ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس للغانمين وكانوا أهل بيعة الرضوان ، وغيرهم نحو أربعمائة وألف ، ومن انضم اليهم من مجاهدي خيبر ، فبلغ الجميع خمسمائة وألف فكان يقسم الريع مقسم الغنيمة بينهم٠

وروى أبو داود أن النصف الذي كان يخص المسلمين ما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقسمه قسمة الغنائم ، بل كان يبقيه لمن نزل به من الوفود ، والأمور ونوائب الناس ، أي يجعله لمصالح المؤمنين من غير تخصيص او يقول الحافظ بن كثير ، قد تفرد بهذه الرواية أبو داود ٠

ومهما يكن من الأمر بالنسبة لغلةالنصف فانه يتبين من هـذا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جعل الأرضفي أيدي أهلها على أن يكونوا زارعـين حارثين مصلحين في الأرض غير مالكـينلرقبتها ، بل رقبتها لجماعة المسلمـين ، ولذلك كان للامام أن يخرجهم منهـــاحيثما كان في ذلك مصلحة المسلمين ٠

وان ما فعله عمر رضي الله تباركوتعالى عنه في أرض ســـواد العـراق الذي أشرنا اليه عند الكلام في أموال بني النضير ، يشبه هذا ، وكان للامام عمـــر رضي الله تعالى عنه أن يحتج بهعندما خالفه جمع من الصحابة كان على رأسهم بلال رضي الله عنه ٠

وان رسول الله صلى الله تعالى عليهوســـلم أقام عبد الله بن رواحـة على المقاسمة بينهم وبين النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان يأتيهم كل عام، فيخرجها عليهم ، ويضمنهم الشطــر ،وكان عادلا لا يظلمهم ، ولا يطفف شيئاً من نصيب المسلمين ، فشكوا الى رسولالله صـــلى الله تعـــالى عليـــه وسلم شدة حرصه ٠

ولقد أرادوا أن يرشوه فقال يا أعداء الله تطعمونني السحت ، والله لقـد جئتكم من عند أحب الناس الي ، ولأنتم أبغض الي من عدتكم من القـردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي اياكم،وحبي اياه على ألا أعدل أياكم ٠

فهو لا يظلم لعداوة ولا لمحبة ، ولذلك قالوا بهذا قامت السموات والأرض ولما قتل عبد الله بن رواحة ، في مؤتة،ولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده جبار بن صخر رضي الله تعالى عنهوكان من أهـل الخبرة ، في خـــرس الزروع والثمار ٠

٥٣٥ ـ وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوزع الزرع والثمار في النصف الذي يخص المسلمين عـلىتقسيم الغنائم وخصص أراضي لاخراج سهم من السهمان ، فجعل ما ينتجـــهحصن الشق ونطاة في سهمان المسلمين ما ينتج منهما يكون نصفه قسمة عـلىحسب سهام الفاتحين ٠

وكان ما ينتجه حصن الكتيبة مخصصاً لخمس الله ورسوله وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وطعم رجال سواء بالصلح بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أهل فدك.

وكان لنطاة والشق ثمانية عشر سهماً ، لنطاة خمسة والباقي للشق يأخذ الفاتحون هذه الأسهم الثمانية عشرة .

وقسمت الثمانية عشرة على ١٨٠٠ سهم ، أي أن كل سهم في النطاة والشق كان مقسما على مائة .

ويقول ابن اسحاق « قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتيبة وهي واد خاص بين قرابته وبين نسائه ،وبين رجال مسلمين ، ونساء أعطاهم » وقد ذكر المقادير التي كان يعطيها لذوي قرابته ونسائه ، ولبعض رجال المسلمين ، فكان يقسم على الضعفاء وذوي الصلة كل على مقدار حاجته .

وهكذا كان التقسيم للغلات ، ولم يقسم الأرضين ، ولكن كان لكل طائفة سهام في حصن معين من حصون خيبر ،ولقد كان بعض المؤمنين يشرفون على الأرض من حيث انتاجها وصلاحها ،وكان يتولى مقاسمة اليهود عبد الله بن رواحة أولا ، فلما استشهد رضي الله تعالى عنه ، تولاها ، جبار بن صخر ، واستمر طول حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فلما انتقل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى نفذ أبو بكر ما كان يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم لما توفى الصديق نفذ عمر شطراً من امارته ماكان يفعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم بدا له أن يخرج الأرض من أيدي اليهود ، ويعطيها ذوي السهام فيها ، وذلك لأمرين : أولهما أنهم قتلوا في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا أنصارياً ، وهو عبد الله بن سهل وكان قد خرج في أصحاب له يمتارون تمراً . فانفرد عنهم ، ووجد في عين قد دقت عنقه ثم طرح فيها فاخذوه وأخفوه ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم القسامة ، واتهمهم من بعد ذلك عمر في عهده بأنهم قتلوه .

واعتدوا ثانية في عهد عمر على عبد الله بن عمر فقد خرج هو والزبير ابن العوام والمقداد بن الأسود الى أموال المسلمين بخيبر يتعهدونها ، وتفرقوا

في الأموال فقدعوا يديه (أي خلعوا أي أزيلت عن مفاصلهـا ، وأصلح زملاؤه يده) ٠

فلما حضر الى أمير المؤمنين فقال هذا عمل يهود ، ثم قام في الناس خطيباً ، فقال :

أيها الناس ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان قد عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم اذا شئنا ،وقد عدوا على عبد الله بن عمر فقدعوا يديه ، كما قد بلغكم مع عدوهم على الأنصاري قبله ، لا شك أنهم أصحابه ليس هناك عدو غيرهم ٠ فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فاني مخرج يهود ، وهذا مؤداه أنهم أصبحوا غير أمناء على المؤمنين ، وقد ارتبطوا معهم بعلاقة المزارعة فكانوا يعاملونهم معاملة عدو ، لا معاملة معاون ٠

الأمر الثاني ـ الذي أوجب على عمر أن يخرجهم وخصوصاً بعد ما أظهروا عداوتهم وحقدهم ، أنه علم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لا يصبحن بجزيرة العرب دينان،فكان لابد من اجلائهم ، فدعاهم الى الجلاء ، وقال من كان عنده عهد من رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم فليأتني به أنفذه ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليتجهز للجلاء واذا كان بقاؤهم في الأرض فقد كان بالمشيئة وليس عهداً دائماً ، وقد خصص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكل ذي سهم دائم جزءا من الأرض يجمع شطر ثماره ، فلما أجلى سيدنا عمر رضي الله عنه اليهود ، قال لأصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أيها الناس ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامل يهود خيبر على أن يخرجهم اذا شاء ، فمن كان له مال فليلحق به ٠ فاني مخرج يهود » ٠

وجعل لكل مستحق من أسهم ثمراتها ، على ما يخرجه سهمه يديره حيثما يريد ٠

وبالنسبة لازواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن رضي الله عنهن وعنه فقال لهن : من أحب منكن ان أقسم فاني أقسم مائة وسق على أن يكون لها أصلها وأرضها وماؤها ومن الزرع عشرون وسقا من شعير فعلنا ، ومن أحب أن يعزل الذي لها في الخمس، كما هو فعلنا ٠

ويستفاد من هذا أن سيدنا عمر ماأخذ من نصيب في سهم ذوي القربى ، على أنه لهن ليس بالوراثة ، بل أخذنه حقا لهن من الخمس الذي لله وللرسول، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فقد جعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لكل واحد مائة وسق أو مائتي وسق على اختلاف الراوية في ذلك ، وعشرين وسقاً من شعير من غير اختلاف في ذلك ، فكان هذا استحقاقا ابتداء لا وراثة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن عمر رضي الله تعالى عنه بين أن يجري عليهن ما كان يجريه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أوساق ، وبين أن يعـــزل لهن ما ينتج ذلك ، كما فعل مع كـــل المستحقين في خيبر ٠

٥٣٦ ـ لما رأى يهود فدك ما نزل بيهود خيبر ، وهم أهـل الحصـون المنوعة أصابهم الرعب ، ورأوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أبقى الأرض في أهل خيبر يرعونها ويغرسونها ، ويصلحون شجرها على أن يكـون لهم نصف ما ينتج ، أي يعاملون كمـا عامل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل خيبر ، وفدك أرض من أرض خيبر يسكنها يهود ، لم يكن لهم حصـون ، ولم يقاتلهم النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم ، ولكن ألقى الرعب في قلوبهم ، فاستسلموا ٠

وقال رواة سيرة الرسول صـلى الله تعالى عليه وسلم ، انها كانت كلهـا خالصة للنبي كالشان في أمـوال بني النضير ، فلم تقسم سهاما كما قسـم انتاج خيبر ، بل كانت كلها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويقول ابن كثير كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعزل منها نفقـة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقي كمال الله تعالى يصرف في الـكراع والسـلاح ومصالح المسلمين ٠

ويجب علينا في هذا المقام أن نعيد تلاوة ما نزل في أموال بني النضـير التي عدها العلماء بأنها كفدك فقـد قال تعالى في أموال بني النضير :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

وانه اذا كانت المقايسة ثابتة بين أموال بني النضير ، وفدك ، فان التعبير بأنها خالصة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤداه أنها لا تقسم مقسم الغنائم فلا يكون للفاتحين المجاهدين أربعة الأخماس كما هو الشأن في الغنائم ،وانما يكون مصرفها مصرف خمس الغنائم الخمس لله ولرسوله ولذوي القربى واليتامى والمساكين ، ولذلك يصرفه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مصالح المسلمين ، ويبقى له ما يكفيه وأهله منه بالمعروف ٠

وعلى ذلك نقرر أنه لم يكن مملوك الرقبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يورث ، ويجري فيه النزاع على الملكية كما توهم كتب السيرة ، وكتب التاريخ ٠

والذي أحسبه أن الاختلاف في ادارتها ، وتولي صرفها في مصارفها ، باعتبار أنها ليست في ظل الولاية العامة ، بل لها ولاية خاصة ، هي ولاية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يخلفه من أهله ، وبذلك انتهى أمرها في عهد عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه ، ولنترك الكلمة بعد ذلك للحافظ ابن كثير في تاريخه ٠

كانت هذه الأموال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقي مجعل مال الله تعالى يصرفه في الكراع والسلاح ومصالح المسلمين ،فلما مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اعتقدت فاطمة وأزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أكثرهن

---

(١) الحشر

أن هذه الأراضي تكون موروثة عنه ولم يبلغهن ما ثبت عنه من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه يكون صدقة .

ولما طلبت فاطمة وأزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نصيبهن من ذلك ، وسألوا الصديق أن يسلمه اليهم وذكر لهم قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا نورث، ما تركناه صدقة » وقال أنا أعول من كان يعول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله لقرابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحب الي أن أصل من قرابتي ، وصدق رضي الله عنه وأرضاه ، فانه البار الراشد ، في ذلك التابع للحق .

نحن لا نظن أن السيدة الزهراء التي هي قطعة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون طلبها للميراث ، وانما طلبها أن تتولى هي الصدقة .

وقد صرح ابن كثير بأن فاطمة طلبت بلسان العباس وعلي أن ينظرا في هذه الصدقة وأن يصرفا ذلك في المصارف التي كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصرفها فيها ، فأبى عليهم الصديق ذلك ، ونحن لا نفرض أنهم طلبوا ميراثاً ، فعلي كرم الله تعالى وجهه ما كان يجهل أن الأنبياء لا يورثون ، وهو فقيه الصحابة ، وكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم أقضى الصحابة .

ويقول الحافظ ابن كثير ان فاطمة رضي الله تبارك وتعالى عليها ، والصلاة والسلام على أبيها غضبت عليه في ذلك ووجدت في نفسها بعض الموجدة ، ولم يكن لها ذلك ، والصديق من قد عرفت هي والمسلمون محله من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقيامه في نصرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « فلما كانت أيام عمر بن الخطاب سألوه أن يفوض أمر هذه الصدقة الى علي والعباس ، وثقلوا عليه بجماعات من سادات الصحابة ففعل عمر ذلك لكثرة أشغاله ، واتساع مملكته ، وامتداد رعيته » .

هذه عبارات الحافظ بن كثير ، وله مقامه في علم السنة ، والأخذ بمنهاج السلف ، ولكن نلاحظ أن عباراته في حق فاطمة التي تنتهي عترة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليها لم تكن لائقة بمقامها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا كان للصديق مكانته ، فلفاطمة مكانتها من المحبة لأنها قطعة

منه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقوله عنها ما كان لها ذلك فيه تعد للحدود ، بدليل أن عمر بن الخطاب من بعده نفذ ما طلبت ، فلم تكن متجنية عند ما وجدت موجدة على الصديق صديق أبيها ٠

وهناك عبارة لا نوافقه عليها ، لأنه يقول انهم ثقلوا على عمر رضي الله عنه بجماعة من سادات الصحابة ، فان هذه العبارة لا يصح أن تقال في علي ولا في عمر ، فمقام علي أجل من أن يعبر عنه في طلبه واحتكامه الى الصحابة بكلمة ثقلوا ، وما كان عمر بن الخطاب فاروق الاسلام من صفاته أن يخضع لاثقال أحد من الصحابة ،فهو القوي في الحق الذي لا يخشى فيه لومة لائم ، وما كنا نود أن يقع هذا من الحافظ بن كثير العالم السلفي الامام ، انما الأمر الذي يتصور أن يكون من العباس وعلي أنهما احتكما الى جمع من الصحابة فنزل عمر عند رأيهم ، لأنه رآه أنه الحق ، ولنذكر بقية ما قصه الحافظ بن كثير ٠

فهو يقول ان الصدقة أعطيت لعلي والعباس رضي الله عنهما ، فتغلب علي على عمه العباس فيها ، ثم تساوقا يختصمان الى عمر ، وقدما بين أيديهما جماعة من الصحابة ، وسألا عمر أن يقسمها بينهما ، فينظر كل واحد فيما لا ينظر فيه الآخر ، فامتنع عمر عن ذلك أشد الامتناع ، وخشي أن تكون هذه القسمة تشبه قسمة المواريث وقال : انظرا فيها ، وأنتما جميع ،فان عجزتما عنها ، فادفعاها الي ، والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، لا أقضي فيها قضاء الا هذا ، فاستمرا فيه ، ومن بعد الى ولدهما الى أيام بني العباس ، تصرف في المصارف التي كان يصرف فيها أموال بني النضير وفدك ، وسهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من خيبر ٠

٥٣٧ ـ في أثناء خيبر ، وفي أعقابها وجدت حوادث تدل على قــوة ايمان بعض المؤمنين ، وصدق ما وعدوا الله ورسوله ، وحوادث فيها غـدر من اليهود ، وسماحة من النبي صــلىالله تعالى عليه وسلم وهو الغالب ٠

قصته تدل كيف يدخل الاسلام الى القلوب المخلصة المتفتحة التي لم يرنقها هوى وما غلبت عليها شهوات كان مــعاليهود عبد أسود أجير عندهـــم يرعى غنما لهم وقد سمع اليهود يقولون انه يدعي أنه نبي مرسل ، فساقه هــذا لأن يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليهوسلم يسأله عما يدعو اليه ، وكـــان رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلمالذي نصر بالضعفاء والمساكين لا يحقر أحداً أن يدعوه الى الاســـلام ، ولذاعرضه عليه رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فأسلم ، وجمع قلبه الطيب بين الايمان والأمانة ٠

فدعته الأمانة بعد الايمان أن يقوللرسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم : اني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم ،وهيأمانة عندي ، فكيف أصنع بها ، لم يقل له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انهاللمؤمنين بحكـــم أنها غنيمة للغالب ، ولكنه أجرى أمانة الرجل على رسلها ،بل قال له اضرب في وجوهها فانهـــا سترجع الى ربها فأخذ حفنة من الحصىفرمى بهــا في وجـــوهها ، وقــال : ارجعي الى صاحبك فوالله لا أصحبــكأبداً ، فخرجت مجتمعـــة كأن ســائقاً يسوقها ، حتى دخلت الحصن ، ثم تقدمالى ذلك الحصن ليقــاتل مع المسلمين ، فاصابه حجر قتله ٠

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلمانه شهيد وانه دخل الجنة ٠

أعرابي يترك المغنم ويطلب الجنة :

٥٣٨ ــ روى البيهقي بسنده ، أن رجلا من الأعراب جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فآمن به واتبعه فقال أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، وغزا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغنم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقسم المغنم ، وقسم لهذا الأعرابي المؤمن ، فأعطى ما قسم له ، فقال : ما هذا ؟قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا ، ــ وأشار الى حلقه ــ بسهم فأموت فادخل الجنة » ، فقال الرسول الأمين « ان تصدق الله يصدقك » رفض المال ولو أنه حق وحلال ، ومنحة الغنيمة أخذها بحقها ، وذلك في سبيل أن يكون عمله خالصا لوجه الله تعالى ،فهو لا يرد الحلال ، ولكن لا يريد عوضا للجهاد ·

ولما نهضوا للقتال كان معهم ،فقتل بسهم أصابه حيث أشار الى حلقه ، فحمل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقدمه لله شهيداً ، وقال : « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك ، قتل شهيداً ، وأنا عليه شهيد » ·

وقد ضرب هذا الأعرابي المؤمن أعلى مثل للايمان ، وطلب ما عند الله وحده لا شيء سواه ، فطلب رضوانه ولا يريد مغنما ، فرضي الله تبارك وتعالى عنه ·

مؤمن يتحايل لماله بمكة :

٥٣٩ ــ وان الاسلام فتح الطريق أمامه ، لا تحول بينه وبين انتشاره قوة الطغاة ، ولا صد عن سبيل الله أخذ يطوف في البلاد العربية فيمشو اليه من يريد الهداية ، ومن يصفي قلبه للحق والنور والهداية ·

وكان من ذلك اسلام الحجاج بن علاط السلمي ، فانه لما فتحت خيبر وزال كل ما كان يصد عن الاسلام جاء الحجاج هذا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال « يا رسول الله ان لي مالا عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة ، وكانت زوجه ، وله منها ولد وأموال متفرقة في تجارة مكة ،

والمؤمن يكون حريصا غير مستهين ولايكون بخيلا،وفرق بين البخل والحرص، لأن الحرص معناه ألا يفرط في حق اكتسبه بحله ، ولا يكون هملا فرطا لا يعطي كل ذي حق حقه ، ولا يفرط في حقه مع التسامح في موضعه أما البخيل فانه يشح بالمال ولا يضعه في مواضعه •

فالمؤمن حريص غير مفرط ، ولا بخيل ، أراد الحجاج أن يصل الى ماله، وهو بمكة ، ولو أعلن اسلامه منع ماله، فاستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخفي أمره ، ويقول ما يسهل الوصول الى ماله من غير تعمد للكذب ، ولا خدع لمؤمن ، فأذن له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

خرج الحجاج الى مكة ، حتى اذا التقى برجال من قريش يتسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار الى خيبر ، وهم يعلمون أنها قرية الحجاز ، ريفا ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون الأخبار،ويسألون الركبان•

فلما قابلوا الحجاج ، ولم يكونوا علموا باسلامه ، ولم يظهره لهم ، فسألوه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أمر خيبر ، وقالوا له قد بلغنا أن القاطع (أي محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد سار الى خيبر ، وهي بلد يهود وريف الحجاز) •

قال قد بلغني ذلك ، وعندي من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم نسمع أبدا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا ، وقالوا لا نقتله ، حتى نبعث به الى أهل مكة ، فيقتلوه بين أظهرهم •

أعينوني على جمع مالي بمكة ، وعلى غرمائي ، فاني أريد أن أقدم خيبر ، فأصيب من فل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار الى هنالك •

فقاموا فجمعوا له ماله يحثون الغرماء على ذلك •

وكان له عند امرأته مال موضوع،وأراد أن يأخذه ، فطلب منها لعله يصيب من فرص البيع قبل أن يسبقه التجار •

تسامع الناس بخبر هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والناس يصغون دائما الى ما يحبون ، ويذيعونه وينشرونه فرحين مستبشرين ، ويعميهم حبهم عن فحص الخبر ووزنه أو الشك فيه ، بل يطمئنون الى ما يحبون من غير تمحيص ٠

وفي مكة محبون للنبي من ذوي قرباه ، وعلى رأسهم العباس عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهاله الخبر، فذهب الى الحجاج فسأله ما الخبر الذي جئت به ، فأشار الى العباس أن عنده أخبارا وطلب اليه أن يسافر حتى يفرغ من جمع ماله ، ويلقاه في خلاء ٠

حتى اذا فرغ من جمع كل شيء كان له بمكة ، وأجمع الخروج لقي العباس رضي الله عنه ، وقال احفظ عني حديثي يا أبا الفضل ثلاثا ، فاني أخشى الطلب ، ثم قل ما شئت ، قال : أفعل ، فاني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم صفية بنت حيي ، ولقد افتتح خيبر ، وصارت له ولأصحابه ولقد أسلمت وما جئت الا لأخذ أموالي فرقاً من أن أغلب عليه ، فاذا مضت ثلاث ليال ، فاظهر أمرك فهو والله على ما نحب ٠

مكث العباس ثلاث ليال لا يلتقي بالناس ، حتى اذا خرج لبس حلة ، وتطيب ، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة ، فلما رأوه قالوا والله هذا التجلد لحر المصيبة ٠

قال : كلا والله الذي حلفتم به ، لقد افتتح محمد خيبر ، ونزل عروساً على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ، ولأصحابه ٠ قالوا من جاءك بهذا الخبر ؟ قال الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلما، فأخذ ماله ، وانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه ، فيكون معه ، قالوا : ياعباد الله ، انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر ٠

ونقف وقفة قصيرة في هذا ، أيعد الرجل قد كذب ، وهل يعد هذا الكذب اثما ، ونقول قبل الاجابة ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأذن له

بالكذب ، بل أذن بالقول ، بأن يوري ولا يكذب،وأن يحاول من غير أن يتورط في قــول غير صحيح في ذاته ولا في موضوعه ٠

ولكن هل يعتبر كذباً أن يوهـــم بالقول ، ثم يوضح هو الحقيقة ، وهو بين قوم ظالمين ، ولا يمكن أن يصل الى حقه المشروع الا اذا أوهمهـــم ، ثم أزال وهمهم بقول الحق الصريح ، وهوقد ترك للعباس أن يصحح القـــول ، ويبين مقصده من ايهامهم ٠

واني أحسب أنه لم يكذب ويصر على ما أدخله في نفوسهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

٥٤٠ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شفيقاً رفيقاً رؤوفا في ذات نفسه وبالناس ، وقد رأى صفية وأختها ، يمر بهما بلال رضي الله عنه في وسط قتلى اليهود ، فناداه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا لائماً له قائلا له : أليس في قلبك رحمة تمر بالفتاتين في وسط القتلى من أهلهما وكانت إحداهما مذعورة نافرة وكانت صفية ساكنة مستسلمة تاركة نفسها للمقادير ·

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقرب القلوب ، ولا ينفرها ، وييسر ولا يعسر ، وكما كان عليه الصلاة والسلام يقول : « يسروا ولا تعسروا ، واكفوا ولا تنفروا » ·

وقد كانت صفية في قسمه ، فلم يرد أن يبقيها على الرق أو أن يفرض عليها رقا تأليفا ورفقا ، وكان يمكن أن ينال ما ينال بملك اليمين ، ولم يكن حراما ، ولكنه يبغض الرق ولا يريد أن ينشىء رقا على أحد قط ، وخصوصاً اذا كانت ابنة رئيس القوم ، فهو لا يحب الذلة ينزلها بانسان بعد عزة ، ولذلك أعتقها وتزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وجعل صداقها عتقها، وكان زوجها ابن عمها في جملة القتلى·

ولقد دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد استبراء رحمها بحيضة تحيضها ، ولم يكن لها عدة ، لأنه لا عدة من كافر ، وخصوصاً أن عدتها تكون عدة وفاة ، وهي تكون للاحداد على الزوج السابق ، ولا احداد على كافر ، ولكن لا يصح أن يدخل بحامل ، فتركها صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى تستبرىء ·

ولقد نظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى وجهها ، فوجد أثر كدمة في وجهها فسألها عنها فقصت خبر رؤيا لها رأتها ، بعد بضع ليال من زواجها بابن عمها ، وتلك أنها رأت في منامها كأن قمر السماء وقع في حجرها ،

فقصت رؤياها على ابن عمها ، فلطم وجهها ، وقال : أتتمنين ملك يثرب أن يصير بعلك ، وقد تحققت رؤياها وكانت صادقة ، فجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفتح حصونها وكانت في السبايا • فكرمها بأن أعتقها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتزوجها •

ولقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة لزواجها ، وقال أنس أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة بين خيبر والمدينة ثلاث ليال فدعوت المسلمين الى وليمته، وما كان فيها من خبز ولحم ، وما كان فيها الا أن أمر بلالا بالانطاع فبسطت فألقى فيها التمر والسمن ، فقال المسلمون أجدى أمهات المسلمين •

ولقد كان النبي رفيقاً في معاملته لها ، وقد اعتذر لها عن قتل أبيها وزوجها ، اذ كان أبوها يحرض عليه القبائل ، ويؤلب عليه الناس وما كان يستطيع أن يتركه ، يؤلب العرب عليه ، وقتل زوجها ، لأنه خان العهد وأخفى مال أبيه ، ونقض الذمة ، وكان يتالف قلبها بسماحته ورفقه ، حتى صار أحب الناس الى قلبها •

وان زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من السيدة صفية فيه فوائد اجتماعية ، فهو أولا يطفىء ما في قلوب المؤمنين بالنسبة لليهود ، وضرب المثل السامي في معاملة السبايا ، فهي كانت منهن ، فاختارها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوجاً بدل أن يتخذمنها أمة يدخل عليها بملك اليمين ، وهو يضرب الأمثال في حسن العشرة الزوجية ، فيكون خير الناس لأهله ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » ، وان هذا الزواج فيه مداواة للجروح المكلومة ، لقد أمرها بلال على القتلى من قومها ، فاكرمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفعها الى أعلى درجات النساء وهو أن تكون من أمهات المؤمنين •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلح بينه وبين اليهود فجعلهم شركاء للمؤمنين ، فكان من الحق أن يتالفهم ، وأن يرأف بهم ، وان ذلك الزواج تأليف وتقريب ، وابعاد للنفور ولكنهم جاحدون دائما ••

٥٤١ ــ كان سلام بن شكم الحامل الأول للواء اليهود ، ولما قتل حمل غيره اللواء وقد بقيت امرأته من بعده بحقدها وضغنها على من قتلوا زوجها عامة ، وخاصة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأرادت قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأداة القتل عند النساء ، وهو السم ، وتظاهرت بالمودة ، واتجهت الى اهداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شاة ، ووضع السم في أجزائها ، وتعرفت ما يحبه النبي عليه الصلاة والسلام من أجزاء الشاة ،فقيل لها الذراع فزادتها سماً ، وأكثرته فيها٠

أهدت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الشاة ، فجاءت بها ووضعتها بين يديه ، تناول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذراع الشاة التي هي أحب أجزائها اليه ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، لعل ذلك لأنها أسرفت في وضع السم فيها ، فكان غريب المذاق ،ولذلك رماها من يده ولم يأكلها ولفظها ، وكان معه على الطعام صاحب له هو بشر بن البراء بن معرور ، فأكل هو الآخر ، فأساغها ولعل ذلك لعدم ظهور السم ، وان كان كامناً ، ومات بشير من أكلته هذه ، ولكن ذلك لم يكن فور تناولها ٠

ولقد قال عليه الصلاة والسلام عندما لفظها : ان هذا العظم ليخبرني بأنه مسموم ودعا المرأة وسألها فاعترفت ، وصرحت بالعداوة قائلة : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، ثم أردفت ذلك بقولها ، فقلت ان كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبياً فسيخبر٠

وقد تجاوز عنها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن بشيراً لم يكن قد مات بأثر السم ، والا ما تجاوز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، لأنها قتلت نفساً غدراً وعامدة ٠

وان عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان السماحة كلها ، والسماحة دائماً تقرب ، ولا تنفر ، وان العلماء يقولون ان هذا الفعل الذي لاك به

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مضغة اللحم ، ولم يسفها كـــان له أثر في جسمه صلى الله تعالى عليه وسلم ،حتى يقال انه عندما ضعف جسمه الـكريم بمرض الموت أحس به يسرى في بدنه.

يروى أنه قال في مرضه الذي توفي فيه ، لأم بشر بنت البراء بن البراء ابن معرور ، وقد جاءت اليه تعوده قال لها : « يا أم بشر ان هذا الأوان وجدت انقطاع ابهرى التي كانت مع أخيـــك بخيبر » .

ويبني العلمـــاء على ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم قـــد مات شهيداً .

وهكذا نجد غدراً واضحاً ، وسماحة غالبة لمداواة جروح النفوس ، واذا كان اليهود ابتداء قد حاولوا رمي الحجـر عليه ، وهو جالس بجوار جدارهـم ، فقد حاولته امرأة حقود بالســم تقتله به ، وظهر أثره عندما ضعف بالمرض فمات شهيداً وهو أعظم الشهداء .

٥٤٢ ـ انتصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في خيبر انتصاراً مؤزراً ، أزال سلطان اليهود في جزيرة العرب فقوض قوتهم العسكرية ،وفل من شوكتهم ، وجعل العدو يسير وراء الاسلام ، ولا يواجهه ، وبقي أن يعود الغرباء الى عزة الاسلام ، وقد خرجوا فراراً من اذلال المشركين ، عادوا ليتحملوا عبء الجهاد أعزاء ، بدل أن يبقوا مستضعفين ، ولو كانوا ضيوفا بين قوم كرماء وملك كريم ٠

عاد جعفر بن أبي طالب ، ومعه المهاجرون الذين هاجروا الى الحبشة ، ونالوا فضل الهجرتين ، لقي النبي الرفيق ابن عمه الحبيب جعفر بن أبي طالب ، فقبله بين عينيه ، والتزمه ،وقال ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ٠

عندما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزة الاسلام التي أعزها الله تعالى العلي القدير بها ، بعد غزوة الأحزاب ، وقد صار الاسلام يغزو أعداءه ، ويخضد شوكته ، ويدعو الناس بدعوة الحق ، وهو في أمن ، وخصوصا بعد الحديبية عندئذ أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أتباعه بعد الحديبية : يدعوهم الى أن يحضروا ليجاهدوا مع اخوانهم ، فهم في غربتهم وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً عليهم ، يشعرهم بأنهم منهم وهو معهم ٠

بعث الى النجاشي الكريم ـ عمرو بن أمية الضمري ، ليسهل لهم عودتهم ، بعد أن أكرم ضيافتهم ،فحملهم في سفينتين ، فقدم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بخيبر٠

عاد المهاجرون الى الحبشة ، وكانوا من بطون مختلفة ، ومن أسر قرشية ، وغير قرشية ، مختلفة ، جمعهم الحق والايمان والهجرة ، وان فرقت البطون والأسر ٠

فكان من الهاشميين جعفر بن أبي طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس الخيثمية وولد له في الحبشة عبد الله بن جعفر .

ومن بني أمية خالد بن سعيد بن العاص ، وامرأته وابنه سعيد بن خالد.

ومن بني عبد الدار بن قصي الأسود بن نوفل بن خويلد .

ومن بني تيم بن مرة بن كعب الحارث بن صخر وامرأته .

وهكذا من بطون قريش وقد أحصاهم ابن اسحاق عدا فكان عددهم ستة عشر رجلا ، ومعهم أولادهم الصغار الذين صحبوهم أو ولدوا في الحبشة.

وكان ممن حضر أبو موسى الأشعري ، وعدد من الأشعريين ، كانوا هم عم أبي موسى الأشعري وأخاه أبا بردة .

وقد كان مع مهاجري الحبشة في السفينتين نساء من هلك من المسلمين هنالك .

وقد روى البخاري أن أبا موسى الأشعري لم يكن من مهاجري الحبشة ، بل كان ممن آمن بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو باليمن ، ولما علم بهجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هاجر اليه ، فالتقى في الحبشة بجعفر ابن أبي طالب ، ولنترك الكلمة للبخاري عن أبي موسى الأشعري قال « بلغنا مخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخرجنا مهاجرين اليه ، في ثلاث وخمسين رجلا من قومي ،فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا الى النجاشي بالحبشة ، فرافقنا جعفر بن أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا ، فرافقنا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فكان أناس من الناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة.

ويروي البخاري مناقشة كانت بين أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . ذلك أن أسماء زارت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها .فدخل عمر أبو حفصة وعندها أسماء .

فقال عمر : الحبشية هذه البحرية هذه .

قالت أسماء نعم .

قال عمر رضي الله عنه : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فغضبت أسماء وقالت ، كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم وكنا في دار البيداء والبغضاء بالحبشة ، وذلك في الله ، وفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وايم الله لا أطعم طعاما ، ولا أشرب شرابا ، حتى أذكر ما قلت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأسأله ، لا أكذب ولا أزيغ ، ولا ازيد عليه .

ذهبت في هذه الحماسة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت : يا نبي الله : ان عمر قال كذا وكذا وقلت كذا وكذا .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حاكما بين هذين المؤمنين المخلصين : « ليس بأحق منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

هذا حديث كان يجري بين الصحابة أيهما أسبق للهجرة أولئك الذين هاجروا من مكة اذ هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة ، أم اولئك الذين هاجروا فرارا من فتنة المشركين، وبسبب بعدهم وغربتهم لم يهاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، بل حبسهم البعد والغربة عن أن يهاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفي ذلك الشرف والاخلاص فليتنافس المتنافسون ، وفي كل فضل ، فالذين هاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نالوا نعمة الجهاد في غزوات وسرايا ، فجاهدوا في بدر وأحد ، وبني قينقاع ، وبني النضير ، ثم تحملوا البلاء في حفر الخندق ، وزلزال غزوة الأحزاب في الخندق ، ثم كان لهم فضل الصبر في الحديبية ، وليس صبر القتال ، ولكنه صبر النفس ، وضبطها، ثم بيعة الرضوان .

وفضل مهاجري الحبشة أنهم كانوا في غربة معزولة ، وكانوا مستضعفين في الأرض يبغون الجهاد ولا يدركونه، حتى أنقذهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فجاؤوا اليه ليحملوا عبء الجهاد كاخوانهم ، ويزول عنهم بلاء الاغتراب الى بلاء الجهاد ، وعزته .

٥٤٣ ـ كان حول خيبر أو على مقربة جيوب لليهود ، لم تقدعها هزائم أهل الحصون فكانوا يعلون برؤوسهم حاسبين أنهم ينالون من المسلمين نيلا ٠

فكان اليهود بوادي القرى ينهدون برؤوسهم ، ولم يعتبروا بما كان في خيبر ، وبينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوادي القرى أصيب رجل من المؤمنين بسهم فقتل ٠

وأخذ يهود وادي القرى ، يجمعون أنفسهم، وانضم اليهم ناس من العرب، فلم يكن بد من القتال وهم أهون في أنفسهم وعند الله من خيبر ومن كان وراءهم ٠

هيأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه للقتال وصفهم ، وأعطى اللواء سعد بن عبادة ، وأعطى راية الى الحباب بن المنذر ، وراية الى سهل ابن حنيف ، وراية الى عباد بن بشر ، تقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم الى الاسلام ، وأخبرهم أنهم ان أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله ٠

فلم يجيبوا داعي الله ، وآثروا القتال فخرج رجل منهم يطلب المبارزة، فبرز اليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز اليه علي فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر ، وكلما قتل رجل منهم كرر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الدعوة الى الاسلام ، والى الله عزوجل ورسوله ٠

ولكنهم عموا وصموا عن دعوة الحق، فكان القتال الذي ابتدءوه بالسهم القاتل لرجل من المؤمنين ولم تجدهم الدعوة الى الاسلام ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي كلما حضر وقت الصلاة ، ثم يدعوهم لم يجد ذلك كله فقاتلهم، حتى أمسى ، وعدا عليهم، فلم ترفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم من مال وسلاح وبذلك فتحت أرض وادي القرى عنوة ، ولم تكن بصلح كفدك ، وقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة أيام، ذهب بعدها الى تيماء ٠

ولقد قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أموال وادي القرى ، كما قسم خيبر ، فكانت الأموال ابتداء مخمسة أربعة أخماس للفاتحين وخمسها لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والأرض والنخيل بقيت في أيديهم على أن يكون لهم نصف ما تنتج ، وللنبي صلى الله تعالى عليه وسلم النصف ، وتكون الثمار والزروع موزعة توزيع الغنائم.

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقوم بهذه القسمة على اعتبار أن كل أموال خيبر ، ومن سار مسارها ، وهم أهل وادي القرى ، غنائم تخمس ، وقد خمس الأموال المنقولة وخمس نتاج الأرض والنخيل وبقية الأموال الثابتة .

وذلك لأن الفاتحين من أهل المدينة كانوا عددا قليلا ، ولم يكونوا كثرة كبيرة وكان جميع أهل المدينة مجاهدين، وكان نصيب الفقراء والمساكين واليتامى ثابتاً ، غير موزع على غيرهم ،والكراع والسلاح وما يحتاج اليه النبي كان يؤخذ من حصة الله والرسول، اذ يستبقي لنفسه من هذا الخمس نفقة سنة ، وينفق الباقي على المصالح العامة للمسلمين .

ولما جاء عهد عمر رضي الله عنه نفذ الأمر في خيبر ، وما يشابهها كما قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يتضمن المعاني التي ذكرناها ، وهو بقاء الأرض تحت أيدي أهلها ، وكان يقول رضي الله تبارك وتعالى عنه « أما والذي نفسي بيده لولا أن أترك آخر الناس ليس لهم شيء ما فتحت قرية الا قسمتها كما قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر ولكني أتركها خزانة لهم يقتسمونها » .

ولذلك ترك أرض سواد العراق في أهلها ، وجعل خراجها لمصالح المسلمين مستنداً الى ما قرره القرآن الكريم بالنسبة لأرض بني النضير ، ونعتقد أنه هو ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أرض خيبر ، فمعناه لا يخرج عنه ، لأن جماعة المؤمنين كانوا جميعاً مجاهدين أو يتامى أو أبناء سبيل أو مساكين ، ولكل حظ ، وكان أولئك معروفين في المدينة ، فلما اتسعت رقعة الدولة كان الخراج موزعا على مصالح المسلمين ، وسد حاجة المحتاجين بشكل عام .

٥٤٤ ــ بما كان في خيبر ووادي القرى انتهت قوة اليهـــود العسكرية في بلاد العرب ، ولكن بقي فيها ناس لم يخضعوا لحكم الاسلام وسلطـانه ، ويكونون تابعين له من غير أن يضاروا في دينهم ، ولا يرهقوا في عقائدهـم وهم يهود تيماء ، وكانت على مقـربة من الشماء ولم يعتبر الامام عمر رضي الله عنه أرضهم من أرض العرب التي لا يجتمع فيها دينان ٠

وأهل تيماء من اليهود عندما علموا ما نزل بخيبر ووادي القـــرى ، وما سامحهم فيه النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم من معاملة عندما علموا ذلك لم يريدوا قتالا ، وجاؤوا ودفعوا الجزية، وصالحوا النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم عليها وجزيتهم كانت جزية على الأرض وهو الخراج ، وجـــزية عـلى الرؤوس على ما هو مبين في كتب الفقه، واعطاء الجزية اقرار بخضوعهم لحكـم الاسلام على أن يكون لهم ما للمسلمـين وعليهم ما عليهم من أحكام القصاص والحدود وسنتكلم بعد ذلك في الأحكام الشرعية التي أخذت من أقـوال النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم في غزوة خيبر ، وما جاء بعدها ، فانا لا نترك ذلك ، ولكن أخـــرناه حتى ننتهي من القتال والحرب والتسليم وشروطه ٠

إجلاء عمر لليهود

٥٤٥ ــ أجلى عمر بن الخطاب اليهود ، يهود خيبر ووادي القرى الذين يسكنون في الجزيرة العربية عملا بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يجتمع في جزيرة العرب دينان »٠

ولكنه لم يجل أهل تيماء ، لأن أرضهم لم تكن في داخل الجزيرة ، بل كانت في أطراف الشام ، وهم قد قبلوا أن يكونوا ذميين لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينقض أحد منهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم تفتح أرضهم عنوة ، بل كانت صلحا ، فلم تكن ثمة مشابهة بينهم وبين خيبر ووادي القرى والحديث النبوي لا ينطبق عليهم ، لأنهم كانوا في طرف الشام الذي يصاقب جزيرة العرب ، وبذلك جمع عمر رضي الله عنه بين المحافظة على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومصلحة المسلمين جزاه الله تعالى عن الاسلام خيراً ٠

٥٤٦ ـ كثرت الأحكام التي شرعت في أثناء غزوة خيبر لطولها ، ولتنوع أحداثها ، وهي جزء من تبليغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رسالة ربه فما كان نبياً للقتال ، بل كان نبياً مبلغاً رسالة ربه، فهي المطلوب في السلم وفي الحرب ، وهي مطلوبة بالذات والقصد الأول ، وما كانت الحرب الا دفاعا ومنعا للفتنة ، وتمهيد الطريق لكي تسير في مسارها لا يحول حائل بينها وبين القلوب ، ولا اكراه في الدين من بعد أن تصل الدعوة ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، فالدعوة هي لب الرسالة والحرب لدفع ما يعترض طريقها .

ومن أظهر الأحكام الشرعية التي ثبتت في خيبر .

٥٤٧ ـ وأظهر الاحكام هو ماصنعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع أهل من دفع الأرض اليهم على نصف غلاتها والأرض مملوكة للمسلمين فدفعها اليهم على نصف الغلات مزارعة ومساقاة ، لأن دفع الأرض لزراعتها على سهم معلوم للمالك ، مزارعة ودفع الشجر لاصلاحه على سهم معلوم للمالك مساقاة ، والاتفاق بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين يهود خيبر ، يتضمن الزرع واصلاح الشجر فهو يتضمن مزارعة ومساقاة معا .

ومن قال ان عقد المزارعة فاسد ، فقد رد السنة وذلك غير جائز .

وان المزارعة والمساقاة اجارة ابتداء ، وقد تكون اجارة فاسدة ، وهي مشاركة انتهاء وان ذلك وصف فقهي، وليس حكما شرعيا والحكم الشرعي ، قد ثبت بفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانه صحيح فلا مشاحة فيه ، وللفقهاء أن يطبقوا أقيستهم الفقهية كما يرون ما يكون منها صالحا للتطبيق

وما لا يكون صالحا يردونه وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يؤدي اليه من اباحة فوق ما يقـــررون من أقيسة قد تخطىء وقد تصيب ولا قياس مع النص ٠

وان هذه المزارعة كان النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم لا يقدم البذر ،بل كان البذر والعمل من العامل وعمـــل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجيز ذلك النوع من الزراعة كما يجيز أن يكـــون البذر والأرض من صـــاحب الأرض ، وكمـــا يجـوز أن يكـــون البذر منهما ٠

ويشبه ابن القيم الأرض برأس المال في المضاربة ، وقـــد يضيف اليه المالك البذر وربما لا يضيفه كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ومهما يكن الوصف الشرعي عند الفقهاء فان النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم قد فتح باب الاستغـــلال لمن له أرض ولا يستطيع زراعتها بنفسه ، لمشاغل تشغله كأولئك المجـــاهدين أو المرضى ، أو لعدم خبرة أو غير ذلك من الأسباب المعوقة له عن الزراعة بنفسه٠

وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم الثمرات قسمـــة الغنائم ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم العليم٠

٥٤٨ ـ ثبت نهي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أكل لحم الحمر الانسية ، وأباح عليه الصلاة والسلام أكل لحم الخيل ، فقد رأى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعض أصحابه ياكلون لحم الحمر الانسية ، في خيبر فنهاهم عنها، روى ابن اسحاق بسنده عن بعض من شهد خيبر قال أتانا نهي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أكل لحـــوم الحمر الانسية ، والقدور تفور بها ، فكفأناها على وجوهها ٠

وقد روى الحافظ بن كثير أنه نادى منادي رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم « ان الله ورسوله ينهيانكـــم عن لحوم الحمر فانهـــا رجس فاكفؤوها ، والقدور تفور بها » ٠

وان هذه النصوص الواردة في تحريم لحوم الحمر الانسية صحيحة تضافرت رواياتها من عدة جهات ،وهنايسأل الباحث لماذا كان تحريمها ، وهي تأكل العشب ولا تأكل اللحم وليستذات ناب ، ولا تعد من السباع المنهي عنها بأي صورة من الصور ·

يقول بعض الباحثين ، ومنهم بعض التابعين ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عنها في خيبر ، لأنها كانت تحمل الأمتعة ، وكانت ضرورية للناس في استعمالها ، ولذلك قال ابن عباس انها ليست حراما لذاتها ولكن كانت في خيبر ممنوعة الأكل لهذا ·

ولكن يرد ذلك التأويل أمران :

أولهما ــ أن الخيل كانت ألزم للجهاد من الحمر ، ومع ذلك أبيحت لحومها مع أن الحاجة اليها أشد وألزم ــ الأمر الثاني ــ أن صريح الحديث الذي رواه ابن اسحاق أنها رجس فهي محرمة لذاتها أي لحمها وأن فيه ما يمنع أكلها·

ولقد قيل في سبب تحريمها في خيبر بالذات أن الحمير في خيبر كانت قذرة لأنها جلالة وكانت تأكل المذرة·

وقيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منع أكلها ، لأنهم كانوا يأكلونها قبل قسمتها من الغنائم ، وقد يقال انه ينافي ذلك وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : بأنها رجس ، ولكن يجاب عن هذا بأنها كانت رجسا أي مالا خبيثا ، لأنها لم تكن قد قسمت ، فمعنى رجسها أنها لم تكن كسبا حلالا طيبا بل كانت كسبا خبيثا غير طيب ·

ويقول الحافظ بن كثير في تاريخه:ان تحريمها هو مذهب جمهور العلماء سلفا ، وخلفا ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، ولعل من المفارقة في مذهب مالك أن يحرم لحم الحمر الانسية ،ويبيح أكل لحم الكلب ، وله في اباحة لحم الكلب اجتهاد يتصل بنص قرآني ،اذ أن القرآن الكريم أباح أكل صيده في قوله تعالى :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ (١)

ويقول الامام مالك في ذلك ، كيف يؤكل صيده ، ويحرم لحمه ·

وبعض العلماء لهذه التأويلات المختلفة ، قال ان أكل لحمها مكروه ، لأن التحريم يثبت بدليل يقبل التأويل ففيه شبهة ، ومآل ذلك الكراهة لا التحريم القاطع ·

٥٤٩ ـ ثبت في غزوة خيبر تحريم أكل سباع البهائم ، وهي الحيوانات التي تعيش على أكل اللحوم ، أو كل ذي ناب ، كما يعبر الحديث النبوي ، فقد روى ابن اسحاق بسنده أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى يومئذ أي يوم خيبر عن أربع ، عن اتيان الحبالى من السبايا ، وعن أكل الحمار الأهلي ، وعن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم·

وقد تكلمنا في النهي عن أكل لحوم الحمير الأهلية ·

ونتكلم الآن عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وهو ما يسمى في عرف الفقهاء بسباع البهائم ، وهي محرمة لذاتها ، لهذا النص ، ولحمها نجس ، ولعابها وهو تبع للحمها نجس أيضاً ·

هذا وان لحم سباع البهائم ، أو كل ذي ناب كما عبر القرآن يكون حراماً بالنص ، ويحرم سباع الطير ، كالنسر والحدأة والغراب وغيرها من أكلة اللحوم بالقياس على ذي الناب من سباع البهائم ·

٥٥٠ ـ ثبت تحريم الدخول بالحبالى من السبايا ، وقد ورد ذلك في الحديث السابق المروي بسند ابن اسحاق رضي الله تبارك وتعالى عنه ·

---

(١) المائدة

وقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماؤه زرع غيره » (يعني الحبالى من السبايا) ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يبيع مغنما ، حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى اذا أعجفها ردها ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس من فيء المسلمين ، حتى اذا أخلقه رده ٠

ونرى أن الحديث منع أمورا تتعلق بالمغانم ، ومنع الدخول بالحبالى من السبايا ، ونريد أن نتكلم في هذا الجزء الأخير ، لأنه موضوع قولنا ، ونؤخر الباقي ٠

والكلام في الدخول بالحبالى ، وقد نهى عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينه عن سببه فيما يتعلق بالسبايا، ذلك أن سبب الدخول بالسبايا هو ملك اليمين ، فلم يكن ثمة نهي عنه ، بل الملكية تثبت ، ولكن لا يترتب عليها أثرها وهو الدخول ، لأنه اذا كان السبب قد وجد ، فقد كان المانع ، وهو كونه حاملا ، وأن دخوله يسقي به ماءه زرع غيره ، وهو المنهي عنه ، فلا بد قبل أن يدخل المسبية من استبراء رحمها بالولادة ان كانت حاملا، وأن تحيض مرة اذا كانت حائلا ، لأن الحيض أمارة أنه لا حمل ، فيحل الدخول وان السبب هنا ، وهو الملكية حكم شرعي ، ثبت بحكم تقسيم الغنائم ، فهو سبب شرعي ، وليس بسبب جعلي يقوم به المكلف ٠

ونثير هنا بحثاً هل السبب الجعلي ،وهو عقد الزواج يكون كالسبب الشرعي ، بأن يحل عقد الزواج على الحامل ، كما يثبت سبب الملكية ٠

لقد فصل الفقهاء الأمر في ذلك بالاستناد الى ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من وجوب العدة من كل دخول كان بسبب أمر ليس حراماً عند الشارع ، أو عفا عنه ، فان العقد على الحامل حرام وذلك لأن لها عدة ، ولا عقد في حال العدة ، فاذا كان من زواج صحيح أو دخول بشبهة تسقط الحد ، وتمحو وصف الزنى ، فان العقد لا يصح ، لأنها ذات عدة ، والعقد على معتدة باطل ، ولذلك يكون السبب باطلا ، والدخول يكون زنى ٠

واذا كانت حاملا من زنى ، فهل يجوز الدخول وهل يصح العقد ، اتفق الفقهاء على أن الدخول لا يجوز ، لأنه ينطبق عليه الحديث لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره ولكن أيصح انشاء العقد على الزانية ٠

قالوا انه اذا انتهت عدتها يصح العقد بالاجماع ، اذا تابت ، واذا كانت العدة لم تنته ، فانه من المقررات الشرعية أنه لا عدة للزانية ، ولو كانت حاملا بيد أنه يصح الزواج من غير الحامل ، أما الحامل فينعقد زواجها من صاحب الحمل ، لأنه لا يسقي ماءه زرع غيره ، وكره بعض الفقهاء أن يدخل بغير الحامل قبل استبراء الرحم ٠

أما اذا كان العاقد غير صاحب الحمل ، فقد قال بعض الفقهاء يصح الزواج ولا يدخل بها كما بينا ، أما صحة الزواج فلأنه) لا عدة لها تمنع صحته ، لأنها ليست في عصمة أحد ،والزانى لا عصمة له ٠

وأما الدخول بها فممنوع بنص الحديث الذي ينص عليه في غزوة خيبر ، وهو عام في منع أن يسقي ماءه زرع غيره ، ونسب هذا القول الى أبي حنيفة والشافعي ومحمد من أصحاب أبي حنيفة ٠

وقالت طائفة أخرى من الفقهاء منهم مالك وأبو يوسف من أصحاب أبي حنيفة وأحمد في رواية عنه وزفر من أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنهما ان الزواج لا يصح ، لأنه اذا كان الدخول لا يجوز وهو غاية العقد ، لأن القصد الأول المتعة ، ولا فائدة من عقد لا تترتب عليه لوازمه ، وما دام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عن الدخول بالحامل ، بالنهي عن أن يسقي ماءه زرع غيره فقد نهي عن الزواج ،لأن النهي عن الأمر اللازم نهي عن الملزوم ٠

ولأن النهي لأجل حق الحمل ، وحق الحمل يراعى ، لأنه لا جناية منه ، واذا عقد على المرأة وتبين أنها كانت حاملا وقت الزواج فان العقد لا يكون صحيحا، لأنه لا يفرض أنها كانت حاملا من زنى، اذ يجب حمل حال المؤمن على الصلاح ، بل يفرض أنه كان من زواج وشبهة تسقط الحد وتمحو وصف الزنى ٠

٥٥١ ــ ثبت أن المال الذي يقسم غنيمة ، الأموال المنقولة وثمرات الأموال غير المنقولة ، ويكون : للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الخمس ، وأربعة الأخماس للغانمين ، وأنه يعطى للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم سهمان للفرس ، وسهم لصاحبه ، وذلك لأن نفقات الفرس كبيرة ، ويريد الرسول أن تكون ذات قوة دائما لأنها عدة القتال ، ولتشجيع المجاهدين على اتخاذها للجهاد ، وفي بعض الروايات أنه جعل للفرس سهما ، ولصاحبها سهم ، ولكنه غير الرواية المشهورة .

وانه يلاحظ أمران بالنسبة للغنائم :

أولهما ــ أنها لا تملك قبل القسمة ، ولذلك صرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة خيبر أنه لا يجوز بيع من له فيها قبل أن يقسم له قسم ويدخل في حوزته ، ولذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روينا من قبل ولا يحل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما قبل أن يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين ، حتى اذا أعجفها ردها فيه ولايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس يوما من فيء المسلمين ، حتى اذا أخلقه رده ، وهذا الحديث يدل على أنه لا يملك ، ولا يصح أن ينتفع به قبل القسمة .

الأمر الثاني : الذي يجب التنبيه عليه أن الطعام الذي لا يدخر ، لا يخمس ، لأنه لا يعد غنيمة ، ولأنه يدفع غائلة الجوع الذي يصيب المجاهدين ، وحال مغبة الجوع ، وكان الجوع يصيب المسلمين فعلا في غزوة خيبر ، وانه اذا لم يتناول قبل القسمة كان الناس في مخمصه ، والطعام بين أيديهم ، وان ذلك ابتلاء فوق الابتلاء بالجهاد والصبر على شدائده .

يروي ابن اسحاق بسنده عن عبد الله بن مغفل ، المدني أنه قال : « أصبت من خيبر جراب شحم فاحتملته على عنقي الى رحلي وأصحابي ، فلقيني صاحب المغانم الذي جعل عليها ، فأخذه بناحيته ، وقال هلم ، حتى تقسمه بين المسلمين ، قلت لا والله لا أعطيه وجعل يجاذبني الجراب ، فرآنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتبسم ضحكا ، ثم قال لصاحب المغانم خل بينك وبينه ، فأرسله ، فانطلقت الى رحلي وأصحابي فأكلناه » .

وهناك أمر يجب التنبيه عليه ، وهو غلول الغنيمة ، فهو محرم تحريما قاطعا ، لأنه سرقة في مال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (١)

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أن يغل،وليس من شأنه وكماله أن يغل هو ، أو يقر غلول أحد ، أو يسكت عنه ، والغلول الأخذ من الغنيمة خفية ، واذا كان لا ينطبق عليه حد السرقة ، لأن مال الغنائم ليس في حرز مثله ، ولأن المحارب له شبه حق فيه ، والحدود تدور بالشبهات ، فانه شدد الله تعالى في عقوبته في الآخرة ،وفي غزوة خيبر ، بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شدة العقوبة في الآخرة .

وقد كان بين المحاربين رجل اسمه مدعم ، وقد أخذ من الغنائم شملة ، وفتش متاعه بعد مقتله فوجد فيه مع الشملة خزا من حرز يهودي يساوي درهمين ، وهو غلول مهما تكن قيمته .

وقد جاء سهم فقتله وهو بوادي القرى ، فقال الناس هنيئا له بالشهادة فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « كلا والذي نفسي بيده ان الشملة التي أخذها يوم خيبر ، لم يصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً » فأخرجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صفوف الشهداء بفعلته التي فعلها .

٥٥٢ ــ ان الأمانة عدالة ، بل ان العدالة ذاتها تدخل في ضمن الأمانات ولذلك قرنها سبحانه وتعالى بها في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢)

(١) آل عمران
(٢) النساء

وفي غزوة خيبر بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن الأمانة في مال الأعداء واجبة ، لا تبرر العداوة اهمالها ، واذا كانت أموال الأعداء تغنم في القتال ويأخذها المسلمون ، ويقسمونها بينهم ، فان ذلك قانون الحروب ، وليس من قانون الاسلام خيانة الأمانة ولو لعدو يحارب .

روى موسى بن عقبة عن عروة بن الزبير أنه جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر ، كان في غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد حملوا السلاح سألهم ماذا تريدون ؟ قالوا نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فوقع في نفسه ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقبل بغنمه ، حتى عمد الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الى من تدعو ؟ قال أدعوك الى الاسلام ، أن تشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله وألا تعبد الا الله ، فقال العبد : فماذا يكون لي ان شهدت بذلك ، وآمنت بالله ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الجنة ان مت على ذلك ، قال الرجل المؤمن يا رسول الله ان هذه الغنم عندي أمانة ، اذ كان يرعاها وهنا أمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤدي أمانته ، ولم يقل انها غنيمة للمسلمين ، ولم يضمها الى أموال الله ، لأن الأمانة يجب أن تراعى لذاتها ، لا فرق فيها بين عدو محارب ، وولي مناصر ، بل قال الرسول الأمين : أخرجها من عسكرنا ، وارمها بالحصا ، فان الله سيؤدي عنك أمانتك ففعل ، فرجعت الغنم الى سيدها فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم .

ولقد قتل ذلك العبد الأمين بأمانة الله تعالى في خيبر شهيداً ، فأدخل في قماط الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان هذا درس حكيم للذين يخونون أموال الناس ، ويبررونها بعداوة لهم ، وقد يكونون ظالمين في العداوة كما هم ظالمون بالخيانة ، والله عليم بذات الصدور .

٥٥٣ ـ ان الأعذار تكون على الناس أجمعين ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أصل البشرية ، فيجري عليه ما يجرى على الانسان ، ويرهقه ما يرهق الانسان .

ولقد كان في خيبر أن نام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أشرقت الشمس ، وقد وقف حارسه ينبهه اذا نام ، ويوقظه اذا استغرق الناس ، فضرب الله تعالى على آذانه أيضاً فنام ولم يوقظ حتى أشرقت الشمس ، ومع أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم ، ففي خيبر استغرق صلى الله تعالى عليه وسلم في النوم بعينه ، وان كان قلبه يقظاً لم ينم ، وذلك ليعلن الله تعالى انسانيته ، وليكون عمله أسوة للناس في تدارك ما فاته ، لأن المؤمنين يتخذونه أسوة حسنة ، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال صلوا كما رأيتموني أصلي ، فهو يبين لهم الصلاة في حال الأداء وحال القضاء معاً .

ولنذكر قصة ذلك ، كما جاءت في صحاح السنة وفي كتب السيرة في غزوة خيبر روى أبو داوود بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين قفل راجعا من خيبر ، سار ليلا حتى أدركنا الكرى ، وقال لبلال كلأ الليل ، وبلال يحرسه ، وغلبت بلالا أيضا عيناه ، وهو مستند الى راحلته فلم يستيقظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا بلالا ، ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولهم استيقاظا ، ففزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال يا بلال فقال أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فاقتادوا رواحلهم شيئا ، ثم توضأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر بلالا ، فأقام الصلاة ، وصلى بهم الصبح ، فلما أن قضى الصلاة قال من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها ، فان الله تعالى يقول :

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ (١)

وان هذا الحكم يستفاد منه أمران:

أولهما : وجوب قضاء الصلاة اذا فاتته بنوم أو نسيان مما لا قبل له بدفعه ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها اذا ذكرها » .

(١) طه

ثانيهما : أن قضاء الصلاة كما يكون بالانفراد يكون بأدائها جماعة مع اقامة الصلاة ، وذلك بلا ريب هو الأفضل ، لأن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ،فالجماعة لا تسقط عند القضاء ، كما يتوهم بعض الناس ٠

ويجب أن نبين هنا أن بعض الفقهاء يقرر أن القضاء يغني غناء الأداء في حال فوات الصلاة بالنوم والنسيان، ولا يغني القضاء غناء الأداء اذا كان فوات الأداء من غير هذين العذرين ،ويكون القضاء واجبا في هذين العذرين ولا يكون واجبا في غيرهما ٠

بل ان التوبة تكون هي الرافعة للاثم ، والقضاء لا يغني عنها ، وذلك لأن فوات الوقت وترك الصلاة من غير عذر لا يسقط وجوب أدائها ، فلا يغنيه فتيلا القضاء بعد ذلك ، لأن الصلاة ليست نقدأ يكون في مقابل نقد ،انما الصلاة شرعت تهذيبا للنفوس في مواقيتها ، فهي عبادة مقصودة في أوقاتها لتجلو صدأ القلوب في الصباح ، وصدأها في الظهيرة ، وفي الأصيل وفي العشية ، كما قال تعالى :

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ (١)

فالصلاة في أوقاتها مطلوبة في ذاتها وفي الوقت تطهيرا للنفس ، وازالة لصدئها ، ولا تترك حتى يعلوها الصدأ ويتراكم فلا يزال ، ولا يصلح ذلك الاثم الا التوبة ٠

ونحن نرى أنه لابد من التوبة وقد يجدي القضاء مع التوبة ، والله تعالى غفار لمن تاب وآمن ، ثم اهتدى ٠

---

(١) الروم

٥٥٤ ــ جاء في تاريخ الحافظ بن كثير « وقد تكلم الناس في الحديث الوارد في الصحيحين عن طريق الزهري عن عبد الله والحسن ابني محمد ابن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر ، وعن لحوم الحمر الأهلية هذا لفظ الصحيحين عن طريق مالك وغيره عن الزهري ، وهو يقتضي تحريم نكاح المتعة يوم خيبر ، وهو مشكل في وجهين : أحدهما : أن يوم خيبر لم يكن ثم نساء يستمتعون بهن ،اذ قد حصل الاستغناء ، بالسبايا عن نكاح المتعة ، الثاني : أنه قد ثبت في صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة عن معبد عن أبيه أن رسول الله أذن لهم في المتعة زمن الفتح ، ثم لم يخرج من مكة حتى نهى عنها ، وقال : « ان الله تعالى حرمها الى يوم القيامة » ، فعلى هذا يكون قد نهى عنها ، ثم أذن فيها ثم حرمت فيلزم النسخ مرتين ، وهو بعيد، ومع هذا فقد نص الشافعي على أنه لا يعلم شيئاً أبيح ثم حرم ، غير نكاح المتعة ، وما حداه الى هذا الا الاعتماد على هذين الحدثين » .

ان هذا الذي ساقه الحافظ ابن كثير يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن المتعة في خيبر ، وماأقامه من اشكال لا يرد الحديث الصحيح الذي أجمع عليه الشيخان .

فالاشكال الذي ساقه بتوافر السبايا في خيبر يدل على النهي ويؤكده ، ولا ينقضه ، لأنه حيث توافرت السبايا لا يكون شكوى من العزوبة فلا يكون للمتعة موضع ، فلا يكون اذن ،فهو موثق للتحريم وليس بناقض له .

أما الاشكال الثاني : فقد رده هو بتكرار الاذن ، ثم تكرار النهي ،وكونه بعيداً في نظره يرد كلام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، واذا كان بعيداً ، فانا نرجح حديثاً أجمع عليه الشيخان على حديث انفرد به أحدهما .

ومهما يكن ما ارتآه الحافظ ابن كثير من مشاكل حول حديث الشيخين ، فانه من المؤكد أنه كان ثمة نهي عن المتعة في خيبر ، سواء أجاء اذن بعد لك ، ثم نهي أم لم يجيء .

٥٥٥ ـ وجد في هذه الأيام ناس في مصر لا حريجة تدفعهم ولا دراسة تمنعهم ، يدعون الى المتعة ، فعلينا أن نذكر حقيقتها ، كما هي عند الذين يدعون اليها ، ومن حقيقتها يتبين أهي متفقة مع المبادىء الشرعية المقررة في الزواج ، أو هي مبادىء علمت من الدين بالضرورة ٠

وقد عرفها العلماء بأنها اتفاق بين رجل وامرأة بحضرة شهود على أن يعاشرها مدة معلومة ، على مهر ، أو أجرة معلومة . وقال صديق خان في كتابه سبل السلام لا تتجاوز مدتها خمسة وأربعين يوماً ، ولكن المشهور أنها تصح بأكثر من هذه المدة ٠

واذا أخلت المرأة بتسليم نفسها جزءاً من المدة نقص من الأجرة ما يقابلها ، فهي اجارة لبضع المرأة كاجارتها للرضاعة ٠

وتختص بالأحكام الآتية :

١ ـ لا توارث فيها ، فاذا مات أحد الطرفين لا يرثه الآخر ، لأن الميراث ثبت بين الزوجين وهما ليسا زوجين باتفاق الفقهاء ٠

٢ ـ لا يقع فيها طلاق ولا ظهار ولا ايلاء ولا غير ذلك مما هو من أحكام انهاء الزواج ، ولكن ينتهي الأمر فيها بانتهاء المدة ٠

٣ ـ أن العدة فيها حيضتان لا تزيدان عن خمسة وأربعين يوماً ، أو بأقل الأجلين ٠

٤ ـ أنه ليس فيها عدة وفاة ، لأنها خاصة بالأزواج ، بل العدة هي حيضتان ، وأخيراً هي عند الذين أباحوها من الشيعة ليست من الزواج في شيء مطلقاً ، فتلك الأحكام التي ذكرناها منقولة من كتبهم ، منها أخذناها ، وفيها نردها ٠

وان الأحكام التي يقررها لها الشيعة الامامية التي أجازوها تنبه لا محالة الى أنها ليست زواجا ، وليس لها أحكام ، وهي من قبل اتخاذ الخلائل كما يعبر الأوربيون ، وكما هي لغة الفساق في هذا العصر ، أو بتعبير هي

من قبيل اتخاذ الأخدان المنهي عنه في القرآن نهياً أبدياً قاطعا ، اذ لا يحل في العلاقة بين الرجل والمرأة الا الزواج ، الذي يكون ما عداه امتهاناً للمرأة اذ تتخذ متاعاً ، لقضاء لبانة الرجل يذوقها ، ثم يرميها ، ويستأجرها مستمتعاً بأجر ، ولقد قال تعالى مبيناً أن الفروج لا تحل الا بالزواج ، أو بملك الايمان ، فقال تعالى في وصف المؤمنين :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ﴾ (١)

فهذا النص قاطع في أنه لا تباح الفروج الا بالزواج ، أو ملك اليمين ، وأن من ابتغى وراء الزواج أو ملك اليمين فهو عاد أثيم ، فالذي يتخذ المتعة في الفروج عاد أثيم ٠

ولقد نهى القرآن الكريم نهياً قاطعاً عن اتخاذ الأخدان ، وليست المتعة الا من قبيل اتخاذ الأخدان أو اتخاذ الخلائل ، كما ذكرنا فتحريمها ثابت بنص قرآني ، اذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ (٢)

أي أحل لكم الزواج غير تلكم المحرمات السابقات :

﴿ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ (٤)

---

(١) المؤمنون (٢)،(٣) النساء (٤) المائدة

فاتخاذ الأخدان حرام بهذا النص ،ويقول تعالى في شأن زواج الاماء ،

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ ﴾ (١)

وينهى عن اتخاذ الأخدان عند بيان حل النساء الكتابيات • فيقول سبحانه:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ ﴾ (٢)

واتخاذ الأخدان أو اتخاذ الخلائل، الذي هو اتفاق مع امرأة على أن يتعاشرا من غير زواج مدة معلومة بأجر ، فاذا انتهت المدة افترقا ، هو والمتعة شيء واحد •

٥٥٦ ــ لم يرد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذن بالمتعة صريح قط ، انما الذي ورد فيها نهي صريح عنها وفهم الذين فهموا الاذن بها من النهي عنها ، لأن النهي يجب أن يكون له موضوع ، ولا موضوع للنهي في المتعة الا اذا كان اذن بها •

ولقد اتفق العلماء على أن أول نهي عنها كان في خيبر ، ثم تتابع النهي

(١) النساء (٢) المائدة

بعد ذلك في خمسة مواضع أخرى فنهى عنها في عمرة القضاء ، وفي غـــزوة تبوك ، وغزوة فتح مكة ، وعام الفتح،وفي حجة الوداع ، ولولا تضافر الأخبار بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قدأذن بها لقلنا ان ذلك التكـــرار كان لتأكيد المنع ، اذ كانت عادة عميقة فيالجاهلية ، فكان التأكيد لقلع جذورها من نفوسهم ، ولــكن تكاثرت الأخبار بالفعل قبل الاذن ، فتقبل الأمـــرين الاذن من غير اباحة مطلقة،بل بضرورةالفردية الشديدة في الحرب ، والأمـر الثاني النهي القاطع في تحـريمها الىيوم القيامة ، ويصح أن نقول ان النهي في أوله كان لمن أذن قبله ، والنهي من بعد ذلك كان نهياً ناسخاً الى يوم القيامة٠

وفوق ذلك بيان التحريم القاطع فيالقرآن الذي لا اذن فيه قط ، وهـــو العزيمة التي لا رخصة فيها ، ولا مظنةلرخصة قط ٠

٥٥٧ ــ فلننظر بعد ذلك في أمرها ، لقد أجمع فقهاء السنة جميعاً أنها محرمة تحريماً أبدياً الى يوم القيامة ،وقد روي أن عبد الله ين عباس رضي الله عنهما كان يترخص فيها للضرورةفي حال الحرب ، وهي التي قيـــل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أذن بهالشدة العزوبة في بعض حروبه ، واذ كان لم يعرف أنه أذن بذلك في حربمعينة ، ولقد نهاه علي كرم الله وجهه عن أن يفتي بهذه الرخصة ، وبين لهأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عنها ، وقال مخاطباً ابن عباس :« انك امرؤ تائه ، لقد نسخهـا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم » « والله لا أوتى بمستمتعين الا رجمتهما » ٠

ويروى أن عبد الله بن عباس رضيالله تعالى عنهما قد رجع عن ترخصه ، وأفتى بالمنع ٠

ولم يقل أحد قط من علماء الجماعةانها مباحة لضرورة الشباب الذي يتعذر عليهم الزواج ، فتلك فرية من رجـــللا يتحرج في قول ، ولا يتعمق في علم، ولا يهتم بحرام ولا حلال ٠

بقي أن ننظر في الشيعة الاماميــةفنقول اننا نرى المتأخرين منهم يفتون بها ، ولا نرى الأئمة أو الأوصياء قالوها ، وان وجد من ادعاها لهم ٠

وتنقل تلك المصادر الفقهية الشيعيةالتي تنفي عن أئمة الشيعة المهـديين وعلى رأسهم الامام أبي عبد الله جعفرالصادق ، وأبيه العظيم أبي جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين ٠

فقد روى أن بساما الصيرفي سأل أبا عبد الله جعفر الصادق عن المتعة، فقال رضي الله تبارك وتعالى عنه: انهاالزنى.

ولقد جاء في الكافي عن يحيى بن زيد فقيه العراق أنه قال أجمع آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على كراهة المتعة والنهي عنها.

ولقد روى البيهقي عن ابن شهاب الزهري أنه قال ان ابن عباس رضي الله عنهما ما مات حتى رجع عن هذه الفتيا، ولقد قال سعيد بن جبير لابن العباس ما تقول في المتعة، فقد أكثر الناس فيها، وأنه نقل عنك الفتوى بجوازها، فقال ابن عباس، والله ما أفتيت بهذا، والا فهي كالميتة لا تحل الا للضرورة ونحن لا نجد أي ضرورة تبيحها حتى يكون أقرها عند الاضطرار كالميتة، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد صرح بأنه لا ضرورة عند الشباب تلجئهم الى ذلك كما يدعي من لا جريحة للدين في قلبه، فقد قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فانه له وجاء» وما دام باب الصوم مفتوحاً فانه لا ضرورة تسوغ المتعة، أو ترخص فيها.

وان فقهاء الشيعة الامامية الذين جاؤوا بعد عصر أئمة الشيعة ادعوا أنه لا نسخ فيها واستدلوا على بقائها بما يأتي:

ـ أولا ـ انه ثبت الاذن بها بالاجماع، فقد أجمع المسلمون على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أذن بها، وان الأدلة التي ثبت فيها النسخ أخبار آحاد، وهي لا تنقض الأمر المجمع عليه وقد روي عن ابن مسعود أنه أفتى بها، وفي الصحيحين أنه قال رخص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنا أن ننكح المرأة الى أجل بالشيء، ثم قرأ قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) المائدة

وان عبارات النسخ التي وردت في أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انما هي منصبة على الميراث والطلاق .

ثانيا ـ قالوا ان قوله تعالى :

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

تدل على اباحتها ، وقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢)

وان هذا الكلام غير صحيح في جملته وتفصيله ، وهو جاء بعد عهد الأئمة والأوصياء ، وهو باطل من وجوه :

اولها ـ أن الآية التي ساقوها ، هي في بيان أحكام النكاح الصحيح المرتب لآثاره ، ولم يكن موضوعها المتعة ، انما موضوعها النكاح ، لأنها بيان لنهاية المحرمات ، اذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ ﴾ (٣)

---

(١) النساء (٢) المائدة (٣) النساء

فالاستمتاع هو استمتاع الزوجين ،يعرف هذا المدلول من له أدنى المـــام بالعربية وفوق ذلك ، فانه سبحانه قال بعد ذلك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (١)

وبدليل قوله تعالى في النص الكريم:

﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ (٢)

ولا شك أن المتعة لا توجب احصانا يوجب الرجم ٠

وثانيها ــ أن الاجماع لم ينعقد على اباحتها ، والتعبير باباحتها خطأ ، فلم يقل المحققون بأنها كانت مباحة انمـــا أذن فيها ، كما أذن بأكل الميتة ، فان الاباحة تكون لأمر ذاتي في الفعـــل ،أما الاذن فانه يكون لضرورة ســوغت الاذن ، واذا عبر بعض الأئمة بالاباحة فمن قبيل التسامح في التعبير ٠

وان العلماء من بعد نهي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجمعوا عـــلى نسخها فلا موضع للقول بالاجماع ، واذا كان قد أثر عن ابن عباس أنه أذن بها في حال الضرورة الحربية فقط ،فقد روي أنه رجـــع عن رأيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

ولقد قالوا (أي بعد عصر الأئمـــة والأوصياء عندهم) ان الاجماع انعقد على اباحتها بين الشيعة والسنة وانفرد أهل السنة بالنسخ ، ونقول لهـــم ان الأدلة التي أذنت بها هي التي نسختها، فلا يقال اجماع على الاذن ، وعـــدم اجماع على النســـخ ، فالأدلة ملزمـــة في الأمرين ٠

وثالثها ــ أن ثبوت النسخ لم يكن بخبر آحاد ، بل لأنها في ذاتها محـــرمة

---

(١)، (٢) النساء

كالميتة والخنزير والدم المسفوح ، وماأهل لغير الله به ، وذلك ثابت بالقرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞﴾ (١)

قاطعة في اثبات التحريم ، لأنه من المؤكد المتفق عليه أن علاقة المتعة ليست علاقة زوجية ، فهي لا تعدزوجة بدليل أنه لا يجري فيها طلاق ولا ميراث ، ولا عدة زوجية ، لا فيحال الموت ولا في حال الانفصال ٠

والنهي عن اتخاذ الأخدان المتكرريدل على تحريمها لأنها ليست الا كذلك. والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندماأذن بها كان لضرورة ، في مخالفة المحرم تحريما قاطعا كمبدأ عام ، وقدقال العلماء في ذلك قاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » ٠

وقد نسخ الاذن في حال الضرورةفي حال الحرب ضرورة لما استأنس الناس بالاسلام ، وأشربوا حبه وعودواالصبر وضبط النفس بالايمان ٠

وفي الحق أن المتعة من بقايا الجاهلية وهي كما قررنا من نوع اتخاذ الأخدان فلما كان المؤمنون قريبي عهدبالجاهلية عد النبي ذلك ضرورة لهم في الحرب ، فأذن بها للذين لا يزالونفي نفوسهم بعض العادات الجاهلية ، ولذلك لم يؤثر عن أحد من المؤمنينالراسخين أنه استساغها كابي بكر وعمر وعلي وأحد من المهاجرين الأولين والأنصار والسابقين وهم كانوا يحضرون كل حروب النبي صلى الله تعالى عليهوسلم مجاهدين ، وكان فيهم شباب أقوياء في أبدانهم كعلي بن أبي طالبوالجميع كانوا أقوياء ولعل الذين شكوا العزوبة من الأعراب أو ممن لا قدملهم في الاسلام فالنهي عنها ثابت بالقرآن ونسخ الاذن للضرورة ثابت بالسنة ، ونقول متحدين أأباحها أحد في حال السلم والاقامة حتى تبيحوهامعشر الشيعة في الحل والترحال والسلم والحرب في السفر والحضر ويجيء منلا حرمة للحقائق عنده لتبليغ ،كلامهم لأنه يبيح المحرمات ، ولا حول ولاقوة الا بالله ٠

---

(١) المؤمنون .

ورابعها ــ أن ادعاء أن الحديث الناسخ خبر آحاد ، ادعاء باطل ، وذلك لأمرين :

أولهما ــ أنه قاله في جيش فتلقاه أكثر من خمسة وألف ، فمستحيل أن يكون ناقله واحــداً ، بل الذي نقله يؤمن تواطؤه على الكذب ، ونقله هذا الجمع الى الأمة كلها ، ففرض الآحادية باطل لا شك في ذلك .

ثانيهما ــ أن الأمة كلها أجمعت على ذلك ورمى علي كرم الله وجهه وهـو الوصي الأول عندهم ابن عباس فقــال له انك امرؤ تائه ، ولقــد كان ابن عباس في وقت قول هذا الاذن غلاماً ،وكان في مكة ، لم يهاجــر أبوه الى المدينة ، ولذلك كان الوصف بأنه تائه،وصف صحيح من امام الهدى علي .

ونكرر القول هنا بأن أئمة الشيعة، أو الأوصياء في لغتهم لم ينقل عن أحد منهم .

ولنختم الكلام في المتعة التي هي أمر فاسد في ذاته بكلمتين :

أولاهما ــ أن المتعة بحكم القــرآن حــرام ، واذا لــم نلتفت الى النص القرآني (ولا يصح ذلك) لا تكــون مباحة . لأن ما يكون معمــولا به في الجاهلية ويحرمه الاسلام ، لا يقال انه كان مباحاً ، ثم حــرم ، لأن الاباحة تقتضي أنه لم يكن ذاته قبيحاً ، وهو كذلك ، بل يقال انه قبل التحريم كان محل عفو ، وكذلك كان التعبير فيمــا يحــرمه ، وقد كان أهــل الجاهلية يستبيحونه « عفا الله عما سلف » .

الثانية ــ نذكر ما يشترطه الشيعة في شروط صحة المتعة مما ينأى بهــا عن معنى الزواج من كل الوجوه ،لقد ذكروا لها شروطاً وركنا .

أما الركن فهو الايجاب ، والقبول،وأما الشروط فهي ثلاثة :

أولها ــ ذكر المهر ، وهو الأجرة ،فاذا لم يذكر الأجر تفسد المتعــة ، كالاجارة اذا لم تذكر الأجرة لا تنعقد الاجارة ، فهي في حقيقتها اجارة المرأة للمتعة كاجارتها للخدمة على سواء .

والشرط الثاني ــ ذكر الأجل أو المدة،وذلك لابد منه في الاجارة الخاصة بالأجير الوحد أو الأجير الخاص ، بيد أن ذلك شرط في الأجير الوحــد اذا

كانت الاجارة لمدة معلومة ولم تطلق من غير زمان كأن يستأجره لغير مدة على أن تكون الأجرة كل يوم ، أو كل أسبوع كذا ، أو كل شهر ، والاجارة في المتعة أخص من ذلك ، لأن الأجرة فيها على مجموع المدة ٠

ثالثها ـ ويشترط لكي تستحق المرأة الأجرة كاملة أن تمكنه منها طول المدة ، فاذا لم تقدم نفسها فترة من المدة المتفق عليها ، فانه ينقص من الأجرة بمقدارها ، ومثلها في ذلك من استأجر دارا ليسكنها ، فتعذر الانتفاع بالسكن فيها مدة ، فانه ينقص من الأجرة ما يقابل الفترة التي تعذر الانتفاع ٠

وقالوا في أحكامها أن الولد الذي يجيء ثمرتها يثبت نسبه ، ولكنه يقبل النفي ، فاذا نفى النسب انتفى من غير لعان ، وبذلك يكثر الأولاد الذين لا آباء لهم ، اذ لا يوجد من يلحق نسبهم به ، ولا حاجة الى لعان في نفي نسب اذ اللعان في حال قيام الزوجية ولا زوجية ٠

وقد ذكرنا أن الانفصال فيها يتم بانتهاء المدة ، كما تنتهي المدة بانتهاء مدة الاجارة تماما اذا كانت الاجارة الخاصة مقدرة بمدة معلومة ، فهي اجارة لبضع المرأة ، فحكمها كسائر الاجارات وأيضا لا توارث بينهما ، وعدتها استبراء الرحم بحيضتين بحيث لا تزيد عن خمسة وأربعين يوما ٠

أيها الناس هي المتعة ، أو بعبارة أدق اجارة بضع المرأة لمدة معلومة فهل هي صالحة للتطبيق في عصرنا ان فرضنا صحتها ، وهو مستحيل ، انها لا تليق بكرامة المرأة ، بل فيها أشد الامتهان لها ، والنزول بها الى مرتبة الخادم التي تستأجر ، في شرفها وهي دون المرضع ، ثم هي تكثر الأولاد غير الشرعيين ٠

فكروا أيها الناس ان كان ثمة موضع للتفكير ٠

أنها الزنى كما قال الامام محمد الباقر ، وابنه أبو عبد الله جعفر الصادق٠

فهل مع هذه الأضرار الاجتماعية الخطيرة ، نبيحها بغير اباحة الشرع لشبابنا ، الذين لم يتزوجوا ، ونقضي على الأسرة ، ولا نقول لشبابنا ما قاله الرسول الأمين الذي يدعو الى الفضيلة، اذ قال صلى الله تعالى عليه وسلم :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فأنه أحصن للفرج ، وأغض للبصر ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ·

أيها الناس أطيعوا الله ورسوله ولا تستمعوا الى المتفيهقين المتعالين في هذا الزمان ، والله سبحانه وتعالى هو الهادي الى سواء السبيل ·

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾(1)

---

(1) آل عمران

٥٥٨ ـ ثبت أن تحريم ربا البيوع كان في غزوة خيبر ، أو أن تطبيقه كان واضحا في غزوة خيبر ، وربما كان تحريمه قبل ذلك ، ولكنا نرى أول تطبيق كان في غزوة خيبر أو مقترنا في الزمان بها ، فحق علينا أن نذكره ونحن نتكلم فيها ، كما تكلمنا فيما تنبهنا له ، من الأحكام العملية التكليفية التي ظهرت في أثناء الغزوات التي ذكرناها من قبل .

وقبل أن نخوض في بيان ما ذكر في تحريم ربا البيوع في غزوة خيبر ، نقول :

ان كلمة ربا في الأحكام الشرعية تطلق باطلاقين ، أحدهما لغوي ، والثاني عرفي اسلامي اصطلاحي فقهي والقسمان متمايزان مختلفان .

فالقسم الأول : اللغوي هو ربا الجاهلية وهو ربا الديون بأن يقرض دينا، ويزيد في الدين كلما زاد الأجل فالزيادة تكون في نظير الأجل ، وهذه الزيادة هي الربا ، وهو الذي نزلت الآيات القرآنية بتحريمه في مثل قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ﴾(١)

الى قوله تعالى :

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾(٢)

---

(١) (٢) البقرة

والتحريم في هذا النوع من الربا عام ، سواء أكان القرض للاستهلاك أو الاستغلال ، ومن يفرق بينهم يفسرالأحكام القرآنية كما يهوى ، لا كما تدل عليه •

القسم الثاني : ربا البيوع ، وهو ربا لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماه ربا ، فهو حقيقة عرفية ، وقد جاء فيه الحديث الشريف « الذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد ، والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد والبر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلا بمثل يدا بيد ، والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد فمن زاد أو استزاد ،فقد أربى » •

ونرى من هذا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماه ربا فهو ربا ، وقد طبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك النوع من الربا في غزوة خيبر ، فحق لنا أن نتكلم ببعض القول فيه •

فقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام : قال ابن اسحاق حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط أنه حدثه ابن الصامت قال نهانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم خيبر عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين ، وتبر الفضة بالورق العين وقال ابتاعوا تبرالذهب بالورق العين ، وتبر الفضة بالذهب العين •

وان معنى الحديث أن يباع الذهب بالذهب مثلا بمثل ، والفضة بالفضة مثلا بمثل فان تعذرت المماثلة بين التبر، والذهب العين ، فانه لا يصح البيع ، بل يجب أن يتخالف الجنس فيباع تبر الذهب بالفضة ، وتبر الفضة بالذهب لأن المماثلة في هذه الحال غير واجبة •

ولقد جاء بعد ذلك الحديث السابق وهو أعم من الذهب والفضة وجاء بعد ذلك في أحاديث أخرى التمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد اي اشتراط القبض في الحال ثابت ، ولا يصح التأجيل وان الرديء لا يضاعف في سبيل الجيد من هذه الأصناف ، وقد ثبت في غزوة خيبر ، فقد جاء في تاريخ الحافظ ابن كثير ان البخاري روى عن أبي سعيدالخدري وابي هريرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاء بتمر جنيب ، فقال عليه الصلاة والسلام ، أكل تمر خيبر هكذا؟فقال ، لا والله يا رسول الله انا لنأخذ

الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تفعل هذا ، بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا ·

وان هذا الحديث الصحيح يدل على أمور ثلاثة :

اولا : أن تطبيق ربا البيوع كان في خيبر ، ولعله كان ابتداء تحريمها ·

وثانيها : أن الجنيب بلح جيد ، وأن غيره دونه ، ولذلك كانوا يلاحظون هذه التفرقة عند المبايعة ، فالجنيب يبادل بضعفه ، أو الاثنين بثلاثة ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن البيع بغير المماثلة في التمر والبر والشعير والذهب والفضة ، والملح ، والزيت في بعض الروايات ، وغيرها من المطعومات ·

ثالثها : الطريق في التعامل بهذه الأشياء التي لا يصح البيع فيها الا بالتماثل في الكيل أو الوزن عند اختلافها في الجودة ، قد بينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبيع الرديء ، ويشتري بثمنه جيداً وهذا الحديث الذي جاء في خيبر روى في معناه أن رجلا جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : عندي بسر وأريد رطباً ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بع البسر ، واشتر رطباً ·

وهذه الفتوى النبوية فيها فائدة لمن عنده بسر ، وفائدة لغيره ، ففائدة صاحب البسر أنه استبدل به رطباً ، وهو ما يشبهه ، وفائدة المشتري أنه أخذ البسر ، وربما يبتغيه ، وهناك فائدة لثالث ، وهو أن يأكل من ليس عنده بسر ، ولا رطب ، فلا يحرم من البلح حرماناً كاملا ·

وقبل أن نترك هذا الخبر الذي جاء تطبيقه في غزوة خيبر لابد من التعرض بالاجمال لموضوعين : أحدهما حكمة التحريم ، والثاني العلة القياسية التي يمكن أن يطبق فيه النص على غير هذه الأنواع من المبيعات ·

٥٥٩ ــ ان هذه الأشياء التي ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيعها الا بما يماثلها كيلا أو وزنا ، كالقمح والشعير ، والملح ، والذهب والفضة ،

هي من الضروريات للحياة ، ومنع بيعها الا بمثلها ، وأن تكون مقبوضة يدا بيد ، انما المنع لكيلا يكون التبادل محصوراً في المالكين لها فقط ، فانه اذا ساغ بيع البر بالبر ملاحظا فيه أن الجيد يكون في مقابل ضعف الرديء وكذلك الشعير والتمر والملح ، فان التبادل فيها يكون مقصوراً على الذين يملكونها دون غيرها ، وقد يؤدي ذلك الى أن يحرم منها من لا ينتجونها ولا يملكونها، وان ذلك قد يؤدي الى احتجازها ، عمن لا يملكون وهم مضطرون اليها ،فيكون توزيع الانتاج بين الناس بالعدل والقسطاس المستقيم ٠

وان ذلك يمنع الاحتكار أو يسد ذرائعه ، وتكون الأقوات متوافرة لدى الناس ، اذ ان ملاكها يكونون مضطرين لأن يبيعوها ، ولا يختزنوها طلبا لحاجاتهم ٠

وان النقدين الذهب والفضة ، كانا ولا يزال الذهب مقياس قيم الأشياء، وبهما تقوم المنافع في الثمرات والأثواب والأقوات ، واذا اتخذ المقياس النقدي موضعاً للاتجار اضطربت الموازين ، واختلت المقاييس ، وكانت الاضطرابات الاقتصادية ، وحسبك ما تراه الآن وقت أن تحلل الناس من الذهب ، واستبدلوا بها النقد الورقي،وقد اضطربت فيه العلاقات الاقتصادية، وصعب التعامل من ضعف بعض الأوراق وقوتها مما صعب الاتجار ، وتعذر جلب الأرزاق في أرض من أرض الله ،وتكدسها في أرض أخرى ولقد أدعى بعض الكتاب من الأوربيين أن حديث الذهب بالذهب مثلا بمثل يدأ بيد ، والفضة والبر والشعير ، وغيرها من المطعومات قد وضعه اليهود على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليبعدوا العرب عن الاتجار ، وتبقى التجارة في أيديهم ٠

وذلك كلام لا تبرره الحقائق ، للوجوه الآتية :

أولها ــ أن حديث بيوع الربا روته كل الصحاح ، حتى كاد يخرج عن حد أحاديث الأحاديث الى ما يقرب من المتواتر ، ومن المؤكد أنه مستفيض مشهور تلقته الأمة كلها بالقبول ، والأحاديث المكذوبة لا يمكن أن يكون لها ذلك الوصف من الاستفاضة والشهرة٠

ثانيها ـ أن هذا الحديث ثبت أنه طبق في خيبر ، وروى البخاري وغيره تطبيقه في خيبر ، وذلك في الوقت الذي دكت فيه حصون اليهود دكا ، ولم يكن لهم قوة ، ولم يكن لهم أمل الا أن يكونوا زارعين يحرثون ويغرسون ، ويصلحون النخيل ، وسائر الأشجار ولم يكن لهم قوة يستطيعون بها الاتجار بل كانوا نتيجة الحرب أذلاء مستضعفين ، وقد كانوا يريدون غير ذلك ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ٠

ثالثها ـ أن اليهود المقيمين في ظل الدولة الاسلامية في أحكام العقود وشروط صحتها كالمسلمين ، فلا يمكن أن يخالفوها ، وهي مطبقة عليهم ، وعلى المؤمنين على سواء ، عملا بالقاعدة الاسلامية العادلة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ٠

٥٦٠ ـ هذه هي الحكمة ، وهي المصلحة الاجتماعية والانسانية في بطلان البيع الا مثلا بمثل يدا بيد وان هذه الأموال التي ذكرت تحريم الفاضل فيها معلولة ، أي أن الحكم يشتمل على هذه الأشياء المذكورة ، وعلى غيرها مما يكون في معناها ، كالزيوت والذرة وغيرها مما يتحقق فيه معناها الذي اعتبر سببا للتحريم ، أو علة له ٠

والفرق بين العلة والحكمة أن الحكمة هي المصلحة الثابتة التي تكون وصفا مناسبا للحكم ، وغاية له يتعرفها المكلف مما احتوى عليه الأمر التكليفي٠

والعلة هي الوصف المنضبط الذي يتحقق في الأمر الذي جاء به التكليف ، وكانت الحكمة متحققة فيه غالبا ، فالفرق بينهما هو الانضباط ، وأن العلة تكون وعاء للمصلحة التي هي العلة ٠

وقد اتفق الفقهاء الذين يقيسون الأمور غير المنصوص على حكمها على الأمور المنصوص على حكمها ، اتفقوا على الحديث الشريف الوارد في تحريم الأصناف المذكورة ، والمروية بروايات مختلفة معلل المعنى وليس نصا تعبديا مقصورا على موضعه ، وكذلك كل الأمور المتعلقة بمعاملات الناس ،

فالنصوص معللة أي تثبت في كل موضع تثبت فيه العلة وقد اتفق الفقهاء على أن علة التحريم في النقدين الذهب والفضة بألا بيع فيها الا بالمثل يداً بيد هو الثمنية ، وكونها ميزانا لقياس قيم الأشياء ، ومقدار ما فيها من نفع يشبع حاجات الناس ، فكل ما يتحقق فيه الثمنية يجري فيه حكم الذهب والفضة.

وكان الاختلاف بين فقهاء القياس في علة التحريم في غيرهما ، فقال أبو حنيفة وأصحابه علة التحريم اتحاد التقدير بالكيل أو الوزن واتحاد الجنس، فالذرة بالذرة مثلا بمثل يداً بيد ،لاتحاد الكيل واتحاد الجنس ، وكذلك الزيت بالزيت ، وحينئذ يحرم التفاضل، ويحرم تأجيل أحد العوضين ، وكل ذلك في الأمور التي يقر العرف التفاوت فيه ، أما ما لا يقر العرف التفاوت كالحديد ونحوه ، فان التفاضل والتأجيل يجوز .

فابو حنيفة رأى أن تكون العلة أمراً مادياً ظاهريا يصلح أن يكون جامعا بين الأمرين ، والشافعي نظر في غير الأثمان الى كونه مطعوما ، فجعل العلة في منع التفاضل كونه مطعوما ، اذ التفاضل فيه يؤدي الى أن تحتكر الأطعمة في يد منتجيها أو المستولين عليها ، لأنه اذ جرى فيه التفاضل في التعامل بها ، بأن يبيع البر الرديء بضعف البر الجيد ، كان التعامل بين المالكين للبر ولا يأخذه من ليس عنده بر قط ، وانه اذا امتنع التفاضل في مبادلة الجيد بالرديء ، كان لابد أن يأكل من ليس عنده جيد من البر ولا رديء ، فانه يلزم حينئذ أن يبيع الرديء ليشتري جيداً أو العكس ، فيقع الطعام في يد المحروم .

وانه ان اتحد الجنس منع التأجيل،ومنعت الزيادة ، ويسمى التأجيل ربا النساء ، ويسمى التفاضل ربا الفضل،هذا ما قاله الشافعي ، وهو يتحد مع الحنفية في أن سبب منع التفاضل والتأجيل في النقدين الذهب والفضة هو الثمنية ، وأنها مقاييس القيم والمالية في الأموال ، فلا يصح أن تكون سلعة تباع وتشترى ويجري فيها الاتجار ،والا اضطرب الميزان ، كما نرى الآن في الأوراق النقدية ، وما يترتب على علوها وانخفاضها من اضطراب اقتصادي .

وقالت طائفة من حذاق المالكية ، ان العلة في التحريم في الأمور المنصوص على تحريم التفاضل والتأجيل فيها هي الطعم والادخار ، بأن تكون من المطعومات ، وأن تكون قابلة للادخار ، فتكون من الأطعمة التي لا يفسدها الادخار كالبر والشعير والتمر ، والملح ، وما يشبهها من الأطعمة ، كالفواكه المجففة التي تدخر ، كالزبيب ونحوه .

وذلك لأن كونها من الأطعمة ، وقابلة للتخزين يؤدي للاحتكار الأثيم ، والاحتكار من أسباب الأزمات ويزيدها حدة .

قبل أن نترك الكلام في الربا الذي اقترن تحريمه بغزوة خيبر ، فنزل في ابانها ، وهو ربا البيوع ، لابد أن نذكر أمورا ثلاثة هي توجيه الأنظار الى الوقائع ، وما يقترن بها ، وما يجري حولها .

أول هذه التنبيهات — هو الاجابة عما يجول في النفس لماذا كان تحريم ربا البيوع في خيبر ، وتلك الاجابة أن فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي ، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري كثيراً في يثرب .

وثانيها — تحريم البيوع التي تؤدي الى الاحتكار في الأطعمة ، وقد حرمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تحريما قاطعا ، فجعل أموالا معينة غير خاضعة للاتجار المطلق ، لأن باب التجارة انفتح بغزوة خيبر ، فكان لابد من جعله في اطار لا يؤدي الى الاحتكار .

الأمر الثاني — أن الربا القوي وهو ربا الديون أو ربا الجاهلية حرام لا شك فيه لا يسع مسلما أن ينكره ، أما ربا البيوع فلم يثبت الا بالأحاديث الواردة فيه ، وهي أحاديث لا تثبت قطعيا ويقينا ، ولكن تثبت العمل .

ولقد كان ابن عباس رضي الله تعالى عنه ينكر ربا البيوع ، ويقول انه لم يثبت ، وكان يقول مسندا لقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انما الربا النسيئة ، وهو ربا الجاهلية » ، ولقد سئل الامام أحمد بن حنبل :

ما الربا الذي لا يسع مسلما أن يجهله،فقال أن يعطى الرجل دينا ويزيده في الأجل في نظير الزيادة في الدين ، وانمن ينكر أمراً علم من الدين بالضرورة يكون خارجا عن الاسلام ٠

الأمر الثالث ــ أنه مع الأسف أنكثيرين ممن كتبوا في الربا ، وحللوا وحرموا بغير ما أنزل الله ، ومنهم من بلغـــوا مناصب تجعلهم مسئولين عن أقوالهم أمام الله وأمام النـــاس ، منخلطوا بين ربا البيوع ، وربا الجاهلية الذي ثبت بالقرآن،فضل عنهم فهم الربا، وضلوا في أنفسهم ، وأضلوا الناس ضلالا بعيدا ، ولم يكن جهلهم لضرورة يمذرون فيها ، بل كانت بين أيديهـم أسباب العلم ، فتركوها ليتملقوا بمـــا يرضي الناس ولا يرضي الله ٠

٥٦١ ـ كان اول تطبيق للجزية في تيماء التي كان فتحها بعد خيبر ، فقد جاء في الصحيح أنها فرضت فيها الجزية على أهلها ، فكان على أهلها جزية الرؤوس ، وعلى أرضها الخراج وهي جزية الأرض ، والجزية فرضت بنص القرآن اذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾(١)

أي خاضعون للحكم الاسلامي غير متمردين بل مندمجون، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، وان قتال خيبر ووادي القرى ، واستسلام تيماء، كان من قتال أهل الكتاب ، وقد بين الغاية وهي أن يسلموا أو يستسلموا، وفي الحال الأخيرة يدفعون الجزية عن يد ، وهم خاضعون ، طائعون وانه يظهر اول جزية فرضت كانت في تيماء ٠

وقبل أن نذكر ما عمله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الجزية ،نقول انها ليست للاذلال ، كما أخذ بعض الناس من ظاهر لفظ وهم صاغرون ، انما هي لأمرين :

اولهما ـ اظهار الطاعة للحاكم المسلم ، وامام المسلمين غير مضارين في دينهم ، ولا مغيرين لعقائدهم ومبادئهم الدينية ، ولا مرهقين في أمرها ٠

ثانيهما ـ أنها تكون في مقابل ما يفرض على المسلمين من فرائض مالية ليسهموا بها في بناء المجتمع الاسلامي، فالمسلم يفرض عليه بحكم الاسلام أداء الزكاة ، والدولة هي التي تجمعها، وتفرقها على الفقراء والمساكين والعاملين

(١) البقرة

عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ،والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، وفي سبيل الله تعالى يشمل الجهاد ،وكل المصالح والمرافق العامة للدولة ٠

وعلى المسلم كذلك زكاة الفطر ، وكفارات النذور والايمان والقتل الخطأ ، والظهار ، وفدية الصيام وكفارته ، وكل هذه مغارم تصرف لعلاج آفات الفقر في المجتمع ٠

فكان العدل يوجب أن يفرض على غير المسلم الذي يعيش في ظل الاسلام فرائض تقابل ذلك ، فكانت الجزية ،وكان الخراج ، يصرف منهما على المصارف العامة للدولة الاسلامية التي تظل المسلم والكتابي على سواء ،ولذلك كانت حاجات أهل الذمة تسد من بيت مال الجزية والخراج من أجل هذين الأمرين فرضت الجزية ، وانها أمر عادل لا اذلال فيه ، ولا شبه اذلال ، ولكن طاعة وتسليم وخضوع للدولة ونظامها مع حرية التدين ٠

٥٦٢ ــ ولننظر في نظام الجزية كما طبقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان أول تطبيقه في تيماء عقب خيبر ، فنجد الحافظ ابن كثير في تاريخه الكبير يذكر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمل أهل تيماء على الجزية وقال في ذلك نقلا عن الواقدي« لما بلغ يهود تيماء ما وطىء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الجزية ،وقدموا بأيديهم أموالهم » ٠

وهذا الخبر من الواقدي في تاريخه، وزكاه أن الحافظ بن كثير نقله واعتمده ، وهو يدل على أن الجزية فرضت عقب خيبر أو فورها ، ولم تطبق عليها لأنها فتحت عنوة ، ولم تفتح صلحا ، وكان المفروض أن يجلوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ولكنه أبقاهم كما طلبوا ، واحتفظ لنفسه بحق الاجلاء في أي وقت شاء ،وأجلاهم عمر من بعد ذلك عملا بما احتفظ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يكن تطبيق الجزية عليهم لأنها لم تكن قد نزلت آية الجزية ،وانما كان ذلك ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى تأجيل الجلاء في حقهم ، لأنهم كانوا أقوياء ، ولو أبقوا

بالجزيرة العربية لاستطاعوا بكثرتهم أن يكون لهم سلطان ، ولكيلا يجتمع في جزيرة العرب دينان •

أما أهل تيماء فقد انتهوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلحا ، ولم يقرر اجلاءهم ، وكانوا في أطراف الشام والجزيرة العربية ، ولذلك لم يخرجهم الامام عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه ، اذ هم ليسوا في داخل الجزيرة ، ولم يحتفظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحق اخلائهم •

وننتهي من هذا الجزء الى أن الجزية فرضت قبل الفتح ، ولم تكن شرعيتها بعد الفتح ، ولكن الامام ابن القيم يقرر أن الجزية لم تقرر الا بعد الفتح، وأما هديه في أخذ الجزية فما أخذ من أحد من الكفار جزية الا بعد نزول براءة في السنة الثامنة من الهجرة ،فلما نزلت آية الجزية أخذها من المجوس ، وأخذها من أهل الكتاب ،كما نصت آية سورة براءة التي تلوناها من قبل ، وذكرنا معنى قوله تعالى :

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (١)

ونميل الى المثبت ، ولا نميل الى النافي ، نميل الى رواية أبي الفداء التي ذكرت أنه عقد عقد الجزية على أهل تيماء ، وان كنا نرى أن ما ذكره ابن القيم له وجه •

وفي الحق ان أهل خيبر ، لم يعقدوا عقد جزية قط ، الا ما كان في تيماء وأنه أوجب الجلاء عليهم أي أهل خيبر،فلما حاولوا أن يبقوا في الأرض زارعين غارسين وكان هو ورجاله مشغولين عن زراعة الأرض تركها مزارعة على أن حق الاجلاء ثابت ، وهو الأصل،وكذلك فعل في فدك •

ولكن الباعث عند ابن القيم على نفي عقد الجزية لخيبر وجيه كل الوجاهة ، ذلك أنه في عبر التاريخ الاسلامي من بعد ذلك ادعوا ــ أي يهود ــ

---

(١) التوبة

أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقد معهم عقد جزية وقدموه وثيقة لهم ، وهو مكذوب من كل الوجوه ، ويحمل في نفسه دليل كذبه ٠

وقد أثبت كذبه ابن تيمية من عشرة وجوه ، ذلك أنه في عصر ابن تيمية في آخر القرن السابع ، وأول القرن الثامن أنه راجت تلك الوثيقة المكذوبة عند من جهل بالسنة والمغازي ، حتى ان بعض العلماء أو الأمراء طلب من شيخ الاسلام ابن تيمية أن يقرر ما اشتملت عليه تلك الوثيقة المكذوبة ويطلب العمل على تنفيذها لليهود والعمل بها فيسكن اليهود في الجزيرة العربية في مكانهم القديم ، ولعلهم كانوا يريدون أن يختاروا في وسط الجزيرة العربية مقاما لهم ٠

ولذلك تحرك الامام ابن تيمية لبيان كذبها بكشف ما فيها ، لأن ما فيها دليل التكذيب ٠

ومما بين كذبها أن فيها كما يدعون شهادة جمع من الصحابة ذكر منهم علي بن أبي طالب وسعد بن معاذ ، وسعد بن معاذ كان قد مات متأثرا بسهم عائر في الخندق وقريظة ، وهما كانتا قبل خيبر بسنتين ٠

ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخرة ، ولم يكن للمكس والسخر موضوع في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنص عليها دليل على أنها مكتوبة فيما بعد ذلك في القرون المتخلفة بعد عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان الله تعالى قد أعاذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من السلف الصالح والرعيل الأول من فرض المكس والسخر ، فان ذلك من وضع الملوك الظالمين الفاسقين ٠

ومنها أنه لم يذكر قط في سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا سيرة أحد من أصحابه سيرة ٠

ومنها أن هذه الوثيقة لم يذكرها قط أحد من علماء الحديث ، لا في الصحاح ولا في السنن ولا غيرها ، بل لم تذكر حتى في الأخبار الموضوعة ، فمن أين جاؤوا بها الا أن يكون ذلك من افترائهم البهات ، كما لم يذكر أحد من أهل الفقه والافتاء ، فهي كلام دخيل على الاسلام والمسلمين وهو افتراء من اليهود ، في عهد الحكام الغاشمين الجاهلين ، ولم يذكروه الى القرن

الخامس ، حيث العلم الاسلامي يدون ويجمع ، ويقول في ذلك ابن تيميـــة رضي الله تبارك وتعالى عنه «ما أظهروه في زمن السلف لعلمهم أنهم ان زوروا مثل ذلك ظهر بطلانه ، فلما كان بعض الدول في وقت فتنة وخفاء بعض السنة زوروا ذلك وأظهـروه وساعدهم عـلى ذلك طمع بعض الخائنين لله وللرسول ، ولم يستر لهم ذلك حتى كشف الله تعالى أمرهم » ٠

وانه بذلك يتبين أن اليهود ادعوا أن أهل خيبر لهم عقد جزية ليتخـذوا منه سبيلا ليقيمـوا في أرض خيبر بالحجاز ، ولكن الله كشف أمرهم ، وخيب رجاءهم ٠

ومهما يكن الأمر فانه لم يكن من اليهود أهل عهد بجزية الا أهل تيمـاء في رواية الواقدي والله تعالى أعلم ، وقد تبين كذبهم من قولهم ، وقد أعلنوا هذه الوثيقة المكذوبة بعد ثلثمائة من الهجرة ، ثم زوروا مثلها سنة سبعمائة٠

٥٦٣ ــ نذكر بالاجمال الجـزية التي كان يأمر بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقول الواقدي انه أخذها من أهل تيماء بعقدها وشروطه ٠

لقد قالوا ان النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم لم يعين من تؤخـذ منهم ، وان عين مقاديرها من مختلف الأجناس، وذكر بعض شروط عقدها والتزاماتها على ولي أمر المؤمنين والتزاماتها عليهم٠

ولم يظهر لدى أهل السيرة والمغازي، والآثار مقـدارها الا في نصـارى نجران الذين عقد معهم في مرجعه من تبوك ، وكان الاتفاق كمـا سـنبين بالتفصيل من بعد ، عنـدما نتكلم في سياقنا على وفود نجران وغيرهم ٠

أولا : أنه لا يهدم لهـم بيعة ، ولا يمنع منهـم قس من أداء شعـائرهم الدينية ، ولا يفتنون في دينهم ما لم يحـدثوا أحداثا يكون من شأنها نقض التزامهم ٠

وثانيا : أن يلتزموا أحكام المعاملات المالية الاسلامية ، بحيث لو ثبت أنهم ياكلون ربا الجاهلية ترد عليهم ذمتهم لأنهم نقضوها .

ثالثا : أن يلتزموا بأحكام الحدود والقصاص، بحيث يجري عليهم ما يجري على المسلمين فيها على سواء ، وقد أخذ من نصارى نجران الجزية من الثياب ، أخذها منهم مجتمعين على قسطين الأول في صفر ، وكان ألف حلة ، وفي رجب الف مثلها الى آخر العام أو الى نهاية المحرم .

وللمسلمين أن يأخذوا على وجه العارية ثلاثين درعا يدرعون بها ، وثلاثين فرسا ، يحاربون عليها ، أو بعبارة عامة ثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزو بها المسلمون ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم .

ولم تكن الجزية مقيدة بجنس ، بل تصح بالدنانير والدراهم ، كما تصح بالثياب ، على حسب ما يقدرون عليه ،وعلى حسب حاجة المسلمين اليه .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرسل معاذ بن جبل ليجمع الجزية امره أن ياخذ من كل رجل بلغ الحلم ديناراً .

ولم يفرضها على النساء والعبيد والمرضى ، بل فرضها على القادرين ، دون المزمنين والعاجزين ، وان الجزية كانت تؤخذ من نصارى العرب ، الى أن أجلى عمر بن الخطاب النصارى عن الجزيرة العربية نفسها ، وان بقي بعضهم في أطرافها كاليمن ، فكانت تؤخذ منهم الجزية كما تؤخذ من اليهود المقيمين بها ، ولم يغادروها الى داخل الجزيرة .

وتلاحظ في الجزية التي أمر بها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أمور ثلاثة :

اولها : أنها لم تكن معينة في جنس، بل كان يعين على أساس التيسير عليهم ، فان كانوا تتيسر عليهم الدنانير فهي الأصل في التقدير ، وان لم تتيسر الدنانير وتيسرت الثياب أو غيرها أخذ مما يتيسر عليهم أداؤه .

ثانيها : أنها ليست معينة المقدار في الجماعة ، بل تنقص وتزيد على حسب حاجة المسلمين ، وقدرة من يعطونها .

وثالثها : أنها تسقط أو تدفع جملة على حسب طاقة الدافعين من غير افراط ولا تفريط .

٥٦٤ ـ بعد غزوة خيبر ، وما تبعها من وادي القرى وتيماء ، ما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من حرب غير تعرف لأخبارها ، وما يجري فيها بعد الحديبية ، ولقد تم كسرهالشوكة اليهودية ، والقضاء على القوة العسكرية لليهودية في البلاد العربية ،ومنعهم من أن يعملوا على بث العداوة والبغضاء بين العرب ، وتحريض أعداءالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولابد أن يكون بث سراياه حول مكة ، أو علىمقربة منها ، ليتعرف أخبارها وأحوالها في مدة العقد ، ولكي ينبذ اليهم عهدهمان ثبت لديه منهم خيانة ، أو استعداد لها ، فانه عليه الصلاة والسلام كانيأخذ للأمر أهبته قبل أن يقع عند توقعه ، ولكنه لا يغدر ، ولا يخيسفي عهوده مبتدئا ٠

ولذلك أخذ يبعث السرايا في داخلالصحراء ، وعلى مقربة من مكة ٠

٥٦٥ ـ يروي الامام أحمد فيمسنده أنه بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر الصديق في سريةالى بني فزارة ، ولم يكن أبو بكر رضي الله تعالى عليه وسلم رجل الحرب ،وانكان من المجاهدين في الصف الأول ، ولكنه رجل رأي وتدبير ، ومعرفة بحالالعرب ، وهو المدرك عند تعرف أحوال العرب ، فما كان خروجه للحرب فقط،بل كان لتعرف أحوال العرب ، فيما يحيط بما يقرب من مكة وما حولها ٠

وقد سار الصديق رضي الله تباركوتعالى عنه بمن معه ، حتى كان ببني فزار ، فنزل عند الماء ، وكان ذلكليلا ، ليباغتهم ، فلما صلى الصبح بالمؤمنين معه شن الغارة بأصحابه ،فقتلوا من بالماء وحالوا بينهم من النساء والرجال والذرية من فزارة ، وبينالجبل الذي يكتنفهم ، ورموا بالسهام بينهم وبينه لكيلا يجتازوا مكانهم ٠

وتتبعوهم حتى ساقوهم الى أبي بكرعند الماء ، وفيهم امرأة وابنتها ، فنقل أبو بكر الابنة ، وكانت ذات جمال ،ولم ينل من هذا النقل شيئا حتى وصل الى المدينة حيث يوزع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يكشف ثوبا للفتاة ٠

ذهب الى النبي بالجارية ، فقال لهالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : هب المرأة لي ، فقال له يا رسول الله : لقدأعجبتني ، وما كشفت لها ثوبا ،فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلموتركني ، حتى اذا كان من الغد قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلمما قال ، ورد هو بما كان ، وتكرر ذلك مرة أخرى من النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ومنه ، حتى انتهى الأمر بأن قال له هي لك يا رسول الله ، وماكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يريدها لنفسه ، ولكن يريدها لفداءالمستضعفين من المؤمنين بمكة ، ولذلك بعث بها الى مكة ليفدي بها مستضعفين بمكة ، ففداهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه المرأة ٠

وقد روى مثل هذا مسلم في صحيحهوالبيهقي في دلائل النبوة ٠

٥٦٦ ـ أورد الواقدي بأسانيده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنهفي ثلاثين رجلا الى بعض أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال ، أي أنها علىمقربة من مكة ، ولقد كان عمر رضي الله عنه من أعرف الناس بالعرب طبعاوخلقا ، وهو ذو الفراسة القوية ، والبصيرة النافذة المدركة ٠

ويظهر أنه كان ذاهبا الى هذه الجهةليتعرف ويتخبر ، لا ليقاتل فقط ٠

ومهما يكن فقد سار الفاروق ومعهدليل من بني هلال ، وكان يسير ليلا ويكمن نهارا ، وهو يتعرف ما أمامه ،وما وراءه حتى وصل الى بعض هوازن، فهربوا من لقائه ومن معه ٠

عاد عمر أدراجه من غير قتال ، ولكنه عاد بزاد من المعرفة عن مكة وما حولها ، وقد أشار عليه أصحابه أن يذهب الى خثعم ، ولكنه أبى ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمره بالذهاب اليهم ، وهو يصدر عن أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

٥٦٧ ـ كان اليهود وان فقدوا القوة العسكرية في أرض العرب، لاتزال فلول منها مبعثرين في أرضهم ويخشى أن يكون منهم تجمع في جزء منها ، ويكون قوة تؤلب على الاسلام ، ولذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتتبع أخبارهم ومن يظهر منهم ، فيقضي عليهم أجزاء حتى يجعلهم جذاذا بدل أن يتجمعوا حوله •

روى الواقدي بسنده عن الزهري أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكبا ، اذ بلغه أن يسير بن رزام اليهودي يجمع بني غطفان ليغزو بهم ، وبنو غطفان قد كانوا يمالئون اليهود في خيبر ، قبل أن يغزو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليهود ، وأنه حال بينهم وبين نصرتهم ، حتى تمكن من ذلك حصون اليهود وفتحها •

ويظهر أن يسير بن رزام هذا أراد أن يحيي ذلك التعاون القديم ، فبلغ ذلك محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو الحذر الذي يمنع الشر قبل وقوعه •

ذهب اليه عبد الله بن رواحة ، وأوهمه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث اليه ليستعمله على أرض خيبر ، فيظهر هو ومن معه ، فتبعهم بثلاثين رجلا من رجاله اليهود ومع كل رجل منهم رديف من المؤمنين ، ولما بلغوا مكانا معينا ندم يسير بن رزام على مسايرته ابن رواحة فيما قال ، فأراد أن ينزع سيف عبد الله بن رواحة ، ويهوي به عليه ، ففطن له ابن رواحة ، فزجر بعيره ، وتمكن من يسير ، فضربه ضربة قطعت رجله •

ولقد ضرب اليهودي عبد الله بن رواحة في وجهه فشجه شجة عميقة •

وانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله ، ولم ينج منهم غير رجل واحد ، ولم يصب من المسلمين أحد الا شجة ابن رواحة ٠

ولقد قالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تفل على شجة ابن رواحة فلم تتقيح ولم تؤذه حتى مات٠

وترى من هذا حذر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من اليهود ، وتتبعهم، حتى لا تقوم لهم قائمة في أرض العرب ٠

٥٦٨ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بني مرة من فدك بشير بن سعد في ثلاثين راكبا ، فاستاق نعم بني مرة ، فقاتلوه ، وقتلوا كل من معه ، واستمر هو على القتال فقاتل وحده قتالا شديداً ، ثم آوى الى فدك ، ونزل عند رجل يهودي ، وكان غريباً أنه لم يغدر به ، ثم كر راجعاً الى المدينة ٠

وقد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبني مرة هؤلاء غالب بن عبد الله ليقتص للذين قتلوهم من المؤمنين ، وليفلوا شوكتهم ٠

وكان معه عدد من الصحابة فيهم أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه وغيرهم ، وقد اقتصوا لمن قتلوا من المسلمين ، وكان مما حدث أن قتل أسامة بن زيد رجلا قال لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقد قالوا انه قتل مرداس بن نهيك حليف بني مرة ،وقال عندما علاه بالسيف : لا اله الا الله فلامه الصحابة على ذلك ، حتى سقط في يده وندم على ما فعل ٠

ولما قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له يا اسامة من لك بلا اله الا الله فقال يا رسول الله انما قالها تعوذ بها من القتل ، قال فمن لك يا أسامة بلا اله الا الله ، فوالذي بعثه بالحق مازال يرددها حتى أن ما مضى من اسلامي ، لم يكن ، واني قد أسلمت يومئذ ولم أقتله ، وقال اني أعطي الله عهداً ألا أقتل رجلا ، يقول لا اله الا الله أبداً ٠

مضى غالب بن عبد الله بما معـــه يقتص من الـذين قتلوا المـــؤمنين ، وتتبعهم ، حتى خضد شوكتهم ، وولوا الأدبار ولم يعد لهم قـــوة في الأرض يستطيعون أن يعيثوا بهـا في الأرض فسادا .

وكان مع رحلة غالب هذا في البلاد يتتبع جيوب اليهود ، حتى صـار على مقربة من مكة وقد طهر كل جيـــوب اليهـود ، وأدب الأعراب حتى استقامت أمورهم .

٥٦٩ ـ كان لا يزال في الجزيرة العربية من بقـــايا خيثم وغـيرها من يحاول محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن ظهر نور الاســلام في البلاد العربية ، وبدأ قويا يحملهم على التفكير السليم في العقيدة ، ان لم يكن لتطهير العقول من رجس الوثنية ، فاتقاء لسوء المغبة .

بلغه عليه الصلاة والسلام أن رجلا له مكانه في قومه من خيثم يريد أن يجمع قيسا على محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث أبا الحدود، ورجلين من المسلمين ، وقال لهم : « اخرجوا الى هذا الرجل ، حتى تأتوا منه بخبر وعلم » .

وأركبهم على ناقة عجفاء ، وقـــال تبلغوا على هذه .

خرج الرجال الثلاثة ومعهم سلاحهم، وتحسسوا أمر ذلك الرجل ، فوجدوه يجمع من يجمع من الناس ، أو عـــلى استعـداد لأن يجمع ، فقتلوه بسهـــم أصاب فؤاده ، وانتهى أمره .

واستمر أبو الحدود في سريته حتى بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم الى أضم ، ونزلوا بطنه وقد مر رجل اسمه عامر بن الأضبط النخعي ، فالقى السلام ، فقتله رجل من المؤمنين اسمه محلم بن جثامة لعداوة كـانت بينهما مع أنه ألقى السلام ، اذ جـاء غير مقاتل ، ولا مريد للقتال .

وقد حدثت أمور في هذه السرية الصغيرة دلت على مبادىء ســامية في الاسلام .

اولها ـ أن أبا الحدود الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه السرية كان قد ذهب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطلب مهر زواجه، وان ذلك يدل على مدى قوة التعاون بين المؤمنين في تلك الفترة من تاريخ الاسلام التي تعد نورا لكل الأزمان اذا اتبع المسلمون مبادىء الاسلام .

فقد روي أن أبا الحدود هذا الذي بعث بهذه السرية ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تزوج امرأة من قومه فأصدقها مائتي درهم ، ذهب اليه عليه الصلاة والسلام يستعين به على زواجه منها ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كم أصدقتها ؟ قال مائتي درهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، سبحان الله ، والله لو كنتم تأخذونها من واد مازدتم ، والله ما عندي ما أعينك به .

وقد أرسله على رأس هذه السرية لعله يصيب ما يصدق به امرأته .

وثانيها ـ انه لا يصح قتل من ألقى السلام ؟ لأن الإسلام يدافع ، ولا يقتل من يسالم فقد نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾ (1)

وذلك عند قتل محلم بن جثامة عامر بن الأضبط ، وقد آسف ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا يغفر لمحلم » وكان دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، لأنه قتل نفسا بغير حق ، وان الله لا يغفر ذنوب من يعتدي على حقوق العباد ، الا بعفو ممن اعتدي عليه .

وقد طالب عيينه بن بدر بدم عامر بن الأضبط ، وهو سيد قومه بني عامر .

---

(1) النساء

وقد كان الطلب تأخر الى غزوة حنين فيما يظهر من السياق ، فطلب اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل خمسين بعيرا ، حتى يرجع الى المدينة فيعطيه خمسين فرد ، ثم قبل من بعد ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد دفع الدية من بيت مال المسلمين ، وان ذلك أكمل تعاون ، وأكمل حرص على الدماء ، مع أنه ثبت أن المقتول لم يكن قد أسلم ٠

وقد قال علماء السنة والسيرة ان السرايا والبعوث التي جاءت بعد خيبر ووادي القرى ـ لم تكن سرايا ذات خطر في توجيه الحروب ، ولكنها كانت لحوادث صغيرة ، أو لبث روح الاجلال للاسلام ، وفل شوكة من يريدون للاسلام نكاية ، أو للتعرف بأحوال العرب ، أو هي أشبه بالدوريات التي تمر بالبلاد احتياطا ، وتأديبا لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على المسلمين بأي نوع من الاعتداء ٠

٥٧٠ ـ كان اتفاق النبي صلى الله تعالى عليه وسام في عقد صلح الحديبية على أن يبعد عن مكة هذاالعام ، وحتى لا يتحدث الناس أنه دخلها على الرغم من أهلها ، ثم يدخلهافي العام المقبل معتمراً ، من غير سلاح الا ما يحمل باليد ويمكث ثلاثة أيام يسعى ويطوف ، ثم يتحلل ٠

فلما جاء ذو القعدة اتجه النبي صلىالله تعالى عليه وسلم الى العمرة التي سميت عمرة القضاء ، كما سميت عمرةالقصاص ، لأنها كانت قصاصاً من صد المشركين للمؤمنين عن العمرة ،وقالوانه نزل في ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ (١)

ونرى أن النص السامي « والحرمات» انما نزل في القتال في الشهر الحرام، فقد قال تعالى قصاص :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢)

أي اذا انتهكوا حرمة البيت وصدواعنه ، وانتهكوا حرمات الشهر الحرام ، فعليهم أن يتوقعوا مثل مافعلوا ، فالحرمات قصاص ٠

اتجه النبي صلى الله تعالى عليهوسلم الى العمرة ، ودعا الذين حضروا الحديبية اليها ، ومن أراد من غيرهمالاعتمار ، فما عليه من حرج في ذلك، ولكن العمرة واجبة بالنسبة لمن أحرموا لها في الحديبية ، ولم يتموها ، كمن يشرع في صوم فعلا ، ثم يفطر بعد النية ، فانه عليه قضاء ذلك اليوم ، وقد ابتدأ فعلا بالأداء ، فلمالم يتمه صار واجباً عليه القضاء ٠

---

(١) و(٢) البقرة

خرج مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معتمرون من المدينة ، وساقوا الهدي ، وقالوا ان الهدي في عمرة القضاء هذه كان بعضه من البقر ، ورخص لهم ذلك ٠

وقد نوى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاحرام من ميقاته ، وكان يلبي ، والمسلمون يلبون معه ، وكان محمد بن سلمة على الخيل والسلاح ، وسار بها الى مر الظهران ، فالتقى بنفر من قريش ويظهر أن ذلك أرهب قريشا وأفزعهم ٠

سألوا محمد بن سلمة فقال هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصبح غدا في هذا المنزل ان شاء الله تعالى وراوا سلاحا كثيراً مع بشير بن سعد ومحمد بن سلمة ٠

خرج النفر من قريش الى مكة فاخبروهم بالذي رأوا من السلاح ففزعت قريش ، وقالوا ما أحدثنا حدثا ، وانا على كتابنا وهو عهدنا ، ففيم يغزونا ٠

وبعثوا اليه مكرز بن حفص في نفر منهم ، حتى لقوه ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أصحابه ، والهدي والسلاح قد تلاحقوا ٠

قالوا يا محمد ، ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم ألا تدخل الا بسلاح المسافر ، السيوف في القرب ٠

فقال لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اني لا أدخل عليهم بالسلاح حينئذ اطمأنت قريش ٠

ساق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الهدي يرعى في الزرع والشجر وهو يلبي كما ذكرنا والمسلمون من ورائه يرجعون تلبيته ، وحبس الهدي بذي طوى ٠

وقد خرجت قريش من مكة الى رؤوس الجبال ، وأخلوا مكة ، وقالوا لا ننظر اليه ولا الى أصحابه ، غضبا من هذه الزيارة المباركة ، ولخشية أن يكون النبي وأصحابه يميلون قلوبهم للوحدانية واتباع الهدى ، فان النظر الى الفعال يؤثر بأكثر مما تؤثر الأقوال ٠

ومنهم من كان يذهب به الفضول الى تعرف ما يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : صفوا اليه عند دار الندوة لينظروا اليه والى أصحابه ، ولقد طاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهرول في ثلاثة أطواف ، وسعى بين الصفا والمروة ، وأرسل في بعضها ، مظهراً أنه وأهل الايمان عندهم القوة ، والقدرة ، اذا كانت ساعة الجد ، وذلك لأن قريشاً قالوا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انه يقدم عليكم ،وقد وهنتهم حمى يثرب » .

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اضطجع بردائه،فجعل بعضه تحت عضده اليمنى ، وجعل طرفه على منكبه الأيسر ، وقال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه حتى استلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف .

وظن كثيرون أن هذه الهرولة ، وهي المشية التي تظهر فيها القوة خاصة بالحال التي كان فيها المسلمون وهي ظن المشركين أنه قد وهنت قوتهم ، وأضعفتهم الحمى .

ولكن لما كانت حجة الوداع ، هرول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الطواف ثلاث مرات ، فكانت سنة مشروعة واجبة الاتباع .

وقد روى الشيخان البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما « قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صبيحة رابعة ذي القعدة سنة سبع ، فقال المشركون،انه يقدم عليكم ، وقد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين » ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها الا الابقاء عليهم » .

وهكذا نجد كل المشقات التي يكلفها الاسلام تكون في الطاقة ، ولا تكون ارهاقاً .

وقد ظنوا كما أشرنا أن هذه الهرولة لقول المشركين ما قالوا ، ولكن ثبت أنها سنة ــ كما قلنا ــ بحجة الوداع .

جاء في الواقدي : لما قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نسكه ، دخل البيت ، فلم يزل فيه ، حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمره بذلك وكان من بين من حول دار الندوة بعض رجال من قريش ، كما أشرنا فكان منهم عكرمة بن أبي جهل فذكر أباه ، وقال لقد أكرم الله أباالحكم . ان لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول وقال صفوان بن أمية فقد أكرم الله أبي قبل أن يرى هذا ، وقال خالد بن أسيد الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم ، حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت .

ورجال غير هؤلاء من قريش لما رأوا ذلك غطوا وجوههم ، وهكذا انتصر النبي والمسلمون من بعد ما ظلموا ، وغاظوا بالايمان أهل الشرك .

اقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مكة ثلاثة أيام أدى شعائر العمرة ونال أجر مجاورة البيت هو وأصحابه، وقريش في غيظ وكمد لأن دعوة التوحيد وشعار التوحيد دخل مكة ، وهم يرون ، ولا يستطيعون حولا .

وفي اليوم الثالث ، كانت هناك رغبتان : رغبة الود ، والرحمة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وهي اقامة وليمة يتناولون معاً طعاما ما يكون عربون السلام الدائم من بعد ذلك ، ورغبة أخرى مناقضة ، هي النفرة الشديدة وابداء العداوة والبغضاء .

في اليوم الثالث جاءه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش ليخرجوا الرسول ، قد وكلتهم قريش لاخراج الرسول ، فقالوا له قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا .

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : وما عليكم لو تركتموني فاعرست (اقست) بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ، فقالوا لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا .

لم يكن النبي محارباً ، بل داعياً الى الله ، حيثما وجد الى الدعوة سبيلا ، فهو لابد أن يقرب بالمودة داعياً هادياً مرشداً مهما تكن نفرتهم ، فهو مطالب بادناء القاصي ، وايناس النافر ، مهما تكن الأحوال . فانتهز هذه الفرصة ليلتقي بهم ، ويدعو بالحق فيهم .

ولقد لقي فعلا بعضهم ، ودعاهم الى الحق ، وان لم يكن في داخل المسجد الحرام ٠

وقد تزوج صلى الله تعالى عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، تأليفا للقلوب وادناء لها ، باشارة عمه العباس بن عبد المطلب ، وهي أخت امرأته ،ولذلك تولى هو صيغة الزواج مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ جعلت أمرها الى أختها أم الفضل ، وكانت هذه مع العباس رضي الله تعالى عنه فوكلت أم الفضل زوجها العظيم الذي شارك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صيغة العقد ، ولم يكتف بذلك ، بل دفع العباس صداق زواجها من ابن أخيه أربعمائة درهم ، أثابه الله تعالى على محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحدبه العظيم عليه في شدته بين قريش ، وفي تصرفه ، بعد أن أدال الله من دولة الأوثان ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفاء بالعهد ، واستجابة لقريش الذين رفضوا مودته ، ولكنه خلف مولاه أبا رافع ، ليكون مع زوجه أم المؤمنين ميمونة ، حتى أتاه بسرف قرب التنعيم فوافى فيها زوجه ، وبنى بها ، ثم عاد الى المدينة في ذى الحجة ٠

ولقد كانت هذه العمرة تأليفاً وتقريباً ، وان حاول المشركون أن يبعدوا ولا يقربوا ، وأن ينفروا ولا يتوادوا ،ولكن كان منهم من لانوا للاسلام ، واتخذوا سبيلهم للايمان ، وحسبك أن تعلم أنه كان عقب هذه العمرة اسلام خالد بن الوليد ، الذي سمي سيف الاسلام ، فكان سيفاً مشهوراً في كل الحروب في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك ، وفي عهد أبي بكر ، وأكثر عهد عمر رضي الله عنهم أجمعين ٠

عمرة القضاء في القرآن

٥٧١ ـ كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد رأى رؤيا صادقة أنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وقد كان بعد هذه الرؤيا صلح الحديبية ، وماكان فيه ، وتحلل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عمر غضبان آسفاألم تعدنا بأن نطوف ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما وعدتك هذاالعام ، ولقد بين الله أن صدق الرؤيا كان في عمرة القضاء ، لا في الحديبية،وان كانت الحديبية أول الفتح ، أو التمهيد له ، فقال تعالى :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ
مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا
(٢٧) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا
(٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى
ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ (١)

(١) الفتح

٥٧٢ ـ كانت عمارة بنت سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب تقيم في مكة مع أمها سلمى بنت عميس ،وذلك أن بعض القرشيين مع ارسالهم حويطبا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،يطلبون منه الخروج ، أتوا عليا ، فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ٠

ولما خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ومعه علي رضي الله عنه ـ تبعته عمارة هذه ابنة سيد الشهداء تنادي ياعم ، ياعم ، فتناولها علي ، فأخذها بيده ، وقال لفاطمة الزهراء ، دونك ابنة عمك لحمايتها ٠

ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين ، فلم ينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن اخراجها معهم ٠

ثم تنازع فيها اليه ثلاثة ، ولكل واحد منهم صلة خاصة بها ، وكل يدعي أنه أحق بها من غيره تنازعها زيد بن حارثة ، وعلي بن أبي طالب ، وجعفر بن أبي طالب ٠

وحجة زيد التي يدلي بها أن حمزة كان أخاه في المؤاخاة ، فقد آخى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين زيد وحمزة ، فطالب بها على أنه أولى الناس بها ، لأنه وصيها ، وابنة أخيه في الاخاء ٠

وطالب بها علي لأنها ابنة عمه ،فهو أولى بها ، وهو الذي أخرجها من المشركين فله ولاؤها وولايتها ٠

وطالب بها جعفر ، لأنها ابنة عمه ،ولأن خالتها زوجه ، وهي أسماء بنت عميس

وتحاكم الثلاثة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحكم لجعفر ، وقال : أما أنت يا زيد فمولى الله تعالى ومولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما أنت يا علي فتشبه خلقي وخلقي،وأنت يا جعفر أولى بها تحتك خالتها ، ولا تنكح المرأة على خالتها ، ولا على عمتها ، فقضى بها لجعفر ٠

فلما قضى بها لجعفر ، قام فحجل حول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ما هذا يا جعفر ، فقال يا رسول‌الله كان النجاشي اذا أرضى أحداً ، قام فحجل حوله ·

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: فقال ابنة أخي من الرضاعة ·

فزوجها رسول الله صلى الله تعالى‌عليه وسلم سلمة بن أبي سلمة ، فهو صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتركها حتى‌زوجها ·

وان هذه القصة أفادت أحكاما في الحضانة وفي الولاية على النفس ، وفي ولاية التزويج في الحضانة فقد أثبت‌أن الحضانة لا بد في أن تمسك الحاضنة عند ذي رحم محرم ، وجعفركان ذا رحم ، وكان محرماً لها ، لأنها ابنة أخيه رضاعاً وامرأته خالتها ، ولا يتزوجها على خالتها وأفادت أن الولي على النفس بالنسبة للزواج لا يشترط‌أن يكون ذا رحم محرم ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوجها ،وهوعاصب ليس ذا رحم محرم منها ·

وأثبت أن الأولياء اذا كانوا في مرتبة واحدة زوج أفضلهم ، فكان جعفر وعلي ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه‌وسلم أولاد عم ، فزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ودل الخبر على أن الولي العاصب الأقرب اذا غاب قام في الولاية من يليه في القرب ، والولي الأقرب هو العباس‌رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وكان قد أسلم ، وهو عمها ، والباقي أولادعمها ، فهو أقرب منهم جميعا ، ولكنه كان غائبا ، فيتولى التزويج من يليه ،فتولى أفضل من يليه ·

٥٧٣ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يني عن الدعوة الى الاسلام ، لأنه رسالته ، وهو يستمع دائما الى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فكان يدعو الى الاسلام ، ويقرب القلوب وهو في مكة ، وقد أثمرت ثمراته في أهل مكة بعد ذلك كانوا يدخلون في الاسلام طالبين الرفعة عن طريقه .

فلما انتهت عمرة القضاء ، في ذي الحجة في السنة السابعة أخذ يوجه الدعوات الى الجزيرة العربية فأرسل بعدها أبا العوجاء الى بعض القبائل على قرب من ثله في خمسين فارسا يدعو الى الاسلام أو العهد ، أو القتال.

وقد كان لهم عين بالمدينة فذهب واخبرهم بسرية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وحذرهم فجمعوا جموعا كثيرة .

فجاء ابن أبي العوجاء وهم مستعدون ، فلما رآهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتجمعهم دعوهم الى الاسلام ، فلم يجيبوهم بالقول الرافض ، ولكن أجابوهم بالعمل المقاوم ، فرموهم بالنبل ، وقالوا لا حاجة لنا الى ما دعوتم اليه .

وجعلت الامدادات تجيء اليهم ، حتى أحدقوا بالخمسين فارسا من المؤمنين من كل جانب ، وقاتل المؤمنون قتالا شديداً ، حتى قتل أكثرهم ، وأصيب ابن العوجاء بجراحات كثيرة ، فتحامل حتى رجع بمن بقي من أصحابه .

وهكذا كانت التضحيات في سبيل الدعوة من أهل الغدر والنفاق .

---

(١) المائدة

٥٧٤ ـ قلنا ان عمرة القضاء كانت فرصة لتقريب البعيد ، وايناس الغريب عن الاسلام بمبادئه ، والربط بالمودة ، واذا كانت نفوس جافية لم تستجب لداعي المودة والرحم ، فان العقلاء قد سرت في نفوسهم دعوة الحق، وأخذوا يرون الاسلام في علاء ، وعرفوا ذلك من منطق القوة ، ومنطق الهداية ومنطق العقل ، وقد زالت الغمة ، وانكشفت الحقائق ، وكان من هؤلاء ، وعلى رأسهم خالد بن الوليد ،الذي سمي بحق من بعد سيف الاسلام ، وان لم ينل مرتبة المجاهدين الأولين والبلاء بلاء ، والقوى كلها تكاتفت على المسلمين ٠

لقد كانت نفس خالد المدركة التي تحس مائلة عن الشرك الى دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يرى أنه يخوض في الدفاع عن الشرك الى غير غاية ٠

ولنترك الكلمة ، لما روي عن خالد بن الوليد في حديثه عن اسلامه ٠

قال : لما أراد الله تعالى بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الاسلام ، وحضرني رشدي فقلت ، قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس لي موطن أشهده ،أو أنصرف وأنا أرى أني موضع في غير شيء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحديبية خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله بأصحابه بعسفان ، فقمت بازائه ، وتعرضت له،فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا ، وكانت فيه خير ، فأطلع على ما في أنفسنا مما الهم به ، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع ذلك منا موقعاً فقلت الرجل ممنوع ، فاعتز لنا ، وعدل عن سير خطنا وأخذ ذات اليمين ٠

فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قلت في نفسي أي شيء بقي أأذهب الى النجاشي فقد اتبع محمداً ،وأصحابه عنده آمنون ، فأخرج الى هرقل ، فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية ، أفأقيم في عجم ، أفأقيم في داري ٠

فأنا في ذلك اذ دخل رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم في عمرة القضية، فتغيبت ، ولم أشهد حضوره •

وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عمرة القضية ، فطلبني ، فلم يجدني ،فكتب الي كتابا فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدفاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام،وعقلك عقلك،ومثل الاسلام ماجهله أحد ، وقد سألني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنك ، وقال أين خالد ، فقلت يأتي الله تعالى به ، فقال: ما مثله يجهل الاسلام ؟! ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة•

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ،وزادني رغبة في الاسلام ، سؤال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عني ،وأراني في المنام كأني في بلاد ضيقة مجدبة ، فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت ان هذه لرؤيا ، فلما أن قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر ، فقال مخرجك الذي هداك الله تعالى للاسلام ، والضيق الذي كنت فيه من الشرك •

فلما أجمعت الخروج الى رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم قلت من أصاحب الى الرسول صلى الله تعالى عليهوسلم !! ، فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ، انما نحن كاضراس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فان شرف محمد شرف لنا ، فأبى أشد الاباء ، وقال لو لم يبق غيري ما اتبعته أبدا ، فافترقنا وقلت هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدرقلت فاكتم علي فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقال مثل ما قال صفوان بن أميةفخرجت الى منزلي فأمرت براحلتي ، فخرجت بها الى أن لقيت عثمان بن أبيطلحة ، فقلت ان هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجوه ، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن اذكره ، فقلت وما علي ، وأنا راحل من ساعتي ، فذكرت له ما آل الأمر اليه ، فقلت انما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج ، وقلت له نحوا مما قلت لصاحبي ، فأسرع الاجابةوقلت له اني غدوت اليهم ، وأني أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي ، فأدلجنا سرا ،فلم يطلع علينا الفجر ، حتى التقينا

فغدونا حتى انتهينا الى الهــدة (١) ،فوجدنا عمرو بن العاص ، بها ، فقال: مرحبا بالقوم ، فقلنا وبك ، فقال الىأين مسيركم ؟ فقلنا وما أخرجك ؟فقال وما أخرجكم ؟ قلنا الدخول في الاسلام،واتباع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، قال وذلك الذي أقدمني ، فاصطحبنــا جميعا حتى دخلنا المدينة ، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا فاخبر بنا رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم فسر بنا فلبســت من صالح ثيابي ، ثم عمدت الى رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلقيني أخي فقال : أسرع ، فان رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم قد أخبر بك فسر لقـــدومك ، وهــو ينتظركم فأسرعناالمشي ، فاطلعت عليه ، فما زال يبتسم لي حتى وقعت عليه ، فسلمت عليـــهبالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق ، فقلت اني أشهد أن لا اله الا الله ،وأنكرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال تعال ، ثم قال رسول الله صلى اللهتعالى عليه وسلم ، « الحمــد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ،ورجوتألا يسلمك الا الى خير ، قلت يا رسول الله ، اني قد رأيت ما كنت أشهد منتلك المواطن عليك مما أبرأ منه فادع الله أن يغفر لي ذلك ، فقال رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم : « الاســلام يجب ما كان قبله » قلت يا رسول اللهعلى ذلك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم اغفر لخالد بن الوليد ، كل ماأوضع فيه من صد عن الله ورسوله » .

هذا ما نقله الواقدي بالرواية عن اسلام خالد بن الوليد .

وذكرناه بطوله ، لأنه حكاية نفسه، وبيان خواطره ، وبيان ما وجهـــه الى الاسلام توجيها نفسيا ، أهو الاعتقاد الجازم الذي ينبعث من النفس ، أم هو المصلحة ، ولا يمنع أن يكون الباعثوالمصلحة،ثم يشرب قلبه حب الايمان، ويكون من الصادقين في ايمانهــم ، ثميكون من بعد ذلك من المحـــاربين في الاسلام ، وربما يكون من المجاهدين ،ان صح التعبير .

كان خالد ممن لم يدخلوا مكة منقريش غيظاً من الاسلام وأهله وكراهية عندما دخـــل النبي صـــلى الله تعـالىعليه وسلم مكة معتمرا حاجا ، فدل هذا على النفرة الشديدة من الاسلام وأهله،ولكنه جاء بعد ذلك ، وأراد أن يكون مع المسلمين ، ولم يكن كعمر الفاروقالذي كان البأ على المسلمين ثم رق قلبه للاســـلام وقذف الله في قلبه بنوره ،فكان قوة في الاســـلام ، وفارقا بين

(١) اسم مكان

الضعف والاختفاء والقوة، والاستعلان،في وقت ضنت فيه الألسنة عن الحق ، والقلوب عن الايمان ، ولا كحمزة أسد الله ، فانه لم يقف قط ضد الاسلام، وأسلم ابتداء حمية لابن أخيه ، ثم صار بطل الجهاد ، لا بطل الحرب ، فقد يكون بطل الحرب غير مجاهد ، وقد يكون بطل الجهاد لم تعرف له في الحرب مكيدة ، كبلال وعمار ، وغيرهما من المؤمنين الأولين الذين كانوا اللبنة الأولى في بناء الاسلام ، وعلى بلائهم وأذاهم قام الاسلام •

كان خالد في اسلامه ليس واحداً من هؤلاء ولا كواحد منهم ، ولكنه فكر وقدر في البقاء على وثنية مكة ،أتكون مصلحته ، أم المصلحة في أن يسير في الركب لتحفظ له مكانة المحارب الفذ والقائد النادر المثال •

وجد مكة قد سدت ولم تكن مكان العزة ، ورأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه يعلون ولا ينخفضون ، فهو الى علاء ، ومن في مكة الى غيره أو استسلام له •

ونفذ ادراكه الى سر في علو محمد،وهو أنه ممنوع بمنع الله تعالى كالذي تسرب الى نفسه وهو في خيل المشركين يرقبون صلاة محمد بأصحابه •

ولكن كان ومضه نفسية ، لا نقول انها انطفأت ، ولكن نقول ان سياق تاريخ نفسه بنفسه يدل على أن ذلك لم يكن هو المسير الموجه الى ايمانه •

بل كان الموجه أولا ـ أنه رأى أن لا مقام له بمكة حيث سدت أبواب مظاهر النبوغ •

ثم كان الموجه ثانياً ـ أنه لم يكن له ملجأ في الحبشة ، لأن أصحاب محمد سبقوه ، والنجاشي يؤمن بمحمد ويحبه ، وفكر في أن يلجأ الى الروم ، وينتقل من دين قومه الى اليهودية أو النصرانية وربما كان ذلك فاتحاً له باب النور ، ليخرج من دين قومه الى دين رجل من قومه ، شرفه شرفهم ، كما عبر هو •

ثم كان الموجه ثالثاً ما أخبره به أخوه من أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ذكره ، وذكر عقله ، وذكر أن له موضعاً في حروب المسلمين تعرف فيها مكانته ، تتميز فيها قيادته •

اتجه الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لهذه الأمور ، ولم يكن منهـا ايمـانه بالعقيدة ايماناً دافعاً مؤمناً مطمئناً مهدياً ، الا أن يكون ما لاحظه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حول الصلاة القائمة الى صلاة خوفاً ، عندما حدثته نفسه ابان ذلك الى الانقضاض على المؤمنين في صلاتهم .

ولما ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتطلق البشير النذير في وجهه ، رضي بالاسلام ديناً ، وغفر الله تعالى له لدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له بالغفران .

وانا لا ننقص من مقام خالد بن الوليد القائد المحارب ذي الدربة في القتال ، اذا قلنا انه ابتدأ دخوله في الاسلام بأنه رأى في دخوله فيه المصلحة بعد أن صارت القوة الوحيدة في البلاد العربية للاسلام ، لأنه اذا رأى في ذلك مصلحة شخصية دنيوية ، فانها كانت باب النور اليه ، ودخل الاسلام قلبه ، وصار مؤمناً بالله واليوم الآخر ، والملائكة والنبيين .

ولعل ما قلناه هو السر في أن عمر بن الخطاب فاروق الاسلام الذي لم يفر أحد فريه في الاسلام لم يكن يعامله معاملة المطمئن اليه ، وان كان يقدر مقدرته الحربية .

٥٧٥ ـ يتشابه اسلام عمرو بن العاص مع اسلام خالد بن الوليد ، وان كان في اسلام خالد معان تومىء الى أنه أدرك بعض معاني الوحي ، بدليل ما لاحظه في صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وادراكه أن الله تعالى مانع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه غير مسلمه وادراكه مكانة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين العرب والعجم، وأن شرفه هو شرف قريش ، بل كانت المصلحة الدافعة أوضح في عمرو بن العاص .

ولنذكر كيف دخل الاسلام قلبه بماحكاه الواقدي عنه .

يقول عمرو بن العاص : كنت للاسلام مجانباً معادياً ، حضرت بدراً مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحداً فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت ، فقلت في نفسي والله ليظهرن محمد على قريش فلحقت بمالي ، وأقللت من الناس (أي من لقائهم) ، فلما حضر الحديبية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الصلح ، ورجعت قريش الى مكة ، جعلت أقول يدخل محمد قابلا مكة ، ما مكة بمنزل ولا الطائف ، ولا شيء خير من الخروج ، وأنا بعد ناء عن الاسلام ، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم ، فقدمت مكة ، وجمعت رجالا من قومي ، وكانوا يرون رأيي ، ويسمعون مني ، ويقدمونني فيما نابهم فقلت لهم كيف أنا فيكم ، فقالوا ذو رأينا ومدركنا في يمن نفس ، وبركة أمر ، قلت تعلمون أني والله لأرى أمر محمد أمرا يعلو الأمور علوا منكرا واني قد رأيت رأيا قالوا وما هو ؟ قلت نلحق بالنجاشي فنكون معه ، فان يظهر محمد ، كنا عند النجاشي ،ونكون تحت يد النجاشي أحب الينا من أن نكون تحت يد محمد ، وان تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا : هذا الرأي قلت فاجمعوا ما نهديه له .

جمعوا أحب ما يهدى إليه وهو الأدم ، وذهبوا الى النجاشي .

ثم يقول عمرو بن العاص في لقائه مع النجاشي ، فوالله انا لعنده اذ جاء

عمرو بن أمية الضمري وكان رسـول‌الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبي‌سفيان ، فدخـل عليه ، ثم خـرج من عنده ، فقلت لأصحابي هذا عمرو بن‌أميـة الضمري ، ولو دخلت عـلى النجاشي ، فسـألته اياه ، فأعطانيه‌فضربت عنقـه ، فاذا فعلت ذلك سرت قريش وكنت قد أجزأت عنهـا حتى‌قتلت رسول محمد ٠

فدخلت على النجاشي ، فسجدت له ،كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقي أهديت لي من بلادك شيئا !! قلت نعم‌أيها الملك أهـديت لك أدما كثيرة ثم قدمته فأعجبه ، وفرق منـه شيئا بين‌بطارقته ، وأمر بسائره فأدخـل في موضع وأمـر أن يكتب ، ويحتفظ به‌فلما رأيت طيب نفسه قلت أيها الملك اني رأيت رجلا خرج من عندك ، وهورسول عدو لنا قـد وترنا ، وقتـل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله ٠

فغضب من ذلك ورفع يده ، فضرب‌بها أنفي ضربة ، ظننت أنه كسره ، فجعلت أتلقى الدم بثيابي ، فأصابني‌من الذل ما لو انشقت بي الأرض لدخلت فيها فرقا منه ٠

ثم قلت أيها الملك لو ظننت أنـك‌تكره ما قلت ما سألتك ، فأستحيا وقال: « يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من‌يأتيه النامـوس الأكبر الذي كان ياتي مـوسى ، والذي كان يأتي عيسى ـ لتقتله » ٠

قال عمرو فغير الله قلبي عمـا كنت‌عليه ، وقلت في نفسي : عرف هـذا الحق العرب والعجم ، وتخالف أنت ، ثم‌قلت : أتشهد أيها الملك بذلك ؟ ٠

قال الملك : نعم أشهـد عند الله يا عمـرو ، فأطعني واتبعه ، فوالله انه لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه ،كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت أتبايعني له على الاسلام ، قـال‌نعم ، فبسط يده ، فبايعني على الاسلام، ثم دعا بطست ، فغسـل عني الدم ،وكساني ثيابا ، وكـانت ثيابي قـد امتلأت بالدم فألقيتها ٠

ثم خرجت على أصحابي ، فلما رأواكسوة النجاشي سروا بذلك ، وقـالوا هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ قلت‌كرهت أن أكلمه في أول مرة ، وقلت أعود اليه ، فقالوا الرأي ما رأيت ففارقتهم ، وكأني أعمد الى حاجة ،فعمدت

الى موضع السفن ، فأجد سفينة قـــدشحنت وتدفع فركبت معهم ، ودفعوها، حتى انتهوا الى الشعبة ٠

وخرجت من السفينة ، ومعي نفقه، وابتعت بعيراً ، وخرجت أريد المدينة مررت على الظهران ومضـيت حتى اذاكنت بألهدة ، فاذا رجلان قد سبقاني بغير كثير ، يريدان منزلا ، وأحـدهماداخل في الخيمة ، والآخـر يمســـك الراحلتين ، فنظرت فاذا خالد بن الوليد، فقلت أين تريد قال محمد ، دخـــل الناس في الاسلام ، فلم يبق أحد ،واللهلو أقسمت لأخذ برقابنا كما يؤخـــذ برقبة الضبع في مغارتها ، قال عمروو أنا والله أردت محمد أو أردت الاسلام، فخرج عثمان بن أبي طلحة فرحب بيفنزلنا جميعا في المنزل ، ثم اتفقنـــا حتى أتينا المدينة فما أنسى قول رجللقيناه ببئر أبي عنبة يصـيح يا رباح يا رباح فتفاءلنا ، بقوله وسرنا ، ثمنظر الينا ، فأسمعه يقول : قد أعطت مـــكة القـــادة بعد هذين فظننت أنهيعنيني ، ويعني خالد بن الوليد ،وولى رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلمالى المسجد سريعا ، فظننت أنه بشـــر بقدومنا ، فكان كما ظننت وأثخنـــابالحرة ، فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودي بالعصر فانطلقنا على محمد صـلىالله تعالى عليه وسلم ، وان لوجهه تهللا والمسلمون حوله قد سروا باســـلامنافتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقـدمت ،فوالله ما هو الا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منـــه ،فبايعته على أن يغفر لي ما تقـدم من ذنبي ، فقال ان الاسلام يجب ما قبلهوالهجرة تجب ما قبلها ، فوالله ما عدل بي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلموبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا ٠

نقلنا الحديث بطوله ، وكنا نود أننحذف الجزء الأخير ، وهو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعدل بهماأحدا من أصحابه ، فانا لا نحسب يمينه في هذا برة ان كانت صحيحة النسبةاليه ، لقد كانت بعد ذلك غزوة مؤتة وتبوك وفتح مكة وهوازن وحنين فـلميعدل بهما علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام وأبو عبيدة عامر بن الجراح،وسعد بن أبي وقاص ، ان هذه اليمين غير البرة فرية عليه أو غير ذلك ،ولماذاكان اللواء لعبد الله بن رواحة ثم لزيد بن حارثة ، ثم لجعفر بن أبي طالب ،ولم يتولهـــا خالد الا حيث لم يـــكن وال يحملها ٠

ومهما يكن من أمر هـذه اليمين ،فان ما جاء على لسانه يدل كما دل كلام صاحبه على أن اسلامهم ابتداء كـان لمصلحة ، وقد أشرب قلوبهم الايمـان من بعد ٠

هذا عمرو كان يقـول لو أسلمت قريش كلها ما أسلم ، ثم يخرج ببعض قومه ليحرض النجاشي على المـؤمنين ،ويحاول أن يتمكن من قتل رسـول من عند رسول الله ، فيلطمه النجاشي لطمة جدعت أنفه هـذه اللطمة وهي التي نبهته الى الحق ، أم نبهه غضب النجاشي ، وارادة ارضائه ليس في الوقائـع التي ذكـرها ما يدل على أنه رأى في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله مانعه ، فهو لم ير شيئا من ذلك ولذلك نقول ان اسلامه كان لمصلحته الشخصية الدنيوية ولعل الاسلام قد دخل قلبـه من بعد ذلك حتى صار ايمانا ، وهذا ما رجحناه ٠

وفي قصـة عمرو بن العاص عن نفسه ما يدل على أنه رجل لا يظهر في الهيجاء ، ويبغي لنفسـه الانحياز عن مواطن الردى ، فهو يحضر بدرا ،وينجو وأحدا ، وينجو ، والخندق ، وينجو ،ويظهر أنه لم يقتل ولم يقاتل بل كان من النظارة أو المدبرين ، كمـا كان شأنه في القتال بين امام الهدى علي بن أبي طـالب ومعـاوية يـدبر في حرب البغاة

وسيأتي من الأنباء مقامه هو وخالد بجوار صحابة النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم الذين رضي الله تعالى عنهم، ورضوا عنه في بيعة الرضوان ٠

سرايا للتعرف في البلاد

٥٧٦ ـ أخذ النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ، يرسل سرايا لمعرفة البلاد وحال القبائل ، وخصوصا التي لا يأمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جانبها ٠

فقد بعث رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم شجاع بن وهب في أربعة وعشرين الى جمع من هوازن وأمرهم أن يغيروا علمهم ، وكان بعثه يسير الليل ويكمن النهار ، جاؤوهم على غرة،وأوعز شجاع الى أصحابه الى ألا يمعنوا في الطلب ، فأصابوا نعما كثيرا ،وشاءفاستاقوا ذلك ، حتى قدموا المدينة ، فكانت سهامهم خمسة عشر بعيراًلكل رجل ٠

ثم قدم أهلوهم مسلمين ، فشاور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أميرهم في رد السبايا اليه ، فردهن ، ويقولالحافظ ابن كثير في تاريخه قد تكون هذه السرية هي المذكورة فيما رواهالشافعي عن مالك عن نافع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث سريةقبل نجد ، فكان فيهم عبد الله بن عمر، فأصابت ابلا كثيرة ، فبلغت سهامنااثني عشر بعيراً ، ونقدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعيرا بعيرا وأنانحسب أنهما سريتان ، احداهما قبل نجد والأخرى أرسلت الى هوازن ٠

٥٧٧ ـ أخذت سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تتجه الى أرض الشام ليرتادوا الأراضي التي تتاخم أرض الشام ، فيتعرف حالها تمهيدا ، أو كشفا للغزوة التي تتجه الى الشام من بعد ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كعب بن عمير الغفاري الى بني قضاعة من أرض الشام في خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا منهم كبيرا فدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوهم بالنبل فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاتلوهم أشد قتال وكانوا قلة فكاثرهم المشركون بكثرتهم حتى قتل المؤمنون في سبيل الدعوة الى الاسلام ، وكان في القتلى جريح اشتدت جراحه ، حتى ظن أنه بين الموتى ، فما ان أقبل الليل حتى تحامل حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهم بأن يبعث اليهم ، فبلغه أنهم انسابوا في الصحراء الى موضع آخر .

وقد يسأل سائل لماذا يرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سرايا قليلة العدد يتغلب عليهم المشركون بالكثرة التي لا قبل لهم بها ، فيقتلون جميعا أو كثرتهم .

ونقول في الجواب عن ذلك ، ان سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت ابتداء للتبليغ والدعوة ، ولكنهم كانوا يلتقون بقوم غلاظ لا يجيبون ، وان أمكنتهم الفرصة يقتلون ، وقد رأينا في هذه السرية الأخيرة ، كيف كانت الدعوة الى الاسلام : ابتدءوا ، فردوا ثم رشقوهم بالنبال ، ثم قتلوهم ، فما ذهبوا مقاتلين ، ولكن ذهبوا داعين الى الحق مبلغين رسالة النبي الأمين .

٥٧٨ ـ كان الاسلام يسري سريان النور ، والشام لم يكن بعيداً عن البلاد العربية ، بل كانت به قبائل من العرب ، فالغساسنة منهم ، واذا كان الاسلام يسري نوره فيعم الآفاق القريبة فقد كان من عرب الشام من دخل في الاسلام ، أو كان من العرب من سافر الى الشام ٠

وأولئك المسلمون ، وان كانوا عدداً قليلاً ضاقت بهم صدور النصارى حرجاً ، فقتل والي الشام من قبل الرومان من أسلم من عرب الشام ، ولابد أن يحمي محمد وأصحابه أولئك الذين يفتنون من دينهم لتمنع الفتنة عنهم ، ويقول في ذلك ابن تيمية في رسالة القتال ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما بعث الى حرب الروم في مؤتة الا بعد أن قتل الوالي الروماني من أسلم في الشام ٠

هذه كانت بعض السبب في سرية مؤتة وقد كان هناك سبب مباشر قوي، وهو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه الى الشام ، ثم الى ملك الروم فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطاً ، ثم قدمه فضرب عنقه ،ولم يقتل من رسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غيره الى ذلك الوقت ،فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر ، وكان لا بد أن يقف أمام هذا الغدر بقوة ،ولو كانت مقابل قوة الرومان ٠

وذلك لأنهم فتنوا المؤمنين ، بقتل بعضهم فكان ذلك ارهابا لمن يهم بالدخول في الاسلام ولأنهم قتلوا رسول النبي الأمين في وقت قد صارت عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القوة الفاضلة العليا في البلاد العربية ،فكان لابد لذلك من أن يقاوم ذلك الغدر ،لأن السكوت يكون ذلة لأهل الايمان ، وذلة للعرب أجمعين ، وهم بصدد أن يقوموا بدعوة الحق ، وحماية الشعوب من طغاتها ٠

في جمادى الأولى من السنة الثامنة بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم الى البلقاء من الشـــام ، وكانت عدتها ثلاثة آلاف رجل ، ولعلهـا أكبر الغزوات الى الآن عدداً .

وجعل الأمير على هذه البعثة زيد بن حارثة ، فان قتل زيد كان الأمير جعفر ابن أبي طالب ، فان قتل جعفر كان الأمير عبد الله بن رواحة ، فان قتـــل ، فليرتض المسلمون رجلا يكـــون أميراعليهم ، فلما فصلوا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام ، ومضـــواحتى أرض الشـــام ، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقـاءفي مائة ألف من الروم وانضم اليهم عدد من نصارى العرب ، وبلغ عدد من انضم مائة ألف أخرى .

عندما رأى جيش الاسلام ذلك كـان منه من راعه العدد والسلاح ، وقالوا نكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نخبره بعدد عـــدونا ، فاما أن يمـــدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا ، لنمضي اليه ، عندما سمع عبد الله بن رواحة ذلك الكلام المتردد وقف وقال :

يا قوم ، والله ، ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهـــادة ، وما نقاتل الناس بعدد ، ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانما هي احـدى الحسنيين ، اما ظهور واما شهادة .

قال الناس بعد هذا الكلام المـؤمن القوي قد والله صدق ابن رواحة تقدم للرومان ، وان كانوا يبلغـــون مائتي ألف ، وتقـــدم جيش وهـــو يؤمن بقوله تعالى :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (١)

تقدم المؤمنون في غـــير وجل من كثرة عدد العدو ، وقلتهم .

وتقدم الصفوف زيد بن حارثة ، وهو يحمل راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان على ميمنة الجيش رجل من بني عذرة اسمه قطبة بن قتادة ، وعلى الميسرة رجل من الأنصار اسمه عباية بن مالك وانتحى المسلمون قرية من قرى البلقاء ، فالتقـــوا بالرومان عندها .

---

(١) البقرة

واذا كان المؤمنون قد أخذتهم ابتداء رهبة العدد والسلاح ، فقد أخذت الرومان رهبة الايمان واذا كان قد استطاع المؤمنون أن يتغلبوا على ما أصاب نفوسهم من فزع العدد ، فان مائتي الألف لم يستطيعوا أن يتغلبوا على فزعهم من أنهم يلقون قوما مؤمنين أحب اللقاءاليهم لقاء ربهم .

وقد التقى الفريقان ، الفريق المؤمن ، وهو يهاجم دفاعا عن أهل الايمان الذين قتلهم والي الرومان ، ودفاعا عنكرامة الاسلام التي أهينت بقتل رسول الرسول ، وكرامة العرب وهم مزودون بمعان دافعة ، وكان جيش الرومان الكثيف في عدده وعدته ، لا غاية له الاأن يرد هؤلاء المزودين بالقوة المعنوية، وبنصرهم السابق،ولذلك كان اتجاههمالى قتل حملة الراية التي هي رمز التقدم ان تقدم حاملها ، اذ كلما تقدمزاد الهجوم قوة واحتداما وهم خائفون من هذا الهجوم ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألهم ، وما كان ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ،الهم ، أن حملة الراية سيكونون المقصودين ، فرتب الولاية بينهم فجعلهالزيد ابن حارثة لقوة ايمانه ، وليعلم الناس أنه لا شرف الا بالايمان والعمل الصالح ، ثم تكون لجعفر بن أبي طالب الذي هاجر مرتين ، لكي يعلم الناس أنه لا يضن بأهله عن مواطن الردى ، ثم لعبد الله بن رواحة ، ولم يجعلهامن بعد لأحد ، ولم يكن خالد من بين الأمراء الذين ذكرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واصطفاهم لأنه كان قريب عهد بالاسلام .

كان هم جيش الروم أن يرد المهاجمين ، ولذلك اتجه الى القواد ،وجعلهم غايته ، فقتلهم واحداً بعد واحد ، وكانهم جيش المؤمنين أن ينتصفوا لاخوانهم الذين فتنوا في دينهم فقتلوا منالرومان مقتلة عظيمة ، حتى قال خالد ابن الوليد انه أبدل في يده ستةسيوف ، ولم يبق الا صفحة يمنية ،فسل نفسك لم كان يخشى السيف في يد خالدمن هؤلاء ، الذين سارت فيهم قوة الايمان ، كما تسير السكين فيقطعة الزبد .

وأولئك القواد العظام الذين عينهمالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان ليقتل الا بعد أن عبروا ، ولا يلقيالراية من يده الا بعد رقاب عدد من الكافرين من النصارى واليهود فزيدحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحامل رايته قتل عدداًحتى قتل .

وجعفر بن أبي طالب حامي راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل حتى أحس بأن فرسه لا تسعفه ، فنزل عنها ، وأخذ يقاتل راجلا، وراية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحملها على يمينه ، فلما قطعوها حملها على شماله ، فلما قطعوها حملها بين يديه ، حتى قتل ، فكان في الجنة الطيار ذا الجناحين ٠

وهكذا كان عبد الله بن رواحة كصاحبيه أقدم عليها من غير تردد ، فكان كالصاعقة على الكافرين ، حتى استشهد، وهو حامل الراية ٠

ولا يصح أن تسقط راية المؤمنين ، وانتهى أمرها الى ثابت بن أقرم بن العجلان ، ولكنه أحس بأنه دونها ، فقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا أنت ! قال ما أنا بفاعل فاصطلحوا على خالد بن الوليد ، فلما حملها أخذ يقاتل ، وسيفه البتار يقطع الرقاب ٠

ولكنه وهو القائد المدرك علم أنه وان كانت الجولة الى الآن للمؤمنين ، ولو قتل حاملو الراية لابد أن يزحمهم الروم ونصارى العرب ويهودهم بكثرة العدد ، لأنها تطيل القتال ، ولا تتحمل القلة الطول مهما يكن ما عندهم من معنويات صابرة مؤمنة ٠

اتجه خالد الى الانحياز تمهيداً لانسحاب منظم ، وفي هذا الوقت ابتدأت قوات الروم يتخاذل بعضها من العرب، وبعضهم انضم الى خالد عند انسحابه يحكي ابن اسحاق أنه كان من حدس كاهنة ، حين سمعت بجيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مقبلا ، قالت لقومها من حدس ، قالت لهم أنذركم قوما خرزا (أي مبصرون مدركون) ينظرون شزرا، ويقودون الخيل تترى ويهريقوا دما عكرا ، فأخذوا بقولها واعتزلوا من بني لخم ، وكان من الذين صلوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة ، فلما انصرف خالد بالناس انصرفوا معه ، وعادوا قافلين الى أرضهم ٠

فالجيش الروماني ، لم يكن متماسكا ، وان كان كثير العدد ، لتعدد الأجناس فيه ، فلم تغن كثرتهم عنهم شيئاً ، ونجا المسلمون منهم ، ونجوا هم بأنفسهم ، وان جرحوا جرحاً شديداً ٠

عندما رأى خالد كثرة الكافرين ،كما ذكرنا ، أخذ يبدل في مواقف جيشه ، فجعل الميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، والصدر خلفاً والخلف صدراً فظنوا أنه قد جاءه المدد ، فلهذا أنزل الله تعالى في قلوبهم الرعب من لقاء المسلمين فآثروا النجاة بأنفسهم ، ولم يتبعوا جيش المسلمين في تراجعهم ، ورضوا من الغنيمة بالاياب ، وأخذ خالد بجيش الايمان ، حتى عاد الى المدينة سالما به ، لم يفقد في هذه المعركة الا اثني عشر قتيلا منهم الأمراء الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر ، وعبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنهم جميعاً ، وتسعة معهم ، فكانت عدة القتلى اثني عشر قتيلا •

ولكن لم يتعود أهل المدينة أن تعود اليهم جنودهم من المعركة ، حتى في أحد بقيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد نال المشركون منهم نيلا ، وجراحا لم يعد الجنود من المعركة فارين أو شبه فارين ، بل كان الجمع الذي أصيب بالجراح قد أخذ يكر وراء المشركين كرأ ، وتبعهم الى حمراء الأسد راجعين فارين من تجدد اللقاء ، ورضوا بالاياب •

لم يعجب أهل المدينة صنيع الجيش الذي قاده خالد القائد المدرك بالانحياز ثم الانسحاب ، لأنهم لم يتعودوه ، وسموهم الفرارين ، وأخذ الصبيان يحثون التراب على وجوههم ، وقد خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستقبلا فأمر بتنحية الصبيان الا أولاد جعفر بن أبي طالب فضمهم اليه، وقال انهم الكرارون ، أو العكارون ،كما جاء في بعض الصحاح والسنن ، وسماهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم متحيزين الى فئة ، فهو فئة المسلمين ، وكان ذلك تطبيقاً لقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

لم يولوا الأدبار ، بل كانوا منسحبين، لا مدبرين ، وتحيزوا الى فئة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدخلوا في استثناء الآية ، ولم يدخلوا في موضع نهيها •

---

(١) الانفال

نتيجة الغزوة

٥٧٩ ـ انتهت هذه الغزوة بنجاة الجيش الاسلامي من أن يقع فريسة لجيش الكفر ، المتكاثف ، وحسب ذلك نصراً مبيناً ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أدرك قبلها نتيجة المعركة ،فانه عندما علم أن خالداً تولى القيادة ، وحمل الراية قال تولى الراية سيف من سيوف الله يفتح الله تعالى عليه،وما كانت لتسمى النتيجة فتحاً لو كانت النهاية أن يرضى الجيش من الغنيمة بالاياب ·

ولقد قال بعض كتاب السيرة ان النتيجة كانت السلامة ، ولم تكن نصراً·

ولكنا نقول انها كانت نصراً لأسباب :

منها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماها فتحا ، وسمى الذين عادوا الى المدينة كرارا ·

ومنها أن المسلمين ساقوا غنائم ولم يؤخذ منهم شيء ·

ومنها أن قتلى المؤمنين كانوا اثني عشر ، وقتلاهم لا تحصى عددا ، فقتلى المسلمين كانوا أقل عددا ، وفيها كان النصر المؤزر ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله تعالى هي العليا ·

ولقد قال في ذلك الحافظ بن كثير في تاريخه : « هذا عظيم جداً ، أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو القلة التي تقاتل في سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف ، وأخرى كافرة،وعدتها مائتا ألف مقاتل،من الروم مائة ألف ، ومن نصارى العرب مائة ألف ،يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين الا اثنا عشر ،وقد قتل من المشركين خلق كثير ، هذا خالد وحده يقول لقد اندقت في يدي تسعة أسياف وما بقيت في يدي الا صفحة يمانية ، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها ·

دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن وقد تحكموا في عبدة الصلبان ، عليهم لعنة الرحمن ذلك الزمان وفي كل أوان ، وهذا مما يدخل

في قول الله تعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

واننا نرى أن هذا يشبه ما قرره الله تعالى من أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين ، وأن مائة صابرة تغلب ألفا ،وأنه عند قوة الايمان وقوة الصبر يكون المؤمن الصابر يغلب مائة ٠

وقد كان ثلاثة آلاف قد غلبوا مائتي ألف ، وصدق قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢)

هذا هو الحق ٠

ان غزوة مؤتة أول غزوة تخرج عن دائرة الجزيرة العربية الى دائرة أراض تحت سلطان الرومان ، فاذا كانت النتائج تكون على هذه الشاكلة ، فان النصر سيكون لجيش الحق باذن الله تعالى ، وقد كان ، فكانت اليرموك وما بعدها في عهد الراشدين ، فكانوا يفرون كما تفر الشاه أمام الأسود ٠

واذا كانت بدر أول انتصار في الأرض العربية ، فمؤتة أول انتصار مؤزر خارج الجزيرة العربية ، وهو ابتداء ليس له انتهاء أو مبتدأ له خبر٠

(١) آل عمران (٢) الانفال

٥٨٠ ـ عندما أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بلاد الشام سرية من ثلاثة آلاف لمنع فتنة الرومان للمسلمين ، ولتأديب الغساسنة الذين قتلوا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأقبل الرومان في جيش بلغ تعداده مائة الف ، وانضم من أعراب الشام مثلهم عددا ، فكان أمام المؤمنين مائتا الف نصفهم من أعراب الشمال من لخم وجذام وطيىء وغيرهم مما ضاعف البلاء على المسلمين ، ولكن كانت الغالبة ، فكانت الفئة التي تقاتل في سبيل الله هي الغالبة ، وقد ذكرنا ذلك ٠

ما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه أن يتركوا هؤلاء الأعراب من غير تأديب ، وكما قال الله تعالى :

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ (١)

فكان لابد أن يمنعهم من أن يسترسلوا في الشر ٠

أرسل عمرو بن العاص يستنفر العرب ليستميلهم اليه بذرابة لسانه ، وقد رأى عمر رجلا ألكن لم يستطع بيانا ، فقال رضي الله عنه : سبحان الله خالق لسان هذا هو خالق لسان عمرو بن العاص ، ولأنه كما قيل كانت له صلة ببعض هؤلاء الأعراب ، ومعه عدد قليل من المسلمين ٠

سار حتى وصل الى جذام ، ونزل ماء السلاسل ٠

ولكن لم يفلح لسانه في استمالة أحد ، ولم يكن كعبد الله بن رواحة يطلب من جيشه احدى الحسنيين ، ولذلك أرهبته كثرة عدوه ، فلم يصنع شيئا ، وأرسل الى الرسول ليبعث اليه الرجال وبقي ينتظر المدد ٠

---

(١) التوبة

عندئذ بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيشا من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ، والقائد أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة .

ولقد تحرك في عمرو حب الرياسة التي ظهرت من بعد في عهد عثمان عندما عزله ، وفي عهد علي التي تفرق بها وبغيرها أمر المسلمين .

قال لأبي عبيدة انما جئت مددا لي، وهو ما أرسل في جيش من المهاجرين والأنصار ، ولكن أرسل طليعة للتعرف والاستمالة .

وما كان من شأن أبي عبيدة أن يعطي رياسة الجند الا بأمر الرسول لعمرو بن العاص الذي هو حديث عهد بالاسلام ، ولكن أبا عبيدة لم يجابهه بأن الأمر له بل قال اجابة له لا ، ولكني على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت .

ولكن عمرواً أصر على قوله ، وقال : أنت مددي .

وهنا بدت تقوى التقي المؤمن ، فقال له يا عمرو ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تختلفا ، وانك ان عصيتني أطعتك .

هذه صورة عمرو في أول اسلامه ، وهي صورته عند تولي الامرة على مصر عندما عزله ذو النورين عثمان بن عفان ، لقد قال : كنت ألقى الراعي فأحرضه عليه ، وهي صورته عندما اجتمع مع معاوية ضد امام الهدى علي لأنه يعلم أن علياً لن يعطيه امرة في شيء .

أخذ الجيش الاسلامي يطارد القبائل التي ظاهرت الروم ، فتوغل الجيش الاسلامي ، وكلما انتهى الى قبيلة ولت الأدبار ، ولم يصطدم الا مرة واحدة ، وانتهت بفرارهم .

وبذلك كان تأديب هذه القبائل الأعرابية ، وبدت كلمة الاسلام عالية كما هي ، وبذلك انتهى المراد من هذه السرية .

٥٨١ ـ في رجب من السنة الثامنة أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا عبيدة في ثلاثمائة رجل الى القبلية ، على ساحل البحر الأحمر ، داعياً الى الاسلام ، ومتعرفاً أمر القبائل هناك ، وكان في السرية عمر بن الخطاب .

ولقد أصاب أولئك الصحابة جوع فى الطريق ، فلم يجدوا ما يأكلونه حتى أكلوا ورق الشجر .

واشترى قيس بن سعد ابلا ونحرها لهم ، وانصرفوا ، ولم يلقوا حرباً وما جاءوا للحرب ، بل للدعوة الى الاسلام ، والعمل على نشره والتعريف به في وسط القبائل .

٥٨٢ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في شعبان من السنة الثامنة أبا قتادة الأنصاري الى غطفان في نحو خمسة عشر رجلا .

وغطفان هي القبيلة العنيفة التي عاونت قريشاً في غزوة الخندق ، وهي التي همت بأن تعاون اليهود في خيبر ، وكان منها من ناصر جيش الرومان في مؤتة فسار اليهم في هذا العدد القليل، وأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يشن الغارة عليهم ، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار ، حتى لقيهم فهجم على جمع عظيم منهم ، وأحاط بهم ، وقاتلهم قتالا شديداً فقتلوا بعضهم ، واستاقوا النعم والشاة ، وعادوا الى المدينة بعد خمس عشرة ليلة ، ولا شك أن الغرض من هذه السرية هو تعرف أطراف الجزيرة العربية ، والدعوة الى الاسلام حيثما ساروا ، وأينما اتجهوا .

فما كانت هذه السرايا للقتال ، ولكن لمعرفة الأراضي الدانية والقاصية والاعلام بالاسلام للدخول فيه طوعا لا كرهاً .

وقد بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أبا قتادة الأنصاري أيضاً الى أختم على بعد ثلاثة برد ، من المدينة ، بعثه في رمضان وكان الغرض من ارسالها تعمية قريش عنه حتى لا تصده اذ كان بعدها فتح مكة بليال ، أو كانت في ليلة الثانية عشرة من رمضان .

٥٨٣ ـ كان الاسلام ينتشر في البلاد العربية قاصيها ودانيها ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرسل الدعاة، والناس منهم من يستجيب مؤمنا صادقاً، فيهاجر الى المدينة ليكون قوة مع قوة المؤمنين ، ومنهم من يسلم ، ويذعن مستسلماً من غير أن يسكن الايمان قلبه ، وان ذلك كان في الأعراب الذين لم يخالطوا أهل الايمان ولم يجاوروهم، ولم يلتقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليطلبوا منه ، ولم يقرءوا القرآن مستمتعين بتلاوته ، ولذلك قال الله تعالى فيهم :

﴿ * قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (١)

وكان من الأعراب من ينتظر أيكون الغلب للمشركين أم لمحمد وأصحابه فهم كانوا مذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء ،ومنهم من يبلغ به العناد في الكفر أن يجيئوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مظهرين أنهم يطلبون الهداية فيرسل اليهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يحفظهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام فيغدرون بهم ، ويقتلونهم ،كما قتلوا طائفة من القراء بلغوا سبعين ومنهم من كانوا يأخذون المؤمنين ويبيعونهم للمشركين ، كما فعل مع خبيب وأصحابه الذين باعوهم لأهل مكة ، وقتلوهم قتلة فاجرة ، فكان الحق ويقول الله تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الحجرات (٢) التوبة

وكان هذا النوع من النفاق الأعرابي متغلغلا في الصحراء وحول مكة ، وحول المدينة المنورة ذاتها ، فقد قال تعالى :

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (١)

ولقد قسم الله تعالى الأعراب قسمين متعادلين أولهما منافق جلي النفاق يحسب الزكاة مغرما ومنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات ، ولقد ذكر سبحانه وتعالى القسمين فقال تعالت كلماته :

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ (٢)

هكذا كان في الأعراب المؤمن الطاهر ، والمنافق .

ومن هؤلاء المنافقين كانت الردة التي أعقبت وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان انتشار الاسلام بين الأعراب على النحو الذي بينه الله تعالى في كتابه .

كان الأعراب بين منافق كافر غادر ، وبين مسلم يتربص الدوائر ، وبين مؤمن تقي طاهر ، ومهما يكن أمرهم فقد كان الاسلام ينتشر مع هذا الدخل، وان دخل الاسلام قلبا ، ولو على تردد فانه بتوفيق الله تعالى ، من بعد ذلك يشرق اشراقا ، ثم يكون من ذلك ايمانا .

وان الحروب التي وقعت بين المشركين ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين كانت قوارع تقرع النفوس العربية ، فيهتز صداها في النفوس ، اذ خلاصتها انها قتال بين التوحيد ديانة ابراهيم أبي العرب عليه السلام ، وباني البيت الحرام ، وبين الشرك فيدعوهم الى التفكير بين الوحدانية والشرك ، وبين ملة ابراهيم محطم الأوثان ، وبين عبادة الأصنام ،

---

(١) و(٢) التوبة

فان ذلك يدفع نفس العرب والأعراب الى التفكير في الأمر تفكيراً من غير ارهاق ٠

وفوق ذلك فان الحرب بين الايمان الذي ينصره الله تعالى ويؤيده، والشرك الذي يتوالى خذلانه يدفع الى تعرف السر في النصر مع قلة العدد، والخذلان مع كثرته ، وان واقعة الخندق وحدها داعية الى التفكير في القوة الخفية التي نصرت محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم، اذ أرسل الله تعالى ريحاً عاتية قلبت أوعيتهم ، وخلعت أخبيتهم ، وخلعت مع ذلك قلوبهم ، ففروا من اللقاء فراراً ، ان هذه وحدها قارعة تلفت العقول عن عبادة غير الله تعالى ، لأنها تدرك أن الله مؤيد دعاة التوحيد بغير ما يقدرون ، وما يقتدرون ٠

وان الغزوات الكبار كان بجانبها سرايا تنبت في أنحاء البلاد العربية داعية كاشفة هادية أو مقاتلة ان رأت غدراً وخيانة ٠

وان كل هذا يدفع الى التفكير في الدين ، والموازنة بينه وبين عبادة الأوثان ، وان الجمود على اتباع الآباء ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون هو الذي يصم الآذان والقلوب عن ادراك الحق ، فقوارع الحرب تسمع الذين في آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة ٠

واذا فتحت المدارك اتجهت الى الطريق المستقيم ، الذي لا عوج فيه ، ولا أمت ٠

وفي الحق ان دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صغت اليها قلوب الضعفاء ابتداء ، ثم كانوا من بعد قوة الاسلام التي أزعجت الكفر في مكامنه ، وهدته الى مواطن الهداية ٠

لا نقول ان الحرب أكرهت أحداً على الايمان ، ولكن نقول ان قوة الحق أخذت غير المحاربين الى محراب الايمان فجاءوا اليه طائعين مختارين ، لأن الحرب العادلة تجعل المنصفين يميلون الى الحق، ولأن انتصار المؤمنين لايمانهم يجعل النفوس ترمقهم ، والقلوب تصغي اليهم ٠

ولذا كانت الوفود من بعد ذلك تجيء من القرى والقبائل تعلن ايمانها، وتتعلم الاسلام ، وتسمع تلاوة القرآن كما سنتكلم ان شاء الله تعالى على الوفود التي جاءت تترى ، التي جاءت بنور الحق لتسمع الحق من الداعي الى الحق،

وان ذلك كله جاء من تسامع العـــرب بمحمد صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وكانت الحروب من أسباب ذلك ٠

وان انتهـــاء القتال بصلح ابتداء ،ثم بمواجهة بين النبي وبين من يماديه هي الأخرى دعوة الى الاسلام في هدأة النفوس ، وقرار القلوب ، وقد صار صـــوت الحق هو وحده الذي يتكلم ،وسكتت صلصلة الأسلحة ، وفي هـذه الهدأة وقد خبت العداوة ، واطمـأن الجامح ، ولم تكن العـداوة التي تؤجج النفوس بل السلم العزيزة هي ترطـب النفوس والأفئدة ، وحينئذ دخل بعض العرب ، ومال الذين كانوا يحـاربون النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم الى الاسلام ، وبدءوا يفكرون بقلب سليم من الأضغان ، قد استلت منه الأحقـاد وسخائم النفوس وما كان المشركـــون لينفروا من الايمان الا جحوداً وعناداً، فاذا اختفى العناد كان التفكير السليم،وهو سبيل الاسلام ، وكان كل أمر بعد ذلك يوجه الى الايمان، ولا يرنقه حقد،ولا محنة ، ولا احنة وتوالت الأمـــور التي تقرب الأرحام ، وتوصل من كانوا قد قطعوه من رحم متوادة رحيمة ٠

وان عمرة القضاء التي كانت في العام السابع دنت بهـــا قلوب كـانت متباعدة ، وأذن المؤذن تكبيراً لله تعالى وحمده على الكعبة الـــكريمة المشرفة زادها الله تعظيما ، عندئذ مالت قلوب أعتى الكافرين عداوة ،وان لم يتقدموا بالايمان ،حسبك أن يكون منهم عكرمة بن أبي جهل فقد مال الى الاسلام ،وأن يعمل على اعلان ايمانه كما فعل صاحبه خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص ٠

فقد رأت قريش محمداً صـــلى الله تعالى عليه وسلم يعظم البيت الحرام ، ويقيم شعائره ، وينحر الهـدي عنـد المروة ويقيم المودة بدل القطيعـــة ، ويحاول أن يقيم وليمة يتناولون فيهـا الطعام على مائدة الرحمن دخل الى مكة راضياً ، وخرج عنها وهم راضون ٠

وبعد أن خرج أخذت النفوس تفكر في الاسلام ، لقد وقف خالد بن الوليد يدعوهم الى التفكير في أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ، لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ،ولا شاعر ، وان كلامه من كـــلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه٠

بلغ أبا سفيان ما قاله خالد ، فسأله عن صحة ما سمع ، فأكده ، فاندفع أبو سفيان غاضبا ، وقد باعد بينهما عكرمة بن أبي جهل وكان يميل في هذه القضية الى خالد ، فقال مهلا يا أبا سفيان أتقتلون خالدا على رأي رآه ، وهذه قريش كلها عليه ، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة •

وما حال الحول حتى كان فتح مكة ،وكان أهل مكة على ما كان خالد ، وكان أبو سفيان من المسلمين ، وأخذ الاسلام يدخل مدائن العرب ، وأخبيتهم ما بين مؤمن مذعن ومسلم ، وكافر يعرفه ويكرهه ولم يبق الا أن يخرج نوره من أرض العرب الى غير العرب •

وكان التدرج يقتضي ذلك بأن يكون في أم القرى ، وما حولها ، ثم يكون في يثرب مجتمع القوى ، ثم يكون في العرب أجمعين ، ويخرج من مشرق العرب الى حيث النار والصليب ،فيطفيء النار ويحطم الصليب ،وتكون الكلمة لله وحده رب المشارق والمغارب•

بعث الرسائل للملوك

٥٨٤ ـ اتفق علماء السيرة والصحاح على أن الارسال الى الملوك والأمراء كان بعد الحديبية وقبل الفتح ، ولكن اختلفوا أكان بعد صلح الحديبية أم كان بعد عمرة القضاء أمكان بعد مؤتة ٠

وان الذي نختاره أنه كان بعد عمرة القضاء ، وقبل مؤتة ، وذلك لأن عمرو بن العاص خرج من مكة مريدا الهجرة الى الحبشة بعد عمرة القضاء وقد التقى في الحبشة بمن بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى النجاشي ، كما أنه التقى في أثناء ذهابه الى المدينة بخالد بن الوليد ،وقد كانت ارادة خالد بن الوليد ، الذهاب الى مكة وكلماته في الدعوة الى اتباع محمد رضي الله عنه عقب عمرة القضاء مباشرة ٠

وان السياق التاريخي يثبت أن الكتاب الى ملك الروم ، وأمير الغساسنة في الشام كان قبل مؤتة لأن غزوة مؤتة كانت بسبب قتل بعض من أسلم من الشام ، وبسبب قتل الرسول الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أمير الغساسنة ، والسبب مقدم على المسبب ، فكان الكتاب بلا ريب سابقا على مسببة وهو غزوة مؤتة ٠

وفوق هذا كله، فان السنة الصحيحة تصرح بأن الارسال الى الملوك قبل مؤتة ، فلقد روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتب قبل مؤتة الى كسرى وقيصر ، والى النجاشي ، والى كل جبار يدعوهم الى الاسلام ٠

٥٨٥ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى هرقل دحية بن خليفة بكتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى •

أما بعد ، فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين وان توليت ، فانما عليك اثم الأريسيين ، يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » •

وقد كان هذا الكتاب الكريم له أثره في أوساط الرومان ، وأهل الشام ومشركي قريش ، لم يأخذ هرقل الكتاب كما يأخذ ملك من رجل يخشى على ملكه منه ، بل أخذه كما يأخذ عالم يلقى خبراً له صلة بعلمه ، فقد كان هرقل حزاء له علم بالملاحم والنجوم وأخبار النبيين ، فكان عالما من علماء النصرانية الذين يريدون أن ينتشر الحق في ذاته ، لولا الملك وسورته •

عندما وصل الكتاب اليه ، أرسل يبحث عن بعض قوم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في البلاد الشامية فعلم بركب تجار من مكة ، على رأسهم أبو سفيان قائد الشرك ، قد دعاهم الى مجلسه ، وحول (هرقل) عظماء الروم ، ثم دعا أبا سفيان ومن معه ودعا الترجمان ، واليك الحديث كما جاء في البخاري •

قال هرقل بلسان الترجمان أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي •

فقال أبو سفيان أنا أقربهم نسبا ،فقال هرقل أدنوه مني وقربوا أصحابه عند ظهره ، ثم قال لترجمانه قل لهم اني سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبني فكذبوه ، قال أبو سفيان ،فوالله لولا أن يؤثروا عني كذبة في العرب لكذبت عنه ، ولنترك الحكاية كلها لأبي سفيان ·

يقول أول ما سألني عنه أن قال :كيف نسبه فيكم ، قلت هو فينا ذو نسب قال فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟قلت لا · قال : فهل كان من آبائه من ملك · قلت لا ، قال فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟قلت بل ضعفاؤهم، قال أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ! قلت لا · قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قلت لا ، قال فهل يغدر ؟ قلت لا ونحن منه في مدة ، لا ندري ما هو فاعل فيها ، ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، قال فكيف قتالكم اياه ؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا ، وننال منه قال :ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف والصلة ·

قال للترجمان بعد ذلك قل له : سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا ، فقلت لوكان أحد قال هذا القول لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك ، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ،وسألتك ، أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم اتباع الرسل ، وسألتك أهم يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت انهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لايغدرون،وسألتك بم يأمركم فذكرت أنه يأمركم

أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ،وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ٠

فان كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أني أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه ٠

كان لهذا الكلام أثره في نفس أبي سفيان العدو المشرك ، فقال : « لقد أمر ابن أبي كبشة (زوج المرضع التي أرضعت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) انه يخافه ملك الأصفر ، وهذه بلاريب كلمة الشرك ، ولكن كان الكلام من هرقل له أثر أعمق من ذلك في نفس أبي سفيان ، فقد قال : ما زلت موقنا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله تعالى علي الاسلام ولكن أن فتحت له مغاليق كانت متكافئة في نفسه ، حتى لا تكشف فيه قلب المسلم ٠

٥٨٦ ــ هذا أثر الكتاب في قلب هرقل ،ونراه يصدق كل ما فيه ،ويميل الى الاسلام ، وقبول ما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن هل أذعن للحق ، وقبل الاسلام ديناً !!يظهر أنه حاول ذلك ولكن قومه لم يقبلوه ، وتخير بين الاسلام والاذعان ،وبين البقاء على الملك ، فاختار الملك ، وبذلك اشترى الضلالة بالهدى ، فبارت تجارته عند الله ٠

ولنذكر الأمر كما وقع ، وما كان ينبغي أن يقع ، ولكنه الابتلاء ٠

لقد كان هرقل كما قلنا عالما ، وكان حزاء أوتي علم النجوم ، وعلم الملاحم ، وكان حين قدم من أيلياء ،وهي الأرض التي التقى فيها مع أبي سفيان ومن معه من التجار ــ خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك ، فقال لهم أني نظرت أني رأيت حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر ، وعلم من تحريه أن العرب يختتنون فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ٠

وقد أرسل الى صاحب له برومية على مثل منزلته من العلم ٠

وسار الى حمص ، فلم يتركها حتى جاءه كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ونرى من هذا أنه كانت عنده أمارات قد علم بها بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت الصور التي تتراءى له أنه ملك ، ولكن الله تعالى قد آتاه ما هو أعظم من ذلك ، وهو النبوة التي تأتي بخير الدنيا والآخرة .

وكانت هذه المعلومات سواء أكانت منتجة في ذاتها ، أم غير منتجة فانها أثرت في نفسه ، وجعلته على استعداد لقبول الحق اذ جاء اليه ، وان المقدمات هنا ، وان كانت ظنية في ذاتها قد مهدت لقبول الحق .

اقتنع هرقل كما قلنا بأنه الحق ، وأراد أن يعرضه على الملأ من قومه داعيا اليه ، فأذن هرقل لعظماء الروم أن يحضروا في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع عليهم فقال :

يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم ، فاتبعوا هذا النبي ، فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت .

فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من ايمانهم ، قال ردوهم علي ، وغير وبدل من قوله ونيته ، وقال : « اني انما قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه » .

وهكذا غلبت عليه الشقوة على الهداية ، لقد برق له نور الحق وأضاء له ، فلما هم أن يمشي فيه ، وقف الملك وسلطانه ، فكان الظلام بعد النور ، والضلالة بعد الهداية ، وأمر بقتل من قتل من المسلمين وجيش الجيوش لحرب المسلمين في مؤتة ، وفي تبوك ، ومن بعد ذلك في اليرموك ومهما يكن من أمر نهاية الكتاب بالنسبة لهرقل والملأ من قومه ، فان الاسلام قد عرف في وسط الرومان ، وعرف في الشام، وتذاكر به الناس ، وعرف ما كان من هرقل لعظماء ملته والنور دائما يخترق الظلام مهما تكن الحجب ، والغياهب والظلمات فالكتاب أثمر ثمراته ، وان لم يكن الايمان عاجلا ، وانه آجل والأجل قريب .

ومنهم من آمن ، وان لم يعــرف ايمانه ٠

يروى أن هرقل عندما جاءه كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطاه لكبير الأساقفة الذي كان صاحب أمرهم يصدرون عن رأيه وعن قوله ، فلمــا قرأ الكتاب قال : هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كنا ننتظــره ، قال هرقل فما تأمرني ، قــال الأسقف أما أنا فمصدقه ومتبعه ، فقال قيصر انه كــذلك ، ولكني لا أستطيع ، ان فعلت ذهــب ملكي وقتلني الروم ، لم يذهب اذن الكتاب صرخة في واد ، بل كان له صدى ، وظهر فيما بعد ٠

٥٨٧ ـ عندما أراد النبي أن يرسل الى الملوك وقف في الصحابة خطيباً وبعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله قال :

أما بعد فاني أريد أن أبعث بعضكم الى ملوك الأعاجم ، فلا تختلفوا علي كما اختلف بنو اسرائيل على عيسى بن مريم .

فقال المهاجرون انا لا نختلف عليك في شيء أبداً ، فمرنا وابعثنا .

فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى .

وظاهر هذا الكتاب أنه أرسل الى كسرى عقب هذا البيان النبوي ، وربما يومىء الى أن الكتاب الى كسرى كان قبل الارسال الى ملك الروم ، ولكنا نرجح أن الارسال للملوك جميعا كان في وقت واحد ، وربما كان وصول الرسول الى هرقل قبل وصوله الى كسرى .

ومهما يكن الأمر من ناحية السابق واللاحق ، فانه ثبت أنه أرسل للملكين ولغيرهما من الملوك والرؤساء .

بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى ، فمضى بالكتاب اليه ، ووقف أمام بابه مستأذنا مع عظماء الفرس ، وقد أذن لعظماء الفرس ، ثم أذن له من بعدهم فلما دخل أراد أن يدفعه لغيره ، فأبى الا أن يدفعه اليه بشخصه ، وقال له لا حتى أدفعه أنا اليك كما أمرني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال كسرى ادن فدنا منه وناوله الكتاب ثم دعا كاتبا من أهل الحيرة فقرأه ، فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله الى كسرى عظيم الفرس .

سلام على من اتبع الهدى ، وشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله تعالى ، فاني أنا رسول الله الى الناس

كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، وان تسلم تسلم ، والا فان عليك اثم المجوس ·

فلما قرأه مزقه فدعا عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يمزق ملكه ·

ولم يكتف بأن مزق الكتاب ، بل أراد قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فارسل الى باذان ، وهو نائبه على اليمن ، أن ابعث الى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به ، وحسب أن الاتيان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مكبلا بالحديد ، امر سهل ، ونسي أن العرب في واقعة (ذي قار) قد أذاقوه من الحرب أبؤسا ، ومحمد في جنده لا يقل عن قوة العرب في ذي قار ، ولكنه غرور السطوة الذي يدلي بصاحبه حتى يجعله عبرة للمعتبرين ·

استجاب نائبه الى طلبه غير المعقول في غايته ، فبعث باذان قهرمانه ، وكان كاتبا حاسبا ، وبعث معه رجلا من الفرس يقال له خرخسرة ، وكتب معهما الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى ·

ويظهر أن نائبه باليمن لم يكن يريد ايذاء ، ولكن يريد أن يتعرف خبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب الكتاب اطاعة لكسرى ، وأراد أن يتصرف لنفسه ، فأراد التعرف ، وهكذا يغتر الطغاة ، فيحسبون أن الناس قلوبهم طوع أيديهم ، مع أن قلوبهم لأنفسهم ولالههم ·

قال نائب كسرى لمن أرسله بالكتاب ايت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره ، وهذا يدل على أنه لن يجيب كسرى ، فغاية كسرى ليست غايته ، وانه هو يريد أن يعرف الاسلام ·

خرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلا من قريش في أرض الطائف فسألاه عنه ، فقال هو بالمدينة ، واستبشر أهل الطائف بهما ، وقال بعضهم لبعض أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل ·

خرج الرجلان الى المدينة حتى قدما على المدينة ، فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان (نائبه باليمن) يأمره بان يبعث اليك من يأتيه بك ، وقد بعثنا اليك لتنطلق معنا ، فان فعلت كتب (نائب اليمن)

الى ملك الملوك يمنعك ويكفه عنـك ،وان أبيت فهو من قد علمت ، فهـو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك،وظنا أن ذلك يرهب الرسل ، اذ مثله يرهبهما ، ولكن الرسول لم يلتفت الى كلامهما ، لأن الله يعصمه بل اتجـه اليهما ، وقد حلقا لحاهما ، وأعفيـا شاربهما ، فكرر النظر اليهما ، وقال لهما : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قـالاأمرنا ربنا ، يعنيان كسرى فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولـكن ربي أمرني باعفاء لحيتي وقص شاربي.

ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتياني غدا ، وقد أعلم الله رسوله بأن كسرى قد قتله ابنه شيرويه ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، عنده ذلك العلم من الله تعالى ، دعاهما فأخبرهما .

فقالا هل تدري ما تقول ؟ انا قـد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ،فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك بازام (نائب كسرى) .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:أخبراه ذلك عني وقولا له ، ان ديني سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي الى الخف والحافر ، وقـولا ان أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قـومك من الابناء ثم أعطى خرخسرة الفارسي أحد الرسولين منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك.

خرجا من عنده حتى قدما على باذان(نائب كسرى) في اليمن .

فقال هذا الملك النائب عن مـلك الملوك كسرى : ما هـذا بكلام ملك ، واني لأرى الرجل نبياً ، كما يقـول :وليكونن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل ، وان لم يكن فسنرى فيه رأياً .

علم الجميع أن كسرى قد قتل بيد ابنه ، وقد أعلمهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، والرسولان عنده ،والأخبار عنه منقطعة عن طـريق البرد وغيرها .

وبينا نائب كسرى باليمن على الأمر الذي لم يصل اليه نبؤه ، وهو في تردد في قبوله ، جاءه كتاب شيرويه الابن ،وجاء في هذا الكتاب .

أما بعد : فاني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله الا غضباً لفارس ، لما كان قد استحل دم من قتل من أشرافهم ، ونحرهم في ثغورهم ، فاذا جاءك كتابي هذا

فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانطلق الى الرجل الذي كان كسرى قد كتب اليه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه •

انه بلا شك لم يكن الابن على عزيمة أبيه فيما يتعلق بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل تردد ، وكل ما أمر به ألا يهيجه فلا يطلب اليه الحضور ، حتى يكون أمر جديد •

تلك أمارات متتالية تدل على صدق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يدعو اليه من وحدانية وصدقه في دعوى الرسالة الالهية •

وان أحد الرسولين الذي كان يتكلم باسمهما في حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : ما كلمت أحداً كان أهيب عندي منه •

فكر أمير اليمن وقدر ما بين يديه من علم ، وانتهى تفكيره الى الاسلام والتسليم ، وقال ان هذا الرجل لرسول ، فأسلم ، وأسلمت الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن •

وبذلك دخل الاسلام أرض اليمن ، ووجد له فيه دعاة •

وقد روى البيهقي أن شيرويه هذا الذي قتل أباه ، قد استخلف من بعده ابنته ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أنفسهم امرأة •

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأثره ، واذا كان لم يؤثر في كسرى الا سلباً ، فقد أثر في غيره ايجاباً واستجابة ، لقد أثر في نائبه في اليمن ، فأسلم وهو فارسي ، وأسلم من معه من الأبناء من فارس ، وهم باليمن بما وصل اليه الاسلام في شعب اليمن العربي الأصيل •

ولم يكن كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صرخة في واد ، بل كان لها استجابة ، واذا كان العدد قليلا فانه سيكون كثيراً في اليمن وما وراءها وقد كان •

٥٨٨ ـ كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى النجاشي ملك الحبشة أصحمة ، وقد رجا فيه الخير ، لأنه أكرم أصحابه عند الهجرة الى الحبشة ،فهو يدعوه في هذا الكتاب ، وقومه ،وكان قد أسلم من قبل فيما يروي الرواة ، وفيما يدل عليه ما اقترن بالكتاب من قول ، وهذا نص الكتاب وما دار حوله.

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة ، « فاني أحمد الله تعالى اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى فخلقه الله تعالى من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيده ، واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله ، واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فأقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى » •

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفق الدعوة ، وحكمة النبوة ظاهران فيه ، ولقد بعثه مع عمرو بن أمية الضمري الذي جاء بهذا الكتاب ، ولأنه رفيقاً وكان يميل للاسلام ، كان لرسول النبي شرح وتوضيح وتأكيد لمعنى الرسالة •

قال له عمرو : «يا أصحمة، ان علي القول ، وعليك الاستماع ، انك كأنك في الرقة علينا ، وكأنا في الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط ، الا نلناه ولم نخفك على شيء الا أمناه ،وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ،وقاض لا يجور ، وفي ذلك الموقع الحز، واصابة المفصل ، والا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رسله في الناس فرجاك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه ،بخير سالف ، وأجر ينتظر » •

أجابه النجاشي اجابة المؤمن فقال :أشهد أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس أشفى من الخبر ،وأردف ذلك بأن حمل عمرو بن أمية كتاباً الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وهذا نص الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم .

الى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ من النجاشي أصحمة .

سلام عليك يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، الله الذي لا اله الا هو .

أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، انه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقد عرفنا ابن عمك(أي جعفر بن أبي طالب) وأصحابك فأشهد أنك رسول صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين .

كانت اجابة النجاشي صريحة واضحة ، وقد كان الكتاب اليه ، والى جنوده والملأ من قومه ، وقد أسلم هو ،ودعا من معه ، ولم يكرههم على الايمان، ولكن اكتفى بالدعوة من غير اكراه ،لأن الله تعالى يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١)

فبين هذا الرشد ، وكان ملكا عادلاأمن الناس وآمن بالله تعالى واستجاب لكلمة الحق من غير تلكؤ ولا تردد .

ولم يؤمن قومه .

---

(١) البقرة

٥٨٩ ـ استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الارسال الى الملوك والرؤساء لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فكان يرسل الى الرؤساء والملوك ، كما رأيناه أرسل الى هرقل وكسرى والنجاشي ، فمنهم من اهتدى ، ومنهم من ضل ، وممن أرسل اليهم المقوقس عظيم القبط الذين كانوا يرزحون في حكم الرومان، ويضطهدون في دينهم اضطهدوا من وثنية الرومان ثم اضطهدوا من مذهبهم عندما التقوا في دين واحد ٠

بعث اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع حاطب بن أبي بلتعة هذا الكتاب ٠

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط ٠

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فان عليك اثم أهل القبط ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١]

ولقد ذكر حاطب بن أبي بلتعة أنه أكرمه ، وأنزله في منزله ، وأقام عنده ٠

جمع بطارقته مع حاطب ووجه اليه أسئلة تتعلق بالنبي وقومه ، وسأله حاطب عما يتعلق بعيسى مع بني اسرائيل ٠

قال المقوقس ، هلم أخبرني عن صاحبك ، أليس هو نبيا ، قلت بل هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) آل عمران

قال فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده الى غيرها •

قال حاطب : عيسى بن مريم ألست تشهد أنه رسول الله ؟ قال بلى ، قلت فما له حيث أخذه قومه ، فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم •

قال المقوقس : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم •

أخذ بعد ذلك يتكلم حاطب بن أبي بلتعة في معنى الكتاب الذي يحمله من الرسول الكريم ، قال :

انه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله تعالى نكال الآخرة فانتقم الله تعالى به ، ثم انتقم منه ،فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك •

قال المقوقس ان لنا دينا لن ندعه الا لما هو خير منه •

قال حاطب ندعوك الى الاسلام الكافي به الله عما سواه ، ان هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم قريش وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ،وأنت ممن أدركه هذا النبي •

قال المقوقس اني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آيات النبوة باخراج الجن ، والاخبار بالنجوى ، وسأنظر •

وأخذ كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعله في خف من عاج ، وختم عليه ، ودفعه الى جارية ومن بعد ذلك دعا كاتبا له يحسن العربية ،فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط •

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا بقي ،وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد

اكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

هذا ما كتبه المقوقس : وهـو يدل على أنه كصـاحبه هرقـل قد اقتنع بالقرآن والاسلام ، ولكن تردد في القول ، وتلطف في الرد ، وبنى تردده على أنه كان يظن أنه سيخرج من الشام .

وكانت احـدى الجاريتين مارية القبطية التي كـان ابراهيم بن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منها ، وأشهر الروايات أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعتقها وتزوجها .

٥٩٠ ـ ذكر الواقدي في تاريخه باسناده عن عكـــرمة مولى عبد الله بن عباس أنه وجد كتاباً في كتب عبد الله بن عباس بعد موته فنسخه ، فتبين فيه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث العلاء الحضرمي الى المنذر بن ســـاوى وكتب اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام، ولم يذكر أنه عثر على نص كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن وجد رد ابن ساوى ، ثم رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واليك كتاب المنذر •

الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما بعد يا رسول الله فاني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ، ودخـــل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبارضي يهود ومجوس فأحدث إليّ في ذلك أمرك •

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى •

سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، وأشهـد أن لا اله الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فاني أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح انما ينصح لنفســه ، وأنه من يطع رسلي ، ويتبع أمرهـم ، فقـــد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد ينصـح لي ، وان رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، واني قد شفعتك في قـــومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل ، وانك مهما تصلح لا نعزلك عن عملك ، ومن أقام عـــلى يهودية أو مجوسية ، فعليه الجزية •

وقد دل خبر هذا الكتاب على أن عبد الله بن عباس كان حريصاً على أن يكتب كتب النبي صلى الله تعالى عليه وســلم ويحفظها في خزانة كتبه ، وأنه يعلن للناس ما يعلن وهو الأكثر ، وقد يبقى مالا يعلن ودل الكتاب على أنه مرســل لأهل البحرين ، وأن المنذر بن ســاوى كان واليها ، ويدل على استجابة الوالي لدعوة الاسلام ، وأن الجزية تفرض على اليهود والمجوس ، وتدل على أمر آخــر

هو الحكمة وهو أن أبقى الوالي الذي سارع الى الاسلام في أمرته ، ليكون أميرهم ، ولم يرسل واليا من كبار الصحابة أو غيره ، وذلك ليشعروا أنه ليس أجنبيا مسيطرا ، ولكنه من أنفسهم ، وما دام مستقيما فانه أجدر لعلمه بنفوسهم ، وخبرته بأحوالهم ، وأن يأتيهم من حيث يألفون ويعرفون .

وفي الخبر ما يدل على فرض الجزية على الذين لا يؤمنون ، اذا كانوا في ولاية مسلم وهم هنا اليهود والنصارى والمجوس ، وقد أجمع الفقهاء على فرض الجزية عليهم ، وأجاز أبو حنيفة فرض الجزية على الوثنيين غير العرب قياساً على المجوس .

٥٩١ ــ لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يني عن الدعوة الى الاسلام في الحواضر والبوادي ، وأهل الوبر ، وأهل المدر ، كما رأيت في كتابته للملوك ٠

لقد أرسل الى عمان باليمن ، وكان عليها أميران هما جيفر ، وعبد ابنا الجلندي وقد أرسل لهما كتابا حمله عمرو بن العاص ، وهذا نص الكتاب٠

بسم الله الرحمن الرحيم ٠

من محمد بن عبد الله الى جيفر وعبد ابني الجلندي ٠

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد،فاني أدعوكم بدعاية الاسلام ، أسلما تسلما فاني رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، فانكما ان أسلمتما ، وليتكما ، وان أبيتما أن تقرا بالاسلام، فان ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكم وتظهر نبوتي على ملككما ٠

كتب الكتاب أبي بن كعب ، وختم الكتاب ٠

يقول عمرو بن العاص ، خرجت حتى انتهيت الى عمان ، فلما قدمنا عمد الى عبد أحد الأخوين وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا ، فقلت اني رسول من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليك ، والى اخيك ، فقال أخي المقدم علي بالسن والملك ، وأنا أوصلك اليه ، حتى يقرأ كتابك ، ثم قال وما تدعو اليه ، قلت أدعوك الى الله وحده ، لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله٠

قال عبد : انك ابن سيد قومك ،فكيف صنع أبوك ، فان لنا فيه قدوة ، قلت مات ، ولم يؤمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووددت أنه كان أسلم ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله تعالى الى الاسلام ٠

فسألني فمتى تبعته ؟ قلت قريبا ،عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال فكيف صنع بملكه ، فقلتأقروه واتبعوه ، قال والأساقفة والرهبان تبعوه ، قلت نعم ٠

قال : يا عمرو انه ليس خصلة فيالرجل ، أفضح له من الكذب ، قلت ما كذبت ، وما نستحله في ديننا ٠

قال : هل علم هرقل باسلام النجاشي، قلت : بلى ، قال بأي شيء علمت ذلك؟ قلت كان النجاشي يخرج خرجا له ،فلماأسلم وصدق بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم منعه وقال : والله لو سألني درهماواحداً ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له أخوه (أي هرقل) : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك ، دينا محدثا ٠

قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختار لنفسه ماذا أصنع به ، والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع ٠

قال : انظر ما تقول يا عمرو ، قالعمرو ، والله صدقتك ٠

قال عبد فأخبرني ما الذي يأمر بهوينهى عنه ٠

قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ،وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب

قال : ما أحسن هذا الذي يدعو اليه ، لو كان أخي يتابعني عليه ،ركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكنأخي أضن بملكه من أن يدعه ، ويصير ذنبا ٠

قلت : انه ان أسلم ملكه رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم ، فيردها على فقيرهم،فقال ان هذا لخلق حسن ، وما الصدقة، فأخبرته بما فرض رسول الله صلى اللهتعالى عليه وسلم في الصدقات في الأموال ، حتى انتهيت الى الابل ، قالوتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر ، وترد على المياه فقلت نعمفقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم ، وكثرة عددهم يطيعون لهذا ٠

وبعد هذه المناظرة والتحريات التيقام بها الأخ الأصغر ، ودلت علي ميله للدخول في الاسلام اتجـه عمرو بنالعاص الى مقابلة الأخ الأكبر ، وهو الأمير على هذه الديار ، ولنترك القوللعمرو فانه حسن الحكاية لما حصل ٠

مكثت ببابه أياما ، وهو يصل الىأخيه فيخبره بكل خبري ، ثم انه دعاني (اي الأمير وهو الأخ الاكبر) دعاني ،فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي ، فقال دعوه ، فأرسلت فذهبت ، فذهبتلأجلس ، فأبوا أن يدعـوني أجلس ، فنظرت اليه فقال تكلم ، فدفعت اليـهالكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى الى آخره ، ثم دفعه الى أخيـه ،فقرأه مثل قراءته ، الا أني رأيت أخاه أرق منه ٠

قال الأمير ألا تخبرني عن قـريشكيف صنعت ، فقلت اتبعوه اما راغب في الدين ، واما مقهور بالسيف ، قالومن معه ، قلت الناس قـد رغبوا في الاسلام ، واختاروه على غيره ، وعرفوابعقولهم مع هدى الله تعالى اياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً منهـمبقي غيرك في هذه الخرجة ، وانك ان لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيـلوتبيد خضراءك،فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخـل عليك الخيـلوالرجال ٠

قال الأمير دعني يومي هذا ، وارجعالي غداً ٠

فرجعت الى أخيه فقال يا عمرو انيلأرجو أن يسلم ان لم يضن بملكه ٠

حتى اذا كان الغد آتيت اليه فأبىأن يأذن لي ٠

فانصرفت الى أخيه ، فأخبرته أنيلم أصل اليه ، فأوصلني اليه ٠

قال الأمير : اني فكرت فيما دعوتني اليه ، فأنا أضعف العـرب ، ان ملكت رجلا ما في يدي ، وهو لا يبلغخيله هاهنـا ، وان بلغت خيله لقيت قتالا ، ليس كقتال من لاقى ٠

قلت وأنا خارج غداً ٠

فلما أيقن بمخرجي ، خلا به أخوه ،فقال ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصبح فأرسـلالي ، فأجاب الى الاسلام هو وأخـوه

جميعاً ، وصدقا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وخليا بيني وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً .

وقد نقلنا المحاورات التي كانت بين عمرو بن العاص ، والأميرين ، اللذين مال أحدهما الى الاسلام ابتداء ، ومال الثاني اليه انتهاء ، وأسلما وحسن اسلامهما .

وان هذه المحاورة والاستجابة لما في الكتاب تدل على أن الاسلام قد تغلغل في نفس العربي ما بين مؤمن به وناظر اليه ، ومخادع فيه ، وأنه كان موضع تفكير المفكرين .

وان هذه المحاورة تدل على أنهم كانوا من النصارى ، وأن هرقل لأنه ملك أكبر دولة مسيحية كان له هيمنة على نصارى الشرق ، فمصر تابعة له ، والحبشة له خرج على النجاشي ملكها .

ويدل أيضاً على ايمان النجاشي بأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم ، ولذلك رفض أن يرسل الذي كان عليه أن يؤديه ، وقال له في قوة وحزم لا أدفع درهما .

ويدل أيضاً على سعة تفكير هرقل ، ورفضه أن يثير حربا لأجل الخرج الذي كان يقدمه تابع له ، لأنه اتبع دينا آخر وظهر ميله للاسلام واعتقاده بأنه صدق ، وكان يعلن ذلك لوصيه بملكه ، ومهما يكن أمر اسلامه ، فانه يظهر بمظهر رجل حر الفكر والرأي يقدر حرية التدين في غيره ، كما يقدرها في نفسه .

وفي الكلام ما يومىء الى أن هذا الكتاب كان بعد فتح مكة ، لأنه ساله عن قريش اتبعوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أم لم يتبعوه ، فأجاب عمرو بأنهم اتبعوه ، اما رغباً واما قهراً ، وان ذلك كان بعد الفتح لا ريب في ذلك .

وأنه يبدو بلا ريب أن عمرو بن العاص كان ذا فراسة قوية عندما اختار أحد الأميرين وهو الأصغر ، عندما ابتداه في تقديم الكتاب ، فعن طريقه أقنع أخاه ذا الصلف والكبرياء .

ويلاحظ أن عمرو كان شديداً فيقوله عندما خاطب الأمير الأكبر ، ولعل ذلك من أنفة العربي اذ منعه الملك منالجلوس ، وأبى الا أن يقدم كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو واقف،فلم يرد أن يكون ذليلا ٠

ولم يضر ذلك بقضية الاسلام لأنهكان يستعين بأخي الأمير الذي أبدى لينا غير منتظر ، وان النبي صلى الله تعالىعليه وسلم لم ين عن الدعوة ، وسط الحروب وفي تدبير الدولة ٠

٥٩٢ ـ أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع سليط بن عمرو العامري كتاباً الى صاحب اليمامة هوذة بن علي ، وكان نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هوذة بن علي .

سلام على من اتبع الهدى .

اعلم أن ديني سيظهر ، الى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك .

فلما قدم عليه سليط حامل الكتاب وكان مختوما أنزله وحياه وبعد أن قرأ الكتاب ودعاه رد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بكتاب جاء فيه ما أحسن ما تدعو اليه ، وأجمله ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك .

وأجاز سليطاً الرسول بجائزة ، وكساه أثواباً من نسيج هجر .

قدم الرسول على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه الكتاب والهدايا ، فلما قرأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يعطيه جزءاً من الأرض .

وبعد فتح مكة ، علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحي أن هوذة صاحب هذا الكتاب الطامع قد مات وقد ذم رجال اليمامة ، وقال أما انه سيخرج بها كذاب سينتهي بقتله ، قال بعض الصحابة ، ومن يقتله ؟ قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أنت وأصحابك .

وان نبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت صادقة ، فان الأعراب كانت فيهم ردة ، وكانت اليمامة ذات ضلع فيها ، وقام الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزمة كان عز الاسلام بها صادقاً ثابتاً ، وقد حفظ الله تعالى بأبي بكر قوة الاسلام ، وعزته وقالها قولة حازمة جازمة :

« اما سلم مخزية ، واما حرب مجلية ».

٥٩٣ ـ وقد أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غب الحديبية الى أمير الغساسنة بكتاب فيه هذا المعنى ،وهو الدعوة الى الاسلام ، ولم يذكر كتاب السيرة أأجاب الى الهدى أم لم يجب •

ونحن ذكرنا كتابته الى الملوك ، والأمراء والرؤساء وردهم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما بين مستجيبين ومترددين مجاملين في الرد وان لم يؤمنوا وجاحدين كافرين معاندين مريدين انزال الأذى بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قاصدين الكيد ، فرد الله تعالى كيدهم في نحورهم •

وتركنا مؤقتاً الكلام في المغازي لأسباب ثلاثة :

أولها ـ أن المقصود من الرسالة المحمدية هو تبليغ الدعوة الى الاسلام وما كانت الحروب الا لحماية الدعوة ولمنع الكافرين من أن يفتنوا المؤمنين في دينهم ، كما فعل مشركو مكة ونصارى الشام ، فما كانت الحرب مشروعة لذاتها ، ولكن كانت دفاعا وحماية للدعوة ، وهي المقصود أولا وبالذات •

ثانيها ـ أن هذه المكاتبات والرد عليها تبين مدى انتشار الدعوة ،وايمان الناس واستجابتهم ، فقد رأيت بعضهم يستجيب فوراً ، وبعضهم يستجيب ويسأل حكم الشريعة في أمر من تحت يده من اليهود والمجوس كابن ساوى ، ومنهم من كان يتردد في الاتباع ، ثم ينتهي بالاذعان هو وقومه ، ورأينا صاحب اليمامة يساوم ، وكانت موضع الردة هي وبني حنيفة ، وقد تنبأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، فكان منهم رأس الفتنة في الردة •

ثالثها ـ أننا رأينا أمراء العرب ،أو جلهم كانوا أكثر استعداداً للاجابة من غيرهم ، وأن النصارى منهم كانوا أميل الى الاجابة ، وأبعد عن التعنت ، وخصوصاً الذين كانوا يعلمون علم الكتاب ، ويدرسون المسيحية في أصلها الأول ، وان لم يكونوا غير مذكورين في التاريخ •

وانه في الجملة قد أخذت الدعـوةالاسلامية تعم بلاد العرب كلها ، واذا كان قد أرسل النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بعد ذلك مجاهدين ، فقـد كان عملهم تعليم الاسلام ، كما سنتكلم عنغزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في اليمن بقيادة علي بن أبي طالب ،ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما .

لقد كانت الاستجابة سريعة ، والاجابة صادقة ، اذ لم يكن منهم من بعد ذلك ردة كأهل اليمامة ، وكان فيهـمعلم .

٥٩٤ ـ جاء في رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على المنذر بن ساوى عند ما سأله عن اليهود والمجوس ، الذي يريدون الاقامة تحت سلطانه ، ماذا يصنع بهم •

فذكر له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقيهم مع الاحتفاظ بشعائر دينهم ، وألا يضاروا في تدينهم ، على أن يدفعوا الجزية •

وقد تكلمنا في الجزية بكلمات مجملة، تليق بكتاب مكتوب في سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان الذي يبقى في ظل المسلمين مقدما للأمير المسلم حق الطاعة ، يسمى ذمياً •

ذلك أن العهود التي يعقدها المسلمون أقسام ثلاثة :

أولها : العهد مع دولة غير اسلامية بهدنة ، أو عدم اعتداء ، كالعهد الذي كان بين المشركين والمسلمين في صلح الحديبية ، ويمكن عقده مع أي دولة أخرى غير دولة الشرك في قريش •

وثانيها : عهد سلم مع المسلمين ، بأن يجيبوا النبي في دعوته الى الاسلام أو الحرب بأن يرضوا العهد بدل القتال، على أن يبقوا آمنين ، لا يعتدون على المسلمين ، ولا يظاهرون عليهم •

وثالثها : عهد يعطي للآحاد حق أن يقيموا مع المسلمين يكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وتطلق لهم حرية التدين ، واقامة شعائر دينهم غير مضارين ولا محاربين ، ويكونون في الرعوية الاسلامية ، كما يعبر الكتاب في القوانين الدولية الآن •

وسمى هؤلاء ذميين ، لأن لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول« من آذى ذمياً ، فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمته خصمته » •

ولقد كانت لهؤلاء الذميين رعاية خاصة احتفاظا بحرمات الأديان .

وقد قرر الفقهاء جواز عقد الذمة لليهود والنصارى والمجوس ، وقد عقد الذمة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بنص القرآن الكريم ، فقد قال تعالى في ذلك :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

فثبت بهذا أن أخذ الجزية يعفيهم من القتال ، وقد شرحنا ذلك عند الكلام في أخذ الجزية .

أما أخذ الجزية من المجوس ، وغيرهم كأهل الكتاب ، في أن يكونوا ذميين وتؤخذ الجزية منهم فانه ثبت ذلك عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في كتابه للمنذر ابن ساوى ، وفي غيره من الأخبار والأحاديث .

ومشركو العرب يقتلون أو يسلمون حتى لا يكون في الأرض العربية دينان ، وتكون خالصة للاسلام والمؤمنين ، لأنها أرض الاسلام ، منها انبعث ، واليها يعود .

بقي حكم الوثنيين غير العرب كالهنود وعبدة النجوم وكالبوذيين الذين يعبدون بوذا وتمثال بوذا الى غير هؤلاء، فقد قرر أبو حنيفة وأصحابه أن الجزية تؤخذ منهم ، ويكونون ذميين ،وذلك بالقياس على المجوس ، لأنهم ليسوا أسوأ حالا من عبدة النار ، فليس عبدة الشمس بأسوأ حالا من عبدة النار ، وكذلك غيرهم ، والى هذا الرأي نميل .

وان الذمة عقد يثبت بالأمان والاقامة ، وهو يوجد التزاما على ولي الأمر من المؤمنين بأن يتركهم ، وما يدينون لا يضطهدون في شعائرهم بل يقيمونها ، وأن يعاملوا معاملة المؤمنين في التمكين من الحياة وحمايتهم في أنفسهم وأموالهم وحرماتهم ، وأنكحتهم، وكل شئون أسرتهم فيما بينهم ،

(١) التوبة

ولا يحرمون من حق وعليهم أن يلتزموا أولاً بكل الأحكام الاسلامية ، فتطبق عليهم العقوبات الاسلامية كاملة ،يطبق عليهم القصاص ، وتطبق عليهم الحدود كلها حد السرقة ، وحد الزنى ، وحدالقذف ، فيقام عليهم ان قذفوا محصنة أو محصناً من المسلمين ، ويحدون حدقطاع الطريق .

وتطبق عليهم الأحكام الاسلامية في المعاملات من بيوع واجارة، ومداينات، ولا يأكلون الربا ، ويخضمون معاملاتهم لأحكام ربا البيوع .

وألا يظهروا مخالفة الشريعة الاسلامية معلنين ذلك بألا يقيموا بيوتاً للأوثان أو النيران بين المسلمين ، وفي الجملة لا يظهرون بما قد يفتن المسلمين فى دينهم .

ولا يكون منهم أي خيانة للمسلمين، فلا ينتموا لدولة غير اسلامية تحارب الاسلام ، ولا يناصروها وان ذلك محادة للاسلام وأهله ، ويجب أن يكون ولاؤهم للدولة الاسلامية ، كولاء المسلمين لتحقق القاعدة الاسلامية لهم مالنا ، وعليهم ما علينا .

ويلتزمون بألا يكون منهم سب للاسلام ، ولا للرسول ، ولا لأي أحد من صحابته ، فان كانوا فهم على عهدهم وأمنهم ، والا ينبذ اليهم ، ولا يقيموا في ظل الاسلام ، أو ينالهم العقاب .

ويلتزمون بألا يلحقوا بدار الحرب، والا كانوا أهل حرب ، ولا يكونوا أهل ذمة .

وفي الجملة يجب عليهم ما يجب على المسلم على سواء ، وقد قال أبو حنيفة لهم أن يشربوا الخمر ، وتكون مالامتقوماً بالنسبة لهم ، بحيث اذا أراقه مسلم وجب عليه دفع قيمته ، والخنزير لهم أن يأكلوه ، وهو مال متقوم بالنسبة لهم ، واذا اعتدى مسلم وقتل خنزيرا عليه قيمته ، كما لو قتل شاة لمسلم .

وقال أبو حنيفة نكاح بعض المحرمات في الاسلام صحيح اذا كانوا يعتقدون صحته ، واذا ترافعوا الى القاضي المسلم في نفقة زوجية بناء على هذا النوع من النكاح حكم بها ، واذا ترافعوا بنسب كذلك حكم به ، وذلك

تطبيق للقاعدة الفقهية أمرنا بتركهم وما يدينون ، ويجوز لولي الأمر المسلم أن يعين قاضياً من بينهم يقضي بينهم.

واذا اتفقوا على أن يتحاكموا لدى القاضي المسلم حكم بينهم لقوله تعالى :

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ (١)

واذا كانوا يخاصمون مسلماً ، لا يحكم بينهم الا القاضي المسلم ، حفظا لحق المسلم ، ولكمال الولاية عليه ،ولأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم .

واذا كان خصمان من الذميين وطالب أحدهما أمام القاضي المسلم ألزم الآخر عند بعض الفقهاء ، لأنه يكون كما اذا كان الخصم مسلما ، وقال آخر لا يلزم ، لأن له قاضيا يقضي بينهم .

وأحسب أن تعيين قاض لهم انما هو في شئون الأسرة ، وأمور دينهم .
وأما ما يتعلق بالمعاملات العامة كالبيوع والاجارات وغيرها فان القضاء فيها لا يكون الا للقاضي المسلم لتحقق المساواة الكاملة بينهم وبين المسلمين .

ومسالة جواز أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير ، هي رأي أبي حنيفة وحده ، لأنا أمرنا بأن نتركهم ومايدينون ، ولأن عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل سأل الحسن البصري : مابالنا تركنا أهل الذمة يأكلون الخنزير ويشربون الخمر ، وينكحون بناتهم ؟قال الحسن البصري ، على هذا أخذنا الجزية انما أنت متبع لا مبتدع .

ولكن الجمهور الأعظم من الفقهاء منعوا ذلك ــ وذلك لأن لهم مالنا وعليهم ما علينا . والحمد لله .

---

(١) المائدة

٥٩٥ ـ هو فتح مكة في شهر رمضان حيث ابتدأ السير اليها في العاشر منه ، ووصل اليها في الليلة الثالثة عشرة منه ، وهو لم يكن فتح قتال ، بل كان فتح قلوب ، وأوسع فتح للدعوة الى الاسلام فما كان قتل وقتال الا خطأ، ومن غير تدبير وتعمد من الصحابة الأولين ، بل كان أمنا وسلاما ، وتلاقي قلوب قد فرق بينها الجحود ، واستضعاف الضعفاء ، ومقاومة الايمان فلما دخل محمد مكة ، وهو يقول أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة ألقى اليهم السلام والاكرام ، وتلاقت العشائر التي تخاصمت ، ثم تهادنت ، ثم سالمت ثم آمنت وان هذا بلا شك كان نهاية الفتح ، ولم يكن في الظاهر ابتداءه، بل كان الظاهر هو ارادة القتال ، اذجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عشرة آلاف من المجاهدين ، وما كانوا هازلين ، بل كانوا جادين ، ولكن عند التلاقي صمدت السيوف عن القتل ،وفتحت القلوب للدخول في دين الله أفواجا أفواجا ٠

ولذا كان السؤال لم كان القتال ،وقد كان عهد لا ينقض الا بسبب من التزامات هذا العقد ، وما كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينقض الا بأسباب منه لأن الله تعالى يقول :

﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝﴾ (١)

ولم يستقيموا ، فكان هذا خيانة ،فكان عليه أن يعمل بقول الله تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ ﴾ (٢)

ولم يكن ثمة خوف خيانة ، بل خيانة بالفعل في جزاء من العقد ٠

---

(١) التوبة (٢) الانفال

والعقد كل يكمل بعضه بعضا ، فاذا دخل الغدر جزءا منه ، فقد دخل النقض كله ، وفقد الالتزام من الجانب الآخر كل الزام به ، اذ نقض الأول جزءا منه يبطله ، ولو كان العهد يبقى ملزما مع نقض جزئه ، لتوالي النقض على كل أجزائه ، فلا يبقى للعقد معنى ولا صورة ، ويذهب هباء منثورا ، وتتبدد أوراقه في أدراج الرياح •

٥٩٦ ـ هذا هو السبب الجوهري، لقد نقضوا فقرة من فقراته ، فنقضوه كله ، على النحو الذي بيناه من أن كل عهد كل لا يتجزأ ، نقض بعضه نقض لكله •

ذلك أنه كان في العقد أن من أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل ، فيكون من يدخل في عقد أحد الفريقين له حقوق العقد ، وعليه التزاماته ، فدخلت خزاعة في عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل بنو بكر في عقد قريش •

وكان بهذا حقاً على قريش ألا تمتدي على خزاعة ، وكذلك على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ثمة بين بني بكر وخزاعة احن جاهلية ، عدت فيها خزاعة على بني بكر فقتلت ،وعدت مثلها على خزاعة فقتلت ، ثم كانت من بعد ذلك معركة ، كان الغلب فيها لخزاعة •

وكانت العداوة قائمة ، فلما جاء الاسلام وحاربت قريش النبي والذين آمنوا ، شغلوا بحربه ، وكانوا على ضغن •

فلما كانت الهدنة ، كانت خزاعة تحس من قريش نفرة ومعاونة لعدوها، فدخلت في عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بهذا العهد عليه حمايتها في دائرة العقد ، وكان بنو بكر على وداد مع قريش فدخلوا في عقدها •

كان صلح الحديبية مغريا بالانتقام اتخذه بنو بكر فرصة انتهزوها ، ولم يعلموه عهداً عليهم يلتزمون بمبادئه •

اعتدى بنو بكر على خزاعة ، ورفدتهم قريش بالسلاح ، ثم قاتلوا معهم مستخفين ليلا ، منهم صفوان بن أمية ،وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ٠

وما زالوا يقاتلون حتى انحازوا الى البيت ، وكان حقاً عليهم أن يمنعوا القتال في البيت الحرام الذى جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ولكن قائدهم نوفل بن معاوية قاتل مع اعتراض بني بكر ، اذ قالوا له يا نوفل انا دخلنا حرم الهك ٠

فقال كلمة كبيرة ، بل فاجرة قال لا اله اليوم ، يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري انكم لتشرقون في الحرم ،فلا تصيبون ثأركم فيه ٠

ولجأ بنو خزاعة الى داخل دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم كانت هذه مقتلة فاجرة ٠

وخرج رجل من بني خزاعة اسمه عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وبذلك حدثت أمور استوجبت أن يقف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذين في عهده ضد بني بكر ابتداء ، ومن أعانوهم ٠

لقد ارتكب بنو بكر خيانة العهد ،والقتال في البيت الحرام ، وعاونتهم قريش فيما ارتكبوا من خيانة عهد واصابة للحرمات ٠

فما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسكت على هذا الضيم الذي ينزل بأهل عهده في أعدائهم ،وبمعاونة قريش ٠

خرج بديل بن ورقاء الخزاعي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي لجئوا الى داره في نفر من خزاعة بعد عمرو بن سالم ، فأخبروه كما أخبره من قبل عمرو بن سالم بما أصيبوا به من بكر ، ومظاهرة قريش لهم ٠

وعاد بديل ، فالتقى بأبي سفيان وقد جاء يجس النبض ، ويطلب شد العقد ، ومد المدة ، وظن أبو سفيان أنه جاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

جاء أبو سفيان ، وقد أدرك كبر مافعلت قريش ، وما كان قد تحرك لمنع هذا ، ولكن قد وقعت الواقعة ، ولعله لم يكن لما حدث كارها •

استمر أبو سفيان في مسيره حتى التقى بابنته أم حبيب قادما للقاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطوته فقال يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ،فقالت: هو فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه ، فقال يا بنية ،والله لقد أصابك بعدي شر •

ظن أن ابنته وهي زوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد تكون شفيعا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكنها بادرته بما ألقى في نفسه اليأس ، فالتمس الشفاعة عند غيرها ذهب الى أبي بكر ، فكلمه في أن يكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال : ما أنا بفاعل ، ذهب الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فكلمه ،فقال عمر رضي الله عنه : أنا أشفع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :فوالله لو لم أجد لكم الا الذر لجاهدتكم به ، ترك عمر يائسا ، كما يئس من أبي بكر •

فذهب الى علي بن أبي طالب ، وله به رحم ، فدخل عليه وعنده الزهراء فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده حسن ابنها غلام يدب بينهما •

قال أبو سفيان يا علي انك أمس القوم بي رحما ، وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن ، كما جئت خائبا فاشفع لي الى رسول الله •

قال علي : ويحك أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه•

التفت أبو سفيان الى الزهراء فاطمة فقال لها : يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس ،فيكون سيد العرب الى آخر الدهر •

قالت الزهراء فاطمة : والله ما بلغ بابني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

اتجه أبو سفيان مرة ثانية ، وقال له : يا أبا الحسن اني أرى الأمور قد اشتدت علي ، فانصحنى فقال علي والله ما أعلم شيئا يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم ألحق بأرضك ٠

قال أبو سفيان أو ترى ذلك مغنياً عني شيئا قال علي ، لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد عملا غير ذلك ٠

قام أبو سفيان في المسجد ، فقال :أيها الناس اني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق حتى قدم على قريش ، وقد أحسوا كبر ما فعلوا ، وحمق ما صنعوا سألوه ، فأخبرهم بأن أحدا لم يردوا عليه شيئا ، لا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أبو بكر وعمر ، ثم ما أشار به علي من أنه أجير بين يدي الناس ، فسألوه هل أجازه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ قال : لا ٠

٥٩٧ ــ غدرت قريش في عهدها، وما كان لها ذلك ، وجاء أبو سفيان كبيرها يستغفر للخيانة التي لم يمنعهاوأراد عجبا ، أن يمنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يحمي من دخلوا في عهده ، وأن يتركهم من غير أن يحميهم عهدهم ، وتشفع بابنته ،فما شفعت وتشفع بأبي بكر فامتنـــع امتناعا قاطعا ، وان كان هادئا كطبعه رضي الله تبارك وتعـــالى عنه الا في الشديدة ، وتشفـــع بعمر فرده رداً عنيفاً ، وتشفع متوســلا بالرحم لعلي فما شفع هو ولا الزهـــراء فاطمة ،وقالت كلمة حاسمة لا يجار على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وكان عجباً أن يجير على قريش كلها، ليكون لها أمان من الغزو ، لأنه شعر بالجريمة وقعت منها كلها ، واذا كانت حرب فعليها كلها ·

ونقول انه قد جاء لتوثيق العهـد وزيادة المدة ، وان ذلك يتضمن بلا ريب الغاء العهد السابق وما اشتمل عليه ،وربما توهم أن ذلك ربما يسقط الغدر الأول ، ولعله ظن أن النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم لم يعلم غدرة قـريش التي تعد فسخا للعقد ، فلما رأى أن الخزاعي سبقه وأخبر النبي صـلى الله تعالى عليـــه وسلم لم يكن بد من أن يطلب الأمان لقريش ، ولكن لم يجب ·

وروى موسى بن عقبة أن أبا سفيان دخل على النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم قبل أن يدخل على أبي بكر وعمر وعلي · وقال له : يا محمد شدد العقد وزدنا في المدة ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قدمت ، هل من حدث قبلكم ؟ قال معاذ الله ، نحن على عهدنا ، لا نغير ولا نبدل ·

ثم ذهب على الصحابة أبي بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، الى أن وصل الى علي، فلان معه المجاهد الأول بعض اللين ·

وقد صرحت هذه الرواية بأنه ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليأخذ منه اقرارا على ما قال في المسجد، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن قال أنت تقول ذلك يا أباحنظلة ردا على قوله ما أظن أن تخفرني أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة •

وقد عاد الى قومه فاستخفوه اذ قص عليهم خبر الرحلة ، وقالوا له : رضيت بغير رضا ، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئا ، وانما لعب بك علي لعمر والله ما جوارك بجائر ، وان اخفارك عليهم لهين وحدث امرأته بحديث الرحلة ، فقالت له : « قبحك الله من وافد قوم فما جئت بخير » •

٥٩٨ ـ كان لابد اذن من اللقاء،وروي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن صنعت ما صنعت قريش بمن في عهده اعتزم أن يذهب الى مكة بالفتح المبين ، وقال صلى الله تعالىعليه وسلم : والله لأغزون قريشا .قالها ثلاث مرات ، على ما روي .

آذن أصحابه بأن يتجهزوا للذهاب الى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وقال: « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها » .

ولقد أخطأ بعض الصحابة ممن حضروا بدراً ، وله في الجهاد مقام خطأ يعد في نظر الحرب والجهاد خيانة أو خطيئة، ولكن النبي الحكيم الواسع العقل والصدر عفا عنه ، بعد أن أبطل عمله .

بينما النبي صلى الله تعالى عليهوسلم يضرع الى ربه أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، أراد بعض الصحابة أن يكون عينا لقريش يخبرها.

كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا الىقريش يخبرهم بالذي أجمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الأمر بالسير اليهم ، وأعطى كتابه امرأة وأوصاها باخفائه ، وجعل لها جعلاحتى، تبلغه قرشيا ، فجعلته في رأسها وفتلت عليه ضفائرها في قرونها ، ثمخرجت به .

وأوحي الى رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم بما فعل حاطب ، وفعلت المرأة فبعث اثنين من أخلص حوارييهشابين نشأ في اطاعة الله والجهاد في سبيله ، وهما علي بن أبي طالب ،والزبير بن العوام .

فخرجا حتى أدركاها بالحليفة ، فاستنزلاها من فوق البعير الذي تركبه ، فالتمسا الكتاب في رحلها فلم يجداه ،فقال علي في حزم اني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم ، ولا كذبنا ، ولنخرجن هذا

الكتاب ، أو لنكشفنك ، فلما رأت منه الجد قالت لعلي أعرض فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته اليه ٠

فذهبنا بالكتاب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهنا نجد الرسول القوي يسأل عن مسوغ لهذه الخيانة ، فيقول في رفق القوي ، ورحمة الحليم٠

يا حاطب ما حملك على هذا ـ لم يجابهه بالخيانة ، ولكن طلب اليه مسوغا، ان كان لمثل هذا مسوغ ولكن الكريم الحليم القوي أراد أن يقدم اعتذارا عما فعل من غير أن يبادره باللوم والتعنيف ٠

اجاب حاطب عن هذا السؤال وقد أحس بالضمير يؤنبه : يا رسول الله أنا والله مؤمن بالله ورسوله ما غيرت ، ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم وفد وأهل فصانعتهم عليه ٠

لا شك أن الجواب لا يبرر العمل ، ودل على شيء غير قليل من الضعف النفسي ، فوفوده وأهله بينهم من قبل الحديبية ، ولعلهم وصلوا الى مكة في مدتها ، وفي كلتا الحالين ، ما كانت البواعث الشخصية مسوغة مخالفة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو القائد الأعلى ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا تعريض الجيش للأذى ، والاستعداد له ومواجهته ، وقد تدول الدولة لأعدائه ٠

ولذلك لم يستسغ عمر رضي الله عنه ذلك ، بعد أن لم يستسغه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ، ولكن الرسول الكريم الذي لم يستسغ ذلك العذر ، خالف عمر ، وقال معتذرا عن حاضره بماضيه في بدر ما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب يوم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ٠

ما يرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن فعلته التي فعلها ، ولكنه يلومه في عبارات رقيقة عاطفة أن ماضيه ينهاه عن حاضره، وأظن أن ذلك القول، أروع من قول الفاروق عمر ٠

ولقد قالوا انه نزل فيه قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ (١)

واذا كان ثمة أمر يسهل أن يرتكب الصحابي البدري ذلك ، فليس هو النفاق ، ولكن المدة التي سهلت الالتقاء أحيت ما كان من مودة قديمة ، فسال سيله في طريقها حتى وقع في هذا الخطأ ، بل الخطيئة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد جعل ماضي أمره مسقطا لذنب حاضره ، وهو الرسول المؤلف بين القلوب ، الجامع لها ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم .

(١) الممتحنة

٥٩٩ ـ خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماضيا لسفره ، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري ، وذلك ليعلم الناس أنه لا تفاوت في الولاية بالنسب ، فقد ولى من الأنصار والمهاجرين من بطون قريش وغيرهم ٠

خرج صلى الله تعالى عليه وسلم لعشر ليال من رمضان ، وصام وصام الناس ، حتى اذا كان بالكديد أفطر ـ لأنه صار على سفر ، ولأنه رخص للمسافر أن يفطر ، وقد قال الله تعالى :

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (١)

وان الله يحب أن تؤتى رخصة ، كما تؤتى عزائمه ، والسفر قطعة من العذاب في الصحراء العربية وحال الجهاد تجعل الفطر قوة فيه ، وكل ما يؤدي الى القوة فيه يكون مطلوبا على قدر هذه القوة ، ويظهر أن بعض المؤمنين تحرجوا من أن يفطروا في رمضان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باناء فشرب نهاراً ليرى الناس ، فأفطر حتى قدم مكة مفطراً ٠

سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى لقيه في الجحفة عمه العباس بن عبد المطلب ، مهاجراً هو وأهله ، وقد كان اسلامه سابقاً على ذلك ، وبقي على السقاية في الكعبة ٠

---

(١) البقرة

ولقيه عليه الصلاة والسلام في الطريق بعض ذوي قرابته ، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذا مودة وخير دائما ، فقالت له ابن عمك وابن عمتك وصهرك يا رسول الله ، قال : « لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي ،فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال بمكة ،ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما دعا الى ربه قال له : « والله لا آمنت لك حتى تتخذ سلما الى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله تعالى أرسلك » .

واصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عدم الاذن لهما ، فلما خرج اليهما الخبر ، قال أبو سفيان ابن عم الرسول ومعه ابن صغير له فقال والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا ، ثم لنذهبن في الأرض ، ثم نموت عطشا وجوعا ، فرق لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرحمهما ، ولأنهما قد رقا للاسلام ، والاسلام يجب ما قبله.

٦٠٠ ـ مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين ، وفي رواية في اثني عشر ألفاً ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، ولكنهم يظنون الظنون لنقضهم العهد الذي كان بينهم وبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ·

لم يحسوا بأمر ، ولكنهم يتوقعون أمراً ، فخرج في تلك الليالي أبو سفيان ابن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء الخزاعي ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً ·

ويلاحظ من ذلك أن الثلاثة يختلف اثنان فيهم عن الثالث ، لأن بديلا هو الذي ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستنصر بالنبي لخزاعة ، اذ عاونت قريش بني بكر في قتالهم لخزاعة ، حتى جاوزوهم الى البيت الحرام فما امتنعوا فلعل الجميع كانوا يتحسسون ، ولكن اختلفت الغاية عندهم ·

وفي الوقت الذي كانت قريش تتحسس أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان العباس بن المطلب الودود المسالم يريد أن يرسل الى قريش من يعرفهم مكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليجيئوا اليه مستأمنين لكيلا يكون قتال بل يكون أمن وسلام ويقول رضي الله عنه من جراء محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : والله لئن دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه ، انه لهلاك قريش الى آخر الدهر ·

ركب بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء وأخذ يتلمس الحطابين ، أو ذوي الحاجات الذين يسيرون في الصحراء ليجد من يخبر أهل مكة ·

وبينا هو في سيره متحسساً سمع صوت أبي سفيان ، ولنترك له رضي الله عنه ، يحكي كيف كان لقاؤه مع صديقه المشرك أبي سفيان ، وهو المؤمن فهو يقول :

واني لأسير عليها (بغلة رسول الله)، اذ سمعت كلام أبي سفيان ، وبديل ابن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيرانا قط ،ولا عسكراً ، قال بديل هذه والله خزاعة حمستها (أي ألهبتها) • قال أبو سفيان خزاعة اذل من ذلك واقل أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتي فقال أبو الفضل ، قلت نعم ، قال مالك فداك أبي وأمي : قلت ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الناس ، واصباح قريش ، والله قال فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك : فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك ، فركب خلفي ،ورجع صاحبه ، فجئت به ، كلما مررنا بنار من نيران المسلمين ، قالوا من هذا فاذا بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا عليها ، قالوا هذا عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على بغلته، حتى مررت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال من هذا ، وقام الي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال :أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وركضت ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، فقال يا رسول الله هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله تعالى منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه ، قلت يا رسول الله ، قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،فأخذت برأسه فقلت والله لا يناجيك الليلة ، دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه (أي أبي سفيان) قلت مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف فقال مهلا يا عباس ، فوالله لاسلامك يوم أسلمت كان أحب الي من اسلام الخطاب لوأسلم ، وما بي الا أني قد عرفت أن اسلامك كان أحب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من اسلام الخطاب، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتني به ، فذهبت به الى رحلي ، فلما أصبح غدوت به الى رسول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما رآه،قال ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا اله الا الله ·قال أبو سفيان بأبي أنت وامي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لو قد علمت أن معه الها غيره لقد أغنى عني شيئا بعد ،قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ، قال أبو سفيان ، أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال العباس ويحك أسلم واشهد أن لا اله الاالله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك فشهد شهادة الحق ، فأسلم ·

قلت يا رسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قال نعم :

قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي يحب حقن الدماء ·

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ،ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ·

فلما ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتبسه عند خطم الجبل (أنف الجبل)حتى تمر به جنود الله تعالى فيراها ·

فحبسه ، حتى مرت به الرايات كل قبيلة على رايتها ، وكلما مرت قبيلة ، قال يا عباس ما هذه القبيلة ، وأخذ يسأل عنهم قبيلة قبيلة ، حتى مرت قبيلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برايته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فقال سبحان الله من هؤلاء ؟ قلت رسول الله في المهاجرين والأنصار،قال أبو سفيان ما لأحد بهؤلاء ، والله يا أبا الفضل قبل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال العباس يا أبا سفيان انها النبوة ، فقال نعم اذن ·

٦٠١ ــ ذكرنا هذا الحديث بطوله ، لأنه التقاء صديقين كلاهما يتحسس الأخبار لحماية مكة من الحرب ، فالعباس رضي الله عنه يتحسس ، ليرسل لقريش يحرضهم على أن يستأمنوا لأنفسهم من جيش الايمان لكيلا تكون حرب في الحرم ، ولتحمي قريش نفسها لا بالحرب ، ولكن بالايمان ، أو الأمان ·

وأبو سفيان يتحسس الأخبار ، لأنه توجس خيفة بعد الغدر ، وتوقع من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عملا لحماية من دخلوا في عهده ، ولأنه أصبح في حل من الصلح الذي صالحوه عليه ، اذ نقضوه من جانبهم ، فهو عليهم رد ولا سبيل لأن يدفعوا بعهد نقضوه .

التقى الصديقان ، وكان لقاء فيه خير ، اذ انتهى باسلام أبي سفيان ، وضمه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد أن أرضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد بذل العباس في ذلك جهداً ، خصوصاً عندما اشتد عمر رضي الله تعالى عنه ، وما كنا لنقر العباس رضي الله عنه في قوله لعمر لو كان من عدي ما وقف في هذا ، فعمر لا يمكن أن يؤثر قرابة في قول الحق ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: « ان الله كتب الحق على لسان عمر وقلبه » .

ومهما يكن من تلك الكلمة ، فان العباس رضي الله تعالى عنه ، قد كانت سياسته حكيمة في ضم أبي سفيان ، فانه كان له أثر في حقن الدماء ، ومنع الحرب .

لقد قال من بعد ذلك العباس لأبي سفيان يحرضه على السرعة في الذهاب الى قريش يسكنها قال له النجاء الى قومك ، أي السرعة المنجية .

فلما جاءهم صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا له قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ، قال ناقلا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن .

وبهذا تهيأت النفوس للاسلام الا بعض الذين أكل الحقد قلوبهم ، وسيطر عليهم النزع الجاهلي ، ولم ينظروا الى ما هو أمامهم ، بل التفتوا الى ما وراءهم ، ولكنهم مع ذلك لم يجعلوها حربا ، لأن الله تعالى أراد السلام وقصد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدخل البيت معظما مشرفا ، زاده الله شرفا وتعظيما .

اللقاء في مكة

٦٠٢ ـ لم نقل ـ المعركة ـ ولكن قلنا اللقاء ، لأنه لقاء التصفية وتنقية القلوب من ضغائنها ، وتلاقي النفوس على المرحمة بعد الملاحم ، ومن يقدر على ذلك الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي أرسله رب العالمين الذي ألف بين قلوبهم القائل تعالت كلماته :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (١)

دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا دخول المقاتل ، ولكن دخول المسالم الذي يريد أن يفتح القلوب للايمان ، فكان على أحد جانبي الجيش الزبير بن العوام ، وعلى الجانب الآخر خالد بن الوليد ، وعلى المهاجرين أبو عبيدة عامر بن الجراح ، والجميع متجهون صوب مكة ، من شمالها الزبير بن العوام بمن يقودهم ، ومن جنوبها خالد بن الوليد بمن يقودهم ومن الشمال الغربي أبو عبيدة بالمهاجرين .

ومن الغرب سعد بن عبادة يقود الأنصار .

وكانت أوامر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يقتلوا ولا يقاتلوا ، فما دخلوا الحرب ولكن لأجل اقرار السلم .

ولكن علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في كتيبة أن اوشاب قريش أو بعضهم وليسوا من كبرائهم ، ورأى أن هؤلاء قد يشوهون وجه اللقاء ، فنادى أبا هريرة اهتف بالأنصار ، ولا يأتين الا أنصاري ، فأمر الانصار بأن يحصدوهم حصداً اذا وجدوا منهم أمراً يخرج المجاهدين السالمين عن سلمهم .

---

(١) آل عمران

ركزت راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الحجون .

لقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يبعد كل نزعة الى الحرب ، ويبعد صاحبها ولو كان عنده من المقربين الذين أيدوه بنصرهم ، والناس عنه معرضون .

قال سعد بن عبادة حامل راية الأنصار عندما مر على أبي سفيان ، أو جعل شعاره : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمات » فقال عمر بن الخطاب : أتسمع ، وقال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : بل اليوم يوم تعظم فيه وتعز فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، ثم أرسل علي بن أبي طالب لينزع منه الراية ، وفي رواية أنه أعطاها عليا ، وفي رواية أعطاها الزبير بن العوام ، والرواية المشهورة أنه أعطاها قيس بن سعد بن عبادة لكيلا يكون في نفس سعد بن عبادة شيء من نزعها ، اذ أنها أعطيت لابنه فأخذت منه اليه ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يريد ألا يحمل راية الأنصار الا أنصاري لتكون حمية الأنصار وليكون لهم مقام الفتح برجالهم وبقيادتهم ، والرواية التي تقول انه عليه الصلاة والسلام أعطاها عليا ، قامت على أن عليا هو الذي نزعها منه ، ولعل الزبير هو الذي أعطاها قيسا ، بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبذلك تتلاقى الروايات الثلاث : وتكون الراية انتهت الى ابن سعد .

٦٠٣ ـ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ، ومعه لواء أبيض ، وعليه عمامة سوداء وهو يقرأ سورة الفتح وهو راكب على ناقته ، وكان يرجع فيها ، فهو يترنم بها ، ويرجع كلماتها مستطيبا ألفاظها ومعانيها ، وقد خفض رأسه متواضعا لله تعالى ، ولما انتهى الى ذي طوى المتجر بشقة بردة حبرة حمراء ، وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليضع رأسه تواضعا لله تعالى ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى عثنونه لتكاد يمس الرحل .

ويروى أن رجلا كلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الفتح فأخذته الرعدة ، فقال الرسول الذي يزيده التواضع عزاً ، أو كما قال : « هون عليك ، فانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

وان العزيز الكريم ، لا تزيده القوة الا تواضعاً يقول في ذلك ابن كثير « وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني اسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس ، وهم سجود أى ركع يقولون حطة ، فدخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون حنطة » .

وأنى يكون بنو اسرائيل الذين تطغيهم النعمة من محمد الكريم ، الذي تدفعه النعمة الى التواضع ،فيقوم بحقها وشكرها ، فشكر كل نعمة ، نعمة من نوعها ، فشكر القوة الرفق والعدل ، وشكر الرفعة التواضع ، وقد رفع الله تعالى نبيه ، بما لم يرفع به رجل في العرب ، وبما لم يرفع به نبي في أمته ، فكان هذا التواضع الكريم الذي زاده عزاً .

وقد دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أعلى مكة من كداء ،وهو أصح الروايات ، كما جاء في البخاري.

٦٠٤ ــ وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذي طوى ، ولم يكن أبو بكر قد التقى بأبيه أبي قحافة منذ هاجر الا أن يكون قد زاره في عمرة القضاء .

وكان قد أصيب في عينيه ، فكف بصره ، فكان يرى الرؤية الكاملة بابنته أصغر أولاده ، فلما وقف عند ذي طوى ، وقف أبو قحافة على جبل أبي قبيس ، فقال : أي بنية ماذا ترين ؟قالت أرى سواداً مجتمعاً قال : تلك الخيل ، قالت وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلا مدبراً ، قال أى بنية من ذلك الوازع (الذي يأمر الخيل ويتقدم اليها) ، ثم قالت قد والله انتشر السواد ، فقال قد والله اذن دفعت الخيل ، فأسرعي بي الى بيتي ، فانحطت

به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصـــل الى بيته ، وفي عنق الجارية طوق من ورق (فضة) فيلقاها رجـل ، فيقتطعـــه من عنقها ٠

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه (أبي قحافة) يقوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « هلا تركت الشـــيخ في بيته ، حتى أكون أنا آتيه ، قال يا رسول الله هو أحق أن يمشي اليك من أن تمشي أنت اليه » ٠

أجلس النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم أبا الصديق ، ثم مسح على صدره، ثم قال : أسلم ، فأسلم ، ثم قام أبو بكر، فأخذ بيد أخته الصغـــيرة يســألها عن طوقها ، ولما علم أنه خطف منها ، أنشد المسلمين بالله والاسلام طوق أخته ٠

فقال الصديق معزيا أخته الصغيرة في قرطها ، ان الأمانة اليوم قليـل ، فاحتسبى طوقك هذا هــو الرفق ، ان الطوق الفضى أحب اليها في سنهـــا ، فواساها الصـــديق فيه رفقاً ومحبة ، ولقد هنأ النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم أبا بكر صاحبه في الغـــار باسلام أبيه ٠

٦٠٥ ــ نهى النبي صلى الله تعـــالى عليه وسلم عن القتال ، ولكنه لم ينه عن الدفاع ، وقد ذكر أن أهل مــكة قد رضوا بالمسالمة والسلام ، واطمأنوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وســلم الا الذين بقوا على جاهليتهم ولم يذوقوا حب الايمان أو أن فيهم الحقد الدفين، والرغبة في الثأر ــ لا يريدون سلاماً، ولكن يريدون حربا وخصـــاما ، ولم يؤخذوا بالقوة ، بل جحدوا بها ، كما جحدوا هم وآباؤهم بالحق اذ جاءهم ٠

فهؤلاء المتطرفون في عداوتهم قــد تجمعـــوا مع بني بكر الذين كـــانت مناصرتهم سبباً لخرق العهد ، وقـــد تجمعـــوا في منطقة الخندمة ، فلمـــا وصلها خالد ومن معه أمطروها وابلا من النبل ، فاضطر خالد أن يقاتلهـــم حتى فرق جمعهم ، وكانوا عدداً قليلا يسهل تفريقه ٠

وأسلست قريش القياد ، ولم تنفر ، ورضيت بالبقاء ، ولم يقتل من أصحاب خالد الا اثنان قد ضلا وشذا بالانفراد، فيظهر أنهما قد تمكن الأعداء منهما ،

وكان في الذين هاجموا خالد بن الوليد بالنبل ، صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل فانطلقا خارجين الى البحر ،ولم يقبلا أن يقيما مع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة أو تحت سلطانه .

بعد أن انهزم صفوان ، اتجه الى جدة ، فقد روى ابن اسحاق خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها الى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبي الله ، ان صفوان بن أمية سيد قومه ،وقد خرج هاربا ، ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه صلى الله تعالى عليه وسلم،قال هو آمن ، قال يا رسول الله،فأعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمامته التي دخل بها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب في البحر ، فقال يا صفوان فداك أبي وأمي ، الله الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جئتك به ، قال : ويلك أغرب عني فلا تكلمني : قال . أي صفوان ، فداك أبي وأمي ، أفضل الناس وأبر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك قال اني أخافه على نفسي ؟ قال هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال صفوان : ان هذا يزعم أنك قد أمنتني ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، صدق قال فاجعلني فيه بالخيار شهرين قال أربعة أشهر ، هذا هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في خلقه ، الرفيق اللين في قوته المتواضع في عزته يرجو العربي العنيف ، ليستأمنه فيؤمنه ، ولكنه يشترط لقبول الأمان الخيار شهرين .

ولقد جاءت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أم حكيم زوج عكرمة بن أبي جهل فأسلمت ، فاستأمنت لزوجها عكرمة فأمنه ، وكان قد سبق صفوان ، الى اليمن وتخلف صفوان كما ذكرنا ،فلحقت به الى اليمن ، فجاءت به فلما أسلم عكرمة بقيت معه زوجه أم حكيم،وكذلك كانت فاطمة بنت الوليد زوجا لصفوان بن أمية ، فلما أسلم بقيت زوجه .

وقد بقيتا بالزواج الأول ، وذلك أن من تسلم زوجه ، وهو كافر يعرض عليه الاسلام ، فان أسلم بقيت الزوجية كما هي من غير عقد جديد ، وذلك لأن

الفرقة لا تكون بسبب الاسلام ، وانماتكون بسبب اباء الزوج الاسلام بعد العرض عليه ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلمعندما بلغه القتال الذي كان بين خالد ابن الوليد أرسل اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينهاه عن القتال ، فانتهى ، وروي أنه لم يقتل من المشركين الا بضعة عشر من الرجال ، وان مبدأ من دخل داره فهو آمن قد طبقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يقتل رجلا أغلق عليه داره ، وانه يذكرفي ذلك أن اثنين من أحماء أم هانيء بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالبرضي الله عنهما لجأ فتبعهما علي لأنهما لم يغلقا دارهما ، عليهما ، وفرا الى أمهانيء ، ليقتلهما ، ولكنها أغلقت عليهما باب بيتها ، وعلي يريد قتلهمافي دارها ، وأمام اصرار علي رضي الله تعالى عنه ذهبت أم هانيء الى النبيصلى الله تعالى عليه وسلم بأعلى مكة فوجدته يغتسل ، وفاطمة ابنته تسترهبثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثماني ركعات ، ثم انصرفالى أم هاني : فقال مرحبا وأهلا ، يا أم هاني ، ما جاء بك ، فأخبرته خبرالرجلين ، وخبر علي ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أجرنا من أجرت ٠وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما ٠

٦٠٦ ـ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيت الحرام بعد أن ركز رايته بالحجون ثم نهض والمهاجرون والأنصار يحيطون به بين يديه ومن خلفه وحوله ، فأقبل الى الحجر الأسود ،فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وعليه قوس، وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم ، وهي متماسكة ، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل انالباطل كان زهوقا ، وما يبدي الباطل وما يعيد ، والأصنام تتساقط علىوجوهها بمجرد اصابتها بقوسه ، حتى أتى عليها جميعا تنكيسا ٠

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يطوف على راحلته ، ولم يكن ذلك محرما ، واقتصر في دخوله على الطواف ٠

ولقد جاءه علي كرم الله وجهه ومعهمفتاح الكعبة ، وأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب أن يعطيهم الحجابة ، والسقاية معهم في يد العباس

رضى الله تبارك وتعالى عنه فدعا عثمان بن طلحة ، فأعطاه المفتاح ، وعثمان هذا هو ثالث الثلاثة الذين أسلموا في رحلة واحدة ، هم عثمان بن طلحة هذا وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص .

وأمر بالكعبة ففتحت ودخلها ، ورأى فيها جملة من الصخور منحوتة في الصخر ، ورأى فيها صورة ابراهيم، واسماعيل يستقسمان بالأزلام وهي منحوتة أيضا ، فقال قاتلهم الله ، والله ان استقسما بها قط (أي ما استقسما) ورأى في داخل الكعبة حمامة من عيدان فكسرها ، وأمر بالصور فمحيت كلها ، ثم أغلق الباب على نفسه ، وعلى أسامة وبلال فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب ، حتى اذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى .

ثم دار في البيت وكبر في نواحيه ، وفتح الباب .

وقد خرج من باب الكعبة ، وكانت قريش قد ملأت المسجد ينتظرونه ، فخرج اليهم من محراب الله وكأنه مقبل عليهم من عند رب البيت ، الذي جعله حرما آمنا ، والناس يتخطفون من حولهم .

وقد دهشوا ، يتعرفون ماذا يصنع .

فأخذ بعضادتي الباب وقال : لا اله الا الله وحده ، لا شريك له صدق الله وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، الا كل مأثرة أو مال أو دم فهي تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، قال وقتل العمد ، وشبه السوط والعصا ، فيه الدية مغلظة ، فانه من الابل أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ان الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا الآية :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (١)

---

(١) الحجرات

﴿ ١٩٨ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ (١)

٦٠٧ ـ بهذا الامر الرباني أخذ نبي الرحمة،وأعظم عفو رآه الوجود الانسانى هو عفو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن أهل مكة ، لقد اضطهدوه منذ البعثة وهو في الأربعين واستمر أذاهم غير مقطوع ، حتى ذرف في الستين ، لاينون عن ايذائه ، ثم قتاله ، ثم الدس الخبيث له ولرجاله فلما غلب وتغلب بعد أكثر من عشرين سنة ، لم يقل ويل للمغلوب ، كما يقول ساسة هذا الزمان ، بل قال مرحباً بالاخوة :وعفوا عما مضى ، وان تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف .

قال صلى الله تعالى عليه وسلم لقريش وهم صفوف ينتظرون كلمته فيهم فقال لهم : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم .

قالوا أخ كريم وابن أخ كريم .

قال فانى أقول لكم كما قال يوسف لاخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وكان عثمان بن طلحة في يده مفتاح الكعبة قبل أن يسلم ، وقد أراده علي مع السقاية ، فرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان بن طلحة ، وقال له : اليوم يوم بر ووفاء .

وذكر ابن سعد في طبقاته عن عثمان بن طلحة ، قال كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما (أى قبل الفتح) يريد أن يدخل الكعبة ، مع الناس ، فاغلظت له فنلت منه فحلم عني ، ثم قال يا عثمان لعلك ترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت .

ولعل ذلك أيام الأذى الذي كان ينزل بالمؤمنين من قريش قبل الهجرة

---

(١) الاعراف

حتى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يؤذى فيما يستحقه كل الناس ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، مستبشرلا يرجو الا ما عند الله ، مطرح ما عند الناس .

قال النبي لعثمان ابان ذلك ان المفتاح سيكون بيده يضعه حيث يشاء ، فقال متطاولا في الأذى بالقول : لقدهلكت قريش يومئذ وذلت .

فقال له رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم : بل عمرت وعزت يومئذ .

يقول عثمان فوقعت كلمته مني موقعا أي أنه توقع صدقها وهم في الجاهلية الغافلة ، وظن أن الأمر سيصيرالى ما قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد تحقق ما توقع ، وصدق قول الرسول ، فقد آل اليه المفتاح يضعه حيث يشاء ، فوضعه في يد عثمان بن طلحة ، الذي أغلظ له في القول من قبل ، ونال منه .

ويقول عثمان في حكايته : قال لي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: يا عثمان ائتني بالمفتاح ، فاتيته فأخذ مني المفتاح ، ثم دفعه الي ، وقال : خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم الا ظالم يا عثمان ، ان الله تعالى استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل اليكم من هذاالبيت بالمعروف .

فلما وليت ناداني ، فرجعت اليه ،فقال ألم يكن الذي قلت لك ، قال فذكرت قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لي قبل الهجرة ، سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت ، قلت بلى : أشهد أنك رسول الله صلى الله تعالى عليك وسلم .

ومع السماحة التي تدني أشد القلوب جفاء ، ومع هذا العفو الكريم الذي يجمع الشارد ، ويدني القاصي،كانت قلوب بعض القرشيين ما زال يسكنها الضعف في الايمان والبغض الجاهلي .

يروي سعيد بن المسيب يقول تطاول لأخذ المفتاح رجال من بني هاشم فرده رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم لعثمان بن طلحة .

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا أن يصعد الى الكعبة ، فيؤذن ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ، الا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه ، فقال الحارث أما لو أعلم أنه على حق لأتبعته .

وقال أبو سفيان لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء قالوا ما قالوا ، والنبي ليس بينهم ، وهم يقولونه مسرين هامسين ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال قد علمت الذي قلتم ، ثم ذكر لهم ما قالوا .

فقال عتاب انك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معك ، فنقول أخبرك .

٦٠٨ ـ كان هذا العفو الشامل لقريش أمانا لكل أهل مكة ، ودعا الى الا يقتل الا تسعة ، أهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دمهم ، وأباح قتلهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة وهم عبد الله بن أبي السرح ، وعكرمة بن أبي جهل قبل اسلامه ، وعبد الله بن خطل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس بن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب .

وهؤلاء كادوا كيداً شديداً للاسلام، وبعضهم مع ارتداده قتل مسلما عامداً بعد أخذ الدية أما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فكان قد آمن أو أسلم ، وكان يكتب للوحي ، ثم ارتد بعد اسلام ، وكذب كذبة خطيرة ، فادعى أنه كان يغير فيما يملي عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان النبي يأمره بكتابة عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم .

فكانت اباحة دمه حماية للاسلام من المرتدين ، فلما أبيح دمه فر الى عثمان ابن عفان ، وكان أخاه في الرضاعة ، مع صلة النسب ، فذهب به عثمان

الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستأمن له فصمت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنه صمتاً طويلا ،رجاء أن يتقدم أحد الحاضرين لقتله ، ثم قال بعد الصمت الطويل نعم ـ فأخذ الأمان اكراما لعثمان وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال في عثمان انه تستحي منه الملائكة ٠

وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمن حضره بعد انصراف عثمان به « أما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم الى هذا حين رآني قد صمت فيقتله ،فقالوا يا رسول الله هلا أومأت الينا ، فقال ان النبي لا يقتل بالاشارة ، وفي رواية أنه قال : لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » ٠

ولقد كان من المقربين الى عثمان في خلافته،ولاه مصر بعد عمرو بن العاص، وكان ممن لهج به دعاة الفتنة في آخر عهد عثمان آخذين على عثمان توليته وقربه ، وأنه لم يكن عدلا ، ولعل ذلك كان من أشد ما لهجوا به وأقواه ٠

وعبد الله بن أخطل ، فقد أسلم ، وبعثه الله تعالى ليجمع الصدقات ، وبعث له رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى له ، فغضب عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا ، وكانت له قينتان فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلهذا أهدر دمه ودم القينتين ،فأما هو فقد قتل متعلقا بأستار الكعبة وقتلت احدى القينتين واستؤمن للاخرى، وأما الحارث بن نفيل بن وهب فقد كان يؤذي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ، ولما تحمل العباس رضي الله عنه بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما الى المدينة يلحقهما برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة أول الهجرة نخس بهما الحويرث هذا الجمل الذي هما عليه ، فسقطتا على الأرض ٠

فلما أهدر دمه قتله علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء ٠

وأما مقيس بن صبابه ، فقد آمن ثم ارتد ، ثم أخذ دية ، ثم قتل قاتل أخيه غدراً ، وذلك أن أخاه كان مسلماً فقتل خطأ في أعقاب غزوة بني المصطلق فجاء هو وأعلن اسلامه ، وأخذ دية أخيه من بيت المال ، وقد بينا ذلك ، ولكنه ما ان أخذ الدية حتى عدا على قاتل أخيه خطأ ثم ارتد عائدا الى مكة ، فكان من الحق أن يقتل لردته ، ولقتله مؤمناً عمداً وقد أخذ الدية ٠

وقد قتله رجل من قومه ٠

وسارة مولاة لبني عبد المطلب ، ثم لعكرمة بن أبي جهل ، وكانت تؤذي رسول الله وهو بمكة ، وروي عن بعضهم أنها هي التي حملت الكتاب الذي أرسله حاطب بن أبي بلتعة ،وكأنها عفي عنه ، ثم هربت ثم أهدر دمها فهربت حتى استؤمن لها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأمنها فعاشت الى خلافة الامام عمر فوطئها رجل فرسا فماتت .

وأما عكرمة ، فكان اهدار دمه قبل أن يسلم وقد هرب الى اليمن ، فلما أسلمت امرأته استأمنت له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأمنه فذهبت الى اليمن ، فتقدم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على ألا يؤذيه ،فعندما جاء مسلما قال لأصحابه ، لقد جاءكم عكرمة بن أبي جهل مسلما فلاتسبوا أباه ، لأن ذلك يؤذي الحي ، ولا يصيب الميت ، وهكذا يكون كرم النبي العطوف الألوف .

ويروى أن الايمان دخل قلبه قبل أن يجيء اليه امرأته ، وذلك أنه وهو في السفينة عصفت بها عاصفة وقال بعض أهل السفينة لبعضهم ، ان آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا هنا ، فأثر ذلك في نفس عكرمة وعقله ، ورب لفتة تحول القلب من الكفر الى الايمان ، وقال :« والله لم ينج في البحر الا الاخلاص وانه لا ينجي في البر غيره ، اللهم ان لك علي عهداً ان أنت عافيتنى مما أنا فيه آتى محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً » .

ثم جاءته امرأته ، وقد طاب نفساً بالاسلام .

وأما هبار بن الأسود فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما هاجرت ومكن لها زوجها من الهجرة ، فنخس هبار هذا راحلتها حتى سقطت على صخرة ،وكانت حاملا ، فسقط جنينها .

٦٠٩ ــ كانت اقامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رابطة بالود بينه وبين قوم كانوا له أعداء آذوه حتى خرج من عندهم يائساً من أن تتحقق الدعوة الى الرسالة الالهية فيهم ، وأنه لا سبيل الا أن يهاجر ، ثم كانت الحروب المفرقة .

ولما فتح مكة كان لابد أن يزيل الاحن من النفوس فلان ورفق ، وعفا وصفح الصفح الجميل ، كما أمره ربه اذ قال له « فاصفح الصفح الجميل » ، فظن الأنصار الذين آووا ونصروا أن مهمتهم قد انتهت ٠

لقد قالوا فتح الله مكة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي بلده ، وموطنه ، جال ذلك في نفوسهم وتحدثوا به فيما بينهم ، ثم قالوا : أترون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا فتح الله تعالى عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ٠

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم يحدثون أنفسهم بذلك يدعو على الصفا والمروة رافعا يده ، فلما فرغ من دعائه اتجه الى أنصاره فقال لهم : ماذا قلتم ، قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ،فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : معاذ الله ،المحيا محياكم ، والممات مماتكم ، أي أنه يعيش فيهم حتى يموت بينهم ، انه نصره الله تعالى بهم ، وخذله غيرهم فهو منهم ، وهو كما قال في موضع سيجيء : انه لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ،وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ٠

٦١٠ ـ قال الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

والقتال في البيت الحرام على ذلك حرام ، وان الرجل كان يلقى قاتل أخيه أو أبيه ، فلا يمسه ، والمنازعات تكون خارجة لكي يتوافر للناس الأمن في أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركا ، وهدى للعالمين ٠

ومن أجل ذلك نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهيا مؤكدا عن القتل والقتال ، وأمن الناس حتى لا يضطروا الى المدافعة ، فقال : من كان في البيت الحرام فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، وصار يعطي الأمان لكل من يطلبه ، الا أولئك الذين كان لهم اجرام واضح ، وبعضهم ممن أسلم ثم ارتد ، ومن كان مثل هذا فيه ، وقتل عمدا أمؤمنا بعد أخذ دية أخيه ٠

وذلك كله ليحفظ حرمة البيت الحرام ، وشرف مكة وحرمتها ٠

ولكن مع هذا الاحتياط الشديد في حرمة البيت ومنعها من أن تمس ، مع ذلك كان من المشركين الذين لم يدركوا معنى السلام من هاجموا قوات خالد بن الوليد ، واضطر جيشه أن ينضح عنه النبل القاتل بالقتال فقاتل ، وقتل من جيشه اثنان وقتل من المشركين بضعة عشر رجلا ٠

ولا شك أنه في هذه الحال انما أباح حرمة البيت الحرام أولئك الذين هاجموا ، وهم المشركون ، لا الذين دافعوا ، وهم من كانوا في جيش خالد ٠

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح دم الذين أهدر دماءهم ،ولو تعلقوا بأستار الكعبة وقتل فعلا أحدهم، وهو متعلق بأستار الكعبة ٠

---

(١) العنكبوت

وان حرمة مكة باقية خالدة ، وان امتهـان حرمتها كان لحالة استثنائية ، لا يوجد مثلها قط ، ولذلك خطب بذلك مؤكدا حرمتها ، التي اختصها الله تعالى، فخطب قائلا بعد أن حمد الله تعـالى ،وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله .

« أيها الناس ، ان الله تعالى حـرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام كحرمة الله تعالى الى يوم القيامة ،فـلا يحـل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يسفك فيها دماً ، أو يعضد بها شجرة ، فان أحد ترخص لقتـال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقولوا له : ان الله أذن لرسـوله ولم يأذن لكم ، وانما حلت لي سـاعة من زمان،وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليعلم الشاهد فيكم الغائب » .

وكلام النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم ، ليبين للناس حرمة مكة الدائمة، وانه ليعرف الناس فجور الأمويين ، وأتباعهم الذين رموا الكعبة بالمنجنيق ، فارتكبوا ما كان الجاهليون يتعففـون عنه ، فهم أشد جرما ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى .

٦١١ ـ اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد أن خضعت قريش راضية أو راهنة الى تجديد بعض أجزاء البيت ، فأمر أبا أسيد الخزاعي بذلك .

ولم ينقص على أحد نفسه ، بل أخذ منهم الظاهر ، وترك لهم ما بطن، ويروي البيهقي أن أبا سفيان كانت تحدثه نفسه أن يثير القتال بينه وبين هذا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو حديث لم يتكلم به ولم يطلع عليه أحدا واذا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول له : « ليخزينك الله » وكان كأنه يحدث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث بينهما ، فقال أبو سفيان :

لا يعلم هذا أحد وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يمر على الأصنام، فيغمزها بقوسه،فتتساقط ،وهو يقول:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[1]

وقد ذكرنا ذلك .

ولكنه لم يكتف بما صنع هو ، فقد أرسل رجاله سرايا الى أماكن الأوثان ، فحطموا ما حول الكعبة ، ثم حطموا ما هو خارجها ، فكسرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونادى مناديه في أهل مكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنما الاكسره » ، وصار الذين دخلوا في الاسلام يتسابقون في كسر ما تحت أيديهم من الأوثان ، وبعث خالد بن الوليد الى العزى لخمس بقين من شهر رمضان ليهدمها ، فخرج اليها في ثلاثين رجلا حتى لا يكون من يستطيع مقاومتهم فهدمها .

---

(١) الاسراء

ويقول الرواة انه رجع الى رسول الله فاخبره ، فقال هل رأيت شيئا قال : لا • قال فارجع اليها ، فانك لم تهدمها ، فارجع اليها فاهدمها ، فرجع خالد وهو متغيظ ، فجرد سيفه فخرجت اليه امرأة عارية سوداء ناشرة شعر رأسها ، فجعل السادن يصيح بها ،فضربها خالد فقتلها ، وجاء الى الرسول وأخبره ، فقال له الرسول نعم تلك العزى وقد أيست أن تعبد في بلادكم ويظهر أن هذه المرأة كانت تختفي وخالد لم يكن يراها ، فلما رفع سيفه واعتقدت أنها لا محالة ظاهرة ، ظهرت،فقتلها •

وكانت بنخلة ، وكانت قريش ، وبنو كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم ، وكان سدنتها من بني شيبان •

ثم بعث عمرو بن العاص ، الى سواع ، وهو صنم لهذيل ليهدمه ، فانتهى اليه ، وعنده السادن ، قال ما تريد ؟

قال : أمرني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن أهدمه •

قال : لا تقدر على ذلك ، قال ولم ؟قال تمنع ، قال عمر وحتى الآن أنت على الباطل ويحك فهل يسمع أو يبصر،فدنا منه فكسره ، وأمر عمرو أصحابه أن يهدموه ثم قال عمرو للسادن : كيف رأيت ؟ قال أسلمت لله تعالى •

وهذا يثبت أن ايمانهم بهذه الاصنام مبني على وهم توهموه فيها ، فلما انكشف لهم كفروا بها •

وبعث سعد بن زيد الأسهلي ، الى مناة عند القديد ، وكانت صنما للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ممن يجاورون الشام أو في طريقه •

فخرج سعد في عشرين فارساً ،حتى انتهى اليها وعندها سادن •

فقال السادن ماذا تريد ؟ قال سعد هدم مناة ، فقال أنت وذاك ، وكأنه يتحداه ، فأقبل سعد يمشي اليها ،فخرجت اليه امرأة عارية سوداء وثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فضربها سعد ، فقتلها ، وأقبل الى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا في خزائنه شيئاً •

هذه عزمة قوية من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أزال بها ما كانوا

يعبدونه من أحجار لا تضر ولا تنفع ،وفعل ما فعله جـــده ابراهيم الخليل عليه السلام ، فجعلهم جذاذاً ، ولم يبق كبيراً لهم ، لأنه لا كبير يبقى أمام معول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقدجعلها جذاذاً بعد أن فقـــدت الأوهام التي كـــانت تحيط بالنفس العـــربيةحولها ٠

وبذلك انتهت دولة الأوثان في البلاد العربية ، ولقد رآها الذين كـــانوا يعبدونها ، لا تدفع محطمها ، ولا تمنعه، اذ هي لا تملك لنفسها نفعـاً ، ولا ضراً ، وقد يئس الشيطان من بعدها أن يعبد في بلاد العرب ٠

٦١٢ ـ عقب تحطيم خالد بن الوليد العزى أرسله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى جذيمة من كنانه داعياالى الاسلام ، ولم يبعثه مقاتلا ، لأنه لا قتال في مكة وما حولها من القرى والبوادي بعد أن دخلت مكة في طاعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ثمة حاجة الى القتال ولم يكن منهم غدر أو خيانة ،حتى يعاقبوا على غدرهم وخيانتهم ٠

أرسله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعهم قبائل من العرب من سليم بن منصور ، ومدلج بن مرة ، ومعهم بعض المهاجرين والأنصار كعبد الله بن عمر ، وسالم مولى حذيفة ٠

وكانت عدة من خرج فيهم خمسين وثلاثمائة من بني سليم والمهاجرن والأنصار ٠

قال لهم خالد ، ما أنتم قالوا :مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبنينا المساجد في ساحتنا ، وأذنا فيها ٠

وكان حقاً على خالد بن الوليد أن يكف عند هذا ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أرسله مقاتلا ، بل أرسله داعيا وهاديا ، ولكنه تخلى عن هذه الصفة العالية ، وأبى الا أن يكون مقاتلا ، وبرر ذلك بأنهم يحملون السلاح ٠

قال لهم فما بال السلاح عليكم ٠

قالوا ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، كان عليه بعد أن يكتفي بذلك ، أو أن يتحرى عن صدق كلامهم ، أو أن ينزع السلاح من أيديهم ٠

ولكنه لم يفعل ، بل استأسرهم ،بعد أن وضعوا السلاح كما أمر ، وما كان له ذلك ، فأوثقهم وفرقهم في أصحابه ٠

وكان حقاً عليه أن يأخذهم أسارى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ليفعل فيهم ما يحكم الله تعالى، ولكنه في السحر، نادى خالد بن الوليد، من كان معه أسير، فليضرب عنقه، فأما من كان معه من بني سليم فقتلوا من في أيديهم من الأسرى المنكوبين بخالد.

وأما المهاجرون والأنصار أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حقا وصدقا، فانهم أرسلوا أسراهم، ولم يقتلوهم، لأن الأسرى لا يجوز قتلهم، لأنهم مسلمون.

ويلاحظ أنه كان فيهم رجل أدرك نية خالد يقال له جحدم، ولم يعتقد أنها نية اسلامية، قال لقومه، لما أمرهم خالد بأن يضعوا أسلحتهم: يا بني جذيمة انه خالد، انه خالد، والله مابعد وضع السلاح الا اسار، وما بعد الاسار الا ضرب الأعناق، انتقل رجل من القوم، وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: هل أنكر عليه أحد؟ قال نعم: قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب، فاشتدت مراجعتهما فقال عمر بن الخطاب، أما الأول فابني عبد الله يا رسول الله، وأما الآخر، فسالم مولى أبي حذيفة.

عندما بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعل خالد هذا رفع يده الى السماء ضارعا: اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد.

ولقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن فعل خالد لم يكن من الاسلام، ولعله رأى أنه بقية من بقايا الجاهلية.

أول ما فكر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرأب الصدع، ويداوي القلوب بالديات يرسلها، فدعا علي بن أبي طالب، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «يا علي اخرج الى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»، هذا أمر في موضعه وفي وقته، فان الجاهلية في هذا الأمر قد بدت نائبة ظاهرة.

فخرج علي، ومعه مال كثير قد بعث به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فودي لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال، حتى اذا لم يبق شيء من دم

أو مال الا وداه بقيت معه بقيــة من المال ، فقال لهم على حين فرغ منهــم ، هل بقي لكم دم أو مال لم يود لـكم ؟قالوا لا ، قال أعطيتكم هذه البقيــة احتياطا لرسول مما لا يعلم ولا تعلمون •

جاء علي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقص عليه ما صــنع ، فقال أحسنت وأصبت ولكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يزال عـلى ألم وأسى ، ولذا استقبل القبلة قائمــاشاهراً يديه ، حتى ليرى ما تحت منكبيه، « اللهم اني أبرأ مما صــنع خالد بن الوليد ثلاث مرات ، لقد أصــاب فعل خالد قلب النبي صلى الله تعالى عليــهوسلم ، لأنه قتل وهو مبعوثه أبرياء »•

وقد ورد ما يدل على الاعتذار عن فعل خالد الذي لا يقبل الاعتذار ،ولو كان عذر لأبداه للنبي صلى الله تعــالى عليه وسلم : قالوا انهم قالوا صبأنا ، صبأنا يريدون أسلمنا ، فظنهم قــدكفروا فقتلهم ، وهذا كلام غير مقبول في ذاته لأن سنده ضعيف ، وما كان له أن يقاتلهم على ذلك ، وقد تبين أنهم لا قدرة لهم على القتال ، فكيف يقتلهم انه ان صح ذلك لا يكون قتالا محمديا، فقد أسرهم ، فلماذا يقتلهم في السحر•

ان الأمر مهما يؤت من جــوانبه لايبرز فيه الا العمل الجاهلي ، وقــد صرح بذلك خالد بن الوليد في مجادلة له مـــع عبد الرحمن بن عــوف الذي كان يلومه •

قال ابن اسحاق قد كان بين خالد بن الوليد ، وعبــد الرحمن بن عـــوف (الصحابي المهاجر أحد العشرة المبشرين بالجنة) كلام في ذلك ، قــال له عبد الرحمن بن عوف عملت بأمر الجاهلية في الاسلام ، فقال خالد : « انما ثارت بأبيك ، فقال عبد الرحمن : كذبت ، قد قتلت قاتل أبي ، ولكنك ثارت لعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهماشر » •

عبد الرحمن بن عوف يقول قــولة الاسلام ، وخالد يقول الثارات ، وقــد بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وســـلم ما قال خالد لعبد الرحمن بن عــوف فقال لائمــا لخالد ، مبينا له مكانه من أصحابه •

مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابي ،فوالله لو كال لك أحد ذهبا ، ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته •

نعم هم الأصحاب الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه في بيعة الرضوان تحت الشجرة ·

ومهما يكن حكم التاريخ في عمل خالد جاهلية واسلاما ، فانه سيحكم لا محالة في هذه الواقعة ، بأن فيها جاهليته ان لم يكن كلها جاهليا ،ورحم الله عمر بن الخطاب عندما عزله فقد قال : « ان في سيف خالد لرهقا »ولعل كان أشده مما كان واضحا في أمر جذيمة ·

واننا اذ ننقد فعل خالد في هذا نتابع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونراه ينطق بالحق ، واذا كان من الناس من كان ينقد عليا وعثمان ومن يماثلهما ، فان لنا أن ننقد عمل خالدفي هذا ، وما كنا مبتدعين في نقده ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بريء من صنيعه ، ووضح له فعله مع المؤمن المهاجر أحد العشرة المبشرين بالجنة واستنكره ·

٦١٣ ـ أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية شهر رمضان يقصر من الصلاة ، فيصلي الأربع اثنتين، ويفطر ، لأنه كان لا يزال مسافرا ، ولم يعد نفسه في مكة في وطنه الأصلي وهو مكة ، لأنه لم يبق له دار تعد بيته الأصلي ، وقال ما أبقى لنا عقيل من دار ، وقد استمر يترخص رخصة المسافر،لأنه لم ينو نية الاقامة،فكان على سفره يترخص في الصلاة والصيام معاً ٠

وان رمضان قد انتهى وهو بمكة ،فلم يكن محل رخصة الافطار ، انما كانت رخصة القصر قائمة وكان هو يؤم المصلين المقيمين ، يقول بعد تمام الركعتين : « يأهل البلد صلوا أربعافانا سفر ، وقد اختلف في مدة اقامة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فروي أنها خمس عشرة ليلة ، وروي أنها ثماني عشرة ليلة ، وروي أنها تسع عشرة ليلة ، والله أعلم بأصح الروايات ٠

٦١٤ ـ أول حكم يتجه الفقهاء الى الكلام فيه أمكة فتحت عنوة أم فتحت صلحا فكثيرون من العلماء يقولون انها فتحت عنوة ، فتكون أرضها خراجية ولا تكون عشرية ، لأن الجيوش الاسلامية دخلتها فاتحة ، وقتل فيها قتلى ، فقتل نحو عشرين، منهم نحو اثني عشر من المشركين ، وبعض المؤمنين ، وكان يؤمن بعضهم بأمان خاص من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأمان العام الذي قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان ملاحظاً معنى خاصاً ، وهو أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بيته فهو آمن وبالمفهوم أن من رؤي في غير بيته ، وفي غير واحد من هذه البيوت، فانه مباح الدم الا بأمن خاص ، وهذا يدل على أنهم حربيون ، والحربيون حتى يصدر الأمان لا يقال انهم فتحت أرضهم صلحا .

ولأنه لم يكن ثمة عقد صلح كان الأمان نتيجة له ، ولأنه لم تفرض جزية على أحد من أهل مكة ، حتى يقال انهم أعطوا الجزية ، وان أرض مكة لم تكن خراجية ، هذه وجهة نظر من قالوا ان مكة فتحت عنوة .

ويرى الامام الشافعي مع كثيرين من الفقهاء أن مكة لم تفتح عنوة ، بل فتحت صلحا مما سبق به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه أعطى الأمان لأهلها بقوله من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ، فكان ذلك تأمينا عاما ، ثم صرح بالتأمين عند أمن الجميع ، وأباح دم التسعة الذين ذكرهم وأجاز قتلهم ، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، وانه لم يقسم أرض مكة بين الغانمين ، ولم يعتبر أموال أحد من أهلها غنيمة ولا نفلا من الأنفال ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن القتل والقتال ، فكيف يقال بعد ذلك انها فتحت عنوة ، ان المقياس الضابط بين العنوة والصلح هو أن يكون تسليم أهل البلدة في العنوة بقوة السيف والغزو ،

وأما الصلح فهو التسليم من غير قتال ولا أهل ، ولقد سلم أهل مكة من غير قتال ، وكان الأمن الكامل من الرسول الكريم هو في قوله اذهبوا فأنتم الطلقاء•

وانا نميل الى أن مكة لم تفتح لا عنوة ولا صلحا ، فلم يتحقق أصل الفتح ، وانما تحقق اللقاء بالمودة والرحمة من غير عقد ، بل هو أعلى من العقد ، وهو صلة الرحم بعد قطعها من قريش ، ولوأننا اخترنا الموازنة بين الرأيين ، وكان لابد أن نختار أحدهما ، لاخترنا أنها لم تفتح عنوة •

٦١٥ ــ قلنا ان الله تعالى حرم القتال في مكة المكرمة ، ونقلنا لك قول الرسول في ذلك ، والآن سنذكر بعض الأحكام المتعلقة بمكة فنقول •

ان الله تعالى حرم الصيد في الحرم الشريف مكة وما حولها لمن أحرم بالحج ، ولقد قال تعالى في ذلك :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

ولقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تحريم القتل والقتال في مكة ، وذكر بعده محرمات أخرى فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بتحريم الله سبحانه وتعالى ، لا تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي الا ساعة الدهر ، لا ينفر صيدها ، ولا يعضد شوكها ، ولا يختلى خلاؤها ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد ، فقال العباس الا الاذخر ، فانه لابد منه للدفن والبيوت ، فسكت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال الا الاذخر » •

هذا ما رواه البخاري ، وقد انفرد بروايته ، وحسب البخاري صدقا ، لأنه صادق في جملة ما رواه ، وان أخذت عليه بعض الأحاديث لمتنها •

---

(١) المائدة

وبذلك ننتهي من بيان هذا الحديث :

(أ) بأنه يحرم الصيد في الحرم ،كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينفر صيدها وكلها حرام آمن من كل نواحيه ·

(ب) وبأنه لا تقطع أشجارها ، لتوجد جوا صالحا من جوها ، وان شوكها لا يعضد ، ولا يحتجز خلاء لأحد فلاقطاع فيها لأحد ، ولا تحل لقطتها ، الا بعد التعريف بها ، وذلك حكم عام لا تختص به مكة ، فان اللقطة لا تحل الا بعد تعريف صاحبها ، ويكون حلها ان يتصدق بها فان كان اللاقط مستحقا للصدقة تصدق بها على نفسه ·

وقد لوحظ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حرم على المقيم في مكة مالا يكون ضروريا للاقامة ، فنبه العباس أن الاذخر محتاج اليه في البيوت ، ومحتاج اليه في دفن الموتى ، فذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتفكر عليه الصلاة والسلام ، ثم وافق ، ولعل الوحي قد نزل عليه بذلك ، فما كان كلامه اتباعا للعباس ، ولكن كان اتباعا لأمر ربه ·

ومهما يكن من ذلك ، فان العباس بادراكه الاسلامي ، فهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح من زرع مكة ما لا يمكن الاستغناء عنه فقال مقاله ، فنزل الوحي بما قال ، فكان الوحي قد وافق نظره كما يذكر أنه وافق رأي عمر في بعض الأمور التي كان يؤخذ الرأي فيها ·

فما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تابعا للعباس ، بل جاء الوحي بموافقته ، كما جاء الوحي بموافقة عمر كما ادعى في بعض المواضع ·

لقد حرم الله تعالى القتل في مكة ،أفلا يصح القتل قصاصا ، أو اقامة الحد أو نحو ذلك قرر العلماء أن ذلك جائز ، فيجوز فيها القصاص ، وتتبع العصاة وعقابهم ، ولذلك قال عمرو بن سعيد اجابة لأبي شريح ، قال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، ان الحرم لا يفيد عاصيا (أي لا يحمي عاصيا ، ولا فارا بدم ، ولا فارا بجزية) ·

وهكذا فالمحرم القتل بغير حكم شرعي ، أما القصاص بحكم القصاص ، فانه يجوز ، ولقد استباحت خزاعة أن تأخذ بثأرها من بعض بني بكر ،فقتلت واحدا ، فنهاها نهيا قاطعا ، ودفع دية المقتول ·

ولقد خاطب خزاعة عند ودي قتيلها، يا معشر خزاعة ، ارفعـــوا أيديكم عن القتل ، لقد قتلتم قتيلا فوديتـــهفمن قتل بعد مقامي هذا ، فأهله بخير النظرين ، ان شاءوا قدموا قاتله ، وانشاءوا نعقله لاي وثبه ٠

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم:« ان أعدى الناس من قتل في الحــرم أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخـــولالجاهلية » صدق رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يقتل بالكبير فيزعمهم عدد من قبيل القاتل ٠

دية شبه العمد

٦١٦ ـ أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دية القتل شبه العمد ، ذلك أن القرآن الكريم بين حكم القتل العمد ، فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

بهذا النص الكريم ثبت أن عقوبة القتل العمد القصاص ، ولكن رخص لولي المقتول أن يختار الدية بعد القصاص ، ويسمى الفقهاء الدية في هذه الحال قصاصاً معنوياً ، وكان ذلك تخفيفاً من الله ورحمة لأنه قد يكون من مصلحة ولي الدم أن يرضى بالدية أو العفو كأخ يقتل أخاه ، وولي الدم ، وهو الأب ، فاذا كان القصاص من غير فرصة الدية أو العفو ، خسر المكلوم ولديه ، فكان هذا الترخيص بالدية أو العفو تخفيفاً ورحمة .

والقتل الخطأ شرع القرآن عقوبته فثبتت بالنص ، فقد قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ

(١) البقرة

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾
وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ
عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ (١)

وهكذا ذكر الله تعالى عقوبات القتل ، وخلاصة ما نصت عليه الآية :

أولا ــ أن تعمد القتل لا كفارة له عن عقوبة الآخرة ٠

ثانيا ــ أن الدية في القتل تكون لأهله المسلمين أو من كان بيننا وبينهم عهد أما العدو فلا دية لأهله لأنهم يقوون بها ، ويستعينون بها في حرب المسلمين ٠

ثالثا ــ أن تحرير الرقبة ضروري أو بدله ، وهو صيام ستين يوما ،وذلك لتكفير اثم الخطأ ، لأنه مهما يكن ففيه اثم ترك الاحتراز ، ولأن القاتل خطأ أفقد المسلمين نفسا ، فحق عليه أن يحيي نفسا بدل من تسبب في فقدها ، واحياؤها بحريتها ، فالحرية لفاقدها احياء ٠

هذه اشارات الى أحكام القتل في القرآن ذكرناها ليميز ما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو القتل شبه العمد ، ولم يذكر في القرآن حكم للقتل الشبيه بالعمد ٠

وذكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في فتح مكة في المدة التي أقامها بها فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم :« الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا ان قتيل العمد الخطأ بالصوت أو العصا فيه مائة من الابل ، وفي مرة قال :مغلظة فيها أربعون خلفة في بطونها أولادها ، وهذا النوع من القتل يسمى في عرف الفقهاء شبه العمد ، وسماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم العمد الخطأ وهو كما عرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القتل المقصود الذي يقع بغير آلة معدة للقتل ، كالقتل بالسوط أو العصا ، أو الحجر ، الذي لا يقتل عادة ، وهو الذي يسمى في عرف القانون في هذه الأيام الضرب المفضي الى الموت ، وقد ذكر النبي صلى

(١) النساء

الله تعالى عليه وسلم أن ديته دية مغلظة،وذلك لأن الدية في القتـــل نوعان ، فالدية المغلظة التي تناسب الجريمة وهي التي ذكرها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهي مائة من الابل فيها أربعون خلفة حوامل في بطونها أولادها ، أما الدية غير المغلظة فمائة من الابل فقط من غير اشتراط أن يكون فيها هـــذه الأربعون الحوامل ٠

والقتل شبه العمد الضرب مقصود فيه ، فلم يكن خطأ جاء من غير قصد ، انما القصد ثابت لأنه أراد الضرب ، ولكن الآلة غير قاتلة في ذاتها ، فهـــو لا يعد قاصدا النتيجة ، وجاءت النتيجة غير مقصودة ، فشـــابه الخطأ من حيث لم يقصد هذه النتيجة ، وشابه العمد ،لأنه قصد الضرب ، وباشره عامـــدا ، ولذلك سماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « العمد الخطأ » فهو عمد في ابتدائه وليست نهايته متعمدة ٠

الميراث بين المسلم والكافر

٦١٧ ـ عندما دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ، لم يجد دارا من دور بني هاشم تعد بيتا ، ولم يجد بيته الذي كان له قبل هجرته ، وقال عليه الصلاة والسلام هل أبقى لنا عقيل من دار ، وعد نفسه مسافرا ودل هذا على أنه اذا عاد الشخص الى موطنه الأصلي لا ينقطع عنه وصف المسافر الا اذا عاد الى بيته الذي كان يقيم فيه ،فان لم يجد بيته الذي كان يقيم فيه لا يعد مقيما ، بل يعد مسافرا وذلك لأن مكة بلده ، ولكنه لم يجد فيها راحة المقيم فكان مسافراً .

ولذلك أفطر في رمضان برخصة السفر ، وقصر الصلاة بهذه الرخصة.

ولقد أخذ الخارجون على سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه أنه لم يقصر الصلاة في مكة ، فبين أنه كان في بيته وبين أهله ، فلم يعد نفسه مسافراً ، فلم تكن الرخصة التي تسوغ له القصر،ولعله وجد بيته الذي كان يقيم فيه قبل الهجرة ، وذلك كله على أساس أن القصر رخصة ، وليس عزيمة .

وقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد قوله ، ما ترك لنا عقيل من دار ، لا ميراث بين مسلم وكافر ،فكان هذا شرعا يمنع ميراث الكافر من المسلم ، وميراث المسلم من الكافر ،وذلك صريح قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يتوارث أهل ملتين شتى.

ولقد كان اجماع الفقهاء على ذلك الا الشيعة الامامية ، فقد قرروا منع ميراث الكافر من المسلم ، ولم يمنعوا ميراث المسلم من الكافر .

وكذلك كان يعمل بذلك معاوية بن أبي سفيان الذي ملك أمر المؤمنين باسم الخلافة واسم امرة المؤمنين ، ولذلك كان القاضي شريح رضي الله تعالى

عنه يصدر أحكامه ذاكراً فيها أنه قضاءالله ورسوله ، الا اذا قضى في توريث مسلم من كافر ، قال : هذا قضاء أميرالمؤمنين معاوية ٠

والحق ما قرر الفقهاء لأنه صريحقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأن الميراث سببه النصرة بين الوارثوالموروث ، وهي لا تتحقق اذا كـــان أحدهما غير مسلم ، ولأن الميراث ولاء ،ولا ولاء بينهما ، ولأن الوارث امتداد لشخصية المورث ، ولا يمكن أن يعـدالمسلم امتداداً لشخصية الكافر ٠

الولد للفراش

٦١٨ ـ جاء هذا الحديث الصحيح في وقائع في مكة عند فتحها ، ذلك أن عتبة بن أبي وقاص عهد الى أخيه سعد أن يطالب بنسب ابن عبد بن زمعة على أنه ابن عتبة ، وابن أخي ، ولكنه جاء من فراش ، ابن زمعة فتنازعه عبد بن زمعة على أنه أخوه ولد في فراش أبيه ، وسعد على أنه ابن أخيه بوصيه عتبة أخيه ، فوجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن صفاته الجسمية تشبه صفات عتبة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لا يحكم بالقيافة بل يحكم بالشرع ، فحكم لعبد بن زمعة على انه أخوه ، وأخو أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، وبذلك تبين معنى الحديث الولد للفراش وللعاهر الحجر ٠

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمرها بأن تحتجب عنه ، ولو كان أخاها حقيقة ، ومن كل الوجوه احتجبت ، ولكن لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاط للتحريم ما أمكن التحريم فقد أمر أم المؤمنين سودة بأن تحتجب عنه احتياطا لما رأى من شبه بينه وبين عتبة مما يومىء الى أنه ابنه ، فاحتاط في التحريم ، وحكم بحكم الله في النسب ، والله تعالى أعلم ٠

٦١٩ ـ روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير أن امرأة سرقت في عهد رسول الله في غزوة الفتح ، فأهم قريشا أن تقطع يد امرأة منهم في سرقة ، وكانت مخزومية اسمها فاطمة، ففزع قومها الى أسامة بن زيد ، وكان حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشفعونه ، فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال لأسامة أتشفع في حد من حدود الله ، فقال أسامة أستغفر الله يا رسول الله ، فلما كان العشي ، قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعد ، ما بال أقوام يشفعون في حد من حدود الله ، فانما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وهكذا كانت الأحكام الاسلامية تطبق على القوي والضعيف ، ومن له نسب ، ومن ليس نسبه يحميه ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أشار الى معنى اجتماعي في قيام الأمم وقوتها ، فبين عليه الصلاة والسلام أن العدالة والمساواة أمام القانون هي التي تبني الأمم ، ولا ملك يقوم من غير عدالة ، بل انه ان بدا قويا ، فان الظلم الذي يكون فيه يهدم أركانه ويقوض بنيانه فلا قوة لأمة بظلم ، ولا علو لجماعة بغير العدل .

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقطع يدها ، ليعلموا أن قريشا العزيزة المتفاخرة بأنسابها هي والجميع على سواء ، وذلك ضرب في جنب العصبية الجاهلية ، ولقد حسن اسلامها بعد قطع يدها ، وعلمت أن يدها طهرتها ، وسبقتها الى الجنة ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

٦٢٠ ـ يذكر البخاري وغيره أن المتعة حرمت نهائيا في غزوة الفتح ، وكان فيها التحريم قاطعا ، ناسخا للترخص فيها الى يوم القيامة .

وقد تكلمنا عن المتعة عند الكلام في الأحكام التي ثبتت في غزوة خيبر، ونذكر هنا بأننا قلنا انها لم تبح ساعة من زمان ، وانما هي من اتخاذ الأخدان سكت عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت موطن عقد حتى أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوال العقود فيها بقوله عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن القاطع المانع ، ولقد شرحناها في موضعها من القول .

ولا مانع من أن نذكر ما قاله علماء الفقه والحديث هنا ، وان كنا قد اشرنا اليه فيما مضى من قولنا .

يقول الحافظ ابن كثير في تاريخه:« من أثبت أن النهي عنها في غزوة خيبر ، قال انها أبيحت مرتين ، وحرمت مرتين وقد نص على ذلك الشافعي، وقيل انها حرمت مرة واحدة ، وهي هذه المرة في غزوة الفتح ، وقيل انها أبيحت وحرمت أكثر من مرتين .

وقيل انها أبيحت للضرورة ، فعلى هذا اذا وجدت ضرورة أبيحت وهذه رواية عن أحمد ، وهذا قول جاف عن الشريعة ، فما هي الضرورة ، وقد نسب هذا القول الى الامام ابن عباس.

٦٢١ ـ قلنا ان الفتح لم يكن لقاء معركة ، وانما كان لقاء مودة ومحبة، ومع المحبة والمودة كانت الدعوة الى الاسلام ، وقد دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً ، اذ جاء نصر الله العزيز الحكيم .

وروى البيهقي أن الناس كانوا يبايعون على الاسلام رجالا كباراً ،وغلماناً صغاراً اذا كانوا قد بلغوا حد الادراك، وكانت تلك المبايعة على الدخول في طاعة الاسلام ، وشهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، وكانت بيعة النساء على ذلك ، وكانت على أخذالعهد ، بألا يفعلن شيئاً من المحرمات .

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا ،فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة ،لحدثها من صنيعها بحمزة رضي الله عنه، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحدثها (أو تستحيي من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما صنعت بعمه الحبيب) .

فلما دنين من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليبايعهن ، قال : بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً فقالت هند ،والله ، انك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال ، ولا تسرقن ، فقالت والله ان كنت لأصيب مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدرى أكان ذلك علينا حلالا أم لا ، فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى ، فأنت منه في حل .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وانك لهند بنت عتبة ،قالت نعم ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك ،ثم قال عليه الصلاة والسلام : ولا

يزنين ، قالت : يا رسول الله وهـــل تزني الحرة ، ثم قال عليــه الصـــلاة والسلام : ولا يقتلن أولادهن ، قالت:قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهــم أنت وأصحابك ببدر كبارا فضحك عمر بن الخطاب ، حتى استغرق ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ولا يأتين ببهـــتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، فقالت، والله ان اتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل ، ثم قال ، ولا يعصينني، قالت في معروف » .

فقال لعمر رضي الله عنه بايعهن ،واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم، فبايعهن عمر ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يمس الا امرأة أحلها الله تعالى له ، أو ذات محرم منه ، وماكان يبايعهن الا بالكلام ، ويقـــول : انما قولي لامرأة واحدة ، كقولي لمائة امرأة .

نفقة الزوجة

٦٢٢ ـ ان نفقة الزوجة واجبة على الرجل ، ويقسمها الفقهاء الى قسمين نفقة تمكين ، ونفقة تمليك ،والأصل نفقة التمكين ، ونفقة التمليك : وهي أن يقدر لها ما يكفيها بالمعروف ، ويملكه اياها نقداً ، أو طعاماً ، أو أنواعاً وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة الفتح قرر نفقة التمكين ، فقد سألته هند قائلة : يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ، ويكفي بني ، فهل علي من حرج اذا أخذت من ماله بغير علمه،قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: خذي من مال أبي سفيان ما يكفيك وولدك بالمعروف ، وروى البيهقي بسنده عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : ان هنداً بنت عتبة قالت يا رسول الله ما كان على وجه الأرض أخباء أو خباء أحب الي من أن يذلوا من أهل أخبائك أو خبائك،ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أخباء أو خباء أحب الي من أن يعزوا من أهل أخبائك أو خبائك ، وأيضا والذي نفسي بيده ، يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل شحيح ، فهل علي حرج أن أطعم من المال الذي له قال،النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالمعروف .

وهذا الحديث مهما تختلف صيغة رواياته يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن نفقة الزوجة واجبة على الزوج سواء أكانت غنية أم كانت فقيرة ، وسواء أكانت قادرة على الكسب أم عاجزة عنه ، لأنها جزاء قيامها بحقوق الزوج ورعاية بيته وأولاده وهي تقسيم في نظام الحياة الزوجية المرأة تقوم بادارة مملكة البيت ، والرجل يكدح ويعمل للحصول على الرزق ، ولذلك يقول صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع لهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وثاني الأمور التي تدل عليه الأحاديث الواردة عن هند واجابة النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم : أن عــلى الزوج أن يمكنها من ماله الذي تتمكن به من أن تطعم هي وأولادها بالمعــروف في أمانة من غير خيانة •

ثالثها : أن نفقة الزوجية تثبت حقاً لها ولأولادها من غير حكم من القضاء ، أو أمر من ولي الأمر ، بل تثبت بحكم الشرع على أنها حق من حقوقها بمقتضى الأحكام الشرعية لا بسبب الرضا ، أو القضاء، وقد يكون تقديرها بالتراضي، ولكن أصل الوجوب يكون بحكــم الشرع هذا ما اقتضى الحديث بيانه ، وربمــا عاودنا القول في حجة الوداع •

حكم الهجرة بعد الفتح

٦٢٣ ـ روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قام بعد تمام فتح مكة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم :« لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » ، وان ذلك المعنى مستقيم بمنطق الوقائع ، فقد كانت الهجرة قبل الفتح من مكة الى الحبشة، أو الى المدينة النبوية فكانت فراراً من الاستضعاف في مكة ، الى حيث الأمن والاطمئنان وخصوصاً الى يثرب ، حيث تتجمع القوى الاسلامية في المدينة مجاهدة داعية .

وان الهجرة بعد أن صارت مكة دار اسلام ، وبها البيت الحرام ، فان الهجرة منها لتقتضي خلوها من السكان، وهم أهل البيت الحرام .

ولكن معنى ذلك أن تمنع الهجرة من أي بلد الى أخرى ، ولكن لا يكون له ثواب المهاجر ، اذا كان الخروج لمجرد طلب الرزق ، والثواب ان كان فلا يكون ثواب هجرة ، ولكن يكون ثواب طلب الرزق استجابة لقوله تعالى :

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (١)

ولكن يكون بعد ذلك هجرة يكون فيها ثواب الهجرة وهي مطلوبة غير منهي عنها ، بل يحاسب فيها المؤمن ان كان قادراً على الهجرة ، ولم يهاجر ، وذلك في حال أن يعيش مستضعفا بين الكفار ، يسومونه الذل والهوان ،وان خرج الى أرض الاسلام كان التجمع القوي والوحدة الشاملة الكاملة .

ومن ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ

(١) النساء

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ (١)

فان هذه الآية توجب الهجرة على كل مستضعف في الأرض لتكون الجماعة الاسلامية له قوة ، ويكون من انضمامه لجماعة المسلمين قوة بتضام كل بعيد عنها اليها ، فان التجمع قوة في ذاته ،وقوة عامة للمسلمين ، والانفراد مع الاستضعاف ذل لبعض المسلمين ،وحرمان للمجموع من قوة التجميع •

ولذلك ورد أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال الهجرة دائمة ، وقال عن اجتماع الكافر بالمسلم لا تتراءى من نارها •

فالهجرة التي انتهت هي الهجرة من مكة •

أما الهجرة فلم تنته باطلاق ، ويقول في ذلك الحافظ ابن كثير:انه يعرض حالة تقتضي الهجرة بسبب مجاورة أهل الحرب ، وعدم القدرة على اظهار الدين ، فتجب الهجرة الى دار الاسلام،وهذا مالا خلاف فيه بين العلماء ،ولكن هذه الهجرة ليست كالهجرة قبل الفتح،كما أن كلا من الجهاد والانفاق في سبيل الله مشروع ، ورغب فيه يوم القيامة،وليس كالانفاق ، ولا الجهاد قبل الفتح فتح مكة ، كما قال تعالى :

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ (٢)

وانه بلا ريب الجهاد قبل الفتح ،لانشاء قوة للمسلمين ، الجهاد بعد ذلك لبقاء الاسلام ، والابقاء أسهل من الانشاء فكانت لذلك أفضل والله سبحانه وتعالى أعلم بموضع الفضل والخير •

---

(١) النساء

(٢) الحديد

٦٢٤ ـ ملكية أرض مكة أتجوز أم لا تجوز ؟ في هذا الأمر نظر ،السلف الصالح ، وقد اختلفوا في اتجاههم الى اتجاهين :

أولهما : أنها لا تملك ، وحجته أولاأنها دار النسك ، ومتعبد الخلق ، وحرم الله تعالى الذي جعله للناس سواءالعاكف فيه والباد ، وان الله تعالى يقول:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (١)

وان أرض مكة كلها حرم آمن ، واذاكانت مكة نسكا وحرما ، فهي معبد ، والمعابد لا تملك ، انما هي وقف على العباد لا تباع ولا توهب ولا تورث .

ثانياً : كل تعبير بالحرم أو نحو ذلك فهو تعبير عن مكة ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

وترى أن مكة كلها بظاهر النص واشاراته هي موطن العاكف ومزار البادي فكلها نسك ، لا يورث ولا يملك وحجة هذا الرأى أيضاً : أنه قد وردت الآثار صريحة بالنهي عن بيعها ، وعن اجارتها ، وعن وراثتها ولقد قال عبد الله بن عمر من أكل أجور بيوت مكة ، فانما يأكل في بطونه نار جهنم .

وثالثاً : أن عمر بن الخطاب نهى عن اتخاذ الأبواب في دور مكة ، وأمر بفتح الأبواب لمن كان لداره باب ، فلايغلقه ، ليسهل أن يبيت العاكف فيه والباد ، كما صرح الله سبحانه وتعالى .

ورابعاً : كتب عمر بن عبد العزيز على مشهد من التابعين ألا تؤجر دور مكة .

---

(١) العنكبوت (٢) الحج

هذه حجج الذين قالوا انها لا تملك أرضها ، ولا تؤجر ، ولا تباع ولا تورث ·

وحجة الذين أباحوا امتلاكها ـ أن الله سبحانه وتعالى أضاف ملكيتها الى أصحابها فقال تعالى :

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٣)

وفي هذه النصوص كلها أضاف الديار اضافة اختصاص الى المهاجرين ·

وقد سال سائل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أين تنزل غداً بدارك ،فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « وهل ترك عقيل من دار » وفي رواية من رباع ، فلم يقل انه لم يكن له من دار ولقد آلت ديار أبي طالب عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى عقيل ابنه ، ولم يأخذ منها أخوه علي شيئاً ، لأن علياً كان مسلماً ، فلا يرث من أبي طالب ، ولا يرثه الا عقيل ، ومن بقي على الشرك ·

وأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عقيلا أخذها ، ولم ينزعها من يده ، فدل ذلك على سلامة ملكيته بالميراث ، بل أقرها وسكت ·

وقد كانت الدور تنسب لأصحابها ،فيقال دار أم هانيء، ودار خديجة ، وغيرها ، وكانوا يتوارثونها كما يتوارث المنقول ·

وقد باع صفوان بن أمية داراً لعمر بن الخطاب بوصف أنه أمير المؤمنين فاتخذها سجنا ، يسجن بعض ذوي المعاصي ليمنع شرهم ·

---

(١) الحشر (٢) آل عمران (٣) الممتحنة

وهكذا كان يجري البيع والشراء في الدور ، والتوارث فيها .

ولقد وفق ابن القيم وغيره بين أدلة الفريقين ، بأن الأدلة المثبتة لجــــواز البيع والاجارة والميراث ، موضـــــوعها البناء ، وأما الأرض فانه لا يجري عليها البيع ولا الميراث ، وبذلك ينتهي الحكم المقرر بالنسبة لمكة أن الأرض موقوفة على مصالح المسلمين ، والبناء مملوك لمن أقاموه ، وينتقـل بالوراثة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

حكم سب النبي صلى الله عليه وسلم

٦٢٥ ـ ثبت حكم سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الغزوة ، لأن جارية سبت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلها سيدها ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح دم جاريتين كانتا تتغنيان بسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأمر بقتلهما في ضمن من أهدر دمهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، وعندما كان كعب بن الأشرف يسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله ٠

ولذلك كان الذمي اذا سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اعتبر نابذا للعهد ٠

وان سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم افساد في الأرض ، وخروج عن حكمه ، والمفروض في كل من يكون تحت طاعة دولة أن يطيع منشيء هذه الدولة ، ومنشيء دولة الاسلام هو سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسبه خروج عليها ٠

وقد عرض سؤال غريب ، اننا قبلنا أن يبقى الذمي ، وهو يعبد النار ، ويؤمن بالتثليث ، وغير ذلك مما هو خطأ في جنب الله تعالى ، فكيف لا نقبل عهد الذمي اذا سب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان هذا في القياس غريب !!

ونقول في الجواب عن ذلك : ان ذلك اعتقادهم ، وقد قبلنا أن يبقوا تحت ظلنا مع استنكار ما هم عليه وأمرنا بتركهم وما يدينون ، ولم يكن في ذلك البقاء افساد للنظام ، ولا هدم للعهد ، أما سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو متضمن أمورا أخرى عظيمة ، فهو يتضمن مهاجمة الاسلام ، وألا يترك المسلمون وما يدينون ، بينما المسلمون تركوهم وما يدينون ، وفوق ذلك يكون اعلانا للخروج على الطاعة والنظام ٠

غزوة هوازن

٦٢٦ ـ أخذت القوى العربية المشركة تتخاذل شيئاً فشيئاً ، وبعد أن فتحت أم القرى ، وتلاقت فيها القلوب على مودة ورحمة ، وعادت الأخوة بين ذوي الأرحام ، لم يبق من أهل القوة من العرب الا هوازن وثقيف بالطائف ، وكانوا ذوي بأس شديد في البلاد العربية .

ولقد قال الصديق وهو ينطق بالحكمة : « لن نغلب بعد اليوم من قلة » وقد صدق في ذلك ، فانهم قد صاروا كثيراً وقد توافر العدد ، وتوافرت العدة ، ولكن تكون الهزيمة من غرور أو ضعف في النفوس ، أو عدم التنظيم الجامع ، وقد صدقه ربه في ذلك ، فقال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

وان الجيش الاسلامي كان اثني عشر ألفا ، وذهب الى هوازن ، والتقى بهم في أوطاس في العاشر من شوال من السنة الثامنة من الهجرة .

ونحب هنا أن نشير الى جيش الاسلام في هذه الموقعة ، أهو جيش المؤمنين ، أم كان فيه من دخل الاسلام ، ولم يدخل الايمان في قلبه ، كما قال تعالى :

﴿ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) الحجرات

كذلك كان الجيش فيه الطلقاء ، الذين قال لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وفيه ضعاف في الايمان الذين كانت تحدثهم نفوسهم بأن ينقلبوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال أبو سفيان فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « اذن ليخزينك الله » وفيهم من هم باغتيال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكشف الله تعالى سره ، وفيهم ، والمعركة دائرة بين الجيشين في حنين من هم بأن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفيه كثيرون من الأعراب الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، فكان جيش الاسلام ولم يكن جيش الايمان ، ألم تر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطى من غنائم حنين طائفة من كبار قريش أموالا كثيرة ، ليتألف قلوبهم كابي سفيان بن حرب ، وابنه معاوية ،وان التأليف الى الاسلام دليل على ضعف الايمان ، لأنه يتألف قلوباً للايمان ٠

وان الهزيمة لم تكن من أهل الايمان الأولين الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الحديبية ،بل نادى النبي والمعركة عنيفة بينه وبين هوازن المهاجرين والأنصار ، فجاء منهم مائة حولوا الهزيمة الى نصر ، ولم يثبت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا عشرة هم أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعلي بن أبي طالب ،والعباس الذي أسلم عقب بدر ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والفضل بن العباس ، وجعفر بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن ابن أم أيمن ، فأين خالد وعمرو بن العاص ؟

والآية صريحة في أن الله ألقى السكينة والثبات على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين ، فهم الذين ثبتوا بعد ان اضطربت الصفوف بين الذين لم تكن لهم خبرة بلقاء أهل الايمان وأهله ، ولقد دعا الله المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، فلبوا النداء،وسارع منهم مائة ، فقلبوا الهزيمة لقاء ، ثم نصرا بتأييد الله تعالى ٠

٦٢٧ ـ قلنا انه لم يكن من بين القوى العربية في البلاد من له قوة وشوكة بعد مكة وقريش الا هوازن فاعتزم أن يعمل لاسلامهم ، بينما هوازن يفكرون في حرب النبي اتقاء لأنفسهم ، ومنعا من دخول الاسلام اليهم ، أو هجوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يهاجم الآمنين ولكن يرد كيد من يدبرون له حربا ، أو يريدون كيدا .

ولقد جاء مالك بن عوف النضري ،فجمع الجموع ، فاجتمع اليه من هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت نضر وجشم كلها وعدد قليل من قيس بن عيلان .

وكان في جشم شيخ له تجربة ودراية في الحروب ، وان لم تكن له قوة على المنازلة لشيخوخته ، وهو دريد بن الصمة ، ولما أراد النفير مالك بن عوف، أخذ مع الجيش النساء والمال ليستثير حميتهم بنسائهم وأموالهم فيندفعوا مقاتلين ليحموا نساءهم وأموالهم وذراريهم .

وقد صاروا بدريد بن الصمة في شبه هودج ، فسمع أصوات الأموال من النوق والحمير والنساء والصبيان ،فقال ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ويعار الشاة ،قالوا ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فقال أين مالك ؟ فجيء اليه فقال له :

يا مالك انك قد أصبحت رئيس قومك ، وان هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ويعار الشاة ، قال سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال ولم ذاك ؟قال اردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، فانقض به (أي زجره) وقال راعي ضأن ، أي لست بمقاتل ، وهل يرد المنهزم شيء ، انها ان كانت لك ، لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

ولكنه لم يطعه عوف بن مالك ، ولكن هوازن أطاعوه .

وقد ترامى الى سمع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم همس بما دبروا، فارسل اليه من ياتيه بجملة أمرهم وأمره أن يدخل في الناس ليعرف حالهم ويأتيه بأخبارهم ، فأقام فيهم ، حتى سمعوا ما أجمعوا عليه من حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسمع من مالك بن عوف وهوازن فجاء وأخبر الرسول ·

فأخذ الرسول الكريم المدافع عن الحق يستعد لهم ويلقاهم ، وذكر له أن عند صفوان بن أمية دروعا وسلاحا فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك ، ولعله كان في المدة التي جعل لنفسه الخيار فيها ، بين البقاء على ما هو عليه والاسلام ، فقال له يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غداً ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد قال عليه الصلاة والسلام ، بل عارية مضمونة نردها اليك ، قال ليس بهذا من بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من سلاح ·

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معه اثنا عشر ألفا ، منهم عشرة آلاف دخل بهم ، وهو جيشه الأول ، ولم يكن كله من المهاجرين والأنصار ، والفان من أهل مكة الذين أسلموا بعد الفتح ، أو لم يظهر اسلامهم الا في الفتح ، وفيهم أبو سفيان بن حرب ، وكثير من أمثاله وخلف في مكة عتاب بن أسيد من بني عبد شمس ، ثم مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على وجهه الى هوازن ، أو حنين أو أوطاس ، وكلها أسماء لهذه المعركة ·

ولا شك أن الجيش كان فيه ألفان قريبا عهد بالجاهلية ، كما أشرنا من قبل ، ولقد روى ابن اسحق بسنده عن الحارث بن مالك ، أن الحارث هذا قال خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ·

ولقد رأى الجيش شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط كانت قريش ومن حولهم يقدسونها ويأتون كل سنة يذبحون عندها تقديساً لها ·

فراعهم منظرها ، ورأوها سدرة عظيمة ، ويقول الحارث بن مالك

تنادينا من جنبات الطريق : يا رسول‌الله : اجعل لنا ذات أنواط (أي شجرة عظيمة نقدسها ، وننحر عندها) ٠

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى‌عليه وسلم : الله أكبر قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى اجعل‌لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون انها السنن ، لتركبن سنن من‌كان قبلكم ٠

كان من الألفين الذين ضمهما النبي‌الى الجيش الذي غزا به مكة من فيهم هذه العقلية وكلهم أو جلهم حديث‌عهد بالجاهلية لما يدخل الايمان في قلوبهم ٠

الانهزام ثم الانتصار :

٦٢٨ ــ تقدم جيش الاسلام الى وادي حنين ، وكان ذا أودية وطرق مختلفة ، فتقدم المسلمون في واد من‌أودية تهامة ، وانحدر فيه انحدارا حتى أوغروا في باطن الوادي ، وكان‌جيش هوازن قد سبقهم الى الوادي وادي حنين ، وكمنوا في شعابه ،وأنحائه ومضايقه ٠

وكانوا محميين مهيئين ، وكان في المتقدمين من جيش المسلمين على رأس بني سليم خالد بن الوليد ، وما أن تقدم المسلمون وسط هذا الكمين المتعدد النواحي ، وهم في عماية الصبح ، وهو الظلام الذي يسبقه ؟

وفي هذه الحال راع جيش المسلمين‌انقضاض هوازن عليهم كتائب قد تعبدت ، فشدوا شدة رجل واحد ، فكانت المفاجأة مروعة عنيفة ، وانتشر الناس راجعين لا يلوي أحد على‌أحد ٠

وقد انحاز رسول الله صلى الله تعالى‌عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال أيها الناس هلم الي أنا رسول الله محمد بن‌عبد الله ٠

ولكن الناس يفرون ، وحمل بعضهاعلى بعض ، وكان الفرار من غير المؤمنين الأولين قد أفسد نظام الجيش‌واضطرب الأمر ، واختلط الحابل بالنابل ٠

ولقد ثبت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وثمانية من بني هاشم صدقوا وآمنوا ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، ولا نعد ثبات علي للقرابة ، بل لأن الثبات من شيمته أولا اذ هو فارس الاسلام كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولايمانه ثانياً ، وقد يكون لقرابته ثالثاً ، فهي في المرتبة الأخيرة من الأسباب .

وأما السبعة الباقون فانا قد نقول للرحم دخل فيها ، ولكن لا نحرمهم من الايمان ، خصوصاً العباس فقد آمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم في أعقاب بدر وخرج مكرهاً في بدر ،فرضي الله تعالى عنه ، وفي الوقت الذي كانت فيه الكفة راجحة لهوازن ، وقبل أن يلبي نداء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المهاجرون الأولون والأنصار جرت أمور تدل على سبب الهزيمة .

اولها ـ وحدتهم في الفكرة ، وان كانوا على ضلال ، فالوحدة مع الشرك تثمر في الحرب أكثر من العقيدة السليمة عند تفرق الأهواء والمنازع ، ووجود ضعاف الايمان مع أقويائه .

لقد كان فيهم رجل على جمل أحمر معه رمح طويل ، فان وجد هدفاً لرمحه ضرب ، وان لم يجد هدفاً رفع رمحه ، أمام جيش هوازن والناس من خلفه يتبعونه .

ثانيها ـ أن التردد وروح الهزيمة ظهر من رجال من الألفين ، فتكلم ناس من جفاة أهل مكة قال ابن اسحاق ،لما انهزمْ الناس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال بما في نفوسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » وتلك أمانيه ،وأخذ ينزل الطالع في الأزلام رجاء أن تنبئه في زعمه بأنها هزيمة ساحقة.

ولقد صرخ كلدة بن الحنبل ، وهو مع صفوان بن أمية الذي كان لا يزال مشركا ، اذ لم تمض المدة التي أخذ الخيار لنفسه فيها ، صرخ كلدة هذا الا بطل السحر اليوم ، فقال صفوان الذي لم يعلن بعد اسلامه لهذا الذي ظهر في

الجيش مسلماً ، وقال : ما قال ، قــالصفوان : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب الي منأن يربني رجل من هوازن •

ثالثها ــ أنه وجد من بين هذين الألفين من كـــان يحـــاول في زحمـــة الاضطراب أن يغتال رسول الله صـــلىالله تعالى عليه وسلم ، فلقد قال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبدالدار قال ذلك الحاقـــد ، اليوم أدرك ثأري من محمد ، وكان أبوه من حملةاللواء الذين قتلوا في أحد ، وهو غير عثمان بن طلحة الذي أسلم مع خالد ،وأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مفتاح الكعبة ، ولم يعطه علي بن أبيطالب مهلة ، اذ طلبه •

بـداية النصـر

٦٢٩ ـ هذه ظواهر بدت بعد الانهزام وهي تعلن سبب الانهزام ، وهو أن الجيش الاسلامي الكبير كان فيـــهدعاة التردد والهزيمة من بين الألفـين الذين كان الكثيرون حـــديثي عهـــدبالجاهلية ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ·

ونعود الى الانتصار بعد الهزيمة ،لم يزلزل قلب مؤمن ، والرســـول لم تؤثر فيه هذه الحال ، بل اشتد بأسه ،وقال : لقد حمي الوطيس ، وأخذ يدعو المهاجـــرين الأولين ليعلموا مـــكانه ،ويقول : منادياً لهم : أين أيها الناس ، ثم قال : يا عباس اصرخ ، وكان جهيرالصوت : يا معشر أصحاب الشجـرة ، يا معشر أنصار الله وأنصار رســوله ،يا معشر الخزرج ، فأجابوه لبيك لبيك، فكان الرجل يذهب ليعطف بعيره ، فلايقدر على ذلك ، فيقـــذف درعــه في عنقه ثم يأخذ سيفه وترســـه ، ويؤم الصوت ، حتى اجتمع عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نحـــو مائة،ولكنهم بقية من بقايا بدر ، وكمـــا قال علي بطل بدر وأحد ، والخندق :بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولداً ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم راكب بغلته ، واخذ بزمامها العباس ، وهو يقول ومعه هذا الجمع المؤمن :

أنا النبي لا كـــذب أنا ابن عبـــد المطلب

اللهـم أنزل نصرك ، ثم تجمعت الجموع المؤمنة حول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهـــو يقــول الآن حمي الوطيس ، عادت الجولة لجيش المؤمنين ، بعـــد أن مازت الهـزيمة الخبيث من الطيب ·

رأى علي كرم الله وجهه الرجل الذي يحمل الرمح الطويل الذي يضرب به الهدف ، ان وجـــده ، ووراءه جيش هوازن ، رأى علي الرجل ، وهوى اليه مع أنصاري ، فضرب علي عرقـــوبي الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصاري على الرجـــل ، فضربه ضربة أطن بها قدمه ·

وإذا كان كما يبدو الرجل حامل لوائهم فهذا لواؤهم قد سقط ·

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحث المؤمنين على القتال ، ويقول : من قتل قتيلا فله سلبه ، وقد قتل بعض المؤمنين عشرين قتيلا من هوازن، فكانت له أسلابهم ·

وكان يتناول زمام بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العباس عمه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وكان ممن صبر في تلك المعركة ·

وكان في المقاتلين في جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نساء مؤمنات، ومنهن أم سليم ، وكانت حازمة وسطها ببرد لها وهي حامل ، وكانت راكبة جملا ، فكانت تخشى أن ينفر ، فكانت تأخذ حزامها من خطامه ·

وكانت ترى أن الذين انهزموا كانوا من دعاة التردد والهزيمة ، رآها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال لها أم سليم ، فقالت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فانهم لذلك أهل ، فقال لها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو يكفي الله تعالى يا أم سليم ، وكان معها خنجر ، فقال لها زوجها ما هذا الخنجر الذي معك يا أم سليم ؟ قالت خنجر أخذته ان دنا مني أحد من المشركين بعجته فقال زوجها ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم !!

تحارب الناس ، واجتلدوا ، وكانت هوازن رماة ، ولكن رمى الله بالمؤمنين في أوساطهم وهم يسلبون القتلى ،ويكتفون الأسارى ·

يروي ابن اسحاق عن جابر بن عبدالله أنه قال والله ما رجعت راجعة ، حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

انتهاء بالهزيمة الساحقة لهوازن :

٦٣٠ ـ انتهت المعركة بالهزيمة الساحقة في حنين ، بأن لجأ المنهزمون الى أوطاس ، وذلك بعد أن دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجمع المؤمنين حوله ، وكان دعاؤه هكذا :« اللهم اني أنشدك ما وعدتني ، اللهم

لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا ، ونادىأصحابه يا أصحاب البيعة ، يا أصحاب الحديبية الله الله الكرة على نبيكـــم ،يا أنصار الله ، وأنصار رسوله ، يا بني الخزرج يا أصحاب سورة البقرة »وأمرمن ينادي بذلك ، وقبض قبضـــة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ،وقال شاهت الوجوه ، فهزم الله أعداءه ، وأعداء الحق من كل من حصبهم فيها ،واتبعهم المؤمنون يقتلونهم ، وغنمهم الله تعالى أموالهم ونساءهم ، وذراريهم ٠

وفر في هذه الهزيمة كبيرهم وقائدهـــم الذي كان يحثهم على أن يضربوا ضربة رجل واحد ، وهو مالك بن عوف،فروا فراراً حتى دخلوا حصن الطائف، وفريق آخر منهم فروا الى أوطاس ،فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سرية لهـــم ، سنذكـــر أمـــرها ان شاء الله ٠

وأخذ الرسول وأصحابه يجمعـونالغنائم من السبايا والأموال ، وغيرها مما أفاء الله تعالى به عليهم ولقد حدثابن اسحاق بسنده أن النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يبحث بقـــاياالمعركة من غنائم ، وآثار انهزام رأى امرأة مقتولة ، قالوا ان خالد بن الوليدقتلها ، ويظهر أنها ممن كن خـــلف المقاتلين ، ليدفعوهم للقتال ، كما دبرمالك بن عوف ، وحذره منه دريد بن الصمة لما رأى النبي صلى الله تعـــالىعليه وسلم ذلك قال مستنكراً ، ما كانت هذه لتقاتل وقال لبعض من حوله : الحق خالداً فقل له لا تقتلن ذرية وعسيفاً ٠

ولم يذكر خالد في هذه المعركة الافي هذا الموضع منها ، ورضي الله عن عمر اذ قال عندما عـــزله عن قيادة الجيش في الشام : « ان في ســيف خالد لرهقا » ٠

أوطـــاس :

٦٣١ ـ انهزمت هوازن هزيمة ساحقة ، ففروا الى الطائف ، وتجمعـوا هنالك للقـــاء النبي صلى الله تعالى عليهوسلم هنالك متجمعين ٠

وتوجه فريق آخر نحو أوطاس ، وعسكر بها ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وكانوا عدداً ، فتبعت الجميـــع خيـــلالمسلمين ، وكان ممن أدركوه دريد بن الصمة صاحب رأيهم ، ومن يصـــدرونعنه ، ولما خالف مالك بن عـــوف رأيه

كانت الفضيحة التي قدرها ونبه اليهادريد بن الصمة ، اذ سبيت النساء ، ولم يكن في اخراجهن فائدة بل فضيحة، اضطرتهم صاغرين للاستماع عند محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولقد قال ابن اسحاق : بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في آثارهم أبا عامر الأشعري فأدرك هو ومن معه بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمي أبو عامر الأشعري فقتل ، وقدكانوا يحسنون الرمي ، وهو الذي حمل الراية في أول يوم حنين .

وقد حمل الراية من بعده ابن عمه أبو موسى الأشعري فقاتلهم ، ففتح الله تعالى عليه أوطاس وانتصر عليهم .

وقد جاهد من قبله ابن عمه جهاداً قوياً شديداً ، اذ لقي عشرة أخوة فبرزوا واحداً بعد واحد ، حتى قتل تسعة ، وأسلم العاشر رغباً لا رهباً وحسن اسلامه والتقى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان اذا لقيه يقول شريد أبي عامر .

وقد سبي في حرب أوطاس كثيرات كما سبي أكثر في حنين .

ويروى في ذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصابوا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تأثموا من غشيانهن فنزل قوله تعالى :

﴿ * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (١)

وان في هذه الآية التي نزلت في بيان المحرمات دلالة على جواز غشيان الاماء المشركات بملك اليمين ولايمسك أحد بعصمة الكوافر ، ولكن يستبرىء أرحامهن بحيضة يحضنها .

هذا وسميت هذه الغزوة الكبرى بغزوة هوازن وحنين وأوطاس ، الا أنها كانت في هوازن وفي يوم حنين ، وأستمرت حتى كانت أوطاس .

---

(١) النساء

ثمرات المعركة

٦٣٢ ـ جمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غنائم هوازن ، وأرسلها الى الجعرانة حتى يتتبع فلولها ثم ضم اليها ما غنمه من أوطاس من أموال وسبايا ، وكان مجموع ذلك كثيراً ، لأن هوازن برأي مالك بن عوف قربت السبايا والأموال من موطن الجهاد ، فكان مؤدى هزيمته ٠

أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالسبي والغنائم أن تجمع ، فجمع ذلك كله ، ووجه الى الجعرانة ، وكان السبي ستة آلاف رأس ما بين نساء وذرية ، وعدد الابل أربعة وعشرون ألفا ، وعدد الغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ٠

وهذا على أن أكثر معاملتهم النقدية كانت بالفضة ، ولم يكن استعمالهم للدينار الروماني كثيراً ٠

ولم يوزع هذه الغنائم بين الفاتحين بمجرد انهزامهم ، وجمعها ، بل استأنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن يأتوا مسلمين ، ولو بظاهر من القول ، تقريباً للنفوس ، فما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا يدعو الى الاسلام ، وخصوصا أن ما أخذ منهم ان لم يكن كل أموالهم ، فهو أكثرها ٠

ولكن مضى بضع عشرة ليلة ، ولم يجيء أحد ٠

فقسمها بين الفاتحين ، وصرف منها للمؤلفة قلوبهم ، فاعطى أبا سفيان بن حرب تاليفا لقلبه ، وليدخله الايمان أربعين أوقية من فضة ، ومائة من الابل ، ولكنه لم يكتف بما أخذ بل طلب لابنه يزيد ، فقال ابني يزيد ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أربعين أوقية ، ومائة من الابل ، ولكنه الطمع ، فقال ابني معاوية فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطوه أربعين أوقية ومائة من الابل ، فمعاوية كان من المؤلفة قلوبهم ليدخلها الايمان ، فليذكر ذلك من يضعونه أمام علي أو يناصرونه ٠

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الابل ، ثم سأله مائة أخـــرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحارث ابن كلدة ،وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وأعطى العباس بن مرداس أربعــين ،فقال في ذلك شعراً ، فكمل له مائة .

واختص من بعد ذلك زيد بن ثابت باحضار الغنائم والناس ، ثم فرقهـــا على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجــل أربعا من الابل وأربعين شاة ، فان كان فارسا أخذ اثني عشر بعيراً ، وعشرين ومائة شاة وانه مما يلاحظ أن المؤلفة قلوبهم الذين كانوا في المعركة نظارة ينظـرون ، أخـــذوا أكثر نسبيا من المجاهدين ، فبينما كان نصيب المجاهد في الغنيمة التي استولى عليـــه بسيفه أربع نوق كـــان نصيب أبي سفيــان المترقب مائة له ولكل واحد من أولاده بمائة ، وله أربعــون أوقية ، ولـــكل واحد مثلها .

ولكن المؤمنين الصّادقين في ايمانهم ما كانوا ليعترضوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الهــادي وهو المرشد ، وهو الداعي الى الحق ،والمؤلف للقلوب التي تتجه اليه ، ولكيلا تنحرف عنـــــه ، وأولئك الذين ألفت قلوبهــم ماديون ، تجذبهم المادة أكثر مما يجذبهم الحق المجرد .

ولا يصح أن يفهم أحد أن ذلك شراء للايمان ، فان الايمـــان لا يشترى بالمال ، ولكن يشترى بالاذعان للحق ،ولكن أولئك أخذت منهم رياسة ، وأخذ منهم سلطان،وهم كما عرف من ماضيهم لا يذعنون للحق المجرد ، ولا للدليل ، وفي دخولهم للاسلام ، لابد من تأليف قلوبهم للاسلام ، وما يكتسبه الايمـان بدخول الايمان قلوبهم أكثر ما تخسر من مال ، ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لامام الهـدى علي بن أبي طالب « لأن يهدي الله تعالى بـــك رجـــلا واحدا ، خـــير من حمـــر النعم » .

ويجب التنبيه هنا الى أن كثيرين من أهل مكة الذين يترددون في الدخـول في الاسلام دخلوا فيه أفواجا أفواجا لما رأوا النصر المبين ، والتاييد البين من الله سبحانه وتعالى .

موجدة الأنصار

٦٣٣ ـ روى ابن اسحاق بسنده عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أعطى من العطايا الكبار في قريش ، وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم ، حتى قال قائلهم ،لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ،فقال يا رسول الله ، ان هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ،لما صنعت في هذا الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين أنت من ذلك يا سعد ، قال يا رسول الله ما أنا الا من قومي ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة .

فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردوا ، فلما اجتمعوا أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار .

فأتاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووقف فيهم خطيباً ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني ، وموجدة وجدتموها في انفسكم ، ألم آتكم ضلالا ، فهداكم الله بي ، وعالة فاغناكم الله بي ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم !! قالوا الله ورسوله المن الفضل، ثم قال ألا تجيبوني معشر الأنصار ،قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله لله ورسوله المن والفضل : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما والله لو قلتم ، لصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فواسيناك ،أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى رحالكم،فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به

خير مما ينقلبون ، ولولا الهجـرة لكنتامرأ من الأنصار ، ولو سـلك النـاس شـعبا وواديا ، وسـلك الأنصـار شعبا وواديا لسلكت شعب الأنصـار وواديها ، الأنصار شمار ، والناس دثارلهم،اللهم ارحم الانصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، قال أبو سعيدالخدري ، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا ٠

وان الموجدة التي وجدوها ، ربماكان من أسبابها أنهم وجدوا أبا سفيان الذي قاتلوه أخذ العطايا العظيمة هو وابناه ، وهم الذين قاتلوهم مجاهـدين في سبيل الله ٠

ولقد دعا النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بالرحمة لأبناء الأنصار وأبنـاء أبناء الأنصار فحقت عليهـم الرحمةوالرضا من الله ورسوله وكان من أبناء المؤلفة قلوبهم من سبوا نساء الأنصاروأبناء الأنصار في واقعة الحرة ،فلعنه الله تعالى ، ولعن من مكنه ٠

الشفاعة في الغنائم بعد توزيعها

٦٣٤ ـ مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بضع عشرة ليلة لا يوزع الغنائم ، رجاء أن يسلموا ، أو رجاء أن يطلبوها على عهد يتعهدونه ، ورجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليس رجاء محارب انما هو رجاء هاد مرشد ، يريد القلوب ولا يريد الحروب لذاتها ٠

ولما وزعها عليه الصلاة والسلام ، جاء اليه صلى الله تعالى عليه وسلم وفد من هوازن من أربعة عشر رجلا ، وعلى رأسهم عم رضاعي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

جاءوا اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد فرغت أيديهم من أموالهم بسبب حمق مالك بن عوف ، وعدم طاعته لصاحب الخبرة من قومه ، ورأوا نساءهم سبايا ٠

جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال ، أي يرد عليهم كل ما أخذ منهم ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يميل الى أن يرد السبايا ، ولا يرد المال ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لهم « ان معي من ترون ، وان الحديث الي أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ، قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً » ٠

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذا صليت الغداة ، فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرد سبينا ٠

فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم ، وسأسأل الناس ٠

فقال المهاجرون والأنصار ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فقال الأقرع بن حابس أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن ، أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال العباس بن مرداس ، أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال العباس بن مرداس لقومه: وهنتموني .

وهنا نجد الرسول الحر الكريم المحب للحرية يبين أنه يريد تحرير السبي ، فيقول صلى الله تعالى عليه وسلم« ان هؤلاء القوم ، قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم ، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان منكم عنده منهن شيء فطابت نفسه ، فسبيل ذلك .

ومن أحب أن يتمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا .

فدى بذلك كل السبايا من مال المؤمنين ، وقد طابت نفوس الناس بذلك، وقالوا قد طيبنا رسول الله واتجه النبي من بعد ذلك الى تعرف من رضي ومن لم يرض ، وقال ارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم ، فتفرقوا ، وردوا النساء والأبناء ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن ، فانه أبى أن يرد عجوزا صارت اليه من السبي ، ثم ردها من بعد .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رد السبايا مكرمات ، وكساهن كسوة كريمة ، فكساهن من القباطي ، وأعطى كل واحدة منهن قبطية ، ولسان حاله يقول رحمة : مغلوبين مكرمين .

وقبل أن ننتهي من الكلام في الغنائم ومآلها ، وهي غنائم هوازن نذكر حكمة الله تعالى فيها ، ورعايته لجيش الاسلام، وحمايته من الضياع .

ذلك أن فتح مكة لم ينل فيه المسلمون شيئا من الغنائم ، فما أفاء الله تعالى على رسوله والمؤمنين بشيء منها تكريما لها ، وحماية لأموالها ، فجاءوا اليه

غير فاتحين بل جاءوا طائفين ساعين بين الصفا والمروة ، وان لم يحـرموا أحرام عمرة .

ولكنه جيش جرار ، يضـم عشرة آلاف جاءوا من المدينة الى مكة ، فلابد أن يحتاجوا ما يمون جيشاً كبيراً ، فهؤلاء قطعوا الفيافي ، والقفار ، وليسوا على مقربة من ديارهم حتى ينالوا منهاما يحتاجون اليه .

فساقهم الله تعالى الى هوازن ، وساق هوازن اليهم ، وقذف الله تعـالى الى قلب قائدها مالك بن عوف أن يخـرج بمال هوازن جميعه ونسائهم ليقـوي الجيش وتجرى فيه الحماسة دفاعا عنهم، فلم يغن عنهم من ذلك شيء ، وساق الله تعالى بذلك سبيا كثيراً ، ومالهم كله، فأخذ جيش الاسلام المال كله ، ووزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما أراه الله .

أحكام شرعية في غزوة حنين

العارية المضمونة :

٦٣٥ ـ جاء في أول غزوة حنين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم أن عند صفوان بن أمية دروعا وأسلحةفأعارها للجيش الاسلامي ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعهد بضمانها، وقال عارية مضمونة ، أفمؤدى هذا الضمان أن يردها عليه ، ولا يغتال لهاالجيش الاسلامي ، أم المراد أنها واجبة الارجاع بقيمتها ان تلفت ، أو نحوذلك •

اختلفت أنظار الفقهاء في فهمذلك •

وخلاصتها أن الفقهاء أجمعوا على أن الاعارة في يد المستعير كالوديعة لا تضمن الا اذا تلفت بالتقصير في الحفظ ، أو استعمالها في غير ما أعيرت له ، فان ذلك يكون تعديا ، والتعدييوجب الضمان ، ولأن الاعارة تبرع ، والتبرعات لا تضمن ان تلفت اذا كانالتلف بالاستعمال الذي أعيرت له •

وان الشافعي رحمه الله قال ان الشروط الظاهرة في العقود توفى كما نص عليها ، فالعارية تقبل الضمان اذا اشترط الضمان ، وتكون مضمونة بالشرط، ولا تكون كالغصب لأن الغصب مضمونبالتلف دائما ، لأن اليد فيه يد معتدية، وهي توجب الضمان عند التلف •

أما العارية فالأصل أنها تكون أمانةفي يد من أخذها ، اذ لا يكون اعتداء ، ولكن يجوز أن يتفق الطرفان علىالضمان ، خصوصا اذا كانت الاعارة لأمر يكون مظنة التلف كأسلحة لحرب،أو طاحونة للادارة ، فان التلف يكون مظنونا وقريبا •

وقال أبو حنيفة ومالك وبعض جمهور الفقهاء : ان العارية لا تضمن ولو بالشرط ، لأن ذلك قلب لحقيقة معناها،اذ هي وديعة في معناها ، والوديعة

لا تضمن ، فهي لا تضمن ، ولكن يجب أن يلاحظ أن ثمة فرقا بين الوديعة والعارية ، فالعارية تستعمل باذن المالك ، والوديعة لا تستعمل ، بل استعمالها بغير اذن صاحبها ، يخرج من معنى الوديعة الى معنى آخر ، وهو العارية ، وبغير اذن المالك تتحول اليد الى يد معتدية ·

وان أولئك الفقهاء الذين قالوا : ان العارية لا تكون مضمونة ، قالوا ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يرد أصل الضمان برد العين ، أو بقيمتها ان تلفت انما أراد أنها مؤداة أي مضمون أن تعاد الى صاحبها ان سلمت ، فان تلفت ، لا يتصور ضمان قيمتها ،وذلك لأن العبارة رويت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه قال مؤداة في بعض الروايات ، فهذا يدل على أن المراد من كلمة مضمونة في الرواية الأولى أن تكون مؤداة ، والضمان على الأداء ، لا على التلف ، ولأن كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان اجابة لصفوان ، اذ قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أغصباً ـ يامحمد ،فتضمن كلام صفوان الاستفهام عن أن تغتصب عينها ، فكانت اجابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليها مؤداة ، أي أننا لا نغتصبها ، بل نأخذها على أنها عارية ترد ، فكان الأقرب أن تفسر بأنها مردودة أو مؤداة ، لأن السؤال لم يكن عن الوصف ، بل كان عن أصل الأخذ عن العين بالرضا أو بالكره ، وعن نوعه أعلى وجه الملكية أم على وجه العارية ·

وفوق أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصف الضمان بأنه للعين ، ولا يتصور ذلك الا بردها ذاتها فليس الكلام في ضمانها اذا تلفت بأداء قيمتها ولهذا كان الواضح هو ضمان ردها ·

وفي أحكام الاتلاف في الحرب ، أنه يجوز اتلاف كل ما يكون اتلافه مضعفا للعدو ، اذا كان موضوع ذلك أداة من أدوات الحرب يملكونها ، قتل الحيوان الذي يركب في الحرب فقد عقر علي كرم الله وجهه الجمل الذي كان يركبه من اتخذ رمحه كاللواء ، يقتل بالرمح ان وجد من يقتله ، ثم يرفع الرمح من بعد ذلك كاللواء ، فجاء علي ، وضرب الجمل ، فسقط الرجل فتلقاه بعض الأنصار فقتله ·

وهذا يدل على أنه يباح من اتلاف الحيوان ما يكون أداة حرب ، ولا يعد ذلك تعذيبا للحيوان بقطع طرف من أطرافه في ميدان القتال ·

عطاء المؤلفة قلوبهم من غنيمة هوازن

٦٣٦ ـ للمؤلفة قلوبهم سهم في الزكاة يثبت بقوله تعالى :

﴿ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

هذا سهم مقرر في الزكاة ، وهو ينفق في سبيل تاليف القلوب ، لتؤمن ويؤمن قومها من ورائها ، ولايواء من يسلم ، فيجرد من ماله أو يقطع من أهله ، فيمان ، ولذلك قرر بعض العلماء أن يصرف سهم المؤلفة قلوبهم في الدعوة الاسلامية .

ولذلك جعل له سهم قائم في الزكاة، ليكون لهم مورد دائم مستمر ، فلا يقتصر على أن يكون موردها الغنائم التي ليس لها صفة الدوام .

والعطاء الذي أعطيه المؤلفة قلوبهم أهو من الخمس الذي وضع تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنفسه ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الذي نص عليه في قوله تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

أكان عطاء المؤلفة قلوبهم من هذا الخمس ، أم كان من أربعة الأخماس العامة .

قال الشافعي ومالك رحمهما الله تعالى هو من الخمس الذي يخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأربعة الأخماس قد وزعت على المحاربين ، ولأن أربعة

---

(١) التوبة (٢) الانفال

الأخماس صارت حقاً للفاتحين ، ولايؤخذ شيء من صاحب حق الا بعد استئذانه ، ولم يستأذنهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن هذه العطايا من كل الخمس الذي كان تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه مقسم على خمسة أحدها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ ذلك من نصيبه هو ٠

ويرى الامام أحمد أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عد ما أخذه هؤلاء من الأنفال وهي لله ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكما قال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (١)

وكأن الغنائم لا تقسم ابتداء ، وليست حقاً ثابتاً للفاتحين بمجرد الفتح، وانما هي حق لهم بعد أن ينفل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يرى نفله تقوية للدعوة،وتأليفاً للقلوب وتقريب البعيد ، وأنه يجب أن يعلم أن الحروب في الاسلام ما كانت لجمع الغنائم ،وانما كانت لدفع الاعتداء وفتح الطريق أمام الدعوة ، فما يكون للدعوة بتأليف القلوب ، أجدى من غيره ، وان الأنفال يكون التصرف فيها قبل توزيع الغنائم،انما الغنائم بعد الأنفال والأنفال يكون التصرف فيها لمصلحة الدعوة الاسلامية ٠

وهل هذا يكون الذي أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنفال فهل يكون لغيره من امراء المسلمين وأئمتهم ، ونقول في الاجابة عن ذلك، ان ذلك يجوز ان كانوا كأبي بكر وعمر وعلي ، وعمر بن عبد العزيز فلهم ذلك ، لأن عدالتهم ودينهم يمنعانهم من أن يتخذوا أنفالا لغير المصلحة الحقيقية التي تعود الى مصالح الاسلام والمسلمين، والدعوة الحق الى الله ورسوله ، وغير هؤلاء الذين يكونون على غير ما هم عليه من العدل ، والايمان ، يتخذون ذلك لهواهم ، وتقريب الصديق ،وابعاد المستحق ٠

وما قرره أحمد وعلماء السنة من أن ذلك كان قبل التخميس ، يؤيده ما جاء على ألسنة الأنصار من الموجدة والمعتبة ، لأن هذا العطاء لأبي سفيان وولديه ، قد كان ينقص من أنصبة المستحقين في أربعة أخماس الغنيمة ، ولكن ايمانهم مكنهم من أن يعرفوا مقصد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) الانفال

تبادل الرّق بالحيوان

٦٣٧ ـ عندما اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى رد السبايا من هوازن الى أهليهم ، بعد أن دخلوا في الاسلام ، وكان العدد كثيرا ، أربعة آلاف ، أطلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من في يده وبني عبد المطلب من السبايا ، وعرض على المؤمنين أن يفعلوا ما فعلوا ، فرضي باتباعه المهاجرون الأولون والأنصار ، وغيرهم ممن لم يرتضوا باجازة ما أجاز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم اطلاق سراح النساء والأبناء على أن يكون لكل رقبة من السبايا ستة نوق مما يجيء في المستقبل من غنائم ، فرضوا جميعا الاعينية بن حصن فقد أبى حتى هذا وتلكأ ، ثم رضي بأن يطلق سراح عجوز كانت عنده ، ولم يكن عنده غيرها ، فهل كان هذا الذي فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معاوضة ٠

لقد تكلموا في هذا فبنوا عليه النظر في أمرين :

أولهما ـ جواز بيع الحيوان بالحيوان مع التفاضل في القدر ، والنسيئة كما يجوز بيع الرقيق بالحيوان ، أو شراء الرقيق بالحيوان ٠

وثانيهما ـ جواز التأجيل الى أجل غير معلوم ، اذ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه يعطيهم عن كل رقبة من السبايا الستة من النوق في الغنائم المقبلة ٠

أما بالنسبة للأمر الأول ، فقد قالوا انه يجوز بيع الحيوانات بعضها ببعض متفاضلا ولا يشترط التسليم ، ومنع ذلك بعض الفقهاء على أنه من ربا البيوع التي لا يجوز فيها التفاضل عند اتحاد الجنس ، ويجب القبض مع جواز التفاضل عند اختلاف الجنس لأنها مضمونات ، وقد أخذوا هذا من آثار أخرى ٠

وأما تأجيل أحد العوضين الى أجل غير مسمى ، ولا معين ، فقد أجازه

أحمد بن حنبل وطائفة من علماء السنةاذا تراضى عليه الطرفان ، اذ لا محذور في ذلك ، ولا عذر ، وكل منهما قـددخل على بصيرة ورضا ٠

وقال أبو حنيفة ان ذلك يفضي الىالمنازعة ، وان كل ما يؤدي الى المنازعة يكون باطلا ٠

وان تخريج عمل رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم على أنه بيـع فيه نظر ، فلم تكن مقايضة بين القـائمين وبين النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم انما كان هناك عتق في نظـير مال ،فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم أن يطلقـوا ما في أيديهـم منالسبايا ، وأن يعوضهم عن هذا العتق بمال تكون قيمته هي قيمة من أعتقوهمفي نظر النبي صـلى الله تعالى عليـه وسلم ، وقد ارتضوا ما قدر النبي صلىالله تعالى عليه وسلم ، فهو عتق بشرط وليس ببيع ٠

وان العتق هو تبرع مالك الرقبـةللرقبة نفسها ، لأنه اعطاء الحرية فهو هبة بشرط العوض والهبة (والعتـق بالذات) يتسامح فيها بما لا يتسامح في غيره ، وما كان العوض المؤجل ثمنا،حتى تكون جهالته مفضية الى المنازعة ، انما هو عوض في عتق فلا يؤدي الىالتنازع ، ولذلك نقول انه ما كان ثمة حاجة الى مناقشة كونه ربويا ، أو غيرربوي ، وكون التأجيل الى أجل مجهول جائز أو غير جائز ، فان تصرف النبيصلى الله تعالى عليه وسلم بعيد عن ذلك كل البعد ٠

غزوة الطائف

٦٣٨ ـ تتبع النبي هوازن حيثما سارت سار وراءها ، سار وراءها الى أوطاس ، اذ دخلتها هوازن وتحصنت بها ثم ساروا الى الطائف ، وهي ذات حصون قوية ، وهم أشداء ، ورماة ،فسار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما علموا بمسيرته تحصنوا بحصونهم، وجمعوا طعاما وزادا يكفيهم سنة ، بحيث يصبرون اذا طال الحصار عليهم، فيجهد أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يجهدون وهم في حصونهم يرمون ، ولا ينالون ، فيقتلون ولا يقتلون .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما اتجه الى حصونهم أشار عليه سلمان الفارسي بالمنجنيق يرمي بها حصونهم ،.فيأتيها من قواعدها ، فتنهار قوة تحصينهم .

وصنع لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دبابات من خشب تقتحم عليهم حصونهم .

مضى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى حصون الطائف ، فرموا جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار النبل ينزل على المؤمنين كأنه جراد ، فقتل من المسلمين عدد كبير قيل انه بلغ اثني عشر شهيدا أو يزيد ، فآوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكان بعيد عن مرمى النبل ، ولكنه يريد أن يعرف حالهم في الداخل .

فنادى منادي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، من خرج منهم ، ودخل جيش المسلمين من العبيد ، فهم أحرار .

فخرج نفر من العبيد ، ونالوا حريتهم بحكم الشرع ، وبحكم ذلك النداء المحمدي الحر الكريم ، ولقد تعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحوالهم.

وعلم أن عندهم الزاد الذي يكفيهم سنة .

وأخذ عليه الصلاة والسلام يعمل على أن يخرجوا من الحصون مختارين ، فأمر بالنخيل أن يقطع ، وبالكرم أن تجتث ، فرأوا أن ذلك ضياع لثروتهم ، وقالوا ما يكون لنا ان قطعت كرومنا ونخلنا ، وقال مناد من بني ثقيف قد بعثوه يقول ، لا تفسدوا الأموال ، فانها لنا أو لكم ٠

هز ذلك نفوسهم ، وأضعف عزيمتهم، وخصوصا أن عبيدهم أخذوا يتركونهم ، وكان العبد الذي ينال الحرية يدفعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بعض المسلمين يعولونه ،حتى ينال خيرا في حريته ، واستمروا يقاومون مع ضعضعة نفوسهم والمسلمون ينالون من حصونهم ، حتى انهم ليحمون الحديد ، يرمونه على الدبابات الخشبية ، ليحرقوها ، ويخرجوا الرجال من تحتها ٠

وقد كان بين الطائف وقريش رحم ومصاهرة ٠

ولذلك تقدم ناس من قريش لثقيف يمنعونهم من المطاولة ، فالنتيجة ليست لهم ، وان العاقبة للمتقين ٠

تقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يطالبون ثقيفا بأن تؤمنهم ليتمكنوا من كلامهم ، وقد لانت شكيمة ثقيف ، وقبلت التفاهم ، فأمنوهما ، تقدم أبو سفيان ودعوا نساء من نساء قريش وكنانة ليخرجن اليهما ،ولكنهما لم يجبن خشية السبي كما كان لنساء هوازن ، منهن آمنة بنت أبي سفيان ٠

فلما ابين عليهما قال لهما الأسود بن مسعود يا أبا سفيان : ويامغيرة ألا أدلكما على خير مما جئتما له ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نازلا بواد يقال له العقيق قال ابن مسعود هذا انه ليس بالطائف مال أبعد رشاء ، ولا أشد مؤنة ، ولا أبعد عمارة من مال بني الأسود ، وان محمداً ان قطعه لم يعمر أبداً ، فكلماه ، فليأخذه لنفسه ، أو ليدعنه لله وللرحم فان بيننا وبينه من القرابة ، ما لا يجهل ٠

لان القوم ، وثقيف لا يلينون الا اذا أرادوا أن يباعدوا بينهم العنف ، ويريد السلم ، ولقد وجدوا أن الحصار عضهم ، وان كانت لديهم المؤن والذخائر ، فهو حبس كيفما كانت صورته ، وأن جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ أموالهم من النخيل والكروم ، ويأتي حصونهم من قواعدها

وهم لا قبل لهم ، فنادوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحم والقرابة ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصم آذانه عن نداء الرحم والقرابة ، وهو الذي يأمر أن يوصل ما أمر الله تعالى بوصله ·

وقد رأى الاسلام يدخل في الطائف من مكة وما حولها ، وأن بعض بني ثقيف دخلوا في الاسلام وأكثرهم مال اليه ، وما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا داعيا الى الحق والى صراط مستقيم ، وان اللين مع من عندهم عنف كثقيف قد يكون سببا في أن تصغي قلوبهم الى الاسلام ، بينما العنف يعمي قلوبهم ويغلظ أكبادهم ويزيدهم عناداً ·

فرأى عليه الصلاة والسلام استجابة لداعي الرحم الذي أثاروه ، والقرابة التي تنادوا بها ، والاصلاح في الأرض أن يرحل ، وقد غاب عن المدينة أكثر من شهرين ·

وان ذلك كان في شوال، واذا استمر فانه سيجيء ذو القعدة وهو من الأشهر الحرم ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليقاتل مهاجما في الأشهر الحرم، التي هي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ·

وموقف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان موقف هجوم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يخالف أمر الله تعالى باحترام الأشهر الحرم ·

لذلك أخذ في الرحيل عائداً الى المدينة بعد أن حاصر الطائف سبع عشرة ليلة ، وفي رواية سبعاً وعشرين ليلة ، وقال ابن اسحاق : مكث بضعاً وعشرين ليلة ·

اتخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة في الرحيل ، وذكر أن الله تعالى لم يأذن له في الطائف ، وذكر ذلك لخويلة بنت حكيم بن أمية ·

فخرجت خويلة وذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما حديث حدثتنيه خويلة ، زعمت أنك قلته ، أفلا أؤذن بالرحيل ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بلى ، فأذن عمر رضي الله تعالى عنه بالرحيل ·

رحل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى يثرب عائداً من تلك الرحلة المباركة غير مهزوم ولا مغلوب ولا عاجز ، ولكنه قادر ومنفذ لحدود الله ، غير مقاتل مهاجماً في الشهر الحرام ،مراعياً الرحم والقرابة ، وآخذاً القوم الى الاسلام في رفق وغير غلظة ، وخرج من بين ظهرانيهم ، ليلقى وفد هوازن وثقيف في المدينة بين ظهراني المسلمين ٠

ولما ارتحلوا وأخذوا يستقيمون على الطريق بعد هذا الفتح المبين ، والنصر المؤزر ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « آيبون عابدون لربنا ، حامدون » ٠

وقيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ادع على ثقيف ، فقال نبي الرحمة : « اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم » ٠

ويروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اتبعه في أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة مسلماً ، وسأله أن يرجع الى قومه بالاسلام فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك ، وعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان فيهم ، فقال عروة يا رسول الله : أنا أحب اليهم من أبكارهم ،وكان حقيقة مجاباً مطاعاً فيهم ، فخرج يدعو قومه الى الاسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف عليهم من مكان مرتفع يدعوهم الى الاسلام رموه بسهم فقتله ، فقال رضي الله عنه :كرامة أكرمني الله تعالى بها ، وشهادة ساقها الله تعالى الي ، فليس في الا ما في الشهداء الذين قتلوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم فدفنوه ٠

ويظهر أن قتلهم عروة ، وهو المحبب فيهم ، قد أثر في نفوسهم ، وقد رأوا أن العرب قد دخلوا في طاعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم وحدهم الباقون على عدائه ، ولا قبل لهم به ، ولا بحرب من حولهم من العرب الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلموا ٠

لذلك أجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلموا عبد بن ياليل ، وكان في سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يجيبهم ، وقد رأى ما صنعوه مع عروة ، وكانوا هم الذين أرسلوه ،

كما يحاولون ارسالهم ، فخشي أن يقع به ماوقع بصاحبه، فقال لهم عبد بن ياليل ابعثوا معي وفدا فبعثوا معـــه ستة ،ووصلوا الى المدينة ، فلقيهم المغيرة بن شعبة ، ولنترك الـــكلام فيمـــا صنعه الوفد ، وما قاله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام في الوفود مَن بعدذلك في وقتها من الزمان ٠

وان كلامنا الآن في وفد ثقيف كلام منبتر ، ذكرناه لنبين أن ترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير عاجز ،كان الحكمـــة العالية التي ألانت قلوباً بعد شماسها، حتى انه يروي أبو داوودأن العيلة الأحمسي واسمه صخر ، أخذ على نفسه عهداً وذمة أن يحمـــل ثقيفاًعلى مبايعة رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وقد استطاع أن يلين قلوبهم وأن ينزلهم على حـــكم رســـول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد كتب صخر هذا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقـــول له : « أما بعد فان ثقيفاً قد نزلت على ذلك يا رسول الله ، وأنا مقبـــل بهـــم ، وهم في خيلي » ٠

عندما جاء ذلك الكتاب الى رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سر سروراً لا حد له ، لأنهم جاؤوه مسلمين ، ولم تكن حرب تخرب الديار ، وأمـــــر بأن ينادى:الصلاة جامعة ، فقرأ على المسلمين كتاب صخـــــر ، ثم دعا لقبيلة أحمس التي منها صخر هذا ، وقال عشر مرات: « اللهـــم بارك لأحمس في خيلهـــا ورجالها » ٠

ولقد جاء صخر هذا ببعض ثقيف ،ولكن لم يكن هو الوفد الذي جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ذكرنا أننا سنتكلم في وفد ثقيف من بعد عند الكلام في الوفود في سنة الوفود ٠

عود إلى غنائم هوازن

٦٣٩ ـ تكلمنا في توزيع غنائم هوازن ، ولعلها كانت أكبر غنائم غنمها من العرب ، أو لعلها تماثل غنائم خيبر أو تقاربها ، وفعلنا ذلك عقب هزيمة هوازن ، ولكن لم نسر سيراً زمانياً ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يوزعها الا بعد الانتهاء من حرب الطائف ، فلم ننتظر حتى يجيء الزمان الذي وزعها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، بل ذكرنا توزيعها فور الانتهاء منها .

والآن نبين زمان التوزيع ، وان كان متأخراً عن الغزوة لرأي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد ذكرنا ما أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، المؤلفة قلوبهم ، ولم يكن في المؤلفة قلوبهم أحد من بني المطلب قط ، فلم يكن فيهم العباس ، ولا أولاد الحارث بن عبد المطلب ولا غيرهم ممن ثبتوا مع النبي هم وأبو بكر وعمر ولم يثبت أحد غيرهم ، ولم يجد أحد من المهاجرين في نفسه شيئاً ، لأنهم يريدون عز الاسلام ، ولا يريدون مالا ولا نسباً بل يريدون عزة الاسلام ، فلم يجد في نفسه أبو عبيدة ، ولا عبدالرحمن بن عوف ، ولا غير هؤلاء .

ولكن وجد الأنصار في أنفسهم موجدة لا من أجل المال ، ولكنهم حسبوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، نسيهم بقومه اذ التقى بهم ، فقد كان الأنصار الذين آووا ونصروا لا يريدون المال ، ولكن يريدون الرسول ذاته ، يريدونه هم والمهاجرون يريدون بقاء محبته لهم .

هؤلاء الأنصار كانوا أطهارا حتى في موجدتهم ، ولكن وجد ناس ليسوا مهاجرين ولا أنصارا ، وليست الدعوة الاسلامية في حسابهم ، ولا تأليف القلوب التي لم يدخلها الايمان في نفوسهم قد تكلموا في هذا ناكرين مما يدل على أنهم لم يكونوا أنصارا بل كانوا منافقين ، وعدهم القرآن الكريم منهم .

لقد أعطى النبي المؤلفة ، فقام ذو الخويصرة من بني تميم ، فقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يا محمد لقدرأيت ما صنعت في هذا اليوم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فمارأيت ؟ قال لم أرك عدلت ، فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولكنهاغضبة الرفيق الحكيم ، فقال ويحك اذا لم يكن العدل عندي ، فعند من يكون .

فقال عمر بن الخطاب ألا نقتله ؟ فقال الهادي الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، دعوه فانه سيكون له شيمة ،يتعسفون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية .

وان قائل هذا القول لا يمكن أن يكون مؤمنا ، كما يبدو من لحن قوله ، فهو يقول في ندائه للنبي صلى الله تعالىعليه وسلم بقوله ، يا محمد ؟ ولم يقل يا رسول الله ، وكذلك قال قوله واحدمثله ، فقد رأى بسلالا في ثوبه مال يوزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،فقال : « اعدل يا محمد فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم » ويلك ومن يعدلاذا لم أكن أعدل ، لقد خبت وخسرت اذا لم أكن أعدل .

فقال عمر بن الخطاب يا رسولالله ، أفأقتل هذا الرجل ؟

فقال الرسول الحكيم معاذ الله أنيتحدث الناس أني أقتل أصحابي ، ان هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية .

ولقد بلغه أن بعض الناس عندماأعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المؤلفة قلوبهم قال هذه قسمةما أريد بها وجه الله تعالى ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم ، قال « رحم الله تعالى موسى ، لقد أوذي باكثر من ذلك » وهذه اشارةالى قول الله تعالى :

﴿ (٦٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا (٦٩) ﴾ (١)

(١) الأحزاب

وان هؤلاء أساس كلامهم ، وان كنت احسب أنهم جميعا لم يدخل الايمان قلوبهم ، وهم من الأعراب الذين قال الله فيهم :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

لقد فهموا خطأ طواعية لأهوائهم ومطامعهم ، أن كل من حضر القتال له حق فيها يساوي غيره ممن حضروا ، وظنوا أن هذه المساواة عادلة ، وأخطئوا اذ أن المساواة أحيانا قد تكون ظلما ،فالمساواة بين العامل المجاهد ، ومن وقف ينتظر النتيجة تكون لأي الفريقين تكون ظلما •

وفهموا خطأ أن الذين يحضرون الحرب في الغنيمة لهم حقوق ، وأن من يحول بينهم وبين ما زعموه حقا لهم يكون قد ظلمهم ، وتلك أوهام قد اوجدتها المطامع ، وهي ، باطلة ، ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد وضع الله تحت تصرفه خمس الغنيمة ، والغنائم كلها تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقيم القسطاس والعدل والرحمة فيها ، ألم تره عندما رأى الرحمة ونظام الاسلام أن ترد السبايا الى أهلهن ، وأن يطلق سراحهن نفذ ذلك ، وقد صارت السبايا الى من هي في أيديهن ، فنزعها منهم بحكمته ، قدمها المؤمنون طوعا واختيارا واتباعا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ونفذها على بني عبد المطلب ، ولم يحاول أن يأخذ رضا منهم ومن امتنع من المسلمين الذين لم يدخل الايمان قلوبهم حملهم على رد السبايا وعوضهم •

فالغنائم كلها في يده يتصرف فيها بما توجب النبوة والدعوة الاسلامية ، والرحمة والعدل الاسلامي ، لا طلب الأهواء الذي هو الظلم ذاته •

لقد وجد أن الدعوة الاسلامية توجب تاليف قلوب لهم في قومهم ، منزلة وليس لهم في الاسلام جهاد ولم يدخل الايمان قلوبهم ، وقد أكلتهم الضغينة وقتل الجهاد والمجاهدون من قتل منهم ،ويريد تاليفهم الى الاسلام ، ونسيان الاحن ، فاعطى أبا سفيان وأولاده، وأعطى الأقرع بن حابس وغيره •

لقد قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت الأقرع ابن حابس ، وعيينة بن حصن ، وتركت جعيل بن سراقة الضمري ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مبينا سبب العطاء ، وهو لم يمنع أحدا حقا له •

(١) التوبة

أما والذي نفس محمد بيده لجميل خير من مثل عيينة والأقرع ، ولكن تالفتهما ليسلما ، ووكلت جميل بن سراقة لاسلامه ·

هذا هو أساس العطاء ، وهؤلاء نظروا الى الأموال ، ولم ينظروا الى واجب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نشر الدعوة، وما يراه طريقاً لتاليف القلوب· وان قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

فهذه الآية نزلت في المنافقين ، والذين اعترضوا كانوا من الأعراب الذين هم أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ·

وما كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليخضع في أمر الدعوة ومقتضياتها لناس حديثي عهد بجاهلية وحسبه أن يكون معه المهاجرون والأنصار ، والذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى ·

(١) التوبة

عُمرة الجعرانة

٦٤٠ ـ لم يدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة عند الفتح محرماً لعمرة ، بل دخلها فاتحاً غير محارب ، ويريد الاتصال ، ويعيد المودة ويملن الاخوة بعد طول الافتراق ، وان المودة تجذب القلوب النافرة ، وتؤوي العقول الشاردة .

ولقد كان طواف في غير احرام ، ولم تكن مناسك عمرة وتعظيم للبيت .

ولما انتهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الفتح شغل بجذامة ، وارضاء قلوبها ، ومداواة الجراح التي جرحها خالد بن الوليد .

ولما أخذت هوازن تهم بالهجوم على جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان لابد من لقائها ، فكان اللقاء المرير ، ذو النتائج الباهرة ، وأتبعها بالطائف ، فلما آذن الشهر الحرام بمجيء عاد الى الجعرانة وهي ميقات من مواقيت الاحرام ، فأحرم منها بالعمرة ، ودخل بيت الله تعالى معتمراً .

وكانت تلك العمرة في ذي القعدة ، وذهب الى المدينة لست ليال بقين من ذي القعدة .

ولم يحج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذا العام الثامن بنفسه ، ولا بأحد ناب عنه ، وترك الحج لما كان عليه العرب من قبل .

ولكن كان مع المسلمين الذين أرادوا الحج عتاب بن أسيد ، فحج بهم .

ولكن عندما عاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، ترك أميرا عليها عتاب بن أسيد ، وكان سن عتاب كما جاء في شرح المواهب اللدنية عشرين سنة ، فخلفه صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه السن ، وكان مباركاً في عمله مخلصا في نيته ، قنوعا في ذات اليد ، لا يطمع ، بل يشبع بالقليل .

أجرى عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رزقا درهما كل يوم فكان به راضيا ، غير متطلع لأكثر منه ، وكان يقول داعيا الى القناعة ٠

أيها الناس أجاع الله تعالى كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم درهما كل يوم ، فليس بي حاجة الى أحد ٠

وقد خلف صلى الله تعالى عليه وسلم بعد العمرة معاذ بن جبل الحافظ للقرآن الراوي للسنة بجوار عتاب بن أسيد ، وخلفه ليعلم الاسلام ، ويفقههم في الدين ، ويحفظهم القرآن ، فقد كانوا في حاجة الى ذلك ، لحداثة عهدهم بالجاهلية ، ولم يعيشوا في ظل القرآن كأهل المدينة ، بل كانوا يناوئون أهل القرآن ، وان علم بلغاؤهم مكانته ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه ٠

وقد عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الجعرانة بعد عمرته ،ولم يمكث بها الا قليلا ، وفيها وزع بقية الفيء والغنائم ، ومنها سافر الى المدينة حتى بلغها لليال ست بقيت من ذي القعدة ٠

وقد ترك الطائف على شركها ، وان أخذت تميل نحو الاسلام على عنجهية الجاهلية ٠

وكان مالك بن عوف يغير عليها آنا بعد آن ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أدناه منه وأسلم وحسن اسلامه ،فكان من بعد ذلك يرهقها بالغارات ويجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما يدل على أنها تلين الى الاسلام شيئاً فشيئا ، حتى لانوا كما سنبين في وفدهم ٠

قدوم كعب بن زهير

٦٤١ ـ قدم كعب بن زهير على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد عودته من عمرته ، وما كان لنا أن نهتم بما نكتب بشاعر أو كاهن ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاج الى داعية يدعو بمفاخره فرسول الله مقامه عند الله عظيم، وما كان يحتاج الى شاعر يشيد بمنصبه فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد دان بالطاعة له كبراء العرب ، وغيرهم هو في مكانته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي كان يلقى عليه أبو جهل فرث الجزور ، فمكانته عند الله وفي نفسه ، وعند كل ذي لب واحدة •

ولكنا ذكرناه لأن قدومه يدل على بلوغ الدعوة الاسلامية كل نواحي البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وان فتح مكة جعل القلوب تتجه اليه ، والمنكرين يصدقون ، والنافرين يدنون ، ويأوون •

لقد كان كعب هذا يشارك المنكرين وينشد شعره في ذم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما ظهر النور الذي لا ينطفىء مال الى أن يتقدم الى النبي مهديا ، بعد أن جافاه ، وهو ابن زهير بن سلمى حكيم الشعراء في الجاهلية ، فهو من بيت جاهلي فيه شعر الحكمة •

وعندما هم بأن يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حذره أخوه بجير ابن زهير بن أبي سلمى ، وكتب اليه يخبره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بين شعراء قريش بن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب ، قد هربوا منه في كل وجه ، فان كانت في نفسك حاجة ، فطر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تائبا ، فانه لا يقتل أحدا جاء اليه تائبا ، وان أنت لم تفعل ، فانج الى نجاتك من الأرض •

وكان قد قال قصيدة فيها ذم للاسلام ، وقد أسلم أخوه ، وأرسل اليه الكتاب المذكور آنفا •

ولما بلغ زهيراً هذا الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه من قصيدته ، ويقول ابن اسحاق أرجف به من كان في حاضره من عدوه وقالوا هو مقتول ، أي أنهم أرادوا أن يحذروه ايفاده على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولكنه لم يجد بداً من أن يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر فيها خوفه ، وارجاف الوشاة من عدوه ٠

ولقد خرج وقدم المدينة فنزل على رجل كان يعرفه فغدا به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أشار به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال : هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقم اليه فاستأمنه ٠

فقام الى رسول الله حتى جلس اليه، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعرفه ، فقال : يارسول الله ان كعب بن زهير جاء يستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ،ان أنا جئتك به ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم فقال رسول الله أنا كعب بن زهير وكان في المجلس بعض الأنصار ، فوثب عليه رجل منهم ، فقال : يا رسول الله دعني وعد والله أضرب عنقه ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : دعه عنك ، فانه قد جاء تائبا ، نازعا عما كان عليه ، وغضب كعب على الحي من الأنصار كما يقال ، وما يضر غضبه على هؤلاء الذين آووا ونصروا ولم يقل فيه أحد من المهاجرين الا خيرا ٠

ولقد مدح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقصيدة هزت أعطاف رسول الله ، وكان كريما يقبل طيب القول ٠

ولقد روي أنه قال ان من الشعر لحكمة ، ولننشد أبياتا منها ، لكرم موضوعها ٠

يقول في مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

وبعد أن يذكر سعاد وهي كما قيل زوجته ، وغربته عنها ، يقول متجها الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقال كل صـــديق كنت آمـــله لا ألهينـــك اني عنـــك مشغول
فقلت خـلوا سبيلي لا أبا لـكم فـــكل ما قـدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته يوما عـلى آلة حـدباء محمـول
نبئت أن رســـول الله أوعدني والعفو عند رســول الله مأمـول
مهلا هداك الذي أعطـاك نافلة القرآن فيهـا مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشـاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقاويـل

ثم يقول في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

ان الرسول لنور يستضـــاء به مهنـد من سيوف الله مســـلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مـــكة لما أسلمـوا زولوا

ويقـــول في وصف أصحـاب الرسول :

ليسوا مفاريح ان نالت رماحهم قوما ، وليسوا مجازيعاً اذا نيلوا
لا يقع الطعن الا في نحـــورهم وما لهـم عن حياض الموت تهليل

وفي هذه القصيدة لم يذكر الأنصار ، لأن رجلا منهم أراد قتله ، فيروى أن النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلمبعد أن أنشد قصيدته قال : لولا ذكر الأنصار فانهم لذلك أهل ، فقـال مادحاالأنصار :

من سره كـرم الحياة فـلا يزل في مقنب من صـالح الأنصـار
ورثوا المكارم كابرا عن كـابر ان الخيار هـــم بنـــو الأخيار

الى آخر قصيدة ليست مهلهلة طويلة، بل هي موجزة قصيرة ٠

وانا نذكر أننا ذكرنا كعب بن زهير لبيان أنه اذا كان الاسلام قد فقـد عبد الله بن رواحة شاعر الدعـوة الاســـلامية والذود عنه وعن الرســـول الكريم ، فقد جاء الشاعر كعب بن زهير ، والشعراء كانوا ألسنة الدعـوة الى المكارم ونشر الفضـــل والفضلاء فيالجزيرة العربية ٠

السرايا بعد هوازن

٦٤٢ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما كان في هوازن والطائف يرسل السرايا في القبائل العربية داعية الى الاسلام ، متعرفة لأحوالها ، وكان يشغل بذلك الذين أسلموا حديثا ليألفوا الاسلام ،ويتحملوا واجباته ، وليحملوا عبء الدعوة الى الاسلام من بعد ، وليكون منهم المجاهدون في سبيله ، وليتعودوا القيام بواجباته،وليرضي نهمتهم من حب السلطان ، ولكي ينالوا من الغنائم بالحق ممن تأبوا على الاسلام من القبائل .

فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عيينة بن حصن في المحرم من السنة التاسعة الى بني تميم ، في خمسين رجلا ، ليس فيهم من المهاجرين ولا الأنصار أحد .

فسار اليهم يكمن نهارا ، ويسير ليلا ليفاجاهم من حيث لا يشعرون ، فهجم عليهم ، وهم يسرحون مواشيهم ، فلما رأوا الجمع ولوا الأدبار ، فاستطاع أن يسبي منهم نساء عددهن احدى وعشرون ، وأخذ ثلاثين صبيا وأحد عشر رجلا .

ساق هؤلاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانزل في أحد بيوت المدينة .

وجاء من بعد ذلك كبراء من تميم منهم عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث وعمرو بن الأهتم ، ورباح .

فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا اليهم .

فعجلوا فجاءوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنادوا : يا محمد اخرج الينا فخرج رسول الله ، وأذن بلال للصلاة وهؤلاء تعلقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى فصلى الظهر ، ثم جلس ، ثم قدم فتكلم ،فامر رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم ثابت بن قيس بن شماس فردعليهم أسراهم وسباياهم وأبناءهم لأنهم ما كانوا محاربين ، ويظهر أنهم كانوا غير مطيعين ·

وقد قال ابن اسحق في ذلك : دخلوا المسجد ، ونادوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا محمد اخرج الينا ، فتاذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قالوا جئنا لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، ويظهر أن ذلك بعد أن استردوا الأسرى والسبايا ، ولقد قال الله تعالى في عدم استئذانهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ (١)

ولقد ذكر ابن اسحق المباراة البيانية ، أو المفاخرة الشعرية والخطابية فروى قول شاعرهم ورد حسان ، وذكر قول خطيبهم ·

لقد قال خطيبهم حاجب بن عطارد : « الحمد لله الذي له الفضل علينا ، جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل الشرق ، وأكثره عددا ، وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ، ألسنا رءوس الناس ، وأولي فضلهم ، فمن فاخر ، فليعد مثل عددنا ، فلو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكن نستحي من الاكثار لما أعطانا أقول هذا لأن يأتوا بمثل قولنا او أمر أفضل من أمرنا ·

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس قم فاجبه ، فقام فقال :

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وقضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ثم ان من فضل الله أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، ، فأنزل عليه كتابا ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرة الله تعالى من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان بالله ، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكرم الناس

---

(١) الحجرات

أحساباً وأحسنهم وجوهاً ، وخير الناس فعلا ، ثم كان أول الناس استجابة لله حين دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنحن أنصار الله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن سكت جاهدناه في سبيل الله تعالى ، أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول هذا وأستغفر الله العظيم للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم ٠

فتح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذه المباراة البيانية ارضاء لرغبة القول عندهم ، وليعلمهم أن المفاخرة ليست بالأنساب ، ولكن المفاخرة بالايمان والأعمال الصالحة ، والتقوى، وليضرب المثل لهم بقومه ، وليقدم لهم الحق سائغاً ، ولقد قال الزبرقان بن بدر من بعد : ان هذا الرجل خطيبه خير من خطيبنا ، وشاعرهم أحسن من شاعرنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، وقد أعطاهم جوائز ، بشبه ما يعطي المؤلفة قلوبهم ٠

سَرِيّة الضّحّاك بْن سُفيان :

٦٤٣ ــ كانت هذه السرية كأخواتها لتعرف أحوال العرب في صحرائهم، ونشر الاسلام بينهم ، وجعل الحبل ممدوداً بينه وبينهم من غير أن يقطع ، أرسل في هذه السرية الضحاك بن ثابت الى بني كلاب وهو منهم في ربيع الأول من السنة التاسعة ٠

اتجه اليهم ابن أبي سفيان فدعاهم الى الاسلام فلم يستجيبوا فقاتلهم فهزمهم ٠

سريّة قطبة بن عامر إلى خثعم :

وكانت قبل هذه السرية في صفر من هذه السنة سرية قطبة بن عامر ،الى خثعم في عشرين رجلا خرجوا على عشرة ابل يتعقبونها ، فلما التقوا ببعض بني خثعم اقتتلوا قتالا شديداً ، وكثر الجرحى من الفريقين جميعاً ، وكان في القتلى قطبة بن عامر ، ولكن الجيش بقي بعده ، وساق النعم والنساء وعادوا الى المدينة بهذه الغنائم ٠

وقد تجمع كثيرون من بني خثعم وساروا وراءهم ، ولكن كان مطر شديد حال بينهم وبين تتبعهم ٠

سرية علقمة بن مجزز المدلجي الى الحبشة

٦٤٤ ـ وكانت في ربيع الآخـرمن السنة التاسعة ، وذلك أن رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلغه أن‌ناساً من أهل الحبشة ظهروا أمام جدة، وبدا أنهم يريدون الغارة عليهم ، فأرسل اليهم النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم ، فذهبوا اليهم ، وطاردوهـــم ،وخاضـوا البحر ، وراءهم فلجئوا الى جزيرة ، وقد تعجل قوم في الأوبة فأذن‌لهم ، وأمر عليهم بعض المتعجلين ، وقد أراد أن يداعب من معه فأوقد لهم نارا،وأمرهم بالتواثب عليهم ، فأراد بعضهم أن ينزل فيه ، فرده ، وقال انما كنت‌أضحك منهم ولا شك أن هـــذا تعابث ما كان يجوز ، ولذلك لما عـــادوا الى‌النبي صـــلى الله تعالى عليـه وسلم ، وأخبروه الخبر ، فقال : « من أمركـم‌بمعصية فلا تطيعوه » .

وكدنا لا نصدق ذلك الخبر لولا أنه روي في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ما يؤيده ، فعن علي أنه قـال :« بعث رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم سرية ، واستعمل عليها رجلا من‌الأنصـــار وامـــرهم أن يسمعـــوا له ويطيعوا ، فأغضبوه ، فقال اجمعوا لي‌حطبا ، فجمعوا ، فقال أوقدوا نارا ثم قال : ألم يامركم رســـول الله صلى الله‌تعالى عليه وسلم أن تسمعوا ، قـــال فادخلوها ، فنظر بعضهـم الى بعض ،وقالوا انما فررنا الى رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم من النار ، فسكن‌غضبه ، وأطفئت النار ، فلما رجعوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فقالوا لو دخلوها ما خرجوامنها أبدا ! لا طاعة في معصية الله ، انما الطاعة في المعروف » .

وفي هذه الرواية أن رئيس السرية ركبـــه الغضب ، فعصى الله وعصى الرسول فأمر بما أمر ، واذا أطاعوه‌فقد أطاعوه في معصية فعصـوا الله ، وفيه أن الأمر بالطـــاعة انما هو في‌المعروف المعقول ، لا المنكر عقلا وشرعا، فليعتبر أولئك الذين يقتلون ويرتكبون‌أشـد المنكـــرات باســم الطـــاعة ، فبذلك تضيع الأمم والجماعات ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

٦٤٥ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليا في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير ،وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ،ولواء أبيض الى الفلس ، وهو صنم طيء ليهدمه ، فشنوا الغارة على محلة حاتم ، وكان بعث علي في ربيع الثاني سنة تسع من الهجرة .

ذهب علي بجيشه الأنصاري فهدم الصنم ، وكان القتال مع الفجر ،وفروا أمام جيش المسلمين بقيادة المجاهد علي، وتركوا نساءهم وأموالهم .

فسبوا النساء ، وأخذوا النعم والشاء وفي السبى أخت عدي بن حاتم ، أي بنت حاتم الطائي ، وفر عدي الى الشام وكان نصرانيا ، وقد وجدوا في خزانة عدي ثلاثة أسياف ، وثلاثة أدرع .

وقد أقام علي على السبي أبا قتادة ،وعلى الماشية والفضة عبد الله بن عتيك وقسم الغنائم في الطريق ، وجعل الصفي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يقسم السبايا حتى أتى بهم المدينة وليس فيهم عدي بن حاتم .

ولقد جاءت ابنة حاتم الطائي ، فقالت : يا رسول الله لقد غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة مابي من خدمة فمن علي من الله عليك ، ان رأيت أن تخلي عني ، ولا تشمت بنا أحياء العرب فاني ابنة سيد قومى ، وان أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طيء .

رق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لحالها ، وذكر بالخير أباها ايناسا لها ، وتخفيفا لفزعها ، فقال لها : « يا جارية هذه صفات المؤمنين ، ولو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

ويروى أنها قالت داعية للنبي اللهم لا تجعل حاجتك الا عند كريم .

ولما التقت مع أخيها عدي بن حاتم حثته على الاسلام ، فقالت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائته راغبا أو راهبا لقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه ، وبذلك كانت هي السبيل لاسلام أخيها ، وتسليم نفسه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأتى

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وليس معه كتاب أمان ولا أمان ، فقال القوم هذا عدي بن حاتم ، وقال عدي فلما دفعت اليه أخذ بيدي ، وكان قبل ذلك قد قال اني أرجو أن يجعل الله يده في يدي .

وظهرت أمام عدي أخلاق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ورفقه بالضعفاء، لقد رأى امرأة لقيته ومعها صبي فقالت له ان لنا اليك حاجة فقام معها ، حتى قضى حاجتها .

ويقول عدي بن حاتم ، ثم أخذ بيدي ، حتى أتى داره ، فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها ، وجلست بين يديه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : ما يضرك ، أيضرك أن تقول :لا اله الا الله فهل تعلم من اله سوى الله قلت : لا ثم تكلم ساعة ، ثم قال ،أيضرك أن يقال الله أكبر وهل تعلم شيئا أكبر من الله قلت : لا ، قال فان اليهود مغضوب عليهم ، وان النصارى ضالون فقلت اني حنيف مسلم ، فرأيت وجهه ينبسط فرحا ، ثم أمرني فنزلت عند رجل من الأنصار وجعلت وجعلت آتيه طرفي النهار ، فبينما أنا عنده اذ جاء قوم في ثياب من الصوف من هذه الثمار فصلى ثم قام فقال : يأيها الناس ارضخوا من الفضل ، ولو بصاع أو بنصف صاع ، ولو بقبضة ، ولو ببعض قبضة ، يقي أحدكم وجهه حر جهنم ، فان لم تجدوا فكلمة طيبة ، فان أحدكم لاقى الله وقال له ما أقول لكم ، ألم أجعل لك مالا وولدا ، فيقول، بلى ، فيقول أين ما قدمت لنفسك ،فينظر قدامه وبعقبه ، وعن يمينه وعن شماله بقي به وجهه جهنم ، ليق أحدكم وجهه النار ، ولو بشق تمرة ، فان لم يجد فبكلمة طيبة ، فاني لا أخاف عليكم الفاقة فان الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة ،وأكثر ما يخاف على مطيتها السرقة .

قال عدي بن حاتم فجعلت أقول لنفسي أين لصوص طيء .

نقلنا هذا الحديث ، لنرى أولا الرفق والتقريب النفسي في المعاملة ، والعطف وحث الناس على الأخلاق الطيبة ، وذكر مآثر ذوي الأخلاق ، حتى خرج الرجل من مجلس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أحب الناس وكان من قبل يكرهه أشد ما تكون كراهة الرجل للرجل .

وان هذا الخبر يري القارىء مجلسا من مجالس النبوة ، وانه لمجلس يهدي الى الرشد ، أجف الناس خلقا ، وأبعدهم عن الحق ، اذا لم يكتب الله تعالى عليهم الضلالة،ويقربهم شيطانهم من الغواية ، والله ورسوله لهم المن والفضل.

غزوة تبوك

٦٤٦ ـ استوعبت الدعوة الاسلامية البلاد العربية ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ومنهم من أسلم ، ولما يدخل الايمان في قلبه ، ومنهم من آمن وأخلص للنبي وحمل عبء الدعوة وجاهد في سبيلها ، وليس من العرب من لم يعلم بالاسلام ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحق الذي يدعو اليه ، من غير مواناة ولا تقصير ، ولا هوادة .

ولابد أن يتجاوز بعد ذلك دائرة البلاد العربية الى ما يصاقبها ، من البلاد المجاورة خصوصا البلاد التي فيها العنصر العربي ، فانها بتكوينها أقرب الى الاستجابة الى ما يعم بلاد العرب التي هي مثابتهم ، وفيها الحرم الآمن الذي جعله الله آمنا ، والناس يتخطفون من حوله .

وأخص بذلك بلاد الشام ففيها الغساسنة من العرب ، وكان فيها اعتداء على من أسلم وكانت غزوة مؤتة ، بسبب قتل رسول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بصرى .

وانتهت مؤتة ، ولم تكن بنصر حاسم ، وان لم تكن بهزيمة ، فان جيش الاسلام لم يرجع مهزوما وانما تراجع منتظما بمهارة خالد بن الوليد ، وكانت هذه أول قيادة ناجحة له في الاسلام .

ولم تكن النتيجة على المسلمين ، فلم يقتل منهم أمام مائتي ألف الا نحو اثني عشر رجلا وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة ، حتى انه في هذه المعركة يطوي في يد خالد تسعة سيوف ، وقتل الأمراء لم يؤثر بالهزيمة في الجيش الأقل في عدد .

وان شئت أن تقول ان غزوة تبوك امتداد لغزوة مؤتة فقل ، فهي سير في الخطة التي ابتدأت بها ، ولم تنل مأربها من قتل قتلة الرسول الذي بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومع أنها امتداد لغزوة مؤتة في سببها وسيرها ، والمقصد ، قد كان لها وحدها سبب قائم بذاته ، ذلك أنه باللقاء بين المسلمين وغيرهم من الأنصار، ومن معهم من العرب ، أوجد الالتحام الحربي ، بين العرب الذين عاونوا الرومان والعرب المجاهدين مع اتحاد الجنس ، من يميل الى الاسلام ، لأنه الدين الجديد في قومهم ،وقد صار رمز القوة عندهم ، وخير لهم أن يعتزوا بأنفسهم عن أن يعتزوا بالرومان ، ففرق بين من يقول أنت أخي ، ومن يقول أنت عبدي أو تابعي ، ولذلك كان اقبال الخاضعين للغزو الروماني شديدا،لأنه الدين الجديد لاخوانهم ، ولاضطراب الدولة الرومانية ، واضطراب الأحوال فيها •

ولقد أسلم من العرب الذين استعان بهم الرومان عدد كبير •

لقد أسلم فروة بن عمرو الجذامي الذي كان قائدا لاحدى الفرق الرومانية عندما اقتتل الرومان مع المسلمين في مؤتة •

فضاق الرومان ذرعا باسلامه ، واتهموه بالخيانة وقتلوه ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يترك دم هذا الرجل المسلم هدراً ، بل لابد من القصاص ، وان قتله فتنة تمنع غيره من أن يدخل في الاسلام ، فحق أمر الله:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (١)

ووجبت الطاعة لقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (٢)

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣)

(١) الانفال (٢) التوبة (٣) التوبة

وهناك أمر آخر ذكره كتاب السيرة أنه لما نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ (1)

ظن التجار الذين كانوا يقيمـــون المتاجر في ســـوق عكاظ ، وذي المجاز ومجنة ، وغـــيرها من الأســـواق في موسم الحج ، ظنوا أن متاجرهم تكسد، فكان لهذا ولغيره غزوة الشام في تبوك ، وفي ذلك فتح لأبواب التجارة .

ذلك سبب ذكره كتاب السيرة ، وماكنا لنذكـــره لولا أنهـــم ذكـــروه ، فما كانت غـــزوات النبي صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم لتسهيل تجارة مادية ، انما كانت لتسهيل الدعوة الاســـلامية ،وان هذه تجارة لن تبور ، بـــل فيهـــا مكسب أغلى وأعلى ، وهـــو رضـــا الله سبحانه وتعالى .

وان الرومان بعد غزوة مؤتة قـــد رأوا أن الدين الجـــديد يغـــزو النفوس بأحكامه ، ويغزو البلاد برجاله ، وأنهم يجب أن يعـــدوا العدة للقضـــاء عليه قبل أن يقضي على دولتهم ، فكانوا يستعدون لغزو الاســـلام ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتركهم حتى يغزوه في داره ، فما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الروم يجمعون الجموع وأن قيصر قد أعطى أرزاقهـــم لسنة ، وان في غزو الرومان تقـــوية لبأس العرب الخاضعـــين للرومان في الشام ، اذ يجدونهم يتحفزون لرفع النير عنهم ، واخراجهم من سيطرة من يذلهم ، الى عز قومهم .

[illegible]

٦٤٧ ـ في رجب من السنة التاسعة ، ويظهر أنه في آخره أي في آخر الشهر الحرام ، أمر رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم الناس بالتهيـــؤ لحرب الروم الذي قد أعدوا له عـــدة لحربه ، وكان ذلك في وقت حر شديد، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يبين للناس اتجاهه اذا خرج لحرب الا في تبوك لبعد المشقة ، ولعظم المهمة ،وليستعد الناس لنوع من الجهـــاد شاق مرير ، في وقت شديد غليظ اذ كان الحر شديدا ، وكانوا يجمعـــون ثمار

(1) التوبة

حرثهم ، وغلالهم ، وفي بعض البلادجدب ، وقد طابت ثمار الأرض التي أنتجت ، والارادة المادية عندهم ربماتغالب النية المحتسبة عند بعضهم ،ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يختبر النفوس ، والغزوة كلها اختبار للمؤمنين ، وان النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ما اختار الزمان ، انما اختارته له العناية الالهية ، وارادةالروم وقد خاطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الرجال ليعرفما في بعض النفوس ، قال للجد بن قيس يا جد ، هل لك في جلاء بنيالأصفر (يريد الروم) ٠

فاجاب اجابة المتردد ، غير المعتزم :« أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف أنه ما من رجل أشد عجبابالنساء مني ، واني أخشى ان رأيت نساء بني الأصفر لا أضرب » ٠

اعتذار بغلبة هوى النفس عنده علىالجهاد ، وأنه لا يستطيع جهاد نفسه عن الاثم ، فهو عبد هواه ، وأيفتنة أشد على الرجل من أن يكون عبد هواه ، وقد أذن له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه لا جدوى في رجل لا ارادة له ، وانما هي حرب ضروستحتاج الى صبر وجهاد نفسي ،فالوصول الى العدو ليس سهلا ، والحر شديد ،واللقاء مع عدو كبير ٠

وان هذه الغزوة كان فيها الناس علىأنواع شتى في نفوسهم ٠

١ ـ فمنهم من قعدت بهم همتهم ،فتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واعتذروا بالمعاذير ، وهؤلاء يقولون مع المنافقين :

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (١)

وهؤلاء منهم ضعفاء الايمان ومنهمضعفاء العزيمة وليست لديهم قوة نفسية يتحملون بها الشدائد ولذلك كان فيهم جزع ، وخوف من الاقدام ٠

(١) التوبة

٢ ـ ومنهم المنافقون الذين يثبطون ، ويريدون الفتنة ويبتغون تثبيط المؤمنين عن المجاهدين ، ويقول سبحانه وتعالى فيهم :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾
لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ
انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ
﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ
مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن
يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (١)

---

(١) التوبة

الصنف الثالث أهل الايمان ، وكلهم مجاهد بنفسه وماله ، لا يدخرون جهدا ولا مالا ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم وقرنهم في الذكر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ (١)

هؤلاء هم الذين حملوا الدور الأول حتى صارت الكلمة العليا لله ولرسوله في بلاد العرب ، فهم أيضا الذين حملوا عبء الجهاد ، عندما أخذ الاسلام ينتشر في غير البلاد العربية ،وخرج الجهاد الى بني الأصفر (الرومان) الذين كان اسمهم يرهب العرب .

(١) التوبة

٦٤٨ ـ كان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحتاط من المنافقين وكان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحرض المؤمنين الذين كانوا معه ويجمع شملهم ، وأن يكون بعضهم عونا لبعض في هذه العسرة الشديدة ٠

أما بالنسبة للمنافقين فانهم كانوا دائبي الحركة ليثبطوا المؤمنين ، وهم يقولون لا تنفروا في الحر ، ليمنعوهم نفسيا من الجهاد ، بل وصلت بهم الحال الى أن يجتمعوا ببعض اليهود يأتمرون معهم ٠

حدث بن هشام بسنده أن ناسا من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، وكان بيته في موضع اسمه جاسوم ، يثبطون الناس عن الجهاد ، وعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة تبوك ، فبعث اليهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم هذا ، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خلفة من ظهر البيت ، فانكسرت ساقه وأفلت أصحاب البيت ٠

كانت عين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المجاهد تترصد أولئك المثبطين الذين بلغت حالهم ـ حد التآمر ، فرد الله كيدهم في نحورهم ٠

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ حذره ممن يثبطون العزائم ، وهذه المعركة معركة عزائم ، وقوة نفوس ، وجلد وصبر وقوة احتمال ٠

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك الوقت العصيب يثير عزائم أصحابه ، ولا يكتفي بأن يحثهم على الخروج ، بل يحثهم على أن يعين بعضهم بعضا ، وأن ينفقوا في الحرب ولا يلقوا بأيديهم الى التهلكة ، وانه يحتاج الى الزاد والراحلة والشقة بعيدة، ولم يكن له اختيار في الأمان كما ذكرنا بل انه اذ علم أن الروم يتجمعون لاقتلاع هذا الدين من الأرض العربية، وليستذلوا العرب ويقضوا على منبع العزة فيهم ، فما كان له أن ينتظر ، بل لابد أن يبادرهم ، ولا ينتظرهم ، لقد أراد أن يخرج لهم بأكبر غزوة يغزوها،

أن يخـــرج بثلاثين ألفا ، فلا بد أن يكون في يده ما يغـــزوهم به ، وما يحملهـــم عليـــه ، ولا يكون معه الا القوي الأمين ٠

ذكر ابن اسحاق بسنده أن رســول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وســـلم جد في سفره ، وأمــر الناس بالجهـادوالانكمـاش (الاسراع) وحض أهــل الغنى على النفقة ، والحملان في سبيل الله تعالى فحمل رجال من أهل الغنى ، وكان لعثمان ذي النورين الحظ الأكبر من الانفاق ، حتى كاد يحمل الجيش كله٠

روى الامام أحمد أن عثمان ابتدأ بألف دينار فصبها في حجر النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عبد الله بن أحمد في مسند أبيه بسنده قـــال : خطب النبي صلى الله تعالى عليه وســلم فحث على الانفاق على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل مرقـاة من المنبر ، ثم حث ، فقال عثمان علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ما ضر عثمان عمل بعـد هـذا ، ولقد قـــال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من جهــز جيش العسرة غفر الله تعالى له » ٠

هؤلاء المؤمنون كان منهم من حمل نفسه وحمل معــه زاده كعبد الرحمن ابن عوف ومنهم من تبرع بزاد وحملان لغيره كأبي بكر وعمر ، وغــيرهما من ذوي اليسار من المهاجرين والأنصـــار ٠

ولكن كان من بين المؤمنين الصـادقين البكاءون ، وأولئك أرادوا الجهاد، والا يتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نفير كهـــذا النفير ، الفاصل بين نشر الايمان في الأرض وبين أن يقضى عليه في مهـــده أهـــل القوة فيها ٠

كان هؤلاء النفر السبعة الذين سموا البكاءين ، وقـد ذهبـــوا الى النبي صـــلى الله تعالى عليـــه وســـلم فاستحملوا رســـول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وســـلم بأن طلبوا منـــه مايحملهم عليه ، فقـــال رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا أجد ما أحملكم عليه » ٠

ولقد قال الله تعالى في ذلك الجمـع الحاشد :

﴿ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ
مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ
وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى
ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ
مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ
لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا
يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ
مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (١)

وقبل أن يسير الجيش الكبير كان بعض البكاءين من الأنصار الذين لم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحملهم عليه ، وقد وجد من يعينه، فابن يامين بن عمير بن كعب لقي اثنين منهما وهما يبكيان ، فقال ما يبكيكما، قالا جئنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج،فأعطاهما ناضحا له فارتحلاه .

وان بعضهم ، وهو عطية بن زيد قد أخذ يعتذر الى الله تعالى عن عدم خروجه ، ويقول : « اللهم انك أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، واني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو حد جسد أو عرض ،ثم أصبح مع الناس » .

---

(١) التوبة

٦٤٩ ــ أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في السير بجيشه الذي بلغ نحو ثلاثين ألفا ، وتبعه عبدالله بن أبي مع المنافقين وأهل الريب فلما سار رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم تخلف ، وما كان سيره ثم تخلفه الا ليخذل المؤمنين ليثير الريب بعمله ،كما أثاره بقوله ٠

وقد جعل على المدينة محمد بن سلمةالأنصاري ٠

وخلف علي بن أبي طالب في أهله،ويظهر أن هذه تشبه ما خلفه به على الودائع يوم الهجرة ، لأن الشقة كانتبعيدة ، فاختار رجلا من أهله ليقوم على أهله وأهله ، وما كانلعلي أن يكون له بعد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الخيرة منأمره ، بل عليه الطاعة المجردة ، ولكن المنافقين الذين من شأنهم أنيثيروا الريب ، والافساد ويسموا بالنميم بالأحبة ، أشاعوا قالة غيرصحيحة أصلا ، قالوا ما خلف رسول الله علي بن أبي طالب الا استثقالا لهوتخففا منه ٠

فلما أكثروا من القول في ذلك ، أخذ علي رضي الله تعالى عنه سلاحه ، ثم خرج حتى لحق رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم ، وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا ، فقال رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم :«كذبوا، ولكنني خلفتك لما ورائي فارجع فاخلفنيفي أهلي وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىالا أنه لا نبي بعدي،روى هذا الحديث البخاري ومسلم وأبو داوودالطيالسي ٠

وروى الامام أحمد رضي الله تعالىعنه أن عليا المجاهد ، استكثر على نفسه أن يكون ميدان الجهاد متسعا ،وفي غزوة كثر فيها التخلف ، أن يبقى ولا يحمل سيفه البتار ، فقالللرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا رسول الله لا تخلفني في النساءوالصبيان ! فقال : يا علي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىالا أنه لا نبي بعدي » ٠

وان هذا كان المنتظر من علي هذا، فان المؤمنين المتقين كانوا يتسابقون في الخروج لأنهم لا يرضون لأنفسهم أن يبقوا في راحة بين أهليهم، والرسول يسير في الصحراء حيث الحر اللافح .

قعد أبو خيثمة وله امرأتان عربيتان قد رشتا حول عريشهما الماء لتكونا مع زوجهما في جو رطيب، فلما رأى ذلك قال : « يكون رسول الله في الضح والريح والحر ، وأبوخيثمة في ظل بارد ، ومكان مهيأ وامرأة حسناء في حالة مقيم ما هذا بالنصف ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما ، حتى ألحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهيئالي زادا ، وأخلف عنه ، بعض الصحابة في أهله ، وارتحل ناضحا له ، وأسرع حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معتمداً على الله تعالى ، والناس معه ، وبعضهم يقول تخلف فلان ، فيقول عليه الصلاة والسلام دعوه ، فان يكن فيه خير فسيلحقه بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحنا الله منه ، حتى قيل تخلف أبو ذر ، وتلوم به بعيره .

ولما أبطأ بعير أبي ذر ، وهو يريد أن يلحق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، نزل وترك البعير ، وتخفف ماشياً الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى قارب ركب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر ناظر من المسلمين ، فقال يا رسول الله هذا رجل ماش على الطريق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كن أبا ذر ، فلما تأمله الناس قالوا يارسول الله هو والله أبو ذر فقال رسول الله صلى تعالى عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

وقد مات أبو ذر ، وقد نفاه عثمان الى الربذة ، فمات وحيداً حتى عثر به في الصحراء عبد الله بن مسعود فدفنه ، وبكاه ، وقال صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولقد كانت هذه الغزوة رحلة ، اسلامية الى حيث آثار عاد وثمود ، فمر بها ، ولقد مر بالحجر ، فسجى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثوبه على وجهه واستحث راحلته ، ثم قال لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا

انفسهم ، الا وأنتم باكون ، خوفا من أن يصيبكم مثل ما أصابهم فهو يدعو الى الاعتبار بالآثار ، لا بمجرد التطواف بالرسوم من غير نظر الى ما تدل ٠

وبينا المؤمنون سائرون أصابهم عطش شديد ولا ماء يروون به غلتهم ، فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدعا عليه السلام ، واستسقى ، فأرسل الله سبحانه مملوءة ماء ، فأمطرت ، والقت حمولتها ، وارتوى الناس ، واحتملوا معهم ماء يرويهم عند حاجتهم الى الماء ٠

ولقد ضلت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخبر عن مكانها وبعث بعض الناس فوجدها وقد مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، في لأواء الصحراء وشدتها ، والمؤمنون الذين نصحوا لله ولرسوله ، يركبون الصعاب وهم حوله يعاونونه ، ويشدون من أزره ، وكان بعض الذين تخلفوا منهم منافقون لا يكتفون بأن يكونوا مع الخوالف ، بل يتهكمون ويسخرون من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ، وهو في منطلقه الى تبوك يقولون : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب ، والله لكأننا بكم غدا مقرنين بالجبال يقولون ذلك ارجافا وترهيبا ٠

ولقد بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا ، فأتوا اليه يعتذرون ، يقول قائل انما كنا نخوض ونلعب ، فقال الله تعالى :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (١)

كان ذاك أمر الذين نصحوا لله ولرسوله ، وأخلصوا ، وهذا الذي ذكرناه شأن الذين رضوا بالقعود ، وأولئك يقطعون الفيافي والقفار ليصلوا الى الغاية التي يتحقق فيها أمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد وصلوا سالمين وعادوا سالمين ٠

[illegible] الى تبوك وخطبته :

٦٥٠ ــ وصل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان الى تبوك من أرض الشام ولم يلق حربا ، لأنه لم يجد جندا من جنود

---

(١) التوبة

الرومان يحـــاربهم ، وقـــد عقـــدعقود ذمة مع بعض النصارى ، وأرسل سرايا لمن لم يكـــونوا في طـــريقه ،وسنشير اليها ٠

والآن نذكر أنه عندما وصل الىٰ تبوك ، وقف بجوار نخلة هناك ، وألقى خطبة فيها حكمة النبوة ، وخلق الرسول ، وهي أجمع الخطب في الأخلاق ، رواها الامام أحمد رضي الله تعالى عنه،وهذا نص الرواية :

أن رسول الله صلى الله تعالى عليـهوسلم ، خطب الناس ، وهو مسند ظهره الى نخلة فقال :

الا تحبون أن أخبركـــم بخـــير الناس وشر الناس ، ان من خير الناس رجـلا عمل في ســـبيل الله على ظهرفرســـه ، أو على ظهـــر بعيره ، أو على قـــدمه حتى يأتيه المـــوت ، وان منشر النـــاس رجـلا فاجرا جريئا العرى كتـــاب الله لا يرعـــوي الى شيء منه ٠

وروى البيهقي بسنده لما أصبح رسول الله صلى الله تعـالى عليــــه وسلم فحمد لله تعالى ، وأثنى عليــه بما هوأهله ثم قال :

أيها الناس ، أما بعد ، فان أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأوثق العرا كلمة التقوى ، وخير الملل ملة ابراهيم، وخـــير السنن سنة محمد ، وأشرف الحـــديث ذكـــر الله تعالى ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمـــور عوازمها ، وشر الأمـــور محـدثاتها ،وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهـــداء ، وأعمى العمىالضلال بعد الهدى ، وخير الأعمـــال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبـع ، وشرالعمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مماكثر والهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ،ومنالناس من لا يأتي الجمعة الا دبرا ،ومن الناس من لا يذكر الله تعالى الا هجرا ،ومن أعظم الخطايا اللسان الـكذوب ، وخير الغنى غنى النفس وخـــير الزادالتقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجـل وخير ما وقر في القلوب اليقين ،والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والشعر من ابليس ، والخمرجماع الاثم ، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون،وشر المكاسبكسب الربا ، وشر المآكل أكل مـــال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره وانمايصير أحدكم الى موضع أذرع الأمـــر الى

الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألى على الله تعالى يكذبه ، ومن يستغفره يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لي ولأمتي ، اللهم اغفر لي ولأمتي ، اللهم اغفر لي ولأمتي ، قالها ثلاثا ، أستغفر الله لي ولكم هذا الحديث بهذه الخطبة رواه البيهقي ، ولكن قال فيه الحافظ ابن كثير : « هذا حديث غريب فيه نكارة وفي أسناده ضعف ، والله أعلم بالصواب » .

ولعل روايته مجتمعا هكذا هو الذي كانت فيه النكارة وكان فيه الضعف في اسناده وذكرناه، لأن أجزاءه لا يمكن أن يكون فيها نكارة ، كل واحد منها بمفرده .

وكله حكم رائعات ان لم تكن حديثا صحيحاً فهي في أجزائها من جوامع الكلم الذي اتصف بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وليس لنا أن نكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونقول عنه ما لم يقل ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه في حديث متواتر أو شبه متواتر : « من كذب علي متعمداً ،فليتبوأ مقعده من النار » .

ولكنا نقلنا هذا الكلام كما نقله الحافظ البيهقي ، وانه يسعنا ما يسعه والعلم عند الله .

٦٥١ – لم نجد في تبوك معركة حربية، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذهب الى الروم لما علم أنهم يجمعون جيشاً وأنفق قيصر الروم على هذا الجشين رزق عام، سبق به لتتوافر أعطيات الجند، وذلك ليفرض ارادته ونفوذه على العرب كما كان، وقد هزته مؤتة بكثرة القتل في الرومان وان انسحب جيش النبوة انسحاباً ليس فرارا، وخافوا أن يتبعوه، ولكي يقضي أولئك النصارى على هذا الدين الجديد، الذي يقوض الدولة الرومانية في الشام على الأقل.

ولم يكن النبي لينتظر في المدينة، بل انه يجيء اليه، وقد جاء اليه في جيش يريد الاستشهاد، فلما علم ذلك هرقل وقواده، وقد ذاق جيشه الذي كان مائتي ألف أمام ثلاثة آلاف تردد في اللقاء، ويظهر أنه لم يستطع أن يستعين بمن حول الشام من الأعراب كما كان في مؤتة، ولذلك فض جمعه، ولم يلاق المسلمين فلم يلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حرباً، ولم يكن من نتيجة لتبوك الا أن أرهب الله الرومان فارتدوا على أدبارهم خاسرين، واقتصر النبي من انسحاب جيشه بتخاذلهم عن لقائه.

وكان لابد من منع الفتنة في الدين الذي تكرر منهم، ولذلك أوصى بارسال جيش أسامة اليهم، ليعلمهم أن أهل الايمان لا يسلمون مسلماً أو يخذلونه.

واذا لم تكن ثمة نتائج حربية الا هذه الصورة التي ذكرناها، فقد كانت هناك نتائج أخرى لا تقل آثارها عن النتائج الحربية بل تزيد عليها.

أولها – أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم أحوال القبائل العربية التي تتاخم الشام من صحراء العرب، والقى في نفوس أهلها روح العزة الاسلامية لكيلا يكونوا من بعد ذلك للرومان تبعاً يضربون بسيوفهم العرب، ويكونوا شوكة في جنب، وليريهم أن الرومان فروا من لقائه، وبذلك

يستهينون بالرومان ، ويمزقون نفوذهم، ويستعدون لينالوا من الرومان ، ويضربوهم بالسيوف الاسلامية ، كمـاكان في واقعة اليرموك من بعد ٠

ثانيها ــ ان كلمة الاسلام أخذت تتردد في الشام بين نصارى غسان ، فكثر التابع ، وقل المانع وعلم أولئك العربأن المستقبل للاسلام في تلك الأرض ، لأنه دين الله ودين الحق الواضح الذيلا ضلال فيه ، وأنه الدين المستقيـــم الذي لا التواء في معانيـــه ، وبذلكلا يناصرون الرومان ، ولذلك كـانت واقعة اليرموك في الشـام بين الرومانوالمسلمين ، ولم يكن للعرب دور فيهـا يعاونون الرومان به ٠

ثالثها ــ أن الفكر الاسلامي أخـذ يتلاقى مع النصارى وتميزت الحقائق الاسلامية لدى كبراء النصارى ، ومنأسلم منهم كان له اسلامه ، ومن لم يسلم كان عقد الهدنة ، وكانت بعض السراياتذهب في الأرض القريبة من الشام ٠

ولعل أبرز الاتصال بين مباديء الاسلام ، والنصارى مكاتبة قيصر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

٦٥٢ ــ لما نزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك بعث اليه قيصر كتابًا بعد أنه لم يبعث جيشا ، روى الامام أحمد أن قيصر الروم قال : « ادع لي رجلا حافظا للحديث عربي اللســانأبعثه الى هذا الرجل بجواب كتابه (أي الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليـــهوسلم أيام الهدنة) فجيء بالرجل فدفع اليه الكتاب ، واسم الرجل التنوخي ،والقــول عن الكتاب يسند اليه ، فهـو يقول جاءني فدفع هرقــل الي كتابا ،فقال اذهب بكتابي هذا الى هذا الرجل، فما سمعت من حديثه ، فاحفظ لي منهثلاثا ، فلينظر في صحيفته أكتب الي بشيء ، وانظــر اذا قـــرأ كتـابيهل يذكر الليل ، وانظر في ظهره ، هل به شيء يريبك ٠

قال الرجــل فانطلقت بكتابه حتىجئت تبوكا ، فقلت أين صاحبكم ؟ قيل ها هو ذا ، فاذا هو جالس بين ظهــرانأصحابه محتبيا على الماء ، فاقبلت أمشي حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابيفوضعه في حجره ، ثم قال من أنت ؟

فقلت أنا أخو تنوخ ، قال هل لك الى الاسلام الحنيفية ملة أبيكم ابراهيم؟ قلت اني رسول قوم ، وعلى دين قوم لا أرجع عنه ، حتى أرجع اليهم ، فضحك وقال : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ، يا أخا تنوخ اني كتبت بكتابي الى كسرى والله ممزقه ،وممزق ملكه ، وكتبت الى صاحبك بصحيفة فامسكها ، ولن يزال الناس لا يجدون منه بأسا ما دام في العيش خير ، قلت هذه احدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي ، فأخذت سهما من جعبتي ،فثبته في جنب سيفي ، ثم أنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره قلت من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا معاوية ، فاذا في كتاب صاحبي تدعوني الى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار » فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبحان الله ، فأين الليل اذا جاء النهار ؟ قال فأخذت سهما من جعبتي ، فألقيته في جلد سيفي فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال ان لك حقا ، وانك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ،انا سفر مرسلون ، قال فناداه رجل من طائفة الناس : أنا أجيزه ، ففتح رحله فاذا هو بحلة صفورية ، فوضعها في حجري ، قلت من صاحب الجائزة ؟قيل لي عثمان ، ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أيكم ينزل هذا الرجل ، فقال فتى من الأنصار : أنا فقام الأنصاري وقمت معه حتى اذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا أخا تنوخ ، فاقبلت أهوي ، حتى كنت قائما بمجلس في مجلسي الذي كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره ، فقال ها هنا أمض لما أمرت به فجلت في ظهره فاذا أنا بخاتم النبوة في موضع غضون الكتف » .

انفرد برواية هذا الحديث الامام أحمد بن حنبل في مسنده ، ولم يكتب في الضعاف التي قيل انها أحصيت في المسند ، وقال فيه الحافظ بن كثير « هذا حديث غريب ، واسناده لا بأس تفرد به الامام أحمد » .

وما دام الخبر لا مطعن فيه ، وأخبار الثقات تقبل لأن الأصل في خبر الثقة أن يكون صدقا ، واننا بهذا نقرر أن تبوك كانت موضع ذلك الاتصال الفكري الذي التقت حقائق الاسلام بما عند النصارى ، وأصلحت الأفهام وتشفت الأوهام .

٦٥٣ ـ قلنا أن الوصول الى تبوك أتى بخير كثير ، فقد كان الاتصال الفكري والسياسي ، وقد ذكر خبر مكاتبة هرقل والنبي في تبوك ، وقلنا ما فيه ، وركنا الى صدقه قبولا لأخبار الثقات ٠

والآن نذكر خبراً مشهوراً ، وهو أن ملك أيلة أتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأسمه يحنة ابن رؤبة ، فصالح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل خرباء وأذرح ، فأعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتاباً بذلك ، وقال ابن اسحاق انه عندهم ٠

وهذا نص كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليحنة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة ابن رؤبة وأهل أيلة سفنهم ،وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله تعالى ، وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، واهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر ٠

ونرى أن هذا العهد الذي أعطى صاحب أيلة عهد يعم ، ولا يخص ،فهو لا يقصر على أهل أيلة ، بل من معه من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، والمعية المذكورة هي التي يجمعها النصرانية واذا كان أهل اليمن وهم في الجنوب ليسوا معه في الحكم والسياسة ، فهم معه في الملة والاتباع الديني ، فعقد الذمة يسري على هؤلاء جميعاً ، اذا التزموا شروطه ، ويكون الذي عقد هو فيه صاحب أيلة ، فمن يعلمه منهم ، ويأخذ بحكمه فهو منهم ٠
وبذلك العهد يكون قد أخذ أكثر نصارى العرب يفدون اليه ٠

وكتب مثل هذا الصلح الى جهم بن الصلت ، وشر حبيل بن حسنة ، أو اذن لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يكون لهما ما اشتمل عليه من حقوق ٠

وكتب مثله لأهل جرباء وأذرح ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله تعالى ، وأمان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ومائة أوقية ، وأن الله تعالى عليهم كفيل بالنصح ، والاحسان الى المسلمين ، ومن لجأ اليهم من المسلمين .

وهكذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعقد العقود الخاصة بالسلم بين المسلمين والنصارى ومهد السبل للمسلمين يسيرون في تلك الديار دعاة للاسلام ، ولا شك أن هذه نتيجة من أعظم النتائج التي تتفق مع الدعوة الاسلامية ، فما جاء محمد محاربا ، ولكن جاء هاديا مبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله تعالى عليه وسلم .

لم يكتف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقود يعقدها ، وهو في تبوك بل أرسل السرايا الى القبائل الشمالية القريبة من تبوك ، يسالمهم .

سرية خالد إلى أكيدر دومة

٦٥٤ ــ أرسل الى أكيدر بن عبد الملك ، من كنانة ، كان ملكا على دومة ، وكان نصرانيا ، وقد كان في هــذهالسرية عشرون وأربعمــائة فارس ، ودومة هي دومة الجندل ، وقال البيهقيكان الجيش مكونا من المهاجرين ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، وكان خــالدعلى رأس الأعراب ٠

وان رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم عندما أرسل هذه السرية ، قــال لخالد : « انك ستجده يصيد البقر »وهذا يدل على أنه أمير لا يعنى بالجد من الأمور ٠

خرج خالد حتى دنا من حصنه ، وصار منه بمنظر العين ، وكان ذلك في ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح لهومعه امرأته ، وباتت البقــر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته: « هل رأيت مثل هذا قط ، قــال ٠ لا والله ، قالت فمن يحرك هذه ؟ قال لاأحد ، عندئذ نزل بفرسه ، وقيــل انه ما كرهم قبل أن ينزل ٠

وكان معه نفر من أهل بيته فيهم أخله يقال له حسان ، خرجوا ، فتلقتهــم خيل رسول الله صلى الله تعالى عليــهوسلم ، فأخذته وقتلوا أخاه ، لأنه أخذ يقاومهم ٠

وأكيدر هذا مرفه فاكه في نعيم ،عليه ديباج مخوص بالذهب فاستلمــه خالد ليبعث به الى رسول الله صلى اللهتعالى عليه وسلم ٠

وقد راع الديباج أصحاب رســولالله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعلوا يلمسونه بأيديهم ، ويتمجبون وقــدلفتهم رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم عن افتنانهم بهذا الثوب الذي هومن نعيــم الدنيا الذي يطغى وأخــذ يدعوهم الى نعيم الآخرة ، فقال عليــهالصلاة والسلام ، أتعجبون من هذا ، فوالذي نفسي بيده لمناديل سعــد بنمعاذ في الجنة أحسن من هذا وقــد

عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع أكيدر عقده على أن يقدم اليه الجزية ٠

ولقد روى الواقدي أنه كان مع أكيدر ألفا بعير ، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، ومهما يكن من صحة هذه الرواية فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خلى سبيله وعاد الى قريته ويظهر أنه ما خلى سبيله الا على أساس الذمة ، فيكون هو ومن معه على الذمة، كما ذكر الواقدي ومما يذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يصطاد البقر ، ففي هذه الموقعة كانت البقر هي التي اصطادته لأنها دقت بقرونها الباب ، فنزل من أعلى حصنه، فاصطاده جيش خالد ، ثم كان عفو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفي رواية البيهقي أن سرية خالد الى أكيدر واستسلامه هي التي حملت يحنة صاحب أيلة على المجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعقده معه عقد الذمة ٠

عودة المسلمين من تبوك

٦٥٥ ـ كانت غزوة تبوك غزوةمباركة ، كانت الدعوة الى الاسلام هي لبها وغايتها ، ونهايتها ، فقد نشرالاسلام بها في شمال البلاد العربية ، واستأنس به العرب في هذه الأقاليم ،وأخذ يسري نوره في الشام ذاته ، مما كان تمهيداً لجيوش المسلمين لفتحه ،حتى تكون المواقع من مواجهة بين الاسلام والرومان ، والعرب ، ومنهم عرب الشام ، اذ غزوا باسم الاسلام •

وقد عاد النبي بعد ذلك الى المدينة ،ويقول ابن اسحاق أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك بضع عشرةليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلا الى المدينة •

ويفهم من هذا أن مدة الاقامة بتبوك بضع عشرة ليلة لا تدخل فيها مدة السفر ، ذهابا وأوبة ، وقد ألف فيهذه المدة الناس ، وعقد عقود ذمة ، وأزال سطوات ناس ما كان يهمهم الاالترف والصيد ، وأوصل دعوة الاسلام الى الأراضي المصاقبة للرومان لكيلاتكون لهم قوة منهم اذا اشتدت الشديدة، وقامت الحرب بين المسلمين والرومLتزول فتنة المسلمين في بلادهم •

وقد حدثت وهم في الرجوع خوارق للعادة على يد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وان ذلك لكثير في حياتهصلى الله تعالى عليه وسلم ، تتبعه دلائل النبوة وتسايره ، وحيثما كان في حلهوترحاله بينا رسول الله تعالى يسير ، والعطش شديد ، والماء نادر ، والأرضصحراء رملة وكان في الطريق ماء يخرج من وشل ينحدر قليلا من مرتفع،فنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يستقي منه قبل أن يصل ،فاستقى منه ناس ، فاستقوه ، اذ لا يسقي الا راكباً أو راكبين الى ثلاثة •

فلما جاء اليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد ماء ، فدعا على الذين استقوه ، ثم وضع يده تحت الوشل (المكان المرتفع) ودعا رسول الله

ما شاء أن يدعو الله تعالى ضارعا اليه‌فانخرق ، ويقول في وصفه ابن اسحاق « ما ان له حسا كحس الصواعق ،فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لئن بقيتم أو من بقي منكم ، لتسمعن بهذا الوادي » .

وان هذه الحال كحال موسى اذ استقى لقومه فضرب الحجر فانبثق منه اثنتا عشرة عينا ، فقد قال الله تعالى في ذلك :

﴿ * وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

انها نبع النبوة وصل اليه موسى بعصاه ، ووصل اليه محمد بيده ، فقد نشز الأرض يقطر قليلا فمسه محمد فاتخرق ، وصار له حس كحس الصواعق ، كما قال ابن اسحاق .

٦٥٦ ــ ان القائد يجب أن يكون محبا لجنده يحنو عليهم كما تحنو الأم على ولدها ، لأنهم خرجوا مقدمين أنفسهم في سبيل الله تعالى ، غير مدخرين مالا ، تاركين الأهل والولد ، والراحة،فلا جزاء لهم الا جنة الله في الآخرة ومظاهر التكريم في الدنيا .

وقد مات أحد الغزاة في الطريق ،وكان مؤمنا صادق الايمان ، قاوم في سبيل الاسلام قومه حتى نازعوه ثوبه،ذلكم هو عبد الله ذو البجادين قد مات ، فتولى دفنه محمد رسول الله صلى‌الله تعالى عليه وسلم ووزيراه أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فهو يقول ، راويا عن عبد الله بن مسعود قال : « قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة تبوك ،فرأيت شعلة من نار في ناحية المعسكر، فاتبعتها أنظر اليها ، فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر

(١) البقرة

وعمر واذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات ، واذا هم قد حفروا له ،رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في حفرته،وأبو بكر وعمر يدليانه ، وهو يقول أدنيا الي أخاكما ، فدلياه اليه ، فلما هياه بشقه قال : « اللهم اني أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه ، فيقول عبد الله بن مسعود : يا ليتني كنت صاحب هذه الحفرة » .

ويقول ابن هشام في سبب تسميته بذي البجادين أنه كان ينزع الى الاسلام فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره والبجاد الكساء الغليظ الجافي ، فهرب منهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما كان قريبا من الرسول شق البجاد اثنين ، فائتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، فقيل له ذو البجادين لذلك .

انظر الى تكريم النبي الأمين المجاهد للمجاهدين ،لا يتركهم للذئاب تنوشهم، بل يكرمهم في مماتهم ، كما يكرمهم في محياهم ، ليقدموا على الفداء كراماً .

عصمة الله لنبيه

٦٥٧ ـ قال الله تعالى :

﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾(١)

فالرسول دائب على الدعوة لا يني ، ينتقل في لأواء الصحراء من مكة الى المدينة وما بينهما ، ثم يتجاوز الفيافي والصحارى ليكون في أرض الشام شامخا بالرسالة الالهية على الرومان ، ومن يتبعهم ، ومن يخضع ، فاذا لم يكن الله تعالى عاصمه ، من الذين يريدون به السوء في كل مكان من هذه الجرداء، فمن يكون العاصم غير الله تعالى القوي الجبار .

لقد تسلل الى جيش الاسلام بعض المنافقين ، ورجع المدينة طائفة منهم ليخذلوا المؤمنين ، وبقيت أخرى لتخذل اذا سنحت لها الفرصة في السير ، أو في المعترك ، ففوت الله تعالى عليهم الفرصة التي ينتهزون أمثالها دائماً .

ولما تمت أمور تبوك ، وتحولت الى دعاية اسلامية صادقة ، ولم تكن معركة قتال ينفثون فيها سموم التردد والهزيمة ، ووجدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم راجعاً بجيش العسرة ، وهو في يسر وأمن وسلام واطمئنان ائتمروا بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومكروا محاولين أن يطرحوه من عقبة عالية في الطريق ، واذا كان قد أراد الخائنون اخوانهم أن يرموا عليه حجراً ثقيلا وهو جالس بجوار جدار لهم ، فقد أراد الخائنون من المنافقين أن يطرحوه من فوق عقبة في الطريق ، ولكن الله تعالى أعلمه بما بيتوا في الثانية كما أعلمه في الأولى .

لما بلغوا العقبة التي كان تدبيرهم الخبيث ومكرهم السيء عندها ، فلما بلغها صلى الله تعالى عليه وسلم أمر الجند أن يسيروا في بطن الوادي ، وقال:

---

(١) المائدة

من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي ، فانه أوسع لكم ، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العقبة ، وأخذ المسلمون وكل الجيش بطن الوادي الا الذين ائتمروا ، وبيتوا الشر فقد أخذوا العقبة التي أخذها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لينفذوا ما مكروا به ، ومكروا مكرا ، ومكر الله تعالى مكرا ، والله خير الماكرين ٠

لقد علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكرهم الخبيث ٠

ان أولئك المنافقين لما علموا ذلك ،وما اتخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنفسه من طريق استعدوا وتلثموا ، فأخفوا وجوههم لكيلا يعرفوا ، فعرفوا بذلك التلثم الذي أرادوا أن يستتروا به ، فكشفهم المسلمون به ٠

لقد هموا بأمر عظيم ، وهو أن يطرحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من فوق العقبة ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يلازمه عمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ،وأن يمشيا أمامه ، على أن يأخذ عمار بن ياسر بزمام الناقة ، وأمر حذيفة بسوقها ٠

وبينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في سيره هو ومن معه ، اذ سمعوا وكز أولئك الذين تآمروا لركائبهم ، وتدفعها عليهم ، وقد أدرك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماذا يريدون حسا ، بعد أن علم بنياتهم من الله ، وقد ساروا وراءهم من غير أن يعلموا ، وظنوا أنهم مدركون ما يريدون ٠

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حذيفة ، وهو الذي يسوق الدابة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبدا ما يتوقعه عليه الصلاة والسلام من شرهم في وجهه ، فرجع حذيفة ، ومعه المحجن ٠

رآهم حذيفة ملثمين ، واستقبل وجوه رواحلهم ، فضربها في وجوهها بالمجن ضربا ، وأبصر القوم وهم ملثمون ، وظن أن ذلك فعل المسافر ، يتقي باللثام حر الشمس ، أو حرور الهواء ولكن المتآمرين فزعوا واضطربوا بافزاع الله تعالى لهم ، شأن من يريد جريمة ويشرع فيها اذ أنه يضطرب عندما يظن أن أمره قد كشف ، فيفزع من تتميمها ويتراجع ٠

ولذلك أسرع أولئك الملثمون المتآمرون الى الاندماج في وسط الناس في بطن الوادي وأبطل الله تعالى كيدهم ٠

بعد ذلك رجع حذيفة الى رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أدركه ، قال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : اضرب الراحلة ياحذيفة، وامش يا عمار ، فأسرعوا حتى استووا ، بأعلاها ، ثم من بعد ذلك خرجوا من العقبة ، وهم ينتظرون الناس ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحذيفة وهو الذي كان يسوق الناقة اذهب ، وأرسله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فذهب اليهم ومن معهم ، وتبين به أنه انكشف أمرهم قال الرسول له هل عرفت من هؤلاء الركب أحداً ؟

قال حذيفة عرفت راحلة فلان ،وفلان ، وكانت ظلمة الليل ، قد غشيتهم وهم ملثمون ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل علمتم ما كان شان الركب وما أرادوا ٠

قالوا : لا يا رسول الله ، قال فانهم مكروا ليسيروا ورائي ، حتى اذا طلعت الى العقبة طرحوني منها ٠

قالوا اذن نضرب أعناقهم ، قال أكره أن يتحدث الناس ، أن يقولوا ان محمداً قد وضع يده في أصحابه« أي بالقتل » ٠

ويقول ابن اسحاق في هذه القصة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ان الله قد أخبرني بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وسأخبر بهم ان شاء الله تعالى عند وجه الصبح ، فانطلق(والخطاب لحذيفة) حتى اذا أصبحت فاجمعهم ، وقالوا انه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبره وفي ذلك كلام بين الرواة ٠

ومهما يكن فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى حذيفة بالا يذكر أسماءهم ، وهم منافقون ، وقيل كان حذيفة عنده العلم بأسماء المنافقين ، وكان هذا سر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسره اليه حتى قيل انه اذا مات أحد بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعرفوا حال حذيفة ، معه ، فان رأوا حذيفة صلى عليه علموه مؤمناً غير منافق ، وان لم يصل عليه كانوا في ريب من أمره ٠

٦٥٨ ـ كان من أولئك الذين ائتمروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليطرحوه من فوق القمة أو من التقوامعهم في قلوبهم ، من أنشئوا مسجد الضرار ، وقد ذكروا انشاءه قبل سفرالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يجهز الجيش ، ويجمع النفقة والرواحل، ويدعو الجميع أن يخرجوا معه •

جاءوا الى الرسول وهو في هذه الحال ، فقالوا يا رسول الله ، انا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ، والليلةالمطيرة الشاتية ، وانا نحب أن تأتينا فنصلي فيه ، فقال عليه الصلاة والسلامإني على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ان شاء الله تعالى لصلينا لكم فيه•

وبينما هو في عودته ، وهو (بذيأوان) موطن بينه وبين المدينة نحو ساعة جاء خبر هذا المسجد من السماء،ونزل فيه القرآن اذ يقول سبحانه وتعالى في بنائه ومن بنوه :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾ (١)

---

(١) التوبة

لما نزل ذلك القول الحكيم من عنـد علام الغيوب الذي يعلم ما تخفي الأعين وما في الصدور .

والواضح أن الذي بناه طائفة من المنافقين وليسوا من الأنصار ، الا أن يكونوا من الأوس والخزرج الذي كان المنافقون ينتمي كثير منهم الى الخزرج، ولا يمكن أن يكونوا من أنصار الله الذين أوذوا ونصروا ، الذين يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة .

والآية الكريمة واضحة في البواعث التي بعثتهم لبنائه انما اتخذوه ليضاروا المؤمنين الذين يلازمون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مسجده والمساجد التي بناها كقباء وغيره ، التي أسست على تقوى من الله تعالى ورضوان ،وانهم يريدون بذلك تفريق المسلمين بترويج ما يفرق جماعتهم ، وبث الفتن والسوء فيها ، وليترصدوا فيه ويترقبوا من يحارب الله ورسوله ، ومن تأتمرون معهم .

ولقد قال لهم بعض الذين لم يدخلوا في الاسلام « ابنوا مسجدكم ، واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فاني ذاهب الى قيصر الروم ، فآتى بجنده من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه » .

وأن هذا المقصد السيء واضح من أن البناء كان والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتجهز ، بجمع الجموع للذهاب الى تبوك ، وقد كانوا يتوقعون ما يتمنون ، وهو انهزام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وجيشه أمام الرومان، ولذلك دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من صحابته ، فقال انطلقا الى هذا المسجد الظالم فاهدماه وحرقاه فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم ابن عوف فقال أحدهما لصاحبه ، انظرحتى أخرج اليك بنار من أهلي ، وهم بنو سالم بن عوف وذهب الى أهله ،فأتى بسعف من النخل ، فأشملا فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، فتفرقوا عنه .

ولقد خيب الله ظنهم ، فقد تخاذل الرومان عن أن يلتقوا مع جيش الاسلام ، وذهب عنهم ما كانوا يتحدثون فيه من كلام منبعث من نفاقهم اذ جاء على لسانهم أن المسلمين لا يستطيعون جلاء الروم ، فقد خاف الروم ولم يخف رجال محمد الذين قدموا أنفسهم لله تعالى .

٦٥٩ ـ انقسم المؤمنون الذين دعاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند الخروج الى تبوك الى ثلاثة أقسام :

وأول الأقسام وأظهرها ، وهم قوة الاسلام الأولى ، الذين شروا أنفسهم لله بأن لهم الجنة يقاتلون ويقتلون ، وهم الذين تقدموا للذهاب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين قال تعالى فيهم :

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ (١)

والقسم الثاني جماعة تخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنهم منافقون ، ومنهم ضعفاء الايمان ، ومنهم من فيه خور ، وضعف ،وفي كل أحوالهم ليسوا من أقوياء الايمان الذين يفدونه بأنفسهم وأموالهم ، وراحتهم .

وأولئك اعتذروا وقبل النبي اعتذارهم ، وبعضهم كاذب لا محالة ، وقال فيهم سبحانه وتعالى :

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) التوبة

عندما دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى ركعتين ، ثم جاء اليه المخلفون الذين تخلفوا لمرضهم وضعفهم ، والذين لا يجدون ما يحملهم ، فكان عذرهم باديا ، يسقط تكليفهم هذا الخروج الذي لا يكون الا على أهل القوة والسلامة ، والذين يجدون ما ينفقون ، ولا ما يحملهم ، فالله تعالى قد أسقط عنهم الحرج بقوله تعالت كلماته :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ (١)

والباقون القادرون الأغنياء تقدموا بالاعتذار للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطفقوا اليه يعتذرون ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا ،فقبل منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أظهروه ، وكما يقول ابن اسحاق قبل علانيتهم ، وبايعهم ، ووكل سرائرهم الى الله تعالى ، وهو يعلم أنه أن رضي عنهم ، لا يرضى عنهم الله سبحانه وتعالى ، ولكنه مامور بالا يحكم الا بالظاهر ، واذا قبل الظاهر ، فقد يسيرون في تحسين الباطن •

القسم الثالث ـ من أخلصوا دينهم لله تعالى ، ولكنهم تخلفوا من غير معذرة ، ولم يرتضوا الكذب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخير لهم أن يعترفوا بتقصيرهم عن أن يكذبوا على رسول الله ، وهؤلاء ثلاثة ، لم يعدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا من أقوياء الايمان ، ولكن غلب هواهم في القعود في ساعة التجهيز أو غلب فيهم ضعف وقتي ، واحساس ببعد الشقة ، فرضوا أن يكونوا مع الخوالف ، ولكن فيهم قلوب ، لم يطبع عليها كأولئك الذين طبع الله على قلوبهم •

لذلك كان لابد من علاج نفسي لهذه القلوب التي لم ترن عليها رواني الاثم المقصود ، وان كان تقصير فقد أدركوه ، وكان ذلك العلاج الذي رآه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وماكان ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، وذلك بالاعراض عنهم ، ومهاجرتهم ، وذلك لايقاظ نفوسهم ، وتعويدهم الصبر ، وكانت هذه العقوبة تشبه الكفارة بالصوم ستين يوما متتابعة ، لأنها تكون تربية للنفس وتهذيبا ، لقد أعرض عنهم المؤمنون

---

(١) التوبة

خمسين يوما ضاقت عليهم الأرض بمارحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ،وظنوا أن لا ملجأ من الله تعالى الا اليه .

ولنترك الحديث عنهم وعن نفوسهموعن معاملة المسلمين الى الذي تحدث بعوالج نفسه ، وما تلقاه وما كان فيهمن صبر فريد وهو كعب بن مالك .

« جاء كعب بن مالك ، فلما سلمعليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، تبسم له تبسم المغضب ، ثم قال تعال ، قالفجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال ما خلفك ! ألم تكن قد ابتعتظهرك » .

فقلت بلى والله ، اني لو جلست عندغيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ،ولكني والله لقد علمت ان حدثتك اليوم حديث كذب ترضى علي ليوشكن الله تعالى أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه على اني لأرجوفيه عفو الله عني والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى مني ولاأيسر حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما هذافقد صدق فقم ، حتى يقضي الله تعالى فيك ، فقمت ، وكان رجال من بنيسلمة ، فاتبعوني يؤنبوني فقالوا لي، والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبلهذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلمبما اعتذر اليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم لك ، فوالله مازالوا يؤنبونني ، حتى أردت أن أرجع ،فأكذب نفسي ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي احد ؟ قالوا نعم رجلان قالامثل ما قلت ، فقيل لهما مثل الذي قيل لك ، فقلت من هما ، قالوا مرارة بنالربيع العامري ، وهلال بن أمية ، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرا،فهما أسوة ، فرضيت حين ذكرا لي ، ونهى رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لناحتى تنكرت لي الأرض ، فما هي بالتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسينليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنتأشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوففي الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلمفأسلم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حركشفتيه يرد السلام علي أم لا ، ثم أجلس

قريبا منه ، فأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتي أقبل الي واذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى اذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس الي ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أباقتادة أنشدك الله، هل تعلمني أحب الله، ورسوله ، فسكت ، فعدت له انشدته ،فقال الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أناأمشي بسوق المدينة واذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه في المدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون اليه حتى اذا جاءني دفع الي كتابا من ملك غسان فاذا فيه :

« أما بعد فانه بلغني أن صاحبك جافاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت التنور فسجرتها حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين اذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتيني فيقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمرك أن تعتزل النساء فقلت : أطلقها ، أم ماذا،قال : لا ، ولكن اعتزلها ولا تقربها وأرسل الى صاحبي مثل ذلك ، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت : يا رسول الله ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ، قال:لا، ولكن لا يقربك ، قالت : والله انه ما به حركة الى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره الى يومه هذا ، قال كعب :فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما ندري ما يقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ، ولبثت بعد ذلك عشر ليال حتى اذا كانت لنا خمسون من حين نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا ،بينما أنا جالس على الحال في ذكر الله تعالى ، قد ضاقت علي نفسي وضاقت علينا الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا ، فعرفت أن قد جاء فرج الله تعالى ، وآذن له رسول الله بتوبة الله تعالى علينا ، حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبلي صاحبي مستبشرين » .

هنأه الناس فلم يقبل تهنئتهم وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الرسول الكريم المربي المكمل أبشر بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك قال له مالك أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله ، قال لا ، بل من عند الله

صفت نفس الرجل ، وتهذب ، وخرج من كل ماله صدقة لوجه الله تعالى ولرسوله ، فقال له الرسول أبق بعض مالك ، فابقى سهمه من الغنائم التي استولى عليها المسلمون في خيبر •

ولقد خص الله سبحانه وتعالى أولئك الذين تخلفوا في الأرض بذكر قبول توبتهم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع المهاجرين والأنصار فقال تعالى كما تلونا :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (١)

٦٦٠ ـ ذكرنا حديث كعب بن مالك مع طوله ، لأنه حديث النفس التائبة النادمة التي زلت ، وحديث الندم بعد الزلل ، وكما يقول الصوفية : ان زلة أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا ، لقد ذل لله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه أحس بالنفس اللوامة تحركه الى ارضاء الله ورسوله •

وقد مكث خمسين ليلة بذكر الله في كل ساعاتها ، ويحس في كل آنية منها بوخز ضمير ، وما يوقظ ذلك الوخز يرى في نظرات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي نظرات الناس ، وفي الأسواق ، وهو يصابر نفسه ويجيء

(١) التوبة

خطاب من ملك غسان يطلب أن يلتحق،فيراها نكبة أخرى ، ويجيء الى التنور ليسجره فيه ، وهكذا وان هذه القصة تدل على أمرين :

أولهما ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى في هذا الرجل وصاحبيه خيرا لم يره في غيرهما من الذين اعتذروا ومنهم منافقون ، وضعاف الايمان أما هذا فقد أبدى صفحته ، ولم يرض في موقفه بالاعتذار ، ولا يريد أن يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو موقف طاهر وقلب طاهر ، ولكن علق به درن قليل ، يمكن أن يزول ، ولا يتوب عليه الله ورسوله، وفيه هذا الدرن ، ويريد الرسول أن تكون منه توبة نصوح تليق بالمؤمن الصادق في ايمانه ويقينه ، فكانت هذه لتكون منبها يستمر خمسين ليلة ،وكأنه اعتكف خمسين ليلة ، منصرفا فيها الى الله تعالى ، حتى كانت القاطعة التي حملت الثلاثة على الاعتكاف ، فاعتكف اثنان ، وصار الثالث بين الناس ، وكأنه بينهم ، فهو الغريب بين أصحابه وأهله ، حتى أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبول توبتهم •

الأمر الثاني ـ الذي يدل عليه ذلك الخبر أن الانسان خلق ليأتلف مع غيره يتلمس التشجيع النفسي من نظرات ، وملامح الوجوه ، ومظاهر الأقوال والأفعال والجوارح التي تصدر عن الناس ، وان الاستنكار النفسي يفعل في نفوس الأخيار مالا تفعله العقوبات بالنسبة للأشرار ، فالذين يستهينون بالاستنكار القلبي في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع ،فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه » مخطئون وما كان عقاب هؤلاء الثلاثة الا استنكارا قلبيا بدا في الوجوه والجوارح ولم يبد في القول •

وان هذا الذي سنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يجب علينا اتباعه ، فلا يصح لنا ، أن نبش في وجوه الأشرار ، ولا الذين يرتكبون الآثام ، لأنه عسى أن يثير ذلك ضمائرهم فتلوم ،واذا كان النبي قد فعل ذلك مع ثلاثة لدرن يسير أصاب قلوبهم ، أفلا نفعله مع أشرار هذا الزمان ، واذا كنا نعجز عن مقاطعتهم ، فاننا لا نمالئهم ، ولا نلتف حولهم مع ظلمهم ، لأن مجرد الالتفاف حولهم يجعل الرجل من شيعتهم ، وان لم يعمل عملهم ، ويجعلنا ذلك سائرين معهم ، وان لم نعاونهم بالفعل ، فانا نعاونهم بالالف ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « من مشى مع ظالم،فقد سعى الى جهنم » •

٦٦١ ـ كانوا عشرة تخلفوا ، لعل منهم أولئك الثلاثة الذين ذهبوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يستمع الى الأعذار للمتخلفين يقبل علانيتها ، ويترك السرائر الى الله تعالى ، وما كان للرفيق الطاهر الذي قبل لفظ وليس لفظ القلب الا أن يقبل العلانية ، ويترك لله ما بطن ، لأنه لا يفتش عن القلوب .

ان أولئك الثلاثة ذهبوا الى النبي يقولون لا عذر لنا ، ولا سبيل لأن نكذب عليك فصدقهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطهر قلوبهم ، وهذب نفوسهم وأزال الضر بتلك العقوبة الهينة في ظاهرها ، القوية في تأثيرها .

ولكن سبعة آخرون لم يذهبوا معتذرين ، لأنه لا عذر لهم ، ولم يذهبوا ينفون الاعتذار بل جاؤوا وعاقبوا أنفسهم بأنفسهم ، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد النبوي ، فلما رآهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ،قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويعذرهم ، فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم ، حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا ، فأطلق سراحهم ، ومنع الوثاق بأمر الله تعالى ، وقيل نزل فيهم :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

(١) التوبة

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ففك وثاقهم ، وأطلقهم وعذرهم.

ولم يجدوا أن ما فعلوه بأنفسهم فيه تكفير لتقصيرهم الذي تخلفوا به عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ورأوا أن الصدقة تطفىء الذنوب كما يطفىء الماء النار ، فتصدقوا بكل أموالهم ، وقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما أمرت أن آخذ أموالكم » فقيل نزل قوله تعالى فيهم :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (١)

هذا قسم أخذ في تطهير نفسه ، ولم يطهرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بابعاد الناس ، وهم فريق واحد ،أبى أن ينتحل عذرا شعورا منه بالتقصير في التخلف عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانهم بذلك وقعوا في خطأ جسيم يكاد يكون خطيئة .

ولقد ذكر ابن كثير رضي الله تعالى عنه أقسام المخلفين ، فذكرهم أربعة أقسام قريبا مما ذكرنا ، قال : كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام.

١ ـ مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب ، ومحمد بن سلمة وابن أم مكتوم .

٢ ـ ومعذورون ، وهم الضعفاء والمرضى ، والمقلون وهم البكاءون .

٣ ـ وعصاة مذنبون وهم الثلاثة،أبو لبابة ، وأصحابه المذكورون .

٤ ـ وآخرون ملومون مذمومون ،وهم المنافقون .

وقد ذكرنا هذه الأقسام في القرآن الكريم ، ونوافق الحافظ بن كثير على هذا التقسيم ولكن لا نسمى أبا لبابة وأصحابه مذنبين ، ولكن نسميهم مقصرين مخطئين .

وفي الحق ان غزوة تبوك التي كانت آخر غزوة فيها اختبار لنفوس الذين مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد بدت فيها أحوال الذين

---

(١) التوبة

كانوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بدأ الأقوياء الذين لا يصدرون الا عن أمره ، وبدأ المنافقون الذين لازموه مخذلين بخروجهم ، ومخذلين في سيرهم ومتآمرين يريدون اغتيال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وبدأ الذين ينقصهم الهمة والاستجابة في الشدة ، وان كان لا ينقصهم الايمان وقوة اليقين ، وقد عالجهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نفسيا بأمر ربه ، وعالجوا أنفسهم ،والجسم القوي يقبل العلاج ، ولم يعالج النبي غيرهم ممن تخلفوا ، بل تركهم الى ما هم فيه يحاسبهم الله ٠

٦٦٢ ـ في العام التاسع جاءت الوفود الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة تبوك ، ويقول كتاب السيرة ، انها آخر غزوة غزاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد عمت الدعوة الاسلامية البلاد العربية ،وصار العرب بين مجيبين ، وكافرين ، ومترددين يسيرون في طريق الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وقد جاءت وفود ممن أسلموا ، ووفود أخرى تقدم ذكرها وقد قال ابن اسحاق ، وانما كانت العرب تتربص باسلامها أمر هذا الحي من قريش ، كانوا أئمة الناس وهداتهم ،وأهل البيت والحرم ،وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم ، وقادة العرب ،لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل « أفواجا » ،يضربون اليه من كل وجه ، يقول الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ (١)

أي فاحمد الله على ما ظهر من دينك ،واستغفره انه كان توابا ، وقد قال كانت العرب تتلوم باسلامهم قبل الفتح ، فيقولون اتركوه وقومه ،فانه ان ظهر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كانت واقعة الفتح بادر كل قوم باسلامهم .

ومؤدى هذا أن فتح مكة لم يكن فتحا لمدينة لها قدسيتها فقط ، بل كان فتحا لقلوب الناس نحو الاسلام ، اذ هم لقريش تبع ، ولم يكن الفتح اكراها

(١) النصر

لقريش على الاسلام ، بل ازالة نقمة الزعماء والكبراء، وتبين الحق الصريح الواضح ، حتى ان الكبير منهم كان يقدم على الاسلام ، لأنه علم أنه المقل وأنه الحق ، كما رأينا في اسلام عكرمة بن أبي جهل ومن كان معه من اخوان له الى آخر لحظة من مقاومته •

ولكن مع ذلك يجب التمييز بين من دخل في دين الله ، والبلاء بلاء ، وحمل عبء المصابرة على الأذى في مكة ، والتهكم والاستهزاء ، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله ، وحملوا السيف ، وقاتلوا وقتلوا ، وهم الذين اشتروا أنفسهم وباعوها ، حتى بلغ الاسلام ما بلغ وفتحت مكة أو مهد للفتح بالحديبية ، يجب التفرقة بين الذين دخلوا وحملوا العبء مع الرسول ، وبين الذين جاؤوا من بعد ، ولذا يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١)

ويقول في ذلك ابن كثير ، فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين زمن الفتح ممن يعد وفوده هجرة ،وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله تعالى خيرا وحسنى ، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة •

ونحن نرى أن الفتح الذي جاء به القرآن كان سنة ست بصلح الحديبية ، لأن الله تعالى سمى صلح الحديبية فتحا، وقد كان كذلك ، لأنه فرق بين قوة الحرب وقوة السلام ، وقد دخل الناس بعد صلح الحديبية أفواجا في الاسلام، والذين كانوا قبل صلح الحديبية هم الذين قرر الله تعالى في كتابه الكريم ، أنهم الذين رضي عنهم ورضوا عنه في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢)

---

(١) الحديد
(٢) الفتح

وقال سبحانه :

﴿ * لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾(١)

هؤلاء هم الذين أنفقوا من قبل الفتح ، ومن جاء بعدهم ليس مثلهم ، فليس عمرو بن العاص كعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح،وغيرهم ، هؤلاء هم الذين سبقوا بالحسنى وقاموا مع النبي بالجهاد والاسلام غريب ، وكان من بعد ذلك عموم الدخول في الاسلام ، ولذلك كان الذين أسلموا بعد الحديبية والفتح أضعاف الذين أسلموا من قبل ٠

(١) الفتح

٦٦٣ ـ جاء هذا الوفد عند الحديبية وقبل الفتح ، ومجيئه في ذلك الوقت يدل على أن دخول الناس في دين الله أفواجا كان بعد الحديبية ، وامتد الى ما بعد فتح مكة وتبوك .

روي أن أول وفد من مضر كان وفد مزينة بأربعمائة من مضر ، وروي أن ذلك في رجب سنة خمس ، وقدجاؤوا مهاجرين ، وقالوا ان أول من وفد من مزينة خزاعي بن عبد سهم ، ومعه عشرة من قومه ، فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على اسلام قومه ، ولما رجع اليهم ولم يجدهم كما ظن فيهم اذ تأخروا عنه .

ويظهر أن أولئك الأربعمائة جاؤوا بعد أن فشا الاسلام فيه ، وبعد أن أغلق باب الهجرة الى المدينة ، وأريد أن يعمر الاسلام البلاد العربية كلها ، فقال « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا الى أموالكم » .

وبذلك يكون تعيين الزمن بأن القدوم سنة خمس ، انما كان وفد خزاعي الذي بايع عن اسلام قومه ، ولم يكونوا قد أسلموا ، ثم جاء بعد ذلك أربعمائة، فرأى أن يمكثوا دعاة للاسلام في بلادهم وذلك بعد أن تكاثر المسلمون عندهم ، وذلك بعد الحديبية أو بعد الفتح ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زود هؤلاء بالطعام من التمر اذ لم يكن معهم زاد .

وفد بني تميم

٦٦٤ ـ وذكرنا من أخبار بني تميم عندما هموا بالاعتداء على خزاعة، فأرسل اليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلا ، فأسر منهم أسرى ، وسبى سبايا ، فجاؤوا لذلك ، وقالوا من وراء الحجرات في جفوة اخرج الينا يامحمد، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ (١)

وقد رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسراهم ، وقد تكلموا بعد ذلك مفاخرين بأنفسهم ، ورد الأنصار مفاخرتهم .

والآن نقول ما رواه البيهقي بسنده ، قال قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم التميميون فوقف الزبرقان بن بدر وقال :

أنا سيد بني تميم والمطاع فيهم ، والمجاب ، وأمنعهم من الظلم ، وآخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك ، وأشار الى عمرو بن الأهتم .

قال عمرو بن الأهتم انه لشديد المعارضة مانع لجاره مطاع في أدنيه ، فقال الزبرقان بن بدر ، والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم الا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم ، أنا أحسدك فوالله انه للئيم الخال ، حديث المال أحمق الوالد مضيع في العشيرة والله يارسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا ، وما كذبت فيما قلت آخرا ، ولكني اذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، واذا غضبت قلت أقبح ماوجدت ، ولقد صدقت في الأولى ، والأخرى جميعا .

---

(١) الحجرات

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكمة ، ولعل هذه المجاوبة كانت في قدومهم لفك أسراهم ، فهو قدوم وليس بوفد » .

وقد روى البخاري في فضل بني تميم قول أبي هريرة ، « لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهم من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولها فيهم : هم أشد أمتي على الدجال ، وكانت فيهم سبية عند عائشة ، فقال أعتقيها ، فانها من ولد اسماعيل ، وجاءت صدقاتهم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذه صدقات قومي » .

هذا ما رواه البخاري ، ورواه مسلم كذلك .

واقول قال علي كرم الله وجهه ، في أيام شدائد البغي ومقاومته « ما أفل لبني تميم نجم الا بزغ لهم نجم آخر » والله أعلم .

وفـــد ثقيـــف

٦٦٥ ـ امتنع رســول الله صــلى الله تعالى عليه وسلم عن هدم حصــون ثقيف ، وحرق كرومهم ، وأنهى الحرب ، لأنها كانت في آخر شــوال ، وأقبل ذو القعدة الحرام ، لأن منهم من مال الى الاسلام ، وفشا الاسلام في الطــائف ، ولكن نخوة الجــاهلية وغلظ قلوبهـــم منعتهم من التسليم ، وان كان الاسلام قد فشا فيهم ٠

فلما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنهم ، اتبع أثره عروة ابن مسعود ، وأسلم ، وقد ذكرنا لقاءه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعودته الى قومه ، وقتلهم له بالنبل ٠

بعد قتل عروة ، وكان محبوبا فيهم ، أحســوا بأنهم صاروا منفردين بين العرب ، وخصوصا أن مكة التي تقرب منهم قد أسلمت وأذعنت ، وأن القبائل تدخل في الاسلام ، وربما كان مقتــل عروة المحبوب فيهـــم كان له أثر في نفوسهـــم بالندم على قتــل محبوب ، فصفت قلوبهم لما كان يدعــوهم اليه ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بالعــرب ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان أعاد الكرة عليهم لم يكن لهم به طاقة ، بــل انهم اليوم لا طاقة لهم بين العرب ٠

إتجه عمرو بن أمية من كبرائهم الى كبير آخر فيهم هو عبد ياليل ، فقال له :

« انه قد ذهب أمر ليست معه هجرة ، انه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم ٠

عندئذ ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض ، أفلا ترون أنه لا يؤمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد الا اقتطع ، فأجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجــلا ، كما أرسلوا عروة ، فامتنع الا أن يكون معه نفر منهم خشية أن يصنعوا به مثل ما صنعوه بعروة بن مسعود ٠

بعثوا عبد ياليل في وفد من خمسة كانوا في جملتهم ستة ٠

قدموا المدينة ، فكان على رعية ابل الصحابة وكان بها المغيرة بن شعبة ، لأنها نوبته ، وكانوا يتولون عليهـــا بالمناوبة ، وعندما رآهم المغيرة نهـض مسرعا الى رسول الله ، فلقيه أبو بكر ،فأراد أن يسبقه هو الى اخبار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره •

عاد المغيرة اليهم ، وهو يعلم أنهـم جفاة ليعلمهم كيف يحيون النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يفعلوا الا بتحية الجاهلية •

ضرب عليهم رسول قبة في المسجد، والنبي يجيء اليهـــم فيـــه وكانوا يطمئنون الى خالد بن سعيد بن العاص،وكانوا اذا جاءهم الطعام من قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يطعمـــون الا اذا طعم منه خالد •

وبعد ذلك أعلنوا اسلامهم ، ولكن في بقية جاهلية طلبوا من رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقي اللات ثلاث سنين ، فرفض ، طلبوا ســـنتين فأبى ، طلبوا سنة فأبى ، طلبوا شهرا ،فأبى ، وكيف يقرهم على الوثنية ساعة من زمان •

سالوه صلى الله تعالى عليه وسلم الايكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأجابهـــم وأرسل المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان بن حرب ، أن يهدموها •

طلبوا أن يعفيهم من الصلاة ،فقال عليه الصلاة والسلام : « لا خير في دين لا صلاة فيه » ، وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أقامهم في خباء في المسجد ليروا الناس ، اذا صلوا ، فيستأنسوا بالصلاة وليعلمهم ، ولـــكن جفوة الجاهلية حالت بينهـــم وبين الأنس بالصلاة •

وكانوا يرون أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا خطب لا يذكر نفسه فقالوا كيف يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله وهو لا يشهد به في خطبته ، فبلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا، قال ، فاني أول من شهد أني رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكـــان فيهم عثمان بن أبي العـــاص وكـــان أصغرهم فكانوا يخلفونه على رحالهم ،فكان القوم كلمـــا عادوا الى رحالهـــم بالهاجرة ليقيلوا ، ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وســـاله عن الدين ، واستقرأه القـــرآن ، وكـــان يختلف اليه مرارا ، حتى فقه في الدين،

وعلم ، وكان ، اذا وجد رسول الله نائما عمد الى أبي بكر ، وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأحبه •

مكث الوفد يختلف الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يدعوهم الى الاسلام ، فأسلموا •

قال كنانة بن عبد ياليل الذي كان على رأس الوفد ، كما نوهنا هل أنت مقاضينا حتى نرجع الى قومنا ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان أنتم أقررتم بالاسلام أقاضيكم ، والا فلا قضية بيني وبينكم •

قال : أفرأيت الزنى ، فانا قوم نغترب ، ولا بد لنا منه •

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حرام ، فان الله تعالى يقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

قالوا أفرأيت الربا ، فانه أموالنا كلها •

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :لكم رؤوس أموالكم ، قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ (٢)

قالوا أفرأيت الخمر ، فانه عصير أرضنا لا بد لنا منها •

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:ان الله تعالى قد حرمها وقرأ قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣)

أخذوا بما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ، ولكن بقية الوثنية فيهم ، فقد سألوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقي الربة (اللات) ، فقال اهدموها ، فقالوا واهمين لو علمت الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها •

فقال عمر بن الخطاب وكان حاضرا ويحك يابن ياليل انما الربة حجر ، قالوا انا لم نأتك يابن الخطاب وقال ابن ياليل لرسول الله صلى الله تعالى

---

(١) الاسراء (٢) البقرة (٣) المائدة

عليه وسلم ، تول انت هدمها فنحن لا نهدمها ، وأرسل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبا سفيان بن حرب ،والمغيرة بن شعبة فهدماها كما ذكرنا •

أكرمهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن علمهم ، وطلبوا أن يؤمر عليهم أحدا ، فأمر أصغرهم عثمان بن أبي العاص ، وكان قد حفظ سورا من القرآن وأدرك معاني الاسلام •

ولكن كان المتحدث عن ثقيف بن عبد ياليل ، لأنهم الذين نصبوه المتحدث باسمهم ، وكان عليما بنفوس قومه ،يعلم كيف يدخل الى نفوسهم ، وأمامه تجربة عروة بن مسعود الذي كان محبوبا أكثر من أبكارهم فلما جاءهم مسلما قتلوه •

ولذلك كتم قصة اسلامهم وما سلموا به للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قبولهم لتحريم الزنى والربا ، والخمر،وجاؤوا اليهم مخوفين ، ولم يجيئوا اليهم مسلمين •

خوفوهم بالحرب ، وأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم سألهم أمورا فأبوها : سألهم هدم اللات والعزى وتحريم الخمر والزنى والربا فأبوا •

أظهر الوفد الحزن والكرب ، وسرى ذلك الى ثقيف ، وذهب الوفد الى اللات وثن ثقيف يكرمها ، وأظهر كل من في الوفد لخاصته ، أنه جاء من عند رجل فظ غليظ القلب يأخذ من شاء بظهر السيف ، وأدان له العرب ففرض علينا أمورا شدادا ، هدم اللات والعزى وترك الأموال ، الى آخر ما طلب •

قالت ثقيف لا نقبل ذلك أبداً •

فقال الوفد المدرك : أصلحوا السلاح ، وتهيئوا للقتال واستعدوا له ، ورمموا حصنكم •

فكرت ثقيف يومين أو ثلاثة يدبرون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا والله ما لنا به طاقة ،وقد دان له العرب كلها ، فارجعوا اليه فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه ، فلما رأى الوفد أنهم قد اختاروا الأمان على الخوف والحرب ، عندئذ أظهر لهم ما أخفى ، قال لهم الوفد ، فانا قد قاضيناه ، وأعطيناه ما أحببنا ، وشرطنا ما أردنا ، ووجدناه أتقى الناس

وأوفاهم وأصدقهم وأرحمهم ، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا ، وفيما قاضيناه عليه فاقبلوا عافية الله .

قالت ثقيف ، فلم كتمتونا هذا الحديث وغممتمونا أشد الغم ! قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان فأسلموا مكانهم ، وجاءتهم رسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد أمر على هذه الرسل خالد بن الوليد ، وفيهم المغيرة .

أقدم المغيرة ليهدمها ، وثقيف كلها رجالا ونساء يزعمون أنها لا تهدم أبدا يظنون أنها ممتنعة عن الهدم ، فأخذ المغيرة يخادعهم مستهزئا بزعمهم ، وقال لأضحكنكم اليوم من ثقيف ، فأخذ المعول يضرب به ، ثم أسقط نفسه وركض ، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة ، وقالوا أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، وفرحوا حين رأوه ساقطا ، وقالوا من شاء فليقترب ، وليجتهد على هدمها ، فوالله ما استطاع .

بعد أن أثار المغيرة ثقيفا مستهزئا بهم وثب وأخذ المعول ليهدم ، وقال قبحكم الله معشر ثقيف ، انما هي حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال معه فهدموها حجراً حجراً ، حتى سووها بالأرض .

ولكن صاحب مفتاح اللات ما زال على ضلاله فجعل يقول ليغضبن الأساس ، فليستخفن بهم فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد ، دعني أحفر أساسها ، فحفره ، حتى أخرجوا ترابها فبهتت ثقيف ثم انتزعوا حليها وكسوتها ، وأتى بها الوفد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وروي أن ثقيفا ، قد اشترط وفدها أن لا صدقة عليه ولا جهاد فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « سيتصدقون ويجاهدون » .

ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يظهر ذلك الشرط ، أو لم يظهر اجابته انتظارا لما يكون بعد اسلامهم ، ويروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يبني مسجدا ، حيث كان طاغيتهم (اللات) .

٦٦٦ ــ ذكرنا أحوال وفد ثقيف مع طوله ، لأن فيه بيانا لأحوال النفوس وكيف تعالج ، انهم قوم أشداء غلاظ فانه يتبين من حديثهم كيف تسيطر

الأوهام عند نقص المدارك ، لقد هدمت كل الأوثان في مكة ، فما رأينا من قريش ما ظهر من ثقيف عندما هدمت اللات أو الطاغية كما يسمونها وكيف كانوا يعتقدون أن من يهدمها ، يسقط ، وكيف تمابث بهم المغيرة ، فاسقط نفسه عند ضرب أول ضربة فصاحوا ثم كان الهادم هو خالد بن الوليد القرشي الذي كان حديث عهد بالجاهلية •

ثم في القصة كيف تستولي الأهواء والشهوات على النفوس غير المؤمنة ، حتى انهم ليطلبون منه اباحة الزنى والخمر ، والربا ، وقد ردهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وما أشبه أجلاف ثقيف بالمسلمين المصريين المجددين الآن الذين يستبيحون الربا ، ويعاضدهم بعض الذين يتسربلون سربال العلماء ، وكانوا يحفظون القران ، ويستبيحون الزنى أحيانا باسم المتعة وأحيانا باسمه الصريح ، ويعدونه تقدما ، ويستبيحون الخمر جهارا نهارا •

وبين أيدي الذين أباحوا المتعة عندما طلبوا اباحة الزنى لأجل اغترابهم ، فكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يشير اليهم بالمتعة ، لو كانت مباحة ، كما يقول أولئك المتفلسفة الذين يريدونها لأغراب التلامذ ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

وهناك أمر تربوي رائع ، وهو علاج كنانة بن عبد ياليل لشماس ثقيف اذ أنه أخفى اسلامه وصحبه وطلب اليهم الاستعداد للحرب ، ففكروا مليا ، وطلبوا هم التسليم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو أظهر اسلامه ، ومن معه ابتداء ، لقتلوهم كما قتلوا عروة بن مسعود ، ان الأمر اذا عرض مقررا قاطعا ، قاومته النفوس المشاكسة الشامسة ، لأن من طبيعة هذا النوع من النفوس أن ترد ما يعرض عليها على أنه أمر لابد منه اذ ليسوا من الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فاتبع كنانة بن عبد ياليل ، طريق التمهيد للأمر الذي قرره ، حتى يطلبوه هم ، فلا يكون مفروضا عليهم ، بل يكون استجابة لما في نفوسهم •

وننبه هنا الى أن بعض الروايات ذكرت أن ثقيفا عرضت الأمر على أبي بكر ، في حجته ، ولكن نجد السياق التاريخي لا يؤيد هذا ، ذلك أن ابن اسحاق يقول ان وفد ثقيف كان في رمضان ، فبينهما زمن ، وحج أبي بكر متأخر عن رمضان ، والله أعلم •

وفد بني عامر

٦٦٧ ـ أخذت وفود العرب التي وصل اليها الاسلام تجيء وفدا بعد آخر ، منهم من يعلن اسلامه ويتلقى تعاليمه بالمدينة ، ومنهم من كان فيه شك ، أو عنجهية جاهليته أو لا تزال الوثنية في قلوبهم فيتلقاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالموعظة الحسنة وتأليف قلوبهم ، وبعضهم جاء اقرارا بالخضوع لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يهديهم ويرشدهم ، وينقذهم من الضلال .

روى البيهقي في دلائل النبوة أن وفد بني عامر اتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا له أنت سيدنا وذو الطول علينا فقال عليه الصلاة والسلام: لا يسخرن بكم الشيطان السيد هو الله .

لقد جاء ذلك الوفد مسلما ، ولكن كان فيه عامر بن الطفيل يريد غدرا ولا يريد اسلاما ، وقد نهاه قومه عما يريد ، وقالوا له يا عامر ان القوم قد أسلموا فقال والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، وأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش .

ثم قال لمن دبر أمر الغدر معه وهو أربد : اذا قدمنا على الرجل فاني شاغل عنك وجهه ، فاذا فعلت ذلك فاعله بالسيف .

فلما قدموا أمر عامر أن ينفذ الغدر ، فقال مواجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد خاللني ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » .

أبى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون له خليلا ، حتى يكون مؤمنا فلم يذعن للايمان بل انتقل الى التهديد ، وكأن المخالة تجيء بالنصر والقهر ، فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا .

فلما ولى قال الذي يعصمه الله من الناس اللهم اكفنا عامر بن الطفيل .

فقد خذله صاحبه أربد ، فلم يعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليه بالسيف ، فقال له : ويحك يا أربد ،أين ما أمرتك به ؟ فقال والله ما كان وجه الأرض أخوف على نفسي منك ،وايم الله لا أخافك بعد اليوم ، ثم قال أربد ، لا أنا لك لا تعجل علي ،فوالله ما هممت بالذي أمرتني به الا دخلت بيني وبينه فاضربك بالسيف ، وهكذاوقى الله تعالى رسوله بأن كانت صورة أربد قاتله بينه وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

خرج القاتلان من عند رسول الله ،فأصاب ابن الطفيل الطاعون ، ومات في بيت امرأة ، وقيل مات على فرس ،وقد خرج متألما من مرضه ، قائلا ، أغدة كغدة البعير ٠

وأما أربد الذي كان يد الغادر ،فانه خرج وحمله بعد عودته الى بني عامر ، فنزلت عليهما صاعقة فقتلتهماويروى أنه كان من حديث عامر بن الطفيل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لما أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قائلا أخيرك بين ثلاث خصال ، يكون لك أهل السهل ، ولي أهل المدر أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر والف شقراء ، وهذه رواية البخاري ،ويقول البخاري طعن (أي أصيب بالطاعون)في بيت امرأة ، فقال أغدة كغدة البكر في بيت امرأة ائتوني بفرسي ،أركب فمات على ظهر فرسه ٠

وقد ذكرنا شيئا من ذلك من قبل ٠

وان الظن أن وفاة عامر بن الطفيل كانت قبل الفتح ولم تكن في العام التاسع ، لأن منطقها ، يومىء الى أنهاكانت قبل الفتح وتبوك ، أي قبل أن يصير السلطان كله في البلاد العربيةللاسلام ، سواء في ذلك من أسلم ومن لم يسلم ٠

ومهما يكن فانه لم تكن الوفود بعدالفتح وتبوك كلها مسلمة ، بل كان فيهم غيرهم ممن دانوا بالطاعة ٠

وفد عبد القيس

٦٦٨ ـ في الصحيحين البخاري ومسلم أن وفد عبد القيس قدموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبش في وجوههم ، وقال ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى .

وقد رحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد ربيعة ، لما كان من التنافس بين ربيعة ومضر ، فمجيئهم دليل على ان العصبية الجاهلية خفت صوتها بجوار صوت الاسلام ، وصارت تحت قدم الاسلام وهو فوقها .

جاء هذا الوفد مريدا الاسلام مطمئنا اليه ، ويريدون أن يعلموا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يجب عليهم أن يعلموه .

قال قائلهم المتحدث عنهم : « يارسول الله ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وانا لا نصل اليك الا في شهر حرام ، فمرنا بأمر نأخذ به ، ونأمر به من وراءنا ، وندخل الجنة » .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالايمان بالله وحده أتدرون ما الايمان بالله ، شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم ، وأنهاكم عن أربع ، عن الربا والخيثم والنقير والمزمت ، وهي أسماء أنواع من الخمور تختلف أسماؤها باختلاف آنيتها .

ولقد كان في وفد عبد القيس الجارود بن بشر بن المعلى ، وكان نصرانيا، فلما انتهى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلمه ودعاه الى الاسلام وعرضه عليه ورغبه فيه ، فقال يامحمد ، اني قد كنت على ديني ، واني تارك ديني لدينك ، أفتضمن لي ديني، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنا ضامن أن هداك لله والى ما هو خير منه ، فأسلم وأسلم من معه من أصحابه.

عاد الجارود الى قومه ، وكان حسناشديدا في دينه حتى مات ٠

ولما قامت الردة بعد الرسول كان منقومه من ارتد ، فوقف فيهم يقول بشهادة الحق ودعا قومه أن يتوبوا ويعودوا الى الاسلام ، وهو يقول : أيها الناس ، اني أشهد أن لا اله الا الله ،وأن محمداً رسول الله ، وأكفر من لم يشهد هذه الشهادة ٠

وهكذا كانت الوفود تجيء الى النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا تخرج من بين يديه الا وقد خالطت بشاشةالاسلام قلوبهم ، فيعودوا الى أقوامهم، ليعلموهم ما تعلموا ٠

وان ذلك تطبيق واستجابة لقوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

وفد بني حنيفة :

٦٦٩ ــ كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يستقبل الوفود ، ويدعوهم الى الاسلام ، سواء منهم مناهتدى ، ومن ضل وغوى ، والناس قسمان قسم يطلب الحق ويبتغيه ، ويجانب الشر ، ولا يريد الا الحق ، ولم تدنس نفسه بدرن الهوى والباطل ،ولم تركس في مهاوي الهوى ، وما يسول به الشيطان في الأنفس ،وقسمسيطرت عليه الأهواء فلا يتجه الى الحق يبتغيه ، ولكن يتجه الى ما تهوىالأنفس ، وما تضل به الأفهام ، وتسيطر الأوهام ٠

والنبي يستقبل الفريقين ، فمنطلب الحق واستقامت نفسه استجاب للحق ، وأسلم ، ومن ركبته الأهواء ،حاول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ازالة الغشاوة التي تنسجها الأوهام ،ومن أهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، والنبي صلى اللهتعالى عليه وسلم يريد الهداية للجميع، ولكن الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) القصص

ومن هذا الصنف الثاني قوم مسيلمة الكذاب ، وهو وفد بني حنيفة .

جاء وفد بني حنيفة ، وفيهم مسيلمة، وقد ستروه بثياب والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في يده عسيب من سعف النخل وقد ساله مسيلمة بعض ما تحت سلطانه ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لو سألتني هذا العسيب الذي بيدي ما أعطيتكه ،وان الشر لا يظهر الا في أشرار ، فقومه هم الذين شجعوه على ذلك ، وكذلك قال لقومه : أما انه ليس بشركم .

وكان مسيلمة قبل أن يحضر قومه كتب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا قال فيه :

من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله :

« أما بعد فاني أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأمر ، ولقريش نصفه وليس قريش قوما يعدلون » .

قدم رسوله على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا الكتاب .

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وقدم من عند مسيلمة هذا رسولان قيل أنهما قدما بالكتاب الذي ذكرناه عنه ، فقال لهما محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « تشهدان أني رسول الله ، فقالا نشهد أن مسيلمة رسول الله ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما » .

أتى بنو حنيفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم على هذه الحالة النفسية ، وعلى هذا الضلال العقلي ،ولكن منهم من أسلم ، ومع ذلك ارتدوا من بعد ، ولقد استهواهم ضلال مسيلمة الكذاب عن الحق ، وذلك بسبب العصبية الجاهلية ، حتى كان قائلهم يقول : كاذب ربيعة خير من صادق مضر .

ولقد كان يزعم ذلك الكذاب المئوف العقل أنه يأتي بمثل القرآن ، فيقول زاعم أن ما يقوله يشبه القرآن في سجع سمج ، « ولقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسخة ونفى من غير صفات وحشا » .

وقد أخذ من قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وليس بشركم ،وهي ترمي الى أنهم جميعا أشرار ، وليس هو بشرهم ، أخذ من هذا أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أشركه في رسالته ، وأسقط عنهم الصلاة وهكذا يذهب الضلال في النفس ، وتفعل العصبية الجاهلية في الأدراك ٠

وقد قال أفراده ان ذلك الوفد المشئوم ، جاء في السنة العاشرة ، حتى عمت الدعوة الاسلامية ، ولم يكن لهم مناص من الأتباع ، فانحرفوا ذلك الانحراف٠

وفد طيئ

٦٧٠ ـ قدم وفد طيء ، وقد كان الاسلام ابتدأ فيهم قبل حضور هذا الوفد من وقت أن كانت السرية اليهم،وهم قوم فيهم خير ، ولم يكن فيهم عناد كثقيف والانحراف في الفكر كحنيفة واليمامة ، كان على رأس الوفد زيد الخيل ، الذي سماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زيد الخير ، وروي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني الا رأيته دون ما يقال فيه الا زيد الخيل ، فانه لم يبلغ كل ما فيه»٠

وقد عرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام على الوفد ، فأسلموا وحسن اسلامهم ٠

وروي أن زيد الخير قد مات بحمى المدينة عقب مغادرة الوفد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وروي أنه مات بعد ذلك في خلافة الامام عمر رضي الله تعالى عنه ٠

وكان له ولدان قد نالا صحبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرضي الله تبارك وتعالى عنه ٠

ولقد أقطعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرضين ، وكتب له كتابا بذلك ، وكان ذلك الاقطاع فيما يظهر اقطاع منفعة ، يستخرج المعادن والزيوت ، ويزرع ما يصلح للزراعة ،وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك في الأراضي النائية عن المدينة ليمكن استغلالها ، واخراج ينابيع الثروة في باطنها ، ويقدمون في ذلك أجرا لها ، وقد يكون من غير اجر تأليفا للقلوب النافرة ٠

وفد كِندَة

٦٧١ ـ قدم الاشعث بن قيس على رأس وفد من كندة عدتها ستون أو ثمانون رجلا ، وقد دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسلاحهم وبزينة ، قد لبسوا جببا حبرات مكففة بالحرير .

دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يسلموا فنكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حالهم ،فقال لهم أو لم تسلموا ، قالوا بلى ، ثم قال ما هذا الحرير في أعناقكم ،فكانوا طائفتين ، فأجابوا عن الاستنكار بأن شقوا الحرير ونزعوه من ثيابهم ،وألقوه ، فقال الأشعث بن قيس : نحن بنو آكل المرار ، وأنت بن آكل المرار ، (يظهر أن ذلك اشارة الى قوة البأس ، وأبي أن يعرب أشرفه الذي ظهر بادي الرأي) وقد ضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال هذا النسب ربيعة بن الحارث ،والعباس بن عبد المطلب ، فقد كانا تاجرين ،وكانا اذا سارا في بلاد العرب ، فسئلا من أنتما ؟ قالا نحن بنو آكل المرار ،يستعلون بذلك عند الناس ، ويعتزون، ويظهرون البأس ، والقوة ، لأن آكل المرار كان ملكا في كندة وكان أولاده ملوكا ، فكانوا يسيرون باسمه آمنين .

فلما قال الأشعث بن قيس للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار يشير الى ما كان بين الأشعث والعباس من صحبة، وما كانا يقولانه في صحبتهما وتجارتهما ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستضحك مما كان يصنعه هو وعمه العباس الذي كان تاجرا .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر نسبه الصادق ، وأنه لا ينفيه.

روى أحمد في سنده بسند متصل الى الأشعث بن قيس قال : قدمنا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وفد كندة ، ولا يرون الا أنى أفضلهم فقلت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لا ، نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نجفو أمنا ، ولا ننتفي من أبينا .

وكان للأشعث بن قيس ولاية في بعض الدول الاسلامية في عهد بني أمية ، فكان يقول لا أوتى برجل نفى رجلا من قريش نسبة عن النضر بن كنانة الا جلدته .

أكرم النبي صلى الله تعالى عليـــهوسلم الوفد ، وأعلن اســـلامه ، وعاد مرضيا آمنا مسلما •

بين الأشعريين وأهل اليمن:

٦٧٢ ــ ان الأنصار ينتمــون الى قبائل يمنية ، وكانوا هم الذين أحبوا الله ورسوله ، وهم الذين آووا ونصروافكان لليمن محبة في قلبه •

ولقد جاء الأشعريون وأهل اليمن ،أو ناس من أهل اليمن جاؤوا الى النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم مسلمــينيريدون أن يتعــرفوا مبادىء الاسلام ، ويستحفظوا القرآن •

ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلمقال عند قدومهم : قدم قـــوم هم أرق منكم قلوبا •

فقدم الأشعريون ، وجعلوا يرتجزون •

غدا نلقى الأحبة ... محمدا وحزبه

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم كان يقول ، وقد وفدوا عليه ، جاء أهل اليمن هـــم أرق أفئدة ، وأضعف قلوبا للايمان ، والحكمـــة يمانية والسكينة في أهل الغنم والفخر والخيلاء في أهل الوبر •

وروى عن جبير بن مطعم أن النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : أتاكم أهل اليمن ، كأنهم السحاب ، وهم خيارمن في الأرض ، فقال رجل من الأنصار: الا نحن يا رسول الله ، فسكت رســولالله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال الا نحن يا رسول الله : فسكت ثم قالالا أنتم كلمة ضعيفة •

كان رسول الله لا يقبل استثناءهممن أهل اليمن ، وهم الذروة والسنام •

وان الاسلام في ذاته بشرى الخيرلمن دخلوا فيه ، لقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم لوفد بني تميم أبشروا يريدبالاسلام ، فقالوا بشرتنا ، فأعطنا ، فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليــهوسلم لهذه المادية الطامعــة ، وقـــال للأشعريين اقبلوا البشرى ، فقالوا قــدقبلنا ، وفهموها معنوية لا مادية ، ثم

قالوا يا رسول الله جئنا لنتفقه في الدين ، ونسالك عن أول هذا الأمر ، فقال عليه الصلاة والسلام كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء .

وهنا نجد ظاهرة تبدو غريبة ، وهي مسارعة أهل اليمن ومن حولهم الى الاسلام ، ومقاومة أهل مكة للدين الجديد مع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، وكان معروفا لديهم بالصدق والأمانة والبعد عما يؤثر في الكمال الانساني .

ويبدو لنا أن السبب في ذلك تشير اليه أمور :

أولها – تمكن الوثنية عند كل أهل مكة ومن حولها ، وسيطرة الأوهام عليهم ، واعتزازهم بأنسابهم .

وثانيها – حب الرياسة فيهم التي نشأت من اقامتهم بالبيت الحرام ، والاستمساك بسيطرتهم على العرب من طريق خدمتهم للبيت الحرام ، وأنهم سدنته ، وأن ذلك الدين الجديد ينزع منهم ما بأيديهم من سلطان ، فاشتدت مقاومتهم ، لا من جهة الايمان ، ولكن من جهة السلطان .

وثالثها – أن أهل الجنوب اليمني ،كان فيهم علم بالأديان ، فكان فيهم اليهود والنصارى ، ولهم بذلك علم بالرسائل السماوية .

ولم يكن اليهود الذين كانوا باليمن من بني اسرائيل، بل كانوا من السامرة، وهم اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام من غير بني اسرائيل ، فلم تكن عندهم العصبية الاسرائيلية الحادة التي كانت تؤمن بأنه لا نبي الا من بني اسرائيل ، ولما جاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا يعرفونه ، كما يعرفون أبناءهم ، أنكروا « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

وكانوا لا يعترفون بالسامرة على أنهـــم من اليهـود أتباع موسى ، لأن اليهودية عندهم جنسية وليست بعقيدة، فكانوا يضطهدونهم ، كمـــا يحاولون ايذاء غيرهم من أي دين ، وربما كـــان مجيء نبي من العرب مثيرا لحماستهم له٠

ورابعها ــ أنهم نظروا الى الاسلام على أنه الدين الظاهـــر في البـــلاد العربية ، فسارعوا اليه ، لأنه صار الدين الغالب ، وصارت كلمة الله تعالى هي العليا ، والله أعلم ٠

٦٧٣ ـ وهم من اليمن تجـــريعليهـــم الأسباب التي ذكـــرناها في مسارعتهم الى الاســلام بعد أن امتدتكلمته في البلاد العربية ·

قال ابن اسحاق قدم وفد من الأزد ،وكـــان على رأسهـــم صرد بن عبد الله الأزدي ، قد أسلم وحسن اسلامه فأمرهرسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمــــره أنيجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائـــل اليمن ومن جـاورهم ·

أخذ صرد بن عبد الله يجاهـــد منحوله من المشركين ، وكان بجـــوارهم مدينة مغلقة يقال لها جرش ، وبهـــاقبائل من اليمن ، وقد انضمت اليهـم خثعم ، فتضافروا معهم عندما علمـــواأن جيش المسلمين يسير اليهم بقيـادة صرد بن عبد الله ·

حاصرهم في مدينتهم جرش نحوا منشهر ، وهم فيهـــا ممتنعــون ، فترك الحصار ، وآوى الى جبل يقال له شكر،واعتصم به رجاء أن ينتهز فرصـــة ، فيأتيهم من حيث لا يشعرون ، ويفرقهمعن بلدهم ·

ظنوا أن صرد بن عبد الله ومن معهولى عنهم منهزما أو يائسا من أن يقتحم بلدهم ، فزين لهم أن يخرجوا في طلبه، فكان خروجهم تمكينا له من ضربهم، فانهم اذ أدركوه عطف عليهم ، ولم يكنلهم معتصم يعتصمون به فقتلهم قتـــلا شديدا ، وكانت الهزيمة الشديدة قدنزلت ، وعلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك النصر الذي كان منعند الله تعالى العزيز الحكيم ، ولم يكن بسرية من المدينة ، ولكن بمن أســـلممن العرب ·

وفي الوقت الذي علم النبي صـــلىالله تعالى عليه وسلم بهزيمة المشركـين كان عنده وفد من جرش جاءه عشيـــةأن علم ، وكان مسلما ·

سأل رسول الله صلى الله تعالى عليـــهوسلم وفد جرش وكان مكونا من اثنين بأي بلاد الله تعالى شكر ، فقالا يا رسولالله ببلادنا جبل يقال له كشر ، ولذلك

تسميه أهل جرش ، فقال رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انه ليس بكشر ، ولكنه شكر ٠

قالا له فما شأنه يا رسول الله ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم « ان بدن الله لتنحر عنده الآن » لم يفهم الرجلان مؤدى كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فجلسا الى الشيخين الجليلين في الصحابة ، أبي بكر وعثمان ، رضي الله تبارك وتعالى عنهما ، فسألا ماذا يريد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لهما صاحبا رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ويحكما، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينعى اليكما قومكما ، فاقـدما اليه ،فاسـألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما ٠

فذهب الرجلان الى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم فسألاه الدعاء لقومهما ، فقال اللهم ارفع عنهم ٠

خرج الرجلان الى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا في اليوم الذي قال لهما النبي صلى الله تعالى عليـه وسـلم ذلك ، بل في السـاعة التي ذكر فيها ما ذكر ٠

ولقد جاء بعد ذلك وفد جـرش فاسلموا وحسن اسلامهم ، وحمى لهـم حمى حول قريتهم ليستغلوه ، وكـان يفعل ذلك مع من يسلمون من أهـل البلاد ليتمكنوا من استغـلال الأرض كلها ، وذلك نظـير أجـرة أو خرج يخرجونه ،والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

٦٧٤ ـ كان النبي يستقبل الوفود الذين يجيئون اليه مسلمين ، وان لم يكونوا مسلمين دعاهم الى الاسلام اذا جاؤوا اليه ، وفي أكثر الأحيان يجيبون ، وفي بعض الأحيان يجيبون بعد تردد ، ومهما يكن فالاسلام يدخل ديارهم ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ومن بقي على دينه ورضي أن يعيش في ظل الاسلام عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقد الذمة .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف القبائل وأحوالها ، فمن يجيء منها دعاه الى الاسلام، وقبل منه ما يتقدم به ، واذا تخلفت قبيلة ولم يعرف ايمانها ، ولم يتبين حالها ، أرسل اليها سرية فدعوها الى الاسلام ، ومن هؤلاء بنو الحارث ، فأرسل خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة الى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ، قبل أن يقاتلهم يدعوهم ثلاثا ، فان استجابوا قبل منهم ، وان لم يفعلوا قاتلهم .

ذهب اليهم خالد بن الوليد ، وبعث الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون الى الاسلام يقولون لهم أسلموا تسلموا .

أسلم الناس ، ودخلوا في الدين ، فأقام فيهم خالد يعلمهم الاسلام ، وكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك .

كتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل ، ويكون معهم وفد منهم ، فأقبل وأقبل معه وفدهم فيهم قيس بن الحصين ذو الغصة ، ويزيد بن عبد المدان وغيرهما .

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا لم نكن نغلب أحدا ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بلى ، قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدا بظلم ، استنطقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليعلنوا أخلاقهم ، لأنه يقر هذه

الأخلاق ، ويريد منهم الاستمرار عليها،لأنها أخلاق اسلامية أمرهـــم واحـــد يجتمعون ولا يتفرقــون ولا يعتدون ،فهم لا يحاربون » ٠

وقد أمر عليهم قيس بن الحصين ،فرجعوا الى قومهم ، بعد أن مكثوا في المدينة أشهراً تعرفوا فيهـــا الدين واستحفظوا بعض القرآن ٠

وانا نرى أن النبي كان اذا رأى منوفودهم استجابة للاســـلام ، وشيوعه بينهم أمر عليهم أميرا ، يكون متصـــلابالنبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وبذلك يكونون جميعا في ولاية واحدة ، هي ولاية الاســـلام التي يجتمعون حول لوائها ، غير متفرقــين ، ولا متخاصمين ٠

٦٧٥ ــ أقبل وفد همذان مسلما ،غير متردد ، ولا متلوم ، وكان فيهم مالك بن النمط ، وغيره ، وكان هذاالوفد عقب رجوعه من تبوك .

وقد حضر هذا الوفد على أتم زينةومظهر ، فقد حضروا وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل، ويظهر أن ملابسهم وان كانت منمقة فيها زينة وزخرف لم يكن فيها حرير ،أو ذهب ، ولذلك لم يستنكر شيئا من لبسهم .

وقد جاؤوا في سرور باسلامهم ، ولقائهم بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى ان مالك بن النمط أخذ يرتجز بين يدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

اليك جاوزن سواد الريف   في هبوات الصيف والخريف

مخطمات بحبال الليف

وتكلموا بكلام فصيح أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .
وقد قدم لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمرين :

أولهما ــ أنه أمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وأمره بجهاد من يقرب منهم من المشركين أو الكفار بشكل عام .

وقد عاونهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بارسال خالد بن الوليد في سرية كما روى البيهقي ليدعو في اليمن الى الاسلام ، وقال البيهقي مكث ستة أشهر يدعوهم .

وقال البراء بن عازب كنت فيمن أرسلهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع خالد بن الوليد ، الى أهل اليمن ،وقد مكث يدعوهم الى الاسلام ستة أشهر ، فلم يجيبوه ، ويظهر أنه كان قائد حرب ولم يكن داعيا الى الاسلام.

ولذلك بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد ذلك بعلي بن أبي طالب فلما دنا من الجمع اليمني المسالم، وان لم يكن قد دخل كله في الاسلام، وقد خرجوا فلم يقاتلهم ولم يدعهم الى الاسلام بالقول، بل برسالة الرسول، فصف من معه من المسلمين صفا واحدا، ثم تقدم فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

بعد قراءته كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسلمت همذان كلها ·

وهذا ما جاء في صحيح البخاري ·

وفي الحق انه قد جاء في أخبار الوفود كلام لم تثبت صحته، فقد قيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كلف همذان بقتال ثقيف، وهذا غير معقول في ذات نفسه، لأن ثقيفا بالطائف وهمذان باليمن، ولأن ثقيفا كانت قد أسلمت برسالة وفدها، وهدمت اللات طاغيتهم ·

وفي الحق ان تاريخ قدوم الوفود على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدون بدقة ·

قدوم وفد دوس

٦٧٦ ـ قدم وفد دوس على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يجاهد في خيبر فهو لم يقدم عليه في السنة التاسعة التي توصف بأنها عام الوفود، والدعوة الى الاسلام عن طريقهم وكان على رأس هذا الوفد المسلم الطفيل بن عمرو الدوسي : وقد أسلم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يهاجر الى المدينة ، وأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه دوس يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعض عشيرته الأقربين ،ولم يجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موفدا من قومه المسلمين الا بعد ذلك في السنة السابعة وهو في خيبر ، ولقد أسهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم في الغنيمة ، لأنهم اشتركوا فيها •

وقصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي ودعوته لقومه ، ثم امتناعهم ، ثم اسلامهم يحكيها رضي الله عنه ،فلنتركه يحدثنا بها ، اذ كان قد قدم مكة وكان رجلا شريفا لبيبا ، مستقيم النظر فأحاطت به قريش تمنعه من أن يستمع الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقول له : ان كلامه كالسحر يفرق به بين الرجل وولده وأبيه وزوجه •

أصاخ الى كلامهم ، ويقول في ذلك:« فوالله ما زالوا بي ، حتى حشوت في أذني حين غدوت الى المسجد كرسفا، فرقا من أن يبلغني شيء من قوله ، فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلي ، فقمت قريبا منه،فأبى الله تعالى الا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أماه ، والله اني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان ما يقول حسنا قبلت ، وان كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فتتبعته ، حتى اذا دخل بيته ، دخلت عليه فقلت : ان قومك قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك ، حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، فأبى الله تعالى الا أن

يسمعنيه ، فسمعت قولا حسنا ،فاعرض علي أمرك ، فعرض علي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلمالاسلام ، وتلا علي القرآن ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولاأمرا أعدل منه،فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسول الله ، اني امرؤمطاع في قومي ، واني راجع اليهم ، فداعيهم الى الاسلام فادع الله لي أن يجعللي آية تكون عونا لي فيما أدعوهم اليه ، فقال النبي صلى الله تعالى عليهوسلم : « اللهم اجعل له آية » ، وبعد أن ذكر هذه الآية ، وهي نور جاء علىوجهه ، ثم على وسطه ، قال بعد ذلك : « لما نزلت أتاني أبي وكان شيخاكبيرا ، فقلت : اليك عني يا أبت ، فلست مني ، ولست منك ، قال ولميا بني : قلت قد أسلمت وتابعت دين محمد ، قال يا بني ديني دينك ، فقلتاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال ، حتى أعلمك ما علمت ، ثم جاء فعرضتعليه الاسلام فأسلم ، ثم أتتني صاحبتي فقلت لها اليك عني ، فلست منك ،ولست مني:فقالت لم بأبي أنت وأمي؟ قلت فرق الاسلام بيني وبينك ، أسلمتوتابعت دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قالت فديني دينك ، قلتفاذهبي فاغتسلي ، ثم جاءت فعرضت عليها الاسلام فأسلمت .

بعد ذلك انتقل من الدعوة الخاصةالى دعوة دوس عامة ، فدعاهم الى الاسلام ، فلم يستنكروا ولكن أبطؤوا .

عاد الى رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم ، فقال له : يا رسول الله اني قد غلبني على دوس الزنى (أياتباعهم لأهوائهم وشهواتهم) فادع عليهم ، ولكن الهادي الأمين رسول ربالعالمين لم يدع عليهم بل دعا لهم بالهداية ، فقال صلى الله تعالى عليهوسلم : « اللهم اهد دوسا ثم قال لطفيل : ارجع الى قومك فادعهم الى اللهتعالى وارفق بهم » .

فرجع اليهم ، واستمر بأرضهم يدعوهم الى الاسلام ، حتى استجابوا او أكثرهم .

بعد هذا جئت الى النبي صلى اللهتعالى عليه وسلم بوفد ، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين في وقت توزيعالغنائم من خيبر ، فأسهم لهم مع المسلمين .

ولقد حسن اسلام الطفيل وقوي ايمانه ، وان الابتداء يدل على قـوة الانتهاء ، فقـد ابتدأ طالبا للحـق مـع الموانع والسـدود التي وضعتها قـريش في سبيل ايمـانه فاجتازها ، ووصـل الايمـان الى قلبـه وكان الداعية في قـومه ، حتى هداهم الى سداد ٠

وان قصة ايمان ذلك الرجـل تدل على قوة نفسه وعقله وخلقـه ، وأن المنع لم يجعله يمتنع بل جعله يبحث ويفكر ، فاذا كانوا قـد زينوا اليـه ألا يسمع من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد زين الايمـان في قلبه أن يذهب وراء النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم الى داره ٠

وهو قد باعد التقليد عن قلبـه ،والتقليد هو الذي يعمي عن الحقائق ، ويمنع الاتجاه اليها ٠

قدوم رسول ملوك حمير

٦٧٧ ـ الاسلام بعد أن علم العرب أجمعين به ، صار هو يدعو لنفسه ، لما اشتمل عليه من حقائق ولأنه دين الفطرة . ولم تعد الحوائل تحول بينه وبين الناس ، فصار الناس يدخلون فيه طواعية من غير أي نوع من أنواع الاكراه أو التقليد ، أو الاتباع من غير علم ، بل صارت الحقائق واضحة نيرة ، لا يمنع نصرانيا ولا يهوديا من الاتباع ، فاستقامت قلوبهم ، ورضوا بالاسلام دينا ، ولم يعد الأمراء يقفون محاجزين بين الأقوام والايمان ، وخصوصا بعد أن علموا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يبقي الأمير على امرته ما استقام أمره ، وما عدل في قومه ، ولم يرهقهم من أمرهم عسرا .

وكانت الوفود تجيء اليه معلنة الاسلام ، ومنهم من كان يرسل رسولا ، وملوك حمير وهم يمثلون الكثرة الكاثرة في اليمن لما رأوا الاسلام قد غلب في كل أرض الشمال ، وتراجعت أمامه جيوش الروم التي كدسوها لغزو الاسلام ، واقتلاعه ، واقتلاع عز العرب ، فعاد جندهم ولم يلاقوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن قتلت جنوده مع قلة عددهم منهم مقتلة عظيمة ، وعادوا بحكمة خالد بن الوليد سالمين لم يفقدوا الا بضعة عشر رجلا .

أدرك ملوك حمير قوة الاسلام منطقا وعقلا وحقا ، وأدركوا شوكة الاسلام أمام الرومان فأرسلوا رسلا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعلنون اسلامهم والملوك كحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذي رعين ، ومعافر ، وهمذان ، وزرعة ذو يزان مالك بني مرة الرهاوي . قد أعلنوا الاسلام ، ومفارقة الشرك .

وقد كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا للوفد الذي جاءه يبين فيه حقائق وما يجب على الأفراد ، ليعلموا به من وراءهم ، واليكم الكتاب ، كما رواه الواقدي :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمدالنبي الى الحارث بن عبد كلال ، ونعيم ابن عبد كلال والنعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمذان .

أما بعد ذلكم ـ فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، فانه قد وقع نبأ رسولكم منقلبا من أرض الروم ،فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به ، وخبرنا ما قبلكم ، وأنبأنا باسلامكم ،وقتلكم المشركين ، وأن الله تعالى قد هداكم بهداه ، ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، واعطيتم من الغنائم حق الله تعالى ، وسهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وما كتب على المؤمنين في الصدقة العقار عشر ما سقت العين ، وما سقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب نصف العشر .

وان في الابل في الأربعين ابنة لبون ، وفي ثلاثين من الابل ابن لبون ذكر ، وفي خمس من الابل شاة وفي كل عشر من الابل شاتان ، وفي كل أربعين من البقر بقرة ، وفي كل ثلاثين تبيع جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة .

وأنها فريضة الله تعالى التي فرضها على المؤمنين في الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ، ومن أدى ذلك ،وأشهد على اسلامه ، وظاهر المسلمين على المشركين ، فانه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وانه من أسلم من يهودي أو نصراني فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم .

ومن كان على يهوديته أو نصرانيته، فانه لا يرد عنها ، وعليه الجزية على كل حالة ذكرا أو أنثى حرا ، أو عبد دينار ،وافرا من قيمة المعافري (ثياب وبرود منسوبة الى معافر) أو عرضه ثيابا ، فمن أدى ذلك الى رسول الله فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه ،فانه عدو لله ولرسوله .

أما بعد ، الى زرعة ذي يزن اذا أتاك رسلي ، فأوصيكم بهم خيرا معاذ بن جبل ، ومالك بن عبادة وعقبة بن عمر،ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ، ما عندكم من الصدقة ، والجزية من مخالفيكم ، وأبلغوها رسلي ، وان أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبن الا راضيا .

أما بعد فان محمداً يشهد أن لا اله الا الله ، وأنه عبده ورسوله ، ثم ان مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أن اسلمت من أمرك حمير ، وقتلت

المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ولا تحزنوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو ولي غنيكم وفقيركم ، وان الصدقة لا تحل لمحمد ، ولا لأهل بيته ، انما هي زكاة مزكى بها على فقراء المسلمين ، وابن السبيل ، وأن مالك قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، واني قد أرسلت اليكم من صالحي أهلي ، وأولي دينهم وأولي علمهم فآمركم بهم خيرا ، فانهم منظور اليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لملوك حمير ، وقد كان يخص بعضهم بخطاب ، اذ تعدد فيه لفظ أما بعد ، مما يدل على أنه يخص بعضهم بالخطاب ، وان كان مضمونها جميعا واحدا .

وفي هذا الكتاب بين الله سبحانه وتعالى فرضية الزكاة في الزرع والثمار والسوائم ، ويلاحظ أنه لم يذكر الا زكاة الأموال الظاهرة ، والأموال الباطنة وهي الدراهم والدنانير ، وما يتعلق بها من عروض التجارة قد بينها صلى الله تعالى عليه وسلم فقال في كل مائتي درهم خمسة دراهم ، وروي أنه قال في كل عشرين مثقالا من ذهب نصف مثقال ولعله لم يذكر زكاة الأموال الباطنة ، لأنه يذكر ما يجمعه الامام ، أو والي الصدقات ، أما الأموال الباطنة ، فان أصحاب المال يؤدونها .

ولعل هذا هو المسوغ الذي سوغ به الامام ذا النورين عثمان بأمر ولاة الصدقات ، بأن يجمعوا زكاة الأموال الظاهرة ، ويتركوا الأموال الباطنة، وكأنه أنابهم عنه في أدائه ، بحيث اذا ثبت أنهم لا يؤدونها أخذها منهم .

ويلاحظ في كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ذكر زكاة الزرع والثمار بأنها زكاة العقار ، وان كانت تؤخذ من غلاته ، نصف العشر ، ان سقيت بآلة ، والعشر ان سقيت بماء العيون أو ماء السماء وان هذا النص يفهم أن العقار فيه زكاة ، وقد كان العقار المثمر هو الأراضي الزراعية وثمار الأشجار .

وذلك لأن النصاب في الزكاة مال نام ، والزرع ثمار الأرض ، والشجر نماؤه الثمر .

وقد كانت البيوت والدور والحوانيت تتخذ للحاجات الأصلية ، فلم يكن لها ثمار بذاتها ، وكذلك أدوات الصناعة •

والآن قد صارت الدور لا تتخذ للاقامة فقط ، بل تتخذ للاستقلال ، والنماء باجارتها فكان لابد من زكاتها، لأنها مال نام بالفعل ، ولأنها عقار ، وقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زكاة العقار المزروع بأنه العشر ان سقي بغير آلة ، وان سقي بآلة فنصف العشر ، وهنا نجد القياس لا يتجه الى أصل زكاة العقار ، فهو ثابت بالنص ، انما يتجه الى طريقة أخذ الزكاة ، فتقاس الغلات بالاجارة على الزرع والثمار •

ولذا نرى أن يؤخذ عشر الصافي بعد النفقات التي تنفق على المباني والتحصيل •

كتاب آخر لليمن :

٦٧٨ـ كان الكتاب السابق فيه دعوة الى الاقرار بالاسلام والحث عليه وما يجب عليهم من جمع الزكوات ، والجزية ،أي تكوين ميزانية دولة الاسلام ، وهناك كتاب آخر كتبه لعمرو بن حزم عندما بعثه الى اليمن ، وهو خاص بالواجبات التي تجب على الآحاد ، فهو يفقههم في الدين ويعلمهم السنن ، ويأخذ صدقاتهم ، وهذا نص الكتاب وقد رواه الحافظ البيهقي :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من الله ورسوله ، يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عهدا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعمرو بن حزم حين بعثه الى اليمن ، أمره بتقوى الله تعالى في أمره كله ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ،وأمره أن يأخذ بالحق ، كما أمره الله تعالى ، وأن يبشر الناس بالخير ،ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وأن ينهى الناس،فلا يمس أحد القرآن الا وهو طاهر ، وأن يخبر الناس بالذي لهم ، والذي عليهم ، ويلين لهم في الحق ، ويشتد عليهم في الظلم ، فان الله حرم الظلم ونهى عنه ، فقال الا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ،وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس بالنار وعملها ،ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه ،وما أمر الله به ، والحج الأكبر الجامع ،

والحج الأصغر ، العمـــرة وأن ينهى الناس أن يصلوا في ثوب واحد ، صغير الا أن يكون واسما ، وينهى الناس ان كان بينهم هيج أن يدعـــو العشـائر والقبائل ، وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، ويأمر الناس باســـباغ الوضوء وجوههم وأيديهم الى المـرافق وأرجلهـم الى الكعبين وأن يمسحـــوا رءوسهم ، كمـا أمر الله عز وجـــل ،وأمروا بالصلاة لوقتها واتمام الركوع والسجود ، وأن يغلس بالصـــبح ثم يذكر بعـــد ذلك أحكـام الخمس في الغنائم ، وأحكام الزكوات ، ونصابها وما يؤخذ من مقاديرها » .

وفي هذا يتبين أن أولي الأمـــر عليهم أن يجمعوها اذا كانت ظاهـرة ، وعلى الناس أن يؤدوها ظاهرة وباطنة،وان كـــانت الثانية الآمر فيهـــا الى الضمائر ، والله أعلم بالسرائر .

٦٧٩ ـ أخذ المشركون يسلمون تباعا لما عم سلطان الوحدانية البلاد ، وما أسلموا رهبا من قوة في أكثر الأحوال ، بل أسلم الأكثرون رغبا في الاسلام ، وقد زالت عنهم غشاوة الوثنية وخرجوا من التقليد للآباء الى الاستنارة بنور الاسلام ، ورأوا أن آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون هذا ما كان من المشركين ، كان الاسلام يدعو لنفسه فيهم بعد أن زالت عنهم عماية الجاهلية وغشاوة الوثنية ، أما اليهود والنصارى ، فقد علمت أمر اليهود منهم ، ومغالبتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالخيانة والنفاق ، وتأليب الناس عليه، بعد عهود أخذوها على أنفسهم ، ومن كان منهم في غير جوار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقد أخذ عليهم ميثاق الأمان على أن يؤدوا الجزية ، كما رأينا في كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأمراء الجنوب عندما ذكروا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عندهم يهودا ومجوسا ، يريدون أن يبقوا معهم من غير أن يغيروا دينهم الذي ارتضوا ، فأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤدوا الجزية ، ولا يرد عليهم دينهم .

أما النصارى فانهم لم يكونوا في حرب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يثيروا عليه أحدا ، الا ما كان من الروم ، أما نصارى العرب ، وخصوصا من كانوا في الجنوب ، فكانوا على مودة نسبية أو أقرب الى المودة ولذلك قال الله تعالى في نصارى العرب الذين كانوا يوالون المسلمين :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) المائدة

هذا وصف عام لوفد نجران الذيسنتحدث عنه ، وهنـــاك سبب خاص حركهم للمجيء وهو كتاب النبي صـلىالله تعالى عليـــه وسلم يدعـــوهم الى الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ،وذلك نص كتاب النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب أما بعـد فاني أدعوكم الى عبادة الله ، من عبادةالعباد ، وأدعوكم الى ولاية الله تعالى من ولاية العباد ، فان أبيتم فالجزية ، فانأبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام » .

أرسل الكتاب الى أسقفهم ، فلمـاقرأه ذعر ذعرا شديدا فبعث الى رجل من آل همذان اسمه شرحبيل بن وداعةوكان من همـــذان وكان مستشـــار الأسقف اذا حدثت معضلة .

فلما قرأ الكتاب قال الأسقف ما رأيك يا أبا مريم ، فقال قـــد علمت ما وعد الله ابراهيم في ذرية اسماعيلمن النبوة ، فما يؤمن بأن يكون هـذا هو الرجل ، ليس لي في النبوة رأي لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيـه برأى وجهدت لك فيه فنحاه ، واستشارغيره وتعدد المستشارون ، وكلهم أجاب بمثل جوابه ، فلما اجتمع الرأي منهمعلى تلك المقالة ، أمر الأسقف بالناقوس فضرب ، ورفعت المسوح في الوادي ،أعلاه وأسفله فاجتمـع حـين ضرب بالناقوس بطول الوادي مسـيرة الراكبالسريع يوما .

وسألهم الرأي بعد أن قرأ عليهـمالكتاب من رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم .

فاجتمعوا على ارسال وفد منهم يأتيهم بخبر هذا الرجل ، ولما وصـلوا المدينة خلعوا ثياب السفر ، ولبســواحللا يجرونها من الحبرة ، وخــواتيم الذهب ، ثم دخلوا على النبي ، وتصدوا له ليلا ونهارا فلم يرد عليهم،وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب فذهبوا الىعثمان بن عفـان ، وعبد الرحمن بن عـوف ، وكانوا يعـــرفونهما اذ كاناينجـــران ويخـــرجان العير لهما في الجاهلية .

ولما التقوا بهما قالوا لهمـــا : اننبيكما كتب الينا كتابا فأقبلنا مجيبين، فسلمنا عليه ، فلم يرد سلامنا ، وتصدينا لكلامه ، فأعيانا أن يكلمنا ، فمـا الرأى منكما ، أنعود .

اتجه عثمان وابن عوف الى علي بن أبي طالب يسألانه : ما رأيك يا أبا الحسن في هؤلاء القوم ، فقال علي رضي الله عنه ، أرى أن يخلعوا حللهم، وخواتيمهم ، ويلبسوا ثياب سفرهم ،ففعل الوفد ذلك ، ثم جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسلموا عليه ، فرد سلامهم •

وظهر من هذا أن السبب في أنه لم يرد سلامهم أنهم جاؤوا مختالين مفاخرين وأنهم يلبسون لباسا محرمة على الرجال •

وليعلمهم أنهم ليسوا داخلين على ملك في أبهة ، بل على نبي يعيش عيشة الفقراء ، وأن شرفه ليس من مال وثياب ، ولكن من رسالة الرحمن الرحيم ، وفوق ذلك ان عدم رده يخفف من خيلائهم ، ويجعلهم يعيشون كما يعيش •

وبعد أن رد سلامهم ـ بش في وجوههم كشأنه عند لقاء الناس ودخلوا عليه مسجده بعد العصر ، وقد صلوا متجهين الى المشرق،فأراد بعض المسلمين منعهم ، ولكن النبي السمح الكريم قال للمانعين دعوهم ،فصلوا مطمئنين•

كان الوفد ستين راكبا منهم أربعة وعشرون من كبرائهم ، فيهم ثلاثة لهم فضل رياسة أو شبه رياسة أولهم العاقب ، وهو أميرهم ، وذو الرأي فيهم ، وصاحب مشورتهم لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح •

وثانيهم ـ السيد ، وهو ممثلهم ،وصاحب رحلهم ومجتمعهم •

وثالثهم ـ أبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم، وصاحب مدارسهم وان أبا حارثة هذا قد صار ذا شرف فيهم ، ودرس كتبهم وملوك الروم من النصارى قد أعلوه فيهم ، أمدوه بالمال ، وجعلوا له خدما، وبنوا له الكنائس ، وكرموه لما بلغهم من علمه واجتهاده ، ولعل ذلك ليجعلوا نجران تحت نفوذهم مع بعدهم •

وكان أبو حارثة يعظم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في جهره وغيبه ، يروى أنه عندما اتجه أبو حارثة الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان يركب بغلة ، وبجواره أخ له يركب مثلها ، فعثرت بغلة أبي حارثة ، فقال أخوه : تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له

أبو حـــارثة تعســت أنت أنه والله النبي الأمي الذي كنا ننتظره فقـــال له أخـوه فمـا يمنعك من اتباعـه وأنت تعلم هذا ٠

قال أبو حارثة ما صنع بنا هؤلاء القـوم (الرومان) شرفونا ومـــولونا وأكرمونا ، وقد أبوا الا خـلافه ولوفعلت نزعوا منا كل ما ترى ، فأضمـر عليها أخوه واسمه كرز بن علقمـة ،حتى أسلم بعد ذلك ٠

وقد روى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أنه اجتمع نصارى نجـران وأحبار يهود عند رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم فقالت الأحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصـارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا ، فأنـزل الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)

وقال بعض أحبار اليهود أتريد منا يامحمد أن نعبدك ، كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ٠

وقال رجل من نصارى نجران أو ذلك تريد يا محمد واليه تدعونا ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : معاذ الله أن أعبد غير الله ، أو آمر بعبادة غـير الله ، ما بذلك بعثني الله ، وأمرني ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

ثم ذكرهم عليه الصلاة والسلام ما أخذ عليهم وآبائهم من الميثاق بتصديقه ، واقرارهم به على أنفسهم،فتلا قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ (١)

الى آخر الآيات وآخر ما سألوا عن عيسى ابن مريم وآخر مثله فأجيبوا بأنه رسول من عند الله وتلى عليهم ما جاء بالنسبة لعيسى عليه الصلاة والسلام في سورة آل عمران من أولها الى ثمانين آية من السورة .

بعد ذلك أخذ النصارى يسألون أسئلتهم ، قالوا ما تقول في عيسى فانا نصارى ، يسرنا ان كنت نبيا أن نعلم ما تقول فيه فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

فأبوا أن يقروا بذلك .

فلما أصبح الغد أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما أخبرهم بالمباهلة ، مشتملا على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له ، وفاطمة تمشي وراءه وله يومئذ عدة نسوة ولم يختر واحدة منهن وكان الوفد غير الثلاثة الذين ذكرناهم كما أشرنا في صدر كلامنا عن نجران ، مع رئيسه شرحبيل لا تصدر نجران الا عن رأيه،وعندما طلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المباهلة قال :

« ان الوادي اذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يصدر الا عن رأيي ، واني والله أرى أمرا مقبلا وأرى والله ان كان هذا الرجل ملكا ، كنا أول العرب

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

طعنا في عينه ، ويرد:عليه أمر لا يذهب من صدره ، ولا من صدور قومه ، حتى يصيبونا بجانحه ·

وان كان هذا الرجل نبيا مرسلا ،فلا عناه ، فلا يبقى على وجه الأرض مناحره ، ولا ظفر الا هلك ، ثم ذكـــررأيه فقال : « اني أرى رجلا لا يحكـــم شططا أبدا » ·

لني شرحبيل الذي لا يصدرون الاعن رأيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : « اني رأيت خـيرا من ملاعنتك قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وما هو ، قال شر حبيل :أحكمـــك اليـوم الى الليل وليلته الى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهـــو جائز ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستوثقا من نفاذ حكمه عليــــه وعلى من وراءه ، لعل وراءك أحـــدا يثرب عليكم ، فقل صاحبي (صاحبان له كانا في مجلس القول) قالا : ما يردالوادي ولا يصدر الا عن رأيه حـــكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وســـلمفـــكان الحكـم هو هـذا الكتاب الذي أعطاهم اياه ·

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماكتبه محمد النبي صلى الله تعالى عليــه وسلم لنجران ، ان كان عليهم حكمه ،في كل ثمرة ، وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ، ورقيق ، فافضل عليهــــم ،وترك ذلك كله ، على ألفي حلة ، في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفـــر ألفحلة ، وكل حلة أوقية ما زادت عـــلى الخراج أو نقصت على الأواقي فبحساب ، وما قضوا على دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم ليحـاسبه ،وعلى نجران مثواه رسلي بهـا عشرين فدونه ، ولا يحبس رسول فوق شهر ،وعليهم عارية ثلاثين درعا ، وثـــلاثين فرسا ، وثلاثين بعيرا ، اذا كــان كيد باليمن،وما هلك مما أعاروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من دروع أوخيل أو ركاب ، فهـو ضمان على رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم ، حتى يؤديها عليهم»·

ولنجران جوار الله تعـالى وذمـــةمحمد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وملتهم وأرضهم وأموالهـــم وغائبهـموشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهـم ، وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف

من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته،وكل ما تحت أيديهم من مال ، وليس عليهم ريبة ، ولا دم جاهليته ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ،ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بحرب .

وقد شهد هذه الوثيقة من حضر مجلس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: منهم أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف ، والأقرع ابن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة .

هذا كتاب ذمة اذا بقوا على نصرانيتهم ، أما اذا اختاروا أو بعضهم الاسلام دينا فانه من يختار الاسلام يأخذ حكم المسلمين ، ولا يكون ثمة فرق بينه وبين المسلمين .

وان من أساقفة نجران ورهبانهم من دخل في الاسلام معترفا بأنه النبي المنتظر من أولاد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام له ذلك .

ومن الرهبان من مال الى الاسلام ،وأراد الذهاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذهب اليه وأهداه بردا ،وكانت رغبته في الحضور للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرى كيف ينزل الوحي ، وأن يعلم الفرائض والحدود والسنن ، ومع ذلك أبى الاسلام ،واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع الى قومه ،وقال ان لي حاجة ومعادا ان شاء الله تعالى ، ولكنه لم يرجع حتى قبض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن ذلك كان في السنة العاشرة .

هذا وان السيد ، والعاقب ، وأبا الحارث الذين ذكرناهم في أول البحث في وفد نجران ، قد مكثوا عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستمعون اليه ويتعرفون حاله ، وهم غير وفد شرحبيل ، وكأن وفد نجران وفدان لتعدد أقاليم نجران ، وكنائسهم ، واختلاف أساقفتهم .

ومهما يكن فان وفد أبي الحارث الذي فيه السيد والعاقب قد غادر المدينة ومعهما كتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمدالنبي الى الأسقف أبي الحارث،وأساقفة نجران ، وكهنتهم ورهبانهم ، وأهـــل بيتهم ، ورقيقهم وملتهم ، وعــلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير جـوارالله ورسوله،لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن منكهانته ، ولا يغير حق من حقوقهـم ، ولا سلطانهم ، ولا مما كانوا عليه علىذلـك جـــوار الله ورســـوله ، أبدا ما نصحوا وأصلحوا عليه غـير منقلبين بظالم ولا ظالمين ٠

فهذا الكتاب آخر كتاب ، وفيـــه عقد ذمة ٠

٦٨٠ ـ كان لنجران وفدان ، كمارأيت ، وكان ذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعاهم الى الاسلام ،أو العهد (عهد الذمة) على أن لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، أوأن يقاتلوا ، فجاءوا اليه في وفدين ، وكتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلمكتاب عهد لكل وفد منهما ٠

ولعل السبب في مجيء وفدين ، اختلاف الكنائس ، وان لم يكن ثمة اختلاف في المذهب ، وان كان فانه لايكون مفرقا بينهم فتعددوا ٠

وان هذا الوفد وغيره سواء تعددواأم لم يتعددوا يدل على ان الاسلام أخذ ينشر نفسه بدعوته من غير حرب ، وماكان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحارب قوما اعتزلوا حربه وألقواأليه السلم ، فما كان القتال ، كما يبدو من أخباره ، لأجل خلاف الدين ،انما كان لحماية الدعوة لتصل الى الشعوب ، فلا يحاجز بينهم وبينهاأمراء أو ملوك ، أو أحبار ورهبان ، بل تكون وجوههم لله تعالى ، يختارونفي الأديان ما يرونه حقا ، ولأن الدعوة الاسلامية ، لا بد أن يسمعالناس دعوة الحق من غير ارهاق أمير ، أو اغراء زعيم ديني أو غير ديني ٠

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليهوسلم يرحب بهذه الوفود ، ويبش لهم الا أن يجد فيهم أمرا من شأنه أنيكون مفرقا بين الجماعات ، بحيث يحنق الفقير ، ويرمض قلبه ، فلم يبش فيمنيدخلون عليه بزينة من الحرير محلى بالذهب ، كما كان يخرج قارونعلى القوم بزينته ٠

ولحسن لقاء النبي صلى الله تعالىعليه وسلم كان يستقبلهم في المسجد ، وان فعل النبي صلى الله تعالى عليهوسلم يدل على جواز أن يدخل الكتابي المسجد ، واني لا أرى باسا في أن يدخل غير الكتابي لأجل سماع العلم الاسلامي ، وعقد المعاهدات كماكان يفعل عمر ٠

وان دخولهم المسجد حسن ، اذ يرون المسلمين يؤدون الصلوات ،ويقومون

بالفرائض ، ويحيطون بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم احاطة الدائرة بقطرها ان ذلك من شأنه أن يؤثر في نفوسهم فيستجيبوا لداعي الحق •

الإذعان والإيمان

٦٨١ ـ هنا مسألة يثيرها ابن القيم حول وفد نجران، فقد كان منهم من يعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه النبي المبشر به في التوراة والانجيل ، ولكنه لا يستجيب لداعي الاسلام بالانقياد والاذعان والرضا بحكم القرآن واعلان الطاعة ، ويقول ان ذلك الاذعان لخوف أن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقرر ابن القيم أن ذلك لا يعد قد دخل في الاسلام أو وصف الايمان ، لأن الايمان ليس هو مجرد المعرفة ، بل الايمان معرفة وتصديق ، واذعان ، فاذا لم تكن هذه الأوصاف مجتمعة لا يكون ثمة ايمان ، لأن الانقياد والاذعان غير قائمين •

وان ذلك كلام حق ، لأنه لابد أن يدخل في ولاء المسلمين ، وينضم الى جماعته ، وتكون ولايته ولله وللمؤمنين كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ (١)

ونرى الاذعان قسمان : إذعان قلبي ، ويكتفى به اذا كان ما يمنع من اظهار خوف اتلافه كخوف من عدو قاهر ، أو اخفائه لكي يجذب الناس الى ما اعتنق من دين بتشكيكهم فيما يعتقدون من باطل ، وقد أجاز النبي ذلك لبعض وفد ثقيف ، فان الايمان الحقيقي قائم في معناه وهؤلاء يؤدون الفرائض ، ويكتفي منهم بذلك ولا يطلب خوفا من الاذعان العلني ، فالتصديق قائم والاذعان قائم

والقسم الثاني يوجد فيه معرفة كمعرفة بعض المشركين ، وأثر هذه المعرفة تصديق لساني يظهرونه كأولئك الذين قالوا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نعرف أنك النبي ، ولكن لانسلم ، لأننا نخشى أن يقتلك اليهود ، فأولئك وان عرفوا لا يؤمنون ، بل يكفرون •

---

(١) المائدة

سعد بن بكر

٦٨٢ ـ هذا الوفد كان رجلا واحدا جاء مسلما معلنا اســلامه عندما علم بأمر النبي صلى الله تعالى عليــهوسلم ، ودعوته ، وانتشرت الدعوة ، وصار لكلمة الله السلطان ، وتجـاوبت بها الركبان ، فجاء يستوثق من الأمر من صاحب الدعوة الحق ، ولقــد قال ابن اسحاق بسنده ، بعثت بنو بكر ، ضمام بن ثعلبة وافدا على رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقــدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأناخ بعيره على باب المسجد وعقله ثم دخل وهو لا يعرف شخص محمد صــلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال في جفــوة من لا يعرف : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم أنا ابن عبد المطلب ، وكــانت المجاوبة على الوجه الآتي :

قال ضمـــام : اني سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تجدن في نفسك ٠

فقال النبي الرفيق : لا أجــد في نفسي ، فسل عما بدا لك ٠

فقال ضمام : أنشدك بالله الهك ، واله أهلك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك الله بعثك الينا رسولا ، قال اللهم نعم ٠

قال ضمام فأنشدك بالله الهك واله أهلك واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هــذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدونهــا ، فقــال رسول الله صلى الله تعالى عليــه وســلم اللهم نعم ٠

ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة ، فذكر فريضة الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، في كلها ينشده عنــد كل فريضـــة ، بالصيغة التي ذكرها ٠

حتى اذا فرغ منها ، قال : « فاني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وسأؤدي هــذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنـــه ، لا أزيــد ولا أنقص » ٠

ثم انصرف عائدا الى بعيره ٠

وقد أثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليه خيرا ٠

عاد الى قومه مؤمنا داعيا شاهدا بالحق ، وفاجأهم بأن أعلن كفره بالأصنام ، وقال : بئست اللات والعزى ٠

فخشي عليه قومه من أن يصاب بسوء لزعمهم في الأصنام ، فقالوا مشفقين ، مه يا ضمام اتق البرص والجذام ، اذ يزعمون أن من سبها يصاب بذلك ، وثبت ذلك الزعم في أوهامهم ٠

فقال لهم : « انهما ما يضران ولاينفعان ، ان الله تعالى قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذتم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا اله الا الله، وأن محمدا عبده ورسوله ، واني قد جئتكم من عنده ، بما أمركم به ، وما نهاكم عنه » ٠

استجاب قومه لداعي الايمان ، ويقول ابن اسحاق ما أمسى في اليوم في حاضره رجل ولا امرأة الا مسلما ،فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام ابن ثعلبة ٠

والقصة رويت بهذا السياق في الصحيحين ٠

فهي ثابتة ، وهي تدل على مدى انتشار الاسلام في ربوع البلاد العربية ومدى الاستعداد لدعوة التوحيد ، ولدين الفطرة ، فما كانت الوثنية مع معرفتهم بالله الا غشاوة أزالتها الحقيقة النيرة الناصعة ، فكانوا مسلمين موحدين ٠

٦٨٣ ـ قلنا ان البلاد العربية دخلها الاسلام عندما أعلنت للجميع حقائقه ، وعرفوا خصائصه ، وزالت غشاوة الوثنية عن نفوسهم ، اذ العرب في جاهليتهم كانوا أقرب الى التوحيد من غيرهم لأنهم يعرفون الله تعالى وفيهم بقية ملة أبيهم ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

كان وفد تجيب خير وفد جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما ذكر ذلك عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء مسلما منفذا لأوامر الاسلام ، مجتنبا نواهيه .

جاء بالصدقات ، بما فضل من فقرائهم ، ولقد قال فيهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ان الهدى بيد الله فمن أراد الله به خيرا شرح الله صدره للاسلام» وقال أبو بكر صديق هذه الأمة «يا رسول الله ، ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب » .

أخذوا يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن القرآن وعن السنن، ويسألونه عن أحكام تفصيلية فكتب لهم بها .

ولم يطلبوا الاقامة ، فقيل لهم مايعجلكم ؟ قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكلامنا اياه ، وما رد به علينا .

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحسن ضيافتهم .

ولما هموا بالسفر ذهبوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليودعوه فأرسل بلالا ليعطيهم جوائز من مال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من خمس خمسة من الغنائم ، فقد جعله عليه الصلاة والسلام للدعوة، وما كانت هذه الجوائز من قبيل اعطاء المؤلفة قلوبهم ، فأولئك قد جاءوا مؤلفين للاسلام من تلقاء أنفسهم ، انما هذه الجوائز أعطيت رمزا لمحبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومرضاته .

وبعد أن أعطى الجوائز لهم واحداواحدا ، قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ألم يبق منكم أحد ؟ قالوا :غلام خلفناه على ركابنا ٠

جاء الغلام الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله اني امرؤ من الرهط الذين أتوك آنفا،فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتي يا رسول الله ، قال عليه الصلاةوالسلام ، وما حاجتك ؟ قال الغلام حاجتي ليست كحاجة أصحابي وانكانوا قد قدموا راغبين في الاسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وانيوالله ما أعجلني من بلادي الا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ،وأن يجعل غناي في قلبي ، فأقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الغلام،وقال : « اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه » ٠

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل منأصحابه ٠

انطلق الوفد ، وكان مؤلفا من ثلاثة عشر رجلا راجعا الى قومه ٠

ثم وافوا رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم بمنى سنة عشر ، ويظهر أن ذلك كان في حجة الوداع ، بل من المؤكد ذلك ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدخل بعد عمرة الجعرانة الا في حجة الوداع ، حيث تمت رسالته ، ونزل قوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ج(١)

عندما التقى النبي صلى الله تعالىعليه وسلم بوفد تجيب في منى سألهم عن الغلام القنوع الذي دعا له النبيصلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون غناه في قلبه ، فقالوا : يا رسول الله ما رأينامثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله تعالى : لو أن الناس اقتسمواالدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت اليها عاش ذلك الغلام الى أن انتقل النبيصلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، ورجع من رجع من أهلاليمن ، فقام في قومه ، فذكرهم الله والاسلام ، فلم يرجع منهمأحد٠٠

(١) المائدة

وفد بني سعد من قضاعة

٦٨٤ ـ كان العرب قسمين ـ أحدهما ـ دخل في الدين راضيا مختارا ، وهذا هو البناء الأول للجماعة الاسلامية ، ومن دخلوا في دين الله تعالى من البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وقسم رأى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخضع المعاندين والجاحدين لأن يستمعوا هم ومن وراءهم لدين الحق.

فما كان لغير القسمين الا أن يختار مطمئنا راضيا الا أن يتقدم للنبي طالباً منه المعرفة ، وهذا ما رواه الواقدي بسند عن كبير وفد بني سعد من قضاعة ، فقد قال : « قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وافدا في نفر من قومي ، وقد أوطأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البلاد وأداخ العرب ، والناس صنفان ، اما داخل في الاسلام راغب فيه ، واما خائف من السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه.

ونقف هنا وقفة قصيرة عند كلمة كبير هذا الوفد ، وهي كلمة العرب ، فاننا نرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أداخ العرب ، ولكن أداخ الجاحدين العاندين الذين رفعوا عليه السلاح وآذوه ، فهم الذين أداخهم ، لتذهب الفتنة ، ويكون الدين لله تعالى، وقد يكون من العرب الذين ينتظرون من دخل في الاسلام بعد أن زالت المحاجزات بانتصار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن الأعراب من دخل في دين القوي ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ (١)

دخل الوفد مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدوه يصلي على جنازة ، فقاموا في ناحية من المسجد، ولم يشتركوا في صلاة الجنازة .

(١) الحجرات

التقوا برسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم فسألهم : أمسلمون أنتم ؟ قالوا نعم قال فهلا صليتم على أخيكم ،فقالوا يا رســـول الله ظننا أن ذلــك لا يجوز لنا حتى نبايعك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أينمـا أسلمتم فأنتم مسلمون ، يشير بذلك الى أن الدخول في الاســـلام لا يحتاج الى مبايعة ، وأن الاســلام قد تم ، وأنتم في مكانكم شهدتم أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ٠

بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام، على أن يقوموا بحقه، فيطيعوا أوامره ، ويجتنبوا نواهيه ،ثم انصرفوا الى رحالهم قد خلفوا عليها أصغرهم ، وقد طلبهم رسول الله صــلى الله تعالى عليه وسلم ، ليتقدم هـــذا الذي تركوه على رحلهم ، فبايعه عــلى الاسلام كما بايعهم ، وقال:(أصغر القوم خادمهم) ، وكأنه أقـــره وأقرهم عــلى خدمته لهم ، وقيامه على رحلهم ، ولقد كان ذلك الصغير أقرأهم للقـــرآن ،فكان يؤمهم ، وذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعا له بالبركة ، ولما اعتزموا الانصراف أمر رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم لهم بجـــوائز ،فأعطى كل رجل أواقي من فضـــة وان ذلـــك بـــلا ريب من خمس الخمس المخصص للنبي وآله ، فكان ينفقه في سبيل الدعوة الاسلامية ٠

وفد فزارة

٦٨٥ ـ جاء في كتاب الاكتفاء أنه قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد رجوعه من تبوك وفدبني فزاره وهو مؤلف من بضعة عشر رجلا منهم الحسن بن قيس ابن أخي عيينة بن حصن وهو أصغرهم ، جاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مقرين بالاسلام ، وكانوا في شدة فكانوا على ركاب عجاف ، سألهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن بلادهم ، فشكوا اليه حالهم ، وقالوا :

أسنتت (أي أصابتنا شدة) بلادنا، وهلكت مواشينا ، وأجدب جنابنا ، وغرث (جاع) عيالنا ، فادع لنا ربك يغيثنا ، واشفع لنا الى ربك ، وليشفع لنا ربك اليك ، فرأى فيهم صلى الله تعالى عليه وسلم جهلا بربهم فقال هاديا مرشدا لمن خاطبه بهذا : ويلك هذا انما شفعت الى ربي عز وجل ، فمن الذي ربنا يشفع اليه ، لا اله الاهو العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض ، فهي تئط من عظمته وجلاله، كما يئط الرجل من الحديد .

رق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحالهم ، ودعا ربه مستسقيا ، وصعد المنبر ، ورفع يديه بالدعاء ،وكان لا يرفع يديه في الدعاء الا في الاستسقاء .

ومما جاء في دعائه عليه الصلاة والسلام :«اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك ، وأحي بلادك الميتة ،اللهم أغثنا غيثا مغيثا مريحا مريعا واسعا عاجلا غير آجل ، نافعا غير ضار،اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ولا غرق ، ولا حرق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء ، بهذا الدعاء الضارع الى الله من أحب خلق الله تعالى اليه أدرت السماء غيثا لا غيث فيه ، ونال بني فزاره ما أزال شدتهم » .

وفد بهراء

٦٨٦ ـ قدم وفد بهراء من اليمن، كما ذكر الواقدي ، وكانوا ثلاثة عشر رجلا ، فاقبلوا يقودون رواحلهمحتى انتهوا الى باب المقداد بن الأسود وكان قد أعد طعاما لأولاده جفنة حيس(ثريد) فقدمه لهم وبارك الله تعالى فيه ، فأكل منه الوفد ، وبقي لأولادالمقداد ما كفاهم ، وكأنه لم ينقص منه شيء ، وقد بقي بعد أكل آل المقدادمقدار أرسلوه الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قصعة صغيرة ، وكان فيبيت أم سلمة ، فأكل منه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم رد ما بقي ،فأكل منه الوفد ، وهكذا استمر الوفد يأكل منه مدة اقامته ببركة رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكانت هذه أمرا خارقا للعادة ،ثبت اسلامهم ، وقد جاءوا مسلمين ، وبايعهم رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم على الاسلام ، وجعلوا يقولون : نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

وتعلموا الفرائض ، واستحفظوابعض القرآن ، وأقاموا أياما ، ثم ودعوا رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم ، وقد أجازهم ، كشأن كل وفد يجيء اليه ، وذلك من خمس الخمس الذي أفاء الله تعالى به .

ونرى أن هذه الوفود جاءت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن وصلتهم الدعوة وأسلموا ، فجاءواليستوثقوا لاسلامهم ، ولينالوه بركة السماء .

قدوم وفد عذرة

٦٨٧ ـ في صفر سنة تسع قدم اثنا عشر رجلا هم وفد قبيلة عذرة ، ولهم بقصي جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلة ، لأنه كان أخاهم من أمه •

ولذلك لما سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من القوم ؟ قال متكلمهم من لا تنكره ، نحن بنو عذرة أخو قصي لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ، ولنا قرابات وأرحام قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أهلا بكم ومرحبا ما أعرفني بكم ، فأسلموا •

وقد بشرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهاهم عن بعض أوهام الجاهلية ، بشرهم بفتح الشام ، وفرار هرقل حيث امتنع في ممتنع من بلاده ، وقد حدث ذلك فقد خلصت الشام من قبضة هرقل بعد واقعة اليرموك التي قال فيها وقد علا نشزا من الأرض سلام عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده ، ونهاهم عن سؤال الكهنة ، فان الله وحده هو الذي اختص بعلم الغيب ، ونهاهم عن الذبائح التي كانوا يذبحونها تقربا لله في زعمهم ، وأخبرهم أنه ليس عليهم الا الأضحية قربا لله ، وما عداها طعام يطعمونه •

وفد بلي

٦٨٨ ـ قدم هذا الوفد في ربيع الأول من سنة تسع ، فأنزلهم رويفع ابن ثابت البلوي عنده ، ولم يذكر عدد هذا الوفد ، ولكن يظهر أنه لم يكن عددا كبيرا ، يضيق بضيافته رويفع بن ثابت ، وقد قدم بهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال له هؤلاء قومي فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مرحبا بك وبقومك وقد أسلموا ، فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله الذي هداكم للاسلام ، فكل من مات على غير الاسلام فهو في النار » .

وكان في الوفد رجل مضياف ، هو شيخه ، وهو أبو الضبيب فسأل الرسول عن الضيافة فقال ، يا رسول الله اني رجل لي رغبة في الضيافة فهل لي في ذلك أجر ، قال عليه السلام: نعم ، وكل معروف صنعته الى غني أو فقير فهو صدقة ، قال يا رسول الله ما وقت الضيافة ! قال : ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يصح للضيف أن يقيم عندك فيحرجك ، ثم سأل في أمر آخر ، وهو ما يضل من الشاه أو البعير ، فقال يا رسول الله ، رأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض ؟ قال : هي لك أو لأخيك أو للذئب قال فالبعير ، قال مالك وله ،دعه حتى يجده صاحبه .

وقد انتقلوا بعد ذلك الى منزل من استضافهم وهو رويفع بن ثابت البلوي ، فكان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يأتي هذا المنزل يحمل تمرا ، ويقول : « استعن بهذا التمر ،وكانوا يأكلون منه ومن غيره » .

وان كلام النبي مع هذا الوفد اشتمل على أدب كريم من آداب الاسلام، وعلى حكم شرعي ، يتعلق باللقطة ، ومن الحق علينا أن نشير الى الأمرين .

لقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يروى عنه « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وان من مكارم الأخلاق الضيافة ، وانها في ذاتها ترابط انساني ، وتعاون ومحبة بين الناس ،وهي ضرورة اجتماعية في البوادي

وما يشبه البوادي ، فالرجل يسير في البادية قد ينبت به الطريق ، فلا يجد مأوى يأوي اليه الا أن تكون ضيافة كريم ، ولذلك تكون فضيلة الضيافة ضرورة انسانية في البادية ، ثم تخف ضرورتها كلما ابتعدت عن البادية ، فهي في القرى شبه ضرورة ، وهي في الحواضر حيث تتوافر الحاجات من طعام ومنام تكون معروفا ، أو مروءة.

وهي تأخذ الحكم الشرعي على حسب هذه الأحوال ، فهي واجبة اذا كان الانسان لا يجد له مأوى ، وقريب من الواجب اذا كان لا يجد المأوى الا بعسر، وهي معروف يوجد ألفة ومحبة اذا كان يجد .

هذا ما يكون شرعا بالنسبة للمضيف، أما الضيف فان عليه ألا يطيل الاقامة، بحيث يحرج رب البيت بل انه لا يقبل المبيت اذا كان فيه حرج لرب البيت ، ولم تكن ثمة ضرورة ملجئة ، ولا حاجة تدفعه .

وفي حديث اتفقت عليه الصحاح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ويعطه جائزة ، قالوا وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه » .

وفي خبر هذا الوفد أنه سأله صلى الله تعالى عليه وسلم أحدهم عن الضالة من الغنم ، وعن البعير ، فقال عن البعير مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه ، فلا يأخذه ، لأنه اذا غاب عن صاحبه طلبه ، وبحث عنه ، ولأن البعير يقوم بذاته أمدا طويلا ، ولأنه ان أخذه غيبة عن صاحبه ، فلا يهتدي اليه ، اذ يطلبه .

وعن الشاة الضالة التي يجدها الرجل في الصحراء ، حيث لا مرعى وحيث لا مأوى ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : هي لك أو لأخيك أو للذئب ، وهذا النص يفيد أنها حلال له ، وهو نص فيه حكمته ، ذلك أن الشاة وجدت في الصحراء ، حيث يصعب التعريف، وفرض أن لها صاحبا يمكن أن يعثر عليها بالتعريف بعيد ، لأنه لا يوجد من يعرف بها ، اذ هي فلاة، وفرض أنها تخلفت من قافلة مضت هو الأقرب .

وفي هذه الحال يكون ان تركها ، ربما يجدها غيره ، فيأكلها ويذبحها ،

وذلك يكون احتمالا ، وربما لا يجدها أحد فتموت جوعا ، أو يلتهمها الذئب ، وانه بعد هذا الترديد يكون الأولى أن يذبحها ويأكلها ، لاحتمال الضياع ، ولا تجوز اضاعة المال ٠

وهذا الفرض يفرض أن الشاة في فلاة غير ممكن معرفة صاحبها ، فان كانت قريبة من خباء أو من نبع ماء ، يجيء اليه الناس ، ويمكن تعرفهم ، فانه في هذه الحال يكون التعريف واجبا ٠

وفي الحق ان الواجد للشاة الضالة في الصحراء تكون حاله مترددة بين أمرين : أولهما ــ أن يكون كالملتقط الذي يذهب في الصحراء يبحث عن بعض النباتات المتخلفة فيها ، ويجري التقاطها ، لأنه لا مالك لها ، وبين أن تكون الشاة لقطة وجدها ، ولها صاحب غير معروف ، ولا يمكن معرفته فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم حكم بأنها تأخذ حكم الالتقاط ، لأنها ان تركت أكلها الذئب ٠

والفقهاء يرفضون أنه قد يعلم مالكها من بعد ، فقرروا أنه ان وجد أعطاه قيمتها ٠

وفد ذي مرة

٦٨٩ ـ كان العرب يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمين، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرفهم ، ويتعرف أحوالهم ، وقد جاء وفد ذي مرة وهو مؤلف من ثلاثة عشر رجلاعلى رأسهم الحارث بن عوف ، وقد ذكروا أنهم ينتمون الى نسب النبي صلىالله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله انا قومك وعشيرتك نحن بنو لؤيبن غالب ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسأله عن أهله ،وفيأي مكان تركهم ، ثم سأله عن أحوال البلاد لأنهم باسلامهم صاروا رعيته ،فقال الحارث أنهم (لمسنتون) (أي في شدة وقل) ما في المال مخ ، فادع اللهلنا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اسقهم الغيث » .

أقاموا أياما ، ولما أرادوا الانصراف الى بلادهم جاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مودعين له ، فأمر بلالا فأجازهم ، فأعطى كل واحد عشر أواق من فضة ، وجعل للحارث اثنتي عشرةورجعوا الى بلادهم فوجدوها مطيرة ، فسألوا متى أمطرت ، فتبين أن ذلكالمطر الذي أغاثهم أنزله الله تعالى وقت دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفد خَوْلان

٦٩٠ ـ هذا وفد خولان ، وفد قوم آمنوا بالله ورسوله ، وقد قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعددهم نحو عشرة ، قدموا في شهر شعبان سنة عشر .

وقال قائلهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (يا رسول الله ، نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل ، ومصدقون برسوله ، وقد ضربنا اليك آباط الابل، وقد ركبنا حزون الأرض وسهولها ، والمنة لله ورسوله علينا ، وقد جئنا زائرين).

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (أما ماذكرتم من مسيركم الي ، فان لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة ، وأما قولكم زائرين ، فانه من زارني بالمدينة كان بجواري يوم القيامة).

ولقد كان لهم صنم كانوا يسمونه عم أنس ، وكانوا مفتونين به ، يسندون اليه بأوهامهم خوارق للعادات ، أو نعما يجريها الله تعالى ، فيحسبونها له وذلك لفرط ضلالهم ، وفتنتهم به ، فلما أعلنوا ايمانهم وتبين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم صدق ايمانهم ، ويقينهم الحق سألهم عما صنعوا في صنمهم ، ومن يؤمن منهم فهل لهم من بقية .

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :(ما فعل عم أنس).

قالوا : أبشر بدلنا الله تعالى به ماجئت به ، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير ، وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه لهدمناه ان شاء الله تعالى ، فقد كنا منه في غرور وفتنة .

يتقصى رسول الله أخبارهم ، ويتعرف ما كانوا عليه ، قبل هذا اليقين .

سالهم رسول الله : ما أعظم ما رأيتم من فتنة .

قال متكلمهم : لقد أسنتنا (أي أصابتنا سنة شديدة) ، حتى أكلنا الرمة فجمعنا ما قدر عليه ، وابتعنا مائة ثور ونحرناهم ـ لعم أنس قـربانا ـ في غداة واحدة ، وتركناهـا للسباع ، ونحن أحوج اليها من السباع فجاءنا الغيث من ساعتنا ، ولقد رأينا العشب يواري الرجال ، ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس .

وان هذه المصادفة الغريبة قد فتنتهم ، فاعتقدوا أن الصنم هو الذي أغاثهم ، وهو لا ينفع ولا يضر ، وكثيرا ما تجيء الأمور مصادفة فيحسبها الواهمون أثرا للالتجاء لحجر أو لشخص ، أو لكاهن ، أو لتعويذة ساحر ، وان ذلك فتنة ، ولعل هذه المصادفات كانت من أسباب عبادة الأصنام التي لا تملك من الأمر شيئا وكان ما ينتجونه يجعلون نصفه لهذا الصنم قربانا ، ونصفه لله ، وما يجعلونه لله ، يعطونه لصنمهم شيئا ، ولا يعطون مما لصنمهم شيئا لله تعالى ، وذلك كله فيما يحبسونه للقربات .

وقد ذكر متكلم الوفد ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أنهم كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم ، وأنهم كانوا يجعلون ذلك جزءا له ، وجزءا لله في زعمهم ، قالوا كنا نزرع الزرع ، فنجعل له وسطه (أي أحسنه) فنسميه له ، ونسمي زرعا آخر حجر الله تعالى ، فاذا مالت الريح ، فالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس ، ولم نجعله لله تعالى ، فذكر لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله أنزل في كتابه عملهم مستنكرا ، فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (١)

وهكذا كانت الأوهام مسيطرة عليهم تلك السيطرة ، وقد اقتلعتها عقيدة الوحدانية اقتلاعا من نفوسهم ، وكانت دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،

(١) الانعام

وما اقترن بها صاهرة لهذه الأوهـــام مبينة ما فيها من زيف وباطل ، وتبين الرشد من الغي والله يهدي من يشـــاء الى صراط مستقيم ٠

وقد أوصى النبي صلى الله تعـــالى عليه وسلم بوصايا كريمة ، أوصاهـم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وحســن الجوار لمن جاوروا ، والا يظلموا أحدا وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الظلم ظلمـــات يوم القيامة ، وســـألوه عن فرائض الدين وأحكامه فعلمهم اياها،ثم غادروه بعد أيام ، وأجازهم المطايا ولما رجعوا الى قومهم ، لم يحلوا عقـــدة رحالهم حتى هدموا عم أنس صنمهم ٠

وفد محارب

٦٩١ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في السنتين الأخيرتين من مقامه بمكة قبل الهجرة وذلك في موسم الحج ، بعد أن علم أنه لن يؤمن من قريش الا من قد آمن ، فكان أشد القبائل غلظة في الرد وعنفا في اللقاء قبيلة محارب ، ردوا دعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى التوحيد ردا فظا غليظا منكرا ، وذلك لغلظ رقابهم ، ولذلك كانوا من آخر القبائل ايمانا ، فلم يجيء وفدهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا الا في السنة العاشرة عام حجة الوداع ٠

ولقد كان عدد الوفد عشرة جاؤوا نائبين عمن وراءهم ، وقد أعلنوا اسلامهم ، واسلام قومهم ٠

ولقد نزلوا في ضيافة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان بلال يأتيهم بالغداء والعشاء ، حتى التقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معلنين اسلامهم واسلام قومهم ٠

وقد جاء معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما من الظهر الى العصر ، وكان فيهم رجل أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنظر فيه ، وأدامه فيه ٠

فقال المحاربي : كأنك يا رسول الله توهمتني ٠

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : لقد رأيتك وكأنه الي أنه كان منه شيء ٠

قال المحاربي : أي والله لقد رأيتني وكلمتني ، وكلمتك باقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد ، بعكاظ ، وأنت تطوف على القبائل ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم ٠

قال المحاربي : ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الاسلام مني ، فأحمد الله الذي أبقاني حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم .

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ان هذه القلوب بيد الله عز وجل .

قال المحاربي : يا رسول الله استغفر لي من مراجعتي اياك .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ان الاسلام يجب ما كان قبله من كفر ، ثم انصرفوا من بعد ذلك عائدين الى أهلهم .

وقد نرى في هذا الوفد ولقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهرتين واضحتين :

احداهما ــ أن الله تعالى قد يخرج من القلوب القاسية قلوبا مذعنة طيبة.

الثانية ــ ضلال العقول وسيرها في الشر ، فاذا قذف الله تعالى فيها بنور الحق اهتدت وآمنت وسبحان مقلب القلوب .

وانك ترى سماحة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفقه ، واتيانه القلوب من حيث اقبالها .

وفد صداء

٦٩٢ ـ جاء هذا الوفد مكونا من نحو (١٠٠) من أهل صداء باليمن ·

ويرجع أمر هذا الوفد الى سنة ثمان من الهجرة عندما اعتمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرته الجعرانه فانه أرسل الى صداء باليمن جيشا مكونا من نحو أربعمائة مقاتل بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ·

فقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجل منهم قد علم بأمر الجيش ويظهر أنه كان يعلم من قومه أنهم يميلون الى الاسلام خصوصا بعد أن فتح الله تعالى على نبيه الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ·

فجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله جئتك وافدا على من ورائي فاردد الجيش ، وأنا آتي لك بقومي ·

فرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الجيش ، وقد ذهب الرجل الصدائي واسمه زياد بن الحارث ، كما ذكر الواقدي في تاريخه الى قومه فأتى منهم بوفد عدده خمسة عشر رجلا ، وقد قال سعد بن عبادة ، دعهم يارسول الله ينزلوا علي فنزلوا عنده ، فحياهم وأكرمهم ، وكساهم ، ثم ذهب بهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبايعوه على الاسلام ، وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ·

رجعوا الى قومهم ففشا فيهم الاسلام ، وقد توافرت أسباب فشوه ، فهو حق في ذاته ، ولا غرابة في أن يفشو دين الفطرة ، بين قوم أرادوا الحق اذ لم يعاندوا ، أو يفرضوا خصومه ، ولأنه قد تم فتح مكة التي كانت تناوىء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبالغ في مناوأته ، ولأن السلطان في البلاد العربية صار للاسلام وما لعربي أن ينأى بجانبه عن دين ساد البلاد العربية الا لأنه رأى أن في غيره ما هو خير منه، والاسلام خير الأديان ، وهو الحق الباقي ·

فشا الاسلام في صداء ، ويظهر أنه كانت لهم صلة بالخزرج بدليل ضيافة سعد بن عبادة ؛

ولذلك جاء من بعد ذلك مائة رجل منهم وافدين على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع ، ويظهر أنه الوفد الذي جاء في النهاية مسلما ·

وعلى ذلك نقول ، انه جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صداء ثلاثة وفود ·

أولها : زياد بن الحارث الذي جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب اليه أن يرد الجيش ، وقد قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يا أخا صداء أئنك مطاع في قومك ، فقال له بلى مِنْ مَنِّ الله عز وجل ومنّ رسوله ·

وثانيها : الوفد الذي حضر مع زياد وعدده خمسة عشر رجلا ، قد استضافهم سعد بن عبادة ، وأولئك بايعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وأن ينشروه في قومهم ·

وثالثها : وفد الجماعة الذين جاؤوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والتقوا به في حجة الوداع، حيث يودع رسول الله أمته ، وقد أودعها أمانته ، وحملها رسالته ·

ولقد صحب زياد بن الحارث الصدائي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في بعض غدواته وروحاته ، ورأى من الخوارق الحسية المادية التي جرت على يديه ما زاده ايمانا ·

ويروى أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم سأل زيادا في سيره في الصحراء أمعك ماء يا أخا صداء ؟ قال معي شيء في اداوة ، قال عليه الصلاة والسلام هاته فجاء به ، ويقول زياد :صبب ما في الأداوة ، فجعل أصحابه يتلاحقون ثم وضع كفه على الاناء ،فرأيت بين كل اصبعين من أصابعه عينا تفور ، ثم توضأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأذن للصلاة ، آذن لها زياد وأقامها ، وأراد بلال أن يقيمها ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم(من أذن للصلاة يقيمها)·

ولقد سأل زياد بن الحارث أن يوليه عليه الصلاة والسلام امرة قومه فولاه ، لأنه وجده كفئا لذلك اذ كان مطاعا في قومه ، كما وصفه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنه كان داعية الاسلام فيهم فكان من الخير للاسلام ولهم أن يتولى هو ولايتهم ، ولأنه لم يرد الولاية لذاتها ، ليكون له سيطرة وسلطان ، بل أراد الأمرة على قومه لغاية رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تحققها ، وذلك جائز ، ولا يعارض قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وانا لن نولي على عملنا من أراده ، لأن نص الحديث يمنع الولاية ممن أرادها للسلطان والسيطرة لا للعمل ، واقامة الحق

ولكن زيادا لم يستبق الولاية ، بل استقالها وأعطى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابي الامارة ، وولاية الصدقات ٠

وذلك لأن سائلا شكا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن واليه طغى عليهم ، ويقول ان عاملنا أخذنا بدخول الجاهلية أو بثاراتها ، ويفهم من القصة أنه عزله ، وقال لا خير في الامارة لرجل مسلم ، وسأل رجل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعطيه من الصدقة فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله لم يكلها الى ملك مقرب ، ولا لنبي مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فان كنت جزءا منها أعطيتكها ، وان كنت غنيا ، فانما هي صداع في الرأس وداء في القلب » ٠

فهم زياد بن الحارث من هذا أن الولاية لا تأتي بخير للمسلم ، بل هي ابتلاء له ، فاستقال منهما ، وقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا رسول الله هذان كتابان (كتاب الامارة وولاية الصدقات) فاقبلهما ،فسأله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عن السبب ، فقال : اني سمعتك تقول : « لا خير في الامارة لرجل مسلم ، وأنا مسلم ، وسمعتك تقول من سأل الصدقة وهو غني عنها ، فانما هي صداع في الرأس ، وداء في القلب ، وأنا غني »٠

أقاله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن سأله أن يدله على رجل منهم فدله عليه ٠

وهكذا نرى أن ذلك الوفد كسب من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ايمانا وعلما والله تعالى الهادي ٠

قدوم وفد سلامان

٦٩٣ ــ هذا وقد جاء من الصحراء وفد سلامان يعلن اسلامه ، ويشكو حاله ، وكان مؤلفا من سبعة رجال فيهم حبيب بن عمرو ، وقد أسلموا ، وأعلنوا اسلامهم ٠

وقد أخذوا يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاسلام ، وعن حقائقه ، وكان من أسئلتهم ما أفضل الأعمال ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ــ الصلاة في وقتها ــ وكانت أفضل الأعمال لأنها تهذب النفس باستمرار اذا أديت في أوقاتها . فهي تزيل صدأ القلب كلما اشتد في الظهيرة ، واذا أزالته وابتدأ يتراكم في الأصيل كانت صلاة العصر ، فاذا تراكم جاءت صلاة العشي حتى ينام طاهرا مطهرا ، فاذا جاء الصباح استقبل اليوم في طهارة ونقاء ، وعامل الناس بالطهر ٠

وقد صلى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة الظهر والعصر ، فكانت صلاة العصر أخف من صلاة الظهر ، وقد استأنسوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشكوا اليه جدب بلادهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اسقهم الغيث في دارهم . فقال عمرو ، لاستئناسه بالرسول ورفقه : يارسول الله ارفع يديك ، فانه أكثر وأطيب ، فتبسم عليه الصلاة والسلام ، ورفع يديه ، حتى بدا بياض ابطيه »٠

أقاموا ثلاثا في ضيافة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم عادوا الى ديارهم ، وقد أعطاهم عليه الصلاة والسلام جوائز ، كانت جائزة كل واحد خمس أواقي فضة ٠

واعتذر بلال عن قلة ما أعطى ، وقال : ليس عندنا اليوم مال ، فقالوا راضين قانعين ، ما أكثر هذا وأطيبه ٠

لما عادوا الى بلادهم وجدوها قد أمطرت ، وتحروا فرأوا أن ذلك المطر جاءهم في الوقت الذي دعا فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان مجيء ذلك الوفد في صفر من السنة العاشرة ٠

وفد غامد

٦٩٤ ـ جاء هذا الوفد مسلما في السنة العاشرة ، وعددهم عشرة عندما أقبلوا نزلوا ببقيع الغرقد وانفصلوا منه لمقابلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركوا أحدثهم على ركابهم ، ليحرسها ، وقد قابلوا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمهم شرائع الاسلام ، وكتب لهم كتابا فيه هذه الشرائع ، أي موجزها ، كما جاء في خطبة الوداع ، فليس تفصيلها ، ولكن فيه جملتها خصوصا ما يكون هدما لأمر جاهلي ألفوه ، وكانوا له متبعين •

وحدث أن حارسهم الذي هو أحدثهم قد نام عن حراسته ، فسرقت عيبة فيها ثياب أحدهم ، وفر سارقها ، وعندما التقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرهم بسرقتها ، قال لهم: من خلفتم في رحالكم ؟ قالوا أحدثنا سنا ، قال قد نام عن متاعكم حتى آتي آت فاخذ عيبة أحدكم فقال رجل منهم يا رسول الله ، ما لاحد من القوم عيبة غيري فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد أخذت وردت الى موضعها •

خرج القوم وعادوا سراعا الى متاعهم ، فوجدوا صاحبهم فسألوه عما أخبرهم به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال فزعت من نومي ففقدت العيبة فقمت في طلبها ، فاذا رجل قد كان قاعدا ، فلما رآني صار يعدو ، فعدوت وراءه وانتهيت الى حيث انتهى ، فاذا اثر حفر واذا هو يخرج العيبة فاستخرجها ، فقالوا نشهد أنه رسول الله

عادوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه أن الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، وجاء الغلام واسلم وعهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم الى أبي بن كعب فعلمهم بعض ما تيسر من القرآن ، بعد أن كتب لهم كتابا بجملة الاسلام وحقائقه •

وقد أجازهم صلوات الله وسلامه عليه ، كما كان يجيز غيرهم •

وفد الأزد

٦٩٥ ــ ذكر خبر هذا الوفد أبونعيم في كتابه معرفة الصحابة بسنده، وأبو الحافظ بسنده ، وقالوا انه قدم هذا الوفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا ، فدخلوا عليه ،فأعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سمتهم وزيهم ، فقال ما أنتم ؟قالوا قوم مؤمنون فتبسم عليه الصلاة والسلام ، فقال : ان لكل قول حقيقةفما حقيقة قولكم وايمانكم ؟

قالوا خمس عشرة خصلة خمس منها جاء بها رسلك ، أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنابها في الجاهلية ٠

قال عليه الصلاة والسلام : فما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها ؟ قالوا أمرتنا أن نؤمن قال عليه الصلاة والسلام وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قالوا قدامرتنا ؟ أن نقول ، لا اله الا الله ، ونقيم الصلاة ،ونؤتي الزكاة ،ونصوم رمضان ، ونحج البيت الحرام لمن استطاع اليه سبيلا ، فقال عليه الصلاةوالسلام وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ فقالوا ، الشكر عندالرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، والصدق في مواطن اللقاءوترك الشماتة بالأعداء ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ، واني أزيدكمفتتم لكم عشرون خصلة ان كنتم كما تقولون ، لا تحرموا مالا تأكلون ، ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدا تزولون ، واتقوا الله الذي اليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمونوفيه تخلدون » ٠

هذا وفد مؤمن حكيم ، قد انصرفوابعد أن أخذوا وصايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعملوا بها ، وتعهدوا بالأخذ بأحكام الاسلام ، وبما به امر ، وما عنه نهى وأقاموا الخلق الكريم ، والمعروف الذي تؤيده الأخلاق ٠

٦٩٦ ـ قال ابن عبد البر : ان وائل بن ربيعة كان أحد أقيال حضرموت وقد وفد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ضمن وفود اليمن ، والجنوب ، وقد رحب به صلى الله تعالى عليه وسلم عند قدومه ، وبشر قبل مقدمه فقد قال عليه الصلاة والسلام قبل مقدمه ، يأتيكم بقية أبناء الملوك ، فلما دخل عليه رحب به ، وأدناه من نفسه ، وقرب مجلسه ، وبسط له رداءه ، وقد جاء اليه مسلما معلنا اسلام من وراءه من أتباعه في اليمن ، ورأى فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خيرا ، فدعا له بخير ، وقال في دعائه : « اللهم بارك في وائل وولده ، وولد ولده » .

وعلى طريقة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جعله واليا على الأقيال من حضرموت ، وكتب كتبا بهذه الولاية وكما يقول الحافظ بن كثير « منها كتاب الى المهاجر بن أمية ، وكتاب الى الأقيال والعباهلة » .

ولقد أقطعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرضا من أرض الجنوب وهو اقطاع منفعة لا اقطاع ملك ، على مال يقدمه لبيت المال .

وذلك لأن هذه أراض نائية عن أرباض المدينة ، فلا يمكن أن يشرف عليها الامام بالمدينة بنفسه ، فيعطيها من يديرها ، على خرج يقدمه ، كأجرة لها ، أو يكون من بعضها .

ولما انصرف من حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معه معاوية ابن أبي سفيان ، وسارا في هذه الشقة البعيدة وهو راكب ، ومعاوية راجل ، فشكا معاوية حر الرمضاء ، فقال في شكواه ، انتعل ظل الناقة (أي لا ظل لها يستظل به) ويغني عني ذلك ، لو جعلتني ردفا .

فقال وائل : اسكت ، فلست من أرادف الملوك .

ولعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسله مع ذلك القيل العنيف ، ليرى

معاوية اذلال الملوك لمن معهم ، فيكـون رفيقا عندما يحول الخلافة الى مـــلك عضوض ، ويسير سير الملوك .

ومن العبر أن وائلا هذا عاش حتى آل الأمـر الى معـــاوية ، وجعله ملكا عضوضا ، يعض عليه بالنواجذ ، يروى أن وائلا قدم على معاوية ، وهو على هذه الحال ، فعرفه معـاوية وقـــربه وذكره بالرحلة التي كانت لهمـا ، ثم عرض عليه جائزة سنيـــة ، فأبى أن يأخذها ، وقال : أعطها لمن هو أحـوج اليها مني .

وان ذلك الرد عندي أعنف من رده عندما طلب أن يردفه ، لأن مؤدى هـذا الرد ، أنك تمطي لتقـــرب وتدني ،وتسكت الألسنة ، ولتعلي اسمـك بين الناس ، والأولى بالعطاء المحتاج ، وان ذلك شأن الذين يبنون حكمهم عـــلى شراء الألسنة ، وادناء ذوي السلطان ،وعـــدم الالتفات الى بر المحتاجـــين والضعفاء والمساكين يجعلون عطاياهـم اتجارا ، وصدقاتهم افتخارا .

٦٩٧ ــ هذا آخر الوفود التي قدمت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، قدموا عليه في مائتى رجل وقد نزلوافي دار الضيافة ، وقد جاؤوا مقرين بالاسلام ، وكانوا قد بايعوا قبل ذلكمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه عندما ذهب الى اليمن داعيا الى الاسلام .

وجاؤوا الى النبي صلى الله تعالىعليه وسلم نائبين عن أقوامهم معلنين الطاعة مقرين خاضعين موالين مناصرين غير خارجين عن طاعة ، مع بعد الديار .

وحادثوا النبي صلى الله تعالى عليهوسلم وأفضوا اليه بذات نفوسهم ، وكان فيهم رجل يقال له زرارة بنعمرو ، وكان رجلا مجلو النفس ، قويا في دينه قد رأى رؤيا فأراد أنيذكرها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليتأول هذه الرؤيا .

قال : رأيت في سفري عجبا ، وقص على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رؤياه ، وجاء فيما قص من الرؤيا أنقال : رأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان مدملجان ، وسكتان . قال عليهالصلاة والسلام : « ذلك ملك العرب ، رجع الى أحسن زيه وبهجته » .

ورأيت يا رسول الله : عجوزا شمطاء قد خرجت من الأرض . قال عليه الصلاة والسلام : تلك بقية الدنيا .

ورأيت يا رسول الله نارا خرجت منالأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو ، وهي تقول لظى لظى ،بصير وأعمى أطعموني أهلكم وأموالكم .

قال عليه السلام : تلك فتنة تكونفي آخر الزمان .

قال يا رسول الله ، وما الفتنة : قال يقتل امامهم ، ويشتجرون اشتجار

اطباق الأرض ، وخالف رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم بين أصابعه ، يحسب المسيء فيهـــا أنه محســــن ،ويكون دم المؤمن عند المؤمن أحـلى من شرب الماء ان مت أنت أدركهـا ابنك ·

قال : ادع لي يا رسول الله ألا أدركها ، فدعا له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأدركها ابنه ، وكان ممن اشترك في خلع ذي النورين عثمان ·

هذا ما جاء في كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ، ولم يذكر له سندا ، كما لم يذكر كتابا من كتب الصحاح أخذ عنه ذلك الخبر ·

ولذلك نـــكل اليـــه أمـــر هذه الرواية ·

ومهما يكن من صحــــة ما جاء بالنسبة للرؤيا وتأويلها ، فانه مما لاشك فيه أنه جاء وفد النخع الى النبي صلى الله تعـــالى عليــــه وسلم ، وأعلنـــوا اسلامهم ، واسلام من وراءهم ، وأنهم قد علموا الاسلام ، وأن معاذ بن جبل علمهم أمور دينهم ، وحفظهـــم بعض القرآن ، فجاؤوا اليه مؤمنين ·

وان ارسال معاذ بن جبل اليهم معلما للاسلام ، ومحفظا للقرآن ، يشـــير الى أن النبي صلى الله تعالى عليه وســـلم ،ما كان يرسل سرايا للحـــروب فقط ، بل كان (خصوصا بعـــد الحديبية) يرسل سرايا لتعليم الاسلام ، ولمجـــرد الدعوة ، ولكنهم كانوا مقـــاتلين ، لايحملون السيف الا اذا امتنعـــوا عن الاســـلام والعهـــد ، والله سبحـــانه وتعالى حامي دينه ، وحـــامي دعـــوته لمن أرادها ·

٦٩٨ ــ اننا ذكرنا عددا من الوفود ، ولكن لم نحصها عددا ، فقد كانت أكثر من ذلك ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد مكث في المدينة يستقبل الناس لتعليمهم الاسلام سواءفي ذلك من يجيئون زرافات في وفود عن غيرهم ، ومن يجيئون يريدون معرفة الحقائق الاسلامية ، والآحاد الذين يجيئون من قبائل مختلفة أفراداأو غير أفراد ·

مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة لذلك،ويرسل السرايا داعية الى الاسلام ·

ويلاحظ في هذه أمور ثلاثة :

أولها ــ أن أكثر هذه الوفود كان من جنوب اليمن وحضرموت ، وما يدانيها من نجران والقبائل العربية التي لم تشترك في مناوأة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ممالأة لقريش ،أو متحزبين معهم ، أو يرون مثل رأيهم في عبادة الأوثان ، أو يرونه ،ولكن لا يتشددون ، فلم تكن فيهم ممانعة نفسية من اتباع الآباء والأجدادالذين يقولون :

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (١)

ولا تقف محاجزة من إمرة أو رياسةتحول بينهم وبين الدخول في الاسلام ، وخصوصا بعد أن سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سنة ابقاء الأمير على امارته ، ان دخل في الاسلام مؤمناوكان عدلا يرضى أهل امارته حكمه ، ولا يشكون منه شيئا ، فان هذه السنةجعلت الرؤساء والأمراء لا يفرضون في الدعوة المحمدية خصما يناوأ ،ويحارب ، وذلك لأن الذاتية يكون لها دخل في تحريك النفوس ، ولم يكنأمرهم ككفار قريش في أول الدعوة

---

(١) البقرة

المحمدية ، اذ فرضوا من أول الأمر ان الاستجابة تذهب بزعامتهم ورياستهم ، فكانت الذاتية أو الاثرة محركة لخصومتهم .

ثانيها ــ أن الوفود كانت تجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معلنة اسلامها وطالبة تعليم الفرائض وليشاهدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليقبسوا من نور الحضرة النبوية في مجالسه عليه الصلاة والسلام ، وان ساعة في حضرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغني عن علم كثير ، بل انها هادية ملهمة كما أشار الى ذلك الامام أبو حنيفة رضي الله تبارك وتعالى عنه .

انهم اذ يعلنون اسلامهم ويخبرون عمن وراءهم بأنهم ارتضوا الاسلام دينا ومحمدا رسولا ، من غير عوجاء ولا لوجاء ، وان كان فيهم من تلكأ أو تردد ، فان كثرة المسلمين فيهم كافية لأن تجعل هؤلاء المترددين يتبعون ولا يخرجون .

ويلاحظ أن بلاد الجنوب كان للنصرانية واليهودية مكان فيها ، وخصوصا النصرانية ، وفيهم مجوس ، فكان رفق الاسلام بهؤلاء وعقد المعاهدات بينهم على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، مقربا لهم ، وكانوا أهل علم بالديانات ، ومنهم من أسلم بناء على ما عندهم من الكتب التي تبشر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فيكون اسلامهم شهادة بصدق الدعوة المحمدية ، فوق أنها تشتمل في ثناياها ما يدل على كمال صدقها اذ هي التوحيد ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات وتوثيق العلاقات الانسانية بين الناس أجمعين لا فرق بين عربي وأعجمي ، ولا قبيلة وقبيلة .

الأمر الثالث ــ أن هذه الوفود جاءت تترى وفدا بعد آخر في السنة التاسعة والعاشرة أي بعد فتح مكة ، وتخاذل الرومان عن لقاء الجيش الاسلامي وقد ذهب اليهم في دارهم أي عند الشام ، وقد تخلت عن نصرتهم القبائل العربية ، فلم يفعلوا ما فعلوه في مؤتة ، اذ كان منهم جيش كثيف يبلغ مائة ألف أو يزيدون .

وبذلك أخذ النفوذ الروماني ينحسر عن العرب ، ويذهب ظله كما كان الأمر بالنسبة لفارس .

وان ذلك من شأنه أن ينظر الى الدين الجديد على أنه الغالب ، المزيل للوثنية ، والمحيي للعزة العربية ، فهوالذي يجعل العربي يحس بعزته أمام بني الأصفر من الرومان ، وينفض عنهسيطرة كسرى ومن وراءه وخصوصا أن الكتب التي أرسلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يظللها النور المحمدي وقوة الحق أمام ارهاب الباطل ، فأثار في ذلك نخوة عربية أمام الطغاة في الشمال والجنوب ، فكانمن آثار ذلك أن ألقوا بكل نفوذ عربي.

وان هذا الوفد الذي لقي النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان من أهل الجنوب الذي قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم انا لا نبرم أمرا خارجيا الا بعد استئذان كسرى ، فأشار اليهالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم سيرثون ملك كسرى ، فاعطوا النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ، عهدا بأن يتبعوه .

ومن هذا يتبين رغبة العرب الذينامتد اليهم نفوذ الرومان والفرس في أن يخلعوا نيرهم ، ويردوا اليهم أمرهم ، وقد وجدوا في الدعوة المحمدية معينا لهم من أن يتحرروا من التبعية ،وهم الأحرار الذين فضلوا الشدة في عزة ، عن الأمن في ذل .

وقد رأى ذلك المتاخمون لفارس فيكلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي لقائه للوفود في مكة ، أولا: عندعرضه نفسه على القبائل قبيل الهجرة، وفي المدينة ثانيا: عندما أخذ يلتقي بالوفود ، من حضرموت واليمن ونجران.

وقد أدرك العزة العربية في الدعوة المحمدية أولئك الذين يتاخمون الرومان عندما التقى بهم في مؤتة وفي تبوك ، لقد عاون أولئك الرومان بحكم النفوذ الروماني في مؤتة ،ولكنهم لما أدركوا أن العزة في الأخوة المحمدية لم يعاونوهم في تبوك ، فلميريدوا لقاء جيش الاسلام بعد أن أعدوا العدة ، وعينوا المدة ، فكانذلك اشارة للعربي الحر ، (وكلهم أحرار)الى موطن عزته ،ومكان رفعته.

لذلك أخذ الاسلام يدخل في الصدور ، وقد فتحت له الأبواب ، في القبائل المتاخمة للرومان في الشمالوفي الجنوب كله ، وخصوصا ما تاخم الفرس ، وكان للفرس فيه نفوذ ،فوجد التخلص من هذا النفوذ المذل ، بالاسلام .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يترك الأمر لتلك المنازع وحدها ، بل كان يرسل الرسل معلمين لهم والبعوث في السرايا ، فما كان رجال السرايا كما ذكرنا الا رجال تعليم ودعوة ، ولكن لأنهم يجتازون صحراء ويلقون ناسا غلاظا شدادا،كان لابد أن يكونوا من أهل الحرب ، والعلم معا ، فكانوا يحملون علم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو بالأحرى بعض علمه ، ويحملون مع ذلك سيفه ، فهم يجاهدون بالأمرين والوقائع تعين استعمال أحدهما ٠

وان الرسل كثيرون ، والسرايا أقل من الرسل ٠

وقد ابتدأت الرسل الى الملوك والأمراء ، سواء في ذلك العرب وغيرهم فكتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما ذكرنا الى قيصر الروم ، وكسرى الفرس ، ومقوقس مصر ، ونجاشي الحبشة ، كما أرسلت الى أمراء اليمن وحضرموت ، ونجران وكثيرون من أولئك أجابوا بأن طلبوا من يعلمهم الاسلام ، لأنهم استجابوا له ، وأبقاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ما تحت أيديهم وكذلك منهم من أوفد وفودا بالمبايعة على الاسلام ٠

ولو وازنت بين أثر هذه الكتب في العرب ، وأثرها في غير العرب ، كهرقل وكسرى لوجدت أن أثرها في الأمراء العرب كان ايجابيا بالاستجابة وعدم المخالفة ، وأما أثرها في غيرهم ، فان استثنيت النجاشي الذي أسلم فانا نجد الباقين أجابوا بالرفض في عنف أو رفق فهو رفض في الحالين ٠

وان السرايا كانت كما أشرنا دعاة الى الحق ، ولنذكر خبرين يثبتان مقدار عناية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالدعوة ، وهما خبر ارسال معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب ،وكلاهما كان من علماء الصحابة بالاسلام ، واذا كان معاذ قد اشتهر بالعلم وفقه الاسلام فعلي المجاهد المحارب ، اشتهر بالعلم وفقه الاسلام ،حتى قيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » واشتهر من بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بالفقه والقضاء مما ، حتى ان عمر رضي الله تعالى عنه في امارته كان اذا مسألة تعقدت قال مسألة ، ولا أبا حسن لها ، لأنه قوي العلم والفقه والادراك ٠

وان الارسال تدل عباراته وما أحاط به على أنه ما كان للقتال ، وان كان على المقاتل الأول ، انما كان للتعليم ،وتفقيه الناس في دينهم الذي ارتضوه٠

٦٩٩ ـ عندما بعث النبي معاذ بن‌جبل الى اليمن بعث أيضا أبا موسى الأشعري قال البخاري بسنده ، بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن وأبو موسى الأشعري ،وبعث كل واحد على مخلاف ، واليمن مخلافان ثم قال : يسروا ولا تعسروا ،وبشروا ، ولا تنفروا ٠

وانطلق كل واحد منهما الى عمله ،وكان كل واحد منهما اذا سار في أرضه وكان قريبا من صاحبه فسلم‌عليه ، فسار معاذ في أرضه قريبا من صاحبه أبي موسى فسلم ، فجاء يسيرعلى بغلته حتى انتهى اليه ، فاذا هو جالس ، وقد اجتمع الناس اليه ، واذارجل عنده قد جمعت يداه الى عنقه ، فقال معاذ يا عبد الله بن قيس أتم هذا؟قال هذا رجل كفر بعد اسلامه فقال لا أنزل حتى يقتل ، قال أبو موسى ،انما جيء به لذلك فأنزل ؟ قال ما أنزل حتى يقتل ، فقتل ٠

وسقنا ذلك الخبر من البخاري للدلالة على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اختار طائفة من فقهاء صحابته‌لتعليم الناس في اليمن وغيره أمور دينهم ، ويدعوهم الى الاسلام ٠

ولابد أن يذكر في هذا المقام أن‌معاذا رضي الله تعالى عنه قد بعث مزودا بمقاتلين ، ليبدأ بالدعوة الى‌الاسلام فان أسلموا علمهم الاسلام ، واقتصرت بعثته على التعليم والهداية٠

وان كانت الأخرى قاتل :

وقد روى السرخسي في مبسوطه‌في السير الصغير وصية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بها معاذاعند قدومه على اليمن ومعه مقاتلون وهذا نص الوصية :

« لا تقاتلهم جتى تدعوهم ، فان أبوافلا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم ، فان بدؤوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم‌قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل ، وقولوا

لهم : هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدي الله تعالى على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » (١) .

وقد أغناه الله تعالى عن القتال ،فقد استجابوا ، فانتقل من الحرب الى الموعظة الحسنة التي علمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اياها .

واذا كان قد أوصاه الله تعالى مايجب عند الحرب ، فقد أوصاه أيضا بما يجب على المؤمن في كل الأحوال ،ولقد ذكر هو هذه الوصية عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيمارواه الامام أحمد رضي الله تعالى عنه فقد جاء في هذه الوصية : « لا تشرك بالله شيئا وان قتلت وحرقت ، ولا تعقن والديك ، وان أمراك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فان من ترك صلاة مكتوبة متعمدا ، فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرا ، فانه رأس كل فاحشة ،واياك والمعصية فانه بالمعصية يحل كل سخط ، واياك والفرار من الزحف ،وان هلك الناس واذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأحببهم في الله عز وجل » .

ومن وصية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله له : « اياك والتنعم فان عباد الله ليسوا بالمتنعمين » .

وبهذه الوصايا كان يعلم الناس واجبات الدين ومكارم الأخلاق ، ومما علمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله : « مفتاح الجنة شهادة أن لا اله الا الله تعالى » .

واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد ترك معاذ بن جبل بمكة عند فتحها ليقيم فيها يعلم الناس ، فقد أرسله أيضا الى اليمن ليعلم أهله مع صاحبه أبي موسى الأشعري لتعليم الناس الاسلام .

ومع هذا العمل الجليل ، وهو تعليم الناس ، كان رضي الله تعالى عنه يجمع الجزية دينارا من كل حالم ، ويقول في ذلك : « بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليمن وأمرني أن آخذ من كل أربعين بقرة مسنة ، ومن كل

(١) مبسوط السرخسي جـ ١ ص ٣١ .

ثلاثين بقرة تبيعا حوليا ، وأمرني فيماسقت السماء العشر،وما سقي بالدوالي نصف العشر وذلك في زكوات الأموالالظاهرة » .

ومن هذا يظهر أنه ولاه الخراج والجزية ، وولاه الصدقات فكانت الولاية العامة شاملة لـــكل ما يتعلق بادارة الحكم .

وقد روى الامام أحمـــد في مسندهتفصيلا ، وان كان لا يخرج عما اتفق عليه الأئمة أصحاب السنن ، كما جاءفي الحديث السابق ، وهذا نص ما جاء في رواية الامام أحمد .

أمرني أن آخذ من كل ثلاثين تبيعا(١) ، ومن كل أربعين مسنـــــة ، ومن الستين تبيعين ، ومن السبعين مسنـــةوتبيعا ، ومن الثمانين مسنتين ، ومن التسعين ثلاثة أتباع ، ومن المائة مسنةوتبيعين ، ومن العشر ومائة مســـنتين وتبيعا ، ومن العشرين ومائة ثـــلاثمسنات ، أو أربعة أتباع .

هذه رواية أحمد ، وهي لا تخرجعن الرواية الأولى كمـــا ذكرنا ، وان كانت أكثر تفصيلا ، وان الذي يهمنافي هذه المسألة التي نترك تفصيلهـــا لكتب الفقه على نص الرســـول في بابالزكاة بالنسبة للنعم والزرع والنقود.

ان الذي يهمنا أن نذكر لماذا قصرت تعليمات النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم للزكاة على هذين الأمرين وهمـــازكاة الزرع وزكاة البقر ، ولم يذكـــر لمعاذ رضي الله تعالى عنه أمـــر فيمــــايتعلق بزكاة غير البقر من النعم وهي الغنم والابل ، ونقول : ان ذلك فيمـــايظهر لنا يرجع الى أمرين :

أولهما : أن النبي صلى الله تعـــالىعليه وسلم أمر والي الصــــدقات بأن يجمع الأموال الظاهرة ، وهي النعـــــموالزروع والثمار ، وترك غـــيرها من الأموال التي سميت في الفقه بالأموالالباطنة لدين الناس يقدمونها من غـــير تفتيش أو تكشف ، لأن النبي صلى اللهتعالى عليــــه وسلم دعا الناس الى أن يعدوا الزكاة مغنمــــا وألا يعـــــدوهامغرما .

الأمر الثاني : وهو الخاص بالعنايةبذكر البقر دون غيرها من النعم ،وقد بين عليه الصلاة والسلام زكاة غـــيرهامن النعم في مواضع أخـــرى ، كـــــان

---

(١) التبيع لم يبلغ السنه ويتبع أمه ،والمسنة أو المسن بالغ السنه .

يذكرها لمن يرسله لجمع الزكوات من القبائل التي تسكن الصحراء ، لأن السوائم فيها كان أغلبها من الغنم والابل ٠

أما السبب في أنه سيجابه في أمره لمعاذ بن جبل ذكر له زكاة البقر والزرع ، ولم يذكرهما ، لأنه فيما يظهر كانت اليمن أرضا زراعية ،وفيها خصب ، وقد قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

وان البقر يكثر حيث تكثر الزراعة، وحيث تكون أرض خصبة منتجة ولذلك ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمبعوثه الى اليمن زكاة ما يكثر في اليمن من زروع وثمار وأبقار ٠

ويروى أن معاذا اتجر في المال الذي جمعه ، لأنه باع كل ما له في دين مستغرق كان عليه ، وجاء الى اليمن خاليا من كل عرض من أعراض الدنيا ، فتجر وكسب ، ولم ينقص من هذا المال شيئا ٠

وقد كان اتجاره لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم خصاصته ، فأرسله اليمن ، وظن أن ذلك ليجبر فقره في حلال ، ولم يعد الى المدينة الا بعد وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد صار أبو بكر خليفة رسول الله ولكنه تظنن في حل هذا المال الذي اكتسبه بالتجارة ٠

جاء الى عمر رضي الله عنه وقص عليه خبر هذا المال ، وسأله ماذا يصنع به فقال الفاروق ادفعه الى أبي بكر ،فان أعطاكه فاقبله ، فقال الصحابي الجليل ، لماذا أدفعه اليه ، وانما بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجبرني ٠

انطلق عمر به الى أبي بكر ، وطلب اليه أن يرسل الى معاذ فخذ منه ودع له ، أي فشاركه كسبه ، فقال الصديق : ما كنت لأفعل انما بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجبره ،فلست آخذ منه ٠

ولكن معاذا التقي الذي اقتبس من نور الصحبة انطلق الى أبي بكر يدفع اليه المال كله حتى السوط الذي كان يساق به : فقال أبو بكر خذه فهو لك ٠

---

(١) سبأ

هذا وقد فوض النبي صلى الله تعالىعليه وسلم اليه أمر قضاء اليمن ، وشرح للنبي صلى الله تعالى عليه وسلمكيف يقضي اذا عرض له قضاء ، فقد روي عنه نحو سبعين من أهل حمص أنالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حين بعثه الى اليمن قال : كيف تصنع انعرض قضاء : قال أقضي بكتاب الله ، قال عليه الصلاة والسلام ، فان لم يكن:قال فبسنة رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام ، فان لم يكن في سنة رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم : قال أجتهد رأيي ، واني لا آلو فضربرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على صدره ، وقال : الحمد لله الذيوفق رسولرسولالله لما يرضي رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم)٠

وان ذلك الخبر كان أصلا للاجتهادفي الفقه ، أخذ به من أخذوا بالقياس وعارض فيه من عارضوا القياس ، وانهم لشرذمة قليلون ٠

وقد أثر له رأي في القضاء ، وهوأنه لا يرث الكافر من المسلم ، ولكن يرث المسلم من الكافر ، وبهذا الرأيأخذ الامامية من الشيعة ، وعمل به معاوية ، ولكن الجمهور الأعظم من الفقهاء لم يأخذ به ٠

روى الامام أحمد بسنده عن أبي الأسود الدؤلي قال : « كان معاذ باليمن فارتفعوا اليه في يهودي مات ، وتركأخا مسلما ، فورث معاذ المسلم من اليهودي ، وقال : اني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ان الاسلام يعلو ، ولا يعلى عليه فأخذالحكم من القياس باعتبار أن الاسلام يعلو ، والميراث يكون ثمرة لهذا العلو،ولأن الكفر باطل والاسلام حق يوجب الميراث ، ولا يزول الحق لأجل الباطل٠

ولكن الجمهور الأعظم قالوا غيرذلك ، وحجتهم صريح السنة قولا وعملا ، فقد قال صلى الله تعالى عليهوسلم كما روي في الصحيحين : لايرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر ،وقدثبت عملا ، فان عقيل بن أبي طالب هو الذي ورث دور أبي طالب ، ولميرث منها جعفر ، ولا علي ، ولا أم هانيء ، ولا غيرها من المسلمين عندوفاة أبي طالب ، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في فتح مكة : ما تركعقيل من دار ، ولا يرث المسلم الكافر٠

وخلاصة القول أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معاذا محاربا ، ومعلما ، وجامعا للصدقات والجزية وقاضيا في الخصومات ، فكان هاديا مهديا .

ويقول الحافظ بن كثير في ولايته :كان قاضيا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحاكما في الحروب ، ومصدقا اليه تدفع له الصدقات .

وقد ذكرنا ما قاله رسول رسول الله معاذ بن جبل في اليمن هو وصاحبه عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) ليعرف القارىء أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل الرسل من قبله الى الجهات النائية على أنها سرايا أحيانا ، وعلى أنها معلمون ، وان لم تذهب عنهم صفة السرايا .

فالدعوة الاسلامية أو تبليغ الرسالة المحمدية هي الأصل ، وهي الغاية ، فان لم تقف في سبيلها عقبات ، اكتفى بها، وان وقفت محاجزات الأمراء والملوك كان الجيش المؤمن مزيلا لهذه المحاجزات حتى يخلو وجه الاسلام للدعوة المحمدية دعوة الله والحق .

ولقد كانت كل بعثة محمدية معها قوة ، لأنه يجتاز فيافي وقفارا ، والأمن غير مستتب ، وقد حدث أن جاء ناس من المشركين يخادعون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكروا له أن عندهم من يريد الاسلام فأرسل لهم من يعلمهم ، أرسل معهم قراء ، فأخذوهم، وباعوهم للمشركين ، وآخرون قد قتلوهم ، وقد تكرر ذلك ، فكان الحذر يوجب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يرسل قراء وحدهم ، بل لابد من سرية حربية معهم ، والله تعالى في عون عباده المخلصين .

٧٠٠ ـ كانت اليمن عدة أقاليم ،فبعث عليه الصلاة والسلام عبد الله بن قيس (أبا موسى الأشعري) الى مخلاف، وبعث معاذ بن جبل الى مثله ، وكانا متجاورين ، فكان كل يذهب الى صاحبه، ولذا أمرهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يتطاوعا ولا يختلفا .

وبعث علي بن أبي طالب بعد خالدبن الوليد ، وهما محاربان ، ولكن أمرهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، بألا يقاتلا الا بعد الدعوة الى الاسلام ، والامتناع عن الاجابة الىالاسلام أو الى العهد .

ولنذكر وصية النبي صلى الله تعالىعليه وسلم لعلي بن أبي طالب كما رواها السرخسي في كتابه شرح السيرالكبير للامام محمد ، وهي تشبه وصية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ التي أسلفناها .

وهذه هي الوصية : « اذا نزلت بساحتهم ، فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوامنكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا ، فلا تقاتلهم حتى تريهم اياه ، ثم تقوللهم : هل لكم الى أن تقولوا : لا اله الا الله ، ولأن يهدي الله بك رجلا واحداخير مما طلعت عليه الشمس وغربت (١) .

ولكن عليا رضي الله تعالى عنه ، لميقاتل ، ولم يكن في حال يعرض عليهم ما أمره النبي صلى الله تعالى عليهوسلم أن يعرضه،لأنه جاء الى من أرسل اليهم علي من أهل اليمن قبله خالد بنالوليد ، ودعاهم الى الاسلام أو القتال فأسلموا ، ولم يقاتلوا ، وجمع منهمخالد بن الوليد فيئا وغنائم لم تخمس ، فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلمعليا ليقسمها ، أو ليخمسها ، كما يفهم ذلك من الروايات المتضاربة .

---

(١) شرح السير الكبير للسرخسي الجزء الاول ص٢٣٤ طبع جامعة القاهرة ولم يطبع فيها غيره .

قال البخـاري بسنده « بعث النبيصلى الله تعالى عليه وسلم عليا الى خالد ليقبض الخمس » وقال أبو بريدة راوي الحديث عن النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم وكنت أبغض عليا ٠

وانه يبدو من السياق التاريخي أنالنبي صلى الله تعالى عليـه وسلم بعث عليا ليأخذ خمس النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ، وذي القـربى واليتامى والمساكين ٠

وان ذلك لم يكن وحده هو رسـالةخالد ، بل كانت رسالته مع ذلك الدعوة الى الاسلام وتعليمهم ، وأن يؤمهـمفي الصلاة ، قال البراء بن عازب في رواية البيهقي : « كنت فيمن خـرجمع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام ، فلم يجيبوه ، ثمان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب ، فلما دنونامن القوم خرجوا الينا ، ثم تقدم فصلى بنا ، فصفنا صفا واحدا ، ثم تقـدمبين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسلمتهمذان جميعا ٠

فكتب علي الى رسول الله صـلى اللهتعالى عليه وسلم باسلامهم ، فلما قـرأ رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلمالكتاب خر ساجدا لله ، ثم رفع رأسه ، وقال السلام على همذان ، السلام عـلىهمذان ٠

ويظهر أن خالدا لم يعد الى المدينة،بمجرد مجيء علي كرم الله وجهه ،بل مكث مدة ، ولا نريد أن نفـرض أنخالدا كان في نفسـه موجـدة من ارسال النبي صلى الله تعالى عليه وسلمعليا ، ولكن نترك الحـوادث حـول علي تتحدث والأمور التي تدور حـولعلي تنطق ٠

لم يكن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه محبوبا في الأوساط العربية ، وخصوصا الذين ينتمون الى أقـوام كانت لهم محاربة للنبي صلى الله تعـالى عليه وسلم في بدر وأحد والخندق ،ثم حنين ، فقد كان سيف علي كرم الله وجهه في الجنةِ سريعا الى الرقاب ، كماكان سيف عمه حمزة في بدر ، وقـد استطاع الشرك أن يقتل أسد الله حمزة ، فبقي لعلي الاحن ٠

ان عليا جاء لأخذ الخمس الذي يوضع تحت يد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقرابته ، ولقد أخذ علي الخمس، وكان فيه سبية جميلة ، فأخـذها

علي ، وعاشرها بملك اليمين ، فقامت لذلك ضجة ، وأمر خالد فيما يظهر أن يبلغ ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، على أن عليا ملوم فيه ، ولنترك الكلمة لأبي بريدة ، حدث الامام أحمد بسنده الى أبي بريدة قال أبو بريدة أبغضت عليا بغضا لم أبغضه أحدا ،وأحببت رجلا (١) من قريش لم أحبه الا على بغضه عليا ، فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته ما أصحبه الا على بغضه عليا فأصبنا سبيا ، فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ابعث الينا من يخمسه ، فبعث الينا عليا ، وفي السبي وصيفة من أفضل السبي ، فخمس وقسم ، فخرج ،ورأسه يقطر ، فقلنا يا أبا الحسن ما هذا ؟ فقال ألم تردوا الي الوصيفة التي كانت في السبي،فاني قسمت وخمست فصارت في الخمس ، ثم صارت في أهل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب الرجل الى نبي الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت ابعثني ، فبعثني مصدقا فجعلت أقرأ الكتاب وأقول صدق فأمسك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدي والكتاب ،فقال ، أتبغض عليا فقلت نعم ، قال ، فلا تبغضه وان كنت تحبه فازدد له حبا ، فو الذي نفس محمد بيده لنصيب آل علي أفضل من وصيفة ، قال أبو بريدة ، فما كان من الناس بعد قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أحب الي من علي •

ان هذا الخبر يدل على أن عليا رضي الله تعالى عليه كانت تتقصى هفواته،ولكنه لم يفعل حراما ،وحسبنا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستنكر فعله ، بل أيده ، ويدل الخبر أيضا على بغض الرجل الذي أشار اليه لعلي ، وأنه كان يريد أن يصوره أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في موقف الظنين •

والطريق لم يكن معبدا أمام علي ،لأنه حيث كان البغض ، فانه يد عثر الطريق ، ويصعب الوصول الى الحق المبين الصريح ، ولقد كان لنا أن نعلق على عمل علي كرم الله وجهه ، لولا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقره •

ومع أن الطريق لم يكن معبدا أمامه رضي الله تعالى عنه ، فانه كان شديدا فيما يعتقد أنه الحق ، لا تأخذه فيه هوادة ، بل ينفذه في صرامة ، لا رفق فيها ، أو بالأحرى لا لين فيه •

(١) سياق الكلام مما يدل على أنه خالد بن الوليد فكلمة الرجل تشير اليه في كل ذكر لها •

ومن ذلك أنه كان تحت يده إبل الصدقة ، وقد روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري : كنت فيمن خرج معه(أي علي) فلما أخذ من ابل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح ابلنا ،وكنا قد رأينا في ابلنا خللا ، فأبى علينا وقال انما لكم فيها سهم كما للمسلمين ، فهو لا يريد أن يمكنهم منها قبل أن تقسم السهام ، وهو غير الوصيفة ، فانه جاء لتسلم خمس النبي وذوي قرابته ، فبالاستيلاء ، قد استولى على سهمه ، أما هم فهم يريدون الانتفاع بها من غير تقسيم •

وذهب من ذلك علي كرم الله وجهه ليلقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع ، واستخلف على بعض من معه على الغنائم ، فسأله الناس ما منعه علي كرم الله وجهه في الجنة ،فسألوه ما منعه علي ، فأجابهم •

ولما حج علي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقفل راجعا بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأى ما حدث في غيبته فرأى أثر الركوب في ابل للصدقة فجاء بحق من أنابه وقدمه ولامه على ما فعل ، وأعاد المنع كما بدأ•

فقال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، لئن قدمت المدينة لأذكرن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما لقيناه من الغلظة والتضيق •

بلغ ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقضى لعلي وأنصفه فيما فعل، وقال لقد علمت أنه أحسن في سبيل الله ، ومنها أنه عندما تعجل في الحج مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،وخلف ذلك الرجل المتساهل ، وقد أعطى ما منع علي ، كان قد كسا الجيش كله حللا ، كل رجل حلة ، فلما عاد علي من الحج ، دنوا منه وعليهم الحلل ، فلما رأى عليهم الحلل ، قال ما هذا ؟ قالوا كسانا فلان ، فقال لمن خلفه ما دعاك الى هذا قبل أن تقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فاشتكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وفي الحق ان توقف علي كان في هذه المسألة سليما لأن هذه الحلل كانت من جزية موضوعة ، فما لأحد أن يوزعها ، قبل اعلان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بها ، وتلقي أمره في توزيعها •

كانت الشكوى من علي كرم الله وجهه قد شاعت في الحجيج وكثر القول فيه،وكل من تكلم كان مغرضا لا يروم الحق ، ولعلي الحق في كل ما فعل ،

ولكن البغض له خصوصا من له في الجيوش الاسلامية مكان من قبل ومن بعد ٠

ولقد قال في ذلك الحافظ بن كثير في تاريخه : « والمقصود أن عليا كثر فيه القيل والقال من ذلك الجيش بسبب منعه اياهم استعمال ابل الصدقة ، واسترجاعه منهم الحلل التي أطلقها لهم نائبه ، وعلي معذور فيما فعل ، لكن اشتهر الكلام فيه في الحجيج ، ولما رجع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من حجته وتفرغ من مناسكه ،ورجع الى المدينة فمر بغدير خم ، قام في الناس خطيبا فبرأ ساحة علي ،ورفع من قدره ، ونبه على فضله ، ليزيل ما في نفوس كثيرين » ٠

وننبه هنا الى أمور ثلاثة يوجب الحق التنبيه اليها :

أولها ـ أن كلمة ابن كثير بالنسبة لعلي كرم الله وجهه « انه معذور » لا نرى أنها في موضعها ، والأولى أن يقول انه كان فيها محقا ، ففرق كبير بين المعذور والمحق ، فان المعذور مخطىء له عذر ، وأما المحق فانه غير مخطىء ، وما كان علي في أمر الحلل ،والرواحل الا محقا ، منفذا ، ولو كان في شدة ٠

ثانيها ـ أن الكلام الذي قيل في غدير خم انتهى بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسم : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ٠

ثالثها ـ أن هذا كله من بغض علي كبغض أبي بريدة الذي ذكرناه وبغض الرجل الذي كان يحبه أبو بريدة ،لأنه يبغض عليا ، وأن ذلك الرجل الذي أشار اليه أبو بريدة ، وقد نالته موجدة من ارسال علي كما أشرنا ، وقد عاد قبل عودة علي كرم الله وجهه ، فعمل على اشاعة القيل والقال على امام الهدى ، ولقد كانت عبارة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تومىء الى أن الذين أشاعوا ذلك معادون لعلي ،مبغضون له ببغض أبي بريدة أولا ، ولكن الله تعالى هداه بهداية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وعلي رضي الله تعالى عليه جدير بأن ينفس الناس عليه فضله ، فقد مكث الرجل ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا ، وبمجرد لقاء علي رضي الله عنه والصلاة وراءه ،قد استجابوا لداعي الحق ، وعلي فوق

ذلك العالم الجليل ، والشجاع المحارب ،وبطل بدر وأحد ، وهو الذي حمل اللواء ، وعلا ، ورأى المشركون أنه لاسبيل لأن يبقوا أمامه فعادوا كأنهم المهزومون،وهم الذين أصابوا جراحاتفي المسلمين •

لقد كان علي فريسة المبغضينفي موطنين :

أحدهما ــ في جماعة علي ، وقدبرأه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ورد كيد الكائدين وأطفأ نيران الغضبعند من ظهر غضبه •

الموطن الثاني ــ في خلافته ، وخروج البغاة عليه ، وتحرك الضغائن ، وفي هذه المرة لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حيا ، فلم يقف بغدير خم يقول : « اللهم وال من والاهوعاد من عاداه » •

تولية على قضاء اليمن :

٧٠١ ــ كان القضاء في العادات العربية يتولاه أسن الرجال ، وأكثرهم تجارب ، ومعرفة لعادات القبائل ،فكانيقضي مثل أكثم بن صيفي الذي عاش حتى بلغ نحو التسعين من عمره ، لأنالقضاء يحتاج الى فضل تجربة ،وفضل تأثير ، لتنفذ الأحكام نفسيا ، ويذعنالمتخاصمون لها قلبيا ويكون له من الجلال في وسط قومه ما يجعل قولهفصلا ، يؤمنون بالعدل فيه •

ولذلك لما عهد النبي صلى الله تعالىعليه وسلم الى علي أن يقضي في اليمن في غير الحيز الذي كان فيه معاذ بنجبل وأبو موسى الأشعري ، اذ كان اختصاصه يعم اليمن كله ، لما عهدالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الى علي استصغر سنه وعرض على النبيأنه حدث السن ، اذ لم يكن الا في حدود الثانية أو الثالثة والثلاثين •

روى ابن ماجة ، والامام أحمد عنعلي كرم الله وجهه ، قال : بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الىاليمن ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثني الى قوم أسن مني ، وأنا حدث لا أبصرالقضاء ، فوضع يده على صدري ، وقال : اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ،يا علي اذا جاءك الخصمان ، فلا تقض بينهما ، حتى تسمع من الآخرما سمعت من الأول ، فانك اذا فعلت ذلك تبين لك الحق ، فما اختلف علىعلي قضاء بعد •

وان هذه الدعوة النبوية قد صـدقت في علي كرم الله وجهه ، فقد ثبت الله تعالى لسانه ، حتى كان أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأثبت الناس قولا بعده عليه الصلاة والسلام ، وكان مهديا ، فما لان في حق ، ولا مالأ مبطلا ، وهداه في القضاء ، حتى روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أقضاكم علي » وكان عمر كما ذكرنا يسأله اذا أعضل عليه القضاء في مسألة من مسائله، فيقول : مسألة، ولا أبا حسن لها».

وقد رويت عنه روايات في قضائه دالة على نفاذ بصيرته ، وانفتاق عقله الذي هو قبسة من الهدي المحمدي ، اذرضع لبان هذه الهداية صغيرا ، وتربى عليه ، ونزح بدلو المعرفة من أعظم ينبوع لها .

وقد ذكرت له مسائل في القضاء هداه الله تعالى اليها ، فقد كان يحاول الوصول الى الحقيقة ، خصوصا في الأنساب ، فلا يترك ولدا من حلال من غير أب .

تنازع اثنان في نسب ولد ، ولم يكن لأي واحد منهما دليل ، وكان المنتظر أن يتهاتر الادعاءان ، ولا يكون للولد نسب ، فلما لم يجد سبيلا أقرع بينهما ، وحكم بالنسب لمن تحكم له القرعة ، وعليه أن يدفع الدية للآخر ، وبهذا أنصف الرجلين ولم يهدر نسب الولد ، وبهذا أخبر الامام أحمد عن علي ، وقد أفرد عن غيره بهذا الرأي ، وروى عن علي كرم الله وجهه قضاء في مسألة معقدة ، وانتهى فيها الى حكم ، لا يزال موضع اعجاب رجال القضاء الى اليوم .

روى الامام أحمد أن قوما كان يغير عليهم أسد ، فبنوا له زبية (مكانا يتردى فيه) فتدافع الناس فسقط رجل ، فتعلق به آخر ، ثم تعلق بالآخر ثالث ، وتعلق بالثالث رابع ، وقد جرحهم جميعا الأسد وماتوا ، فجاء أولياء المقتولين ، وهموا بأن يقتتلوا ،فقال لهم امام الهدى بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . أتريدون أن تقاتلوا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حي ، اني أقضي بينكم قضاء ان رضيتم به ، فهو القضاء ، والا أحجز بعضكم عن بعض ، حتى تأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليكون هو الذي يقضي بينكم ، فمن عدا بعد هذا فلا حق له .

كان قضاء علي في القضية ، يسير على مبدأين : أحدهما أنه لا يطل دم في الاسلام ، وذلك مبدأ مقرر روي بعبارته عن علي كرم الله وجهه في الجنة ·

الثاني ـ أن العجماء جبار ، أي ماتجني الدواب ، لا غرامة فيها الا أن يكون صاحبها المتسبب ، فيغرم هو الدية كلها أو بعضها ·

ونجد أن الأول تسبب في هلاك الثلاثة بعده ، وقد تمكن السبع من الجميع بترديه أولا ، ثم تعلقه بالثاني والثاني بالثالث ، والرابع ·

وكانت الدية واجبة كاملة لهم جميعا بناء على القاعدة الأولى ، ولكن يستنزل من دية كل واحد دية من تسبب في قتله ، وقد تسبب في قتل ثلاثة ، فيأخذ ربعا ، باسقاط ثلاثة أرباع لمن تسبب في قتلهم ، فهو السبب في قتل ثلاثة ·

والثاني تسبب في قتل اثنين ،فينقص من ديته الثلثان ، فيكون له الثلث ، والثالث ، تسبب في قتل الرابع ، فيخصم من ديته النصف ، والرابع ، وهو الذي سقط أخيرا لم يتسبب في قتل أحد ، فلا يخصم من ديته شيء قط ، وبذلك يكون المطلوب ديتان وسدس دية ، هذا معنى قول علي في قضائه ، فقد قال : « اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ، ربع الدية، وثلث الدية ، ونصف الدية ، والدية كاملة » ·

فللأول الربع ، لأنه هلك ، والثاني ثلث الدية والثالث نصف الدية ، والرابع الدية ، هذا قضاء علي ، وقد طلبت هذه الديات ممن حفروا البئر ، لأنهم المتسببون ابتداء ، والتسبب الآخر نسبي ، في دائرة التسبب الأصلي ·

ولا نعلم في هذه القضية المعقودة المتشابكة التي ترابطت فيها الأسباب ، وتشابكت أعدل من هذا ، واذا كان ثمة بعض الانفكاك في المقدمات ، أو يتوهم ذلك ، فان قضاء علي في هذا هو أحكم القضاء ·

ولكن أولياء المقتولين ، لم يرتضوا ذلك ، وكان كل ولي يريد دية كاملة لمقتوله ·

وذهبوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في حجة الوداع ، وهو عند مقام ابراهيم ، فقصوا عليه القصة ، فقال أنا أحكم بينكم ، فقال رجل من القوم ، يا رسول الله ، ان عليا قضى علينا ، وقصوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قضاء علي ، فأجازه رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وبعد فهذا علي كرم الله وجهه في اليمن ، كان الداعية المستجاب في دعوته للاسلام ، فآمنوا لفرط تقواه ،واشراق نور الايمان في قلبه ، فما يخرج من القلب يصل الى القلوب ،واخلاص الداعي هو الجاذبية التي تحوط المدعو ، فتهديه الى الايمان ان لم تعتكر القلوب ، وتفسد الضمائر وهذا علي الحاكم الحازم ، لم تأخذه في الحق هوادة ، وليس للباطل عنده ارادة ، وان شكا الناس منه غلظة ،فلفساد قلوب تستغلظ الحق،وتستطيب الباطل ، وقد أنصفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، ونعم المنصف العادل .

وهذا علي في قضائه العدل الحكيم، والله ولي المؤمنين .

بعث الصدّيق ليكون أمير الحج

٧٠٢ ـ في زحمة الوفود لم نسرفي مسار التاريخ ، فلم نذكر الوقائع في مواقيتها ، ميقاتا بعد ميقات لأن الوفود لم يكن ميقات كل واحد منها محدودا بحد لا يقبل الاختلاط بغيره ،ولذا ذكرناها في مواقيتها على وجه التقريب ، لا على وجه التعيين ، ومهمايكن فان غالبها ذكر في ميقاته وفي مناسباته ، ولكن الأمر الذي لم نذكره في ميقاته ، بل ذكر ما بعده قبله ، هو حجة أبي بكر التي تولى فيها إمرة الحج ، وهذه أول حجة كانت بامرة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أي كانت في ظل الاسلام ، بعد أن هدمت الأوثان من فوق الكعبة ، ومن حولها ، بل من حول أم القرى كلها ٠

كان حج أبي بكر عقب غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن بعدها ، أخذ يستقبل الوفود ، ويرسل الدعاة الى الاسلام ، ويقتفي آثارهم في دعواتهم ، ومقدار الاستجابة لهم ، فانتهى بهذه الغزوة ، عهد تأمين الدعوة في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وتفرغ عليه الصلاة والسلام للدعوة ذاتها ، وقد زالت كل المحاجزات المانعة ، واستمر دخول الناس في دين الله تعالى أفواجا ، وقد ابتدأ ذلك من بعد صلح الحديبية كما أشرنا الى ذلك في موضعه من القول ٠

وعلى ذلك فالدعوة كان لها ثلاثة أدوار :

الدور الأول : دور وضع الأسس وتكوين جماعة قوية في ايمانها ، وان كان فيها ضعف في السلطان ، وقلة في العدد ، وأولئك هم الحواريون لمحمد ، كالحواريين لعيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ٠

والدور الثاني : دور الدعوة ، وتذليل العقبات ، وازالة الحجزات ، فالدعوة لم تكن السبيل أمامها معبدة ، بل كان لابد من عمل لتمبيدها بازالة كل العقبات التي تقف في طريقها ٠

الدور الثالث : كان بعد أن زالت العقبات في الجزيرة العربية وصار الدين لله تعالى ، وقد كانت حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته من المهاجرين والأنصار الذين حضروا بيعة الرضوان خالصة للدعوة ، وتبيين الحقائق الاسلامية ، وبذلك كان كل من يبعثهم من أهل بيعة الرضوان ، وان بعث من غيرهم أردفه بواحد من الحواريين الأولين أو أهل بيعة الرضوان ، كما فعل مع خالد وعلي رضي الله عنهما بالنسبة لليمن ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

اتجه عليه الصلاة والسلام في الدور الثالث الى تطهير مكة من أن يدخل فيها رجس الجاهلية من عبدة الأوثان ولقد جرى حج السنة الثامنة على ما كان يجري عليه من قبل ، فلم يصد عنها مشرك ، فلما آلت امرة الحج الى الاسلام ، منع الله المشركين من أن يدخلوا المسجد الحرام في السنة التاسعة ، ونزل قوله تعالى في سورة براءة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(1)

يقول ابن اسحاق انه بعد تبوك التي انتهت في رمضان « قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية رمضان وشوالا ، وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، لم يصدوا بعد عن البيت ، ومنهم من له عهد مؤقت الى أمد » .

كان هناك اذن عهدان : عهد جاهلي ، وهو عام ، فيه اذن بألا يصدوا عن البيت ، قد كان هذا على العادة الجارية ، وقد توثق بعد الحديبية ، وعهد خاص قد عقده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا يبقى الى أمده .

وان العهد الذي جرى على مجرى العادة الجاهلية ، قد انتهى بأن صار للاسلام الكلمة العليا ، وصار التوحيد هو الحاكم ، وجاءت ملة ابراهيم الصحيحة في الاسلام بعد أن انحرف العرب ، وعبدوا الأوثان فلم يكن منع

(1) التوبة

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القرآن ، نقضا للعهد ، ولكنه تصحيح للوضع .

أما عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو قائم على أسسه حتى ينتهي أمره .

وان أبا بكر ما ان فصل بركبه ،حتى لحق به علي بن أبي طالب يحمل سورة براءة ، وكانت قد نزلت بأنه لا عهد للمشركين عبدة الأوثان في أن يحجوا البيت الحرام بعد عامهم هذا .

قال ابن اسحاق : لما نزلت سورة براءة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد بعث أبا بكر ليقيم للناس الحج،قيل له يا رسول الله : لو بعثت بها الى أبي بكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي » ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال له اخرج بهذه آيات من صدر براءة ، وأذن في الناس بالحج يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد فهو الى مدته ، فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال علي : بل مأمور ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج اذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى اذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأجل أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم الى مأمنهم ، وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، الا عهد كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو الى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

وروى الامام أحمد أن علي بن أبي طالب قال : « بعثت يوم بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبي بكر في الحجة بأربعة : لا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا » .

وهذا الكلام يستفاد منه إبطال العادات الجاهلية في الحج كطواف غير قريش عرايا ، وقريش تمتاز بأن يطوف حجاجها لابسين ٠

ولقد قسم الحافظ ابن كثير الحجيج من المشركين الى قسمين من لهم عهد ، فانه يلتزم بعهده الى نهاية مدته ، ومن ليس له عهد يؤجل الى أربعة أشهر ٠

وهذا التأجيل ، والغاء العهد ثبت بقوله تعالى في أول سورة براءة :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

وان هذا النص الكريم فيه الوفاء بالعهد للذين أوفوا بعهودهم ، وأن من يكونون غير معاهدين ينتظرون أربعة أشهر ، حتى يصلوا الى مأمنهم في بلادهم ٠

وليس معنى الوفاء لذوي العهد الذين عاهدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمكنوا من دخول البيت الحرام الا وهم باقون على شركهم ، فان الآية الكريمة صريحة في المنع ، اذ قد تلونا قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ (٢)

(١) و (٢) التوبة

وان التأجيل أربعة أشهر ، انما هوخاص بقتالهم وقتلهم ، فأعطوا مهلة أربعة أشهر ليصلوا الى مأمنهم ولا يؤخذوا على غرة ، وقد جاؤوا حاجين طائفين في زعمهم ·

٧٠٣ ـ ونقف هنا وقفة قصيرةفي اختصاص أبي بكر وعلي في هذه الحجة المباركة ·

لقد اختص النبي صلى الله تعالىعليه وسلم أبا بكر بأن تكون له امرة الحج ، ولما لاقاه علي قال أبو بكر أميرأم مأمور ، فقال له بل مأمور ، هذا ما اختص به أبا بكر ، وان ذلك بلاريب تشريف لأبي بكر ، واكبار لامرة الحج في ذاتها ، واختص عليا بأن يكونالمبلغ لنزول سورة براءة وفي أكثر الروايات أن النبي صلى الله تعالى عليهوسلم قال في اختصاص علي بتبليغ نزول سورة براءة « لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي » اذ ذلك بلا ريب اختصاص فيه تكريم ، وثقة كاملة منالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وقد أخذ الشيعة الامامية وغيرهممن يجعلون عليا أولى بالخلافة من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله تعالىعنهما ، قد أخذوا من هذا أن عليا أفضل أو أولى بالخلافة عنه عليه الصلاةوالسلام منهما ، لأن الخلافة خلافة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يقومبما كان يقوم به الرسول في أمر أمته، ورياستها ، والقيام بحق التبليغ ،الذيهو أخص أوصاف الامامة الكبرى ، ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام :« لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي » فكون الخلافة لعلي كرم الله وجهه فيالجنة ، لأن الخلافة أداء لبعض أحكام النبوة ، أو لكلها ، وان كان لا نبي بعدالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

استدلوا بهذا ، وبقول النبي صلىالله تعالى عليه وسلم عند ما تركه في المدينة ليقوم على أهله : « أنت منيبمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدي » ·

فأخذوا من هذا الحديث أن لعليعند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منزلة فوق منزلة غيره من الصحابة الأكرمين فاذا كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وعمر الفاروق لهما فضلالصداقة ، فعلي بالنص له فضل الأخوة ، والمشاركة بيد أنه ليس بنبي،ولا يوحى اليه ، وان هذا يجعل عليا

في مكانة أعلى منهما ، وبنوا على ذلك أنه وصيه ، كما بنى الزيدية على هذا أنه أفضل من أبي بكر وعمر ، وان لم يكن وصيا ·

واستدلوا ثالثا ـ بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غدير خم عند رجعته من حجة الوداع ، من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وان هذا يدل على أن الولاء لعلي ولاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعاداته معاداة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة غيره ، وهو بذلك أولى بالخلافة من غيره ، وهو أفضل من الشيخين وغيرهما ·

ذلك ما قالوه ، وما اتفقوا عليه ، فقد اتفق الشيعة جميعا على فضل علي رضي الله عنه ، وأنه مقدم على أبي بكر وعمر ، وان اختلفوا في ذلك كثيرا ·

ونحن نقرر أن ما ساقوه يدل بلا ريب على فضل علي أولا ، وعلى محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثانيا ، وعلى أنه عليه الصلاة والسلام كان يعهد اليه بأشد المهام وثاقة بالدين ثالثا ·

ولكنه لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين رضي الله تعالى عنهما ، لأنه اذا كان قد أنابه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في تبليغ سورة براءة، فقد ولي أبا بكر رضي الله عنه ما هو أمس بالامرة والخلافة ، وهو اقامة الحج ، كما اختاره لاقامة الصلاة ، وهي الامامة الصغرى ، وقد يكون ذلك ايذانا له بالامامة الكبرى كما جرى على السنة بعض الصحابة ، « اختاره لأمر ديننا ، أفلا نختاره لأمر دنيانا » وعلى ذلك لا نجد في هذا أن يكون علي أولى بغيره من الخلافة ·

وأما الدليل الثاني ، وهو أنه قال له في معرض توضيح السبب في تركه وعدم الذهاب معه في غزوة تبوك فهو بيان محبته له ولصحبته ، ردا على الاشاعة الكاذبة التي أشاعها المنافقون والمرجفون ، وهو أنه تركه استثقالا لصحبته ، فكان لابد أن يظهر محبته ومنزلته عنده ، وهي أخوته له ، كما أن هارون أخو موسى ، ولذلك زاد في القول بما يؤكد هذا المعنى ، اذ قال عليه الصلاة والسلام : غير أنه لا نبوة بعدي ، وان عليا كان أخا النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم في المؤاخاة التي عقدها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد بينا ذلك ، وذكرنا صحة الخبر ،ورددنا على ابن القيم في موضعه ٠

وكونه أخاه ، وأبو بكر صديقه أبلغ ما تكون الصداقة ، فلا دليل في هذا أيضا على أنه أحق بالخلافة ،وفوق ذلك ان الخلافة تحتاج الى الشورى ، اذ يقول الله تعالى :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١)

فاذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذكر أخوة علي ، وصداقة أبي بكر ، وتقديره لعمر ، فليس في ذلك الزام ، ما دام أساس الأمر شورى المسلمين ٠

وأما الدليل الثالث ، وهو حديث غدير خم الذي يقول : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فقد بينا المناسبة التي قيل فيها هذا الحديث ، وهو رد الاشاعة الكاذبة ، ورد المنافقين أو من عندهم شبهة النفاق ، وبيان أنه لا يصح لمؤمن أن يبغض عليا ، لأنه اذا كان قد قتل كثيرا فهو في سبيل الله ، وبأمر من الله ورسوله ، فمن يبغضه لذلك ، انما يريد أن يحط من قدر الجهاد والمجاهدين ، واذا كانت النفس لا تحب من يكون سببا في ازهاق نفس حبيب ،فالايمان يوجب ألا يظهر ذلك في قول أو عمل ، وفوق ذلك فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوافقه في أحكامه التي حكم بها ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولي كل مؤمن صادق الايمان ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢)

فكل مؤمن ولي للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويصح أن يقال ذلك عن المؤمنين جميعا بأنهم أولياء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) الشورى (٢) المائدة

ومهما تكن قوة هذه الاستدلالات ،فانه من المؤكد ، أنها تدل على فضل محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه ، وأنه يجب على كل مؤمن يحب الله ورسوله أن يحبه ،لأنهما يحبانه،كما جاء في غزوة خيبر، ولقد ذكرت ذلك عائشة رضي الله تعالى عنها ، فانه عندما بلغها مقتله ، وقفت على قبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : جئت أنعى حبيبك المرتضى ، وصفيك المجتبى ، وأحب أصحابك اليك ، جئت أنعى اليك علي ابن أبي طالب ٠

فعلي كرم الله وجهه هو الحبيب ابن الحبيب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا كاف لرفع منزلته ، ومحبته ولعن كل من ينال منه ، أو يلعنه ٠

تنبيهان لابد منهما :

٧٠٤ ـ للتنبيه نقف هنا وقفة قصيرة ننبه فيها الى أمر جدير بالتنبيه، وهو أننا نقلنا عن الحافظ بن كثير وغيره من رواة السيرة أن الذين ليس لهم عهد مقيد محدود يؤجلون أربعة أشهر حتى يبلغوا مأمنهم ، وانه بتتبعنا وتبصرنا للآيات الكريمة وجدنا أن هذه الأشهر الأربعة هي الاشهر الحرم ،لانه ذكر بعد ذلك في الآيات الكريمة ما يدل عليها ، فقد قال سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ (١)

وان ذلك يبين أن الأشهر التي ذكرت في قوله تعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ (٢)

ذكرت غير معرفة ، ثم عرفت بعد ذلك بذكر أربعة الأشهر معرفة ، ومن المقررات النحوية أنه اذا أعيدت النكرة معرفة كان ذلك تعريفا لها ٠

---

(١) و (٢) التوبة

وانا نرجح ذلك ، والله أعلم بمراده •

التنبيه الثاني : أنه قرر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يريد الحج عقب غزوة تبوك ، ولكنه كره أن يحج مع المشركين ، اذ كان منهم من يحج عريانا وقد زادوا أمورا جاهلية على سنة ابراهيم عليه الصلاة والسلام في الحج ، ولقد جاء ذلك في تاريخ الحافظ بن كثير ، فقد قال عن مجاهد « براءة من الله ورسوله الى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ، فقفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الحج ، ثم قال : «انما يحضر المشركون ، فيطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر وعليا رضي الله عنهما ، فطافا بالناس ، فآذنوا أصحاب العهد أن يؤمنوا أربعة أشهر متتاليات » ، وان هذا يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان على نية أن يحضر الحج ، ولكن عوقه عن ذلك أنه قدر أن سيحضر الحج المشركون ، ويطوفون على جاهليتهم عراة ، ويظهر انحرافهم عن سنة ابراهيم في الحج ، فامتنع عن الحضور ، حتى لا يكون حضوره عليه الصلاة والسلام فيه نوع اقرار لعملهم ، ولم يمنعهم من الحج ، لأنه لم يعلمهم من قبل بأنه لا يجوز لهم أن يقربوا المسجد الحرام ، والحكمة الاسلامية في الأحكام ألا تنفذ الأحكام المانعة الا بعد العلم بها •

سورة براءة

٧٠٥ ـ ان المتفق عليه أن أبا بكر رضي الله عنه ، ذهب بالناس يحج بهم، وأن عليا رضي الله تعالى عنه ، ذهب حامل براءة يتلوها عليهم .

ويروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما حملها عليا رضي الله تعالى عنه قال علي : يا نبي الله تعالى : اني لست باللسن ولا بالخطيب ، فقال عليه الصلاة والسلام لابد لي أن أذهب بها أنا ، أو تذهب بها أنت ، قال علي ان كان لابد فسأذهب بها أنا ، وقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انطلق فان الله تعالى يثبت لسانك ، ويهدي قلبك ، ثم وضع يده على فيه ، فهذه دعوة أولى من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يثبت لسانه ويهدي قلبه ، والثانية كانت بعد ذلك عندما بعثه الى اليمن داعيا وقاضيا » .

وبهذه الدعوة الطيبة الطاهرة المستجابة كان علي كرم الله وجهه أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

حمل علي كرم الله وجهه في الجنة سورة براءة ، أهو حملها كلها ، وهي من طوال السور ، أم حمل الجزء الأول منها الخاص بعهود المشركين ، ودخولهم البيت الحرام .

نقول في الجواب عن ذلك ان عبارة ابن كثير في رواياته تفيد أن الذي حمله علي هو أول السورة الخاص بالمشركين ، ودخولهم البيت ، وعهودهم ، فقد جاء فيه عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع ، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر .

وان هذه الرواية تدل على أنها لم تكن قد نزلت كلها ، أو حملت كلها ، بل حمل منها ثلاثون آية تنتهي بقوله تعالى عن أهل الكتاب يريدون أن

يطفئوا نور الله بأفواههم ، أو أربعون آية تنتهي بقوله تعالى :

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ (١)

هذا ما رواه ابن كثير ، أما ما ذكره ابن اسحاق فان ظاهره أن السورة كلها نزلت عقب تبوك وحملها علي بن أبي طالب ليتلوها على الناس ، ويبين ما يتعلق بالحج ·

ويقول في ذلك ابن اسحاق :« نزلت براءة في نقض ما بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم ألا يصد عن البيت أحد جاءه ،ولا يخاف أحد في الشهر الحرام ، وكان ذلك عهدا على ما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قبائل العرب خصائص الى آجال مسماة فنزلت فيه ، وفيمن تخلف من المنافقين عنه في غزوة تبوك، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون ، وظاهر هذا الكلام أن سورة براءة كلها نزلت عقب غزوة تبوك ، وان نصوصها السامية كلها تؤكد هذا المعنى وتوضحه فهى كما رأينا يتبين فيها حال الناس مؤمنهم ومنافقهم في هذه الغزوة عند الدعوة اليها ، وحال المخلفين ، وأعذار المستضعفين ، وما ينبغي أن يكون بالنسبة للجهاد ·

واننا اذا تركنا ظواهر هذه الرواية فانا نقول : انها نزلت كلها عقب غزوة تبوك ، ولكن لم يحمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ، الا ببعض من أولها ـ الذي فيه منع المشركين من البيت الحرام ، وصدهم عنه ، لأنه لا يعمر مساجد الله الا من آمن بالله واليوم الآخر ، وذلك ما صرح به ابن اسحاق امام السيرة ، فقد قال رضي الله عنه ، ولأن ذلك كان يشتمل على ماكلف عليا أن يبلغه ، وهي الأمور التي ذكرناها آنفا ·

وعبارات ابن اسحاق بعد تعميمه الأول تفيد تخصيصا بأول سورة براءة·

---

(١) التوبة

فقد قال : « دعا عليه السلام علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه ، فقال له اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ،ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته .

وهذا النص يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمله صدر سورة براءة ، ولم يحمله السورة كلها .

ما اشتملت عليه سورة براءة :

٧٠٦ ــ وان الروايات كلها ، قد نزلت بعد غزوة تبوك ، ولذا تعد من أواخر السور نزولا ، وظاهر الروايات أنها نزلت دفعة واحدة، وان ما اشتملت عليه يدل على أنها نزلت بعد غزوة تبوك ، ففيها أخبار المتخلفين والمعتذرين ، ومن ليس عليه حرج ،وانها اذا كانت قد ابتدأت بذكر عهود المشركين ، وتحريم دخوله على غير الذين يؤمنون بالله وأنه واحد أحد ، لا شريك له .

قد توسطتها أخبار المخذلين والمنافقين ، وما يجب أن يكون عليه المجاهدون ، والدعوة الى استمرار الجهاد فانه ماض الى يوم القيامة ،وتركه ذل ، أو يؤدي اليه .

لقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر منع المشركين من البيت الحرام ، ووجوب قتالهم ، ونبذ عهودهم اليهم ،وأن العهد واجب الوفاء بشروط ثلاثة ألا ينقص المعاهد من التزاماته ، وألا يظاهر على المؤمنين ، وألا يكون مخالفا للقواعد العامة المقررة في القرآن الكريم .

وجاءت بعد ذلك ببيان جهاد المشركين في الأرض العربية ، بشرط ألا ينتهكوا حرمة من الحرمات ، كحرمة الشهر الحرام ، وأن الدماء يحميها

العهد اذا استقام المعاهد ، فما استقاموالكم فاستقيموا لهم ، ويحميهـا الأمان والجوار :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

وقد بين سبحانه ضلال الشرك ، وأنه لا يصح لهم أن يشفعوا لأنفسهـم بأنهم تولوا عمارة البيت وتولى سدانتهوسقايته ، فان الايمان بالله تعالى هـو الأول ، ولا يمكن أن يكون هذا كذلكوأن لهم فضلا في العمارة ان آمنـوا بالله واليوم الآخر •

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (٢)

واذا كانت عمارة المسجد لا تعـادلالايمان بالله واليوم الآخر ، وأن عمارة المساجد لا ثواب لها مع الكفر فانه لايمكن أن يكون للمشركين مآثر في أي عمارة ، لأن ما يفعله المشرك من خـيريكون هباء لا أثر له ، اذ يكون كمثـل وابل من المطر أصاب أرض قوم ، فنزلعلى أحجار لا تنبت ، ولم ينزل عـلى ما ينبت •

ولذلك كان الواجب جهاد المشركين، ولأنهم لا يؤمنون بشيء لا عهـد له ولا ذمة ، وليس لمؤمن أن يرقب فيهـمالا ولاً ذمة :

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣)

ولا طريق الا الجهاد ، وان الجهـاديوجب أن يكون كله لله تعـالى لا يؤثر عليـه أحد من مال أو زوج أو ولد ، أو راحة ، فاذا كان الجهاد قـوة بشرية ونفسية ، أو تقديما للنفس والمال ،فهو تجرد روحي ، وخصوصي لله تعالى، وصدق رسول الله صلى الله تعالى عليـهوسلم اذ يقول : « لكل أمـة رهبانية ، ورهبانية أمتي في الجهاد ، ولذلك أمرالله تعالى عند البدء في الكلام في الجهاد

---

(١) و (٢) و (٣) التوبة

بعد أن بين أن المشركين يصدون عن سبيل الله ويعادون المؤمنين ، وينتهزون فرصة ليقضوا ، قال تعالت كلماته :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١)

وذكرهم سبحانه وتعالى بأن الكثرة،وقوة العدة لا تغني عن الاتجاه الى الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا ، ثم ذكرهم بموقعة حنين ، اذ لم تغن شيئا ، اذ لم يكن الاتجاه الى الله من الجيش كله كاملا ، وان كان كاملا كل الكمال في بعضه كأولئك الذين ناداهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد اشتدت الشديدة ، وكثر الفرار ،وقل الاقدام ، حتى كان المجاهدون الأبذال الذين بدلوا بالهزيمة نصرا ،وبالفرار اقداما .

وكان الجهاد في هذا الموضع تتميما للكلام في البيت ، وبيان أنه لا يحميه الا الجهاد فهو الذي يمنع دخول المشركين ، ولذلك ختم آيات البيت الحرام بقوله تعالت كلماته :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢)

٧٠٧ ــ وقد بين الله سبحانه وتعالى معاملة أهل الكتاب من الكفار ، بأنه لا يجوز لأهل الايمان السكوت عن دعوتهم ، وان كانوا في الجزيرة العربية أهون على أهل الايمان من المشركين الذين اذ كانوا أقل خطرا وعددا ، وان كان اليهود شرا في أنفسهم .

---

(١) ، (٢) التوبة

ولقد أمر سبحانه وتعالى في سورة التوبة أن يقاتلوهم ، فقال تعالى :

﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

وبين سبحانه في السورة حالهم من اتخاذهم المسيح الها ، واتخاذ اليهود عزيرا الها ، وانهم بذلك يضاهئون قول المشركين في اتخاذهم الأوثان ، فان الشرك كما يكون بعبادة الأوثان ولا يكون بعبادة الأشخاص .

وذكر سبحانه وتعالى العماد الذي قام عليه انحراف الذين قالوا انا نصارى عن الوحدانية ، وهو أن قام الأحبار والرهبان بين المسيحيين ، وبين ادراك الحقائق المسيحية ، فقد اتخذ الأحبار والرهبان أربابا ثم ذكر ما كان عليه الأحبار والرهبان ، فقال تعالى :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

(١) و (٢) التوبة

وان الله تعالى اذ بين وجوب الجهادلكل من يعتدي على الحق ويعاند أهله ، وينابزهم على سواء ، بين سبحانه أن الأشهر الحرم القتال فيها حرام ، فذكر السنة في التقويم المتصل بالقمر والشمس والأشهر الحرم منها ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ (١)

غزوة تبوك في سورة براءة :

٧٠٨ ــ قلنا ان سورة براءة من آخر السور نزولا ، ويبدو من سياقها كما قلنا أنها نزلت دفعة واحدة ، لمناسبة ما كان من العهود فيها ابتداء ، وما كان من عمل المنافقين ، ولمناسبة تطهير البيت من رجس الجاهلية ومنع المشركين من دخوله ، ولكن الشطر الأكبر منها كان يتعلق بغزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد امتازت هذه الغزوة أنها كانت بعد أن أوشك الاسلام أن يعم البلاد العربية أو عمها ، وأنها كانت وقد خفض العرب الذين كانوا يتاخمون الفرس والرومان من نفوذهم ، ورضوا بالاسلام دينا ، وخلصوا بذلك من ربق الفرس والرومان واعتزوا بعزة الاسلام .

وامتازت أيضا هذه الغزوة بأن ظهر التخاذل في أولها ، حتى كان التثاقل ، وبث الظنون في المسلمين من المنافقين ، وضعاف الايمان ، ثم فيها بيان حال الذين ينتحلون الأعذار ولا عذر لهم ، وحال الذين يستأذنون في التخلف ،

---

(١) التوبة

فيؤذن لهم أو لا يؤذن ، وفيها عمل التخذيل في جيوش الحق من أين تجيء ، والى أين تتجه .

واذا كانت غزوة تبوك آخر الغزوات المحمدية ففيها العبر التي توجب على كل جيش أن يتعرفها ، ويأخذ بعظاتها ، حتى يكون الجيش الاسلامي قويا ، قد تجنب أسباب الخور وأسباب التردد والهزيمة ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قبضه الله تعالى بعد سنة من وقوع هذه الغزوة التي لم يكن فيها حرب ، ولكن كان فيها عظات تعرف كيف تتقي أسباب الهزيمة والتخاذل ، والآفات التي تعتري الجيوش من أهل التردد والنفاق ، وما يحدثه من تخاذل .

وقد كانت سورة براءة وعاء هذه التجارب النبوية في تلك الغزوة التي لم تشتمل على قتال ، ولكن كشفت فيها النفوس كشفا ، وابتلي فيها المؤمنون بالنفاق ، والتثاقل ودعاة الخذلان ، وكيف عالج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الأحوال بهداية ربه .

واذا كان الجهاد ماضيا الى يوم القيامة ، فقد كانت سورة براءة تصويرا للآفات التي تعتري الجيوش في تكوينها ، وفي سيرها ، وفي الاتجاه الى غايتها من غير التواء .

ولقد بينت نفوس المترددين ، وعدم ايمانهم بالحق الذي يؤيدونه ، وفيها بيان للمجاهدين المعتز بهم وأول الآفات عدم العزيمة الموجهة المدافعة ، والتثاقل عندما يحق الجهاد ، وقد قال تعالى في ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ
(٣٨) إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا
فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وتستمر الآيات الكريمة السامية في بث الهمم ودفع العزائم ، لأن تكوين الجيش يكون بايجاد دفعة قوية عازمة،والاستعداد لتحمل المكاره والوثوق بتأييد الله تعالى ان خلصت النيات ،واستحصدت العزائم .

ولقد بين سبحانه بالاشارة للسببفي تثاقل حركتهم وهو توقع المشقة ، وان توقع المشقة يجب أن يكون فيتقدير المجاهد ، وعزمه الحديد .

وبين سبحانه وتعالى أن الخور يعتري النفوس ويخلق المعاذير للاستئذان في التخلف ، ولا يستأذنك مؤمن .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المنافقين والمترددين يثيرون روح الضعف والهزيمة .

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣)

وقد كشف الله نفوس أولئك المخذلين من أهل التردد وضعاف المؤمنين ، وبين ما تنطوي عليه نفوس المنافقين من أنهم يتمنون الهزيمة للمؤمنين .

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٤)

(١) و (٢) و (٣) و (٤) التوبة

وقد كان منهم من يؤثر أن ينفق في الجيش فرارا من أن يكون في ضمن المجاهدين ، فبين الله تعالى أنه لن تقبل نفقاتهم ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون ٠

لمز المنافقين في الصدقات وغيرها :

٧٠٩ ـ النفاق هو داء الجماعات في السلم وفي الحرب ، ففي الحرب يخذلون ، ويبثون روح التردد ، والتشكيك في الدعوة ، والدعوة الى الاثرة ، والجهاد ايثار ، والى الحرص ، والجهاد فداء ، والى متع الدنيا ، والجهاد رهبانية ايجابية ، يدفع الى الحياة العاملة المكافحة ٠

أما في السلم ، فانهم يشككون في تصرفات الأبرار المخلصين ، ليوهموا الناس ، أن كل الناس مثلهم ، ليس فيهم أخيار منزهون ، وأبرار متقون ٠

فهم يلمزون كل عمل صالح ، ويوهنونه ، ويثيرون الريب ، وان اتقاءهم بعدم السماع لهم فهم أثاروا القول حول الصدقات التي يوزعها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقول سبحانه في ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (١)

وقد بين الله تعالى للأمة كلها مصارف الصدقات ، حتى لا يماري منافق وليطمئن كل مؤمن ، وقد وزعها سبحانه توزيعا فيه التكافل الاجتماعي الكامل ٠

والمنافقون يؤذون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويؤذون كل داعية للخير ، لأنهم والخير نقيضان ، اذا كشف أمرهم لا يقولون كشف الله تعالى سرهم، بل يقولون ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يسمع أخبارهم ، ويتعرف

---

(١) التوبة

أسرارهم ، وأن له من يسعى عليهم ،ويقول سبحانه وتعالى في ذلك :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾(1)

والمنافق دائما كثير الحلف باللهلضعفه النفسي ، اذ النفاق منشؤه ضعف النفس لا مجرد ارادة النفع ،فهو يحلف لستر موقفه ، ولأنه مهين يريد رضا من ينافق معهم ، ويخشى أن ينفضح سره ، ويعرف أمره .

وانهم مع كفرهم ، وعدم اذعانهم للحق لفرط ضعفهم ؛ يخشون أن تنزل سورة تكشف حالهم .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(2)

ومع هذا الهلع من أن يكشف سترهم يحادون الله ورسوله ، ويستهزئون بآيات الله تعالى ، ويتخذونها في مجامعهم هزؤا وسخرية .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(3)

والمنافقون أشرار قد استمكن الشرفي نفوسهم ، لأن الكتمان تفرخ فيه الرذائل ، والضوء يكشفها ، ولأن محاولتهم ستر أحوالهم ، يوقعهم في رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحدة تجر أختها ، حتى يستمرئوا الشر ، ويكون دينهم ، ويختم الله على قلوبهم فلا يصل اليه خير ، ولا ينضح منه ومن اللسان الا الشر ، ولذلك قال تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(4)

(1) و (2) و(3) و (4) التوبة

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم ، وأنه عقاب الذين من قبلهم ، وكانوا أشد قوة ، واستمتعوا بالشر ، ونالوامن الدنيا ، وخاضوا في أهل الايمان مثل الذين خاضوا ٠

ويضرب الله تعالى الأمثال من قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم ، وأصحاب مدين والمؤتفكة ، فان هؤلاءكفروا برسلهم ، وكان النفاق والمنافقون من ورائهم ، والنفاق غذاءالجحود ، اذ يدفع الجاهلين الى الكفر والعناء ٠

وفي مقابل ما توعد الله به المنافقين كان وعد الله تعالى للمؤمنين ٠

جهاد النفاق والكفر :

٧١٠ ـ اذا كان النفاق يفعل في الجماعات ذلك الفعل ، فان جهاده يكون في مرتبة جهاد الكفر ، بل يكون قبل جهاد الكفر، وذلك لأن الكفر لايستغلظ سوقة الا بالنفاق ، والمنافقين هم الذين يفسدون العقول فيصورون الحسن قبيحا ، والقبيح حسنا ، ولذا أمر الله تعالى نبيه الكريم ، وأمته فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾(1)

ويبين سبحانه وتعالى ما يفعله المنافقون في الجماعات الاسلامية ، ووجوب جهادهم ، وذلك الجهاد يكون بألا يسمع لقولهم ، ولو كانوا يحلفون ، فذلك دأبهم يقولون وينكرون ما يقولون ، ويحلفون أنهم ما قالوا ومن جهادهم أن يكشف أمرهم ، ومن جهادهم أن يحذر منهم ، ومن جهادهم ألا يخوضوا في خوضهم ، ومن جهادهم ألا يمكنهم من الجماعات الاسلامية ٠

وقد ذكر سبحانه أمارات النفاق أو بعضها ، وأولها الكذب ، وثانيها نقض العهد ، والشح على الخير ، ويقول :

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾(2)

---

(1) ، (2) التوبة

أي أنهم في نفاق مستمر ، نافقــواعندما أعطوا العهد ، ولما اختلفوا زاد نفاقهم يسبب أنهم يكذبون ، ويكذبون على الله سبحانه وتعالى ، وهــو يعلم سرهم وما يتجــاوبون به بينهم ، وان المرء اذا سار في الشر أوغل فيه ،وكلما سار زاد فسادا .

وانهم لا يكتفون بأن يشحوا على الخير ، بـل يتجــاوزون ذلك الى أن يلمزوا في القول موهنين شــأن الذين يتصــدقون الصــدقات المفروضة ، ويتطوعون بأكثر مما فرض ، وهــكذايكون أهل الخير فريسة ، أهــل النفاق يصغرون أعمالهم ، ويهجنون ما يكون منهم ، ويستضحكــون من أعمالهم ، ولكن :

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]

والنبي الهــادي الأمين يغضي عن سيئاتهم،ويستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله ، فيبين الله تعالى لنبيه الكريم ، أن النفاق اذا استمكن في النفس ، غـلق باب الهداية ، وكان حجــابا كثيفا لا يصل اليه النور قط :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾[2]

وان من جهاد النفــاق أن يحتاط النبي والمخلصون للجيش الاسلامي ، فلا يمكنوا أحدا من المنافقين من الدخــول فيه ، لأنهم يلقون فيه بروح الهــزيمة والفشل ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[3]

---

(١) و (٢) و (٣) التوبة

هذا أمر قاطع لخير خلق الله تعالى في هذا الوجود الانساني ، وقد أمر سبحانه كشفا لأمرهم وجزاء لهم بما ارتكبوا في الدنيا ، بمنع الصلاة عليهم ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١)

وقد بين سبحانه وتعالى أن الرضا بالشر ، اذا توالى طبع الله تعالى على قلب صاحبه ، فأصبح غير قابل : لأن ينفذ نور الايمان اليه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢)

وقد ذكر سبحانه وتعالى من بعد ذلك جهاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذين جاهدوا معه ، فبين أن لهم الخيرات ، وأنهم الفائزون ، وأنه سبحانه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .

أعذار النفاق :

٧١١ ـ أعذار النفاق دائما واهية، لأنه لا عذر لهم ، فهم ينتحلونها ، وكان النفاق ابتداء في المدينة عندما دخلها الاسلام ، ووجد نفاق في الأعراب عندما عم الاسلام ، فهو يتسع باتساع عموم الاسلام وشموله ، لأن النفاق يكون اذا كان كفر مع وجود قوة للحق، ولم يخرج الأعراب الذين كانوا يحيطون بالرومان لم يخرجوا كلهم للحرب في تبوك ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣)

---

(١) و (٢) و (٣) التوبة

وقد بين الله سبحانه وتعالى الأعذار التي من شأنها أن تقبل ، والأعذار التي لا يمكن أن تقبل ، وبذلك يتميز العذر الحقيقي عن أعذار المنافقين التي لم يكن لها مسوغ ، فقال تعالت كلماته :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾(1)

هؤلاء هم الذين يكون لهم عذر ، ولا يؤاخذون في التخلف ، وهم الذين فيهم ضعف في القوة ، أو في المال بألا يجدوا ما ينفقون منه ، ولا يكون مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعينهم به .

أما غير ذلك فلا يعد عذرا ، ولكن يعد تخلفا وقعودا في وقت يجب أن تتضافر فيه القوى كلها وتجمع الجموع دائما وقد أخرج الى التجمع من التقدم للرومان الذين تعد جيوشهم بمئات الألوف لا بالعشرات منها .

ولذلك ذكر سبحانه وتعالى أنه لاتقبل منهم أعذار ، وانما عليهم السبيل ، فهم مسؤولون عن تقاعدهم ، وهو يدل على أن الايمان لم يدخل قلوبهم .

وقد أشرنا الى أن النفاق لم يكن من الخزرج الذين كانوا بالمدينة ، بل كان منهم ، وكان من الأعراب الذين دخلوا في الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وكانوا في مجموعهم أميل الى الكفر ، وان كان في بعضهم ايمان ، وقد قسمهم الله سبحانه وتعالى الى ثلاثة أقسام :

أولها ـ قسم لم يدخلوا في الاسلام بقلوبهم ، وان خضعوا له بأبدانهم ، وأظهروا الطاعة ، وقد قال تعالى فيهم:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (2)

---

(1) و (2) التوبة

وأولئك علموا الاسلام ممن هم في باطن الصحراء وحول المدينة وخضعوا ولم يستجيبوا لداعي الايمان ، وذلك لأنهم حديثو عهد بالدخول ، ولأنهم خضعوا للقوة ، وحيثما كان الخضوع للقوة كان النفاق والكفر .

والقسم الثاني ـ دخلوا في الاسلام ، كما يدل ظاهر القرآن ، ولكنهم برموا بالصدقات ، وعدوها مغرما ،ولم يعدوها مغنما ، وهؤلاء ، ان كانوا مسلمين يعدون من ضعفاء الايمان ،وهذا القسم قال تعالى فيه :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ (1)

والقسم الثالث ـ المؤمن الصادق في ايمانه ،المتعرف لأحكامه، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، الا أنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، ان الله غفور رحيم وهؤلاء هم الذين أشربوا حب الايمان.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن النفاق في داخل المدينة ، وقد علم أمر الكثيرين منهم ، وأحوالهم ، وكادوا يعرفون باستخفافهم :

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ (2)

وذكر سبحانه وتعالى أن النفاق من الأعراب حول المدينة ، ولقد ذكر الاثنين ، فقال سبحانه :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴿١٠١﴾ ﴾ (3)

ما بين الإيمان والضعف والنفاق :

٧١٢ ـ ان الايمان في قوة تدفع فيعمل ، فأولئك هم المهاجرون والأنصار ومن اتبعوهم باحسان ، والضعف تردد وقد يتجه الى الله تعالى

(1) و (2) و (3) التوبة

فيعترف بتقصيره أو ذنبه ، فيكون منه الندم ، ورجاء الخير ، وقد ذكرهم سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ * وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١)

وهؤلاء تطهر بعضهم التوبة والصدقات ولذلك قال تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٢)

وذلك لأن الصدقة تطفيء المعصية ،كما يطفيء الماء النار .

وأولئك الذين لم يعترفوا بذنبهم ،في التخلف عن القتال من غير معذرة هؤلاء مرجؤون الى رحمة الله تعالى اما أن يعترفوا ، ويتوبوا كاخوانهم ممن تخلفوا من غير معذرة صحيحة تسوغ التخلف ، واما أن يستمروا في غيهم يعمهون ، وهؤلاء يعذبهم الله بذنوبهم،ولقد قال الله تعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٣)

ولقد ذكر سبحانه من بعد ذلك أن المنافقين في المدينة الذين مردوا على النفاق لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد ،وتثبيط المؤمنين عنه ، بل تعدوا وأرادوا التفريق بين المؤمنين ، فأنشؤوا مسجدا لا ليقيموا فيه الصلوات ، بل ليكون وكرا لهم ، وليجروا فيه خياناتهم ، واتصالاتهم بأعداء الاسلام من الرومان ، وليفرقوا بين المؤمنين ،وسمي هذا المسجد مسجد الضرار ، ولقد قال الله تعالى في مسجدهم هذا وفيهم :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ

(١) و (٢) و (٣) التوبة

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾(1)

هذا شأن المنافقين ، وذلك شأن ضعفاء الايمان ، أما شأن المؤمنين ، فانهم قد باعوا أنفسهم لله تعالى وأموالهم ، فيقتلون ويقتلون وينفقون غير مدخرين نفسا ولا مالا في سبيل الله تعالى ولقد وصفهم الله أكرم وصف ، فقال تعالى :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾(2)

ووصفهم بالسائحين هنا يراد به المجاهدون الذين يضربون في الأرض جهادا في سبيل الله سبحانه ، ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (سياحة أمتي في الجهاد) .

وبين سبحانه من بعد أن العمل الصالح هو الذي يرفع الى الله تعالى لا القرابة :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾(3)

---

(1) و (2) و (3) التوبة

ومع ذلك لم يغفر الله تعـــالى لأبي ابراهيم .

وان من المؤمنين ناسا تخلفوا ، وأحسوا أنهم ارتكبوا كبرا ، وما أبدوا معذرة ، لأنهم لا يريدون أن يكــذبوا على الله ورســـوله ، حتى لا يرتكبـوا جريمتين : جريمة التخلف والكذب على الله ، وأولئـك لابد أن يتطهـــروا . فقاطعهم المؤمنون تربية لنفوسهـــم ، وتزكية لقلوبهم ، وقد ذكرنا أمرهم في قصة غزوة تبوك ، فرضوا أن يعذبوا بالهجـــران عن أن يكـــذبوا على الله ورسوله ، حتى تاب الله تعالى عليهم .

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١)

وبعد ذلك التقسيم الحكيم ، والخبر العظيم ذكر سبحانه ما كان واجبا على المؤمنين والأعراب ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ * ﴾ (٢)

وقد أشار سبحانه وتعالى الى الوفود ، الذين يجيئون ليتعلموا من المسلمين فذكر سبحانه وتعالى أنه ليس للمؤمنين جميعا أن ينفروا الى النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد جاءت الوفود ، كما أشرنا في السنة التاسعة والعاشرة.

(١) و (٢) التوبة

حتى قبض صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولقي الرفيق الأعلى ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ (١)

ثم ذكر سبحانه وجوب الجهاد في ختام السورة ، كما أوجبه في أولها فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) التوبة

بعض ما في سورة براءة من حكم وعبر

٧١٣ ــ نزلت سورة براءه عندحج الصديق رضي الله تعالى عنه ، وعقب غزوة تبوك ، ويلاحظ أنه أولحج تولى امرته مؤمن من المؤمنين ، ونفذ فيه مناسك الحج على مقتضى حكمالاسلام ، وقد حطمت الأصنام ، فكان الحج اسلاميا بالنسبة للمسلمين ، ولكن المشركين كانوا يسيرون على ماكانوا عليه ، ولم يمنعوا ، لأنه لم يكن قدجاء الأمر بمنعهم ، والاسلام لا يطبق الا ما ينزل به الوحي ، ولم يكن قدنزل الوحي بهذا المنع ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم امتنع عن أنيتولى بنفسه القيام بالحق،حتى لايكون في ذلك اقرار لما يفعلون ، فأناب أبابكر عنه .

ولما كانت هذه السورة مبينة لمنعالمشركين من الحج ، لأن هذا الحج اول حج اسلامي ، وان رنق بفعل أهلالجاهلية وكانت مشتملة على أول المنع، وكانت هذه السورة بعد آخر غزوةغزاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد اشتملت على منع المشركين أنيدخلوا المسجد بعد عامهم هذا اشتملت على ما يجب لحفظ الجيوش الاسلاميةوحمايتها ، والحذر من الدخلاء فيها ، وكانت غزوة تبوك التي أخذتمنها العبرة .

واشتملت السورة على ما يجب أنيتوقاه المؤمنون في بناء جماعتهم ، وما يجب أن يتحلوا به من صفات ليتكون منهم بناء اجتماعي قوي .

وأول ما يستفاد منه هو التوقي منأهل النفاق فانهم العنصر المخرب في بناء المجتمع ، ولا يمكن أن يتماسكمجتمع اذا ساده النفاق . او تحكم فيه المنافقون ، ولذا أكثرت السورة الكريمة من ذكر النفاق وأحواله ، وان أهله لا يلتئمون مع مجتمعهم ، ولا يندمجون في أهله ، بل يكونون بمنأى عن شعوره ، وعما يحس به ، فهم يؤذونفضلاءه ، ويستهزئون بفعل الخير ، ويخوضون في شؤون أهل الفضلوالخير ، واذا قيل لهم في ذلك ، قالوا

انا نخوض ونلعب ، وان قلوبهم دائماتكون في جانب ، والمجتمع يكـون في جانب آخر .

ولذلك وجب أن يكون الجيش خاليامن المنافقين ، فلا يخرجوا فيه لأنهـم يخذلون المجاهدين ، ويثبطون هممهم ،ويتخذون من الضعفاء وأهـل التردد والهزيمة فريسة ينفثون فيها سمومهم،وانهم يتخـاذلون في وقت الشـدة ، ويفرحون بما ينزل بأهـل الحق من‌مصيبة تسوؤهم ، فان تصبهم مصيبـة يفرحوا بها ، وان تصبهـم حسنـة تسؤهم .

وان الضعفاء ان اعترفوا بذنوبهم ،وتابوا قبل الله سبحانه ، وان كـانوا قد خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فاذا كانوا قد أساءوا بالقعـود ، فقد احسنوا بالاعتراف ومع الاعتراف الندم ومع الندم التوبة ، فهـم لم يصروا على الشر ، وفرق بينهم وبين الذين انتحلوا أعذارا ، وكـذبوا ، وحلفـوا وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وما قصدواارضاء الله ، بل قصدوا ارضاء العباد ، فلم يتوبوا ، وارتكبوا الشر وأصرواعليه اصرارا .

وانه اذا كانت التوبة الصادقة جبت‌ما قبلها ، وبينت السـورة الكريمة أمورا ثلاثة تدخـل في بناء المجتمع الصالح ، واذا لم تكن تخرب .

اولها ــ أن الجهاد تجريد النفس عن‌أعـلاق الدنيا ، وما يتعلق بالأحباب والمحبوبات من الأشياء والمتـع ، وأن‌المجاهد ان لم يتجرد ذلك التجـرد ، فان على الأمة أن تتربص حينهـا ،وتذهب قوتها ، ان الأمـة التي تريد الحياة يجب أن تتسربل سربال الجهاد ،وتستشعر حياته ، ولا جهاد مع الأثرة، ولا جهاد مع التعلق بالحيـاة ، فان لم‌تفعل فانها تذل وتهـون ، ويتحقق فناؤها في غيرها ، وتعيش ذليلة مهينة .

ثانيها ــ أن النفاق كما أشرنا هـومقوض الجماعات يمنع توافر الثقة بين آحادها ، والثقة أساس بنيانها ، فما لم‌توجد الثقة لا توجد المحبة ، والمحبـة هي الرباط الذي يربط بين الآحاد ، ويربط الجماعة ، ولا يقطع حبال المودة والمحبة الا أن يظن الانسان بأخيه شراولا يمكن أن يكون التئام بين الأمة اذا كان كل واحد يتظنن بأخيه ، والنفاق‌هو المادة التي بها تقطع الصـلات ، ولذلك وصف الله تعالى المنافقين والكافرين بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن

يوصل وما أمر الله به أن يوصل هو المودة والمحبة والأخوة ، وان النفاق يفسد نفوس المنافقين،فيأمرون بالمنكر،وينهون عن المعروف ويفسدون الناس فتسري عدواهم الى الضعفاء ويلقون بالفرقة بين الأقوياء وما ساد النفاق في قوم الا تقطعوا فرقا ومزقوا مزقا ٠

ولقد بين القرآن الكريم صور النفاق في هذه السورة بما لم يبين به في سورة أخرى ، واذا كانت سورة (المنافقون الصغرى) قد بينت خلالا للمنافقين في أطواء نفوسهم وانحرافاتهم ، ومعاملتهم فسورة براءة ، وقد أسميها سورة النفاق الكبرى قد بينت حالهم عندما تشتد الشديدة وعندما تكون الحرب وعندما تكون الأزمات ٠

وبينت أن النفاق قد يتجاوز العلاقات الانسانية الى مظاهر العبادات ، فهم ينشئون مسجدا يكون ملتقى لاجتماعاتهم المريبة ، ويبنونه ارصادا للاتصال بينهم وبين الرومان في الشام،فهو ارصاد لمن حارب الله ورسوله ، ويتظاهرون بأنه مسجد ، فيكشف الله سترهم ، ويكون في التاريخ الاسلامي مسجد الضرار ٠

وانه يجب لكي تكون الجيوش مجتمعة القوى لابد أن تكون مجتمعة العزم ، وذلك بابعاد المنافقين وعدم دعوتهم فانهم يريدون الفتنة ، ويبتغونها والفتنة في الجيش طريق مؤكد لهزيمته ٠

الأمر الثالث ــ الذي ذكرته السورة الكريمة وأكدته ، أمر المترددين والضعفاء في ايمانهم لا في أبدانهم فان أولئك يجب أن يخلوا الجيش منهم، لأنهم يكونون العش الذي يفرخ فيه المنافقون ، ويبثون فيهم روح الفزع والخوف ، والفرار يوم الزحف ٠

وان أمر هؤلاء مرجوأ، عساهم أن يتوبوا ، ولكنهم لا يكونون في جيش قوي يخط خطوط النصر ، وأخيرا أن سورة براءة درس حكيم للأمة المجاهدة وقد جعل سبحانه وتعالى من غزوة تبوك التي لم يحدث فيها قتال ، بل رجع المسلمون منها لم يلقوا كيدا ،قد جعلها تعالى درسا في ذلك فكان التكوين انتقاء للأقوياء ومن تسلل فيه من الضعفاء وأهل النفاق وكشف أمرهم ٠

وفي سورة براءة بيان حال الذين وصل اليهم الاسلام ، فاعتنقوه بحكم اتباع القوي ، لا بحكم الاقتناع كأولئك الأعراب الذين كانوا يتغلغلون في البلاد العربية ، فدخلوا في الاسلام ،ولما يدخل الايمان قلوبهم وبينت السورة الكريمة أن مظاهر الخضوع الكامل الزكاة ، فان دفعها من يدفعها مغرما ، سواء أكان الدفع طوعا أم كرها ، فهو ليس من أهل الايمان ، وان قدم الطاعة ، وان دفعها قربات الى الله تعالى فانه يكون مؤمنا مخلصا لله تعالى وللجماعة الانسانية .

هذه كلمات موجزة في حكمة نلتمسها في نزول سورة براءة عقب غزوة تبوك ، وعند حج الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه بتأمير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير ، لا يسأل عما يفعل ، وكلنا نسأل عما نفعل ، واذا تلمسنا الحكمة ، فانما نقرب الى الأفهام ولا نتعرف الأسباب فنحن نقارب ، ونطلب المعرفة من الله العلي الحكيم .

انتشار الدعوة الإسلامية

٧١٤ ـ ابتدأ نور الاسلام في قلوب تقبلت حقيقته ، كما تتقبل الأرض الطيبة النقية البذر الصالح ، والماء الذي يسقي ويغذي ، وكما يتقبل الأحياء ضياء الشمس ، فتهتدي بها في الدجنة الحالكة ، فتقبله الضعفاء لأنهم وجدوا فيه المعاذ والملجأ والنور والبصر ، والهداية الى الحق في وسط الظلمات المتكاثفة عليهم ، والظلم المرهق ، وتبعوه طائعين ، راضين ·

وانه اذا كان الفقر قد أرهقهم فيه ظلم الظالمين ، فقد أعطاهم قوة احتمال للعذاب والأذى الذي نزل بهم ممن أظلمت نفوسهم ، وختم على قلوبهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى يختار المؤمنين الأولين لكل نبي من هؤلاء الفقراء والعبيد ، لأنهم هم الذين لقوا الصدمة الأولى فيما نالوا من ألم الفقر في حياتهم يتحملون ألم الأذى ، ويكونون نواة الاستجابة ، وكذلك كان الحواريون لعيسى عليه السلام ، فلم يكونوا من الأقوياء الأشراف ، بل كانوا من الصيادين والعشارين ، وغيرهم من الضعفاء ·

ولقد كان الأقوياء الذين دخلوا في الاسلام ابتداء عددا قليلا ، كأبي بكر وعثمان وحمزة بن عبد المطلب ثم عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وغيرهم في عدد قليل كانوا ايداوون ندوب النفوس الفقيرة لتصبر ، وتصابر وليكونوا قوة نسبية هادية ·

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يؤذى في نفسه ويتطامن ليكون الهادي الرشيد المرشد ، وليكون النذير العريان ، كما قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام ، فلا سيطرة تفرض الدين والرأي ، كما قال تعالى :

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) الغاشية

حتى اذا اشتد الطغيان ولم يعد في قوس الصبر منزع ، وسمع مقالة الله تعالى لنوح :

﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ (١)

واستيئس من ايمان أهله اتجه الى القبائل في موسم الحج ، يعرض عليها دعوة الاسلام ، وأن ينصروه وأن يحموا دعوته من قومه ، فاستعد لاجابته من استعد ونفر منه من نفر ، ولكن قد بلغت دعوته القبائل كلها أو جلها ، ما بين منكر جاف ، وما بين موات مؤتلف راض غير مختلف ، والذين اختلفوا كان السبب الأكبر اختلاف قومه عليه ، فكانوا ينتظرون ولا يعادون استقلالا ، ولكن ربما يعادون تبعا وتقليدا لقريش أقوى قبائل العرب ، وأشدها نفوذا وسلطانا ·

فما سوغت لغيرهم من الذين يتبعونهم أن يخالفوهم ، ولكن الله تعالى هدى أهل يثرب ، فآمنوا وبايعوا على النصرة والايواء ، وفتحوا الصدور للضعفاء وآووا ونصروا ·

ولكن قريشا هي القوي ، وهي البعيدة النفوذ في البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وهي في البيت الحرام الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ، وهو أول بيت للعبادة وضع للناس وهم الذين يتولون فتنة المؤمنين الذين آمنوا ، وهم الذين اضطهدوا محمدا وصحبه ، وهم الذين هموا بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فكان حقا عليه الهجرة أن يحمي المؤمنين الذين لا يزالون في مكة ، فكان لابد أن ينازلهم بالحق كما اعتدوا عليه بالباطل ، وأن يمنعهم من الاسترسال في الشر ·

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (٢)

ودفع الشر بمجازاة أهله ليس شرا بل خير كله ، وهو الخير القوي الغالب ، وليس الخير المستسلم الذليل ·

---

(١) هود (٢) التوبة

وان الاسلام فضائله ايجابية ، وليست سلبية ، فضائله عاملة قوية ، وليست ضعيفة مستكينة فلا بد اذن من المغالبة .

فكانت المقابلة وكانت الدعوة وبيان الحقائق الاسلامية والشرائع التي تبنى بها المدنية الفاضلة ، وتقوم فيها الانسانية الكاملة وتكون مثلا ساميا .

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الفترة المجاهدة ، يجاهد في ميدانين متكاملين غير متنافرين يحارب أعداء الحق ، ليجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله تعالى هي العليا ، ويبث السرايا داعية الى الحق ، وفي يدها السيف لقمع الشر ، ان حال دون الحق حائل ، ويرسم الخطط للجيوش الاسلامية الهادية غير الباغية .

وان الغزوات الكبرى كانت من المشركين ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدافع ، ولا يهاجم ، فالمدينة كانت مقصدهم ، والوقائع كانت على مقربة منها ، فغزوة بدر كانت على مقربة من المدينة ، وقد جاءت قريش بقضها وقضيضها ، نعم ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هم بأن يصادر عيرهم ، كما صادروا أموال المؤمنين ، ولكنهم هم الذين جاؤوا بالجيش ليحاربوا ، وقد ردوا خاسرين .

ثم كانت غزوة أحد ، وقد جاؤوا بها للثأر ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من مأمنه ، وأصاب المسلمين جراح ، ولكنهم هم نكصوا على أعقابهم لم ينالوا خيرا ، وان جرحوا .

ثم لما عجزت قريش أن تنال من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وحدها جمعت الجموع ، وحزبت الأحزاب من البلاد العربية ، وذهبوا لازالة المدينة والاسلام ، ولكن هزموا بالريح والرعب فعادوا على أعقابهم خاسرين مذعورين .

هذا هو الميدان الأول لجهاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما الميدان الثاني فهو تربية المؤمنين وتعليمهم أحكام الدين ، وبيان الشريعة الاسلامية ، وتنظيم المجتمع على أساس العدل والفضيلة ومكارم الأخلاق ، وهو ميدان الرسالة المحمدية ، وهو غايتها ومقصدها ، وما كان القتال الا لحماية الدعوة الاسلامية ، وتوصيلها للقلوب ، والمجتمعات ، الآحاد والجماعات .

وانه في أثناء اللقاءات الحربية كانت المبادىء الاسلامية تسري الى النفوس وسط صليل السيوف ، فكانت تصل الى القلوب ، والمقاتل متأثر بالمقاتل مأخوذ به ، وخصوصا اذا رأوا من خوارق العادات ، ما لا عهد لهم به ، لقد كانت غزوة الأحزاب من قبائل متفرقة ، ورأوا عيانا أن الهزيمة لم تكن بسيف ، ولا بقوى ، ولكن بريح عاصف اقتلع أخبيتهم ، وألقى الفزع والذعر في نفوسهم ، وأمامهم رجل يقول انه رسول من عند الله سبحانه وتعالى ، فهلا يفتح ذلك قلوبا مغلقة ، وآذانا تستمع الى صوت الحق ، انهم لا بد أن يعودوا الى أقوامهم ، ويذكروا لهم ما عاينوا أو شاهدوا ، وما رأوا بعين البصر ، وان ذلك لابد أن يصل شيء منه الى البصيرة ٠

ولقد كانت غزوة الخندق آخر الغزوات التي غزتها قريش للمدينة ، وقد استيئسوا من بعد ذلك وعلموا أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم غير مخذول ، وأن أحجارهم التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تغني عنهم ، حتى أخذ بعض عقلائهم يدركون ما هم فيه من ضلال ، وأنه لا بد لهم من أن يسمعوا صوت العقل والضمير ، وقد بدا ذلك في بعض كبرائهم كما أشرنا ٠

الحُدَيْبِيَة :

٧١٥ ـ كانت الحديبية خطوة للدعاية الى الاسلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد ذهب الى مكة بجيش عدته نحو خمسمائة وألف أو يزيدون ، وما ذهب ليقتلع مكة ، كما كانوا يذهبون الى المدينة ، بل ذهب ليقيم شعائر الله تعالى ، ولتعظيم البيت، وعلى ألا يسألوه خطة فيها تعظيم البيت الا سلكها ٠

وقد تم عقد الاتفاق على مدة عشر سنين ، لا يقاتلهم ، وعلى أن يعود من عامه هذا ، وقد سمى الله تعالى ذلك فتحا مبينا ٠

وانه حقا كان فتحا للاسلام ، فقد لانت قلوب كانت مستعصية ، وتفتحت آذان كان فيها وقر عن سماع الحق ، فاذا كانت لم تفتح الا آجلا ، فقد فتحت القلوب نور هذه المدنية ، وكان من قريش أنفسهم من يتجه الى الاسلام ويتعرف غاياته ، ومراميه ، وأنه الحق والعقل ، وملة ابراهيم عليه السلام

والقبائل التي كانت ترى أمارات النبوة، ولكن تنتظر قريشا ، ورأيهـــا في محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أخـذتقلوبهم تصغي ، وأفئدتهم تتجه نحوه ، فأسلم الكثيرون ، وتهيأت للاسلام قلوبكثيرين ، ولما اتجه عليه السلام الى خيبر لاقتلاع اليهود من بلاد العرب ، كـانالعرب جميعا مناصرين ٠

وعندما اتجه محمد صلى الله تعـالىعليه وسلم الى الرومان أحسوا بعـزة العرب تغالب سلطان بني الأصفر ، وقد كان أمرهم مرهوبا مخوفا ، قـــد استكان بعضهم له رهبا لا رغبا ، فلمارأوا محمدا الهاشمي القرشي العـربي يغزو بني الأصفر ، أحسوا بعزة عربيةلابد أن يكونوا معها ، واذا كانوا مـع الروم في بؤسهم فقد هداهم التفكـيرفي عزتهم الى ألا يكـونوا معهـــم في تبوك ، وان ذلك بلا ريب يفتح قلوبهملأن يدركوا الاســـلام ، ويتدبروا في أمره وغـايته ، ورأوا أنه الســـبيلالوحيد لعـــزتهم ورفـع نير الرومان ونفوذهم ٠

ولقد ذكر كتاب السيرة أنه دخـلفي الاسلام ما بين فتح مـكة وغـزوة الحديبية ، ناس كثيرون بلغوا أضعافما دخلوا من وقت البعث المحمدي الى الحـديبية أي بلغ في سنتين أضعـافأضعاف من دخل فيه في مدى تســـع عشرة سنة ٠

ولما كان فتح مكة ، ودخلت قريشفي الاسلام ، دخل فيه الذين يترددون وقد لانت قلوبهم ، لأنهم رأوا أهـــلمكة الذين كان لهم مكـــان المتبـوع يدخلون فدخلوا ٠

ولذلك جاءت الوفود تترى في العامالتاسع ، بعد أن فتحت في رمضان من العام الثامن ، ولقد جاءت تلك الوفودمسلمة معلنة اسلامها ، تريد معـــرفة أحكام دينها ، وما يجب أن يقـوم بهالمسلم ، وما يجوز له وما لا يجوز ٠

وكان النبي صلى الله تعالى عليـــهوسلم يرسل البعوث لتعليمهم ، ولتاديب الذين يحاولون ايذاء المؤمنين أو العبثبالمقومات الدينية ، فكان أحيانا يرسل السرايا ، وأحيانا يرسل فقهاء الصحابة ، كما أرسل أبا موسى الأشعـــري ومعاذ بن جبل ، ولما أرسل خالد بن الوليد ، وهو القائد المحارب كان مكلفا أن يدعو الى الاسلام ، لا أن يجرد ســـيفالقتال ، ثم أرسل علي بن أبي طالب

عالم الصحابة ، فتولى تعليمهم ،وأخذهم بأحكام الاسلام ، ثم ولاه القضاء ، فانفتق ذهنه بدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونطق لسانه بالحكمة،وفك عقدا من مشكلات القضاء وأقره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وهكذا نرى أن البلاد العربية ـ أهل الوبر وأهل المدر ـ قد دخلها الاسلام ، وتقبله قلوب مؤمنة مذعنة ،وعلم أمره بعض الناس ، ولكن لم يدخل قلوبهم ، فأطاعوا وخضعوا ،ولكن لم تؤمن قلوبهم ، وان علم الاسلام ، كان الاسلام كالغيث يصيب أرضا نقية فيمدها بالزرع وتأتي بأطيب الثمرات ، وكان يصيب أرضا تحفظ الماء ولا تنتفع به ، ولكنها تكون موردا لطالبه ، وكان يصيب أرضا مجدبة لا تحفظه ليكون مصدر سقي ورعي ، ولا تنتفع به .

ولقد كان الناس بعد أن علموا الاسلام على هذه الأنواع الثلاثة ، فكان منهم الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله تعالى ، وأولئك الذين كانوا في المدينة، وبعض مدائن البلاد العربية . ورجال كانوا في البادية .

ومنهم من علموا الاسلام وحفظوه،ولكن لم يعملوا به ، وأطاعوا ، ولكن لم تذعن قلوبهم ، ومنهم الذين مر عليهم الاسلام فعرفوا أن هناك دينا يحارب الوثنية ، ويدعو الى الوحدانية ، واحياء ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكن التدين لم يكن موضع اهتمامهم ، فمر عليهم علم الاسلام كما يمر الماء في الميزاب يتحدر ولا يبقى منه شيء ، وأكثر هؤلاء كان في أعراب البادية ، ولهذا قال الله تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

ومهما تكن حال الذين علموا الاسلام ، ووصلتهم الدعوة الاسلامية كاملة ، فان التبليغ قد تم ، وكمل العلم ، وما على النبي صلى الله تعالى

---

(١) التوبة

عليه وسلم أن يدخل الهداية في القلوب ، ولكن عليه أن يبلغ ، وينذر ويبشر كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾(1)

ان عليه أن يبين المورد العذب وعلى الناس أن يردوه ، فمن ورده استقى ، ومن لم يرده شقي ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أكمل رسالته في أمرين :

أولهما ـ أن الشريعة نزلت عليه كاملة ، فأصولها كلها قد نزلت عليه ، وعلمها أصحابه ليحملوا العبء كاملا من بعده ، فبين أحكام العبادات ، والزواجر الاجتماعية والعلاقات الانسانية في معاملات بين الناس وعلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها، وأحكام الحروب الفاضلة ، وغير ذلك مما يسير بالانسانية في طريق السلام والكمال .

وثانيهما ـ أبلغ الدعوة كاملة لقومه العرب ، ليكونوا المبلغين للناس كافة ، أو حماة هذا التبليغ ، ويتولى علماؤهم الدعوة ، ويتولى سائرهم حماية هذه الدعوة ، والله بكل شيء عليم ، وانه لم يبق بعد الكمال الا الوداع .

---

(1) الرعد

حجة الوداع

٧١٦ ـ كانت حجة الوداع في آخر التبليغ المحمدي ، اذ عم العلم بالدعوة الاسلامية البلاد العربية كلها، وخرج نور الاسلام الى الشام ،فدخل فيه من العرب الذين كانوا يخضعون لحكم الرومان ، وسميت حجة الوداع ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انتقل الى الرفيق الأعلى بعدها بأمد قصير ، ولأن العبارات في خطبة الوداع كانت تفيد بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يلقاهم بعد عامهم هذا ،وسميت حجة البلاغ ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يذكر في خطبتها عبارة التبليغ ، ونحن نرى انها سميت حجة البلاغ ، لأنها خاتمة البلاغ الى البلاد العربية ، فعمهم العلم بالدعوة الاسلامية ،ودخلوا في الاسلام وأشرب حبه في قلوب بعضهم ، حتى صاروا مؤمنين ، وقدم بعضهم الطاعة له ولأحكامه ، ولما يدخل الايمان قلوبهم .

وقد حمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عبء الدعوة وتبليغ ما علموا وما أدركوا من حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحمل الأمانة الذين شاهدوا وعاينوا وقبسوا من نور الوحي الالهي ، وان كان قد ختم الوحي برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم الذين رضي الله تعالى عنهم ورسوله في بيعة الرضوان ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأبي عبيدة وغيرهم من الذين كانوا كالحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام ، حمل هؤلاء الأطهار الأمانة ، ورعوها حق رعايتها ، وكانت البلاد العربية كلها بعد أن ارتد من ارتد ، قد تجردت لحماية الدعوة ، حتى أشربوا حب الايمان ، فكانت القيادة الحربية أحيانا لغير أهل البيعة ، ولكن يكون بجوارهم مرؤوسون لهم من بعض أهل البيعة ،كأبي عبيدة ، كان بجوار خالد بن الوليد ، وان كنا نعتقد أن خالدا ممن دخل الايمان قلبه ، ولكن لم يكن كأهل البيعة في العلم بالاسلام ، وأحكامه وفرائضه .

وأحيانا تكون القيادة لأهل البيعةكما كان في فتح فارس ، فقد كان القائد سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة •

الخروج لحجة البلاغ وماقام به من مناسك :

٧١٧ — يقول ابن القيم ان الحجفرض في السنة التاسعة ، وما كان من حج الناس قبلها انما كان على العادةالتي كانت عند العرب ، ولذلك لم يرسل النبي أميرا على الحج الا فيالسنة التاسعة ، ولم يحج هذا العام ، لأن المشركين كانوا يحجون على عادةالجاهلية ، فأرسل أبا بكر ولم يذهب بنفسه ، حتى لا يكون سكوته اقرارالهذه الأمور الجاهلية ، ولما منعت بمنع المشركين من القرب من المسجدالحرام ، قام صلى الله تعالى عليه وسلم بالحج وتولى امرته بنفسه •

وقد اعتزم الخروج من المدينةميمما وجهه شطر المسجد الحرام لست بقين من ذي القعدة ولما عزم أعلنعزمه على الحج في المدينة وما حولها فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم ، ولما شاع الخبر في البلاد العربية ، وافاه في الطريقخلق كثير ، لا يحصون فكانوا من بين يديه ، وعن يمينه وعن شماله على قدر رؤية البصر •

خرج بمن حول المدينة نهارا في التاريخ الذي أشرنا اليه ، وخطب الذين صحبوه من المدينة وعلمهم مناسك الحج ، وكان كلما وفد عليه ،وهو في طريقه وفد علمه مناسك الحج ، وأبعدهم عن بقايا الجاهلية التي كان المشركون يتخذونها في بيت الله الحرام ، كالطواف عرايا •

وبين لهم كيف يكون الاحرام ، ومواقيت الحج ، وبين لهم أنواع الاحرام ، وما يلزم في كل نوع فبينلهم أن من أحرم بالحج والعمرة فعليه أن يسوق الهدي ، ولا يتحلل الا يومالنحر بعد أداء الحج ، فيتحلل بنحر الهدي يوم النحر ، ومن نوى العمرةولم يسق الهدي فله أن يتحلل بعد السعي بين الصفا والمروة ، والطوافبالبيت سبعا ، يجب في ثلاث منها الهرولة ، ويستلم في ابتداء كل واحدةالحجر الأسود تعرفا لكمالها •

وفي السعي سبعا بين الصفا والمروة يرمل بين الميلين الأخضرين ، وأنه يلبي بعد الاحرام بأن يقول لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك .

ثم بعد أن علم هذه المناسك قولا ، وأراهم اياها عملا من بعد أن أحرم من ذي الحليفة ميقات المدينة ، وعلمهم المواقيت كلها ، وأنه يحرم عندها أو قبلها ولا يمر عليها الا محرما .

وأهل صلى الله تعالى عليه وسلم بعد احرامه بالحج والعمرة وأهل بعض من معه ، بالحج فقط ، لأن العمرة تدخل فيه ، وبالعمرة فقط ، وقد فهم بعض الناس من اهلاله بالحج والعمرة أنه كان قارنا أي جامعا بينهما لأنه ساق الهدي ومن أهل بالحج كان مفردا أي لم ينو العمرة في حجته ، ومن أهل بالعمرة فقط فانه متمتع ، لأنه المتمتع، يهل بالعمرة ، ويوديها ثم يتحلل منها ، ثم ينوي الحج ، ويذبح الهدي يوم النحر ، وقد سمي القرآن القران تمتعا فجمع بينه وبين التمتع في عبارة واحدة ، وهي قول الله تعالى :

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾(١)

وان الروايات تتضافر على أن حجه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قرانا وانه عليه الصلاة والسلام يرتضي لنفسه أشدها كلفة، ولا شك أن القران يجمع كمالين الهدي يساق ويعلم من أول اهلاله والاستمساك بالتحريم في مناسك الحج ، حتى تؤدى كلها من السعي والطواف والوقوف بعرفات ثم بالمزدلفة ، ثم الذهاب الى منى بعد المشعر الحرام ، والتمتع فيه رخصة في أحد الأمرين ففيه رخصة التحلل قبل الحج ، ثم الاحرام له ، والحج بافراده من غير عمرة معه فيه رخصة من عدم الالتزام بالهدي ، فاختار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم القران ، لأنه لا سهولة فيه أولا ، ولأن فيه تعليم العمرة عملا .

---

(١) البقرة

ثانيا ، ولأن فيه سوق الهدي من أول الحج ، واشعاره بوضع مزادة فيه ، فقد وضع المزادة وشق جانبا من سنام زاملته ، لكان ذلك كله تعليما ، وما كان ليعلم ذلك عمليا ، لو كان قد أحرم بالحج مفردا ، أو أحرم متمتعا، فكان القران فيه كمال التعليم .

ومع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اختار لنفسه القران نسكا في الحج ، فقد رخص للناس ، من غير بيان أيها أفضل في أن يختاروا بين الأنساك الثلاثة : القران ، أو التمتع ، أو الافراد ، ولكنه اشترط في حال القران سوق الهدي ، وفي التمتع الهدي يوم النحر .

وقد حدث في أثناء سير ركب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن أصاب الحيض أم المؤمنين عائشة ، فأمرها بالاستمرار في حجها على ألا تدخل المسجد الحرام ، وتطوف ، وولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر ولده محمد بن أبي بكر ، وقد أمرها أن تغتسل لاحرامها ، كما أمر عائشة رضي الله عنها وعن أبيها .

مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحجته، والمسلمون وراءه يتعلمون من عمله ، وهو يلبي ، كلما تحول من مكان الى مكان ، وكلما علا مرتفعا ، أو انخفض في واد .

وقد منع أن يصاد حيوان من الحرم ، وأن يؤكل صيد الحرم ، لأنه حرام، فما يؤدي اليه يكون حراما ، ولكن أباح للمحرمين أن يأكلوا صيد غيرهم ممن يكونون في حل .

وفي أثناء سيره ، كان يبين العبر فيما جربه من أرض ، وبوادي عسفان، فقال لصاحبه أبي بكر ، يا أبا بكر أي واد هذا ؟ قال : وادي عسفان ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لقد مر به هود وصالح » .

٧١٨ ـ ومن الروايات الراجحة يثبت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا جمع بين الحج والعمرة في اهلال واحد ، وقد ساق الهدي وكان ثلاثا وستين بدنة ، ولما جاء اليه علي من اليمن أشركه في بدنه ، وقد قلد البدنة وأشعرها .

ولكن لم يكن كل من معه قارنين ،بل قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كان منهم من كان قارنا كالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومنهم من أفرد بالحج ، ومنهم من تمتع ، فقد روى ابن أبي شيبة أن عائشة رضي الله عنها قالت ، وخرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، للحج على ثلاثة أنواع ، فمنا من أهل بعمرة وحجة ، ومنا من أهل بحج مفرد ، ومنا من أهل بعمرة مفردة فمن كان أهل بحج وعمرة معا ، لم يحلل من شيء مما حرم منه ، حتى يقضي مناسك الحج ،ومن أهل بحج مفرد ، لم يحل بشيء ، مما حرم منه ، حتى يقضي مناسك الحج ، ومن أهل بعمرة مفردة فطاف بالبيت ، وبالصفا والمروة حل ما حرم منه ، حتى يستقبل حجا ، وان هذا يدل على أمرين :

أحدهما ــ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا ، ولم يدع الناس جميعا الى القران ، لأنه ربما يكون فيهم من لا يستطيع الهدي ، ومن لا يحتمل تحريم محرمات الحج مدة طويلة ، فأجاز لهم التمتع والقران والافراد ، وبين لهم ما يلزم كل نوع من هذه النسك ، ولم ينه عن واحد منها ، بل لم يبين أفضلها ، وان كان الأفضل يعرف من اختيار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا من قوله ،وربما يفهم من التخيير من غير مفاضلة المساواة فيها •

وان الحق أن كلا له فضله في حاله، ففي حال الضعف ، أو عدم القدرة على الهدي يكون الأيسر ، هو الأفضل،لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يختار الأيسر ، فما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن اثما •

وقد رأى عمر (وعثمان رضي الله عنه قد تبعه) أن يكون الافراد أولى ، حتى لا يخلو البيت الحرام من قاصديه طول العام ، لأنه اذا شاع اجتماع العمرة والحج في أشهر الحج، ما قصد البيت في أثناء العام ، وعمر يريد ألا يخلو البيت طول العام من قاصديه •

ولقد تبع ذلك عثمان رضي الله عنه ، لأنه قد تعهد عند مبايعته أن يعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، واختيار الافراد في الحج كان من سنة عمر رضي الله عنه،

ولم يقره على ذلك كثير من الصحابةكسعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعائشة.

وقد روى أبو داود والامام أحمدأن معاوية قال،وكان في ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن جلودالنمور أن يركب عليها ؟ قالوا اللهم نعم ، قال وتعلمون أن رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم نهى عن لباس الذهب الا مقطعا قالوا اللهم نعم قالأتعلمون أنه نهى عن الشرب في اواني الذهب والفضة ؟ قالوا نعم ، قال :وتعلمون أنه نهى عن المتعة (أي الجمع بين العمرة والحج) قالوا اللهم لا «قالفوالله انها لمعهن » .

وان هذا يدل على أن معاوية اتبعما سار عليه عثمان اتباعا لعمر ، للمقصد الاجتماعي الذي رآه ، ولعلمعاوية ظن ، أو اراد أن يوهم أن عمله وعمل ذي النورين عثمان لنهي النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ، والحقيقة أن لا نهي عن نوع من الأنساك الثلاثة« القران والتمتع والأفراد » وخصوصا أن التمتع بالجمع بين العمرة والحج قدنص عليه في القرآن ، وما كان لأحد مهما تكن مكانته بين المسلمين أن ينهىعن أمر أجازه القرآن وبين أحكامه .

ولكن عمر رضي الله تعالى عنه اختار الافراد لهذا المعنى الاجتماعي الذي ذكرناه ، وخالفه فيه كثيرون من الصحابة حتى ان ابنه عبد الله لم يوافقه .

وخالف علي عثمان رضي الله تعالىعنه ، ورد نهيه عن التمتع ردا شديدا وأعلن التمتع أمامه وفي حضرة جمعمن الصحابة .

ولقد روي أن عبد الله بن عمر كان يرى التمتع بالقران ، أو مجرد الجمع في أشهر الحج بين العمرة والحجقارنا أو متمتعا ، فقال قائل ان أباك نهى عن العمرة « أي مع الحج » فقالالصحابي التقي : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحق أن يتبع أمأمر أبي ، ولقد قال ابن عباس لمن كان يعارضه في القران والتمتع بعمل عمريوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء ، أقول لكم قال رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر » .

الأماكن التى نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم والأدعية التي ذكرها

٧١٩ ـ نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار في الطريق الى مكة بعد اهلاله من ذي الحليفة بالعمرة والحج ، أي قارنا ، وسار في طريقه حتى نزل بذي طوى وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل ، من يومه ، ونهض الى مكة فدخلها من الثنية العليا التي تشرف على الحجون ، ثم سار حتى دخل المسجد الحرام واستقبل الكعبة ، وقال: (اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيما ومهابة) .

ويروى أنه كان عند رؤيته البيت يقول هذا الدعاء : (اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة) .

ولقد طاف ، ولما حاذى الحجر الأسود استلمه ، ثم أخذ عن يمينه ، وجعل البيت عن يساره ولما فرغ من طوافه ، جاء خلف المقام ، وقال :

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (١)

وصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت ، فلما فرغ من صلاته ، أقبل الى الحجر الأسود فاستلمه مرة أخرى .

ثم اتجه الى الصفا من الباب الذي يقابله ، وقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) البقرة

بعد السعي ، استمر صلى الله تعالى عليه وسلم ممسكا باحرامه ، فلم يتحلل ، وفعل مثل من أفرد بالحج ، أما من تمتع بالعمرة الى الحج ، وكان مهلا بالعمرة فقط فانه تحلل ، واستمر متحللا ، حتى نوى الحج من بعد ذلك .

استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على احرامه ، حتى تحلل يوم النحر ، والذين كانوا معه ولم يسوقوا الهدي ، وقد أهلوا بالعمرة تحللوا بعد طوافها حتى اذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة أهلوا بالحج ، وصاروا في احرام ،حتى تحللوا يوم النحر .

ثم اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم الى منى ، ومعه من صحبه من المسلمين، ومنهم من كان يلبي ، ومنهم من كان يكبر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينه أحدا .

وقد صلى عليه الصلاة والسلام بالمسلمين في منى صلاة الظهر والعصر ، وجمع بينهما جمع تقديم فى وقت الظهر، وقد سار من بعد ذلك الى عرفة .

ويقول ابن القيم ، ضربت له قبة بنمرة ، وهي مكان في شرقي عرفات فنزل بها حتى اذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي ، فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الاسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها ، وهي الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيرا،وذكر الحق الذي لهن وعليهن . وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف،ولم يقدر ذلك بتقدير، وأباح للأزواج ضربهن اذا أدخلن الى بيوتهن من يكرهه أزواجهن ، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه،واستنطقهم بماذا يقولون ، وبماذا يشهدون فقالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ، ونصحت فرفع اصبعه الى السماء ، أن يبلغ شاهدهم غائبهم .

ذكر ابن القيم خلاصة الخطبة التيكانت بعرفة ، ولم يذكر نصهـا ، ولا ندري لماذا لم يذكر النص ، وقد ذكرالنص ابن اسحـــاق في السـيرة ، فقد قال :

« مضى رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم على حجته،فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب النـاسخطبته التي بين فيها ما بين ٠

فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس اسمعوا قولي ، فاني لاأدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هـذا في هذا الموقف أبدا ٠

أيها الناس ان دماءكم وأموالكـمعليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهـركم هذا ،وانكم ستلقون ربكـم ، فيسألكـم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كان عندهأمانة ، فليؤدها الى من ائتمنه عليها ٠

وان كل ربا موضوع ، ولكن لكـمرؤوس أموالكـم ، لا تظلمـون ولا تظلمون ، قضى الله تعالى أنه لا ربا ،وان ربا عميّ عبـاس بن عبد المطلب موضوع كله ٠

وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وان أول دم أضعه دم ابن عمي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعـا في بني ليث فقتله هـذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماءالجاهلية ٠

أما بعد أيها الناس ، فان الشيطانقد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقـدرضي به مما تحقرون من أعمالكـم ، فاحذروه على دينكم ٠

أيها الناس ، انما النسيء في الكفريضل به الذين كفروا يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحـرموا ما أحل الله وان الزمان قد اسـتداركهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وان عدة الشهـور عند الله اثنا عشرشهرا في كتاب الله منها أربعة حرم ، ثـلاثة متواليات ورجب مضر الذي بينجمادى وشعبان ٠

أما بعد أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن (١) فرشكم أحـــدتكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشـــة مبينة فان فعلن ، فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غـير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصـوا بالنساء خيرا ، فانهن عندكم عـوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انمـا أخذتموهن ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فاني قد بلغت ، وقد تركت فيكـــم ما ان استعصمتم به ، فلن تضـــلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه •

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن المسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين أخوة ، فلا يحـل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت •

ويقول ابن اسحاق ذكر لي أن الناس قالوا : اللهم نعم ، فقال رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اللهـــم أشهد •

وهنا ننبه الى أمرين آخرين يتعلقان بالخطبة •

أولهما : أن الجمع كان حاشدا ، والخلق كانوا مزدحمين ازدحاما لم يــكن له مثيل من قبل ، فقد جاء الناس من كل فج من الجزيرة العربية ليسعـدوا بصحبة الرسول في حجته •

ولذلك لم يكن من الممكن أن يسمع الناس جميعا صوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يتكلم ، فكان بجواره صارخ يصرخ للناس بما يقول رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال ابن اسحاق : كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقــول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ربيعة بن أمية بن خلف ، يقول له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « قل يأيها الناس ، ان رســول الله يقول : هل تدرون أي شهر هــذا فيقولون الشهر الحرام » •

وهكذا كان ذلك الصارخ ينطق بماقال رسول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم ، ليسمع القاصي والداني ، والقريب والبعيد من حضرة النبي صـــلى صلى الله تعالى عليه وسلم •

---

(١) معناها يدخلن بيوتكم من لا تريدون دخولهم •

ثانيهما : أنه روي عن بعض الثقات زيادة عما روينا من الخطبة الجامعة وزيادة الثقة مقبـــولة ومن الزيادات التي رويت قول النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم :

أيها الناس ، ان الله قد أدى لـكل ذي حق حقه ، وانه لا يجـوز وصيـة لوارث ، والولد للفـراش وللعاهـــر الحجر ، فمن ادعى الى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ٠

خطبة الوداع :

٧٢٠ ـ بعد أن وقف بعرفات ،وألقى خطبته الجامعـــة ، لما غــربت الشمس ، واستحكم غروبها ، كما قال ابن القيم ، بحيث ذهبت الصفرة اتجه الى المزدلفة فأفاض من عرفة اليهـا ،وأردف اليه على ناقته أسامة بن زيد ، وهو يقول : « أيهـــا الناس عليكـــم بالسكينة،فان البر ليس بالايضاع(١)، ثم جعل يسير العنق وكان في مسـيره هذا لا ينقطع عن التلبية كلما عــلا ، أو انحدر » ٠

وقد صلى المغرب والعشاء في وقت العشاء فجمع بينهما جمع تأخير ، بأذان واحد ، واقامتين ٠

ثم صار من بعد ذلك الى منى بعد أن نام ، ولما اتجه الى منى أمر من معه ألا يرموا الجمـــار الا بعـــد طلوع الشمس ٠

وقد رمى رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم الجمار ثم نحر ، ثم تحلل من الاحرام ، وقـــد كان معـــه بدن كثيرة ، نحر بيده منها ثلاثا وستين في النحر بمنى ، ثم نحـــر علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنـــه الباقي ، وأمره أن يتصدق بلحومها وجلودهـــا في المساكين ٠

وقد ذكر ابن القيم أنه خطب في منى خطبة عظيمة بليغة ، وكل كـلامه عليه الصلاة والسلام بليغ ، وقال ابن القيم في هذه الخطبة ، أعلمهم فيهـا بحرمة يوم النحـــر ، وفضله عند الله تعالى ، وحرمة مكة على جميع البـلاد وأمر بالسمع والطاعـة ، لمن قادهـــم بكتاب الله تعالى،وأمر الناس أن يأخذوا

---

(١) اى ليس بالاسراع ، وهو السير بين الاسراع والابطاء ٠

مناسكهم عنه ، وقال : لعلي لا أحج بعدعامي هذا ، وعلمهم مناسكهم ، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم ، وأمــــر الناس ألا يرجعوا بعــده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمرهم بالتبليغ عنه وأخبــــر أنه رب مبلغ أوعى من سامع ، وقال في خطبته لا يجني جان الا على نفسه ، وأنزل المهاجـرين عن يمين القبلة والأنصار عن يســـارها ،والناس حولهم ، وفتح الله تعالى أسماع الناس حتى سمعهـــا أهـــل منى في منازلهم .

وقال في خطبته قلت : « اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكـــم ، وصـــوموا شهركم ، وأطيعوا إذا أمـــركم تدخلوا جنة ربكم وودع حينئذ الناس » .

ويفهم من كلام ابن القيم هذا أن خطبـــة الوداع ليست التي ألقيت في عرفات ، انما خطبة الوداع هي هـــذه لأنهـــا متأخـــرة عن الأولى ، والوداع للأخيرة ، ولأن النبي صلى الله تعـــالى عليه وسلم ذكر فيها الوداع ، والذي أراه أن الحجة كانت حجـــة الوداع ،فــــكل ما فيها من كلام يتضمن معنى الوداع .

وبعد أن نحر رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم حلق وفعل أصحــــابه ما فعل ، اتجه الى البيت الحـــــرام ،فطاف طواف الافاضة ، وهـــو طـــواف الزيارة ، وهو الركن من الحج .

وشرب من زمزم ، ثم عاد الى منى ،وبعد الزوال رمى الجمــــار ، فابتدأ بالأولى التي تلي مسجد الخيف ثم الوسطى ، ثم العقبة .

وتكرر ذلك في أيام التشريق الثلاثة التي تلي يوم النحر .

وقد خطب النبي صلى الله تعـــالى عليه وسلم خطبة ثانية في منى ، وهي ثالثة الخطب باحتساب خطبة عـــرفة ،ويقول ابن القيم في هذه الخطبة :

« خطب النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم الناس بمنى خطبتين ، خطبة يوم النحر ، وقد تقدمت ، والخطبة الثانية في أواسط أيام التشريق قبـــل ثاني يوم النحر ، قال فيها : وهـــل تدرون أي شهر هذا ، قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الشهر الحرام ، ثم قـــال اني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد هذا ، الا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في بلدكـــم

هذا حتى تلقـــوا ربكم فيســالكم عن أعمالكم ، ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم ، ألا هل بلغت •

ويروى أنه نزلت بعرفة آية :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾(١)

ويروى أنه نزلت بمنى سورة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾(٢)

لقد انتهى حج رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي الحجة الأولى والأخيرة لرسول الله صـــلى الله تعـــالى عليه وسلم ، فلم يحج قبلها في مكة ، لما كان يحوط الكعبة من أوثان ، وماكان يفعله أهـــل الجاهلية من ذلك ، ويلاحظ أن حج النبي صلى الله تعـــالى عليه وسلم كان قرانا كما ذكرنا ، ولم يلزم الناس ، ولم يذكـــر للناس أنه أفضل من غيره ، وان كان أفضـــل لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قـــد اختاره ، وأنه مــــع ذلك ترك الناس أحــــرارا يختارون من أنـــواع الحج الثلاثة ما يكون أسهـــل عليهم ، فمن ساق هديا يختار القران ان أراد ، ومن لم يسق وأهل بالعمرة ، ولم يســـق هديا ، فقد اختار التمتع ، ومن أهـــل بالحج ابتداء ، فلقـــد اختاره ، ولا يسوق هديا •

وقد كان المسلمون الذين صحبوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حجته منهم من اختار ، القران ومنهـــم من اختار التمتع ، ومنهم من اختار الاهلال بالحج ، ولا حرج ما دام يختـــار ما يستطيعه ، ولا يشق عليه •

---

(١) المائدة (٢) النصر

وما يروى من أن عمر اختار للمسلمين الافراد في خلافته ، لم يكن ذلك الزاما ، وكيف يلزم مؤمن المسلمين بغير ما ألزمهم به الله ورسوله، ولم يعرف عنه أنه وضع عقابا على من قرن أو تمتع ، وكيف ذلك وابنه عبد الله لم يوافقه ، ولكن عمل عمر كان رأيا .

وهو رأي له وجهه ، وهو ألا يخلو البيت الحرام من زواره .

دعاؤه في عرفة :

٧٢١ ـ لقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كثير الدعاء في حجه ، لأنه في ضيافة الرحمن ، وفي أرض الله ، ففي كل منسك من مناسك الحج كان يدعو الله تعالى ، ولقد كان يدعو عندما أهل بالعمرة والحج ، وكان يدعو في طوافه ، وفي سعيه ، ويدعو في عرفه وفي الشهر الحرام .

ولقد روي عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعاؤه وهو على عرفة في الموقف : اللهم لك الحمد كالذي نقول ، وخير مما نقول ، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ، أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر، وشتات الأمر،اللهم اني أعوذ بك من شر ما تهب به الريح .

وروي عن علي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعا أيضا فقال علي : « انه دعائي يوم عرفه ان اقول » لا اله الا الله وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد،وهو على كل شيء قدير،اللهم اجعل في بصري نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي قلبي نورا ، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري ، اللهم اني أعوذ بك من وسواس الصدر ،وشتات الأمر ، وشر فتنة القبر ، وشر ما يلج في الليل ، وشر ما يلج في النهار ، وشر ما تهب به الرياح ، وشر بوائق الدهر .

وروي عن ابن عباس أنه كان فيما دعا به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع :

« اللهم انك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل

المشفق ، المعترف بذنبه ، أسالك مسالة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه ،اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رؤوفا رحيما ، يا خير المسئولين » .

وروى أبو داود الطيالسي في سنده عن ابن عباس قال : رأيت أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء فأوحي اليه اني قد فعلت الاظلم بعضهم بعضا ، وأما ذنوبهم فيما بيني وبينهم فقد غفرتها ، فقال يا رب انك قادر على أن تثيب هذا المظلوم خير من مظلمته ، وتغفر لهذا الظالم فلم يجب تلك العشية .

هذه أخبار عن أدعية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي سامية في معناها ، وقد رويت ، وفي بعض رجالها ضعف عند رجال الحديث ،والله سبحانه وتعالى أعلم .

العودة إلى المدينة

٧٢٢ – عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة بعد أن أدى مناسك الحج ، وبينها للناس ، وفي أثناء عودته عند غدير خم وهو قريب من الجحفة ، وصله شكوى الشكاة من علي كرم الله وجهه في الجنة .

ويقول الحافظ ابن كثير انه خطب في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، خطبة عظيمة وكان بغدير خم تحت شجرة هناك فبين فيها أشياء كثيرة ، وذكر من عدل علي رضي الله تعالى عنه وأمانته وقربه اليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من نفوس كثيرين من الناس عنه .

لقد أقبل أهل اليمن يشكون عليا من شدته في منع ركوب ابل الصدقة، وتوزيع حلل البز في غيبته ، ونزعها منه .

فجاء في خطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما وافق فيه على مسلك علي كرم الله وجهه في الجنة : فقال : أيها الناس ، لا تشكوا عليا ، فوالله انه لأخشى في ذات الله من أن يشكى .

وفي بعض الروايات الصحيحة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ بيد علي ، فأقامه عن يمينه ، وقال ألست أولى من كل امرىء من نفسه ، قالوا بلى ، قال فان هذا مولى أنا مولاه، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .

فلقي عمر بن الخطاب عليا ، فقال له : هنيئا لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ، وقد روى حديث من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .

رواه أصحاب السنن الأربع ، والامام أحمد بطرق صحيحة .

فكان حقا أن يكون أولى أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد بينا ذلك فيما مضى ، وبينا أنه مع صحته لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين أبي بكر وعمر ، فالخلافة تقتضي النظر الى أمور كثيرة ، يصح أن يكون بعضها محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ليست كلها ، فمحبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تجعل غيره ليس أهلا للخلافة ، والله تعالى أعلم .

الوداع بعد التمام

٧٢٣ ـ نزل قوله تعالى :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١)

وقال الرواة في الصحاح ، ان نزولها كان والمسلمون واقفون بعرفة يوم الجمعة ، فلما سمعها عمر بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما بعد الكمال الا النقصان ، والنقصان هو وداع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا ، وكأنه فهم رضي الله عنه بعقله المدرك وبصيرته النافذة ، أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ رسالة ربه ، وأنه اذ بلغها ، فلم يبق الا أن يذهب الى ربه ، وقد أدى واجبه وبلغ وأنذر وبشر ، وعلم الناس علم الشريعة ، وعلم القرآن .

وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم بعلم ربه أنه قد آن الوداع ، فكان في خطبه في الحج ، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا .

ولقد نزل وسط أيام التشريق سورة النصر :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ (٢)

وقالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف أنه الوداع ، وقد فسر ابن عباس في حضرة جمع من الصحابة بأن السورة تدل على أجل

(١) المائدة (٢) النصر

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ووافق عليه عمر رضي الله عنه ، ولم يعترض عليه أحد ، وذلك بطريق الاشارة أوالتظنن ، لأنه اذا تم النصر ، وعم الاسلام فقد آن أوان المفارقة .

وان آيات القرآن تدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبعثه وحياته لأجل محدود ،وأنه ليس بمخلد وأن وفاته كغيره من البشر أقرب اليه من حبل الوريد لبشره .

١ ـ ومنها قوله تعالى :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ (١)

٢ ـ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (٢)

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ (٣)

٣ ـ ومنها قوله تعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ (٤)

هذه قبسة من الآيات القرآنية ،وغيرها كثير .

---

(١) الزمر (٢) الانبياء (٣) و (٤) آل عمران

ومن الأحاديث التي تنبأ فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقـرب أجله ولقـاء ربه قوله لابنته فاطمة : « ان جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة ، وانه عارضني به العـام مرتين وما أرى ذلك الا اقتراب أجلي» .

٤ ـ وروى البخـاري ، كـان يعتكف رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم في رمضان عشرة أيام ، فلمـا كان العـام الذي توفي فيـه اعتكف عشرين يوما .

وهكذا تتضافر الأخبار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه توقـع وفاته في العام الذي حج فيه ، أو بعده بقليل .

٧٢٤ ـ ومع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتوقع الموت القريب وقد ظهرت أماراته كان قائما بواجب التبليغ واعزاز الاسلام لآخر لحظة من لحظاته ، فالواجب مستمر ،لا يعوقه مرض ان كان قادرا على الارسال والبعث ، ولا يعوقه توقع الموت وقربه ، لأنه ما دامت الحياة ، فالواجب قائم .

وقد اجمع الرواة على أنه عليه الصلاة والسلام جعل في امرته الشيخين أبي بكر وعمر ، ولقد بنى الشيعة على ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد توقع الموت ، ودخل جسمه المرض وآذن بوداع ، بعثهما في جيش أسامة ليخلو الجو لعلي كرم الله وجهه ، ولا ينازعانه الخلافة .

ولا نحسب أن ذلك يصلح تعليلا ،أو حكمة ،لتولي أسامة امرة الشيخين، وقد كان يمكن أن يولي أحدهما الجيش، والآخر يعاونه ، فان ذلك قد يتحقق فيه ما فرضوه مقصدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحق أن اختيار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأسامة يمكن أن نتعرف حكمته بغير ذلك .

فأبوه زيد بن حارثة كان القائد الأول للمسلمين الذي كان يحمل الراية، وقد قتله الرومان ، فكان من حكمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمكنه من قتلة أبيه ، فيكون أكثر حمية من غيره ، وأشد حماسة وأيضا فان أسامة كان شابا ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد توقع الموت أن يولي الشباب .

وان زيدا لم يكن قرشيا ، بل كان أبوه من الموالي أعتقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبناه ، حتى ألغي التبني بحكم القرآن من بعد الهجرة ، وان تعيينه وهو بهذه الحال ، بيان لأن السيادة لا تكون دائما للقرشيين ،

وتوكيدا لهـــذا المعنى السامي جعـل شيخين من شيوخ قريش والمسلمين في امرته وكانت لهما مكانتهما في قريش جاهلية واسلاما ، فكان جعله أمـــيرا عليهما منعا للسيطرة القرشية ، ومنعا للأرستقراطية الاسلامية ٠

وان هذه الأمور تلمس لحكمة فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليست تعليلا دقيقا ، ولقد كان هــذا البعث آخر سرية أرسلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكأنها كانت اشــارة الى أن يتجه المسلمون بالدعوة الاسلاميــة الى خارج الجزيرة العربية ، ولقد شدد عليه الصلاة والسلام في تنفيذ هــذه السرية شدد فيها وهو حي ، وشدد في التوصية بتنفيذها اذا مات ، ولكن لم تنفذ الا بعد وفاته ٠

وتخلف عنها الشيخان أبو بكــر وعمر ، فأما أبو بكر ، فقد اختبره الله تعالى بالخلافة ، وارتداد الأعراب ، وكان لابد أن يبقى ليحمي المـــدينة ، وليحمي العقيدة ، وليحمل المــرتدين على التوبة ٠

وأما عمر ، فــلأنه كالوزير لأبي بكــر ، استأذن أســـامة في أن يبقى بجواره في هذه الشديدة لتكون قــوة المسلمين المؤمنين متضافرة ، في دفــع هذا البلاء ، والشديدة شديدة ، والبلاء بلاء ، فقد اجتمـــع أبو بكر وعمر وعلي ، والزبير وطلحــــة ، وعبيــدة وعبد الرحمن بن عوف ليصدوا الردة. ويتحقق قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١)

(١) المائدة

الـــــوداع

٧٢٥ – عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لخمس بقين من ذي الحجة في السنة العاشرة ، وعاش أكرمه الله تعالى بقيـة ذي الحجة ، والمحرم كله ، واعتراه بعد ذلك وجع مرض الموت متجها الى لقـاء الرفيق الأعلى في صفر من السنة الحادية عشرة ، روي أن ذلك ابتدأ في الليلة الحادية عشرة منه وروى أنه ابتدأ لليال بقين منه في آخره ، ثم كانت الوفاة بعد حياته المباركة للبشرية كلها في ربيع الأول ، وروى في أوله في ليال مضت منه ، وروي أنه في الثاني عشر منه ، ويرجح ذلك الأكثرون من الرواة ، وكان ذلك في يوم الاثنين من ذلك الشهر الذي كـان فيـه ميلاده ومبعثه ، وهجرته ، ثم توديعه الدنيا الى لقاء ربه الكريم .

وكانت أمارات الوداع ظاهرة بينة، ونذكر أمورا ثلاثة كـانت في أول مرضه :

أولها : أنه روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبي مويهة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قـال بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم من جوف الليل ، وقـال ان الله تعالى أمرني أن أستغفر لأهـل هـذا البقيع ، فانطلقت .

وفي رواية الامام أحمد عن أبي مويهة أنه قال : أمر رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم أن يصلي على أهـل البقيع ، فصلى عليهم ثلاث مرات ، فلما كانت الثالثة قال يا أبا مويهة اسـرج دابتي ، فركب ومشـيت حتى انتهى اليهم فنزل عن دابته، وأمسكت الدابة، فوقف فقال : ليهنكم ما أنتم فيه ممـا فيه الناس ، أتت الفتن كقطع الليـل المظلم يتبع بعضها بعضا ، الآخرة أشد من الأولى ، فليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس ، ثم رجع فقال يا أبا مويهة اني خيرت بين مفاتيح ما يفتح على أمتي ، ولقاء ربي ، فاخترت لقاء ربي .

وان هذه الرواية تدل على أن الصلاة على أهل البقيع من موتى الصحـابة كانت قبل ذهابه عليه الصلاة والسلام الى قبورهم ، وخطابه اياهم .

وقد روى ابن اسحاق عن ابن مسعود عن عائشة أنها قالت رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من البقيع، وأنا أجد صداعا في رأسي وأقول وارأساه ، فقال : بل أنا والله يا عائشةوارأساه ، ثم قال : وما ضرك لو مت قبلي قلت : والله لكاني بك لو فعلتذلك ، لقد رجعت الى بيتي ، فأعرست فيه الى بعض نسائك ·

وفي هذا الخبر نجد أن النبي صلىالله تعالى عليه وسلم قد أعلن تقديره وتكريمه لصحابته ، وهم أموات كماكانوا أحبابه ، وهم أحياء ·

الأمر الثاني الذي يجب التنبيه اليه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بالأنصار خيرا ، روى البيهقي بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه في مرض موته وقداشتد به وعكه خرج فجلس على المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله تعالىوالثناء عليه ذكر أصحاب أحد فاستغفر لهم ثم قال :

« يا معشر المهاجرين،انكم أصبحتمتزيدون ، والأنصار على هيئتها لاتزيد، وانهم عيبتي التي آويت اليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام أيها الناس ان عبدا من عباد الله تعالى قد خيره الله تعالى بين الدنيا ، وبين ما عند الله :فاختار ما عند الله ، ففهمها أبو بكر رضي الله تعالى عنه من بين الناسفبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا يا رسول الله » ·

وان هذه الرواية فيها الوصية بالأنصار ، لأنهم قوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين آووا ونصروا،وقد نفذت هذه الوصية في عهد الراشدين وعمر بن عبد العزيز أما ماكان من بني أمية نحو الأنصار فالله أعلم بهم وهو مجازيهم عليه ·

الأمر الثالث ـ ما رواه البخاريعن الفضل بن عباس أنه قال : أتاني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو يوعك وعكا شديدا وقد عصب رأسه ، فقال خذ بيدي يا فضل ، فأخذت بيده حتى قعد على المنبر ثم قال : ناد في الناس ، فناديت الصلاة جامعةفاجتمعوا ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا فقال :

أما بعد أيها الناس قد دنا مني خلوف من بين أظهركم ، ولن أفي هذا

المقام فيكم ، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عني حتى أقوم فيكم ، ألا فمن كنت قد جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقدمنه ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ومن كنت قد شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقدمنه ، ولا يقولن قائل اني أخاف الشحناء من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ألا وان الشحناء ليست من شاني ، ولا من خلقي ، وان أحبكم الي من أخذ حقا كان له علي ، أو حللني ، فلقيت الله عز وجل ، وليس لأحد علي مظلمة ، فقام رجل ، وقال : يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهم فقال عليه الصلاة والسلام ، أما أنا فلا أكذب قائلا ، ولا أستحلفه على يمين ، فيم كانت لك عندي ؟ قال أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتني ، فأعطيته ثلاثة، قال عليه الصلاة والسلام : « أعطه يا فضل » .

ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستمرا في مقالته الأولى وقال : أيها الناس من عنده من الغلول شيء فليرده ، فقام رجل فقال يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في الله فقال عليه الصلاة والسلام ، فلم غللتها ؟ قال : كنت محتاجا اليها ، قال عليه الصلاة والسلام خذها منه يا فضل .

ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستمرا في مقالته الأولى ، وقال : يأيها الناس من أحس من نفسه شيئا فليقم أدعو له ، فقام اليه رجل ، فقال : « اني لمنافق ، واني لكذوب ، واني لشئوم » فقال عمر بن الخطاب ويحك لقد سترك الله لو سترت على نفسك ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مه يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون عند الله من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقا وايمانا وأذهب عنه الشؤم اذا شاء .

٧٢٦ ــ اختبر الله نبيه وهو بشر بفقد أولاده ، واحدا بعد الآخر ، لقد رزقه تعالى من خديجة أحب أزواجه اليه ستة ، ذكران وأربع بنات ، فقد القاسم والطيب ، وهو في قوة شبابه ، وفقد بعد ذلك وهو في دار الهجرة ثلاث بنات من بناته ، فقد رقية وهو في غزوة بدر الكبرى ثم فقد زينب ، ثم أم كلثوم .

واصيب وهو في كهولته بموت ابراهيم أصغر أولاده ، وكان قرة عين ، وقال بعد دفنه متحاملا على أصحابه ناظرا الى أحد ، يا جبل انك لا تحمل ما أحمل ، وقال نبي البشر ذلك ،وهو هادئ ، فبكى عليه الصلاة والسلام ، والبكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان •

لم يبق له من أولاده الا فاطمة الزهراء زوج أحب أصحابه اليه ، فتجمع حب من فقدوا جميعا اذ صارت هي الوحيدة ، والمستأثرة بالأبوة المحبة العطوف •

وكان لابد أن يخصها بوداع لها بعد ذلك الوداع العام الذي ذكرناه •

وروي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، قالت اجتمع نساء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنده ، لم يغادره منهن امرأة فجاءت فاطمة رضي الله عنها تمشي ، لا تخطئ مشيتها مشية أبيها ، فقال عليه الصلاة والسلام مرحبا يا بنتي فأقعدها عن يمينه (أو شماله) اختلاف في الرواية، ثم سارها بشيء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فقلت لها خصك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالسرار ،وأنت تبكين فقلت أخبريني ما سارك، فقالت ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما توفي عليه الصلاة والسلام قلت أسالك لما لي عليك من الحق لما أخبرتني ، قالت أما الآن فنعم ، فقد سارني في الأول ، قال لي ان جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة وقد عارضني في هذا العام مرتين ، ولا أرى ذلك الا لاقتراب أجلي ، فاتقي الله واصبري فنعم السلف أنا لك ، فبكيت ، ثم سارني فقال أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة ، فضحكت •

هذا وداع النبي لابنته ، ويروى أنه قال لها انها ستكون أول أهله لحاقا به •

هذا وداع الأب البار لابنته الزهراء سيدة نساء هذه الأمة •

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ

٧٢٧ ـ روى البخاري أن عبد الله بن مسعود دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : انك لتوعك وعكا شديدا !! فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أجل ، اني أوعك كما يوعك الرجلان منكم ، قلت ان لك أجرين !! قال عليه الصلاة والسلام نعم : نعم ، والذي نفسي بيده ،ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، الا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها ٠

وروي عن أبي سعيد الخدري ، أنه وضع يده على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والله اني لا أستطيع أن أضع يدي عليك لشدة حماك ،فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « انا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء ، كما يضاعف لنا الأجر » ٠

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال في مرضه : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلابة شدد عليه » ٠

أخذ المرض يدب الى جسم نور الوجود محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ضعف ، ومن قرابته من يحسب أن ما فيه من ذات الجنب ، وكان هذا رأي أقرب أهله اليه العباس ، وكان من طبهم لذلك أن يلد المريض في فمه ، وقد لدوا رسول الحق وهو في غفوة منه ، فلما صحا أحس بأثره في فمه ، فأمر بأن يلد من كان في حضرته واستثنى العباس ، ولعله لمكانته من كبر السن ، وفعل ذلك مع علمه بأن الذي أمر بلده هو عمه العباس رضي الله تعالى عنه ، وقال عليه الصلاة والسلام في اللد والتخوف من ذات الجنب : « انها من الشيطان وما كان الله تعالى ليسلطه علي » ٠

اشتد المرض برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولزم فراشه، فاستأذن نساءه في أن يمرض في بيت عائشة ،وقد روى البخاري خبرها في ذلك ،

قالت لما ثقل المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واشتد ، استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي ، فأذن له، فخرج ، وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر ، ولقد سئل ابن عباس عن الرجل الآخر الذي لم تذكر اسمه ولم تكن على جهل به ، قال هل تدري من الآخر الذي لم تسمه عائشة فقال السائل لا قال ابن عباس هو علي بن أبي طالب ، لم تذكر اسم علي فعفا الله عنها ، ورضي عنها ·

نقل الرسول الى بيت عائشة ، وقد اشتدت الحمى ، فكان يقول : اهريقوا الماء علي ، فأراقوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ماء كثيرا ، حتى لقد روت أم المؤمنين عائشة أنه أهريق عليه سبع قرب من الماء ، لم تحل أوكيتهن ·

ولقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها فيما رواه البخاري كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث بها ·

٧٢٨ ــ اشتد المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشق عليه أن يؤم الناس للصلاة ، فكان لابد أن ينيب أحدا من المؤمنين الأولين الذين كانوا من أول الناس اسلاما ، وكان خليله وصديقه وصفيه أبو بكر أول الرجال اسلاما هو المختار ، فاختاره ليصلي بالمسلمين فلا تتعطل الامامة للصلاة ، ويخشى أن تتعطل الصلاة ، وهي عمود الاسلام ، ولا دين من غير صلاة ·

روى الامام أحمد أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يخرج للصلاة ، فصلى بالناس عمر رضي الله تعالى عنه، وكان ذلك استجابة لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ قال : مروا من يصلي بالناس ، فلم يكن من كبار الصحابة الا عمر وزير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الثاني ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه رجلا مجهرا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأين أبو بكر ، فبعث الى أبي بكر وهذا الخبر يدل على أن الامام عمر ما صلى الا في غيبة أبي بكر ، والاستجابة لأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

أمرا عاما ، اذ يقول : مروا من يصلي بالناس ، ثم عين من بعد صلاة عمر ، من يوم الناس وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ٠

روى البخاري عن الأعمش عن عائشة قالت لما مرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرضه الذي مات فيه ، فحضرت الصلاة ، فأذن بلال ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقيل له : ان أبا بكر رجل أسيف اذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس ، وأعاد عليه الصلاة والسلام أمره فأعادوا كلامهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : انكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل،فخرج أبو بكر فوجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نفسه خفة ،فخرج يهادي بين رجلين ، كأني أنظر الى رجليه تخطان من الوجع ، فأراد أبوبكر أن يتأخر فأومأ اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن مكانك ثم أتى حتى جلس الى جانبه ، قيل للأعمش الراوي عن عائشة : فكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر ،فأومأ برأسه ، نعم ٠

وقد استمر أبو بكر طول مدة مرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي بالناس ، حتى توفي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وانتهى الى الرفيق الأعلى ، تاركا وراءه ذلك الميراث الانساني الخالد ، وهو شريعة الله تعالى التي بلغها ، وعلم الناس بها ما بين مشرق ومغرب في الجزيرة العربية ، ثم ترامى أمرها الى ما وراءها ٠

وقد انقطع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مرضه ثلاثة أيام لم يخرج الى الناس فيها ، وكان يصلي بهم أبو بكر كما ذكرنا ، وقد كانت آخر صلاة صلى مع الناس صلاة الظهر،قبل الثلاث ٠

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، وكان ملازما للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن أبابكر كان يصلي بهم في وجع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي توفي فيه ، حتى اذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة ، فكشف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ستر الحجرة ينظر الينا ، وتبسم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤيا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم خارج للصلاة،فأشار الينا أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، وتوفي من يومه .

■ ☀ ☀

هكذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قائما على تبليغ رسالة ربه ، حتى آخر ، جزء من حياته ، فهو اذ يحتضر ينظر الى مقدار استجابة الناس لدعوته الى ربه ، حتى اذا اطمأن تبسم ضاحكا، ثم أسلم نفسه لله تعالى الذي قبضه اليه ففاضت روحه الطاهرة ، وانتقل الى الرفيق الرحيم ، انتقل الى الملأ الأعلى .

تشكيل أجمل كتاب :

٧٢٩ ـ استبشر المسلمون خيرا عندما أزاح عليه الصلاة والسلام الستر لينظر اليهم وهم يصلون وقد تبسم ضاحكا ، فظنوا البرء والسلامة ، وقد فرحوا ، حتى كادوا يخرجون من الصلاة فرحا ، ولم يظنوا أنها الوداع الأخير ، ورؤية البلاغ الكامل الذي اعتقد أنه قد أتم تبليغ الرسالة .

كان ذلك في يوم الاثنين اذ كانت هذه الرؤية المودعة ، الأجل المكتوب ، وكان أبو بكر الصديق الأمين قد اطمأن بهذه النظرة ، فذهب الى السنح حيث يقيم ، ولكن ما لبث الا قليلا ، حتى نعى الناعي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فجاء لتكتحل عيناه برؤية الرسول الذي كان ملء السماء والأرض وكان مسجى في فراشه ،ولنترك الخبر الأليم كما وصفته أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنترك لها البيان :

بينما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على منكبي ، اذ مال رأسه نحو رأسي فظننت أنه يريد من رأسي حاجة فخرجت من فيه نقطة باردة ، فوقعت فاقشعر لها جلدي فظننت أنه غشي عليه ، فسجيته ثوبا فجاء عمر ، والمغيرة بن شعبة فاستأذنا فأذنت لهما ،وجذبت الي الحجاب،فقال عمر واغشياه ما أشد غشي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قاما ، فلما دنوا من الباب قال المغيرة لقد مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عمر ، كذبت ، بل أنت رجل تحوطك فتنة ،ان رسول الله لا يموت حتى يفني

المنافقين فكأن عمر رضي الله عنه كبر عليه أن يموت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما يموت الناس ، وقد دفعه الى ذلك فرط محبته وجاء أبو بكر الصديق ، فنظر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال ان لله ، وانا اليه راجعون ، مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتاه من قبل رأسه وقبل جبينه ، وقال واصفياه ، ثم قبل جبهته ، وقال : واخليلاه ، مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

خرج عمر رضي الله عنه الى المسجد يخطب في الناس ، ويقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يموت حتى يفني المنافقين ، عندئذ تقدم أبو بكر ثم قال :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٢)

فمن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ٠

وروي أن أبا بكر عندما قبل جبهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فداك أبي وأمي ما أطيبك حيا وميتا ٠

وروي أن عمر رضي الله عنه توعد بالقطع أو القتل من يقول ان محمدا قد مات ٠

وروي أن خطبة أبي بكر كانت أطول مما ذكرنا ، ويروى أنه رضي الله عنه ، حنا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقبله وهو يبكي ، وكل هذه أخبار ثقات ، يجمع بينها ، ولا تنافر فيها ، فكل حفظ ما سمع ، وشهد بما رأى ، والناس جميعا كانوا في فزع وجزع ٠

(١) الزمر (٢) آل عمران

وخطبة أبي بكر التي هي أطول مماذكرنا ابتداء ، قال فيها :

ليس ما يقوله ابن الخطاب شيئا ،توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال باكيا ، والذي نفسي بيده ، رحمة الله عليك يا رسول الله ، ما أطيبك حيا وميتا ثم غشاه بالثوب ،ثم ذهب الى المسجد سريعا ، وقال : ان الله عز وجل نعى نبيه الى نفسه ، وهوحي بين أظهركم، ونعاكم الى أنفسكم، وهو الموت حتى لا يبقى منكم أحد الاالله عز وجل قال تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى لمحمد :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٤)

وقال تعالي :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٥)

ان الله عمر محمدا وأبقاه حتى أقام دين الله ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، وجاهد في سبيل الله ، ثم توفاه الله على ذلك، وقد ترككم على الطريقة،

(١) آل عمران (٢) الزمر (٣) القصص (٤) الرحمن (٥) آل عمران

فلن يهلك هالك الا من بعد البينة والشفاء ، فمن كان يعبد الله ربه ، فان الله حي لا يموت فاتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا على ربكم فإن دين الله تعالى قائم ، وان كلمة الله تامة ، وان الله ناصر من ينصره ، ومعز دينه ، وان كتاب الله تعالى بين أظهرنا، وهو النور والشفاء ، وبه هدى الله تعالى محمدا ، وفيه حلال الله تعالى وحرامه ، والله لا يبالي من أجلب علينا، من خلق الله ، ان سيوف الله تعالى لمسلولة ما وضعناها بعد ، ولنجاهدن من خالفنا ، كما جاهدنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يبغين أحد الا على نفسه .

هاتان خطبتان للصديق رضي الله تعالى عنه ، في يوم الفزع الأكبر ، ولعله كان يكرر قوله كلما رأى هلعا ، وجزعا ، ليرد اليها شارد لبها ، وقد طاشت أحلام ، وهلعت قلوب ، فكان يكرر التثبيت .

٧٣٠ ــ اتجه المؤمنون الى اقامة خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويوارى جثمانه الطاهر ، فقد اجتمع الأنصار ، وعلى رأسهم سعد بن عبادة ليفكروا في هذا، فأسرع اليهم أبو بكر وعمر رضي الله عنه خشية أن يتفرق أمر المؤمنين ،في سقيفة بني ساعدة، وأنهوا أمر الخلاف باختيار أبي بكر رضي الله عنه تعالى خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يحضر الاجتماع أحد من بني هاشم أو أقرباء النبي الأدنون ، العباس وعلي وغيرهما من بني هاشم ، ولعل ذلك كان لانشغالهم بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ضحى يوم الاثنين، فمكث بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء ، حتى اذا تمهدت الأمور وتمت كما ذكر الحافظ بن كثير شرعوا في تجهيز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول ابن اسحاق : لما بويع أبوبكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد كانت وفاته يوم الاثنين ، وغسله ودفنه ليلة الأربعاء .

اجتمع الناس لغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليس في البيت الا أهله ، وعمه العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب ، والفضل بن عباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، ودخل من بعد أوس ابن خولي الأنصاري البدري الخزرجي نادى عليا ، فقال : يا علي ننشدك الله، وحظنا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له علي ادخل فحضر الغسل ٠

وغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه قميصه ، وتولى الغسل علي كرم الله وجهه فأسنده الى صدره ، وعليه قميصه ، وكان العباس وفضل وقثم يقلبونه مع علي ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاه يصبان الماء ، وجعل علي يغسله ، ولم ير منه شيئا ، وهو يقول بأبي وأمي ما أطيبك حيا وميتا ، وكانوا يغسلونه صلى الله تعالى عليه وسلم بالماء ، والسدر جففوه ، ثم صنع به مما اختلط بالماء٠

وقد كفنوه صلى الله تعالى عليه وسلم في ثلاثة أثواب اثنان أبيضان وثالث حبرة ٠

ودفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في بيت عائشة حيث مات ، لخبر نسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون٠ ٠

وقد تولى دفنه عليه الصلاة والسلام أربعة من أهله ومواليه العباس وعلي، والفضل بن عباس ، وصالح مولاه لحدوا له لحدا ، ونصبوا اللبن نصبا ٠

❊ ❊ ❊

هكذا انتهت الحياة الدنيوية لأكرم خلق الله على الله ، وأكرم انسان للانسانية ، عاش حياته مجاهدا منذ خلقه الله تعالى الى أن قبضه سبحانه وتعالى اليه ، جاهد الرذيلة غلاما ،فكان الفاضل في صباه ، وكان الأمين في شبابه لم تكن الحياة أمامه رخاء سهلا ، بل ذاق اليتم ، وان لم يقهر ، كما يقهر اليتامى ، وذاق طعم الفقر ،وان لم يترب نفسه ، حتى اذا كلف أداء الرسالة حمل عبئها ، وذاق مرارة الأذى في سبيلها ، وهو صابر مصابر ، حتى اذا هاجر حمل السيف مجاهدا ،كما حمل القرآن هاديا معلما ، يعلي الانسانية ويكرمها ، ويسامح ، ويواد،حتى كان الانسان الكامل في هذا الوجود ، واذا كان قد دفن جسده فلن تدفن شريعته ٠

تركة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٣١ ــ لم يترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مالا ، ولم يكن لديه في آخر حياته عند وعكة الموت الا ذهبة تصدق بها في آخر حياته ، فلم يكن مالكا للمال ، ولكن اذا كان مال كان لما يقدمه للبر ، فكان يعيش على خبز الشعير ، ويمر المال بيده ، مرور الماء،ويسيل الى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل واليتامى فلا يبقى في يدهشيء ، واذا بقي لا يكون ميراثا لأهله، وهو يقرر في شريعته « نحن معاشرالأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة » ، فكأن كل ما يتركه صدقة لا يملكه ولدولا عم ، بل في مصرف الخير والبر ، فما كان الأنبياء ليختزنوا مالا ، ولايورثوا تراثا ، ولكن يورثون علما ، وشرعا ،وبلاغا للناس، فذلك ميراثهم،وهو خير تركة زاخرة ، وهي العلم الكامل .

ولقد كان ثمة خلاف في أرض « فدك » ذكرناه في موضعه ، ولم تكن فدك كما يصور التاريخ ملكا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان على حكم ملك اليتامى والمساكين والفقراء ،وأبناء السبيل ، يصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يفيء اليه منغلاتها في مصارفها ، وكان لأهل البيت وذوي القربى حظ مقسوم ، ولما جرىالخلاف بين سيدة نساء المؤمنين فاطمة الطاهرة بنت أطهر من أقلته الأرض ،وأظلته السماء ، لم يكن خلافا على الملكية ، كما توهم عباراتالمؤرخين ، بل كان خلافا على ادارتها ، وصرفها في مصارفها ، اذ كان فيها نفقات لأمهات المؤمنين ، فيتولى ذوو القربى ما كان يتولاه هو عليه الصلاةوالسلام ، فعارض في ذلك الصديق رضي الله عنه .

ثم كان من بعده أن وافق عمر رضي الله تعالى عليه ، على أن تكـــون الادارة بين العباس وعلي ، على ما ذكرنا من قبل ، وان الميراث العظيم الذي تركه النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلمشريعته ، وهي محفوظة بحفظ القرآن اذ يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

(١) الحجر

٧٣٢ ـ يحلو لبعض الكتاب غير المسلمين أن يقولوا ، ان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كان رجلا شهوانيا، بدليل أنه تزوج نحو ثلاث عشرة ، وتوفي عن تسع وقد أسرفوا على أنفسهم في القول ، وعلى الحقيقة فطمسوها في زعمهم ، ولكن الحق أبلج ، نير يكشف دائما ما يكون من غمة يحاول أصحابها أن يعموا الحق ويدلسوا على أهله ٠

لقد زعموا أن النبي شهواني ، لزواجه ، ونحن نتخذ من زواجه دليلا على أنه لم يكن شهوانيا ، بل كان أقرب الى أن يكون سلبيا ، لا تغلبه شهوة ، ولا يسيطر عليه هوى في أي ناحية من النواحي ٠

لقد تزوج أم المؤمنين خديجة وهو شاب مكتمل قوي في الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت هي في الأربعين من عمرها ، وعاش معها نحو ست وعشرين سنة ، أي تجاوزت نحو السادسة والستين ، وأنجب منها ستة أولاد ولم يفكر في أن يتزوج عليها ،وكان معروفا بالعفة ، والشهوات تتقزز في نفس أمثاله ممن هم في مثل سنه ، وهو بالنسبة لهم العفيف النزيه الذي لا يزن بريبة قط ، ونساء قريش يتمنين أن يكون ضجيعا لهن ، ولكنه كان في عزوف عن كل شهوة ، ونظرة الى النساء ٠

حتى اذا توفيت أم المؤمنين خديجة وقد تكاثرت مشاغله ، فكان مشغولا بالدعوة الى التوحيد ومكابدة الأذى الذي تفاقم بعد وفاة خديجة وأبي طالب ٠

ولقد كان التعدد من بعد ذلك ، وللمقاصد ليست هي الشهوة ، كما أن الشهوة ليست بعض هذه العناصر ، والدلائل تدل على أنها كانت بعيدة كل البعد ٠

وانا نذكر أن هذا التعدد كان اما لأن امرأة بعض الصحابة الذين جاهدوا معه قد قتل وهو يهاجر ، وكانت امرأته أهلها في الشرك ، فاما تعود اليهم

فتتعرض للعذاب والردة ولا أحد معها في دار الهجرة من قومها ،فيتحمل هو عبء الزواج منها حفاظا لها ورعاية ، ولا ينظر في ذلك الى أنها يرغب في الزواج منها ، أو ليس فيها ما يرغب الا رعايتها وحمايتها ، اما هذا ، واما ليربط بها مع معين له في التبليغ، فيرتبط معه برباط المصاهرة مع رباط الايمان ، واما لانقاذ امرأة من الرق ، من غير نظر الى كونها جميلة أو غير ذلك ٠

واما لبيان أحكام شرعية ، فيطبقها عملا ، ليكون أسوة للناس في محاربة أمر جاهلي قد اعتادوه ، وان لم يقره الاسلام ، فيفعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكيلا يكون حرج على الناس في أن يفعلوه ، واما ليرتبط بالقبائل العربية ، ليتخذ منها دعاة للاسلام ،واما لازالة النفرة ، وجلب المودة ٠

هذه بعض مقاصد التعدد وكلها أوجلها لحماية المرأة من الضياع ، فقد حمل نفسه عليه الصلاة والسلام بأمر ربه عبء ذلك ، فكان الزواج تكليفا ، لا للرغبة بله الشهوة ٠

وهذا اجمال ، ولنذكر تفصيله في زواج كل امرأة بعينها من أمهات المؤمنين بعينها ٠

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن يعقد زواجه ممن كتب عليه أن يتزوجها ، لا يدخل بها الا بعد أن يتأكد رضاها بهذا الزواج ، وأنها راغبة فيه راضية ، فيطلب اليها أن تهب نفسها له ٠

٧٣٣ ـ وعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث عشرة ، وكانت له جاريتان مارية القبطية وريحانة بنت زينب ، وقد اعتق ريحانة فأسلمت ، ولحقت بأهل لها ، وبقيت مارية ، وروي أنه أعتقها وتزوجها ، ويقيت عنده ، حتى توفي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وأول أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم أم المؤمنين خديجة ، وقد ذكرنا خبر هذا الزواج في موضعه من حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بقي معها نحو ست وعشرين سنة كما أشرنا ، وكان له منها أولاده الستة ، القاسم والطيب ، وقد ماتا قبل الهجرة،أو قبل البعثة ، ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة ، وماتا قبله ، ولم يمت بعده الا فاطمة ، وقد ماتت رضي

الله عنها بعد وفاته بستة أشهر ،وبأولادها حفظت العترة المحمدية في ولديها الحسن والحسين وهما سيدا شباب أهل الجنة ، كما ورد بذلك الأثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يتزوج في حياتها غيرها ، كما ذكرنا ٠

وتزوج النبي من بعدها قبل الهجرة سودة بنت زمعة ، وكانت في نحو سن خديجة أي في نحو ست وستين من عمرها ، ولم تكن في جمال خديجة ٠

وكانت قد أسلمت مع زوجها ، وهاجرا الى الحبشة فرارا من أذى الجاهليين من قريش ، ومات بعد أن عادا ، وكان أهلها لا يزالون على الشرك ، فاذا عادت اليهم فتنوها في دينها ، فتزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حماية لدينها من الفتنة ٠

٢ ـ وتزوج من بعدها أم المؤمنين عائشة بنت صاحبه الصديق ، وكانت في نحو التاسعة من عمرها فما كانت لتشتهى لأنها كانت ضاوية ، حتى يقال انه تزوجها للشهوة ، ولم يدخل بها الا بعد الهجرة ، وما كان الزواج اذن لشهوة يبتغيها ، ولكن لصحبة بالصديق يوثقها ، بالمصاهرة ، وهي تشبه النسب ، وقد كان أحد وزيريه ٠

ويروى أنه تزوجها قبل سودة ، ولكن الرواية الراجحة ما ذكرنا ، ولعل التقارب في الزمن بين الزواجين لم يعين السابق منهما تعيينا دقيقا في الروايات ٠

٣ ـ وبعد الهجرة تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت زوجا لخنيس بن حذافة مات عنها مؤمنا ٠

وكان الزواج لتوثيق الصحبة بأبيها رضي الله عنه ، فقد كان الوزير الثاني للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وما أحاط بزواجه يدل على أن مودته عليه الصلاة والسلام هي التي دفعت الى هذا الزواج ، ذلك أن عثمان رضي الله تعالى عليه لما ماتت زوجته رقية وغزوة بدر قائمة ، رغب عمر رضي الله عنه في أن يزوجها من عثمان رضي الله تعالى عنه ، فعرض عليه ، فسكت عثمان ، فشكا عمر ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال سيتزوجها من هو خير من عثمان ، وسيتزوج عثمان من هي خير من حفصة ، فتزوج

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حفصة،وتزوج عثمان أم كلثوم بنت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وترى من هذا أن زواجه عليــه الصلاة والسلام منها كان ربطا للمودة، وإرضاء للقلوب ·

٤ ـ وتزوج عليه الصلاة والسلام والحرب قائمة بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين بقيادة كبيرهم أبي سفيان ، تزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان هذا ·

كانت قد سافرت مع زوجها عبد الله بن جحش الى الحبشة ، ولكنه تنصر ، وخرج عن الاسلام فكانت بين أن ترجع لأبيها زعيم الشرك فتفتن في دينها ، وبين أن تعود الى المدينة لا مأوى لها ،فآواها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بزواجه منها ، فبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى أرض الحبشة فخطبها عليه الصلاة والسلام ، فزوجها منه عثمان بن أبي العاص ، ودفع النجاشي صداقها ، وهو أربعمائة دينار ، وبعث بها الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم·

وبهذا الزواج أصاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هدفين : أحدهما أنه وقاها من الشرك وأن تفتن في دينها ،وأصهر من أبي سفيان الذي سر منه ، ورحب به ، وروي أنه قال نعم الفحل محمد ·

٥ ـ وتزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت خزيمة ، وهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، ويقال لها أم المساكين ، وقد قتل زوجها يوم أحد ، وكان ذلك ايواء لها ، وتشجيعا لها على اعانة المساكين ، ولكنها لم تلبث الا قليلا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم توفيت في حياته عليه الصلاة والسلام ·

٦ ـ وتزوج النبي عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش ، وكانت زوجا لزيد بن حارثة ، وقد تزوجته على أنه ابن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اذ أطلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الاسم ، لما رفض أن

يعود مع أهله ، ورضي أن يبقى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ (١)

تململت ببقائها مع زيد ، اذ تبين أنه ليس بقرشي ، وقد تململ زيد من كبريائها واستأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في طلاقها ، فقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك ، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ان يتزوجها بعد أن يطلقها زيد، ولكنه أخفى ذلك ، وخشي مقالة الناس أن يقولوا تزوج محمد زوجة ابنه .

ولكن الله تعالى أمره بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)

وان الله تعالى أمره بذلك لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك الزواج لكي تزول تلك العادة المستحكمة فيهم وهي عادة التبني التي سرت اليهم من الرومان ، وليست من طبائع القرابة ، بل هي كذب ، وافتراء وفساد للأسر ، اذ يدخل فيها ما ليس منها .

٧٣٤ ــ واقرأ الآيات التي اشتملت على ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ

(١) و (٢) الاحزاب

ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾ (١)

هذا أمر زينب بنت جحش ، وزيدبن حارثة كما ساقها القرآن الكريم ، وهي تدل :

أولا : على أنه في الجاهلية كان يعتبر الدعي – أي المتبنى – ابنا – والغى الله تعالى حكم هذه العادة ، وقدتلونا من قبل في أول سورة الأحزاب ما يدل على ذلك .

ثانيا : على أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يؤكد إبطال ذلك الحكم الجاهلي الذي يدخل في الأسرة بحكم النسب من ليس منها ، فلا تتماطف بحكم الفطرة ، وتفسد الأسرة ،واقتضت حكمته أن يكون تأكيد الابطال بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتزوج زوجة دعيه ، وقد فسدت العلاقات بينهما بتململ القرشية من أن تكون تحت غير قرشي هو عتيق وليس ابنه ، فاستكبرت ، وتململ زيد من كبريائهافأراد تطليقها، فقال له الرسول أمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن الله كتبأن يطلقها ، وكتب على محمد أن يتزوجها ، ولكنه يخفي في نفسه ما لايبديه من أن الله تعالى كتب الطلاق من زيد ، وللزواج منه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه يخشى أن يجابه العرب ، بمخالفة ما ألفوا .

---

(١) الاحزاب

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يتزوجها بعد الطلاق لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ٠

ودلت الآيات ثالثا: على أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن أبا لأحد من رجال العرب ، ان انتفت أبوة الأدعياء ، هذا ما تدل عليه الآيات الكريمات بظاهرها ، ومقصدها ومرماها ٠

ولكن الذين يفسدون المعاني ، ويريدون الكيد للاسلام اخترعوا هذا اختراعا في العهد الأموي ، اخترعها يوحنا الدمشقي ونشرها بين المسلمين ليقولها أتباعه ، وينشروها بين بعض التابعين ، وقد توهم صدقها بعض الذين تبهرهم الروايات من غير تمحيص ، ومع الأسف كان من بين هؤلاء أبو جعفر بن جرير فنقلها مصدقا لها ، ونقلها أكثر المفسرين عنه ، حتى بين كذبها وافتراءها ابن كثير في كتابه تفسير القرآن العظيم ، رضي الله تعالى عنه ، وعفا الله عن الطبري في أن نشر ذلك الضلال وان نقل الكذب لا يحوله الى صدق ، ولو كان الطبري ناقله ٠

ومن الغريب أن حملوا الآية الفرية التي افتروها ، وكان المتعصبون من غير المسلمين هم الذين ادعوها ، لقد ادعوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رآها تغتسل ، فوقع في قلبه حبها ، فأراد من زيد أن يطلقها ليتزوجها ، وادعوا أن ذلك هو ما أخفاه ، وخشي من الناس ، وأن الله أبداها ، وان ذلك لا يمكن أن ينطبق بحال من الأحوال على معاني الآية وظواهرها ، الا أن يكون ذلك اختراعا اخترعوه ، ويدل على مناهضة الآية لهذه المعاني الفاسدة ما يأتي :

أولا ــ أن الزواج منها لم يكن كما تدل الآية برغبة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى تكون الشهوة هي المحركة ، بل ان الزواج كان بأمر الله تعالى وذلك بنص الآية ، لأن الله تعالى صدر الآيات بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) الاحزاب

ولأن الله تعالى نسب التزويج الى ذاته العلية ، بأن الله تعالى هو الذي قال:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ (1)

وذكر سبحانه وتعالى السبب في هذا الزواج الذي فرضه الله تعالى وتولى تعالى عقده ليس الشهوة ، وانما هو ألا يكون على المؤمنين حرج في أن يتزوجوا أزواج الذين يتبنونهم وليس شهوة ، ولا ما يشبهها ·

والخشية التي خشيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هي مجابهة ما عليه الجاهلية ، فعاتبه سبحانه وتعالى على هذه الخشية بأن الله تعالى أحق بأن يخشاه فيطيع أوامره ·

وثانيا ـ أن الله تعالى قال :

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ (2)

فيقولون هو العشق الذي أخفاه ،والآية تناقض ذلك ، لأن الله تعالى مَا أبدى عشقا ، ولكن أبدى الأمر بالزواج ، فكان هو الذي أخفاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على زيد ،وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله·

وثالثا ـ أن الآية الكريمة تدل بنصها ومغزاها على أن موضوعها منع أن يكون المتبنى ابنا ، ولذلك أمر الله تعالى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوج امرأة دعيه ، ليكون ذلك بيانا للشرع عمليا ، كما بينه بالنص القرآني ، قولا مفروضا بالمنع المؤكد·

ولذلك أكد سبحانه وتعالى النفي بقوله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (3)

هذا هو المعنى الجلي من غير تلبيس كذاب ، ولا اتباع متوهم ·

---

(1) و (2) و (3) الاحزاب

وكنا نود أن يدرك المفسرون ، والذين يتكلمون في معاني القـــرآن ، وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلمحقيقة هذه الفرية ، ومصدرها ، الذي أراد افشاءها كيدا للمسلمين بعد أنبين ابن كثير الحافظ للسنة ، كـــذب هذه الرواية ، ورد كـلام ابن جريرردا قويا .

وكنا نود أن يتعرف الذين يكتبونالآن في السيرة ذلك ، وكنا نحســـب أن لهم ذوقا بيانيا ، وعمقا في دلالاتالألفاظ ومراميها ، كنا نود منهـم أن يمحصوا القول ويدركوه ، ولكن غلبتالنزعة الروائية التي نسمع أمثالهـــا منسوبا اليهم ، فكتبوا فيما تصدوا لهمن كلام في السيرة عنوانا يقـــول : النبي العاشق،وقد كتبوا تحت العنوانتلك الفرية المفتراة على أنها وقائـــع وقعت، وكأنها قصة من الروايات التيكتبوها .

وتبعهم من يقلدونهم من غـير أنيفرقوا بين حق وباطل ، ولا أقـــول عفا الله عنهم ، لأن أقـــوالهم لا تزالتردد منسوبة اليهم ، ولهم في المجتمع الأدبي مكانة ، جزاهـــم الله تعـــالىبمقدارها .

٧٣٥ ـ وتزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أم سلمة واسمهـا هند بنت أبي أمية بن المغـيرة ، وهيمخزومية ، وقد مات عنها زوجها ، أبو سلمة ، وهو عبد الله بن عبد الأسد .

وعند موت زوجها ، وقد توفي عنهاوهي شابة طلب اليهـــا أن تتزوج من بعده ، ودعا لها مخلصا أن يتزوجهـامن هو خير منه ، وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهـا ذات عيال ،ويحتاجون الى من يرعاهم ، وكانت هي وزوجها مهاجرة ، فانقطعت عن ذويها،ولابد لها هي وأولادها من يحـــوطهم ويرعاهم ، فكان عليه الصلاة والسلام،وتزوجها لرعايتها ورعاية أولادها .

٢ ـ وتزوج رسول الله صلى اللهتعالى عليه وسلم جويرية بنت الحارث ، ويقول ابن هشام في زواجها : « لمـاانصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة بني المصطلق ، ومعهجويرية بنت الحارث ـ دفع بجويرية الى رجل من الأنصار وديعـــة عنده ـوأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رســول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ،فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر الى الابل التي جاء بها للفداء ، فرغب في بعيرين منها ، فغيبهما في شعب من العقيق ، ثم أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا محمد :أصبتم ابنتي ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا ، فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوالله ما اطلع على ذلك أحد فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له » .

وان الغزاة كانوا قد أسروا من قومها نحو مائة ، فلما تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، وكانت قد أسلمت أطلق كل من كان في يده أحد من الأسرى أسراه ، وقال : كيف نسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعتق بزواجه عليه الصلاة والسلام أهل مائة من بيوت بني المصطلق ، وتقول أم المؤمنين عائشة في ذلك : « ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية ، لقد عتق بها مائة بيت من بيوت قومها » .

ونرى من هذا أن زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بقصد سام ، وهو أن يعتق هؤلاء الناس وألا يسجل على النبي انشاء الرق ، فيكون ممنوعا الى الأبد ، ولو كان الأعداء يسترقون منا ، ومن غير أن يتركهم يسترقون ، فيكون مباحا الى الأبد .

فما كان الزواج للشهوة ، بل كان للعتق .

٣ ـ وتزوج صلى الله تعالى عليه وسلم صفية بنت حيي بن أخطب ،وقد سبقت مع أختها ، وأمرّهما بلال على قتلى خيبر ، والذين أسروا فيمن أسر منهم ، فلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا ، وقال له : أليس في قلبك رحمة،أتمر بالفتاتين على قتلى قومهما،وعرض الفتاتين ليتزوجهما بعض الصحابة فتزوجت أختها ، وبقيت هي فتزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليطيب نفسها ، وليرقأ جرحها .

٤ ـ وتزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية وقد اختارها زوجا له العباس بن عبد المطلب ، لتوثيق ما بينه

عليه الصلاة والسلام ، وبين القبائل العربية ، وقد أصدقها العباس رضي الله عنه من ماله أربعمائة درهم ،ويروى أنها هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أنها لما علمت خطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قالت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : البعير وما عليه لله ولرسوله ، وكانت على بعير عند ما انتهت اليها الخطبة ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾(١)

٧٣٦ — هؤلاء عددهن عشر ، وهن بعد خديجة ، وبضمهن اليها يكون العدد احدى عشرة وكلهن دخل بهن ،ولذلك يعدون أمهات المؤمنين ، ولا يتزوجن أحدا من بعده ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾(٢)

وقال في منع زواجهن من بعده :

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ ﴾(٣)

ويقول الرواة ان عدد أزواج النبي ثلاث عشرة ، دخل باحدى عشرة فهن أمهات المؤمنين ومات عن تسع ، اذ ماتت في حياته خديجة ، وزينب أم المساكين ٠

وتزوج باثنتين لم يدخل بهما ،وهما — أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها ، فوجد بها بياضا في ابطها ،فسرحها بمعروف ومتعها ، بعد أن طلقها ، وقد كانت كندية ، وقبائل كندة كانت بعيدة عن المدينة ، وقد أسلمت ، فكان لابد أن يربط النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برباط بينها وبينه ليؤنسها بهذه المصاهرة في هذا البعد المترامي ٠

---

(١) و (٢) و (٣) الاحزاب

والثانية ــ امرأة من سلالة النعمان اسمها أميمة بنت النعمان بن شرحبيل، وقد أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها ، لأنها من أطراف الجزيرة العربية في الجنوب ، وعليه الصلاة والسلام يريد أن يقرب البعيد، ويزيل الوحشة ، وقد كانت المصاهرة رباطا وثيقا بين كبراء القبائل تنهي حربا أو تدفع قتالا ، وما كان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غضاضة في أن يوثق ما بينه وبين القبائل بهذه المصاهرة .

ويروى في زواجه منها أنه عليه الصلاة والسلام عندما دخل بها ، وكان عليه الصلاة والسلام اذا تزوج امرأة طلب منها أن تهب نفسها له عليه الصلاة والسلام ، استيثاقا من رضاها به زوجا، فقد كان يعقد أولياء المرأة، وخشية ألا يكون ذلك برضا حر فيه اختيار كامل ، فلما اختلى بها قال لها هبي نفسك لي ، اعترتها نعرة جاهلية فقالت وهل تهب الملكة نفسها للسوقة، ثم قالت أعوذ بالله ، فقال عليه الصلاة والسلام لقد عذت بمعاذ عظيم ، فطلقها ، وسرحها سراحا جميلا .

٧٣٧ ـ هذه زيجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت عدتهن ثلاث عشرة من الأزواج ماتت منهن اثنتان في حياته الكريمة الطاهرة ، وهما أم المؤمنين خديجة أفضلهن ، وأكثرهن عطفا ، وقد سمي عام موتها مع عمه الحاني الكريم عام الحزن ، والثانية زينب أم المساكين رضي الله عنها ٠

واثنتان لم يدخل بهما ، وطلقهما قبل الدخول لعيب جثماني في احداهما، ولنفرة من الثانية بدت في قولها ،وقد عاشت الى ستين عاما بعد الهجرة ، وكانت تسمى نفسها الشقية لحرمانها من جوار أكرم من في الوجود من خلق الله سبحانه وتعالى ٠

وقد كان يعتزل بعضهن أحيانا ، ويرجىء الاتصال بهن أحيانا ، وعلى أي حال فقد انتهى الحل له صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العدد اذ تحققت فيه كل المقاصد الاجتماعية التي تتعلق بالدعوة ، وقال تعالى في ذلك :

﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

وإن هذا النص الكريم يدل على أمرين جليلين :

أولهما ـ منع الحل بعد هذا العدد، اذ استوفى التعدد بالنسبة لتعدد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مقصده ،وان هذا العدد خاص بالنبي صلى الله تعالى

(١) الاحزاب

عليه وسلم فقد قال تعالى من قبل في تحليل هذا القدر من العدد :

﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ (١)

ثانيهما ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يتصل بنسائه جميعا كل ليلة ـ كما توهم عبارات بعض المحدثين ـ مما أخذ منه أعداء الاسلام ادعاء أن النبي كان شهوانيا، واستندوا الى أقوال هؤلاء والى تهافت بعضهم في القول حتى انه ليقول كان عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة اربعين رجلا ، فالآية ترد كل هذا ، فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرجىء من يشاء منهن ، ويؤوي اليه من يشاء ، ويعتزل بعضهن ، ويبتغي من يعتزل من بعد ذلك ، مما ينافي ما ادعاه بعض المحدثين من أنه عليه الصلاة والسلام كان يمر عليهن ويتصل بهن واحدة ، واحدة كل ليلة ، مما فتح الباب للمغرضين والكذابين من أعداء الاسلام ، والمنحرفين ممن تسموا بأسماء المسلمين .

بقي أن نتكلم في بعض أسباب هذا التعدد .

قد أشرنا من قبل الى أن تعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان لايواء الضعيفات من ازواج المهاجرين اللائي لا مأوى لهن في هذه الغربة التي انقطعن فيها عن أهليهن ، ولربط الصلات بينه وبين كبار أصحابه ، ولمنع تحكم الوثنيين فيمن تربطهم بهن رابطة نسب من نساء المهاجرين الذين يقتلون أو يموتون أو يرتدون ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي

(١) الاحزاب

هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)

ويستفاد من هذا النص أن زواج المهاجرات كان للرحم التي تربطه بهن من عمومة أو خئولة ، وان ذلك يشمل قرابته لقريش ، فلا يضيعهن عند موت أزواجهن شهداء ، بل لا بد أن يتولى هو ايواءهن في ظله الظليل ٠

وقد رأيت أن بعضهن تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه تبيينا للشرع وتنفيذا لأحكامه ، وقد تعرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه لمجابهة العرب فيما كانوا يالفون ، ويرونه أمرا طبيعيا لا يخالف، وقد تأثر به بعض المؤمنين ، حتى ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد حدث منه ذلك قبل الحكم بالمنع ، فبين الله تعالى أنه ضد الحقيقة ، وأن البنوة تكون من الصلب ، لا من الادعاء ، وأشار سبحانه وتعالى الى أنه ادخال في النسب ما ليس منه ، اذ قال سبحانه :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ (٢)

٧٣٨ ـ وهناك أمران آخران في حكمة تعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير ما سبق ذكره أوأشير اليه ، من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتزوج لتوثيق المعاونة بمن يحب من أصحابه ، واعانة الضعيفات من النساء ، حتى انه كان يتحمل عبء من ليس له ولي من قريب أو ذي حسب ، ولكيلا ترتد بعد ايمان، والارتباط بالمصاهرة بين من تنأى ديارهم ،وقد يلحون في المداوة وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

نقول هناك أمران غير هذا الذي ذكرناه أو أشرنا اليه ٠

أحدهما أن يتولى نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعليم النساء أمور

(١) و (٢) الاحزاب

دينهن ، فما كان النساء بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عهد الصحابة والتابعين يغشين مجالس العلم يتعلمن أمور الدين ، بل كن يذهبن الى النبي يسألنه في حياته ، ومن بعده كن يسألن أزواجه أمهات المؤمنين ،كعائشة وأم سلمة وغيرهما ممن عمرن بعد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولعله من فضول القول أن نقول ان كثيرا من الأحكام الخاصة بالمرأة رويت عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها الصديق ·

وان حفصة أم المؤمنين كانت الأمينة على المصحف الذي انتهت كتابته في عصر أبيها الامام العظيم الفاروق رضي الله تعالى عنه ، وجزاه عن الاسلام خيرا ·

ولعل الأمر الالهي بالا ينكحن من بعده أبدا كما تلونا من قبل كان لهذا المعنى وليتفرغن لتعليم النساء أحكام الدين وفضائله ، وآدابه ، وروحه ومعناه ، وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أهله ، وفي ذاته الطاهرة ، وانك لترى من ذلك الشيء الكثير في رواية عائشة رضي الله عنها، فقد كان لها ذكاء يندر في نساء العرب، وانه قد تزكي ما روي من أنه يؤخذ منها نصف الدين ، وهو النصف الخاص بأحكام النساء ·

ثانيها ـ أن نساء النبي كن يتخذن قدوة حسنة للنساء في عفتهن ، واحتسابهن وآدابهن لأنهن أخذن بآداب النبوة ، والمرأة تتأثر بالمرأة أكثر مما تتأثر بالرجال، تصلح بصلاح صواحبها من النساء ، وتفسد بفساد صواحبها منهن ، فالمرأة تصلح المرأة ، أو تفسدها ، وانا لنرى ذلك واضحا اليوم ، وانه كان كذلك في الماضي ، فالانسان ابن الانسان ·

وان الله تعالى تعهد نساء النبي بالارشاد والتأديب ، لأنهن الأسوة والقدوة قال تعالى ، وهو أصدق القائلين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

ضعفين ۚ وكان ذلك على الله يسيرا (٣٠) * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا
نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما (٣١) يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ۚ إن
اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا (٣٢) وقرن في
بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ۖ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله
ورسوله ۚ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣٣)
واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ۚ إن الله كان لطيفا خبيرا (٣٤) ﴾ (١)

فنساء النبي بهذا التأديب الالهي الذي لم يخرجن عن نطاقه كن بالنسبة للنساء الصورة المثالية ، والقدوة القائمة الثابتة لنساء المؤمنين ، بل نساء العالمين ولأنهن المثل السامي عقب ذلك بما يجب أن تكون عليه المؤمنات المقتديات بنساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال تعالى عقب ما أمر به نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما أمر به من ارشاد ، وتهذيب ، وتوجيه للعلو :

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين
والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات
والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا
والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما (٣٥) ﴾ (٢)

هذا وان الاقتران في التلاوة بين ارشاد نساء النبي ومنزلتهن ، وبين أوصاف المؤمنات يشير الى أن أخلاق نساء النبي مثل أعلى لنساء المؤمنين ويوعز باتباعهن ، واتخاذهن مثلا ساميا غاليا ، لأنهن القدوة الصالحة الطيبة .

---

(١) و (٢) الاحزاب

واذا كان في الآيات أمر بأن يقرن في بيوتهن ، بألا يخرجن الى الطرقات متبرجات متزينات يبدين زينتهن ما ظهر منها وما خفي ، بل يلتزمن القرار في البيت لا يخرجن الا لمصلحة تقتضي الخروج ، فلا يقررن في البيت الا للاستعداد للخروج ، فتغص الطرقات بهن، هذا وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بتفرق نسائه في القبائل والعشائر من بعد وفاته قد عم تعليمه ، وعمت الآداب الاسلامية ، والأخلاق الكريمة نساء المسلمين ، وكلما كثر العدد ، عم الهدى المحمدي وشاع ،وسرى في الأمة سريان النور في الأرضين ٠

الخاتمة

فهذه سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خاتم النبيين ، لا ندعي أننا وصلنا الى الغاية من تصويرها ،أو توضيحها ، أو أزلنا غبارا عنها ، ولا ندعي أننا تسامينا حتى أدركناها وعلمنا أسرارها ، وكونها ونورها في هذا الوجود ، ولكنا رأيناها فوق طاقاتنا ، وأدركنا منها ما استطعنا ادراكه ، وسددنا وقاربنا ، واذا لم نبلغ الشأو ، ونصل الى الغاية فاننا قصدنا وأردنا واحتسبنا النية ، ومثلنا كمثل من أراد أن يبلغ قمة تتصل بالسماء ، فعجز عن بلوغها ، فرضي بأن يقف على السطح ، ويرى النور فوقها ، فحسبه منها المشاهدة ، دون الوصول ، ولقد رأينا فيما رأينا قمة العلم النبوي ، وان لم نستوعبه ،واستغرقنا نور الهداية ، وان لم ندرك كل ما جرى ٠

اللهم اغفر لنا تقصيرنا ، فان منشأه قصورنا ، وإنا نلتمس ونقرب ، ولا نملو ، فان ذلك فوق طاقتنا ، وتجاوز وسعنا ، وهو فوق تكليفنا ، فانك قلت وقولك الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١)

ولا تكلفنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ٠

اللهم صل وسلم وبارك على محمد عدد ما كان وعدد ما يكون ، وعدد ما هو كائن الى يوم القيامة ، انك نعم المعين ، ونعم النصير ، وانك الموفق والهادي ، وما توفيقنا الا بك ، وهو يشد العزم في محيط قدرتنا ، ويقرب البعيد يا أرحم الراحمين ٠

تم انجاز الكتاب بقسميه : العهد المكي والعهد المدني بحمد الله وتوفيقه

محمد أبو زهرة

---

(١) البقرة

ما يشتمل عليه القسم الثاني (العهد المدني)
من كتاب خاتم النبيين

٦٣٣ ــ وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى قباء
٦٣٥ ــ دخوله المدينة صلى الله عليه وسلم
٦٣٨ ــ من خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم
٦٤٢ ــ بناء مسجده صلى الله عليه وسلم
٦٤٥ ــ إنشاؤه صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام
٦٤٧ ــ التشريعات الإسلامية
٦٤٩ ــ تكوينه لرأي عام بين المسلمين
٦٥١ ــ كرامة الإنسان
٦٥٢ ــ العدالة في الإسلام
٦٥٤ ــ التعاون على البر والتقوى
٦٥٦ ــ المعاهدة مع اليهود
٦٥٧ ــ الرحمة والمودة
٦٦١ ــ أول أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة
٦٦٣ ــ الإخاء والتآلف
٦٦٨ ــ الألفة بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار
٦٧٠ ــ التآلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحربي
٦٧٣ ــ عهد النبي صلى الله عليه وسلم على اليهود
٦٧٤ ــ نظرة في هذه الوثيقة

٦٧٧ ـ كيف شرع الأذان

٦٨٠ ـ الإذن بالقتال

٦٨٣ ـ أول القتال

٦٨٥ ـ أول السرايا

٦٨٥ ـ سرية حمزة ٦٨٥ ـ سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ٦٨٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاص ٦٨٧ ـ بيان عن السرايا ٦٨٨ ـ مقدار استمساك قريش باعتقادها .

٦٨٩ ـ خروج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد

٦٩١ ـ الحرب الفاصلة أو حرب النبوة

٦٩٥ ـ الفضيلة في الحرب

٦٩٨ ـ الأهبة قبل المعركة ٦٩٩ ـ الرحمة في المعركة ٧٠١ ـ الفضيلة في حربه صلى الله عليه وسلم ٧٠٣ ـ احترام الكرامة الإنسانية

٧٠٤ ـ نهاية حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٧٠٧ ـ معاملة المهزومين

٧٠٩ ـ معاملة الأسرى في الإسلام

٧١١ ـ الجهاد رهبانية الإسلام

٧١٣ ـ الخلاصة في حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٧١٥ ـ أدوار الحرب المحمدية

٧١٧ ـ الدور الأول

٧١٨ ـ غزوة بواط ٧١٨ ـ غزوة العشيرة ٧٢٠ ـ بدر الأولى

٧٢١ ـ سرية عبد الله بن جحش ٧٢٣ ـ القتال في الشهر الحرام ٧٢٥ ـ لماذا كانت هذه الغزوات

٧٢٩ ـ تحويل القبلة وفرض الصوم

٧٣٠ ـ تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة

٧٣٣ – صوم رمضان

٧٣٧ – فرضية زكاة الفطـــــــر

٧٣٩ – يوم الفرقان – بدر العظمى

٧٤٠ – عير قريش راجعة من الشام ٧٤٢ – خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لبدر وجيشه

٧٤٤ – الجيشان

٧٤٧ – جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٥١ – التقاء الجمعين يوم الفرقان ٧٥٥ – القيادة والتنظيم ٧٥٨ – التنظيـــم ٧٦٠ – المعــــركة ٧٦١ – أمران هامان في القتال ٧٦٤ – القتل والأسر ٧٦٤ – نتائج المعركة وأعقابها ٧٦٩ – الأسرى ٧٧٠ – مقتل عُقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ٧٧٤ – بيان الله تعالى لخطأ الأسر ٧٧٧ – الأنفال ٧٧٩ – آثار معركة بدر في المدينة وغيرها ٧٨٢ – النبي صلى الله عليه وسلم وحلف اليهود ٧٨٥ – إخراج المنافقين من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٨٧ – إفساد اليهود بين المسلمين ٧٨٩ – ليسوا سواء ٧٩١ – إثارة الغيرة ٧٩٤ – وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٧٩٥ – ذي القرنين ٨٠٠ – في الفترة بين بدر وأحد ٨٠٤ – المعاقل والدّيات ٨٠٦ – بناء علي بن أبي طالب بفاطمة رضي الله عنها ٨٠٧ – حروب في الفترة بين الغزوتين الكبيرتين ٨٠٨ – غزوة السوّيق ٨٠٩ – غزوة ذي أمر ٨١١ – غزوة الفرع من بحران

٨١٢ – تكشف الوجه اليهودي في بني قينقاع

٨١٤ – موقعة بني قينقاع

٨١٦ – سرية زيد بن حارثة

٨١٨ – كعب بن الأشرف اليهودي

٨٢٠ – النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها

٨٢٤ – غزوة أحد

٨٢٥ – القوة بدل العير ٨٢٧ – لقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم ٨٢٩ – النبي صلى الله عليه وسلم يعد المؤمنين للقتال ٨٣١ – المنافقون

٨٣٣ ــ مقاعد القتال
٨٣٥ ــ الجيشان
٨٣٦ ــ جيش المؤمنين
٨٣٨ ــ المعركة
٨٣٩ ــ ابتداء القتال ٨٤٠ ــ الخسارة الفادحة ــ مقتل حمزة مع المضاء في القتال
٨٤٢ ــ الغنائم القاتلة ٨٤٦ ــ أحد ليست هزيمة للمسلمين ٨٤٧ ــ ثلاثة أمور هامة في أحد ٨٤٩ ــ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا الله عَلَيْهِ
٨٥١ ــ فرحة أبي سفيان بالنصر القريب
٨٥٢ ــ وصف معركة أحد في القرآن
٨٥٦ ــ تمام المعركة
٨٥٦ ــ خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد ثانية ٨٥٩ ــ رحمة النبي القائد صلى الله تعالى عليه وسلم ٨٦٢ ــ العدد والحساب بين بدر وأحد ٨٦٣ ــ العبرة فيما أصاب المسلمين ٨٦٥ ــ دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في أحد
٨٦٦ ــ أعقاب أحد وكشف المنافقين ٨٦٩ ــ اليهود
٨٧١ ــ الأحكام المستفادة مما اتبعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
٨٧٦ ــ صدى أحد وسرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
٨٧٨ ــ سرية لبني أسـد
٨٨٠ ــ يوم الرجيع
٨٨٣ ــ سرية عمر بن أمية ويوم بئر معونة ٨٨٥ ــ بئر معونة ٨٨٧ ــ قصة بئر معونة ٨٩٠ ــ غزوة بني النضير ٨٩١ ــ إجلاؤهم ٨٩٤ ــ أحكام شرعية اقترنت بغزوة بني النضير ٨٩٤ ــ أولاها : منع التخريب
٨٩٨ ــ غنائم بني النضير والحكم العام في الغنائم كلها
٩٠١ ــ تحريم الخمر
٩٠٤ ــ أثر غزوة بني النضير في اليهود
٩٠٥ ــ غزوة ذات الرقاع ٩٠٦ ــ صلاة الخوف ٩٠٩ ــ في ذات الرقاع

٩١١ – النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه ٩١٣ – غزوة بدر الآخرة
٩١٥ – غزوة دومة الجندل ٩١٦ – النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة
٩١٨ – غزوة الخندق ٩١٩ – كيف كانت غزوة الخندق وأسبابها ٩٢٢ – حفر الخندق ٩٢٣ – اقتران حفر الخندق ٩٢٥ – الجوع والطعام ٩٢٧ – اللقاء
٩٣٠ – المنـــافقون ٩٣٢ – حراسة المدينة ٩٣٣ – اســـلام نعيم بن مسعود
٩٣٥ – عين من اليهود حول أطم ٩٣٦ – الجيشان ٩٣٧ – اجتياز الخندق
٩٣٨ – الهجوم على بيوت المؤمنين ٩٤٠ – دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واستجابته ٩٤٣ – نتائج غزوة الخندق ٩٤٤ – غزوة بني قريظة ٩٤٦ – بنو قريظة ٩٤٨ – نزولهم على حكم سعد بن مُعاذ ٩٤٩ – نظرة في الحكم
٩٥١ – أحكام شرعية ٩٥٢ – توزيع الغنائم ٩٥٣ – تنبيهـــات ٩٥٥ – السَّبْي ٩٥٦ – الايماء بالصلاة للضرورة ٩٥٧ – مدة غزوة الخندق

٩٥٨ – زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين زينب

٩٦١ – منع دخول بيوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلممن غير استئذان ٩٦٣ – وجوب الاستئذان عامة

٩٦٥ – غزوة بني لحيان

٩٦٧ – غزوة ذي قرد

٩٦٩ – غزوة بني المصطلق

٩٧١ – إثارة فتنة وإطفاؤها ٩٧٤ – الأسرى والسبايا من بني المصطلق

٩٧٨ – حديث الإفك

٩٧٩ – الافك في كتب السيرة وصحاح السنة

٩٩٠ – الأثر النفسي من علي كرم الله وجهه

٩٩٢ – حد القذف

٩٩٤ – حد اللعـــان

٩٩٦ – حد الزنى

٩٩٩ ــ الحديبية
١٠٠٠ ــ الحديبية وخروج قريش ١٠٠١ ــ المراسلة بين الفريقين ١٠٠٤ ــ غدر وعفو ١٠٠٤ ــ تبادل الرسل مع الرسول الكريم
١٠٠٧ ــ بيعة الرضوان
١٠٠٩ ــ عقد صلح على هدنة
١٠١٠ ــ كتابة الصلح ١٠١١ ــ أبو جندل ١٠١٢ ــ التحلل من الاحرام
١٠١٤ ــ أحكام ثبتت في الحديبية
١٠١٧ ــ تنبيهـــات ١٠١٨ ــ أحكام فقهية أخرى
١٠٢٢ ــ كانت الحديبية فتحاً
١٠٢٦ ــ تنفيذ الصلح
١٠٢٩ ــ هجرة المستضعفين
١٠٣١ ــ سرايا وبعوث
١٠٣٣ ــ سرية عكل وعرينة
١٠٣٦ ــ حد الحرابة
١٠٣٩ ــ رسائل
١٠٤١ ــ إلى خيبر
١٠٤٣ ــ القائد حامل الراية
١٠٤٧ ــ الصلح والغنائم
١٠٤٨ ــ مال حيي بن أخطب ١٠٤٩ ــ الأرض والنخيل ١٠٥١ ــ تقسيم الغلات من خيبر
١٠٥٥ ــ يهود فدك
١٠٥٩ ــ حوادث ذات مغزى في خيبر
١٠٥٩ ــ منها أمر الأسود الراعي ١٠٦٠ ــ إعرابي يرد المغنم ويطلب الجنة

١٠٦٠ ـ مؤمن يتحايل لماله بمكة

١٠٦٤ ـ زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين صفية

١٠٦٦ ـ غدر وسماحة

١٠٦٨ ـ قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين

١٠٧١ ـ وادي القرى

١٠٧٣ ـ صلح تيماء

١٠٧٤ ـ إجلاء عمر لليهود

١٠٧٥ ـ الأحكام الشرعية التي تقررت في خيبر

١٠٧٥ ـ إباحة المزارعة والمساقاة ١٠٧٦ ـ تحريم أكل لحم الحُمُر الإنسية ١٠٧٨ ـ تحريم سباع البهائم ١٠٧٨ ـ تحريم وطء الحبالى من السبايا وغيرهن ١٠٨١ ـ قسمة الغنائم ومالا يقسم منها ودقتها ١٠٨٢ ـ الأمانة واجبة مع الأعداء ١٠٨٣ ـ النبي تفوته الصلاة

١٠٨٦ ـ تحريم المتعة في خيبر

١٠٨٧ ـ حقيقة المتعة ١٠٨٩ ـ نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن المتعة

١٠٩٨ ـ تحريم ربا البيوع

١١٠٠ ـ الحكمة في تحريم البيوع فيها إلا بالمثل ١١٠٢ ـ علة القياس في الأموال الربوية ١١٠٤ ـ تنبيهات

١١٠٦ ـ شرعية الجزية

١١٠٧ ـ تيماء ١١٠٨ ـ صحيفة مكذوبة ١١١٠ ـ الجزية التي كان يأخذها النبي صلى الله عليه وسلم

١١١٢ ـ سرايا بعد خيبر

١١١٢ ـ سرية أبي بكر الصديق إلى فزارة ١١١٣ ـ سرية عمر بن الخطاب ١١١٤ ـ سرية عبد الله بن رواحة إلى يسير اليهودي ١١١٥ ـ سرية بشير بن سعد إلى بني مرة من فدك ١١١٦ ـ سرية أبي حدود إلى الغابة

١١١٩ — عمرة القضاء
١١٢٤ — عمرة القضاء في القرآن
١١٢٥ — حكم شرعي في عمرة القضاء
١١٢٧ — سرية ابن أبي العوجاء السلمي
١١٢٨ — اسلام خالد بن الوليد
١١٣٣ — إسلام عمرو بن العاص
١١٣٧ — سرايا للتعرف في البلاد
١١٣٨ — سرية إلى بني قضاعة
١١٣٩ — غزوة مؤتة
١١٤٤ — نتيجة الغزوة
١١٤٦ — سرية ذات السلاسل
١١٤٨ — سرية أبي عبيدة
١١٤٩ — سرية أبي قتادة
١١٥٠ — انتشار الاسلام في البلاد العربية
١١٥٥ — بعث الرسائل للملوك
١١٥٦ — كتابه إلى هرقل وأثره
١١٥٨ — أثر الكتاب في قلب هرقل
١١٦١ — كتابه إلى كسرى ملك الفرس
١١٦٥ — كتابه إلى النجاشي
١١٦٧ — كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المقوقس
١١٧٠ — كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى
١١٧٢ — الكتاب إلى ملك عمان
١١٧٧ — كتابه عليه الصلاة والسلام إلى أصحاب اليمامة

١١٧٨ — المقصود من الرسالة المحمدية
١١٨٠ — الذمي
١١٨٤ — الفتح المبين
١١٨٥ — نقض قريش لصلح الحديبية
١١٨٩ — ذل الغــــدر
١١٩١ — الاستعداد للفتح
١١٩٤ — خروج الرسول صلى الله عليه وسلم لسفره
١١٩٦ — قريش تتحسس الأخبار
١١٩٨ — التحسس والعباس واسلام أبي سفيــــان
١٢٠٠ — اللقاء في مكة
١٢٠١ — دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ١٢٠٢ — اسلام أبي قحافة
١٢٠٣ — قتال في جوانب من مكة ١٢٠٥ — دخول النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ١٢٠٧ — العفـــــو الكريم الشامل ١٢٠٩ — الأمـــــان العـــام
١٢١١ — الأنصار يتوهمون أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعود إلى المدينة
١٢١٣ — حرمة مكة
١٢١٥ — رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحطم الأوثان
١٢١٨ — بعثة خالد بن الوليد إلى جذيمة
١٢٢٢ — مدة إقامة رسول الله بمكة
١٢٢٣ — أحكام فِقهية شُرعت في الفتح
١٢٢٤ — مكة وما يحرم فيها
١٢٢٧ — دية شبه العمد
١٢٣٠ — الميراث بين المسلم والكافر
١٢٣٢ — الولد للفراش

١٢٣٣ — قطع اليد
١٢٣٤ — المتعة وتحريمها
١٢٣٥ — المبايعة على الإسلام
١٢٣٥ — وقال ابن جرير الطبري
١٢٣٧ — نفقة الزوجة
١٢٣٩ — حكم الهجرة بعد الفتح
١٢٤١ — ملكية أرض مكة
١٢٤٤ — حكم سب النبي صلى الله عليه وسلم
١٢٤٥ — غزوة هوازن
١٢٤٧ — ابتداء المعركة
١٢٤٩ — الانهزام ثم الانتصار
١٢٥٢ — بداية النصر
١٢٥٣ — انتهاء بالهزيمة الساحقة لهوازن ١٢٥٤ — أوطاس
١٢٥٦ — ثمرات المعركة
١٢٥٨ — موجدة الأنصار
١٢٦٠ — الشفاعة في الغنائم بعد توزيعها
١٢٦٣ — أحكام شرعية في غزوة حنين
١٢٦٣ — العارية المضمونة
١٢٦٥ — عطاء المؤلفة قلوبهم من غنيمة هوازن
١٢٦٧ — تبادل الرفق بالحيوان
١٢٦٩ — غزوة الطائف
١٢٧٤ — عود إلى غنائم هوازن
١٢٧٨ — عمرة الجعرانة

١٢٨٠ — قدوم كعب بن زهير
١٢٨٣ — السرايا بعد هوازن
١٢٨٥ — سرية الضحاك بن سفيان ١٢٨٥ — سرية قطبة بن عامر إلى خثعم
١٢٨٦ -- سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة
١٢٨٧ — سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم طيىء
١٢٨٩ — غزوة تبوك
١٢٩١ — الحال عند الغزو
١٢٩٥ — احتياط النبي من المنافقين
١٢٩٨ — المسـير
١٣٠٠ — وصول رسول الله تعالى إلى تبوك وخطبته
١٣٠٣ — نتائج تبوك
١٣٠٤ — كتاب قيصر إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
١٣٠٦ — مصالحته عليه الصلاة والسلام ملك أيلة
١٣٠٨ — سرية خالد إلى أكيدر دومة
١٣١٠ — عودة المسلمين من تبوك
١٣١١ — القائد يرعى جنده أحياء وأمواتاً
١٣١٣ — عصمة الله لنبيه
١٣١٦ — مسجد الضرار
١٣١٨ — الثلاثة الذين خلفوا
١٣٢٢ — العبرة والتربية
١٣٢٤ — سبعة ربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد
١٣٢٧ — الوفـود
١٣٣٠ — وفد مزينة

١٣٣١ — وفد بني تميم
١٣٣٣ — وفد ثقيف
١٣٣٩ — وفد بني عامر
١٣٤١ — وفد عبد القيس
١٣٤٢ — وفد بنيّ حنيفة ١٣٤٤ — وفد طيىء
١٣٤٥ — وفد كِندة
١٣٤٦ — وفد الأشعريين وأهل اليمن
١٣٤٦ — غداً نلْقى الأحبة ... محمداً وحزبه
١٣٤٩ — وفد الأزد
١٣٥١ — وفد بني الحارث بن كعب
١٣٥٣ — وفد همذان
١٣٥٥ — قدوم وفد دوس
١٣٥٨ — قدوم رسول ملوك حجر
١٣٦١ — كتاب آخر لليمن
١٣٦٣ — وفد نجران
١٣٧١ — ما يدل عليه أمر هذا الوفد
١٣٧٢ — الاذعان والايمان
١٣٧٣ — قدوم وفد بني سعد بن بكر
١٣٧٥ — وفد تجيب
١٣٧٧ — وفد بني سعد من قضاعة
١٣٧٩ — وفد فزارة
١٣٨٠ — وفد بهـــــــراء
١٣٨١ — قدوم وفد عذرة

١٣٨٢ — وفد بـــــلى

١٣٨٥ — وفد ذي مرة

١٣٨٦ — وفد خولان

١٣٨٩ — وفد محارب

١٣٩١ — وفد صـــداء

١٣٩٤ — قدوم وفد سلامان

١٣٩٥ — وفد غامد

١٣٩٦ — وفد الأزد

١٣٩٧ — قدوم وائل بن حجر

١٣٩٩ — وفـــــد النخع

١٤٠١ — المغزى من هذه الوفـــود

١٤٠٥ — بعث معاذ بن جبل

١٤١١ — بعث عـــــلي

١٤١٦ — تولية علي قضاء اليمن

١٤٢٠ — بعث الصديق ليكون أمير الحج

١٤٢٧ — تنبيهان لابد منهما

١٤٢٩ — سورة براءة

١٤٣١ — ما اشتملت عليه سورة براءة

١٤٣٥ — غزوة تبوك في سورة براءة

١٤٣٨ — لمز المنافقين في الصدقات وغيرها

١٤٤٠ — جهاد النفاق والكفر

١٤٤٢ — أعذار النفاق

١٤٤٤ — ما بين الإيمان والضعف والنفاق

١٤٤٩ — بعض ما في سورة براءة من حكم وعبر

١٤٥٣ — انتشار الدعوة الإسلامية

١٤٥٦ — الحديبية

١٤٦٠ ــ حجة الوداع

١٤٦١ ــ الخروج لحجة البلاغ وما قام به من مناسك

١٤٦٦ ــ الأماكن التي نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم والأدعية التي ذكرها

١٤٧٠ ــ خطبة الوداع ١٤٧٣ ــ دعاؤه في عرفة

١٤٧٥ ــ العودة إلى المدينة

١٤٧٦ ــ الوداع بعد التمام

١٤٧٩ ــ بعث أسامة بن زيد

١٤٧٩ ــ بعث أسامة إلى أرض فلسطين

١٤٨١ ــ الــــوداع

١٤٨٣ ــ توديعه لابنته

١٤٨٥ ــ إنك ميت وإنهم ميتون

١٤٨٦ ــ صلاة أبي بكر ١٤٨٨ ــ لكل أجل كتاب ١٤٩١ ــ غسل الجثمان الطاهر ودفنه

١٤٩٣ ــ تركة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

١٤٩٥ ــ زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

١٥٠٣ ــ زواجه ببقية نسائه

١٥٠٧ ــ العــــبرة

١٥١٣ ــ أما بعـــد